برهان الدين دلو

مساهمة
في إعادة كتابة التاريخ العربي ــ الإسلامي

ANEP ــ دار الفارابي

الكتاب: مساهمة في إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي
المؤلف: برهان الدين دلو
الغلاف: فارس غصوب
الناشر: * المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشهار (ANEP)
28 طريق أحمد واكد، دالي ابراهيم، الجزائر
الهاتف: 53/ 52 38 37 21 213
الفاكس: 53/ 20 72 36 21 213
* دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107

الطبعة الأولى 1985 ـ لبنان
الطبعة الثانية 2001 ـ الجزائر
ISBN: 9961-903-62-5
Dépôt - légal: 1471-2001

EDITIONS ANEP
28 route Ahmed Ouaked Dely-Ibrahim, Alger-Algérie
Tél: 213 21 37 38 52/53 - Fax: 213 21 36 72 20/53
e-mail: dcpa@anep.com.dz

DAR AL FARABI
(Société Libanaise des Imprimés s.a.l.) Beyrouth - Liban
Tel: (01)301461 – Fax: (01)307775 – P.O.Box: 3181/11
Code Postal: 1107 2130
e-mail: farabi@inco.com.lb

الفصل الأول

علم التاريخ
أهميته ومفاهيمه
المؤرخون العرب ـ الاسلاميون
بين المثالية والموضوعية

أهمية علم التاريخ

تلعب العلوم الفلسفية والاجتماعية التقدمية ـ وعلم التاريخ واحد منها ـ دوراً متعاظم الأهمية في تزويد الناس بنظرية علمية موضوعية ثورية مجربة عن تطور التاريخ والمجتمع، وتمكينهم من النظر إلى التراث العربي ـ الإسلامي في حركته التاريخية واستيعاب هذا التراث بشكل جديد، وتوظيف هذا الاستيعاب الجديد في مجال تحرير الفكر العربي المعاصر من سيطرة التبعية للفكر الاستعماري وللأيديولوجية البورجوازية.

إن تربية الناشئة بروح العلم والديموقراطية والتقدم، وتكوين المواطن الواعي الثوري الصامد والملتزم جانب الجماهير تستدعي نضالاً فكرياً جباراً يستمد مقوماته من حياة جماهيرنا وجماهير العالم، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بتراثنا الفكري السالف وبعناصره التقدمية والديمقراطية بخاصة.

لقد ظلت دراسات تراثنا الفكري العربي ـ الاسلامي بشتى صوره، منذ العصر الوسيط الذي صدر عنه حتى الحقبة الراهنة في عصرنا، ظلت رهن النظريات والمواقف المثالية والميتافيزيقية، أي النظر إلى منجزات التراث في استقلالية مطلقة عن تاريخيتها بمعنى أن هذه النظرة، ظلت قاصرة عن كشف العلاقة الواقعية الموضوعية، غير المباشرة بين القوانين الداخلية لعملية الانجاز الفكري وبين القوانين

العامة لحركة الواقع الاجتماعي. ولذا بقي الفكر العربي الإسلامي تاريخاً ذاتياً سكونياً أو (لا تاريخياً) لقطع صلته بجذوره الاجتماعية أي بتاريخه الحقيقي الموضوعي[1].

ولهذا، فإن كتابة التاريخ العربي ـ الاسلامي من وجهة نظر موضوعية تقدمية، هي أيضاً إحدى جبهات الكفاح في سبيل هدم جميع البنى الفوقية للمجتمع القديم، ومد جسور التواصل بين العناصر التقدمية والديمقراطية من تراثنا القديم ـ وهي العناصر التي ما تزال تحتفظ بضرورة بقائها ـ وبين العناصر التقدمية والديمقراطية من ثقافتنا العصرية.

إن علم التاريخ، ومنه تاريخ العرب يستند في استنتاجاته إلى دراسة كميات هائلة من الحقائق التي جمعتها جهود أجيال كثيرة من العلماء، كما يعتمد على إنجازات في حقول المعرفة المشتركة والمواد التاريخية المساعدة. فالآثار المادية والمكتوبة تحتل المكانة الأساسية بين المصادر التاريخية العديدة. ويقوم علم الآثار والمسكوكات بدراسة المصادر التاريخية المادية كما تقوم علوم المصادر والمخطوطات القديمة وتسجيل التواريخ والمترويولوجيا والجغرافية التاريخية والاتنوغرافيا ـ علم دراسة الشعوب ـ بدراسة المصادر المكتوبة.

مفاهيم التاريخ

إن المسألة الأساسية التي اختلف حولها الفلاسفة وعلماء التاريخ، في الماضي والتي ما تزال موضع خلافهم إلى اليوم، هي النظرة إلى التاريخ والمجتمع وتطورهما. هذه المسألة الكبرى، مسألة أسباب تقدم النوع البشري وحركته التاريخية، هي التي تشكل موضوع ما كان يسمى سابقاً بفلسفة التاريخ أو علم التاريخ اليوم، أي التاريخ الذي لا يكتفي بمعرفة كيف حدثت الأمور، بل يريد معرفة لماذا حدثت الأمور على نحو معين وليس على نحو آخر.

إن لفلسفة التاريخ تاريخها، أعني أن المفكرين الذين كانوا يهتمون في عهود مختلفة بمسألة سبب الحركة التاريخية قد أجابوا بأشكال مختلفة عن هذا السؤال الكبير.

فهناك من تصور أن التاريخ الانساني وجميع مجريات الحياة: «قيام الدول

---

(1) د. حسين مروة: النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ج1 المقدمة ص 5 ـ 6.

وأفعال الحكام، الحروب المدمرة، النصر والهزيمة في الحرب، الغنى والفقر، الأنظمة الاستغلالية الطبقية، الأوبئة، المجاعات، غلاء الأسعار ورخصها... الخ» ظنوها من صنع قوى غيبية، وأن الناس غير قادرين على التأثير بشكل واع على مجرى التاريخ، وأن ما يجري في المجتمع هو شيء مقرر سلفاً بصورة لا مرد لها.

ويرى الفلاسفة والمؤرخون المثاليون أن التطور التاريخي تحدده أعمال (النخبة). من الملوك والقادة والأثرياء. أو هو من عمل الرأي «الرأي يحكم العالم» ـ (ففولتير) يفسر التطور التاريخي بتطور الطبائع (وسوار) يفسره بتطور الأفكار (الرأي) و(أوغستين تييري) بالحالة الاجتماعية. وفي رأي هيغل أن التاريخ ليس سوى تفتح هذا الفكر الكوني (الفكر المطلق) وانبساطه في الزمان، وبمعنى أوضح أن شعباً ما، عندما ينتقل في تطوره من درجة إلى أخرى مرد ذلك أن الفكر المطلق (الكوني) ـ وهذا الشعب ليس الا أداته ـ قد ارتقى إلى مرحلة أعلى في نموه.

ولما كانت مثل هذه التفسيرات لا تعلل أي شيء على الإطلاق فقد وجد هيغل نفسه في ذات الحلقة المفرغة التي وقع فيها علماء الاجتماع والمؤرخون الفرنسيون. فهم يفسرون الوضع الاجتماعي بحالة الأفكار، وحالة الأفكار بالوضع الاجتماعي، وبمعنى آخر ما دامت هذه المسألة ـ الوضع الاجتماعي ـ بدون حل، كان العلم، لا ينفك يدور في حلقة مفرغة ـ بإعلانه أن (ب) سبب (أ) مع تعيينه (أ) كسبب لـ (ب)، وبالمقابل فكل شيء سينجلي عند حل مسألة الوضع الاجتماعي[1].

إن عزل التاريخ عن عوامله الاقتصادية وعن الحركات والثورات الشعبية المرتبطة بهذه العوامل أساساً، يعني النظر إلى التاريخ من جانب واحد. وهذا النظر الأحادي هو الصفة الأولى المميزة للنظرة المثالية في تفسير التاريخ.

وقد استهدف ماركس حل هذه المسألة (أصل الوضع الاجتماعي) عندما صاغ مفهومه المادي للتاريخ.

وخلاصته: أن تطور المجتمع البشري ما هو إلا عملية حتمية طبيعية تاريخية. فالأساس المحدد الذي ترتكز عليه حياة المجتمع هو إنتاج الخيرات المادية الضرورية لهذا المجتمع، فالإنتاج المادي بالذات، لا الوعي هو الذي يحدد تطور المجتمع، وأن الوعي يتطور بجميع أشكاله تبعاً لمستوى تطور الانتاج، وأن جميع الأفكار

(1) بليخانوف: فلسفة التاريخ ص 42 ـ 44.

الحقوقية والدينية والأخلاقية والجمالية والفلسفية وخلافها وما يناسبها من مؤسسات الدولة رهن بمستوى الانتاج[1] وبالتالي، فإن تبدل الأساس الاقتصادي (البناء التحتي)، أو حدوث تغيرات فيه يؤدي إلى تبدل أو تغير في طابع البناء الفوقي أي في طابع المؤسسات السياسية والفكرية. غير أن البناء الفوقي، رغم أنه رهن بالأساس بالبناء التحتي، يؤثر بدوره على البناء الاقتصادي وعلاقات الانتاج، وفي وسعه تسريع أو عرقلة تبديلها[2].

وإذا أراد علم التاريخ أن يكون علماً حقيقياً كان عليه أن لا يقصر تاريخ التطور الاجتماعي على أعمال الملوك وقادة الجيوش وأعمال «الفاتحين» و«مستعبدي» الدول، بل أن يهتم قبل كل شيء بتاريخ منتجي الحوائج المادية، تاريخ الجماهير الكادحة[3].

إن الانتاج الاقتصادي، والبناء الاجتماعي الذي ينتج عنه بالضرورة يؤلفان، في كل عصر تاريخي أساس التاريخ السياسي والفكري لهذا العصر... وبالتالي فكل التاريخ منذ تفسخ نظام المشاعة البدائية وظهور الملكية الخاصة والطبقات، هو تاريخ للصراع الطبقي الذي يشكل القوة الأساسية المحركة للتقدم البشري[4]. وكما أن الانسان يغير الطبيعة بواسطة المعرفة واستخدام قوانينها، فهو أيضاً يحول العلاقات الاجتماعية بفهم حتميتها الداخلية.

وهكذا فإن المنهج المادي التاريخي الماركسي ينظر إلى هذا التاريخ وذاك، نظرة شمولية لا ترى فيه جانباً دون آخر، بل جوانبه كلها، وهو لا يقتصر في تفسير التاريخ على العوامل الاقتصادية والاجتماعية وحدها، كما يتوهم البعض، بل هو ينظر نظرة شمولية في مختلف العوامل المؤثرة في مسار الحركة التاريخية. غير أنه يميز العوالم الاقتصادية والاجتماعية على غيرها باعتبارها العوامل ذات التأثير الحاسم دون سائر العوامل التي تتفاوت درجات تأثيرها بتفاوت الخصائص التاريخية لهذا المجتمع أو ذاك، في هذه المرحلة الزمنية أو تلك، وانسياقاً مع هذه النظرة الشمولية للتاريخ يرفض المنهج التاريخي الماركسي أي تفسير أحادي للتاريخ، وبالتالي فهو يرفض كل

---

(1) جماعة من العلماء السوفيات: عرض اقتصادي تاريخي ج2 ص 110.

(2) ستالين: النظرية الفلسفية العامة لتطور الكون والمجتمع - المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية - ترجمة خالد بكداش ص 33 - 35.

(3) ستالين: المادية الديالكتيكية والمادية والتاريخية: ص74.

(4) المصدر ذاته: ص 95 - 96.

التفسيرات البورجوازية التي تحصر تطور التاريخ بتطور الفكر نفسه بمعزل عن الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتقنية التي خلقته.

تشعب الآراء حول كتابة التاريخ العربي القومي

في عام 1966 أجرت مجلة المعرفة الدمشقية استفتاء حول موضوع كتابة التاريخ العربي القومي، وتلقت إجابات عديدة، أجمع أصحابها تقريباً على توافر المصادر وتنوع المادة التاريخية فيها وضرورة الأخذ بالمنهج العلمي، وتأمين حرية البحث، ووضع التاريخ العربي ضمن الإطار التاريخي العالمي والنظر إليه على أنه تاريخ شعوب وليس تاريخ حكام وتبدل حكومات[1]. ولكن التعارض في الإجابات كان واضحاً في تفسير التاريخ، إذ يرى الاستاذ محمد المبارك أن كل كتابة للتاريخ تتجاهل الاسلام وصيغته الحضارية أو تتجنبه أو تقحم عليه نظرية غريبة عنه، تفسد هذا التاريخ بل تفقده أهم مكاسبه الإنسانية الحضارية[2]. ويرى الأستاذ ياسين الحافظ أن كتابة التاريخ العربي من وجهة نظر تقدمية هي إحدى الجبهات التي ينبغي النضال فيها بغية تهديم البنى الفوقية للمجتمع القديم، وأن الجدلية التاريخية هي الأداة الأكثر علمية في دراسة التاريخ، وأن المؤرخ التقدمي ينبغي أن يركز اهتمامه على التناقض الجدلي في حركة التاريخ وينبغي عليه أن يكتشف الصراع بين القديم والجديد... بين ما ولد وبين ما يموت في كل مرحلة تاريخية، كاشفاً من خلال هذا التناقض الجانب الذي كانت تقف فيه الجماهير، مبيِّناً الطابع النسبي لكل حدث تاريخي... وأنه لا بد للباحث أن ينبذ النزعة القدرية والنزعة الذاتية في دراسة التاريخ، وأن يتوفر الباحثون على اخلاص عميق للحقيقة، وأن يكونوا ممتلكين ناصية الفكر الاجتماعي الحديث مستلهمين آفاقاً تقدمية، ملتزمين جانب الجماهير الشعبية[3].

وفي رأي الأستاذ الخش أن المبادىء التي ينبغي أن يكتب بها التاريخ العربي هي أن ينظر المؤرخ للتاريخ ككل ويفسر أحداثه تفسيراً اجتماعياً قومياً[4]. ويرى الأستاذ

---

(1) وزارة الثقافة والارشاد القومي: سلسلة كتب قومية. (9) كيف تكتب تاريخنا القومي. تحقيق مجلة المعرفة ص 56 ـ 61. ص 190 ـ 192.
(2) المصدر ذاته. ص 219.
(3) المصدر ذاته. ص 87 ـ 88 ـ 84.
(4) المصدر ذاته. ص 212 ـ 219.

العيسمي أن من بين الأهداف لاعادة كتابة التاريخ القومي على أسس جديدة هي تنمية الوعي القومي بين أفراد الأمة واصطفاء الوقائع والأحداث وعرضها بأسلوب علمي سليم بحيث تربط فيها الأسباب بالنتائج[1].

ولما كان الأستاذان الخش والعيسمي عضوين قياديين في حزب البعث العربي الاشتراكي، وحيث أن آراءهما الآنفة الذكر قد تتفق كلياً أو جزئياً ووجهة نظر حزبهما أو ربما تبدو غير كافية لتوضيح رأي الحزب في التفسير القومي للتاريخ أو مخالفة لما هو مثبت في وثيقته التاريخية الهامة «بعض المنطلقات النظرية» التي أقرها الحزب في مؤتمره القومي السادس المنعقد في تشرين الأول (أوكتوبر) 1963 وحدد فيه رأيه بشكل حاسم في عدد من القضايا، ومنها ما يتعلق بتصوره للتاريخ والتطور والنضال الطبقي. لذا نرى من الأفضل العودة إلى تلك المنطلقات لأنها تمثل الرأي الرسمي لحزب البعث العربي الاشتراكي في التفسير القومي للتاريخ.

لقد اعتمد الحزب في وثيقته المنهجية «بعض المنطلقات النظرية» النظرة العلمية الموضوعية للتاريخ وأخذ بفكرة التطور وتبنى موضوعة الصراع الطبقي والثورة الجماهيرية التي تقود إلى وحدة العرب القومية والقضاء على الاستغلال وبناء الاشتراكية.

وتعني النظرة العلمية[2] الاقتصار على الأمور المثبتة سواء أكانت حقيقة عقلية أم حقيقة واقعية وعدم التعرض إلى مسائل ما بعد الطبيعة التي لا يدركها العقل أو إلى أمور وهمية لا وجود لها. وأن تكون غاية البحث العلمي الوصول إلى الحقيقة النسبية (وليس المطلقة) التي يمكن أن تبلغها المعرفة الإنسانية ومعيارها مطابقة المعرفة للواقع وحصول اليقين العقلي والانسجام والاتفاق بين الحقائق جميعاً. فالبحث العلمي يقوم على الاعتقاد بأن العقل الانساني يستطيع إدراك الواقع وأن الكون خاضع لنظام ثابت وأن هذا النظام مطابق لمبادىء العقل ولذلك لا يمكن أن يكون هناك تناقض بين الواقع والمعقول[3] وتعني الموضوعية، النظر إلى التاريخ في إطاره الصحيح كتاريخ للصراع الاجتماعي والطبقي كمجمل متسق ومتكامل لنضال الجماهير في سياق فهم

---

(1) المصدر السابق. ص 212 – 213.

(2) حزب البعث العربي الاشتراكي – القيادة القومية: بعض المنطلقات النظرية ص7.

(3) صليبا وعياد. المنطق وطرائق العلم العامة. نقلاً عن زهير محمد ناجي. تعلم التاريخ – رسالة مقدمة لنيل ماجستير في التربية ص 108.

شمولي للمسيرة التاريخية وتوجهها العام. من ذلك يمكن الاستنتاج بأن النظرة العلمية الموضوعية للتاريخ ترفض المفاهيم الغيبية والمثالية في تفسيرْ أحداث المجتمع والتاريخ.

وأخذ الحزب بفكرة التطور[1] وهو ما يعني النظرة إلى التاريخ، بما فيه التاريخ القومي، كعملية موحد فيها عنصرا الرابطة والاستمرار. كما صنف الحزب الذين يعادون الفكر والعلم والتطور والتسامح ضمن طبقة اعداء الشعب أعداء الجماهير[2].

وتبنى الحزب موضوعة الصراع الطبقي[3] القوة الأساسية المحركة للتقدم البشري والتاريخي. ورفض مفهوم الاشتراكية الاصلاحية التي تدعو للتعاون بين الطبقات (السلم الطبقي). والصراع الطبقي هو نتيجة للتضاد في الوضع الاقتصادي الاجتماعي بين مصالح مختلف الطبقات: أما المصالح الطبقية فيحددها وضع الطبقة المعنية في نظام الانتاج الاجتماعي. وفي نظر الحزب أن المجتمع الذي يقوم على الملكية الخاصة هو مجتمع طبقي استغلالي[4]. إذ أن الاعتراف بالملكية الفردية بشكلها المطلق رغم تضييق نطاقها هو ضرب من المفهوم البورجوازي الصغير؛ لأن المفهوم الاشتراكي العلمي يعتبر العمل الإنساني المصدر الوحيد للقيمة، لذا فإن الملكية الفردية إذا تعدت نطاق الاستعمال الشخصي لا بد أن تكون مستغِلة، مهما كانت الرقعة التي تمارس فيها الملكية نشاطها ضيقة أو نسبة المردود الذي تعطيه منخفضة[5]. ويرى الحزب أن النضال الطبقي يجب أن يعتمد على جماهير العمال والفلاحين (أناس العمل) والمثقفين الثوريين وصغار الكسبة لإسقاط نظام البورجوازية وحلفائها، نظام الاستغلال والظلم الاجتماعي، وبناء الاشتراكية[6]. ولكي تسير الثورة الاشتراكية إلى آخر الشوط لا بد أن تعتمد أساساً على الجماهير الكادحة[7].

واعتماد الثورية، وهي إحدى السمات الأساسية لأيديولوجية حزب البعث العربي

---

(1) بعض المنطلقات النظرية ص 13.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) نفس المصدر والصفحة.
(4) المصدر ذاته. ص 69.
(5) نفس المصدر والصفحة.
(6) المصدر ذاته. ص 73.
(7) نفس المصدر والصفحة.

الاشتراكي ذلك لأن منطلق التفكير القومي الاشتراكي العلمي في التحليل الاجتماعي والاقتصادي هو منطلق جدلي، ينطلق من إقرار وجود تناقض في المجتمع القومي ووجود صراع بين الطبقات يتميز بنزوعه إلى تحقيق هدفين: الوحدة القومية والقضاء على الاستغلال. وإن هذا التناقض لن يحل تلقائياً، ولن ينتهي بالإرادة الطيبة لفئة من المصلحين الخيرين، ولا عن طريق إصلاحات جزئية، وإنما عن طريق وثبة نوعية (لا درجية) تقضي على الأسس الاقتصادية البالية للمجتمع، وعلى البنيانات الأساسية والقانونية والثقافية[1]. وتبنى الحزب النظرة القومية أي أن ينظر المؤرخ للتاريخ العربي ككل ويفسر أحداثه تفسيراً اجتماعياً قومياً على حد تعبير الأستاذ سليمان الخش.

تشكل تصورات حزب البعث العربي الاشتراكي حول التاريخ والتطور والنضال الطبقي والثورية الجماهيرية خطوة متقدمة دون شك في اتجاه تفسير احداث المجتمع والتاريخ. ويمكن لهذه الأفكار أن تتعزز وتأخذ طابعاً أكثر شمولية بمقدار توطيد الاتجاه الديمقراطي الثوري في الحزب ذاته وترسيخ علاقاته مع الجماهير العربية والعالمية ومع جميع القوى التقدمية والديمقراطية على سطح كوكبنا، وجعل مواقفه أكثر ارتباطاً بتلك الأفكار والمنطلقات.

تصورات المؤرخين الاسلاميين للتاريخ

لقد ترك لنا الاخباريون والمؤرخون والرحالة والفقهاء والأدباء العرب ـ الاسلاميون في مؤلفاتهم مادة تاريخية غنية ومتنوعة: سياسية وإدارية ومالية واقتصادية وفكرية واجتماعية، تطلب جمعها أو الوصول إليها والحصول عليها الكثير من الجهد والعناء والصبر والبحث والتدقيق. كل هذا صحيح لا يختلف فيه اثنان. غير أن الغالب على المؤلفات التاريخية للمؤرخين العرب ـ الاسلاميين طابع التاريخ العام للأحداث أو الأشخاص أو البلدان حتى تكاد تكون المؤلفات المتخصصة بينها بتاريخ الظاهرات الفكرية بوجْه عام، أو بظاهرة معينة منها تكاد تكون قليلة.

إن الأحداث أو الحركات أو التيارات الفكرية تظهر في كتابات مؤرخينا بصورة تراكمات «حدثية» منفصلاً بعضها عن بعض أي أنها تراكمات كمية للأحداث أو الأزمان أو الأشخاص أو الحالات، دون النظر إليها ضمن إطار تاريخي محدد، ومن

---

(1) المصدر السابق. ص 19 ـ 21.

ثم تفهمها في تفاعلها الحي وعلاقاتها المتبادلة مع غيرها، أي دون رؤية العلاقات الداخلية التي تنتظمها لتشكل منها ظاهرات عامة، أو رؤية العلاقات الخارجية التي تنفعل بها وتتفاعل معها، أو رؤية التحولات الكيفية لتلك التراكمات الكمية، بل إن كل ما لديهم من رؤية ينحصر في المجرى الظاهري لكل جزء على انفراد أو في الإطار الذي يختاره هذا المؤرخ أو ذاك من زاوية جانبية لا تقترب من الخط الجوهري لمجرى الظاهرات في نشأتها وتطورها وحركة صيرورتها[1].

هذا الأسلوب في النظر إلى حركة النشاط الفكري، هو بالطبع، انعكاس عن أسلوب مؤرخينا في النظر إلى الحركة التاريخية في مجالها الأساسي، أي مجال النشاط الاجتماعي، فإنهم إذا كانوا عاجزين تاريخياً عن الرؤية الواقعية لمسار حركة التاريخ الاجتماعي، وللعوامل الأساسية الحاسمة التي تحدد اتجاهات هذا المسار في هذا المجتمع أو ذاك، فقد كانوا إذاً بالضرورة، عاجزين عن رؤية العلاقات الداخلية بين الأحداث والظاهرات الفكرية نفسها من جهة ثانية[2].

ولكن القول بأن الرؤية العلمية لحركة التاريخ لم يكن قد حان أوانها في عصور مؤرخينا، لا يفسر كل مواقف هؤلاء المؤرخين. إن لبعضهم مواقف لا يكفي ذلك التفسير لها بل يجب أن نضيف إليها أسباباً ذاتية، وأسباباً طبقية وأيديولوجية موضوعية كانت تتحكم بهذه المواقف أيضاً. فليس يصح أن نتجاهل أن كثيراً منهم كان ينطلق في كتابة التاريخ من مواقع السلطة القائمة: إما طمعاً أو خوفاً، أو تأثراً بالتضليلات الايديولوجية الرسمية، أو اندفاعاً تلقائياً بحكم الانتماء الطبقي[3].

وهكذا فإن المؤرخين العرب الاسلاميين، باستثناء عدد قليل منهم كابن خلدون والمقريزي، على الرغم مما أودعوه في ثنايا مؤلفاتهم من معلومات لكثير من المسائل الاجتماعية والفكرية ظلوا سجناء المثالية والغيبية. وذلك لأنهم كانوا يجهلون دور الجماهير وإنتاج الخيرات المادية في تطور المجتمع والتاريخ وأنهم كانوا يجعلون الأحداث التاريخية متوقفة بصورة كاملة على قوى خارقة وعلى قرارات الحكام والقادة، ليس ذلك وحسب، بل كان لمواقف بعضهم ولانتماءاتهم الايديولوجية أثر واضح في تشويه الصورة الواقعية للحدث التاريخي أو الظاهرة الفكرية. وهنا لا بد من إلقاء الضوء على تصورات بعض المؤرخين الاسلاميين للتاريخ.

---

(1) د. حسين مروة: النزعات المادية ج1 ص 67 ـ 68.

(2) المصدر ذاته. ص 68.

(3) المصدر ذاته. ص 68.

مؤرخون مثاليون

البلاذري

مؤرخ وجامع للأخبار عاش في القرن التاسع الميلادي، وتميز بالتحري للروايات واستخلاص مؤداها، صنف مادته التاريخية في كتابه «أنساب الاشراف» على أساس أنساب القبائل وأشراف العرب الذين اضطلعوا بنشر الاسلام. وكان للبلاذري صلات وثيقة بالخلفاء العباسيين ووزرائهم[1]. فقد مدح المأمون، وذكره الصولي في عداد ندماء المتوكل[2]. وتقرب من المتوكل والمستعين والمعتز الذي عهد إليه بتثقيف ابنه عبدالله الشاعر المشهور[3]. مما جعله يلتزم الصمت عن ذكر أحداث الثورة البابكية رغم أنه عاش الثورة في شبابه أو أنه على الأقل تأثر بسخونة القضية التي شغلت خلافة بغداد نحو اثنين وعشرين عاماً. وليس لجانبها الفكري في كتابه «فتوح البلدان» سوى إشارة عابرة يطلق فيها صفة «الكافر الخرمي» على زعيمها بابك. ولعله بصمته عن ذكر أحداث الثورة البابكية ومبادئها الاجتماعية كان يريد الاحتفاظ لنفسه برأي له يخالف الرأي الرسمي، فسكت عنه لئلا يُغْضِبَ من كان يسعى وراء إرضائهم من أصحاب الجاه والسلطان[4]. وإلا فليس من مسوغ لسكوته. ولكن الذي يشفع لهذا المؤرخ أنه ترك لنا معلومات هامة عن أساليب اقطاع الأرض في المناطق التي شملتها الثورة البابكية وصنوف الاضطهاد التي كان يعانيها سكان هذه المناطق وجماهير فلاحيها من أصحاب الاقطاعات ومن ثقل ضرائب السلطة عليهم وقسوة جباتها[5] بحيث يضع أمام القارىء ما يكشف عن الجذور الاجتماعية التي حتمت انفجار هذه الثورة. وبالإضافة إلى ذلك فإن البلاذري في كتابه «فتوح البلدان» لا يقتصر على الحوادث السياسية والعسكرية، بل يتناول جميع المعلومات الهامة عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة في البلدان التي فتحها العرب.

---

(1) عبد الستار فراج: مقدمة انساب الاشراف ص 14.

(2) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ج5 ص 90.

(3) المصدر ذاته. ص 89.

(4) عبد الستار فراج: المصدر السابق ص 30.

(5) البلاذري: فتوح البلدان ص 314 ـ 330.

الطبري المتوفي 301هـ ـ 923م: عَلم بارز في التاريخ الإسلامي وفي التفسير على الرغم مما أخذ على منهجه من ضمور النقد وتأثره بالنظرة الدينية وضيق دائرة التاريخ العالمي وحصره بالأمور السياسية والإدارية والقضايا الداخلية للدولة بخاصة.

انطلق الطبري في كتابه (تاريخ الرسل والملوك) من منطلقات مثالية نخبوية. فهو يتصور التاريخ تعبيراً للمشيئة الإلهية وذلك بمنحى تحقيق الرسالات النبوية، التي تنتهي بالرسالة المحمدية، ليحل محلها تاريخ الصحابة والتابعين[1] يؤيد ذلك قول الطبري: «إن الله جل جلاله وتقدست أسماؤه خلق خلقه من غير ضرورة كانت إلى خلقهم... ذلك لأنه خالق الدهر والأزمان». ويواصل الطبري قوله: «وأنا ذاكر في كتابي هذا من ملوك كل زمان من لدن أبتدأ ربنا جل جلاله خلق خلقه إلى حال فنائهم، من انتهى إلينا خبره ممن أبتدأه الله تعالى بآلائه ونعمه فشكر نعمه، من رسول له مرسل، أو ملك مسلَّط، أو خليفة مستخلف... ومن كفر منهم نعمه فسلبه ما ابتدأه به من نعمة وعجّل له نقمه. مقروناً ذكر كل من أنا ذاكره منهم في كتابي هذا بذكر نعمائه وجمل ما كان من حوادث الأمور في عصره وأيامه... ثم أنا متّبع آخر ذلك كله ـ إن شاء الله وأيد منه بعون وقوة ـ ذكر صحابة نبينا محمد ﷺ وأسمائهم وكناهم ومبالغ أنسابهم وأعمارهم ووقت وفاة كل إنسان منهم والموضع الذي كانت به وفاته. ثم متبعهم ذكر من كان بعدهم من التابعين بإحسان... ثم ملحق بهم ذكر من كان بعدهم من الخلف لهم كذلك[2].

لقد ظل الطبري في تصوراته مجانباً للمشكلة الأساسية في الدراسة الاجتماعية. فلا نقع في تاريخه الآنف الذكر على نظرية في المجتمع والتاريخ تطرح رأيه فيها طرحاً يمس المشكلة على نحو عميق علمياً[3]. والمعلومات الكثيرة التي توافرت في تاريخه هي أشبه بمادة خام لم يقصد مؤلفها أن تتعرض للنقد أو حتى إلى مجرد التعميم مما يكن في كتابي هذا ـ يقول الطبري ـ من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه. من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أُتي من قبل بعض

---

(1) د. طيب تيزيني من التراث إلى الثورة، طبعة ثالثة، ج1، ص 81.
(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج1، ص2 ـ 5.
(3) د. طيب تيزيني مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط ص 389.

ناقليه إلينا، وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا». وينعت الطبري الجماهير التي كانت تناضل ضد الظلم والأستغلال والاضطهاد والتمييز في سبيل التغيير والتقدم لصالح الإنسان بـ «الرعاع» وحثالة القوم «السفلة»[1]. وعندما يتحدث عن الانتفاضة الفلاحية في منطقة البصرة عام 75هـ واشتراك الخوارج فيها لمناصرة بسطاء الناس على مظالم الحجاج وأعماله التعسفية، يسرد أحداثها على نحو متحيز لأعداء الخوارج ومشوه لموقفهم[2]. في حين كتب في مكان آخر من تاريخه عن علاقة الخوارج وموقفهم من المستضعفين والمظلومين شيئاً آخر يناقض ما رواه عنهم سابقاً: «ثم أصبح يوم الأربعاء، فجاء أهل البتّ، في قرى النهروان من نواحي بغداد، إلى شبيب بن يزيد الخارجي، وكان قد نزل ببيعتهم، فقالوا: أصلحك الله، أنت ترحم الضعفاء، وأهل الجزية، ويكلمك من تلي عليه، ويشكون إليك ما نزل بهم فتنظر لهم، وتكف عنهم، وإن هؤلاء القوم جبابرة (يقصد الحجاج وحكام بني أمية) لا يكلمون ولا يقبلون العذر، والله لئن بلغهم أنك مقيم في بيعتنا ليقتلننا أن قضى لك أن ترتحل عنا، فإن رأيت فانزل جانب القرية ولا تجعل لهم علينا مقالاً، قال: فإني أفعل ذلك بكم، ثم خرج فنزل جانب القرية»[3].

وقد فصل الطبري في أحداث الثورة البابكية وخصها بحوالي أربعين صفحة من تاريخه وشهد للثوار بحسن معاملتهم للأسرى من النساء والأولاد وغيرهم[4]. ولكنه ينضم جزئياً إلى المتحاملين على الثورة البابكية وايديولوجيتها حين ينعت زعيمها بابك بـ «الكافر»[5].

إن عجز الطبري عن الرؤية الواقعية لمسار حركة التاريخ الاجتماعية، وجهله دور الجماهير وانتاج الخيرات المادية في تطور المجتمع والتاريخ لا يفسر كل مواقفه من الحركات الفكرية والانتفاضات الشعبية. «فهو كان يذهب إلى مخالفة أهل الاعتزال في جميع ما خالفوا فيه الجماعة من السلف في مسألة القول بالقدر، أي حرية الارادة الإنسانية والفعل الإنساني، وخلق القرآن». «وكان أبو جعفر يزعم أن ما في العالم من

---

(1) الطبري: المصدر ذاته. ج5، ص 490.
(2) المصدر ذاته. ج5، ص46.
(3) المصدر ذاته. ج5، ص80.
(4) المصدر ذاته. ج7، ص259.
(5) المصدر ذاته. ج7، ص230.

أفعال العباد فخلق الله». «وهو يعتقد أن ما أخطأه ما كان ليصيبه، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن جميع ما في العالم لا يكون إلا بمشيئة الله»[1].

ولعل معتقدات الطبري المثالية والميتافيزيقية هذه قد أسهمت ليس فقط في مجانبته لحركة التاريخ العربي ـ الإسلامي الداخلية الجوهرية، بل وفي دفعه لأن يتخذ مواقف معينة أو متحيزة لأعداء الحركات الفكرية والثورات الشعبية والآراء التي دعت إليها. ومع ذلك فـ «تاريخ الطبري»، يظل حتى يومنا هذا أحد المصادر الهامة لدراسة نشأة الخلافة وتاريخها في القرن السابع حتى القرن التاسع الميلادي وسجلاً وثائقياً للأحداث التي عاصرها الطبري، وصورة واقعية للحرف والصناعات والفرق الفكرية في المجتمع العربي ـ الإسلامي.

أما **المسعودي، المتوفي 346هـ/ 956م**، فقد صنَّف مادته التاريخية في كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» على أساس من تسلسل الملوك والخلفاء والقادة، بالرغم مما أودعه، إلى جانب ذلك، في ثنايا مؤلفه من معلومات متنوعة اجتماعية واقتصادية وفكرية وفنية عن بلدان الخلافة، فضلاً عن ثقافة الأقطار التي كان لها علاقات اقتصادية وسياسية مع الدولة العربية.

وكذلك انطلق **ابن مسكويه المتوفي 421هـ/ 1030م**، من منطلقات مثالية. فهو يرى في التاريخ العام، والتاريخ العربي ـ الاسلامي من ضمنه ـ تجسيداً لقيم أخلاقية إسلامية معينة. ومع ذلك، فقد ترك لنا في كتابه «تجارب الأمم» مادة تاريخية جيدة، ولا سيما فيما يتعلق ويتصل بالحياة الاجتماعية والاقتصادية في الدولة العباسية.

وانطلق **أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي** مؤرخ الفلسفة المثالي، من الاطار الديني العام في دراسته لمذاهب الفرق الاسلامية، وذلك بمعزل عن الأرضية الاجتماعية ـ الاقتصادية والسياسية التي خلقتها. وجعل محور دراسته الدفاع عن أفكار السلف النصية الاستسلامية، ولذلك تجده في كتابه «الفرق بين الفرق» يصف الآراء المخالفة بـ «البدع»، ويشهِّر بزعماء أهل البدع، من المعتزلة، حيث كان معظم مفكريهم وأكثرهم تمسكاً بقضايا العقل وحرية الانسان من الموالي أي من فئات المجتمع العربي ـ الاسلامي التي كانت تعاني من الحكام صنوف المظالم والمذلة

---

(1) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج18، ص82.

والاضطهاد ـ ويقول عنهم، «وما ظهرت البدع والضلالات في الأديان إلا من أبناء السبايا»[1].

لقد وقف أبو منصور البغدادي موقفاً عدائياً من جميع الجوانب التقدمية والديمقراطية في مذاهب القدرية والمعتزلة والخوارج والاسماعيلية أو الباطنية. فالحركة الجماهيرية الفلاحية البابكية ـ التي دعت إلى الغاء ملكية الأرض وتوزيعها، مجاناً وبالقسط، على المحتاجين إليها وتحرير المرأة من عبوديتها ومنحها أهم ما للرجل من حقوق ـ هي حركة إباحية في نظر البغدادي الذي قال عنها: «فالبابكية اتباع بابك الخزمي الذي ظهر في جبل البدين بناحية أذربيجان وكثر بها اتباعه واستباحوا المحرمات وقتلوا الكثير من المسلمين[2]. ويتابع ما ينقل من غيره دون تدقيق ولا تحقيق:

«إن للبابكية في جبلهم ليلة عيد لهم يجتمعون فيها على الخمر والزمر ويختلط فيها رجالهم ونساؤهم، فإذا أطفئت سرجهم ونيرانهم، افتض فيها الرجال النساء على تقدير من عزّ بزّ[3]». ثم ينقل عن رسالة تُعزى كذباً إلى بعض الاسماعيلية تجد فيها من التهم القبيحة والأقوال الفظيعة الموجهة إلى الاسماعيلية ما لو صح جزء منها لكانت الاسماعيلية من أحط الناس أدباً وأخس من عرفهم التاريخ.

فقد جاء عنهم في تلك الرسالة أنهم: (ملحدون دهريون أباحيون يستحلون المحرمات)[4]. وذكر أبو منصور البغدادي، أن صاحب الرسالة المذكورة قال فيها: (وما العجب من شيء كالعجب من رجل يدعي العقل ثم يكون له أخت أو بنت حسناء وليست له زوجة في حسنها فيحرمها على نفسه وينكحها من أجنبي، ولو عقل الجاهل لعلم أنه أحق بأخته أو ابنته من الأجنبي[5]. وذكر أبو منصور أيضاً: (أنهم قد أباحوا لاتباعهم نكاح البنات والأخوات وأباحوا شرب الخمر وجميع اللذات. ويؤكد ذلك أن الغلام الذي ظهر منهم في البحرين والاحساء، بعد سليمان بن الحسين القرمطي، سنَّ لاتباعه اللواط وأوجب قتل الغلام الذي يمتنع على من يريد

---

(1) توفي البغدادي عام 429هـ 1037م. الفرق بين الفرق ص 101.
(2) نفس المصدر ص 251.
(3) نفس المصدر ص 252.
(4) نفس المصدر ص 280 ـ 282.
(5) نفس المصدر ص 281.

الفجور به[1]. ويتابع أبو منصور كيل التهم للاسماعيلية قائلاً: (إن ضرر الاسماعيلية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس بل أعظم من مضرة الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليها، بل أعظم من ضرر الدجّال الذي يظهر في آخر الزمان... لأن فضائح الباطنية أكثر من عدد الرمل والقطر[2].

وجدير بالملاحظة، أن الاسماعيلية أو الباطنية، التي يعاديها أبو منصور البغدادي، حركة فكرية سياسية سرية تؤمن بالعقل، وكانت تعمل على نزع السلطة من بني العباس والقضاء على نظامهم الاجتماعي الطبقي، وإقامة دولة جديدة لا طبقات فيها ولا استغلال أو تمييز، بل عدل اجتماعي وأخاء حقيقي بين جميع الناس على مختلف قومياتهم وطبقاتهم الاجتماعية وأديانهم، وتحقيق المساواة بين الرجل والمرأة في الحياة العائلية والمجتمعية.

تخرَّج أبو منصور البغدادي في علم أصول الدين على الطريقة الأشعرية[3]. وكان خط أبي الحسن الأشعري الوعاء النظري الكبير الذي احتوى مطامح الاتجاه الاجتماعي الاقطاعي القائمة على تأطير الواقع والفكر ضمن أغلفة النصية والاستسلامية واللاسببية في الطبيعة والمجتمع واللاتطور.

وأثبت أبو منصور البغدادي، الأمين المنفذ لأفكار شيخه أبي الحسن الأشعري، أنه العدو الألدّ لحرية الارادة والفعل الانساني والمنهج العقلي ولجميع الأفكار التقدمية المعادية لأيديولوجية السلطة الممثِّلة لمصالح الطبقة الاقطاعية، وكذا أيضاً للانتفاضات الفلاحية والحركات الشعبية التي تفجرت ضد الظلم والاضطهاد والقمع والتمييز في سبيل تغيير الحياة لصالح الانسان في العدل الاجتماعي والمساواة الحقيقية والكرامة.

والخلاصة: إن ما يجمع بين المؤرخين العرب الاسلاميين الذين سبق ذكرهم هو كونهم انطلقوا في تصورهم للتاريخ من رؤوس ومفاهيم مثالية وغيبية، فابتعدوا بذلك عن الحركة التاريخية الحقيقية.

---

(1) المصدر السابق، ص 270.

(2) نفس المصدر، ص 255.

(3) محمد زاهد الكوثري: مقدمة الفرق بين الفرق ص 7.

مؤرخون موضوعيون

حقق علم التاريخ عند العرب قفزة نوعية على يد ابن خلدون والمقريزي. فهذان، الأول في مقدمته، والثاني في «إغاثة الأمة بكشف الغمة» طرحا قضية التاريخ من خلال رؤية تاريخية جديدة مخالفة للسابقة عليها مخالفة جوهرية. إنهما ينطلقان في محاولتهما لفهم التاريخ الانساني، من تحليل اجتماعي واقتصادي له[1]. فكلاهما أخذ بالنظرة العلمية الموضوعية وبمبدأ السببية وتنكر للجبرية الاستسلامية. وكلاهما اعتمد الأسس المادية وركز دراسته على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية ذات التأثير الحاسم في تطور المجتمع والتاريخ، وحاولا جادين كشف القانونية الموضوعية للتطور الاجتماعي والتاريخي. فالتاريخ في نظرهما ليس نتاجاً لقوى خارقة، ولا يخطو على أساس أهواء ذاتية للملوك والحكام والقادة، بل حسب ضرورة موضوعية.

والموضوعية في كتابة التاريخ، تعني أن يقدَّم التاريخ في إطاره الصحيح، الواقعي، كتاريخ للصراع الاجتماعي والطبقي كمجمل متسق ومتكامل لنضالات الجماهير في سياق فهم شمولي للمسيرة التاريخية وتوجهها العام.

ابن خلدون

عاش ابن خلدون[2]، في القرن الرابع عشر، في مجتمع عربي مغربي كانت تمزقه أزمات سياسية واجتماعية واقتصادية - (منازعات متشابكة ودموية بين أُسَرِهِ الاقطاعية والمرتزقة والكتائب المسيحية الاسبانية. تدهور الانتاج البضاعي والاقتصادي والتجاري. توظيف الأرباح التجارية في شراء الأراضي واستغلالها وتحول التاجر شيئاً فشيئاً إلى ملاك أراضٍ اقطاعي. توطُد الاقطاع وقيام أشكال من التابعية القنية. خراب جماهير الفلاحين والحرفيين. تأخر الثقافة) - وقد وصف ابن خلدون هذه الحالة التعسة التي تردَّى فيها المغرب، حيث نزل الطاعون عام 1348م قائلاً: (هذا إلى ما

---

(1) د. طيب تيزيني: المصدر السابق ص 133.

(2) ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (1332 - 1406): مؤرخ وفيلسوف اجتماعي. أشهر مصنفاته: كتاب «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» و«المقدمة» التي اشتملت على فصول في أصول العمران والنظريات الاجتماعية والسياسية، وتصنيف العلوم وغير ذلك مما جعله مؤسساً لفلسفة التاريخ وعلم الاجتماع.

نزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف هذه المئة الثامنة للهجرة، من الطاعون الجارف الذي تحيَّف الأمم وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلالها وفلَّ من حدِّها وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر، فخربت الامصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار، وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن)[1].

في هذا العالم المتخبط في الأزمات، وفي هذا المجتمع الاقطاعي، كان على ابن خلدون أن يظهر ويعيش. وقد تمكَّن بطاقته الفكرية الموسوعية الخلاقة وملاحظته المرهفة النافذة وبخبرته السياسية والدبلوماسية التي مكنته من الوقوف على خفايا تكوين الحكومات وسيرها، أن يبدع نتاجاً عبقرياً ويتوصل إلى تحقيق انجازات متقدمة في علم العمران وفلسفة التاريخ.

لقد طرح ابن خلدون في مقدمته، ولأول مرة بالنسبة إلى المؤرخين العرب الاسلاميين الذين سبقوه، طرح معالم نظرية علمية موضوعية. فالتاريخ، حسب تصوره، علم موضوعه الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم. وإن التطور التاريخي مرهون، بشكل حاسم، بتطور أسلوب المعاش الانساني وإن الصراعات الاجتماعية والطبقية هي من طبيعة العمران. ومن منطق هذه الصراعات أن يسيطر بعض الناس على البعض الآخر، وعن هذه السيطرة ينشأ الملك وتنشأ الدولة. وأنه ينبغي على علم التاريخ ألا يقصر تاريخ التطور الاجتماعي على أعمال الملوك والحكام وقادة الجيوش، بل أن يهتم قبل كل شيء بمنتجي الحوائج المادية، أناس العمل الذين يصنعون التاريخ.

تصور ابن خلدون أن عناصر المجتمع ليست ساكنة وإنما هي في حركة دائمة، في تحول جدلي (ديالكتيكي) دائم تحت تأثير عوامل التناقض الكامنة فيها: «ومن الغلط الخفي في التاريخ، الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الاعصار ومرور الأيام وهو داء دويّ وشديد الخفاء، إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة، فلا يكاد يفطن له الا الآحاد من أهل الخليقة[2]». ويقول أيضاً: «ذلك أن

---

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 33.

(2) المصدر ذاته. ص 28.

أحوال العالم والأمم وعوائدهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال»[1].

ويقرر ابن خلدون أن الظواهر الاجتماعية تخضع لقوانين على درجة من الثبات والدوام تحتم التتالي للحوادث ضمن بيئات محددة، ويذهب إلى أن هذه القوانين تنصب على التطور الاقتصادي والاجتماعي في كل مجتمع، ذلك التطور الذي يضم في حناياه الأسباب المؤدية لازدهاره أو لاضمحلاله[2]. أي أن التطور يبحث على ضوء عملية الانتاج ووسائل الحصول على القوت «إن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش»[3].

ويرى ابن خلدون أن الصراعات الاجتماعية والطبقية هي من طبيعة عمران العالم، أي ضرورية فيه لأنه الاجتماع الانساني، ومن منطق هذه الصراعات أن يسيطر بعض الناس على البعض الآخر، وعن هذه السيطرة ينشأ الملك وتنشأ الدولة: «أعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول. وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش»[4]. وهكذا توصل ابن خلدون إلى كشف جديد آخر وهو قانون النضال الطبقي الذي يؤلف القوة الأساسية المحركة للتقدم البشري والتاريخي.

إن حركة التاريخ، في نظر ابن خلدون هي عملية جدلية مستمرة متصاعدة. وإن أسلوب المعاش الانساني، أو أسلوب انتاج الخيرات المادية، يشكل الحلقة الرئيسية فيها. والتاريخ حسب مفهومه، يسير وفق ضرورة موضوعية، وليس على أساس أهواء إنسانية ذاتية لأمراء أو لقوى خارقة.

ويصل ابن خلدون قمة انجازاته حين يقرر، ولو بصورة غير واضحة، «إن صانعي التاريخ هم أناس العمل»... إن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية... (فالمفاد المقتني منه قيمة عمله وهو القصد بالقنية، إذ ليس هناك الا العمل[5]. أي أنه لا بد

(1) المصدرالسابق، ص 28.

(2) ايف لاكوست: ابن خلدون. ص55 _ 56.

(3) ابن خلدون: المقدمة ص 120.

(4) المصدر ذاته. ص 35.

(5) المصدر ذاته. ص 380 _ 381.

للعمل الانساني من حيث هو مصدر أساسي وحيد للكسب الحياتي المعاشي وعلى أن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية.

لقد اعتمد ابن خلدون طريقة في البحث تقوم على النقد التاريخي وتسلح بمبدأ السببية. إنه لم يكتف باكتشاف الأسباب المباشرة أو الظاهرة للوقائع، بل وجه التاريخ نحو اكتشاف العلل البعيدة.

لقد كان من الأوائل الذين لم يقفوا عند التاريخ للملوك والأشراف والقادة، بل تجاوز ذلك إلى التدليل على الدور الحاسم الذي تقوم به العوامل الاقتصادية والاجتماعية في التطور التاريخي. وبالطبع، إن هذه الرؤية لا تهمل الجوانب الأخرى التي يمكن أن تمارس دوراً محركاً معيناً في تطور المجتمع والتاريخ.

إنه يقول عن كتابه: «وسلكت في تبويبه وترتيبه مسلكاً عجيباً، وطريقة مبتدعة، وشرحت فيه من أحوال العمران والمدن، وما يعرض في الاجتماع الانساني من الأعراض الذاتية ما يمتعك بعلل الكوائن وأسبابها، وكيف دخل أهل الدول من أبوابها حتى تنزع عن التقليد يدك، وتقف على أحوال ما قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك»[1]. ثم يذكر عن منهجه: «داخلاً من باب الأسباب على العموم إلى الأخبار على الخصوص، فاستوعب أخبار الخليقة استيعاباً... وأعطى لحوادث الدول عللاً وأسباباً»[1].

وهو حين يتكلم عن ظاهر التاريخ وباطنه، يظهر لنا رائداً مجلياً وعالماً عملاقاً في فلسفة التاريخ: «إنهم أي المؤرخون ـ الذين يكتفون بسرد الحوادث ـ يجلبون الأخبار عن الدول، وحكايات الوقائع في العصور الأُوَل، صوراً قد تجردت من موادها، وصفاحاً انتضيت من أغمادها»[2]. ويقول في مكان آخر، بعد أن تكلم عن ظاهر التاريخ: «وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق...»[3]. ويقول أيضاً: «إن المؤرخين إذا تعرضوا لذكر الدولة نسقوا أخبارها نسقاً محافظين على نقلها وهماً أو صدقاً. لا يتعرضون لبدايتها، ولا

---

(1) المصدر السابق. ص 6.
(2) المصدر ذاته. ص 7.
(3) المصدر ذاته. ص 5.
(4) المصدر ذاته. ص 4.

يذكرون السبب الذي رفع من رايتها وأظهر من آيتها، ولا علة الوقوف عند غايتها، فيبقى الناظر متطلعاً بعد إلى افتقاد أحوال مبادىء الدول ومراتبها، مفتشاً عن أسباب تزاحمها أو تعاقبها»[1]. فتوجهات ابن خلدون في كتابة التاريخ تنطلق من دراسة الحركة التاريخية في جوهرها، وتتركز حول الدوافع الأساسية المحركة للتطور الاجتماعي، وتتبع الحدث التاريخي أو الظاهرة الاجتماعية والسياسية بنشوئها وتطورها وحركة صيرورتها، وترمي إلى كشف قوانين التطور الاجتماعي والتاريخي.

وللمنهج التاريخي عند ابن خلدون قواعد، تأتي في مقدمتها قاعدة «السببية». والسببية تلعب في ذلك دوراً مبدئياً في الافصاح عن مهمة علم المجتمع (علم العمران) والتاريخ. فالوقائع في نظره يرتبط بعضها ببعض ارتباط العلة بالمعلول: «إن كل حادث من الحوادث ذاتاً كان أو فعلاً لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض من أحواله»[2]. والسببية، حسب تصوره، هي السبيل الصحيح لتمييز الصواب من الخطأ «إن العلل الرئيسة في الخطأ تنشأ عن التعصب للآراء، والجهل، والتزلف للسلطة، والجهل بطبائع الأحوال في العمران» الخ...[3].

هكذا، حدد ابن خلدون في مجمل تصوراته في علم العمران وفلسفة التاريخ معالم منهج وطريقة في البحث تتميز بالدور الذي تقوم به فيها بعض المعطيات الجدلية. فهو لا يعتبر الكون كتراكم عضوي للأشياء، بل يرى فيه تجمعاً متناسقاً، تتسبب فيه الحوادث بعضها عن بعض... إننا إذ نبين ذلك عن طريقة ابن خلدون، يسهل لدينا مثلاً تفسير الطابع الموسوعي للمقدمة فنراها تضم معلومات فلكية ووصفاً جغرافياً للعالم، وسياسة وبحثاً في الاقتصاد، وتصنيفاً عقلانياً للعلوم، وتربية وعلماً للبلاغة والخطابة... ومعلومات عن الكيمياء والطب والجبر والزراعة وفن العمارة وتجميل المدن، وعلم الجمال والحُقوق والشريعة والفن العَسكري.

لقد رتبت هذه المواد المختلفة بطريقة منطقية تبعاً لتصور تركيبي يساعد على تقديم تفسير علمي للأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية[4]. وعلى سبيل

---

(1) ابن خلدون، المقدمة. ص 5.
(2) المصدر ذاته، ص 35 ـ 36.
(3) المصدر ذاته.
(4) ايف لاكوست: المصدر ذاته، ص52 ـ 53.

المثال، خصص الباب السادس من «المقدمة» للبحث في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه، وسائر وجوهه، وما يعرض في ذلك كله من الأحوال. وهو يستعرض هنا تاريخ الحركة الفكرية لدى العرب المسلمين، ويسعى إلى الكشف عن العلاقة الموضوعية بين العلوم والآداب من جهة، والتطور الاجتماعي من جهة أخرى. وقد أوضح أن التربية ظاهرة اجتماعية، وأن التعليم يتطور مع تطور العمران، أي بتطور أسلوب المعاش الانساني.

هذا الجانب العلمي التقدمي في «المقدمة» من التراث الخلدوني، والذي يشكل أساساً مكيناً تقوم عليه نظريته في تطور المجتمع والتاريخ، هو الذي دفع الإستعماريين ومنظريهم في العصور الحديثة، إلى تطويق هذا الفكر، إلى اعتقاله وسجنه في زنزانة، يحرسها الحقد والتعصب على عطاء عربي حضاري إنساني تقدمي، ويلفها صمت مريب عن الأسباب الحقيقية لعظمة هذا العملاق العظيم من عمالقة الحضارة العربية.

وإذا كانت معتقدات ابن خلدون الاقطاعية ومنها نظرته المثالية للعالم، وضعت حداً لشمول منهجه فإن ذلك لا يقلل من الدور الرائد والأهمية البالغة للجوانب العلمية الثورية التقدمية من فكره، التي كانت ولا تزال إلى اليوم تحتفظ بطابعها.

ومنذ أن ظهرت ملامح الفكر المادي في أوروبا القرن التاسع عشر، أخذ الاهتمام يتزايد بالتراث الخلدوني المعطاء. وبهذا الصدد بعث مكسيم غوركي إلى المفكر الروسي انوتشين برسالة في 21 أيلول (سبتمبر) 1912، جاء فيها: «... إنك تنبئنا بأن ابن خلدون، في القرن الرابع عشر، كان أول من أظهر دور العوامل الاقتصادية وعلاقات الانتاج. إن هذا النبأ قد أحدث وقع خبر مثير»(1). وكتب انوتشين: «اهتم لينين اهتماماً شديداً بمؤلف الفيلسوف العربي ابن خلدون ـ «المقدمة» ـ الذي يتناول دور العوامل الاقتصادية»(2).

وفي صدد تقويم الجوانب التقدمية في فكر ابن خلدون، كتب الدكتور طيب تيزيني: «إن ابن خلدون في «مقدمته» يمثل حلقة جوهرية في تاريخ علم الاجتماع والتاريخ. ومحاولة بعثه مجدداً في حياتنا الفكرية على نحو خلاّق تقتضي توحيد

(1) لينين وغوركي: رسائل وذكريات ووثائق. نقلاً عن تيزيني، طيب: مشروع رؤية ص 396.
(2) د. طيب تيزيني: المصدر ذاته. ص 396.

الجوانب العلمية الثورية في فكره مع الشكل الأكثر تطوراً وتقدماً من أشكال علم الاجتماع والتاريخ المعاصر»[1].

المقريزي يؤكد على الدور الحاسم للعوامل الاقتصادية والاجتماعية في تطور المجتمع: كابن خلدون في «مقدمته»، حاول المقريزي[2] في كتابه «إغاثة الأمة بكشف الغمة» أو تاريخ المجاعات في مصر، كشف القوانين المحركة لتطور المجتمع والتاريخ آخذاً بمبدأ السببية، متنكراً لمبدأ الجبرية الاستسلامية، ومعتمداً الأسس المادية في تفسير الظاهرات الاجتماعية. وفي هذه النقطة يلتقي المقريزي باستاذه ابن خلدون، فالضائقات الاقتصادية - الاجتماعية ليست شيئاً مقرَّراً من قوة خارقة، كما أنها ليست ناجمة عن الطبيعة دون أن يكون للإنسان نصيب بها، بل هي ظاهرات مادية اجتماعية، لم تلازم الناس دائماً، ولكنها تقع عندما تجتمع أسبابها ودواعيها، وتنقطع عندما تزول تلك المسببات والدواعي. إن كل شيء يتطور: «وبعد فإنه لما طال أمر هذا البلاء المبين، وحل فيه بالخلق أنواع العذاب المهين، ظن كثير من الناس أن هذه المحن لم يكن فيما مضى مثلها، ولا مرَّ في زمن شبهها. وتجاوزوا الحد فقالوا لا يمكن زوالهاولا يكون أبداً عن الخلق انفصالها، فذلك أنهم قوم لا يفقهون وبأسباب الحوادث جاهلون... ومن تأمل هذا الحادث (يقصد البلاء والمجاعات والغلاء) من بدايته إلى نهايته، وعرفه من أوله إلى غايته، علم أن ما بالناس سوى سوء تدبير الزعماء والحكام، وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد»[3].

والمقريزي أحد المؤرخين والمفكرين البارزين في التاريخ العربي الإسلامي الوسيط، الذين ساهموا في اغناء البحوث الاجتماعية وتطويرها. عاش المقريزي (1362 - 1442)م في مصر المملوكية، في فترة تاريخية اتصفت بتدعم الاقطاع، والاضطرابات السياسية والضائقات الاقتصادية والهزات الاجتماعية، اختل في أثنائها الأمن، وكثرت الفتن، وسيطر الجهل، وعم الفقر، واستشرى استغلال الجماهير، وساد الظلم، وكثرت الاعتداءات على حريات الناس وأموالهم، وهجر الريف سكانه،

---

(1) - المصدر السابق. ص 396 - 7.

(2) المقريزي: مؤرخ ومفكر بارز. أشهر مصنفاته المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، والسلوك لمعرفة دول الملوك، اتعاظ الحنفاء باخبار الخلفاء. وكتاب «إغاثة الأمة بكشف الغمة». توفي عام 845هـ/1442م).

(3) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة ص 4.

وكسدت التجارة، وتدهورت الصناعة والزراعة، وازدادت الضائقات الاقتصادية وتعددت المجاعات وعظمت فواجعها[1].

وكان المقريزي قد تولى كثيراً من الوظائف العامة ولا سيما الحسبة في القاهرة، فاكتسب خبرة واسعة وتعرف بصورة أفضل على بواطن الأمور. وكان المقريزي يحب جماهير شعبه وينطوي صدره على نفس كريمة إنسانية آلمها ما تعانيه الجماهير من صنوف المآسي والعذاب والويلات والمحن فقرر أن يوظف فكره في خدمتها ويرشدها إلى الأسباب التي انتهت بها إلى الأوضاع المزرية والمفجعة حتى تتلمس الطريق الصحيحة لتأمن الوقوع مجدداً في أمثال تلك المحن. وإذا انتقل إلى تعداد الأسباب حصرها في ثلاثة:

1 ـ **بالآفات الطبيعية**: قصور النيل أو فيضانه، والجفاف الذي تتعرض له بلاد الشام والعراق والحجاز، وهبوب الرياح الحارة والعواصف الرملية، أو جراد يأكل الزرع، أو وباء يحصد الناس، وما شابه ذلك: (ثم وقع الغلاء في الدولة الأيوبية[2] وسلطنة العادل أبي بكر[3] في سنة 596هـ/ 1199م. وكان سببه (أي سبب الغلاء) توقف النيل عن الزيادة وقصوره عن العادة. فتكاثر مجيء الناس من القرى إلى القاهرة من الجوع ودخل فصل الربيع، فهب هواء أعقبه وباء وفناء، وعدم القوت حتى أكل الناس صغار بين آدم من الجوع. فكان الأب يأكل ابنه مشوياً ومطبوخاً، والمرأة تأكل ولدها . . . ووجدت لحوم الأطفال بالأسواق والطرقات مع الرجال والنساء مختفية. ثم تزايد الأمر حتى صار غذاء الكثير من الناس لحوم بني آدم بحيث الفوه. وقل منعهم منه لعدم القوت من جميع الحبوب وسائر الخضروات وكل ما تنبته الأرض)[4].

---

(1) المصدر السابق. ص 12، 23.

(2) الدولة الأيوبية (1171 ـ 1250م) خلفت الفاطمية. أسسها الناصر صلاح الدين ـ وامتدت سلطتها على مصر والشام وغربي الجزيرة العربية. وحد صلاح الدين جبهة المقاومة والتصدي العربية للغزو الصليبي، ونجح في تحرير بيت المقدس وأغلب المناطق المحتلة في بلاد الشام ـ اعتمد الأيوبيون في قوتهم العسكرية على الجيوش المرتزقة من الأرقاء المستجلبين، وتوسع في عهدهم الاقطاع العسكري وازدهرت التجارة الخارجية وخاصة العابرة منها.

(3) الملك العادل سيف الدين (1199 ـ 1218م) أخو صلاح الدين. احد سلاطين الدولة الأيوبية. ملك مصر وضم إليها سورية وأرمينية ـ واليمن. قسم ملكه بين أولاده. وتوفي بدمشق.

(4) المقريزي: المصدر السابق 28 ـ 29 وانظر السلوك لمعرفة دول الملك 1 ـ 1 ص157.

إن العوامل الطبيعية، دون شك، كانت وما تزال مبعثاً للعديد من المشاكل والمآسي والكوارث الاجتماعية والاقتصادية على سطح كوكبنا، ولكن حجم الفواجع وأبعادها وآثارها على حياة الناس ومعايشهم يختلف من بلد لآخر حسب ظروف العمران ونوع النظام الاجتماعي ومدى استخدام منجزات العلم والتكنولوجيا في تطوير الزراعة وأعمال الري، وبما تتخذه الحكومة التي يهمها أمر مواطنيها من تدابير حازمة ومساعي صادقة من شأنها أن تخفف من المآسي وتحد من مداها وآثارها. فقد تتلافى المجاعة بما تهيئه السلطة من قمح مخزن احتياطاً للطوارىء، أو استيراد المواد الغذائية ومعاقبة المحتكرين لقوت الشعب وتحديد الأسعار وهي أمور كلها كانت ممكنة في مصر الأخشيدية والفاطمية والأيوبية والمملوكية إذا صحت الارادة وصدقت العزيمة. يؤيد ذلك ما أورده المقريزي من بعض الأمثلة منها: (وقع غلاء بمصر في آخر أيام الدولة الأخشيدية[1] فلما دخل جوهر الصقلي بعسكر المعز لدين الله الفاطمي، نظر في أمر الأسعار فضرب جماعة من الطحانين، وطيف بهم، وجمع سماسرة الغلات بمكان واحد، وتقرّر ألاّ تُباع الغلات الا هناك فقط، ولم يجعل لمكان البيع غير طريق واحد. فكان لا يخرج قدح قمح الا ويقف عليه سليمان بن عزة المحتسب)[2]. وقد سهل هذا التدبير على بساطته شيئاً من ضائقة الناس وخفف عنهم كثيراً من مآسي الفاقة.

وفي عام 398هـ/ 1007م، بلغت زيادة النيل أربعة عشر ذراعاً ونيفاً، فعظم الأمر على الناس، ونال الجوع منهم، فاندفعوا إلى الحاكم بأمر الله[3] الفاطمي يستغيثون به، ويسألونه ألا يهمل أمرهم. فعزم على اتخاذ الحزم، بعد طول الغفلة، فهدد من يخفي الغلال قائلاً: (أنا ماضٍ إلى جامع راشدة فاقسم بالله لئن عدت فوجدت في الطريق موطئاً يطأه حماري مكشوفاً من الغلة لأضربن رقبة كل من يقال لي إن عنده شيئاً منها ولأحرقن داره وانهبن ماله. فلما عاد في آخر النهار لم يبق أحد من أهل مصر والقاهرة وعنده غلة حتى حملها من مستودعه أو منزله وشوَّنها في

---

(1) الدولة الأخشيدية 935 ـ 965م أسسها محمد بن طغج. وفي أيامها الأخيرة ساءت الأحوال السياسية في مصر مع تكرار القحط والمجاعات مما سهل عملية احتلالها من قبل الفاطميين.

(2) المقريزي: المصدر السابق ص110 ـ 14.

(3) الحاكم بأمر الله سادس الخلفاء الفاطميين. عادت المجاعات إلى الظهور في عهده. واتخذ هذا الخليفة سلسلة من التدابير للتخفيف من ويلاتها.

الطرقات، وبلغت أجرة الحمار في حمل النقلة الواحدة ديناراً فامتلأت عيون الناس، وشبعت نفوسهم، وأمر الحاكم بما يحتاج إليه في كل يوم... فانحل السعر وارتفع الضرر)[1]. كما عمل على تثبيت الأسعار وذلك بمنع تذبذب العملة، وسعر مختلف أنواع السلع، واستدعى الحسن بن الهيثم للافادة من خبرته في هندسة الري لانشاء السدود على نهر النيل لتأمين المياه الضرورية للزراعة.

ووقع غلاء شنيع في أيام المستنصر[2]. وكان سببه قصور النيل، وعدم من يزرع ما شمله الري، وضعف السلطنة واختلال أحوال المملكة واستيلاء الأمراء على الدولة واتصال الفتن بين العربان. فنزع السعر، وتزايد الغلاء، وأعقبه الوباء، وعدم الزارعون، واختل الأمن، وانتشر الجوع حتى أُكِلَتْ الكلاب والقطط، وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضاً. ومن غريب ما وقع أن امرأة اضطرت إلى بيع عقدها الثمين بشيء من الدقيق، ولم يُبق لها النهَّابة منه غير ملء يديها. ثم عجنته وشوته وصار قرصاً، فأتت قصر السلطان وخطبت في الناس قائلة:

(يا أهل القاهرة! ادعوا لمولانا المستنصر، الذي أسعد الله الناس بأيامه، وأعاد عليهم بركات حسن نظره حتى تقوم عليَّ هذا القرص بألف دينار، تقصد الثمن الذي كانت اشترت به العقد. فلما اتصل بالسلطان الخبر امتعض له، وحرَّك منه مما جعله يتنبه إلى خطورة الأمر، ويأخذ بالحزم. فما أن ضرب عنق واحد من المحتكرين واتبعه بآخر، حتى قام إليه الحاضرون من تجار الحبوب والطحانين والخبازين وقالوا: في بعض ما جرى كفاية، ونحن نخرج الغلة، وندير الطواحين، ونغمر الأسواق بالخبز ونرخص الأسعار على الناس فأجابهم بعد الضراعة. ووفوا بالشرط وانكشفت الشدة عن الناس وفرجت الكربة)[3].

فالآفات الطبيعية لم تكن وحدها، في نظر المقريزي، سبباً للمجاعات والشدة التي حلت بالناس. بل هناك فساد الحكام، واحتكار القوت، وتلاعب المحتكرين به،

---

(1) المقريزي: المصدر السابق ص 16 ـ 17.

(2) المستنصر بالله (1036 ـ 1094) ثامن خليفة فاطمي. حدثت في عهده عدة مجاعات أكبرها المجاعة التي عرفت «بالشدة المستنصرية» والتي استمرت سبع سنين 1065 ـ 1071 وزاد من حدة المجاعة انتشار الأوبئة. قيل إنه مات منها مليون وستمائة وخمسون ألف شخص أي حوالي ثلث أهل مصر. ونقص عدد القرى في عهده، فنزلت الجند الأرض لزرعها لعدم وجود الفلاحين.

(3) المقريزي: المصدر السابق ص 23 ـ 26.

ومساهمة الدولة نفسها باحتكار المواد الغذائية، ومنع الناس من الوصول إليها إلا بأغلى الأثمان.

وكان السلطان والأمراء تجاراً يريدون الثروة. واحتكار قوت الناس أكبر معين على الوصول إليه.

فقد كان المستنصر يشتري في كل سنة بمائة ألف دينار غلة، ويخزنها ويتاجر فيها ويبيعها بالسعر الذي يريد[1].

وإذاً، كان هناك سوء تدبير، واستثمار بشع، وتقاعس عن الاهتمام بمصالح الناس، وضعف في الإدارة وهي أمور ربما تفوق بشرورها الآفات الطبيعية. يؤيد ذلك إرجاع المقريزي سبب الغلاء إلى أحد أمرين: الأول فساد نظر من أسند إليه النظر في ذلك، وجهله بسياسة الأمور وهو الأكثر في الغالب. والثاني الجائحة التي أصابت ذلك الشيء حتى قل... وهذا يسير بالنسبة إلى الأول)[2].

2 ـ **الأسباب السياسية والإدارية**: وتتمثل بسوء تدبير الحكام وتهالكهم في جمع المال وعدم اهتمامهم بشؤون الرعية وتنازع أمراء المماليك على السلطة، وتلزيم المناصب الإدارية الكبرى بالمال. ذلك أن الحكم في مصر المملوكية كان بيد البيروقراطية وخاصة العسكرية المنغلقة والمنعزلة عن الحياة الأهلية والتي كانت تعيش من التطفل المباشر على النشاط الاقتصادي دون أن تلعب دوراً إيجابياً فيه. ورغم أن جيوش المماليك، استطاعت أن تهزم المغول وتطرد الصليبيين من بلاد الشام، فإن جشعهم المادي الذي لا يعرف حدوداً ولا مبادىء، جعلهم يلجأون إلى بيع الوظائف وشرائها، بما فيها المناصب العسكرية والإدارية والقضائية والدينية أو تمنح مقابل هدايا كبيرة للسلطان ومكافآت للأجناد. وقد أفضى النظام المملوكي، الذي كانت قاعدته العامة التنازع بالعنف المسلح، إلى إضعاف الطبقة الحاكمة وسقوطها لاحقاً، وأوشك أن يؤدي إلى تدمير المجتمع المصري والقضاء على قواه المنتجة بسبب المجاعات والأوبئة.

يقول المقريزي: وأصل هذا الفساد، ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة، كالوزارة والقضاء ونيابة الأقاليم وولاية الحسبة وسائر الأعمال، بحيث لا

---

(1) د. ماجد عبد المنعم: خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ص 365.

(2) المقريزي: المصدر السابق ص 84 ـ 85.

يمكن التوصل إلى شيء منها الا بالمال الجزيل، فتخطى لأجل ذلك كل جاهل ومفسد وظالم وباغ إلى ما لم يكن يؤمله من الأعمال الجليلة والولايات العظيمة، لتوصله بإحدى حواشي السلطان، ووعده بمال للسلطان على ما يريده من الأعمال. . . ولا جرم أنه يغمض عينيه ولا يبالي بما أخذ من أنواع المال ولا عليه بما يتلفه في مقابل ذلك من الأنفس، ولا بما يريقه من الدماء، ولا بما يسترقه من الحرائر، ويحتاج إلى أن يقرر على حواشيه وأعوانه ضرائب، ويتعجل منهم أموالاً، فيمدون هم أيضاً أيديهم إلى أموال الرعايا، ويشرئبون لأخذها لا يعفون ولا يكفون. . . فلما ذهل أهل الريف بكثرة المغارم وتنوع المظالم، اختلت أحوالهم، وتمزقوا كل ممزق، وجلوا عن أوطانهم، فقلّت مجابي البلاد ومتحصلها، لقلة ما يزرع بها، ولخلو أهلها ورحيلهم عنها لشدة الوطأة من الولاة عليهم، وعلى من بقي منهم. . . وانسحب الأمر في ولاية الأعمال بالرشوة إلى أن مات الظاهر برقوق[1]. فحدث لموته اختلاف بين أهل الدولة آل إلى تنازع وحروب. وتزايدت غباوة أهل الدولة، واعرضوا عن مصالح العباد، وانهمكوا في اللذات لتحق عليهم كلمة العذاب[2].

في هذا النص، يبيِّن المقريزي أن السلطة لم تكن في خدمة الشعب والطبقات الفقيرة المسحوقة منه بخاصة، وإنما لصالح الاقطاعيين والتجار والبيروقراطية. ويشكل تصور المقريزي عن وجود ارتباط بين السلطة السياسية ورجال التجارة وأصحاب الأطيان فكرة هامة حتى الحد الأقصى في عصره[3]. أي أن الدولة، في المجتمع الطبقي، جهاز في خدمة مصالح الطبقة السائدة اقتصادياً.

وكان السلطان والأمراء يحتكرون قوت الشعب، ويشتدون في استثمار الشغيلة دون رحمة. وكثيراً ما يرى المماليك في أوقات معينة يستولون بالعنف المسلح على

---

(1) الظاهر برقوق: أحد سلاطين المماليك الشراكسة (البرجية) 1382 بمصر. فتح دمشق وانتصر على جيش تيمورلنك في سيواس. وفي عهده، اشتدت الأزمة النقدية حدة بسبب الاكثار من ضرب الفلوس النحاسية (تضخم نقدي) حتى صارت هي النقد الغالب في البلد مما أثر في تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية.

(2) المقريزي: المصدر السابق ص43 ـ 5.

(3) د. طيب تيزيني: المصدر السابق ص401.

السلع الغذائية، وعلى أموال الموتى وممتلكاتهم أثناء المجاعات والأوبئة. واشترك السلاطين في عمليات النهب السافرة هذه[1].

وقد مكن النظام المملوكي جهاز الدولة من أن يعتصر الكادحين المنتجين المباشرين للخيرات المادية إلى أقصى درجات الاعتصار. وهكذا تجمعت ثروات طائلة في أيدي المماليك وسلاطينهم. كانوا ينفقونها في حياة الترف والمتعة واقتناء الحلي والمجوهرات والأثاث الفاخر والملابس الثمينة. في الوقت الذي كانت الجماهير الشعبية تعاني الضيق والويلات والمحن من الجوع والغلاء والوباء.

3 ـ **الأسباب الاجتماعية ـ الاقتصادية:** أكد المقريزي في كتابه (إغاثة الأمة بكشف الغمة) على أهمية العوامل الاجتماعية ـ الاقتصادية، وميزها عن غيرها باعتبارها تلعب الدور الحاسم في تحديد معالم التطور الاجتماعي أو الضائقات والأزمات الاقتصادية والاجتماعية. ولو أراد المقريزي مرضاة أو محاباة السلطة وحلفائها الطبقيين من أصحاب الأطيان والتجار لكان بإمكانه أن يرجع المجاعات والغلاء التي عاناها ويعانيها شعبه إلى قوة خارقة خارجة عن إرادة الانسان، أو إلى أسباب طبيعية، لا حول للجماهير معها ولا قوة، مما يدفعها إلى الخضوع والاستسلام، ويصرفها عن الأسباب الحقيقية والتي حصرها في ثلاثة هي: سوء تدبير الحكام، وزيادة الأعباء على الفلاحين، ورواج الفلوس النحاسية، أي بطبيعة النظام الاقطاعي الاستغلالي والدور المخرب للتجار المحتكرين وتعسف السلطة وتهالك البيروقراطية على جمع المال بشتى السبل واكتناز الثروة على حساب بؤس الجماهير ومعاناتها.

وهكذا فإن المقريزي قد عارض كلا الشكلين من الجبرية الغيبية والجبرية الطبيعية بتأكيده على الدور الحاسم للعوامل الاجتماعية والاقتصادية في تطور المجتمع. وبهذا وضع المقريزي بصماته على مفتاح القانونية الموضوعية للتطور الاجتماعي. يقول المقريزي: وذلك أن قوماً ترقوا في خدم الأمراء، يتولفون إليهم بما جبوا من الأموال إلى أن استولوا على أحوالهم، فاحبوا مزيد القربة منهم، ولا وسيلة أقرب إليهم من المال، فتعدوا إلى الأراضي الجارية في إقطاعات الأمراء واحضروا مستأجريها من الفلاحين، وزادوا في مقادير الأجر فثقلت لذلك متحصلات مواليهم من الأمراء،

---

(1) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي ص 451.

فجعلوا الزيادة ديدنهم كل عام. وعظمت نكاية الولاة والعمال، واشتدت وطأتهم على أهل الفلح، وكثرت المغارم في عمل الجسور (يقصد تسخير الفلاحين في العمل لإقامة الجسور العامة والخاصة) وغيرها. وكانت الغلة التي تستحصل من ذلك عظيمة القدر زائدة الثمن على أرباب الزراعة، سيما في الأرض منذ كثرت هذه المظالم... ومع أن الغلال معظمها لأهل الدولة وأولي الجاه وأرباب السيوف، الذين تزايدت في اللذات رغبتهم وعظمت في احتجار أسباب الرفه نهمتهم، استمر السعر مرتفعاً لا يكاد يرجىء انحطاطه[1].

في هذا النص إشارات واضحة وعميقة على التحالف الوثيق بين السلطة وأصحاب الأطيان (ملاك الأراضي العقارية) في استغلال شغيلة الريف عن طريق الرفع المستمر لبدلات ايجار الأراضي التي يملكها الأمراء الاقطاعيون ويعمل فيها الفلاحون كمستأجرين وعن طريق تسخيرهم في العمل على إنشاء الجسور العامة والخاصة وغيرها. وهكذا كان الرفع المستمر لبدلات إيجار الأراضي والسخرة شكلين مرهقين لاستغلال الفلاحين.

وفي المدن الكبرى، كان العمال والحرفيون الكادحون يقعون تحت المظالم الشديدة من الحكام الذين أصبحوا يفرضون على الطوائف الحرفية والمهنية (الأصناف) قيوداً وأنواعاً من الضرائب والرسوم الثقيلة على يد المحتسب. إلى جانب ذلك، كانت هذه الفئات العاملة وغيرها من كادحي المدن تعاني من ويلات المجاعة والغلاء والوباء. ويذكر المقريزي أنه وقع في أيام المستنصر بالله ما سمي بـ (الشدة العظمى أو الغلاء الكبير) وهي مجاعة رهيبة دامت سبع سنين، واشتد الغلاء حتى بلغ سعر الرغيف في مدينة الفسطاط خمسة عشر ديناراً[2]، وبيعت البيضة بعشرة دراهم[3]. وصحب المجاعة والغلاء وباء (طاعون) كان يموت منه يومياً بين ألف وثمانية وعشرين ألف شخص، ففني ثلث أهل مصر وثلثا سكان مدينة الفسطاط[4]. ومات في الطاعون الأسود عام 1348 ـ 1349 ما يقرب من مليون مصري. وفي النهاية انخفض عدد سكان مصر إلى مليونين ونصف مليون بعد أن كان ثمانية ملايين. وهكذا

---

(1) المقريزي: المصدر السابق ص 45 ـ 46.
(2) المصدر ذاته ص 23.
(3) د. راشد البراوي: حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ص 94.
(4) ابن اياس: بدائع الزهور ج1 ص 61 ـ البراوي: المصدر السابق ص 95.

كانت المجاعات والأوبئة تحصد المصريين وخاصة الفقراء منهم بسبب سوء التغذية وعدم ارتقاء الطب الوقائي وقلة الخدمات الصحية.

واستطراداً فقد كتب المقريزي دراسة اقتصادية وسياسية علمية موضوعية عن المجاعات، قدم عنها سبباً أولاً في فساد الحكم وسوء تدبير الحكام وجشعهم في جمع المال. وسبباً ثانياً في زيادة الأعباء على الفلاحين. ثم قال والسبب الثالث: رواج الفلوس النحاسية.

كان المقريزي أول كاتب عربي انتبه إلى أثر النقد في الحياة الاقتصادية والاجتماعية وأول من أرجع أسباب بعض الهزات الاقتصادية والمجاعات واضطراب الأسعار إلى عامل النقد. وإذا تجاوزنا بعض الشوائب في نظرية النقد التي طرحها المقريزي، ومنها أخذه «بصنيمة»[1] النقد، فإن الانجازات الهامة التي توصل إليها في هذا المجال تشكل اسهاماً في وضع أسس النظرية الكمية في النقد.

لقد وجد معظم الحكام الأيوبيين والمماليك في تزييف النقد وتصعيد التضخم وسيلة لنهب الجماهير وزيادة اعتصارها بطريقة غير مباشرة. وقد استحوذ ملوك مصر وأمراؤها وأغنياؤها من التجار وغيرهم على كميات كبيرة من الذهب والفضة والجواهر والعملة، ولكنهم لم ينظروا إليها كوسيلة لتوسيع الانتاج وتجديده، بل كوسيلة لحياة الترف والمتعة ومظاهر الجاه وحماية مواقعهم السياسية. وهنا يكمن السبب الأساسي للأزمة النقدية المتزايدة حدة وخاصة في العصر الأيوبي - المملوكي والتي لعبت دوراً خطيراً في انهيار الاقتصاد المصري، إذ ضيقت النشاط الانتاجي عامة والحرفي والتجاري الداخلي خاصة[2].

ومنذ أواخر القرن الثاني عشر وبداية الثالث عشر، أصبحت العملات ذات العيار المنخفض تحل محل الجيدة، وأخذت النقود الذهبية تتراجع أمام الفضية ومن ثَمَّ الفلوس النحاسية التي غدت النقد الرائج الغالب، فدهى الناس بسبب ذلك داهية أذهبت المال، وأوجبت قلة الأقوات[3].

---

(1) الاعتماد بأن كل شيء يُشترى بالذهب.. فيبدو هذا في عيون الناس على أنه خاصة النقد الطبيعية، خاصة الذهب الطبيعية، ومن هنا كانت ضرورته للمجتمعات، ولهذا عرفته منذ قديم الزمن كما تصور المقريزي خطأ.

(2) أحمد صادق سعد: المصدر السابق ص 433.

(3) المقريزي: المصدر السابق ص 72.

لقد انتهى المقريزي إلى النتيجة الأولى البسيطة عندما ارجع ارتفاع الأسعار الشديد إلى الزيادة الكبيرة في كمية النقد المتداول ورواج الفلوس النحاسية بخاصة.

وعندما تذمر أهالي مصر في مجاعاتهم الأخيرة من ارتفاع الأسعار وغلاء المبيعات وقيم الأعمال، ونجمت عن ذلك ضائقات اقتصادية وهزات اجتماعية عنيفة، لم يكن ارتفاع الأسعار السبب الرئيسي في ذلك، بل كان الارتفاع نتيجة لسبب آخر هو كثرة النقد المتداول، ورواج الفلوس النحاسية بخاصة، وإذن ليس بالناس غلاء وإنما نزل بهم سوء التدبير من الحكام، نتيجة استثمارهم وتلاعبهم بنقدهم، وضربهم الفلوس بكثرة إلى درجة صارت من أجله النقد الغالب في البلد[1].

ولما كانت السلطة تعيش في شبه عزلة عن الشعب وأصبح ضعفها وعجزها يدفعها إلى التماس المال من أيسر الطرق وأسرعها، أخذت توالي هجومها على أموال الناس. فسوَّل بعض العمال لأرباب الدولة حب الفائدة وضمن ضرب الفلوس بمال قوره[2]. . . .

وأخذت دور الضرب بالاكثار من الفلوس وأصبح كل درهم يساوي 24 فلساً بدلاً من 48 فلساً، فاضطربت أحوال الناس وثقل الأمر عليهم، ولم يلبثوا أن اذعنوا للأمر بعد أن فقد كل فرد نصف ثروته[3].

ثم اشتدت وطأة الاستثمار في عهد السلطان كتبغا[4] ووزيره فخر الدين عمر بن عبد العزيز الخليلي، وكثرت المظالم، وجارت حاشية السلطان ومماليكه على الناس، وطمعوا في أخذ الأموال والبراطيل والحمايات، وتوالى ضرب الفلوس حتى راجت وغلبت على غيرها. واستمر انهيار قيمتها وارتفاع أسعار البضائع. فنودي في سنة خمس وتسعين وستمائة أن توزن بالميزان، وأصبح رطلها وزناً يساوي درهماً قيمة. وكان هذا أول ما عرف بمصر من وزن الفلوس والمعاملة بها وزناً لا عدداً[5].

ولما كانت أيام الظاهر برقوق، وتولى محمد بن علي الاستدار[6] أمر الأموال

(1) المصدر السابق: ص 80 ـ 84.
(2) المصدر ذاته. ص 70.
(3) نفس المصدر والصفحة.
(4) السلطان كتبغا 1294 ـ 1296م أحد سلاطين المماليك البحرية.
(5) المقريزي: المصدر السابق ص 71.
(6) الاستدار: كلمة فارسية الأصل، وكان يطلق هذا الاسم على كبير موظفي القصر السلطاني المملوكي. ومن مهام الاستدار الاشراف على البيوت السلطانية كلها، وله حق تأديب خدم السلطان وجلب ما تحتاجه البيوت السلطانية. وكانت الاستدارية من الوظائف الكبرى في عهد الفاطميين.

السلطانية، شَرِه إلى الفوائد وتحصيل الأموال، فكان مما أحدث الزيادة الكبيرة من الفلوس، وضمن دار الضرب بالقاهرة بمبلغ من المال، واتخذ بالاسكندرية دار ضرب لعمل الفلوس، فكثرت الفلوس بأيدي الناس كثرة بالغة، وراجت رواجاً صارت من أجله هي النقد الغالب في البلد[1].

وكان من الطبيعي أن يؤدي الاكثار من الفلوس إلى تضخم نقدي. وهذا بدوره يقود إلى ارتفاع أثمان السلع بصورة عامة، ويؤدي هذا الارتفاع إلى انخفاض أجور الشغيلة الفعلية وبالتالي إلى هبوط قوتهم الشرائية.

إن المستفيد من التضخم وارتفاع الأسعار هو الدولة والتجار والمتصرفون بالأراضي الواسعة وأصحاب الصنائع وأرباب المهن. والمتضررون منه هم: العمال الزراعيون والفلاحون المعدمون وصغار الموظفين والأجراء والفعلة ورجال الفكر والخدم وأهل الخصاصة والمسكنة والكثير من أجناد الحلقة، فهؤلاء جميعاً قد ساءت أحوالهم وعظم بؤسهم وهلك معظمهم.

لقد استطاع ابن خلدون في «مقدمته» والمقريزي من بعده في «إغاثة الأمة» من بناء صرح عميق للفكر الاجتماعي العلمي. وبالطبع، لن نكون مخلصين لفكر ذينك العلمين الكبيرين، يقول الدكتور طيب تيزيني، الا من خلال توحيدهما، على نحو جدلي علمي بمعطيات العلم الاجتماعي المعاصر الأكثر تطوراً[2].

إن مهمة التاريخ دراسة وعي الناس في الماضي والحاضر بهدف فهم المرحلة الراهنة وآفاق التطور اللاحق. وبذلك فهو يسهم في تعبئة الجماهير وتنظيمها في متابعة العمليات التاريخية.

إن التاريخ علم جماهيري ثوري، لأنه يدرس تطور المجتمع البشري، تاريخ الجماعات، جماهير الشغيلة، أناس العمل صانعي التاريخ، القوة الحاسمة التي غيَّرت وجه المجتمع في الماضي وتغيره اليوم في اتجاه التقدم الاجتماعي والديمقراطية والاشتراكية وتوطيد السلام العادل في العالم.

---

(1) المقريزي، المصدر السابق، ص 71.

(2) د. طيب تيزيني: المصدر السابق ص 484.

الفصل الثاني

المقدمات الاجتماعية ـ الاقتصادية لظهور الاسلام

التقسيم الاجتماعي لعمل القبائل

عاش العرب، قبل الاسلام، في موطنهم شبه الجزيرة حياة قبلية تحكمها علاقات بطريركية ـ عشائرية.

وانقسمت القبائل حسب نوع العمل، باستثناء سكان اليمن المتحضرين، إلى ثلاثة أقسام هي:

أ ـ قبائل بدوية متجولة في المناطق السهبية الصحراوية، عاشت على تربية المواشي ولا سيما الإبل.

ب ـ قبائل فلاحية مستقرة في الواحات والقرى الجبلية مارست الزراعة.

جـ ـ قبائل نصف فلاحية أو نصف متجولة، اعتمدت في حياتها على الزراعة وتربية الحيوان. وهي تمثل مرحلة انتقال من حياة التجوال والرعي إلى حالة الاستقرار والزراعة وهي حالة أعلى من سابقتها.

وينبغي القول أن الطبيعة هي التي حددت التقسيم المشار إليه لعمل القبائل. غير أن سكان شبه الجزيرة لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام التبعية للطبيعة، ففي فترة الجاهلية الأخيرة، بدأت تظهر أشكال من ممارسة السيطرة، ببطء وبحدود نسبية، على الامكانات الكامنة في الموقع الجغرافي لبلادهم وفي خصائصها المناخية وقواها الطبيعية. وإن ممارسة العمل للحد من التبعية المطلقة لعوامل الطبيعة لم تنحصر فقط بأهل اليمن، الذين سبقوا غيرهم من عرب الجزيرة وكدسوا تجارب غنية في هذا الإتجاه، وإنما وجدت بالفعل في سائر مناطق شبه الجزيرة.

التوجهات الاقتصادية ـ الاجتماعية والثقافية والسياسية والايديولوجية إلى وحدة العرب

لفترة الجاهلية الأخيرة خصوصيتها المميزة، من حيث منحى التوجهات الاقتصادية ـ الاجتماعية والسياسية والثقافية والايديولوجية إلى الوحدة. فقد تطورت القوى المنتجة وازداد الانتاج الزراعي وتكون فائض للتبادل. وحدث تقسيم جديد للعمل، فانفصلت الحرفة عن الزراعة، وارتبط الانتاج الصناعي بسوق التبادل، ونمت المدن، واستغل الموقع الجغرافي لشبه الجزيرة وبلاد الحجاز بخاصة، إلى مورد خدمات متنوعة وتبادلات تجارية توفر الظروف لخلق العمل الانتاجي، ونظمت الأسواق الموسمية العامة ورتبت أوقاتها مع الأشهر الحرم، وعقدت الاتفاقات التجارية بين أمراء العرب وبين هؤلاء والعالم الخارجي، ونشطت التجارة الداخلية والخارجية. وقد أدى نشاط التجارة واتساع عمليات التبادل في نشر التعامل النقدي داخل المجتمع القبلي مما سرَّع في تفككه، وتشكلت تحالفات سياسية قبلية على أساس من المصالح المشتركة والضرورات الدفاعية، ونما التيقظ القومي متمثلاً بانتصار العرب على الفرس في ذي قار وطرد الأحباش من اليمن. وقد قيل عن ذي قار: «هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم...».

وعلى الصعيد الثقافي انصهرت اللهجات وتوحدت في لهجة مشتركة متميزة، لهجة قريش، أصبحت لغة التعبير الفني ولغة التعامل المشترك بين مختلف القبائل أثناء انعقاد المواسم العامة التجارية والدينية والأدبية. ووظف الشعر كأداة اعلامية في خدمة التوجه الوحدوي.

وقد وجد اتجاه حركة تطور الواقع الاقتصادي ـ الاجتماعي نحو التوحيد تعبيراً عنه في مجال الوعي الديني لدى سكان شبه الجزيرة متمثلاً بتيار الحنفاء الديني التوحيدي الذي كان ظهوره إيذاناً بالثورة على الوثنية وبداية الارهاص الفعلي لظهور دعوة الإسلام.

الزراعة

عمل العرب بدأب ونشاط على توسيع أعمال الري الأصطناعي، وبذلوا ما وسعهم الجهد في استثمار إمكانات التربة الخصيبة، حيثما توافرت. واستعمل الزراع

آلات حديدية في الحراثة ووسائل الري، واستخدموا السماد الطبيعي لإعادة القوة الأنباتية للأرض. ووظف بعض أثرياء التجار قسماً من أموالهم في ابتياع الأراضي الزراعية واستثمارها بواسطة العبيد والموالي وفقراء الفلاحين أو بطرائق أخرى.

وكانت معظم الأراضي الزراعية يملكها وجهاء القبائل والملاكون الكبار والمعابد وأثرياء التجار. والباقي يملكه صغار المزارعين. وكان أصحاب الأراضي الواسعة يستثمرونها بـ «الايجار» أو بـ «المفارسة والمساقاة» أو بـ «المزارعة» على ربع الناتج أو ثلثه أو نصفه[1] «البخاري: صحيح البخاري. ج10 ص 166، 153، 163.

إن المزارعة وغيرها من أشكال وطرق استثمار الأراضي الزراعية، على ما فيها من استغلال، هي مرحلة أرقى من الاستثمار العبودي. ذلك لأن المحاصص في المزارعة له مصلحة في العناية بالأرض وزيادة الانتاج، فكلما زاد الناتج، زادت حصته منه وتحسنت ظروف معيشته وحياته. أما في نظام الاستثمار العبودي، فكان مالك العبد يستولي على كامل الانتاج، ولا يعطي عبده إلا قدراً زهيداً من مقومات العيش لكي لا يموت جوعاً ولكي يتمكن من متابعة العمل لأجله. ولهذا لم يكن الشغيل العبد يبدي أي اهتمام بزيادة الانتاج.

توسعت رقعة الأراضي الفلاحية وتعددت المناطق الزراعية (اليمن، عمان، اليمامة، يثرب، الطائف والوديان). وتنوعت المحاصيل (حبوب، بقول، وَرْس، فواكه وخضراوات) بتنوع التضاريس والمناخ والتربة.

وكانت اليمن المنطقة التي تقدمت فيها الزراعة أكثر منها في أية منطقة أخرى، وقد دعيت اليمن بـ «اليمن الخضراء» عند الجغرافيين العرب. وكان لتساقط الأمطار الموسمية ما وفر الماء الكافي لزراعة الحبوب وسقي البساتين. ومما ساعد على رفع مستوى الزراعة وازدهارها في اليمن بناء منظومة واسعة من السدود، والأحواض، ويعد سد مأرب من أهم السدود. وقد ألحق انهياره في القرن السادس الميلادي أضراراً بالغة في اقتصاد اليمن الزراعي. وقد استطاع أبرهة، عامل الحبشة على اليمن، أن يُجَنِّدَ عدداً كبيراً من السكان لإصلاح السد وإعادة تعميره. ويبدو أن أساليب الزراعة ذاتها تأثرت. فقد أصبح لزاماً على الفلاح أن يزرع مساحات أكبر

---

(1) أبو عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري: صحيح البخاري. شرح الكرماني. المطبعة البهية المصرية 1358هـ 1939م، ج10 ص 166، 153، 163.

بغلال يمكن أن تقاوم الجفاف، كالذرة، التي راجت زراعتها جنباً إلى جنب مع زراعة القمح.

زرع اليمنيون الحبوب والسمسم والوَرْس والفواكه والقطن والبقول والخضراوات. واشتهرت حضرموت وظفار بانتاج اللُّبان (البخور).

وفي عُمان، انتشرت الزراعة في سهل «الباطنة» الساحلي، وفي واحات السفوح، وفي بعض الأودية الخصيبة ومما ساعد على انتشار الزراعة في عُمان وفرة المياه الجوفية التي كثيراً ما تظهر على سطح الأرض أو تستثمر بوساطة حفر الآبار.

وكان من بين مزروعات عُمان: الحبوب والنخيل والأشجار المثمرة كالرمان والموز.

وكانت اليمامة من المناطق الزراعية الهامة قبل ظهور الاسلام. فقد وصفت في بعض مؤلفات المؤرخين والجغرافيين العرب بأنها كانت في أخصب البلاد أرضاً ومن أكثرها مباهاً وزرعاً ونخلاً وخيراً. وقد تركزت الحياة الحضرية في الوديان وحول الأبار والينابيع. ومن أودية اليمامة العِرْض أو وادي حنيفة الذي كثرت فيه القرى والزروع، قال الأعشى:

ألـم تـر أن الـعِـرْض أصـبـح بـطـنـهـا نـخـيـلاً وزرعـاً ثـابـتـاً ومـضـامـضـا[1]

زرع أهل اليمامة الحبوب والنخيل والفاكهة. وكانت اليمامة «ريف» أهل مكة. وعليها اعتمادهم في الحصول على الحبوب.

وكان للواحات دور هام في اقتصاد الجزيرة لا يقل شأناً عن دور المناطق الزراعية الواسعة. والواحات مناطق واسعة خصيبة تشمل حقولاً وبساتين فاكهة وأجمات نخيل يرويها جميعها ينبوع ماء لا ينضب معينه، وكان يقطن الواحات قبائل متحضرة، اعتمدت الزراعة كمورد رئيسي في حياتها. وقد تحولت بعض هذه الواحات إلى مدن شأن يثرب والطائف وغيرها.

تقع يثرب إلى الشمال من مكة. وهي واحة كبرى خصيبة التربة كثيرة المياه. وقد ساعدت هذه العوامل أهل المدينة على الاشتغال بالزراعة وأصبحت مهنتهم الرئيسة

---

(1) ميمون بن قيس الأعشى: الديوان شرح وتعليق د. محمد حسين. المطبعة النموذجية ـ الاسكندرية 1950، 19 ـ 24.

لكسب معايشهم. وقد أطلق عروة بن الورد على منطقة يثرب اسم «منبت النخل» وفي شعر حسان بن ثابت وصف واقعي لهذه البيئة الخصبة. من ذلك قوله:

غرسوا لينها بمجرى معين ... ثم حَفُّوا النخيل بالآطام
بيثرب قد شَيَّدوا في النخيل ... حصوناً ودجّن فيها النَّعَمْ
وفيما اشتهوا من عصير القطا ... ف وعيش رخيٍّ من غير هَمْ(1)

وكان النخيل أهم مزروعات يثرب. فكان من التمر جلّ طعامهم، وبه يتعاملون، فتدفع منه الأجور وتسدد الديون.

ويعد الشعير المصدر الثاني لثروة يثرب الزراعية. وإلى جانب هاتين الغلتين الرئيسيتين زرع أهل يثرب: القمح والكرم والرمان والموز والليمون والبطيخ والبقول والخضراوات.

ومن تلك الواحات الهامة الطائف (جَوّ قديماً). ومياه الطائف كثيرة وغزيرة، وتربتها خصبة، ومناخها لطيف صيفاً لارتفاعها وتفتحها للرياح الشمالية. وقد ساعدت هذه العوامل على قيام نشاط زراعي واسع.

وكان يسكن الطائف في فترة الجاهلية الأخيرة قبائل متحضرة من بينها ثقف. وقد اعتمد أهالي الطائف على الزراعة واتخذوها مهنتهم الرئيسية، ومارسوا، إلى جانبها، الصناعة والتجارة.

وكانت معظم أراضي منطقة الطائف وأخصبها ملكاً لأريستقراطيتها ولبعض أثرياء مكة. ذلك أن انتاجية الزراعة المربحة كانت تجذب كبار تجار مكة إلى توظيف بعض أموالهم في تلك الأراضي وغرسها واستثمارها، وشراء موارد من المياه، وإقامة أعمال اقتصادية خاصة ومشتركة. وكان لبني أمية ـ «حمى» يقع في شمال الحجاز يربون فيه الخيول، ويشمل على حقول تروى بماء الآبار وعلى أجمات من النخيل يعتني بها عبيدهم.

زرع أهل الطائف الحبوب (الحنطة والشعير) والفواكه والخضراوات. وتعد الحنطة مورداً رئيسياً في الاقتصاد الزراعي للطائف. وعلى حنطتها كانت تعتمد كل حواضر الحجاز وخاصة مكة. واشتهرت مدينة البساتين بزراعة الفواكه. وعلى عنب الطائف وصناعاته تقوم ثروة البلد الاقتصادية.

(1) حسان بن ثابت: الديوان. تحقيق دكتور سيد. حنفي حسنين، القاهرة 1394هـ 1974م، ص 137 ـ 138.

إن عناية أهل الطائف بالزراعة وتنظيم الري واهتمامهم بتطوير الصناعة وتنشيط التجارة ومهارتهم التقنية في بناء الأسوار والأبراج وصناعة الأسلحة وحذقهم في بناء بيوتهم الجيدة التنظيم، هي مؤشرات على مدى التقدم الذي أحرزته هذه الواحة الجميلة. ولهذا المستوى من التقدم، عدت الطائف عشية الهجرة ثاني مدائن بلاد العرب الغربية بعد مكة، بل فاقتها في ميدان الزراعة والانتاج الزراعي، واقترن اسمها بمكة، وكانتا تسميان بـ «القريتين» كما عرفتا بـ «المكتين».

وهناك عدد من الواحات الهامة في شمال الجزيرة، وفي وادي الرمة وجبل شمر وأواسط نجد ـ وفي وادي الدواسر.

من استعراض أشكال النشاط الزراعي في المناطق الفلاحية الآنفة الذكر، يمكن الاستنتاج: أن علاقات الانتاج في مجتمع الجاهلية الأخيرة لم تكن واحدة، بسبب اختلاف الظروف الطبيعية ومستوى تطور القوى المنتجة في مناطق الجزيرة. ففي اليمن، نشأت علاقات انتاج متطورة نسبياً على خلفية النظام العبودي المنهار، وفي منطقتي يثرب والطائف تتداخل علاقات استثمار عبودي مع علاقات انتاج جديدة (المزارعة) أرقى نسبياً، وفي حمى الأمويين شمال الحجاز، علاقات استثمار عبودي ناشئة. ويمكن أن تكون صورة علاقات الانتاج هذه، هي نفسها في المناطق الزراعية الأخرى أو قريبة منها. كما وأن ظاهرة استخدام العبيد كقوة منتجة، ليست كافية أن تشكل الأساس لاستنتاج أن علاقات الانتاج السائدة في مجتمع الجاهلية الأخيرة هي علاقات الانتاج العبودي. ذلك لأن عنصر الرق لم يكن العنصر الأساس في تركيب القوى المنتجة لا في الاقتصاد الحضري أو نصف الحضري، ولا في الاقتصاد الرعوي. إذ كان عنصر الأحرار العرب يشكل نسبة ملحوظة لا تقلّ عن نسبة عنصر العبيد بين القوى المنتجة.

تربية الماشية

تشكل البوادي والسهوب الشبيهة بها معظم مساحة شبه الجزيرة. ويعرف ساكنو هذه البقاع بـ «البدو» الذين اعتمدوا في حياتهم على تربية الانعام ولا سيما الإبل. وفي القرآن الكريم إشارات لفوائد الانعام.

وتتحكم البيئة الطبيعية في معيشة البدو وفي فرض أسلوب حياتهم وعملهم. وترتبط حياة سكان البوادي العربية بالمطر ارتباطاً وثيقاً حتى لقد سموه «غيثاً». وقد

ينحبس المطر مدة تطول، أحياناً ثلاث سنين أو أربعاً مما ينزل بالسكان البلاء والشقاء. وقاست الجزيرة العربية دورياً من الجفاف وأزمات المراعي التي زعزعت كيانها الاقتصادي البدائي وولدت موجات هجرة واسعة نحو بلاد الهلال الخصيب ووادي النيل، وساعدت على الاستقرار في الأرض والانتقال إلى الزراعة. وهكذا نشأ في شبه الجزيرة هذا التمايز بين حياة الحضارة لقسم من القبائل والحياة البدوية المستمرة في القسم الآخر منها.

وكانت معظم قطعان الأنعام وموارد المياه، قبيل الاسلام، ملكاً لشيوخ القبائل وأثرياء التجار؛ ويعد الجمل الحيوان الرئيسي لدى البدو. كان وحشياً في صحراء وبار ثم دُجِّن. وهو الذي فتح لأعراب الجزيرة آفاق البوادي ووسع البداوة عندهم. ومنافعه جمة بالنسبة للبدوي. فمنه مطعمه، وهو مركبة ووسيلة انتقاله ـ سفينة الصحراء. واستخدم التجار العرب الإبل لنقل متاجرهم لمسافات طويلة. ومن وبره يحوك البدوي ثيابه ويصنع خيمته. ومن جلده يصنع نعاله، كما يعمل منه هودجاً وسيوراً، ويستعمل روثه وقوداً. أما بوله فمادة تدخل في الأدوية الشافية وفي تحضير بعض أدوات التجميل.

وخيل الجزيرة من الحيوانات الهجينة الواردة عليها من الخارج، وان وطنها الأصلي الأول هو منطقة بحر قزوين. والخيل بحاجة إلى عناية ورعاية، وطعامها يكلف باهظاً. لهذا صارت تربيتها من نصيب أهل اليسر. واستعملت البغال في الحمل والركوب. وهي تؤدي خدمات في المناطق الجبلية الوعرة يصعب على الجمل القيام بها. وتربى الأغنام في كل أنحاء الجزيرة. أما الماعز فيربى في المناطق الجبلية بخاصة.

الحرفة

انفصلت الحرفة عن الزراعة في فترة الجاهلية الأخيرة، وارتبط الانتاج الصناعي بسوق التبادل. لهذا يكون انفصال الحرفة عن الزراعة حينئذٍ ظاهرة متقدمة تعبر عن مرحلة جديدة من مراحل تطور مجتمع الجزيرة. إن هذا الانفصال هو شكل من التخصص في العمل الانتاجي يلازمه المزيد من انتاجية العمل، والمزيد من تأثير قوة عمل الإنسان في الطبيعة، كما من شأنه خلق مهارات حرفية وتجديد تقنية العمل.

إن ظاهرة استقلال الصناعات اليدوية عن الزراعة وارتدائها طابع الانتاج

البضاعي، كانت قائمة بالفعل في فترة الجاهلية الأخيرة، يتأيد ذلك بشواهد عديدة منها: أن المصادر العربية التي كتبت عن هذه الحقبة، حين تتحدث عن الصناعات في مناسبة ما، تتحدث عنها كسلع موضوعة قيد التبادل، كما تخبر عن أسواق لها أو خاصة ببعضها. فقد ذكر المقدسي: إنه كان يرتضع أدم جيد من صَعْدة[1]. وذكر البلاذري: أن النعمان بن المنذر، ملك الحيرة، كان يبعث إلى سوق عكاظ في كل عام لطيمة، فتباع له بسوق عكاظ، ويشترى له بثمنها العَصْب، والرود، والأدم وغير ذلك من طرائف اليمن[2]. وذكر ابن حزن في جوامع السيرة 154: أنه كان في يثرب سوق خاصة للصاغة[3]. وقد نشأت صناعات باستقلالية عن الزراعة مع تفاعلهما. ففي مكة، وهي في واد غير ذي زرع، قامت صناعة الأسلحة والأدوات الزراعية والأواني الفخارية بالارتباط مع سوق التبادل. وكان في يثرب من الصناع من يتخصص في جلاء الأسلحة وصقل السيوف. واختص جماعة من أهل المدينة بصناعة الصياغة حيث كان في زهرة يثرب وحدها ثلثمائة صائغ. وكان من بين الصناعات الانتاجية ـ الاستهلاكية:

1 ـ التعدين والصناعات المعدنية: استخرج العرب الذهب والفضة والرصاص. واشتهرت اليمن بعقيقها وظفار بجَزْعها. وكان يغاص للؤلؤ في مياه شواطىء البحرين وقطر. واستخدم العرب الذهب والفضة والأحجار الكريمة في صناعة الحلي والمجوهرات التي اختصت بها يثرب ـ المدينة.

وكان معدن الحديد متوافراً في مضارب بني سُلَيْم إلى الشرق من المدينة، كما كان يستخرج من اليمن. واشتهرت بنو أسد بصناعة الحديد. وكان يقال لهم القيون. وتوصل بنو أسد وسليم إلى صهر الحديد وتنقيته وتحويله إلى معدن لصناعة بعض الأدوات الفلاحية ووسائل الري والأسلحة. وقد أشير إلى أهمية الحديد ومنافعه في صورة الحديد: (آية 25): ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾.

وكان يعمل في صناعة الحديد الأحرار والعبيد. وفي حديث خبَّاب بن الأرت:

---

(1) أحسن التقاسيم ص 87.

(2) أنساب الاشراف ج1، ص100 ـ 101.

(3) ابن حزم: جوامع السيرة وخمس رسائل. تحقيق. د. احسان عباس والدكتور ناصر الدين الأسد، دار المعارف بمصر ص6.

«كنتُ قيناً في الجاهلية أعمل السيوف»[1]. وذكر ابن قتيبة: أن العاص بن هشام أخا «أبي جهل» والوليد بن المغيرة، وهما من أشراف قريش، كانا حدادين[2] وذكر البلاذري: «أن رقيقاً من رقيق أهل الطائف منهم: أبو بكر بن مسروح مولي رسول الله (صلعم) كان عبداً رومياً حداداً»[3].

وكانت الحدادة حرفة شائعة في مكة، ينتسب إليها أناس من علية القوم كما تقدم. وكان قيون مكة يصنعون الأدوات الزراعية والأسلحة من سيوف ودروع ونبال وسكاكين. وفي يثرب أرتبطت الحدادة بالأعمال الزراعية. وكانت صناعة الأسلحة والدروع ناشطة فيها أيضاً.

2 ـ **صناعة الغزل والنسيج**: انتشرت هذه الصناعة في معظم أرجاء الجزيرة. وكان يعمل فيها الرجال والنساء من الرقيق والأحرار. وقد ساعد في توسع صناعة الغزل وحياكة النسيج توافر الخامات المحلية (كالصوف والوبر وشعر المعز والكتان والقطن والأصبغة) وازدياد الطلب على منتجاتها ورواج التجارة.

اشتهرت اليمن ونجران بالحلل والثياب الناعمة والملونة. وكانت هذه الحلل والثياب والبرود تصنع من القطن والكتان. ويذكر ابن حزم في جوامع السيرة ـ 6: أن الرسول (صلعم) لما توفي كفن في ثلاث أثواب بيض سمولية قطنية[4]. واستعمل اليمنيون الأصبغة الملونة لتكوين الثياب والأقمشة.

واشتهرت الجزيرة بصناعة البسط. وكانت الخيام تصنع من الوبر وشعر الماعز أو الصوف، كما صنعوها من جلود الأنعام.

وبالإضافة إلى انتاج الجزيرة من الثياب والأقمشة، كان التجار يستوردون المنسوجات النفيسة الغالية من بلاد فارس والهند والعراق والشام ومصر من بينها: الديباج والاستبرق والسندس وغيرها.

3 ـ **الدباغة والصناعات الجلدية**: شغلت الدباغة مرتبة طليعية بين صناعات الجزيرة في القرنين السابقين لظهور الاسلام، قال عنها ابن مجاور في كتابه: صفة

---

(1) البلاوزي: أنساب الاشراف 1 ـ 176. ابن هشام: السيرة النبوية 1 ـ 383.

(2) ابن قتيبة: المعارف ص 575.

(3) البلاوزي: فتوح البلدان ص 55.

(4) ابن حزم: المصدر ذاته ص6.

بلاد اليمن 1 ـ 20: «إنْ حرفة دباغة الأدم كانت في ذلك الوقت ذات شأن عند القوم»[1].

اشتهرت اليمَن والطائف في الحجاز بدباغة الجلود. وكانت الطائف بلد الدباغ يدبغ بها الأهب الطائفية المعروكة. وكانت مدابغها كثيرة[2]. وذكر الهمداني: أن صَعْدة في اليمن كانت موضع الدباغ في الجاهلية لوقوعها في بلاد القرظ[3].

وكانت الجلود المدبوغة هي جلود البقر والغنم والماعز والوحش، تدبغ بالقرظ والأرَطي والسَلَم والظُّيَّان وغيرها. وكانوا يصنعون من الجلود المدبوغة الجفان والدلاء والقرب والخيام والنعال والأنطقة والسيور ومواد أخرى تستعمل في البيت.

4 ـ **الصناعات الغذائية**: اهتم عرب الجزيرة بتطوير هذه الصناعة وتوسيعها وتنويع منتجاتها تلبية لحاجات الناس المتزايدة إلى المواد الغذائية الضرورية لحياتهم.

صنع العرب الدقيق والسويق والجريش والسمن والخمور والنبيذ، وعرفوا تجفيف التمر والعنب والأسماك الصغيرة. واهتموا بتربية النحل لجني العسل. وكان العسل أحد موارد الثروة للطائف. كما كان العسل كثيراً في اليمن. وكان العرب يعتبرون العسل من أشهى الأطعمة. وهو غني بالعناصر الغذائية والدوائية[4].

5 ـ **صناعة الصباغة والعطور**: أدت الحاجة إلى تلوين الجلود والأقمشة والثياب إلى نشوء صناعة الصباغة. وكانت الخامات الملونة، هي في معظمها من مصدر نباتي، تنقع في الماء أو تطبخ فيصبغ بمائها. وقد استخدم الصباغون في الصباغة: الوَرْس والعصفر والحَلْق والزعفران وقِرْف الأرطي وقِرْف السِّدر والفوّة والعَنْدَم وغيرها. وكان الرجال والنساء يختضبون بالحناء. وكان النساء يمتشطن بورق القان فيجعد الشعر ويسوّده.

واستفاد عرب الجاهلية من الزهور والورود في استخراج الروائح والعطور. وكان الطيب من عطورات اليمن. ويتكون الطيب، الذي يرش أو يدهن ويمسح به، من تركيب جملة مواد عطرية مع الماء أو الدهون في الغالب. والمسك من أنواع الطيب،

---

(1) ابن مجاور: صفة بلا اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تأريخ المستبصر. بريل ليدن. 1951 ـ 1954. 1 ـ 20.

(2) ياقوت الحموي: معجم البلدان 4 ـ 9.

(3) الهمداني: صفة جزيرة العرب. طبعة بريل ـ ليدن 1884 ص 201.

(4) سورة النحل: آية 69.

ويحفظ عادة في قوارير. وأجوده ما يجلب من شَحْر عُمان. واشتهرت اليمن بعطورها. التي كانت تصدّر إلى مكة. ويذكر الأصفهاني في أغانيه: أن أم أبي جهل كانت عطارة تتاجر في العطور تجلب لها من اليمن[1].

6 ـ **النجارة والصناعات الخشبية:** نشطت النجارة والصناعات الخشبية تلبية للحاجات المتنامية في بناء البيوت والحظائر وأدوات الزراعة والصيد والحاجات المنزلية وغيرها. وكانت هذه الصناعة تعتمد على بعض أصناف الشجر المحلي أو المستورد. واستخدم النجارون أدوات منها: الفأس، والمنشار، والمحفرة، والمنقار، والمشحذ، والمبرد، والمثقب، والكَلَبتان، والعتلة وغيرها.

7 ـ **صناعة الفخار والأواني الفخارية:** عرف عرب الجزيرة صناعة الفخار واهتموا بتطويرها لما لمنتجاتها من استعمالات هامة تحفظ الطعام والشراب. وكانت صناعة الفخار تقوم على الصلصال. وفي التنزيل من صلصال كالفخار. واشتهرت مكة واليمن بصناعة الأواني الفخارية كالقدور والجفان والصحاف والأباريق والكيزان والأكواب وغيرها. وقد ورد ذكر هذه الأواني في القرآن الكريم.

8 ـ **صناعة الحلي والمجوهرات:** نشطت هذه الصناعة مع ازدياد الثروة لدى وجهاء القبائل وأثرياء التجار واقبالهم على شراء المصنوعات لنسائهم وفتياتهم. وكانت الصياغة تعتمد على الذهب والفضة واللؤلؤ والأحجار الكريمة. وقد تميزت المدينة بهذه الحرفة، واختصت بها جماعة من يهودها. واستخدم الصاغة أدوات منها: العسقلان، والفداف، والجبأة، والحملاج، والكير، والمثقب، والكلبتان وغيرها.

التجارة

مارس العرب التجارة بنشاط، وأولوها جل اهتمامهم، لأنها كانت في نظرهم أشرف المهن، وأعلاها قدراً. فأنشأوا لها الأسواق، ووفروا لها الأمن والسلام، ونظموا قوافلها، وهيأوا لها ما يلزم لحمايتها، وما تحتاجه القوافل من مرافق وخدمات، وعززوا دعائمها بعقد الإيلافات، «الحبال» و«العهود» لتنشيطها وتوسيع آفاقها، واستغلوا امكانات موقع بلادهم الجغرافي.

---

(1) أبو فرج الأصفهاني: الأغاني. طبعة دار الكتب. القاهرة 1383 هـ 1963م، ج1، ص64 ـ 65.

كانت التجارة فرعاً رئيساً في اقتصاد الجزيرة، نشطت بتفاعلها مع الزراعة والحرفة، ذلك أن انتاج الفائض عن حاجات الناس الخاصة المباشرة، من المنتجات الزراعية أدى بالضرورة إلى نشوء حركة التبادل السلعي، ثم إلى زيادة في نشاط هذه الحركة، كما أن التبادل، بدوره، أصبح عاملاً منشطاً في زيادة انتاجية العمل في قطاعي الفلاحة والحرفة.

وكان من بين العوامل التي ساعدت على نشاط التجارة وتوسيع آفاقها في فترة الجاهلية الأخيرة:

1 ـ الموقع الجغرافي لشبه الجزيرة وبلاد الحجاز بخاصة.

2 ـ حجم النشاط لفئات التجارة في استغلال الموقع الجغرافي لصالح التنمية الاقتصادية ـ الاجتماعية ولصالحهم أيضاً.

3 ـ تنظيم الأسواق العامة.

4 ـ عقد الاتفاقات التجارية الداخلية والخارجية.

5 ـ زيادة الانتاج الزراعي وتكوين فائض للتبادل.

6 ـ ارتباط الانتاج الحرفي بسوق التبادل السلعي.

7 ـ انحسار النفوذ البيزنطي من شمال الحجاز والبحر الأحمر.

8 ـ تعطل طريق التجارة عبر العراق نتيجة للحروب المستمرة بين الفرس والروم.

9 ـ انحسار نفوذ الأحباش في منطقة البحر الأحمر عقب هزيمتهم وانسحابهم من اليمن.

تقع شبه الجزيرة في قلب العالم القديم، حيث تمر منها والبحار المحيطة بها الطرق البرية والبحرية العالمية الرئيسة التي تربط بين الغرب والشرق، ويعد الحجاز المنطقة الاستراتيجية الأكثر أهمية في الجزيرة. فمنه وبموازاته يمر طريقان رئيسيان من طرق التجارة العالمية أو انذاك. الأول: الطريق البري الذي تسلكه القوافل بين اليمن والشام عبر الطائف ومكة ويثرب، وتتفرع منه شرايين تتجه صوب الشرق والشمال الشرقي. والثاني: طريق البحر الأحمر الموصل إلى الهند وجنوب شرقي آسيا. ولذلك كان الحجاز جسراً يربط بلاد الشام وحوض البحر المتوسط باليمن الحبشة وشرقي أفريقيا والبلاد المطلة على المحيط الهندي. وكان لذلك أعظم الأثر في قيام محطات تجارية أهمها مكة على الطريق البري، وثغور تجارية بحرية أهمها: الشعيبة مرفأ مكة

القديم، وينبع ميناء يثرب. والأهمية الثانية للحجاز تكمن في مركزه الديني. حيث تلاقت في أرضه الوثنية إلى جانب اليهودية والنصرانية والحنيفية والاسلام.

تعود أهمية مكة إلى موقعها الجغرافي ومركزها الديني وإلى الظروف الاقتصادية ـ الاجتماعية الناضجة ونشاط فئاتها التجارية في استغلال الأهمية التي يتمتع بها موقع مكة، عند ملتقى طرق القوافل.

سكن مكة قبل الاسلام أقوام عديدة، منها قبيلة قريش، التي استطاعت بزعامة قصي، بعد أن كثر ماله وعظم شرفه، على حد تعبير ابن اسحق، انتزاع السيادة على مكة من خزاعة في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي.

عاش أهالي مكة على التجارة واعتمدوها مورد رزقهم. وقد وصف الواقدي وابن سعد قبيلة قريش بأنها من التجار.

ثروة مكة ومصادرها

لقد حصلت مكة على ثرائها الضخم عن طريق التجارة، والربا، وموارد الحج، وأموال الجباية، كالرسوم المفروضة على الأسواق وضريبة الأرباح والعقارات والمسقفات وحقوق الانتفاع بالمراعي والعيون وعلى المكاييل والموازين والمقاييس ونظام الأمانات والودائع والصكوك، والاتاوات على التجار الصغار العرب غير المرتبطين بتحالف مع قريش وعلى التجار الأجانب الوافدين إلى مكة[1]، وعلى القوافل القادمة من الشام إلى اليمن والصاعدة من اليمن إلى الشام[2]، ومن ذلك ضريبة العشور التي كانت تفرضها قريش على من يدخل مكة من تجار الروم[3].

وقد استفاد زعماء قريش من الموقع الجغرافي لشبه الجزيرة، والشروط التاريخية الناضجة، واتباع سياسة الحياد، وكذلك من الوضع السيء الذي طرأ على اليمن باحتلال الأحباش لها وتدهور الأحوال السياسية فيها والاضطرابات المستمرة التي وقعت بين الوطنيين والغزاة الحبشيين، فانحسر كل نفوذ سياسي أو عسكري كان لحكومات اليمن في الحجاز أو على بعض القبائل، كما انحسر نفوذ البيزنطيين من

---

(1) المسعودي: مروج الذهب ج2 ص 58.

(2) د. علي جواد: تاريخ العرب قبل الاسلام ج4 ص 187 ـ 188.

(3) ابن سعد: الطبقات ج1 ص39. الأزرقي: أخبار مكة: ج1 ص 107.

البحر الأحمر وشمال الحجاز، فوجد الملأ المكي أنفسهم أحراراً مستقلين وفي وضع يمكنهم من استغلال مواهبهم في التجارة، فقاموا بمهمة الوسيط بنقل تجارة أهل اليمن والعربية الجنوبية وسواحل أفريقية الشرقية إلى أسواق فلسطين، وحمل تجارة بلاد الشام وحوض البحر المتوسط إلى الحجاز ونجد واليمن، وبذلك حصلوا على أرباح طائلة، جعلتهم من أغنى العرب عند ظهور الاسلام، وصيَّرت مكة مركزاً خطيراً لا في الحجاز وحسب، بل في شبه الجزيرة العربية بأكملها.

وقد أشار القرآن الكريم إلى نشاط أهل مكة في التجارة ومتاجرتهم مع الشام واليمن: ﴿لإيلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾[1]. وكانت رحلة الشتاء إلى اليمن والحبشة والعراق، ورحلة الصيف إلى بلاد الشام. وهما رحلتان تجاريتان، تشتري فيهما قريش وتبيع، وتربح منهما ربحاً وفيراً صيَّرها في وضع مالي حسن.

إن التطورات التي يذكر التاريخ حدوثها، عند استتباب الزعامة لقريش بمكة في شخص قصي، جاءت بمثابة قفزة نوعية لتغيرات كمية كانت تجري، من قبل، في المنطقة مع تنامي العلاقات التفاعلية بين التقسيم الجديد للعمل، وبين اتساع الوساطة التجارية وحركة التبادل النقدي في أسواق شبه الجزيرة.

إن ضخامة المهمة التي كان يقوم بها زعماء قريش الأثرياء في مجال الوساطة التجارية والاتجار مع بلدان العالم الخارجي والأسواق الداخلية، قد فرضت أشكالاً من التنظيمات التجارية المتطورة بالقياس للعصر الجاهلي. وأن هذه التنظيمات إنما كانت بوحي من ضرورة الإفادة المطلقة العائدة لصالح الفئات العليا من تجار قريش وصالح المتعاملين معهم مع أمراء ووجهاء القبائل داخل بلاد العرب، ومع الحكومات والجماعات التجارية خارج بلا العرب. فقد نظموا الأسواق الموسمية ورتبوا أوقاتها مع الأشهر الحرم حتى يسودها الأمن والهدوء الضروريين لسلامة القوافل وعمليات البيع والشراء وزيارة المقدسات[2]. واهتموا بتنظيم شؤون الحج وخاصة الرفادة والسقاية لتأمين خدمات حيوية للحجيج في بيئة، الماء فيها شحيح، والطعام فيها ضئيل.

وكان الحج إلى جانب التجارة مورداً هاماً لقريش، تبيع ما عندها للأعراب

---

(1) سورة قريش: آية 1 ـ 2.

(2) د. حسين مروة: المصدر ذاته ج1 ص 224.

القادمين إليها من البادية ولأهل القرى البعيدة عن مكة، وتشتري منهم ما يحملونه معهم من مواد وسلع، وتشتري في مقابل ذلك ما يحتاج إليه أهل الحجاز وأعراب البادية من مواد وبضائع. وهناك تنظيمات أخرى.

أما التنظيمات المتعلقة بالتعامل مع أمراء العرب والحكومات الأجنبية، فيبدو أنها كانت أكثر تطوراً من حيث أسلوبها المتقدم. ومن حيث كونها تشكل عاملاً مساعداً لتطوير الخدمات التجارية وانماء التجارة العربية ولدفع ظروف التطور الاجتماعي القائمة يومئذ نحو أبعاد واقعية جديدة. وأن هذه التنظيمات تتمثل بأشكال العلاقات التي كانت اريستقراطية قريش تحقق أهدافها التجارية والاقتصادية على أساسها في التعامل مع الآخرين. فقد عقد زعماء قريش اتفاقات (ايلافات أو حبالاً وعصماً وعهوداً) مع أمراء العرب في الجزيرة، مع شيوخ قيس وأقبال اليمن وأمراء اليمامة وشيوخ تميم وملوك غسان والحيرة[1]. وكان لتجار مكة وكلاء عنهم في تبالة وجوش ونجران وغيرها من المدن التجارية في شبه الجزيرة[2]. وفي سبيل توفير الأمن من اعتداءات القبائل على القوافل التجارية التي تريد بلاد الشام أو العراق أو اليمن والعربية الجنوبية أو العائدة منها، عقد زعماء مكة عهوداً مع رؤساء القبائل، لترضيهم بدفع جمالات معينة لهم أو تقديم هدايا وألطاف مناسبة مغرية، أو اشراكهم معهم في تجارتهم، أو حمل بضائعهم بلا أجر. يقول الجاحظ في رسائله: وشرك هاشم بن عبد مناف في تجارته رؤساء القبائل من العرب... وجعل لهم معه ربحاً[3]. وذكر ابن سعد في الطبقات الكبيرة: وأما القبائل الضاربة على طرق القوافل، فقد ألفهم هاشم على أن تحمل قريش بضائعهم بلا أجرة[4]. وفي الخارج عقد هاشم معاهدة تجارية مع ملوك الروم، وعقد عبد شمس اتفاقية تجارية مع نجاشي الحبشة، وأخذ نوفل لقريش «حبلاً» من الأكاسرة فاختلف تجار قريش إلى أرض العراق وأرض فارس أمين، وأخذ المطلب لقريش «حبلاً» من ملوك حمير، فاختلف تجار قريش إلى اليمن آمين[5]. وقد انعكس نشاط قريش التجاري ورغبة الزعامة الملكية في عقد الاتفاقات

---

(1) د. سالم عبد العزيز: دراسات في تاريخ العرب في عصر ما قبل الاسلام ص 505.
(2) نفس المصدر 503.
(3) الجاحظ: رسائل الجاحظ جمع السندوبي. المطبعة الرحمانية بمصر 1352هـ 1933 ص 70.
(4) ابن سعد: الطبقات الكبيرة ج1 ص 45.
(5) البلاذري: أنساب الأشراف ج1 ص 59.

مع الأمراء العرب وبعض الحكومات الأجنبية في قول مطرود بن كعب الخزاعي:

يا أيها الرجل المحوّل رحله ... هلا نزلت بآل عبد مناف

هبلتك أمك لو نزلت عليهم ... ضمنوك من جوع ومن أقراف

الآخذون العهد من آفاقها ... والراحلون لرحلة الايلاف[1]

كانت العلاقات التجارية بين أريستقراطية قريش والروم البيزنطيين وكذلك مع الفرس والحبش، تخضع لاتفاقات مشروطة بحدود معينة. فلم تكن حكومة بيزنطية مثلاً تسمح لتجار العرب بحرية الإقامة والتجارة إلا في عدد محدود من المدن السورية لتُحَصِّل منهم الضرائب المفروضة على الصادرات ولتراقب الأجانب الوافدين إلى بلادها. ففي فلسطين كانت القوافل القادمة من بلاد العرب تنزل أولاً في أيلة، ومنها تذهب إلى غزة حتى تتصل بتجار البحر المتوسط ومنها يذهب بعض التجار إلى بصرى.

وكانت تجارتهم مع الساسانيين والبيزنطيين تدر عليهم كميات كبيرة من الدنانير والدراهم وغيرها من العملات الأجنبية الأخرى[2].

ولمركز مكة ونشاطها التجاري، توافد عليها تجار من بلاد الشام ومن العراق ومن بلاد الروم وفارس وغيرها. ساكنوا المكيين وتحالفوا مع أثريائهم، ومنهم من أقام فيها مقابل دفع جزية لحمايته أمواله وتجارته.

وكانت الشعيبة ميناء مكة، ترد إليها سفن الروم والحبش، إذ كانت السفن القادمة من أفريقية الشرقية، لبيع تجارتها لأهل مكة، ترسو في هذا الثغر.

لقد عظمت قوافل قريش التجارية حتى لتبلغ الواحدة خمسمائة أو ألفاً أو ألفاً وخمسمائة وحتى ألفين وخمسمائة بعيرٍ تحمل مختلف السلع، ويشترك فيها عامة قريش وخاصة الأسر الثرية منها. وقد بلغت قيمة البضائع للقافلة التي كان يقودها أبو سفيان عام 624م مبلغ خمسين ألف دينار وهو مبلغ كبير بالقياس إلى قيمة العملة انذاك. وكانوا يربحون في تجارتهم للدينار دينار[3].

وكان القيمون على أمر هذه القوافل التجارية وجهاء مكة وأغنياءها. وكان للقوافل المكية أدلاء وحراس مسلحون. وأما سائقو الإبل والعمال الذين يتولون

---

(1) البلاذري: نفس المصدر ج1 ص60.

(2) د. سالم عبد العزيز: المصدر ذاته ص 512.

(3) أبو عبدالله محمد بن عمر الواقدي: مغازي رسول لله. مطبعة السعادة. القاهرة 1948 ص 157.

تحميل البضائع وتفريغها فكانوا من بدو القبائل المجاورة يؤدون عملهم لقاء مبلغ من المال.

إن تنظيم العلاقات التجارية بين الأريستقراطية المكية وأمراء العرب والعالم الخارجي على النحو المتقدم كانت له انعكاسات اقتصادية واجتماعية على حياة أهل الحجاز في المدن والبادية. فقط نشّط التجارة الداخلية والخارجية، وزاد في تقارب العرب، وربط اعداداً وفئات كثيرة من سكان المدن والبادية بالعملية التجارية، سواء كان ذلك بمشاركة بعضهم في تمويل القوافل أو تشغيل قسم كبير كأدلاء وحراس للقوافل أو مقدمين الخدمات الضرورية لها على المحطات المنتشرة على طول الطرق البرية وفي الثغور البحرية، أو متاجرين يتبادلون معها السلع الاستهلاكية وينشئون تجارات صغيرة بين القبائل. إضافة إلى رؤساء القبائل الذين كانوا يتقاضون الأتاوات والضرائب والهدايا، كما هيأ تنشيط الحركة التجارية ظروفاً أفضل لنمو الزراعة والحرفة وزيادة الانتاجية وتحسين التكنيك وتجديد أدوات الانتاج. وقد أدى نشاط التجارة واتساع عمليات التبادل في نشر التعامل النقدي بمختلف فئاته داخل المجتمع القبلي مما سرّع في تفككه.

وقد أدى نشاط بعض الأسر المكية في التجارة إلى حصولها على ثروات كبيرة مثل أسرة آل أبي أحيحة، وأسرة بني مخزوم، وأسرة بني عبد مناف (هاشم ونوفل والمطلب توفوا جميعاً، وهم يمارسون التجارة، بعيداً عن مكة)، وعبدالله ابن جُدعان، وأبي سفيان وغيرهم. وقد ساهم آل أبي أحيحة سعيد بن العاص بثلاثين ألف دينار. وكان عبدالله بن جدعان يشتغل بتجارة الرقيق، وكان عظيم الثراء. وكان عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي، وهو من أكبر أغنياء مكة، قد تبرع بخمسمائة دينار لمحاربة النبي (صلعم).

يروي الواقدي، أن القافلة التي كان يقودها أبو سفيان، والتي كان ترصد المسلمين لها سبباً في نشوب معركة بدر عام 624م، كانت مؤلفة من ألف جمل في رواية وألفين وخمسمائة جمل في رواية أخرى. وكانت فيها أموال عظام، ولم يبق قرشي ولا قرشية له مثقال فصاعداً إلا بعث به في العير. وكان يقال إن فيها لخمسين ألف دينار... وأن أكثر ما فيها من المال، ثلاثين ألف دينار، لآل سعيد بن العاص، إما مال لهم أو مال مع قوم قراض على النصف. وكانت عامة العير لهم، ويقال كان لبني مخزوم فيها مائتا بعير وخمسة أو أربعة آلاف مثقال. وكان لأمية بن خلف

الجمحي ألف مثقال، ولبني عبد مناف فيها عشرة آلاف مثقال. وكانوا يربحون في تجارتهم للدينار دينار[1].

من تحليل هذه المعطيات، يمكن استنتاج الأمور التالية:

1 ـ ضخامة حجم القوافل التجارية التي أصبحت الواحدة منها تضم عدداً من العير يتراوح بين خمسمائة والفين وخمسمائة.

2 ـ ضخامة حجم الأموال الموظفة في التجارة الخارجية. فمبلغ خمسين ألف دينار هو مبلغ كبير بالقياس إلى قيمة العملة في تلك الأيام وتوظيف مثل هذا المبلغ في التجارة مؤشر على الأهمية التي كانت تشغلها التجارة في البنية الاقتصادية.

3 ـ القسم الأعظم من الأموال الموظفة في التجارة الخارجية والداخلية كان يعود إلى الأسر الغنية في مكة والطائف وإلى وجهاء القبائل وكبار التجار في الحجاز وفي مختلف مناطق الجزيرة، وهو مؤشر للدور الهام الذي أصبحت تلعبه الفئات التجارية العليا في الأمور الاقتصادية والسياسية لشبه الجزيرة في الجاهلية الأخيرة. فلأسرة أبي أحيحة سعيد ابن العاص (من بني أمية) ثلاثون ألف دينار من أصل مجموع أموال القافلة خمسين ألف دينار أي ما يقدر بثلثي رأس المال، ولأبي سفيان (وهو أيضاً من بني أمية)، حصة كبيرة، وكانت امرة القافلة له، وهذا يعني أن بني أمية من قريش، أخذوا يحتلون مكان الصدارة في مكة الجاهلية حين أصبح فيهم أعظم التجار ثراء، وصارت قيادة القوافل التجارية تحت زعامتهم، وبسطوا نفوذهم المالي والسياسي على كثير من القبائل العربية في شبه الجزيرة.

4 ـ نسبة الأرباح العالية التي كان يجنيها أصحاب الأموال من التجارة والخارجية منها بخاصة والتي تصل إلى مئة بالمئة من رأس المال أو أقل من ذلك أو أكثر. وطبيعي أن تحصل الأسر الأكثر ثراء والمهيمنة على رأس مال القافلة على حصة الأسد من الأرباح.

5 ـ أن التجارة وما يرتبط بها من خدمات، ظلت على ما يبدو، المورد الرئيسي لأغلبية السكان في مكة والحجاز (ولم يبق بمكة قرشي ولا قرشية له مثقال فصاعداً إلا بعث به في العير) وهذا يعني أن التجارة في مكة والحجاز وربما في مناطق أخرى من الجزيرة كانت تؤثر تأثيراً ملحوظاً في البنية الاجتماعية.

---

(1) الواقدي: نفس المصدر ص 17 ـ 18، ص 157.

وإذن كانت التجارة وما يرتبط بها من خدمات مصدراً رئيساً لثروة مكة واغناء زعماء قريش الذين أصبحوا يشكلون اريستقراطية المجتمع الجاهلي.

وكان الربا (الفائض)، وهو في نظر القوم مظهر الحركة الاقتصادية والتجارية، مصدراً رئيساً آخر لثراء «الملأ المكي» وأعلاء حكمته في البلاد، ولكنه كان في الوقت نفسه أحد أسباب سخط الناس عليه، لأن الربا في مكة كان فاحشاً جداً. وكان المرابون يستغلون حاجات الناس إلى المال، صغار التجار للمشاركة في رحلات القوافل التجارية، وأبناء القبائل في البادية لشراء مؤنهم قبل أوان الموسم أو لكسب العيش في المتاجرة، فيشتطون في الاستفادة من المقترضين، ويتقاضون منهم الربا الفاحش، ولم يمهلوا معسراً. ولم يتساهلوا في الأداء إلى وقت الميسرة. فكان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين، إما أن تقضي وإما أن تربي، أي تزيد مقدار الربا.

وقد بلغت فائدة الربا مئة بالمئة، فكان الدرهم يستوفي درهمين والدينار دينارين. يؤيد ذلك ما ورد ذكره في القرآن الكريم: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾[1]. وهذا يعني أن الفائدة كانت تبلغ أحياناً المئتين أو الأربعمائة بالمئة.

وكان الربا يدر على المرابين أرباحاً كثيرة. وكان المرابون يتلاعبون بالديون بأن يؤخروا آجالها أو يقدموها أو يضيفوا إليها، إلى غير ذلك من الأعمال التي كانت تؤدي دائماً إلى خراب المستدين واستعباده. وكان عدد المرابين في مكة كبيراً، ومن ضمنهم أغنى التجار من بني أمية. ولم يقتصر الاستثمار الربوي على أريستقراطية قرشي في مكة، فقد كان في الطائف واليمن ويثرب وفي أماكن أخرى من الجزيرة مرابون بالطبع، يعيشون على الربا بطفيلية مريحة دون تعب ولا نصب. ولهذا الظلم الصارخ، منع الاسلام الربا وحرمه، وأعلنها حرباً على المرابين والعاملين به. وقد أعلن النبي في حجة الوداع عام 10 للهجرة اسقاط ربا عمه العباس وكان من أغنياء مكة وتجارها[2].

لقد أفضى قيام قريش بدور الوساطة، ثم ممارستها للتجارة نفسها إلى ولادة

---

(1) سورة آل عمران: آية 25.

(2) ابن هشام: السيرة النبوية ج4 ص 275. ابن الأثير: الكامل طبعة مصر 1349هـ ج2 ص 206.

النقد. وكان التبادل في أيام الجاهلية الأولى وفي ظل الملكية الجماعية لوسائل الانتاج، يتم بين قبيلة وأخرى على أساس جماعي وبشكل مقايضة. ومع تفكك علاقات الملكية الجماعية وظهور الملكية الخاصة لوسائل الانتاج، أصبح التبادل يجري بين الأفراد في المجتمعات البدوية والحضرية على السواء، واتخذ التبادل شكلاً متطوراً باستعمال النقود.

لم يكن لمكة في الجاهلية عملة خاصة بها. وكانوا يتعاملون بالإبل والنقود. وكانت العملات السائدة في مكة والحجاز وفي الأسواق العربية التي تستقطبها تجارة قريش هي الدينار الذهبي البيزنطي والدرهم الفضي الساساني[1]. وكانوا يتعاملون أيضاً بنقود يمنية حميرية. وهي نقود غير مسكوكة، بل قطع من الذهب الخام المستورد من شرقي أفريقية أو المستخرج من مجاري الأنهار في اليمن، كما استعملوا قطعاً من معدن الفضة الخام[2]. وهذا النوع من النقود غير المسكوكة كان التبادل به تبعاً لمقادير وزن القطع المتداولة منه[3]، كما تعاملوا أيضاً بنقود أهل الحبشة.

وقد استعمل أهل العربية الجنوبية نقوداً سكّت من الذهب، ونقوداً سكّت من الفضة، وأخرى سكّت من النحاس ومن معادن أخرى. وقد عثر على نماذج من كل نوع من هذه العملات، كما استعملوا نقوداً أجنبية وصلت إليهم بتعاملهم مع الأسواق الأجنبية[4]. هذا وقد ورد ذكر بعض هذه العملات في القرآن الكريم[5].

وكان أهل مكة بخاصة، يتاجرون مع بلاد الشام والعراق واليمن والحبشة فيتعاملون بمختلف النقود، ولم يكن وضع بلادهم يساعد على ضرب النقود فيها. وكانت تجاراتهم مع بلدان الامبراطوريتين العظميين الساسانية والبيزنطية تدر عليهم كميات كبيرة من الدنانير والدراهم وغيرها من العملات الأجنبية.

كان المجتمع العربي، باستثناء سكان اليمن المتحضرين، في فترة الجاهلية الأخيرة، مجتمعاً قبلياً، انقسم فيه العرب إلى وحدات اجتماعية متعددة، عرفت كل منها باسم القبيلة. وقد نزلت كل وحدة من هذه الوحدات الاجتماعية في بقعة من

---

(1) الواقدي: المصدر ذاته ص 17 ـ 18. البلاذري: أنساب الأشراف ج1 ص 57.
(2) ي. أ. بلياييف: العرب والاسلام والخلافة العربية. ترجمة الدكتور أنيس فريحة ص 136.
(3) البلاذري: المصدر ذاته ج1 ص 66.
(4) د. علي جواد: نفس المصدر ج8 ص200.
(5) سورة آل عمران: آية 75. سورة يوسف آية 20.

الجزيرة يتوافر فيها الماء والكلأ، أو في المحطات التي تمر منها الطرق التجارية الكبرى، واتخذت منها موطناً. وهكذا كان مجتمع الجزيرة مجتمعاً قبلياً انقسامياً، يعيش سكانه، بدواً وحضراً، أهل وبر وأهل مدر، في ظل نظام القبيلة والعشيرة الذي يعتمد على صلة الدم والنسب والأخوة والتعاطف. وقد أسمى ابن خلدون هذا التلاحم القبلي «عصبية». يقول: «... العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب»[1]. وبموجب هذه الرابطة، كانت القبيلة تهب بمجموعها لدفع ما قد يلحق بأحد أفرادها من ضرر والثأر لقتيلها «في الجزيرة تشترك العشيرة». وقد يظل أخذ الثأر بين قبيلتين سنين طويلة، مما يلحق أفدح الخسائر في الأرواح والممتلكات. ولهذا عمدوا إلى دفع دية القتيل التي تبلغ مئة جمل حسماً لنزاع قد يطول[2]. وبالمقابل كان على الفرد أن يخدم رأي القبيلة الجماعي ويتقيد بنظامها. يؤيد ذلك قول أبي سفيان: لست أخالف قريشاً، أنا رجل منها ما فعلتْ فعلتُ[3]. فإذا تمرد الفرد على أعراف القبيلة، أو ارتكب جريرة ترفض أن تتحمل نتائجها، فإنه يطرد منها، ويسمى الطريد خليعاً. يؤيد ذلك قول ابن منظور: الخليع الرجل يجني الجنايات يؤخذ بها أولياؤه فيتبرأون منه ومن جناياته. ويقولون: إنا خلعنا فلاناً فلا نأخذ أحداً بجناية تجنى عليه، ولا نؤخذ بجناياته التي يجنيها[4]. ويتم اعلان الخلع رسمياً على الناس في المواسم والأسواق العامة. وقد يبعثون منادياً بذلك، أو يكتبون به كتاباً. فقد خلعت خزاعةُ قَيسَ بن الحدادية بسوق عكاظ، وأشهدت على نفسها بخلعها إياه[5]. وكان بعض الخلعاء يلجأون إلى من يحميهم ويعيشون في جوارهم، وطائفة أخرى تلتحق بالصعاليك (الصعاليك الخلعاء).

وكانت كل قبيلة تتألف من عشائر وبطون وأفخاذ. وقوة القبيلة ومكانتها بين القبائل كانت تتوقف على عدد أفرادها ومواردها. وكانت قبائل البوادي العربية تعيش في خيام «بيوت البدو ـ أهل الوبر». أما المتحضرون (المستقرون) فإنهم يسكنون بيوتاً

---

(1) ابن خلدون: المقدمة. دار القلم. بيروت 1978 ص 128 ـ 129.
(2) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ج1 ص 251 ـ 252.
(3) الواقدي: كتاب المغازي ص 200.
(4) ابن منظور: لسان العرب ج9 ص 430.
(5) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني. ج14 ص 137 ـ 138.

مبنية من «الطين واللبن ـ أهل المدر أو أهل القرار»، وهم يقيمون في قرى وفي أحياء من المدن.

وكان يرئس القبيلة سيدها أو شيخها. تقول العرب: فلان سيدنا أي رئيسنا[1]. ورؤساء القبائل هم ساداتها والمتولون لأمورها. ويشرف سيد القبيلة على حركة الانتجاع ويختار مضارب القبيلة، ويقودها في الحروب والغزو. ويذكر الأخباريون العرب، أن أهل الجاهلية كانوا لا يسوّدون إلا من تكاملت فيه ست خصال: الكرم، والنجدة، والحلم، والصبر، والتواضع، والبيان.

أخذت روابط النظام القبلي البدائي بالتفكك التدريجي، نتيجة لتطور القوى المنتجة والتقسيم الاجتماعي للعمل وظهور الملكية الخاصة لوسائل الانتاج والمعيشة ونمو المبادلات التجارية والتفاوت في توزيع الثروة والتمايز في الحقوق بين أفراد القبيلة الواحدة. وأصبحت سلطة رئيس القبيلة أو العشيرة تستمد وجودها من الوضع المالي والاقتصادي في الدرجة الأولى، ومن التقاليد البدوية في الدرجة الثانية. وهكذا صار رؤساء القبائل أكثر الناس تملكاً لقطعان الماشية ولا سيما الإبل. ويذكر ابن سعد أن قصيّ بن كلاب بعد أن كثر ماله وعظم شرفه، انتزع السيادة على مكة من خزاعة[2]. وبقوة المال وحده، انتزع العباس بن عبد المطلب منصب الرفادة والسقاية في مكة من أبي طالب عم النبي بسبب من ضعفه المالي رغم مكانته العالية في قريش من الوجهة القبلية[3]. وجهد رؤساء القبائل ووجهاؤها لتنمية ثرواتهم بوسائل مختلفة، سواء عن طريق تملك المزيد من قطعان الماشية، أم بتوسيع مبادلاتهم التجارية في أسواق البلاد وخارجها، أم بجباية الاتاوات والضرائب التي يفرضونها بالسطوة على التجار والقبائل الضعيفة والقوافل. وذلك بهدف السيطرة على قبائلهم أو عشائرهم. ومع أن المراعي والآبار والعيون، ظلت ملكاً مشاعاً للقبيلة، إلا أن الأريستقراطية التي كانت تملك أعداداً كبيرة من الماشية، صارت تستأثر بالانتفاع بهذه المشاعيات أكثر من سائر أفراد القبيلة بها.

ومن دلالات انحلال الروابط القبلية البدائية، أيضاً، نشوء التحالفات القبلية

---

(1) ابن منظور: المصدر ذاته ج3 ص 230.

(2) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج1 ص 70 ـ 71.

(3) البلاذري: أنساب الأشراف ج1 ص 57.

وانتشارها كتعبير عن التوجهات الاجتماعية لوحدة العرب. وتكونت هذه التحالفات السياسية القبلية على أساس من المصالح المشتركة والضرورات الدفاعية، كحلف ذي المجاز، وتنوخ، وحلف قريش والأجابيش، وحلف الفضول، وحلف المطيّبين، وحلف علقة الدم، وحلف الأحلاف، وحلف الرباب، وحلف الحمس وغيرها.

لقد نشأت داخل القبائل فئات متمايزة عن بعضها في الثروة والحقوق. وهكذا بدأ أصل التفاوت الاقتصادي الذي ولّد، بالضرورة، تمايزاً اجتماعياً في الحقوق بين الوجهاء الأغنياء وبين أفراد عشائرهم البسطاء الفقراء والقبائل الصغيرة الضعيفة المرتبطة بهم بالولاء والتحالف.

تشكلت الاريستقراطية القبلية العربية من شيوخ القبائل ووجهائها وأقاربهم، وأصبح أمراء العرب يتميزون عن بسطاء البدو المعدمين بتملكهم لأعداد كثيرة من أصناف الماشية ولا سيما الإبل، وبحصة الأسد مما يحصلون عليه من غنائم الغزو. وفي ذلك يقول الشاعر ابن عتمة:

لك المرباع منها والصفايا   وحكمك والنشيطة والفضول[1]

ولا يحصل فقراء القبيلة، الصعاليك، من الغنيمة إلا على الفتات. وقد استتبع هذا التفاوت في الملكية الخاصة تفاوتاً في المعيشة وتمايزاً اجتماعياً بين أفراد القبيلة الواحدة أدى إلى انقسام أبنائها الأحرار إلى أغنياء وفقراء، إضافة إلى الانقسام الذي كان قائماً بين الأحرار والعبيد.

كان التمايز الاجتماعي بين الفئة العليا في القبيلة والفئات السفلى منها يتجلى في مظاهر كثيرة من أبرزها: تمييز الأمراء بنصب خيامهم على الروابي المشرفة على خيام سائر أبناء القبيلة وبأفضلية هذه الخيام، وبامتياز مقتنياتهم المنزلية كالسجاجيد النفيسة والأواني المعدنية والزجاجية الغالية الثمن، وبأجود الأسلحة وأجمل أسرجة الخيل والإبل. وكان سيد القبيلة ووجهاؤها يشترون أدواتهم وأثاث أخبيتهم من تجار متنقلين بقوافلهم في الجزيرة قادمين إليها من البلدان المتحضرة المجاورة لشبه الجزيرة. ويفترض في سيد القبيلة أن يكون كريماً مضيافاً. وكان لظاهرة الكرم لدى سيد القوم

---

(1) ابن منظور: نفس المصدر ج11 ص 526. والمرباع والصفايا من الغنيمة هي ربعها وما يصطفى منها. والنشيطة ما لم يكن في الحسبان الحصول عليه في الطريق عرضاً إلى الهدف. والفضول ما يستعصي قسمته من بقايا الغنائم.

مغزى سياسي - اجتماعي، إذ استغلها شيوخ القبائل لدعم سلطتهم. يؤيد ذلك قول حاتم الطائي، وهو مضرب المثل بالكرم عند العرب الجاهلين:

يقولون لي: اهلكت مالك فاقتصد وما كنتُ - لولا ما يقولون سيِّداً[1]

إن ارتفاع المستوى المادي لدى الأريستقراطية القبلية مكنها من أن تحيا حياة رفاه وترف. وكان وجهاء القبائل يلبسون الثياب الناعمة والملوّنة المصنوعة من الكتان والقطن والحرير، وينتعلون النعال الرقاق، وقد صوّر بعض الشعراء الجاهليين حياة الترف التي كان ينعم بها وجهاء القبائل. فالنابغة يصف أغنياء بني غسان بأنهم يلبسون النعال الرقاق والثياب المصنوعة من الخز الأحمر شعار الملوك، فيقول:

رِقَاقُ النِّعَالِ طَيِّبٌ حُجُزَاتُهُمْ يُحَيَّوْنَ بِالرَّيْحَانِ يومَ السَّبَاسِبِ
تُحَيِّيهِمُ بيضُ الولائد بينهم وأكسِيَةُ الإضريجِ فوقَ المشاجب[2]

وتصف الخنساء ثياب وجهاء قومها قائلة:

ونَلْبَسُ في الحرْبِ سَرْدَ الحديدِ وفي السِّلْمِ خزاً وعَصباً وقزا[3]

وقال مطرود بن كعب الخزاعي:

ذكرني بالأزر الحمر والأردية الصفر القشيبات
أربعة كلهم سيد أبناء سادات لسادات[4]

أما الفقراء البسطاء الضعفاء، فكانوا يشكلون سواء العرب أو جمهور العوام. وكانوا يتألفون من رعاة الأنعام وفقراء الفلاحين والعمال والفعلة وصغار الباعة. وكانوا يسكنون في خيام بسيطة أو في أكواخ حقيرة، يعيشون عيشة ضنكة وجوعاً مستمراً.

وكان بين الفقراء معدمون مدقعون، حالتهم مزرية مؤلمة. والدقع الرضا بالدون من المعيشة وسوء احتمال النقر واللصوق بالأرض من الفقر والجوع. فهم ينامون على التراب ويلتحفون السماء[5]. وهم مثل «بنو غبراء» في الفقر والحاجة، أولئك الذين

(1) ديوان حاتم الطائي. تحقيق وشرح كرم البستاني. مكتبة صادر - بيروت ص 58.
(2) ديوان النابغة الذبياني. تصحيح الشيخ عبد الرحمن سلام. مطبعة الصباح - بيروت 1347هـ، 1929م، ص 12.
(3) محمود شكري الألوسي: بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب. باعتناء محمد بهجت الأثري. مطابع دار الكتاب العربي بمصر 1342هـ ج3 ص17.
(4) ابن هشام: السيرة النبوية ج1 ص146.
(5) الزبيدي: تاج العروس ج5 ص330.

افترشوا الأرض، لعدم وجود ملجأ لهم يأوون إليه ولا مكان يجتمعون به.

ولم يكن في وسع الكثير من سواد العرب الجاهليين الحصول على اللحم لفقرهم، فكانوا يأتدمون (الصليب) وهو وَدَكُ العظام، يجمعون العظام ويكسرونها ويطبخونها، ثم يجمعون الوَدَك الذي يخرج منها ليأتدموا به. وقد عرفوا بأصحاب الصلب[1]. ولم يكن في استطاعة الفقراء أكل الخبز لغلائه بالنسبة لهم. لذلك عُدَّ أكله من علائم الغنى والمال[2]. وما أكل ضباب الصحراء ويرابيعها وأوْرالها سوى مظهر من مظاهر الجوع الذي كان يعانيه فقراء البدو حين يجدبون وتتابع عليهم السنين «الرمادية» أو «الشيب». وما كانت ظاهرة الوأد لدى بعض القبائل خشية إملاق سوى مظهر آخر من مظاهر الفقر والجوع[3].

وكان منهم من لا قدرة له على شراء الملابس ليلبسها، فيستر جسمه، بالأسمال البالية وبالجلود، ويعيش متضوراً جوعاً. وذكر أن الفقراء من الصحابة كانوا لا يملكون شيئاً، ويتضورون جوعاً، وينامون في صحن المسجد، يرزقهم الرسول من رزقه[4]، تنبعث منهم روائح كريهة، من عدم الغسيل، يلعب القمل في شعرهم، ويتنقل على أجسامهم حيث يشاء[5].

ويظهر أن المخمصة كانت شديدة، شدة حملت البعض على السطو على أموال الناس وعلى سرقة ما يجدونه أمامهم. ففزع من ذلك أثرياء مكة، وعمل زعماؤها على التفكير في اتخاذ أقسى العقوبات في حق السارق، فكان أن حكم الوليد بن المغيرة بقطع يد السارق[6].

ولم تكن ظاهرة الصعلكة سوى نتيجة مباشرة لهذا الشكل من التمايز الاقتصادي والاجتماعي[7]. وصعاليك العرب هم فئة من الفقراء لا يملكون شيئاً من وسائل الانتاج، ولا سيما الماشية، أفرزهم التمايز المشار إليه. فقد انسلخوا عن قبائلهم

---

(1) المصدر السابق، ج1 ص 337.
(2) محمود شكري الألوسي: المصدر ذاته ج1 ص87.
(3) سورة الأسراء: آية 31. سورة الأنعام: آية 151.
(4) د. علي جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام.
(5) نفس المصدر ج5 ص 82.
(6) نفس المصدر والصفحة.
(7) د. حسين مروة: المصدر ذاته ج1 ص 209.

تعبيراً عن تململهم من الفقر والجوع والحرمان والشقاء والازدراء الذي كانوا يعانون. إذ كان بعضهم يغمى عليه من الجوع حيث يكاد يهلك. وكان بعضهم الآخر يستف تراب الأرض كيلا يتحمل مِنَّة المتطولين. ولعل تلك اللطمة التي لطمتها الفتاة السَّلاَمِيَّة للشنفري، والتي كانت السبب المباشر في تصعلكه لأنها أنكرت عليه أن يتسامى إلى مقامها الاجتماعي ويرفع الحواجز الاجتماعية التي تفصل بين طبقتيهما ويناديها بأخته، مؤشرٌ كبير الدلالة على ما كان يعانيه الصعاليك من مجتمعهم[1]. وقد عبّر عروة بن الورد، أحد شعراء الصعاليك، أدق تعبير لمشاعر التمرد والاحتجاج لدى هؤلاء الصعاليك على واقع التفاوت في توزيع الثروة والتمايز الاجتماعي. قال عروة بن الورد:

ذريني للغنى أسعى فإني ... رأيت الناس شرّهم الفقير
وأهونهم وأحقرهم لديهم ... وإن أمسى له نسب وخير
ويقصى في الندى وتزدريه ... حليلته، وينهره الصغير[2]

وقد ميز عروة بن الورد، أبو الصعاليك وزعيم ثوارهم، بين نوعين من الصعاليك، فأعلن سخطه على النوع الأول الذي استسلم وقنع بالظروف الاجتماعية المزرية التي كانت تسحقهم، يخدمون الأغنياء، أو ينتظرون فضل ثرائهم، أو يستجدونهم في ذلة واستكانة، وفي ذلك يقول:

لحى الله صعلوكاً إذا جنّ ليله ... مضى في المشاش آلفاً كل مجزر
يعد الغنى من دهره كل ليلة ... أصاب قراها من صديق ميسَّر
ينام عشاء ثم يصبح قاعداً ... يحث الحصى على جنبه المتعفر
قليل التماس الزاد إلا لنفسه ... إذا هو أضحى كالعريش المجوَّر
يعين نساء الحي ما يستعنّه ... فيضحي طليحاً كالبعير المُحَسَّر[3]

في حين أشاد عروة بالنوع الثاني من الصعاليك لرفضهم تلك الظروف وعزمهم على تجاوز المعيقات الكابحة لطموحهم في العزة والكرامة والمساواة والعدل حيث يقول:

ولله صعلوك صفيحة وجهه ... كضوء شهاب القابس المتنور

---

(1) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ج21 ص 201.
(2) ديوان عروة بن الورد ص 91.
(3) نفس المصدر ص 70 _ 72.

مطلاً على أعدائه يزجرونه   لمساحتهم زجر المنيع المَشهَّر
فإن بعدوا لا يأمنون اقترابه   تَشَوُّف أهل الغائب المتنظِّر
فذلك ان يلق المنية يلقها   حميداً وإن يستنفن يوماً فأجْدِر[1]

وتتجلى قوة نفوس هذه الطائفة الثانية من الصعاليك في استماتتهم بالحياة في سبيل الوصول إلى الغاية التي يسعون. يقول عروة بن الورد:

فَلَلْموتُ خير للفتى من حياته   فقيراً، ومن مولًى تَدِبُّ عقاربُهْ
فقلت له: ألا أحي وأنت حر   ستشبع في حياتِك أو تموتُ
فسر في بلاد الله والتمس الغنى   تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا[2]

وفي رثاء أبي خراش الهذلي الصعلوك لأخيه، تعبير دقيق عن العزيمة الثابتة والإرادة القوية التي كان يتمتع بها هؤلاء الصعاليك لتحدي ظروف الحياة القاسية وتجاوزها وعدم الاستكانة لها:

ولكنّه قد نازَعتهُ مخامصٌ   على أنه ذو مِرَّة صادق النَّهض[3]

ومن الصعاليك مغامرون لجأوا إلى النهب والسلب، ومنهم الطرداء، أو الخلعاء، لأن قبائلهم تخلعهم من الانتساب إليها، فينتسبون إلى قبيلة أخرى على أساس الموالاة بالجوار[4].

وهكذا، فإن قيام فئة الصعاليك كان نتيجة انحلال الروابط الاجتماعية ـ الاقتصادية في المجتمع البدوي، وفقدان العدالة الاجتماعية.

وفي المراكز التجارية في شبه الجزيرة عامة، والواقعة منها على شبكة الطرق التجارية الكبرى بخاصة، أدى نمو التجارة واستفحال الربا إلى نشوء تفاوت مادي وتمايز اجتماعي بين أفراد القبيلة وإلى التعجيل في عملية التفكك الجارية في بنية المجتمع القبلي وظهور تركيب اجتماعي جديد يشغل فيه العنصر التجاري مكانة هامة

---

(1) ديوان عروة بن الورد، ص 72 ـ 73.
(2) عروة بن الورد: ديوان عروة. تحقيق عبد المعين ملوحي. مطابع وزارة الثقافة. دمشق 1966 ص 29، 34.
(3) دار الكتب المصرية: ديوان الهذليين. مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة 1364هـ 1945م ج2 ص 158.
(4) د. سالم عبد العزيز: تاريخ العرب في العصر الجاهلي ص 426.

ضمن التشكيلة الاجتماعية التي تتداخل فيها علاقات الاستثمار العبودي مع علاقات انتاج جديدة (المزارعة) أرقى نسبياً كما تقدم.

ففي مكة، بدأت تظهر معالم التمايز الاجتماعي في مجتمعها القبلي خلال القرن الخامس الميلادي. ثم أخذت تزداد وضوحاً مع نمو الحركة التجارية وتعاظم الاستثمار الربوي. ويذكر ابن سعد أنه حين تغلبت قريش على خزاعة وتسلم قصيّ، بعد أن كثر ماله وعظم شرفه، الزعامة القرشية على مكة، قطعها رباعاً بين قومه، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم[1]. والمغزى التاريخي لهذا الحدث، أنه في الواقع، كان تصنيفاً اجتماعياً لسكان مكة من بطون قريش وحلفائها روعي فيه الوضع المالي دون العرف القبلي، إذ جعلهم صنفاً ممتازاً أسكنهم في بطاح مكة حول الكعبة وهم (قريش البطاح)، وكان منهم التجار والأثرياء[2]. وصنفاً أدنى، أُسكن في ظواهر وهم (قريش الظواهر). وكانت قريش الظواهر متبدية أو شبه مستقرة، ولم تكن حالتهم المالية حسنة[3]. ويدل التصنيف المشار إليه، أن الوضع المالي والتجاري لأبناء القبيلة أصبح يحتل المركز الأول من الاعتبار، فكان أن أصبح بنو عبد مناف وبنو عبد الدار في مقدمة (قريش البطاح) لأنهم صاروا أوفر مالاً وأعظم تجارة، ثم احتلت أمية في قريش الجاهلية الأخيرة مكان الصدارة مذ أصبح فيها أعظم التجار ثراء، وبسطت سلطانها المالي والتجاري على كثير من قبائل المنطقة العربية الغربية خارج مكة. وبفضل مركز أمية المالي والتجاري، فإن أمراء القوافل كانوا منهم. وتتحدث كتب التاريخ عن أن القافلة التجارية التي كان قوامها «2500 جمل» والتي كان ترصد المسلمين لها سبباً في نشوب معركة بدر عام 624م كان يقودها أبو سفيان.

وفي القرن السادس الميلادي، ظهرت في المجتمع المكي أسر غنية، وأفراد أثرياء، مثل أسرة آل أبي أحيحة، وأسرة بني مخزوم، وأسرة بني عبد مناف، وعبدالله بن جدعان، وأبي سفيان، وعبدالله بن أبي ربيعة وغيرهم، جمعوا ثرواتهم من التجارة والربا ومن استثمار الأراضي الزراعية وتربية المواشي، وسكنوا بيوتاً حسنة، زينوها بأثاث جيد وفراش وثير، ولبسوا ملابس الحرير والثياب النفيسة الغالية

(1) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج1 ص 70 ـ 71.
(2) د. سالم عبد العزيز: نفس المصدر ص 315.
(3) د. علي جواد: تاريخ العرب قبل الإسلام ج4 ص 195.

الثمن المستوردة من بلاد الشام واليمن ومصر والهند والصين، وأكلوا أكلات الأعاجم كالفالوذج مثلاً، وتفننوا في الطبخ، وشربوا بآنية من ذهب وفضة وبلّور.

ومع تعاظم المال والاستثمار الربوي، كان الأغنياء يزدادون ثراء، في حين كان المعدمون والفقراء من أحرار القبيلة يزدادون ضنكاً وفقراً وإملاقاً، وتتوضح معالم التفاوت الاقتصادي والتمايز الاجتماعي إلى درجة انقسم فيها المجتمع المكي إلى طبقتين غير متناسبتي العدد والعدة: طبقة التجار والمرابين وسدنة الكعبة وأصحاب السلطة أو الأريستقراطية المكية أو «الملأ» أو «الأعزاء» كما في القرآن الكريم[1]، وهم يشكلون أقلية المجتمع المكي وطبقة الصعاليك والفقراء والأرقاء أو الأراذل كما في القرآن الكريم[2]، وهم يؤلفون أكثرية المجتمع المكي. وقد أنحى شعراء البادية ـ لسان حال الأكثرية المعدمة المسحوقة في المجتمع ـ باللائمة على أصحاب الثروة والمرابين وقبحوا أعمال الملأ المكي ودعوهم إلى الرفق بالفقراء وذكروهم بواجباتهم قِبَل الأرقاء والمظلومين. قال بشر بن المغيرة يحض الأغنياء على مساعدة الفقراء:

وكلهم قد نال شبعاً لبطنه ... وشبع الفتى لؤم إذا جاع صاحبه[3]

وصوّر الأعشى في شعره التناقضات الاجتماعية في مكة حين قال مخاطباً الأريستقراطية الملكية الملأ ـ:

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم ... وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا[4]

وكان العبيد، وهم الذين لا يملكون أية وسيلة للانتاج بل هم أنفسهم مملوكون، يعملون في خدمة الأريستقراطية البدوية والحضرية. وكان مصدرهم: السبي، والتجارة (النخاسة)، وعبودية الدين. والأرقاء من مصدر الأسر، هم أولئك العرب من الرجال والنساء، الذين كانوا يقعون في أيدي القبيلة في حروبها. وقد تكرر في الحديث ذكر السبي والسبية والسبايا. والسَبْيُ النهب وأخذ الناس عبيداً وإماء. والسبيَّة المرأة المنهوبة[5]. وكان سبي الرجال والنساء أمراً أساسياً في كل غارة. وقد يحدث أحياناً

---

(1) سورة المنافقين: آية 8. سورة هود: آية 27. المؤمنون: آية 24، 48. الشعراء: آية 34. المائدة: آية 57.

(2) سورة الشعراء: آية 111. سورة هود: آية 27.

(3) ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار ج3 ص90.

(4) أبي العباس ثعلب: كتاب الصبح المنير ص 109.

(5) ابن منظور: المصدر ذاته ج14 ص 368.

أن يفاجأ كل نساء الحي، وهم خلوفٌ فيؤخذن سبايا[1].

وكان يحدث أن تبيع القبيلة أسراها، فقد اشتعلت حرب بين لحيان وخُنَاعة، فكان بعضهم لا يزال يغزو بعضاً فإذا أصابت بنو لحيان من خناعة أحداً باعوه[2]. وكان زيد بن حارثة مولي الرسول (صلعم) من قضاعة أصابه سباء في الجاهلية لأن أمه خرجت به تزور قومها بني معن فأغارت عليهم خيل بني القين بن جَسْر فأخذوا زيداً، فقدموا به سوق عكاظ، فاشتراه حزام لعمته خديجة بنت خويلد، وقيل اشتراه من سوق حباشة فوهبته خديجة للنبي[3]. وكانت أم عمرو بن العاص «من بني عنزة» أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ[4]. وفي أخبار خناعة أنهم أسروا سيداً من سادات العرب فباعوه بمكة.

يستنتج مما تقدم، أن بيع الأسرى كان نشطاً في أسواق مكة. ويطلعنا ديوان الهذليين أنه كانت بمكة تجارة منتظمة تُروِّجها الحروب التي كانت لا تنقطع بين القبائل[5].

وتجدر الإشارة أن الأسرى العرب في الحروب القبلية، كانوا قلة بالنسبة للأرقاء الأجانب، ومرجع ذلك لأنهم غالباً ما يتحررون من الأسر بحرب مضادة تشنها القبيلة التي ينتمي إليها الأسرى على القبيلة التي أسرتهم[6]، وإما بتقديم الفدية. لهذا لم يكن يصير إلى العبودية من الأسرى العرب إلا من لم يكن يتيسر له أحد يدفع فديته أو لم يكن بقدرته أن يفدي نفسه.

وأكثر العبيد في شبه الجزيرة، في الجاهلية الأخيرة، كانوا من الغرباء الأجانب من سواحل أفريقية الشرقية ومن الأحباش بخاصة، وبعضهم كان من البيض، الفرس أو الروم من بينهم مثلاً سلمان الفارسي وصهيب الرومي. فقد كانت دولتا الروم البيزنطيين والفرس الساسانيين تبيعان ما يفيض عن حاجتهما من أسرى حرب الفريق

(1) نقائض جرير والفرزدق. مطبعة بريل - ليدن 1905 ج1 ص 145.
(2) د. يوسف خليف: الشعراء الصعاليك. دار المعارف بمصر 1959 ص 105.
(3) ابن الأثير: أسد الغابة.
(4) نفس المصدر ج4 ص 116.
(5) د. يوسف خليف: المصدر ذاته ص 105.
(6) د. علي جواد: المصدر ذاته ج4 ص349.

المغلوب في الأسواق أو ترسل هذه البضاعة الغالبة على أيدي العملاء إلى أسواق الجزيرة لبيعها هناك، وقد تهب آلافاً من الأسرى للمشايخ استرضاء لهم، وهؤلاء يبيعون هديتهم هذه للراغبين في الشرءا[1].

وكان العبيد احدى السلع التجارية الرائجة. ويبدو أن أعدادهم كانت كثيرة. فقد كان لعبدالله بن أبي ربيعة التاجر الثري عبيدٌ من الحبشة يعملون في جميع المهن، وكان عددُهم كثيراً، حتى لقد عرض على الرسول أن يستعين بهم في غزوة حنين[2]. ولعل مما يدل على كثرة العبيد أن هنداً بنت عبد المطلب أعتقت في يوم واحد أربعين عبداً من عبيدها[3]. وكان كل شريف من أشراف العرب يحرص ألا يخلو منزله من عبيد.

ومع نمو الحركة التجارية واستفحال الربا والاستثمار الربوي، كان عدد العبيد يتزايد بما ينضاف إليهم من رقيق الدَّين، وهم من الأحرار العرب الذين كانوا يستعبدون عند عجزهم عن دفع الدين وفائدته الفاحشة للمرابين.

وكانت شبه الجزيرة العربية، في فترة الجاهلية الأخيرة، من الأسواق النشيطة لتجارة السلع البشرية ـ العبيد. وكان يمارس النخاسة، نخاسون من الرجال والنساء. ويبدو من روايات الأخباريين، أن تجارة الرقيق كانت منتشرة بالذات في بني تيم ومنهم عبدالله بن جدعان التيمي تاجراً ثرياً ونخاساً، له جوارٍ يساعين، ويبيع أولادهن. فكانت جواريه تؤجر للرجال، وما ينتج عن هذا السفاح من نسل، يربى، فيبقي منه عبدالله ما يشاء، ويبيع منه ما يشاء[4].

والمساعاة البغاء أو الزنا. ويرى بعض علماء اللغة أن المساعاة ـ سعت الأمة بغت وساعاها مساعاة طلبها للبغاء ـ تكون في الحرة وفي الأمة. وذهب بعض آخر إلى أنها تكون في الإماء خاصة بخلاف الزنا والعهر فإنهما يكونان في الحرة وفي

---

(1) المصدر السابق، ج4 ص 165.

(2) الاصفهاني: أبو الفرج: الأغاني ج1 ص 65.

(3) الشريف، أحمد ابراهيم: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول. دار الفكر العربي ـ القاهرة 1965 ص 228. كما اعتق سعيد بن العاص مائة عبد اشتراهم فاعتقهم، نفس المصدر والصفحة.

(4) ابن قتيبة: المعارف ص 756. الفاسي، أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ج2 ص105. د. علي جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج4 ص96.

الأمة. وكان بعض الجاهليين يُكرهون إماءهم على الزنا ويأخذون أجورهن. فلما جاء الاسلام أبطل المساعاة(1).

وكان العبيد يستخدمون في أعمال انتاجية، في الري الاصطناعي وفي الزراعة وتربية الماشية وفي الصنايع والحرف اليدوية. فقد ذكر ياقوت: أن نخيل المدينة وزرعها تسقى من الآبار عليها العبيد(2). وكان لبني أمية «حمى» يقع في شمال الحجاز، يربون فيه الخيول، ويشمل على حقول تروى بماء الآبار وعلى أجمات من النخيل يعتني بها عبيدهم. واستخدم الأرقاء في شتى أنواع الحرف. كما استخدموا في أعمال استهلاكية: حماة وحراس للقوافل التجارية الخاصة بالأغنياء، وفي أعمال الخدمة البيتية في منازل أثرياء التجار والمرابين ووجهاء القبائل والعشائر.

وكان العبيد محرومين من الحرية الاجتماعية، مثقلين بالواجبات نحو أسيادهم. وكان يحدث في بعض الأحيان أن يستعيد بعض هؤلاء العبيد حريتهم مقابل خدمات لأسيادهم تسوغ عتقهم وتحرير رقابهم. وقد عرف أبناء الإماء البيض من آباء عرب بالهجناء. أما أبناء الإماء السود فيطلق عليهم اسم «أغربة» العرب مثل السُّلَيك بن السُّلَكة وتأبَّط شرّاً والشَّنْفَري وعنترة بن شداد.

وقد ساعد عمل العبيد الانتاجي على زيادة ثروة الطبقة الأريستقراطية وغناها في المال والماشية، كما روَّج تجارة الانعام ولا سيما الإبل والخيل.

---

(1) ابن منظور: المصدر نفسه ج14 ص387. الزبيدي: نفس المصدر ج10 ص 177. الطبري: تفسير الطبري ج18 ص 103 ـ 104. النيسابوري: أسباب النزول ص245 ـ 246. قال المفسرون: نزلت الآية رقم 33 من سورة النور: ﴿... ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء...﴾ في معاذة ومسيكة جاريتي عبدالله بن أبي المنافق، كان يكرههما على الزنا لضريبة يأخذها منهما وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية يؤجرون أماءهم النيسابوري: أسباب النزول ص 245. وقال مقاتل: نزلت في ست جوار لعبدالله بن أبي كان يكرههن على الزنا ويأخذ أجورهن. وهن: معاذة، ومسيكة، وأميمة، وعمرة، وأروى، وقتيلة. فجاءت أحداهن ذات يوم بدينار وجاءت أخرى بدونه، فقال لهما: ارجعا فازنيا. فقالتا والله لا نفعل، قد جاءنا الله بالاسلام وحرم الزنا. فأتيا رسول الله (صلعم) وشكتا إليه. فأنزل الله تعالى هذه الآية. نفس المصدر ص245 ـ 246. وذكر أن رجلاً من قريش أسر يوم بدر، وكان عبدالله بن أبيّ أسره. وكان لعبدالله جارية يقال لها معاذة، فكان القرشي الأسير يراودها عن نفسها، وكانت تتمنع منه لاسلامها. وكان ابن أبيّ يكرهها على ذلك ويضربها، لأجل أن تحمل من القرشي، فيطلب فداء ولده، فقال الله تعالى ﴿... ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء...﴾ المصدر ذاته ص 245 ـ 246 الطبري: تفسير الطبري ج18 ص103.

(2) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج5 ص 82.

وكانت الأريستقراطية البدوية والحضرية تستثمران أتعاب العبيد بشتى الطرق. لذا كان من الطبيعي، أن توحد ظروف الاستغلال والشقاء المادي والعبودية بين العوام والأرقاء وسائر المعدمين والمضطهدين في النضال المشترك ضد الاريستقراطية العربية عامة، والمكية بخاصة في سبيل تحسين ظروف حياتهم وتحررهم من العبودية.

ينبغي القول أن الحركة الاسلامية، كانت قد نشأت في حقبة تاريخية تعاظم فيها الرأسمال التجاري والاستثمار الربوي، وتضاعف بالتالي فيها، استغلال جهد الرقيق والعوام.

إن سيطرة أريستقراطية قريش المالية والتجارية كان لا بد لها أن تنتج، بدورها، مؤسستها السياسية المعروفة تاريخياً بـ(دار الندوة)، البذرة الأولى للدولة في مجتمع مكة التي من شأنها أن تنظم العلاقة السلطوية لهذه السيطرة مع الفئات الاجتماعية الأخرى الخاضعة لاستغلالها الاقتصادي، وأن تضفي على هذه العلاقة وجهها الحقوقي الملائم للوضع التاريخي آنذاك، كيما تفرض شرعيتها على تلك الفئات نفسها التي أصبح عليها أن تخضع سياسياً كما هي خاضعة اقتصادياً لاريستقراطية قريش الحاكمة ـ الملأ[1].

وكانت الندوة مجلساً يمثل الأريستقراطية. وفيها كانت قريش تقضي أمورها[2]، فما يتشاورون في أمر ينزل بهم، ولا يعقدون لواء الحرب قوم من غيرهم إلا في الندوة، وما تنكح أمرأة ولا يتزوج رجل من قريش، وما تدرع جارية إذا بلغت أن تدرع من قريش إلا في الندوة، يشق عليها فيها درعاً ثم تدرعه وينطلق بها إلى أهلها[3].

إن سلطة الملأ والندوة، هي هذه البذرة الأولى للدولة، إنه جنين دولة التجار ومستغلي سائر المنتجين من الأحرار (الزراع، والحرفيين، ومربي الماشية). وإن ظهور هذا الشكل من الدولة الجنين، هو في الوقت نفسه، شكل لوحدة التقطع والاستمرارية في تاريخ شبه الجزيرة العربية[4].

لقد وجد اتجاه حركة تطور الواقع الاقتصادي ـ الاجتماعي نحو التوحيد تعبيراً

---

(1) د. حسين مروة: المصدر ذاته ج1 ص230.

(2) ابن هشام: السيرة النبوية ج1 ص125. الطبري تاريخ الأمم والملوك ج2 ص18.

(3) نفس المصدرين وذات المكانين.

(4) د. حسين مروة: المصدر ذاته ج1 ص236.

عنه في مجال الوعي الديني لدى سكان شبه الجزيرة متمثلاً بتيار الحنفاء[1] الديني التوحيدي الذي كان ظهوره ايذاناً بالثورة على الوثنية ومقدمة لظهور الاسلام. فقد كانت الوثنية تعبيراً دينياً عن العلاقات القبلية التعددية الانقسامية.

وعندما أخذت هذه العلاقات بالتفكك والانحلال، نتيجة لتطور القوى المنتجة وظهور الملكية الخاصة لوسائل الانتاج والمعيشة وتنامي المبادلات التجارية واتجاه حركة الواقع الاقتصادي ـ الاجتماعي نحو التوحيد، شرعت الوثنية بدورها إلى التفسخ، وظهرت دعوة الحنفاء التوحيدية التي كانت بداية الارهاص الفعلي بولادة دعوة الاسلام. وقال أمية بن أبي الصَّلت:

كل دين يوم القيامة عند اللّـ ـه إلا دين الحنيفة زور[2]

وقال زيد بن نفيل:

أرباً واحداً أم ألف رب أدين إذا تُقُسِّمت الأمور
تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الجلد الصبور[3]

وهكذا. فإن نمو الحركة التجارية وقيام الأسواق الموسمية الكبرى وتوحيد اللهجات في لهجة مشتركة متميزة، لهجة قريش، أصبحت لغة التعبير الفني ولغة التعامل المشترك بين مختلف القبائل أثناء انعقاد المواسم العامة التجارية والدينية والأدبية، وتوظيف الشعر كأداة اعلامية في خدمة التوجه الوحدوي، وتشكيل الأحلاف بين القبائل العربية لتوحيد صفوفها سياسياً، ونشوء الديانة الحنيفية التوحيدية، هذه جميعاً قد مهدت لظهور الاسلام.

نشأ الإسلام في شبه الجزيرة العربية كإيديولوجية جديدة تعكس المتغيرات الكبرى التي طرأت على المجتمع العربي. وأهمها تخفيف التفاوت في توزيع الثروة، وتحريم الربا، وتحسين أحوال الرقيق. كما كان الإسلام بعقيدته الوجدانية ودعوته كافة

---

(1) المصدر السابق، ص309، 318. والحنفاء جماعة من المثقفين المتنورين تأثروا بمبادىء التوحيد اليهودية والنصرانية ولكنهم لم يكونوا يهوداً ولا نصارى. دعا الحنفاء إلى التوحيد والإصلاح ونبذ عبادة الأصنام (الآلهة المتعددة) وإلى التبصر بأمور الكون والميعاد وإلى التقشف والزهد. وبالتالي كان الحنفاء طرازاً من الناس انصرفوا إلى التعبد للإله الواحد وساحوا في البلاد للاتصال بالناس ونشر أفكار التوحيد. وهكذا كانت الحنيفية ثورة على الوثنية واحتجاجاً على ثراء الأريستقراطيين الفاحش وأساليبهم الدنيئة في جمع المال، وايديولوجية توحيدية سبقت الاسلام ومهدت لظهوره.

(2) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ج4 ص 126.

(3) نفس المصدر ج3 ص119.

المسلمين بغض النظر عن فوارقهم الاجتماعية أو القبلية الاطار الايديولوجي لتلاحم العرب في وحدة سياسية واحدة.

عندما لم يتيسر لدعوة النبي الكريم سبل النجاح في مكة، هاجر وأصحابه إلى المدينة حيث شكل فيها المهاجرون والأنصار رابطة اسلامية عرفت بجماعة المؤمنين. وهي أشبه ما تكون بالمشاعية ولكن بإطار ديني. وكانت هذه الجماعة الجديدة فوق كل نظام قبلي أو عشائري قديم، إذ كانت العضوية فيها مفتوحة لكل فرد يقبل الاسلام. وعلى أساس التآخي في الدين، انتظم في عقدها المؤمنون بغض النظر عن فوارقهم الاجتماعية أو القبلية أو العرقية. وأصبحت هذه الجماعة الجديدة بتنظيمها، القاعدة الأساسية التي قامت عليها الدولة العربية الاسلامية.

الفصل الثالث

تفجر الصراعات بين فئات الجماعة الإسلامية

منذ وفاة الرسول الكريم، تفجر الصراع، الذي ظل كامناً زمناً ما، بين فئات الجماعة الاسلامية، في وقت كانت الجزيرة العربية في حالة من الفوضى والتوتر نتيجة لتمرد القبائل على سلطات المدينة.

انفجر الصراع بين فئات الجماعة، حول مسألة الخلافة ومنصبها، هل الخلافة حق إلهي أم هي حق للمسلمين؟ وهل منصب الخليفة منصب إلهي أم هو حق للمهاجرين أم للأنصار أم لبني هاشم من قريش أم لقريش من العرب أم للمسلمين من العرب وغير العرب حتى لو كان «عبداً حبشياً» كما قال الخوارج بعد ذلك؟[1].

كان شكل الصراع في كل ذلك، دينياً، وكانت الحجج لكل فريق دينية أيضاً، لكنه اجتماعي ـ سياسي، شبه طبقي بجوهره ومضمونه.

في اجتماع (سقيفة بني ساعدة) في المدينة، نشب النزاع بين المهاجرين والأنصار وطالب هؤلاء الأخيرون بالمساواة في الحقوق والسلطة مع القرشيين، ونادوا «منا أمير ومنكم أمير»[2]. وقال أبو بكر وهو من المهاجرين «منا الأمراء وأنتم الوزراء»[3]. ثم نشب النزاع بين المهاجرين أنفسهم من هاشميين وغير هاشميين، ثم بين الأوس والخزرج من الأنصار. واحتدم الجدال حتى كادت الفتنة تشتعل بينهم، لولا أن أنقذ الموقف بشير بن سعد أحد زعماء الخزرج، إذ تقدم إلى أبي بكر وبايعه، فكان أول من بايعه من الناس[4]. ولما رأت الأوس ما صنع بشير وما تدعو إليه قريش وما

---

(1) د. حسين مروة: المصدر السابق ج1 ص396.

(2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج2 ص443.

(3) نفس المصدر والصفحة.

(4) طبقات ابن سعد ج3 ص 182.

تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة، قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير، وكان أحد النقباء، والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً فقوموا فبايعوا أبا بكر فقاموا إليه فبايعوه فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا عليه...، وأقبل الناس من كل جانب يبايعونه[1]. وأصبح أبو بكر أول خليفة من «الخلفاء الراشدين» الأربعة، وجميعهم من المهاجرين، للنبي بعد وفاته.

لقد تكشفت دوافع السلطة علانية لدى كل هؤلاء الفرقاء في الاجتماع الذي عقد في سقيفة بني ساعدة وخلفه لتقرير أمر الخلافة. وإذا كان الصراع قد انحسم مؤقتاً بانتخاب أبي بكر، لكنه لم ينحسم تاريخياً ولا دينياً، لأن الدوافع القائمة وراءه بقيت دون حسم، ولأن المحتوى السياسي ـ الاجتماعي لهذا الصراع هو هو لم يتغير. غير أنه صراع ايجابي تاريخياً. فهو، من جهة، كان ضرورة يقتضيها قانون حركة التطور الاجتماعي، وهو من جهة ثانية كان مصدراً خصباً لنشوء حركات فكرية أصبحت، فيما بعد، من مكونات حركة تطور الفكر العربي الاسلامي، ولا سيما الفكر الفلسفي منه[2].

لقد كمن الصراع حيناً، ثم عاد إلى التفجر من جديد وتصاعد إلى درجة العنف الثوري الذي أدى إلى مقتل الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان، كما أدى إلى صراع حزبي جديد بلغ حد العنف المسلح بين الخليفة الراشدي علي بن أبي طالب وفئة من «الجماعة» على رأسهم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام تؤيدهما عائشة أرملة النبي الكريم، ثم بين الخليفة علي ومعاوية بن أبي سفيان عامل سورية، ممثلاً حزب الأمويين، ونشوء حزب جديد خرج على علي في حرب صفين وإثر مكيدة التحكيم هو حزب الخوارج.

كان بنو أمية من أغنى المسلمين في حقبة الخلفاء الراشدين (11 ـ 40هـ/ 632 ـ 661م)، فإنهم جمعوا ثروات كبيرة أضافوها إلى ما كان لديهم من مال سائل وجامد قبل اسلامهم المتأخر. وليس معنى هذا إنكار ما كان للأمويين من نفوذ كبير في قيادة الأمة أيام النبي، وما لعبوه من دور هام في حروب الفتح بعد وفاته.

---

(1) الطبري: نفس المصدر ج2 ص468 ـ 459.
(2) د. حسين مروة: المصدر ذاته ج1 ص393.

وعندما ولي عثمان الخلافة (24 ـ 35هـ/ 644 ـ 656م)، آثر أقرباءه من بني أمية، دون العرب والمسلمين، بأجلّ الأمصار خطراً (كالكوفة والبصرة والشام ومصر) وأرفع المناصب شأناً في الادارة والجيش. فقد ولى الوليد بن عقبة بن أبي معيط ـ وهو ممن أخبر النبي أنه من أهل النار[1] ـ الكوفة بعد أن عزل عنها سعداً بن أبي وقاص[2]، ثم عزل الوليد وولى مكانه سعيداً بن العاص[3]. وولى عبدالله بن عامر على البصرة بعد أن عزل أبا موسى الأشعري[4]، وجمع الشام كلها لمعاوية بن أبي سفيان[5]، وبسط سلطانه عليها إلى أبعد حد ممكن بعد أن كانت الشام ولايات تولى إدارتها عمال من قريش وغيرها من احياء العرب. وولى عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وهو ممن نزل القرآن بكفره وذمه وأهدر النبي دمه يوم فتح مكة، بعد أن عزل عمرو بن العاص[6]. وكل هؤلاء العمال من ذوي قرابة عثمان، منهم أخوه لأمه، ومنهم أخوه من الرضاعة، ومنهم ابن خاله، ومنهم من يجتمع معه في نسبه الأدنى إلى أمية بن عبد شمس. وتشير الروايات التاريخية إلى الدور الخبيث الذي قام به كاتبه وقريبه مروان بن الحكم الذي استغل ضعف الخليفة وعجزه فاستولى على مقاليد الحكم في المدينة، متغاضياً عن أعمال النهب والاستغلال التي كان يرتكبها أقرباؤه الأدنون.

ويروى أن عمر بن الخطاب قد خاف شيئاً من هذا الإيثار، فتقدم إلى عثمان، إن ولي أمور المسلمين في ألا يحمل بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس[7]. غير أن عثمان حمل بني أمية وبني أبي معيط على رقاب المسلمين اباحة لأموالهم واستغلالاً لمناصبهم في الاثراء غير المشروع ونفى المعارضين لهم أو حبسهم أو ضربهم، مما أوغر صدور الناس وأثار نقمتهم عليه وعلى إدارته.

---

(1) المسعودي: مروج الذهب ج2 ص343. والوليد بن عقبة أخو عثمان لأمه. البلاذري. أنساب لأشراف ج5 ص29.
(2) الطبري: تاريخ الأمم ج3 ص310.
(3) نفس المصدر ج3 ص339.
(4) نفس المصدر ج3 ص319. وعبدالله بن عامر بن خالد عثمان. البلاذري: انساب الأشراف ج5 ص28.
(5) نفس المصدر ج3 ص339.
(6) نفس المصدر ج3 ص315. وعبدالله بن سعد بن أب سرح أخو عثمان من الرضاعة. البلاذري: أنساب الأشراف ج5 ص28.
(7) البلاذري: أنساب الأشراف ج5 ص30.

حين ولّى الخليفة عثمان أقرباءه على الأمصار، وندبهم لقيادة الجيوش، جعلوا يستغلون مناصبهم، وأول ما فعلوه هو أن استولوا على أرض الصوافي في العراق والشام، وراحوا يستثمرونها بالأساليب الاقطاعية وبواسطة عمل العبيد، وجمعوا ثروات فاحشة من عائدات الضرائب التي فرضتها التشريعات السابقة ومن فرض ضرائب جديدة وباهظة على الناس، حتى انشأوا طابعاً شبه اقطاعي للدولة، إذ أصبحوا من كبار الملاكين للمزارع والعقارات[1].

وقد أسرف عثمان في إغداقه أموال بيت مال المسلمين لمصلحة أسرته وأقربائه، فأعطى مروان بن الحكم خمس الغنيمة التي غنمها المسلمون في أفريقيا أو خمس الخمس ومقداره ثلثمائة قنطار ذهباً[2]. وأعطى الحكم عمه، وأعطى ابنه الحارث ثلثمائة ألف درهم، وأعطى عبدالله ابن خالد بن أسيد الأموي ثلثمائة ألف، وأعطى كل واحد من الذين وفدوا مع عبدالله بن خالد مائة ألف، وأعطى الزبير بن العوام ستمائة ألف، وأعطى طلحة بن عبيدالله مائة ألف، وأعطى سعيد بن العاص مائة ألف، وزوَّج ثلاثاً أو أربعاً من بناته لنفر من قريش فأعطى كل واحد منهم مائة ألف دينار[3].

وإذ أطلق عثمان وعماله أيديهم في الأموال العامة وأموال الصدقة، لم يكن غريباً أن يحتاج بيت المال إلى ما يواجه به نفقات الحرب والسلم وسخاء الامام والعمال فيدعو إلى التشدد على الرعية والعنف بها في جباية الخراج والجزية والزكاة. وهذا ما يفسر لنا ما روي من أن المصريين شكوا من ظلم عاملهم عبدالله بن سعد بن أبي سرح، شقيق عثمان من الرضاعة، وأنه كان يأخذ من المعاهدين أكثر من الحق حسب قول عمرو بن العاص لعثمان «وهلكت فصالها». كما يفسر لنا ما روي من أن عمال الصدقة كانوا يظلمون أهل البادية. وينسب ظلمهم إلى عثمان ويبلغه ذلك فلا يغير منه[4]. وقد انتهت سياسة عثمان المالية إلى اضطراب الوضع المالي وظلم الرعية، ونشوء طبقة غنية تملك المال والأراضي تستغل فيها جهد الكادحين من الفلاحين والعبيد.

---

(1) د. حسين مروة: المصدر السابق ج1 ص439.
(2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج3 ص314.
(3) د. طه حسين: الفتنة الكبرى ص193.
(4) المصدر السابق ص193. البلاذري: انساب الاشراف ج5 ص29.

وكتدبير لقمع المعارضين لسياسته، لجأ عثمان إلى نفي ناقديه أو ضربهم أو حبسهم. فقد نفى أبا ذر الغفاري جندب بن جنادة، الصحابي الصالح والمسلم التقي النقي الكامل الذي أحبه النبي وأثنى عليه بقوله، (ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء رجلاً أصدق لهجة من أبي ذر)[1] إلى الربذة. وكان أبو ذرّ يقيم في سورية يشجب علناً وبعنف تصرفات عامل الخليفة معاوية وقواد الجيش لابتزازهم مال المسلمين. وأنكر النظام الاجتماعي الذي أنشأ طبقة الأغنياء وأتاح لهم أن يكتنزوا الذهب والفضة ويستكثروا المال إلى غير حد، فأحبه الفقراء وولعوا به وشكا الأغنياء ما يلقون من الناس[2]. فطلب معاوية إلى الخليفة عثمان أن يرحل هذا الداعية الخطير الذي أصبح يحتل مكانة هامة في نفوس العامة من الناس. فاستدعى الخليفة أبا ذر إلى المدينة حيث أقام فيها، ثم نُمي إليه أن عثمان أسرف في وهب الأموال العامة لأقاربه، فثارت ثائرته وجعل ينتقد عمل الخليفة بقارس الكلام، وينذره والذين نالوا عطاءه بنار جهنم كما في القرآن الكريم[3]. واستمر هذا المدافع النزيه عن عامة الناس في نقده العلني اللاذع معلناً للناس أن الأغنياء يزدادون غنى على حساب الفئة الفقيرة من الناس، حتى نفاه عثمان إلى الرَّبذة، فمات في منفاه فقيراً معدماً لم يخلف لزوجته من المال ما كان يكفي لدفنه[4]. في حين زادت أموال عثمان أيام خلافته وأموال أقاربه من بني أمية والأريستقراطية المكية زيادة بالغة. فقد بنى عثمان لنفسه بيتاً من الحجر في المدينة، أبوابه من الخشب الثمين من الساج والعرعر، واشترى فيها العقارات الكثيرة بما في ذلك البساتين وعيون الماء ودرت عليه بساتين الفاكهة التي كان يملكها في وادي القرى وفي حنين وأمكنة أخرى دخلاً كبيراً قدر بمئة ألف دينار في السنة، هذا فضلاً عما كان يملكه من جياد وإبل وقطعان ماشية. وبعد وفاته أحصي ما في خزائنه فكان مئة وخمسين ألف دينار، ومليون درهم[5]. وبنى الزبير بن العوام داره بالبصرة، وابتنى أيضاً دوراً بمصر والكوفة والإسكندرية[6]. وبلغ مال

(1) تاريخ اليعقوبي ج2 ص172. طبقات ابن سعد ج4 ص228. البلاذري: أنساب الأشراف ج5 ص54.
(2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج3 ص336.
(3) سورة التوبة. آية: 38 ـ 35.
(4) البلاذري: أنساب الأشراف ج5 ص56. طبقات ابن سعد ج4 ص233.
(5) المسعودي: مروج الذهب ج2 ص341 ـ 342.
(6) نفس المصدر ج2 ص342.

الزبير بعد وفاته اثنين وخمسين مليوناً في قول المكثرين وخمسة وثلاثين مليوناً في قول المقللين. ولا غرابة في ذلك فقد كانت للزبير خطط في الفسطاط وخطط في الاسكندرية وخطط في البصرة وخطط في الكوفة واحدى عشرة داراً في المدينة، وكانت له بعد ذلك غلات وعروض أخرى وعبيد وأماء[1]. وبنى طلحة بن عبيد الله التيمي داره بالكوفة، وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك، وبناحية الشراة أكثر مما ذكرنا، وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج[2]. ولما مات كانت تركته ثلاثين مليوناً من الدراهم، كان النقد منها مليونين ومائتي ألف درهم ومائتي ألف دينار، وكان سائرها عروضاً وعقاراً[3]. وابتنى عبد الرحمن بن عوف الزهري داره ووسّعها، وترك ميراثاً ضخماً، كان منه مئة فرس وألف بعير وعشرة آلاف شاة من الغنم وأرض كانت تزرع على عشرين ناضحاً، وبلغ ربع ثمن ماله أربعة وثمانين ألف دينار[4].

ولم ينحصر أمر نفي الناس من ديارهم بالخليفة وحده، وإنما أذن لعماله أن «يسيِّروا» الناس كلما أنسوا منهم بعض ما يكرهون، فجعل عماله يتقاذفون جماعة من أهل الكوفة، ينفيهم سعيد بن العاص إلى معاوية، ثم يردهم معاوية إلى سعيد، ثم يسيرهم سعيد إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، أمير حمص[5]، دون أن يحاكموا أو تقوم عليهم البينة أو يسمع منهم دفاعهم عن أنفسهم.

وامتدت يد الخليفة وعماله على الرعية بالضرب. فقد ضرب عثمان عمار بن ياسر حتى أصابه الفتق[6]. وضرب عبدالله بن سعد عامل مصر بعض الذين شكوه إلى الخليفة حتى انتهى بأحدهم إلى الموت[7].

لقد أثارت أعمال النهب والاستغلال، وما صحبها من خداع وعنف، نقمة الناس ولا سيما رجال الخليفة عمر الذين كانوا قد عزلوا من مراكز النفوذ والمال. ولاقت

---

(1) طبقات ابن سعد ج3 ص109 ـ 110.
(2) المسعودي: نفس المصدر والصفحة.
(3) طبقات ابن سعد ج3 ص221.
(4) المسعودي: نفس المصدر والصفحة.
(5) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج3 ص360 ـ 367.
(6) البلاذري: أنساب الاشراف ج5 ص49.
(7) المصدر ذاته، ج5 ص26.

هذه النقمة العامة تجاوباً لدى القبائل وخاصة قبائل العراق التي كانت تعاني البلاء من تبديد عمال عثمان لأموال بيت مال المسلمين.. وأخذ الاستياء بين الناس ينمو ويتسع ويمتد في صفوف البسطاء والكادحين بخاصة، وفي صفوف الأحزاب السياسية في المدينة، واستحالت النقمة إلى فتنة أثارها زعماء الناقمين في الكوفة والبصرة ومصر، الذين وفدوا على المدينة بدعوى الحج. وقد تجاوب معهم أهل المدينة الناقمون، ثم ما لبثت أن نشبت الثورة. وحاصر الثائرون من خلالها بيت عثمان ثم تسوروا الجدار المحيط به وقتلوه.

فالابتسام للمال يغري بالاستزادة منه. والاستزادة منه تفتح أبواباً من الطمع والاستغلال لا سبيل إلى اغلاقها. وإذا وُجِدَ الطمع والاستغلال وجد معه التنافس والتباغض والتهالك على الدنيا، وإذا وجدت كل هذه الخصال وجد معها الحسد الذي يحرق قلوب الذين لم يتح لهم من الثراء ما أُتيح لأصحاب الثراء ويثير نقمة البسطاء الفقراء والمعدمين وسائر المستغلين الكادحين من الفلاحين والعبيد على أصحاب الثراء والضياع والسلطان المستغلين.

هذا ما حدث، وهو الذي دفع بسطاء الناس من أهل الأمصار إلى أن يثوروا بعمالهم ثم إلى أن يثوروا بخليفتهم، ثم إلى أن يحاصروه ويقتلوه.

وجدير بالملاحظة أن الثوار كانوا قد طلبوا إلى عثمان قبل مقتله، أن (اعزل عنا عمالك الفساق واستعمل علينا مَن لا يتهم على دمائنا وأموالنا واردد علينا مظالمنا).

قال عثمان: (ما أراني إذاً في شيء إن كنت استعمل من هويتم وأعزل من كرهتم، الأمر إذاً أمركم قالوا: والله لتفعلن أو لتعزلن أو لتقتلن، فانظر لنفسك أو دع فأبى عليهم وقال: ما كنت لأخلع سربالاً سربلنيه الله عز وجل. والله لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إليّ من أن أخلع قميصاً قمصنيه الله عز وجل)[1].

يتبين من هذا النص أن عثمان يرى بأن الخلافة تكليف من الله وثوب أسبغه الله عليه، فهو ليس مسؤولاً أمام الناس وإنما هو مسؤول أمام الله، وبالتالي ليس للمسلمين الحق في أن يراقبوه أو يعزلوه فضلاً عن أن يعاقبوه. في حين يرى الثوار، وهم يشكلون جمهور المسلمين، بأن الخلافة تكليف من الأمة «اردد خلافتنا واعتزل أمرنا»[2]، والأمة فوق الخليفة، وهو مسؤول أمامها، فإن أحسن السيرة وعدل نال

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج3 ص404 ـ 405.
(2) نفس المصدر ج3 ص409.

رضاها وثقتها وتأييدها وإن أساء السيرة وجار وظلم فمن حقها أن تعزله وتعاقبه.

والواقع أن هذين المفهومين عن الخلافة والخليفة، إنما يمثلان في جوهرهما اتجاهين اجتماعيين سياسيين. الأول يمثل الأريستقراطية الطبقية المستغلة، والثاني يمثل النزعة الديمقراطية التقدمية لجمهور المسلمين.

بعد مقتل عثمان، بويع علي بن أبي طالب بالخلافة (35 - 40هـ/ 656 - 660م). ولما كانت مبايعته قد تمت حسب أصولها فقد كان على الأمصار أن تتبع العاصمة في المبايعة فانتخاب الخليفة يعتمد على أهل الشورى في المدينة وليس على أهل الأمصار. يؤيد ذلك ما أورده الطبري «أنه لما اجتمع أهل المدينة قال لهم أهل مصر. أنتم أهل الشورى وأنتم تعقدون الإمامة وأمركم جائز على الأمة فانظروا رجلاً تنصبونه ونحن لكم تبع»[1].

وكان على الخليفة الجديد أن يبادر باستئصال أسباب التذمر. فهؤلاء الثائرون الذين أذكوا الثورة وقتلوا عثمان لم يكونوا يكتفون بتغيير الخليفة، وإنما كانوا يريدون تغيير السياسة وعزل العمال، الذين طالما أنكر عليهم عليّ نفسه قبل توليه الخلافة سوء إدارتهم وسيرتهم في الناس، وردّ الأموال العامة التي وزعها عثمان على أقربائه ومقربيه.

ويبدو أن الخليفة علياً قد أخذ بمطاليب الثوار. فأمر بعزل ولاة عثمان باستثناء أبي موسى الأشعري الذي اختاره أهل الكوفة والياً عليهم، كما أمر بأن ترتجع الأموال التي أجاز بها عثمان حيث أصيبت أو أصيب أصحابها. فقد خطب في اليوم الثاني من بيعته بالمدينة قائلاً: «ألا ان كل قطيعة اقتطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال فإن الحق القديم لا يبطله شيء ولو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإماء وفرق في البلدان لرددته إلى حاله فإن في العدل سعة. ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق»[2].

ولكن فئة من «الجماعة» التي كانت قد أثرت واحتلت مكانة اجتماعية بارزة، راحت تعارض مبايعة علي بالخلافة. وكان على رأس هذه الفئة طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام تؤيدهما عائشة أرملة النبي وابنة خليفته الأول أبي بكر.

---

(1) تاريخ الأمم والملوك ج3 ص455.

(2) عز الدين أبي حامد ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة. جزء أول ص 105.

وبالرغم من أن طلحة والزبير كانا من المعارضين لعثمان والمحرضين عليه ومن الأوائل الذين بايعوا علياً بالخلافة، فإنهما تنكرا لمبايعته، واستغلا مقتل عثمان. كما استغلا مكانة السيدة عائشة في نفوس المسلمين وما كان معروفاً أنها تجد على علي موجدة شديدة منذ حديث الأفك، أقول استغل طلحة والزبير هذه الأمور وغيرها لتحريض المسلمين، وإنهما توجها إلى العراق، وهو عين المال ومصدر الفيء، بهدف انتزاعه من علي والسيطرة عليه وعلى ما وراءه من أقاليم، فإذا فرغوا من ذلك كان التعاون بينهم وبين معاوية على علي[1]. غير أن علياً لم يجد صعوبة في القضاء على هذه المعارضة. ذلك لأن زعماء تلك الفتنة لم يلقوا تجاوباً كبيراً من عامة الناس. أضف إلى هذا أن جيشهم لم يكن ليستطيع الوقوف في وجه القوات التي حشدها علي، والتي هزمت قوات طلحة والزبير في معركة الجمل بموضع الخريبة قرب البصرة سنة 36هـ/ 656م وقتل فيها طلحة والزبير، وأرسل علي عائشة إلى المدينة مكرمة[2].

أما المقاومة العنيفة التي لقيها علي فكانت من الأمويين الذين كانوا قد ازدادوا غنى وجاهاً في عهد الخليفة عثمان. وتزعَّم تلك المقاومة معاوية عامل عثمان في سورية، الغنية المتحضرة. والذي كان عنده جيش ومال وفير.

كان معاوية خلال إمارته الطويلة على بلاد الشام لمدة عشرين سنة متواصلة، قد أوثق علاقات حسنة مع الاقطاعيين المحليين وأغنياء المدن وكبار التجار من السكان الأصليين، وذلك بمراعاته التامة لمصالحهم الطبقية. وأعفى رجال الدين على مختلف مذاهبهم من الضرائب، فضمن بهذه السياسة تأيد جميع الفئات النافذة في سورية.

واهتم معاوية بتطوير الزراعة وأعمال الري وتنشيط التجارة وحماية الصناعة المحلية بابقائه الحواجز الجمركية على حدود سورية بالرغم من كون هذه البلاد أصبحت جزءاً من الدولة العربية. وأنشأ في الشام جيشاً قوياً ليكون أداة لخدمة الأرستقراطية الأموية وطموحاتها الواسعة الصعبة، كما أنشأ اسطولاً حربياً تجارياً.

---

(1) روى وهب بن جرير، قال: قال رجل من أهل البصرة لطلحة والزبير. إن لكما صحبة وفضلاً. فأخبراني عن مسيركما هذا وقتالكما، الشيء أمركما به النبي (ﷺ) أم رأي رأيتماه؟ فأما طلحة فسكت، وجعل ينكث الأرض. وأما الزبير فقال: ويحك ويحك أخبرنا إن ها هنا دراهم كثيرة فجئنا لنأخذ منها (القاضي عبد الجبار: المغني في أبواب التوحيد والعدل ج2 القسم الثاني ص89). أرى أن الطموح إلى السلطة وما يرتبط بها من مغانم ومكاسب مادية قد لعب دوراً في تحريك طلحة والزبير ضد علي.

(2) طبقات ابن سعد ج3 ص32. تاريخ اليعقوبي ج2 ص182 ـ 183.

وهكذا، أوجد معاوية في بلاد الشام قاعدة مادية وأساساً مكيناً لدولة أموية خطط لها بحنكة ودهاء وواقعية سياسية.

عندما طلب الخليفة عثمان من عامله وقريبه معاوية مساعدته على قمع الفتنة، تباطأ هذا بنجدته، وأخذ يراقب تطور الأحداث ويترصدها، وترك أطراف موقعة الجمل يقتتلون لتضعف قواهم جميعاً. وحين وقعت حرب صفين ولاحت علامات النصر لجيش علي، لجأ إلى خدعة رفع المصاحف ودعوة عليّ إلى تحكيم كتاب الله[1]، ولم يترك لخصمه الفرصة ليجني ثمار ظفره، ثم كانت مكيدة التحكيم وخروج جماعة من أنصار علي عليه وهم الخوارج. ومحاربته لهم وانتصاره عليهم في موقعة النهروان[2].

وانصرف علي عقب خديعة التحكيم وحرب الخوارج في النهروان يجاهد في أصحابه ليحملهم على النهوض معه إلى حرب أهل الشام، ويبعث البعوث لرد غارات معاوية على أطراف العراق والحجاز واليمن، ويجاهد في الخوارج الذين يجاهرونه بالعداء وينشرون الروع في الناس ويجاهد في عماله ليأخذهم بالأمانة، ويجاهد ضد اغراءات معاوية لرعاياه بالمال. وبينما كان علي يناضل وسط هذه الظروف الصعبة والخطيرة، ويلتمس الحلول ويتخذ المواقف من خلال رؤيته المثالية للأمور والأحداث، اغتاله عبدالرحمن بن ملجم الخارجي، كجزء من مؤامرة ارهابية ائتمر عليها جماعة من الخوارج بمكة على قتل علي بن أبي طالب ومعاوية ابن أبي سفيان وعمرو بن العاص وعهد بتنفيذها إلى ثلاثة منهم هم: عبد الرحمن بن ملجم الحميري لقتل علي وبُكير التميمي لقتل معاوية والبُرَك بن عبدالله التميمي لقتل عمرو بن العاص[3]، في الكوفة عام 40هـ[4]. إذاً قُتِل علي وآلت الخلافة إلى معاوية وتأسست الدولة الأموية.

وهكذا مضى عهد الخلفاء الراشدين (11 ـ 40هـ/ 632 ـ 661م) عبر صراعات

---

(1) تاريخ اليعقوبي ص188. يبدو أنه خلف الرايات والمصاحف التي رفعها خصوم أمير المؤمنين علي، كان هناك الثروات والأموال التي حددت التطورات الاقتصادية المستحدثة.

(2) طبقات ابن سعد ج3 ص32. تاريخ اليعقوبي ج2. ص193.

(3) طبقات ابن سعد ج3 ص35 ـ 37.

(4) نفس المصدر ج3 ص36 ـ 37.

سياسية ـ اجتماعية، شبه طبقية، تاركاً في الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية ثلاثة تكتلات رئيسية هي: شيعة علي، وحزب الأمويين، والخوارج.

في مطلع خلافة أبي بكر عبدالله بن عثمان . . .بن تميم (11 ـ 13هـ/ 632 ـ 634م)، هبت على الجزيرة العربية عاصفة من ارتداد القبائل على سلطان المدينة مؤثرة العودة إلى حياتها القبلية السالفة. وكانت ردة القبائل قد بدأت قبيل وفاة الرسول الكريم، ثم اتسعت بعيدها وتضرمت الأرض ناراً وارتدت معظم قبائل العرب إلا أهل المدينة ومكة والطائف. واستفحل المرتدون حتى حمل بعضهم على المدينة نفسها وهي عاصمة المسلمين[1]. وعبرت عائشة عن خطورة الوضع بقولها. «فنزل بأبي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها، اشرأب النفاق في المدينة وارتدت العرب فوالله ما اختلفوا في واحدة إلا طار أبي بحظها وغنائها عن الإسلام»[2].

وقد سميت حركة القبائل تلك بـ «الردة» لأنها كانت ظاهرة ارتدادية شملت ارتداد بعض القبائل عن الطاعة لتأدية الزكاة شأن بعض قبائل اليمامة، كما شملت ارتداد طائفة أخرى من القبائل عن التدين بالإسلام شأن بعض قبائل اليمامة وعمان وشرقي الحجاز.

والردة كظاهرة اجتماعية ـ دينية، لها عواملها الاجتماعية ـ الدينية. فقد وقف زعماء القبائل من الدعوة الإسلامية موقف التردد حفاظاً على امتيازاتهم ومصالحهم الخاصة. . . وازدادوا تردداً حين تبين لهم أن الاسلام يدعو، من جملة ما يدعو، لتحطيم إطار الوحدة القبلية وإقامة وحدة جامعة تذوب فيها زعامتهم القبلية المطلقة. ولهذا تأخر خضوع هؤلاء الأمراء للدعوة الاسلامية، وظلوا يرقبون الصراع الدائر بين «الجماعة الاسلامية» وقريش ليقرروا موقفهم على ضوء نتائجه الحاسمة. ولما أسفرت الحرب عن فوز المسلمين وفتح مكة، معقل الاريستقراطية وقلعتها المنيعة، أقبلت وفود القبائل إلى مكة، في العام الذي سمي بـ«عام الوفود»، لتقديم فروض الطاعة والاعتراف بالاسلام.

والواقع، كان إسلام القبائل، أو بالأحرى إسلام رؤسائها، مهتزاً من الأساس، فهو كان نوعاً من الاستسلام لسياسة الأمر الواقع أو خوفاً من القوة الظافرة الغالبة أو

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج2 ص 477.
(2) البلاذري: فتوح البلدان ص95.

طمعاً بالغنائم التي كان يحصل عليها المسلمون في حروبهم ويوزعونها على المحاربين[1]. وإلا لما كان ارتداد القبائل بُعَيْدَ عام الوفود؛ ثم جاءت وفاة الرسول الكريم وانفاذ جيش أسامة بن زيد إلى الشام حافزين على اتساع «الردة» وانتشارها.

إن ارتداد القبائل على سلطان المدينة وايثارها العودة إلى إطارها القبلي ومعتقداتها الخاصة، يطبع حركة القبائل تلك بطابع اجتماعي رجعي، لأنها في جوهرها العام، تناقض الجانب التقدمي لتوحيد العرب تحت راية الاسلام.

شملت الردة مناطق اليمن وحضرموت وكندة ومهرة وعمان والبحرين واليمامة وشرقي الحجاز (قبائل أسد وطيء وغطفان وسليم وهوازن وبين عامر). وتزعم بعض القبائل المرتدة متنبئون كان بينهم امرأة متنبئة اسمها سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان التميمية أقبلت من الجزيرة مع قوم من أخوالها بني تغلب[2]. وعقدت حلفاً مع مسيلمة الكذاب وتزوجته[3].

وقفت حكومة المدينة موقفاً حازماً من المرتدين، وأصرت في طلبها إليهم على الخضوع والاستسلام وما رضيت منهم الا «بالخطة المخزية أو الحرب المجلية»[4].

عقد الخليفة أبو بكر أحد عشر لواء لأحد عشر قائداً في جملتهم خالد بن الوليد وعكرمة ابن أبي جهل وعمرو بن العاص[5]. وكانت أكثر المناطق عناداً في حركة الردة وأشد مقاومة لسلطة الخليفة هي اليمامة، حيث ارتدت قبائل تميم ومنها قبيلة بني حنيفة بزعامة مسيلمة الكذاب ثمامة بن كبير بن حبيب[6].

ويذكر الدكتور جواد علي أن «مسيلمة كان يدعو، قبل النبوة، إلى عبادة إله اسمه (الرحمن) وهي عبادة متأثرة بفكرة التوحيد، وبوجود اله واحد هو (الرحمن) رب

---

(1) د. حسين مروة: المصدر السابق ج1 ص405.

(2) البلاذري: فتوح البلدان ص99.

(3) نفس المصدر والصفحة.

(4) يقصد بالخطة المخزية أن يقر المرتدون بأن من قتل منهم في النار، وان ما أخذوا من أموال المسلمين مردود. والحرب المجلية، ان يخرجوا من ديارهم. البلاذري. فتوح البلدان ص94.

(5) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج2 ص480.

(6) البلاذري: نفس المعطيات ص87. وورد اسمه. مسيلمة بن حبيب الحنفي. أو هو مسيلمة بين ثمامة بن كبير بن حبيب... من بني حنيفة. أو مسيلمة بن ثمامة بن حبيب بن كبير ...بن حنيفة/ علي، جواد: تاريخ العرب قبل الإسلام ج6 ص84، 86.

العالمين، فعرف مسيلمة بـ (رحمن اليمامة)[1]. وأن أهل مكة كانوا على علم بعبادة الرحمن وأمر رحمن اليمامة[2]. فلما نزل الوحي على الرسول، قال أهل مكة إنما أخذ علمه من رحمن اليمامة[3]. وقالوا له: «إنا قد بلغنا أنك إنما يعلمك رجل باليمامة يقال له الرحمن، ولن نؤمن به أبداً». فأنزل الله سبحانه: «وهم يكفرون بالرحمن، قل هو ربي»[4].

ويظهر أن مسيلمة قد بقي على ديانته، وظل يرى نفسه نبياً من (الرحمن) وصاحب رسالة[5] وعرف بين اتباعه بـ«رسول الله»[6]. وكانوا يؤمنون به إيماناً شديداً[7].

ولا يتفق ما ذكره الطبري من وضع مسيلمة الصلاة عن أتباعه[8] مع ما أورده هو من اتخاذه (مؤذناً) يؤذن بين الناس، ومن اتخاذه (مقيماً) يقيم له الصلاة[9] ثم ما ذكره غيره من أنه قلّص الصلوات الخمس، فجعلها ثلاث صلوات في اليوم، ولا يوجد دليل على تحليله الزنى والخمر[10].

وكان الناس يقصدونه ليسمعوا منه، بعد أن اشتهر أمره. ولو كان مسيلمة على نحو ما صوره الطبري لما التف حوله بنو حنيفة، ولما استماتوا في الدفاع عنه، ولما ضحّى الرحّال بن عُنْفُوَة ومُحكّم بن الطفيل وغيرهما بأنفسهم في الدفاع عنه. حتى أن منهم من بقي مؤمناً به حتى بعد مقتله، وبعد تغلب المسلمين على اليمامة[11].

ويذكر الدكتور حسين مروة: يبدو أن مسيلمة كان، قبل ظهور الاسلام، يمثل دين الحنفاء في اليمامة وأنه كانت لمحمد صلة به قبل إظهار الدعوة الاسلامية[12].

---

(1) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج6 ص 88.
(2) المصدر ذاته ص86 ـ 87.
(3) المصدر ذاته ص86.
(4) المصدر ذاته.
(5) المصدر ذاته ص97.
(6) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج2 ص508.
(7) د. علي جواد: المصدر السابق ص94.
(8) الطبري: المصدر السابق ج2 ص394.
(9) المصدر ذاته ص506.
(10) د. علي جواد: المصدر السابق ج6 ص90.
(11) المصدر ذاته ص96.
(12) د. حسين مروة: النزعات المادية ج1 ص405.

وكان في قوام وفد بني حنيفة الذي قدم المدينة. واجتمع مسيلمة، في رواية، بالنبي الكريم وقال له: إن شئت خلينا لك الأمر وبايعناك على أنه لنا بعدك[1]. وفي رواية للطبري: أن مسيلمة لم يذهب مع وفد بني حنيفة إلى الرسول، بل بقي مع رحال الوفد يبصرها لهم فلما قرروا العودة، بعد أن أسلموا وأعطاهم جوائزهم، قالوا: يا رسول الله إنا خلفنا صاحباً لنا في رحالنا يبصرها لنا، وفي ركابنا يحفظها علينا. فأمر له النبي بمثل ما أمر به لأصحابه وقال: ليس بشركم مكاناً لحفظه ركابكم ورحالكم، فقيل لك لمسيلمة، فقال: عرف أن الأمر إليَّ من بعده[2].

ولما عاد وفد بني حنيفة إلى اليمامة، ادَّعى مسيلمة النبوة، وشهد الرحَّال بن عنفوة أن رسول الله أشركه في الأمر فافتتن الناس به[3]. وكتب إلى رسول الله: (من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله أما بعد فإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها الآخر ولكن قريشاً لا ينصفون والسلام)[4]. واجتذب جمعاً كبيراً من سكان المنطقة إلى نفوذه، وقام أثناء حروب الردة بدور الثورة المضادة للاسلام في منطقته. وتكاثر جيشه حتى بلغ أربعين ألف مقاتل[5]. وأحرز انتصارين على جيش الخلافة الأول: على جيش عكرمة بن أبي جهل، والثاني على جيش شرحبيل بن حسنة[6]. فأرسل أبو بكر إليه خالداً بن الوليد لقتاله، ودارت بين الفريقين معركة طاحنة عرفت بـ «حديقة الموت»[7]. وكاد ينتصر فيها جيش مسيلمة لولا أن كبار الصحابة وصناديدهم صبروا في قتال العدو، وحملوا عليه وأرغموه على التراجع ثم استولوا على حصونه وقتلوه[8]. وفقد جيش المسلمين الكثير من الأنصار والمهاجرين بينهم عدد كبير من

---

(1) البلاذري: فتوح البلدان ص87.
(2) الطبري: المصدر السابق ج2 ص393 - 394، ابن هشام: السيرة النبوية ج4 ص223.
(3) ابن سعد: كتاب الطبقات الكبرى ج1 2 ص56.
(4) البلاذري: فتوح البلدان ص87.
(5) الطبري: المصدر السابق ج2 ص505.
(6) المصدر ذاته. ص504 - 505.
(7) البلاذري: المصدر السابق ص 89 الطبري: المصدر ذاته ص524. والحديقة بستان كان بقنا حجر من أرض اليمامة لمسيلمة الكذاب، كانوا يسمونه حديقة الرحمن وعنده قتل مسيلمة فسموه حديقة الموت. ياقوت: معجم البلدان ج2 ص232.
(8) الطبري: المصدر ذاته. ص509. ابن الأثير: الكامل ج2 ص 246 - 247.

القراء وحفظة القرآن[1]. وبذلك اخضعت اليمامة لسلطة المدينة وأسلم أهلها فأخذت منهم الصدقة[2].

وانتهت حروب الردَّة إلى توحيد القبائل العربية في شبه الجزيرة تحت لواء الاسلام. وكانت حركة الردة ثم التغلب عليها، من العوامل الحاسمة في تمكين العرب من القيام بعملية الفتوحات العربية التي كان من آثارها بناء الدولة وتشكيل إمبراطورية مترامية الأطراف ونشوء الحضارة العربية ـ الإسلامية.

كانت الفتوحات العربية عملية تاريخية ضخمة لما ترتب عليها من آثار وخاصة في بناء الدولة العربية وتشكيل امبراطورية واسعة ونشوء الحضارة العربية ـ الاسلامية التي ساهم في تكوينها وإخصابها وتطويرها جميع الشعوب التي خضعت للفاتحين العرب.

ومنذ تغلبت حكومة المدينة على المرتدين ووجدت القبائل العربية في شبه الجزيرة تحت راية الاسلام، رأت توجيه الجيوش إلى الشام وغيره من البلدان لنشر الاسلام والحصول على الغنائم. يؤيد ذلك ما ذكره البلاذري قالوا: «لما فرغ أبو بكر من أمر أهل الردة رأى توجيه الجيوش إلى الشام، فكتب إلى أهل مكة والطائف وجميع العرب بنجد والحجاز. يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم، فسارع الناس إليه من بين محتسب وطامع وأتوا المدينة من كل أوب»[3].

إذاً لم يكن الدافع للفتوحات هو نشر الاسلام فقط كما يحلو للبعض أن يحصر ذلك في عامل أحادي، وإنما كانت دوافعها اجتماعية اقتصادية ـ دينية. ولعل دوافعها الاجتماعية تغلب أغراضها الدينية. وفي صدد ذلك، يقول حكيم بن قبيصة الضبي:

فما جنة الفردوس هاجرت تبتغي ولكن دعاك الخبز أحسب والتمر[4]،

ويذكر البلاذري ان رستم، قائد الجيش الفارسي، أرسل إلى سعد بن أبي وقاص، قائد الجيش العربي في الجبهة الفارسية، يسأله توجيه بعض أصحابه إليه فوجَّه المغيرة بن شعبة وقال له رستم: «قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه الا

---

(1) البلاذري: المصدر السابق ص89.
(2) المصدر ذاته ص90.
(3) فتوح البلدان ص107.
(4) أبو تمام: ديوان الحماسة ج2 ص389.

ضيق المعاش وشدة الجهد ونحن نعطيكم ما تتشبعون به ونصرفكم ببعض ما تحبون»[1]. ويقول غولدتسيهر:

«وقد هش العرب للدين الجديد ورحبوا به على اعتبار أنه ذريعة لحركة الفتح هذه، التي كانت تدعو إليها الضرورات الاقتصادية»[2].

إن هناك أسباباً سهلت انتصارات العرب الساحقة على الدولتين الأعظم البيزنطية والفارسية وأهم هذه الأسباب:

1 ـ الضعف الاقتصادي للامبراطوريتين نتيجة الحروب المستمرة بينهما. وأدى اضمحلال الموارد في الامبراطوريتين إلى ضعفهما عسكرياً، فأهمل أمر الدفاع والتحصينات في الأماكن التي كان فيها حاميات[3].

2 ـ التناقضات الاجتماعية التي زادت حدتها فجأة في الامبراطوريتين. فقد بلغ ظلم السلطة في هاتين الدولتين واستغلالها للفئات العاملة وإرهاقها للجماهير الشعبية بالضرائب، كل ذلك بلغ حداً جعل الطبقات المظلومة تنظر إلى العرب كمنقذين لهم من نير البيزنطيين والفرس[4].

3 ـ نقمة جميع الفرق المسيحية السورية غير الأرثوذكسية وكذا فرق وجماعات أخرى من غير المسيحيين على الإضطهاد الديني الذي كانت تمارسه السلطة البيزنطية بمساعدة الكنيسة الأرثوذكسية[5]. ولهذا فإن رفع الفاتحين العرب شعار التسامح الديني «لا إكراه في الدين» لاقى رضى عامة الناس في سورية.

4 ـ إعلان العرب الفاتحين أنهم لا يحاربون الا ضد الذين يرفضون الصلح، وإنهم إذا دخلوا بلداً بصلح كان لأهل هذا البلد الأمان والحماية. ولم يستحوذوا على غنائم الحرب الا في المناطق التي أبى رؤساؤها الا الحرب ورفضوا الصلح، ولم ينهبوا المدن المفتوحة وإنما صادروا ممتلكات الأغنياء والنبلاء الذين قاتلوا العرب أو هربوا من البلاد، ولم يأخذوا الأرض من الأهالي إلا في عهد الخليفة عثمان[6]. كما أنهم لم يحكموا في أول الأمر شعوب البلدان

---

(1) فتوح البلدان ص 256 ـ 257.

(2) العقيدة والشريعة. ص 137.

(3) ي. أ. بليايف: العرب والإسلام والخلافة العربية ص 182.

(4) نفس المصدر وذات المكان.

(5) نفس المصدر ص28 ـ 29.

(6) د. حسين مروة: النزعات ج1 ص449. وص 415 ـ 419.

المفتوحة بأسلوب الحكم الاقطاعي الذي كان يتبعه الحاكمون لعدم ممارسة العرب هذا النوع من أسلوب الحكم قبل الفتح، فتركوا الأمور كما هي في البلدان المفتوحة[1].

كان للفتوحات العربية الاسلامية وخاصة في عهدها الأول فوائد تتمثل في تحرر البلدان من الاستغلال الفظيع ومن بقايا مجتمع العبودية ومن تسلط الامبراطوريات الجائرة والانعتاق من تقييدات ومضايقات الديانات الجامدة[2]. كما أدت الفتوحات إلى نمو التجارة وازدهارها[3]. غير أن هذه المكاسب سرعان ما فقدت أهميتها بعد أن مارس الفاتحون العرب أساليب الاستغلال ولا سيما في العهد الأموي، حيث أصبحت الفتوحات وسيلة للاستيلاء على الأراضي والحصول على الغنائم. يؤيد ذلك قول الخليفة عمر بن العزيز: «بأن حروب الأمويين كانت من أجل الغنيمة»[4]. وتعج المصادر بالوقائع التي تصور أعمال النهب وتحويل الأحرار إلى عبيد والفواجع التي كان يلحقها الفاتحون بالشعوب المقهورة. وفي ذلك يقول الشاعر كعب الأشقري وقيل رجل جعفيّ.

كل يوم يحوي قتيبةُ نهباً ... ويزيدالأموال مالاً جديداً
باهليّ قد ألبس التاج حتى ... شاب منه مفارق كنَّ سودا
دوَّخ السُّغد بالكتائب حتى ... ترك السُّغد بالعراء قعودا
فوليد يبكي لفقدأبيه ... وأب موجع يبكي الوليدا
كلما حل بلدة أو أتاها ... تركت خيله بها اخدودا[5].

وأسهمت الفتوحات العربية في تعزيز التباين في الثروة وعدم المساواة بين العرب أنفسهم. وفي ذلك يقول الشاعر أبو المختار يزيد بن قسيّ.

فلا تَدَعَنْ أهل الرساتيق والقرى ... يُسيغُون مال الله في الأدم الوَفْر
نؤوب إذا آبوا ونغزو إذا غزوا ... فأنّى لهم وَفْر ولسنا أولي وَفْر[6]

---

(1) المصدر السابق، وذات المكان.

(2) د. حسين قاسم عزيز: البابكية ص 50.

(3) نفس المصدر وذات المكان.

(4) ولهاوزن: تاريخ الدولة العربية الترجمة العربية ص 260 ـ 261.

(5) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج5 ص 255. البلاذري: فتوح البلدان ص421. ابن الأثير: المكان ج5 ص128.

(6) البلاذري: فتوح البلدان ص 384.

الفصل الرابع

قيام الدولة الأموية
انتصار العلاقات الاقطاعية

نشأة الدولة العربية

نشأت الدولة العربية في القرنين السابع والثامن الميلاديين نتيجة توحيد القبائل ونتيجة الفتوحات الكبيرة التي قام بها العرب. وقد ساعد توحيد القبائل العربية على زيادة قوتها وبأسها. كما أن توسيع التجارة وكثرة الحروب والغنائم زاد من غنى زعماء القبائل والتجار وعزّز في الوقت نفسه عدم المساواة بين العرب، فكان نشوء الدولة، بأجهزتها يومذاك، تحقيقاً لضرورة تاريخية بعد ظهور التمايز الطبقي في مجتمعها.

وكان تأسيس الدولة الأموية ـ وهو بحد ذاته خطوة متقدمة تاريخياً بالنسبة للوضع القبلي ـ كان شكلاً من أشكال التحول الكيفي السياسي لتراكم الأحداث في تلك الفترة التاريخية، دعمه شكل اقتصادي واجتماعي ونشأ عنه شكل فكري. أما شكله الاقتصادي فهو دخوله سلطة الحكم الأموي طرفاً مشاركاً في نظام العلاقات الانتاجية شبه الاقطاعية وحامياً له وعاملاً في تطويره وتحديد قواه المنتجة، في بلاد الشام بخاصة. وهذا الشكل الاقتصادي حدد الشكل الاجتماعي لهذا التحول الكيفي لأن ارتباط الدولة الأموية بالنشاط الاقتصادي في إطار علاقات الانتاج شبه الاقطاعية حدد بالضرورة طابع العلاقات الاجتماعية والنظام الاجتماعي[1]. وأما الشكل الفكري فقد ظهر عن طريق النظريات الثلاث الأولى المتصارعة:

---

(1) د. حسين مروة النزعات المادية ج1 ص881.

نظرية الأمويين، ونظرية العلويين (الشيعة) ونظرية الخوارج[1].

انتصار العلاقات الاقطاعية بين شعوب الدولة العربية

إن للفترة الأموية، التي دامت مدة تسعين سنة 40 ـ 132هـ/ 660 ـ 750م/ من الاعتبارات ما يجعلها فترة متميزة في التاريخ العربي. وليس ذلك لأن الأمويين يجسدون السيادة العربية كما أشار إلى ذلك «ولهاوزن» في كتابه «تاريخ الدولة العربية»، بل بسبب التغيرات الاجتماعية الاقتصادية التي طرأت على الخلافة في عهدهم، والتي أسفرت عن انتصار العلاقات الاقطاعية بين شعوب الدولة العربية بما في ذلك العرب أنفسهم[2]. فقد شهدت هذه الفترة تحت تأثير الأحوال الاقطاعية السائدة في البلدان المفتوحة انتقال الأريستقراطية العربية القبلية القائمة على الرق، إلى طبقة الاقطاعيين المسيطرين في بلدان الخلافة[3].

سياسة الأمويين العربية ـ الأعرابية والمالية والحربية في خدمة مصالح الأرستقراطية العربية

قامت الدولة الأموية على دعائم اقتصادية متينة وجيش عسكري قوي كانت تؤلف أفضل الوحدات فيه قبائل بني كلب اليمنية الموالية لبني أمية. وأصبحت دمشق عاصمة للخلافة ونعمت سورية بامتيازات وبمنافع جمة بصفتها المركز الرئيسي للامبراطورية الجديدة.

استغل الأمويين، وهم أسرة عربية أريستقراطية ثرية، الاسلام وسخّروه لتحقيق مصالحهم المادية الضيقة ومخططاتهم التوسعية الواسعة الصعبة، وقمعوا بقسوة جميع الانتفاضات المعادية لحكمهم، وتنكروا لمبدأ الشورى وحولوا الخلافة إلى ملكية وراثية استبدادية، وورثوا التبعية الاقطاعية في البلاد التي استولوا عليها، فتكونت لدى الأريستقراطية الحاكمة روح الاستغلال وحب التسلط والتعالي وكراهية الشعوب واحتقار المهن، واعتبر أهالي البلدان المفتوحة دون العرب منزلة، متخلية بذلك عن مبدأ المساواة الاسلامي. وحوَّل الأمويون بيت مال المسلمين إلى خزينة خاصة بهم

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) ي. أ. بلياييف: العرب والإسلام والخلافة العربية ص209 ـ 210.

(3) نفس المصدر والصفحة.

وبطبقتهم الاجتماعية، وشنوا الحروب في سبيل الغنيمة[1]، واستخدموا الدين في تأييد النظام وإلزام الناس بالطاعة لأولي الأمر[2]. وتسلحوا بفكرة القضاء والقدر للدفاع عن مواقعهم السياسية ومصالحهم الطبقية[3].

وانطلاقاً من المحاور الرئيسية لسياسة بني أمية العربية الأعرابية، والحربية وحب المال الذي ورثوه عن أجدادهم تجار مكة وحاجتهم الماسة إليه لتنفيذ مهامهم السياسية الكبرى والقيام بالفتوحات الواسعة الصعبة ومحاربة أعدائهم في الداخل واصطناع الرجال وجمع الأحزاب واسترضاء الزعامات القبلية وغير ذلك من الأسباب انطلاقاً من ذلك مارس الأمويون بحق الشعوب المغلوبة والجماهير العربية أقسى أساليب القمع ومختلف صنوف النهب والابتزاز والاستغلال والامتهان والاستحواذ على أخصب الأراضي لصالح الأسرة الحاكمة وأقربائها وأعوانها.

وبدل أن يستخلصوا الدروس من موجات الانتفاضات على حكمهم ويتراجعوا عن جورهم وتجبرهم، وعوض أن يستجيبوا لظلامات الناس باتخاذ التدابير للتخفيف من عبء الضرائب الثقيلة عليهم، ووضع المشاريع لتحسين ظروف حياة الكادحين المادية والاجتماعية والانسانية آثروا في غالب الأحيان مصالحهم الضيقة، والنظر إلى البلاد وكأنها مزرعة كبيرة وبقرة حلوب للأريستقراطية العربية وتابعتها المحلية. (احلب الدَّر فإذا انقطع فاحلب الدَم) ذلك كان جواب الخليفة سليمان بن عبدالملك (لصاحب خراجه) على مصر حينما استشاره أن يرفق بالرعية ويخفف من خراجها ما تقوى به على عمارة بلادها وصلاح معايشها[4].

كان الأمويون يرمون من وراء سياسة الموازنة بين مصالح الأحلاف العربية الكبرى، الاحتفاظ بالحكم والانفراد به إيثاراً لمصالح الأريستقراطية العربية عامة ومنافعهم الضيقة بخاصة. أما سياستهم المالية ـ الاقتصادية والحربية فكان هدفها جمع المال على حساب نهب الشعوب المغلوبة واستغلال جماهير الكادحين وقمع ثوراتهم. وربما يبدو لأول وهلة أن سياستهم وخططهم تلك كانت موئل عز ورخاء للاريستقراطية العربية ومصدر قوة لدولتها. ولكنها في الوقت نفسه، كانت تنطوي أيضاً على عوامل ضعفها وسقوطها.

---

(1) ولهاوزن: تاريخ الدولة العربية ص360 ـ 361.

(2) نفس المصدر ج59.

(3) د. حسين مروة: النزعات المادية ج1 ص611.

(4) الجهشياري: كتاب الوزراء ص 51 ـ 52.

الفصل الخامس

النظام المالي ومسألة الأراضي

النظام المالي ـ الضريبي عبء ثقيل على الجماهير العاملة

اعتمد العرب في إدارة البلدان المفتوحة على الاريستقراطية المحلية. ولم تكن النظم المالية في الدولة العربية موحدة، وإنما كانت تختلف حسب ظروف الفتح والأوضاع الضريبية التي كانت سائدة في كل مصر قبل الفتح. وقد أدخل العرب على النظم المالية والضريبية التي كان معمولاً بها، في البلدان التي استولوا عليها، بعض التغييرات والإصلاحات التي تطلبتها مقتضيات التطور الزمني.

وكان النظام المالي ـ الضريبي، في جوهره، عبئاً ثقيلاً على الطبقات السفلى في مجتمع الخلافة وفي خدمة مصالح الطبقة الاريستقراطية ودولتها.

وكان يفترض من حيث المبدأ أن الذي يُسلم من سكان الأقطار المفتوحة لا تُفرض عليه أتاوة الفتح جزية كانت أم خراجاً. وأن الأرض التي يستملكها عربي مسلم أو يُسلم عليها صاحبها غير العربي لا تعود أرضاً خراجية، لأن المسلم لا يؤدي الاتاوة للدولة، والخراج جزء من الأتاوة، فهو مواطن كسائر المواطنين في دولة الاسلام، وما يستحق عليه من ضرائب للدولة، إنما هي الزكاة والعشور[1]. ولكن الفاتحين أخذوا الخراج عن الأرض والجزية (الضريبة الشخصية) عن الذين أسلموا مؤثرين، في أغلب الأحيان، مصالحهم المادية الضيقة.

وعلى الرغم من تعدد مصادر الدخل لبيت المال، فإن الخراج (ضريبة الأرض)

---

(1) د. نبيه عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي ص219.

كان يشكل البند الرئيسي في بيت المال والجزء الأكبر من موارد الدولة. وسواء كان الخراج ضريبة محددة (وهو ما يسمى بالخراج المعلوم الذي لا يتغير أعطت الأرض أم أجدبت) أو ضريبة نسبية (وهو ما يسمى بالخراج النسبي الذي يزيد بزيادة المحصول وينقص إذا نقص) فإن عبئه كان يقع على جماهير الفلاحين. فالجباية من الخراج، والخراج من الأرض، والأرض إنما يعمل بها الفلاحون، وبالتالي فإن المصدر الرئيسي لمواد الخزينة كان يأتي من جهد الفلاحين وعرق جبينهم.

وكانت ضريبة الخراج تؤخذ من الأراضي الخراجية. وهناك أنواع من الأراضي لا يفرض عليها الخراج وإنما يدفع عنها أصحابها ضريبة العشر وتسمى بالأراضي العشرية[1]. وضريبة الأرض من الخراج التي تتراوح بين ثلث المحصول ونصفه أكثر بكثير من ضريبة الأرض التي تدفع العشر...

ويتبين من الروايات أن السياسة الخراجية لحكومة بني أمية لم تكن ثابتة، وإنما كانت تتغير حسب الوضع المالي للدولة وظروف البلاد السياسية والاجتماعية. يؤيد ذلك ما ذكره البلاذري: «وقالوا) وبالفرات أرضون أسلم أهلها عليها حين دخلها المسلمون وأرضون خرجت من أيدي أهلها إلى قوم مسلمين بهبات عليها وغير ذلك من أسباب الملك فصيِّرت عشرية وكانت خراجية فردها الحجاج إلى الخراج ثم ردها عمر بن عبد العزيز إلى الصدقة ثم ردعها عمر بن هبيرة[2] إلى الخراج. فلما ولي هشام بن عبدالملك رد بعضها إلى الصدقة[3]».

لقد كانت ضريبة الخراج ثقيلة تكره الفلاحين على بيع محاصيلهم قبل نضوجها لتسديد ما بذمتهم كما صرح بذلك عمر بن عبد العزيز، مما حملهم على ترك أراضيهم والهرب من قراهم إلى المدن تخلصاً من دفع الضرائب، غير أن بعض الحكّام الأمويين أجبروا الهاربين من الفلاحين على العودة إلى قراهم، ونقشوا على يد كل رجل منهم اسم المكان الذي وجه إليه، وأرغموا على دفع ضريبة الخراج عن الأرض وضريبة الجزية عن رقابهم[4]. كما اضطرت فداحة الضرائب صغار الملاك من

---

(1) أنظر ص97.
(2) عامل يزيد بن عبدالملك على العراق.
(3) فتوح البلدان ص368.
(4) أنظر ص109.

غير العرب المسلمين إلى إلجاء أراضيهم لكبار المتنفذين للتعزز بهم وللتهرب من ثقل الضرائب[1].

والجزية ضريبة شخصية. وكانت تؤخذ عملياً من غير المسلمين (مسيحيين، يهود، صابئة، عبدة أصنام أو أوثان أو نيران)، وتسقط بالاسلام. وقد حددت الجزية حسب دخل المكلّف بدفعها. (48 درهماً على الأغنياء. و24 درهماً على متوسطي الحال، و12 درهماً على الفقراء ممن يكسبون)[2]. وكان يلحق بضريبة الجزية فروع ملازمة لها. فقد فرض على أهل الذمة تقديم الزيت والخل وإطعام من يمر بهم من المسلمين لمدة ثلاثة أيام[3]، وتقديم الهدايا في الأعياد. وهرباً من ثقلها وسوء طرق جبايتها لجأ الذميُّون إلى اعتناق الاسلام، ولكن بعض الحكام الأمويين فرضوها عليهم رغم اسلامهم.

والغنيمة هي كل ما أصابه المسلمون في الحرب، وتشمل الأسرى والسبي والأراضي والأموال. وكان يقطع الخمس للدولة وتوزع الأخماس الأربعة على المحاربين تنفيذاً لما جاء في الآية الكريمة: ﴿واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾[4]. وجاء في كتاب الخراج (فأما الغنيمة ففيها الخمس لله وهو مردود من الله على الذي سمى الله: للرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، لا يوضع في غيرهم، وذلك إلى الإمام يضعه فيمن حضره منهم بعد أن يجتهد رأيه ويتحرى العدل ولا يعمل في ذلك بالهوى. وما بقي بعد الخمس فهو للذين غلبوا عليه من المسلمين يقسم بينهم بالسوية (وقالوا) للفرس سهمان ولصاحبه سهم)[5].

ولم تقسم الأرض بين المقاتلة لأسباب أهمها: أن العرب كانوا مشغولين بالحرب، فضلاً عن أنهم لم يهتموا في أول الأمر بالأرض بوصفها مصدراً للانتاج لقلة خبرتهم بالشؤون الزراعية واعتبروها ملكاً عاماً للمسلمين. وكان تدفق الغنائم وجمع الخراج من الكثرة في صدر الاسلام بحيث صرفهم، إلى حين، عن الاهتمام

---

(1) أنظر ص100 ـ 101.
(2) أنظر ص107.
(3) ابن سلام: الأموال ص 39.
(4) سورة الأنفال: آية 41.
(5) يحي ابن آدم: كتاب الخراج ص17 ـ 18.

بمصادر الثروة. أما الفيء فهو كل ما وصل المسلمين من غير قتال ولا بإيجاف خيل ولا ركاب.

والزكاة هي كل ما يؤخذ من أغنياء المسلمين ويوزع بين فقرائهم. وتتوجب الزكاة على الزرع والمواشي والذهب والفضة وعروض التجارة وغيرها من الأموال التي تتكاثر بحكم الطبيعة أو بالاستثمار. وكان على المسلمين أن يؤدوا بمقدار ربع العشر 2,5% عما يمتلكونه من المال. وأما زكاة الزرع والثمار فيجب فيها العشر إذا كانت خارجة عن أرض تُسقى بالمطر أو السيح، ونصف العشر إذا كانت خارجة من أرض تسقى بالدلاء ونحوها.

وكان ولاة الزكاة (الصدقة) يهتمون بتحصيل ما يجب من حاصلات الأراضي والمواشي وما شابه. أما الأموال الشخصية كالذهب والفضة فأربابها أحق بإخراج زكاتها يبذلونها طوعاً. وكان ما يُجمع من أغنياء المسلمين يوزع من بيت المال على الفقراء والأيتام والمساكين وفي الرقاب والغارمين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم تنفيذاً لما جاء في الآية الكريمة: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم)[1]. وكان للزكاة شأن كبير في أول الإسلام، ثم قلت أهميتها وتناقصت مواردها أيضاً بتوالي السنين.

وهناك ضرائب أخرى: كضرائب النكاح، وأجور الضرابين، وأجور البيوت، ورسوم العرائض، وهدايا الأعياد مثل عيد النيروز والمهرجان[2]، وأخماس المعادن (كانت الحكومة تأخذ خمس ما يستخرج من المعادن) وأعشار التجارة وتختلف باختلاف جنسية التجار 10% على الأجانب و5% على تجارة الذميين و2,5% على تجارة المسلمين[3]، والضرائب التي فرضت على الحرف والصناعات[4].

هذا وإذا أخذنا بعين الإعتبار أن الأغنياء وكبار ملاك الأراضي كانوا يؤدون ضرائب بسيطة، وكانوا بنفوذهم وألاعيبهم وحيلهم يتهربون من دفع ما يستحق عليهم حقاً وشرعاً وقانوناً من الضرائب، تبيَّن لنا أن الفلاحين والحرفيين، المنتجين

---

(1) سورة التوبة: آية 9: 62.

(2) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص 24.

(3) أنظر ص114.

(4) أنظر ص112.

المباشرين للخيرات المادية، كانوا يتحملون النصيب الأكبر من الضرائب. ليس ذلك فحسب، بل كانت طرق جباية الضرائب قاسية ومهينة.

ولم يكن لزاماً في نظر خلفاء بني أمية ولا أمراء أقاليمهم أن يراعوا القواعد الضريبية التي قررها أسلافهم.

ـ فقد أخذوا الجزية ممن أعفوا من دفعها بعد إسلامهم. وزادوا في نسب مقاديرها، وكان ذلك من أعظم الأمور[1]. إذ ليس على المسلمين جزية كما جاء في حديث للرسول[2].

ـ وأعادوا ضرائب النيروز والمهرجان منذ أيام معاوية بن أبي سفيان، فكان يحمل إليه في النيروز والمهرجان عشرة آلاف ألف درهم أي عشرة ملايين درهم[3]. كما فرضوا الضرائب على الحرف والصناعات[4].

ـ ألزم الأمويون أهل الخراج بدفع الكسور ـ الأموال المتخلفة الناجمة عن الفروق بين العملة الرديئة والجيدة ـ وطالبوهم بأداء الوافي[5]. وجار عمال بني أمية في تحصيل الكسور حتى أسقطها عمر بن عبد العزيز[6].

ـ وتلاعب الأمويون بالعطاء فأنقصوه أو حرموه مستحقيه أو منعوه عن المتحولين إلى الإسلام من الطبقات السفلى. وقد نقمت الاريستقراطية العربية على المختار الثقفي حين فرض للموالي نصيباً من الفيء[7]. وشكا أبو الصيداء، صالح بن طُرَيْف، مرة إلى عمر بن عبد العزيز أن عشرين ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق[8]. ويذكرون من أسباب ثورة البربر على الخليفة هشام بن عبدالملك أنهم كانوا يحاربون بجانب العرب ولا يُمنحون العطاء الذي يمنحه هؤلاء[9].

ـ ولم يكن الحال في اليمن خيراً منه في الولايات المفتوحة. فقد ارتكب فيها

---

(1) ابن سلام: كتاب الأموال ص68.
(2) ابن حنبل: المسند ج4 ص200.
(3) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص24.
(4) د. عبد العزيز الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ص71.
(5) الماوردي: الأحكام السلطانية ص77.
(6) نفس المصدر والصفحة.
(7) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج5 ص508 ـ 517.
(8) نفس المصدر ج6 ص559.
(9) مصطفى شاكر، في التاريخ العباسي ج1 ص30.

عاملها محمد بن يوسف شر أنواع الجور والعسف. فكان يصادر أملاك الأهالي وأموالهم، كما أثار حنقهم وسخطهم بفرضه ضريبة معينة (وظيفة) وذلك عدا العشر الذي قرره الاسلام. يؤيد ذلك قول البلاذري: (لما ولي محمد بن يوسف أخو الحجاج اليمن أساء السيرة وظلم الرعية وأخذ أراضي الناس بغير حق.. وضرب على أهل اليمن خراجاً جعله وظيفة عليهم)[1].

ـ ولم تكن الضرائب على الطبقات السفلى والجماهير الفلاحية بخاصة مجحفة ومكروهة لفداحتها فحسب، ولكن أيضاً لما كان يرافق جبايتها من الإهانة والتعذيب، حيث ذكر القاضي أبو يوسف: (بلغني أنهم يقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من تأدية الصلاة، وهذا عظيم عند الله شنيع في الاسلام)[2]. كما كانوا يعذبون أهل الخراج بصنوف من العذاب من السباع والزنابير والسنانير[3].

ـ وكان عمال الدولة لا يكتفون بأخذ نصيبها من الخراج، وإنما ابتدعوا وسائل عديدة للابتزاز والنهب عددها القاضي أبو يوسف: (ولا يؤخذ أهل الخراج برزق عامل... ولا حمولة طعام للسلطان ولا يدعى عليهم بنقيصة فتؤخذ منهم ولا يؤخذ منهم ثمن صحف ولا قراطيس ولا أجور الفيوج ولا أجور الكيالي ولا مؤنة لأحد عليهم... ولا قسمة ولا نائبة ـ كإصلاح الجسور والطرق وغير ذلك ـ ولا يؤخذ بأثمان الأتبان)[4]. وكانوا يخرصون الثمار ويقدرون الخراج حسب تخميناتهم وأكثر الأحيان تكون أكثر من الواقع. وفي ذلك يقول القاضي أبو يوسف: (ولا يخرص عليهم ما في البيادر ولا يحزر ثم يؤخذوا بنقائص الحزر. فإن هذا هلاك لأهل الخراج وخراب البلاد)[5].

وبالإضافة إلى ذلك، تتحدث المصادر عن ابتزازات عمال الدولة. فقد ابتز عبد الرحمن بن زياد، والي معاوية على خراسان، مبالغ طائلة، واعترف ليزيد بن معاوية بأن لديه عشرين مليون درهم، وكان معه من العروض أكثر منها. وقال يوماً لكاتبه

---

(1) فتوح البلدان ص73.

(2) ابو يوسف، يعقوب بن ابراهيم (القاضي): كتاب الخراج ص62.

(3) الجهشباري: نفس المصدر ص142.

(4) كتاب الخراج ص62.

(5) نفس المصدر وذات المكان.

اسطفانوس: (إني قدرت ما معي لمئة سنة، في كل يوم ألف درهم، لا احتاج منه إلى شري رقيق ولا كراع ولا عرض من العروض)[1]. وكان أمراء الأقاليم يبذلون جهدهم لاختزان الأموال، فكثرت ثروتهم واتسعت على حساب استغلال جهد الكادحين أو من الرشا وابتزاز خزينة الدولة، حيث بلغت غلة خالد القسري، أمير العراق، 13 مليون درهم في رواية و20 مليون درهم في رواية أخرى ولم يكن لديه شيء عندما استعمله الخليفة هشام[2]. ويذكر الأصبهاني أبو نعيمُ، عن عبيدالله بن أبي بكرة الثقفي أنه (قدم أصبهان مطفئاً للنيران من قبل معاوية بن أبي سفيان وخرج منها إلى سجستان فأصاب أربعين ألف ألف درهم أي أربعين مليون درهم)[3]. أي أنه جنى من إمارته على أصفهان أربعين مليون درهم.

ومنذ عهد معاوية، مؤسس الدولة الأموية، اشتكى الناس من ظلم عمال الدولة وقسوتهم وفي ذلك يقول الشاعر:

أرى العمال اقساء علينا بعاجل نفعهم ظلموا العبادا[4]

ولم يكن عمال بني أمية يأتون هذه الأعمال من تلقاء أنفسهم دائماً بل كثيراً ما كانوا يفعلونها بتشجيع من خلفاء بني أمية الذين كانوا يقاسمون ولاتهم فيما ينهبون[5]. وفي العصر العباسي أصبح العمال صورة عجيبة من استنزاف الأموال واعنات الناس[6].

ورأى الفلاحون ألا سبيل للتخلص من هذا الارهاق والذل إلا باعتناق الاسلام وترك الأرض والهجرة إلى حواضر الامصار. غير أن الحجاج أعادهم إلى قراهم ونقش على يد كل رجل منهم اسم المكان الذي وجهه إليه[7]. وأرغمهم على دفع الجزية عن رقابهم[8] وتأدية الخراج ـ ضريبة الأرض ـ[9].

---

(1) الجهشاري: نفس المعطيات ص29.

(2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج5 ص468 ـ 475 ـ 476.

(3) أبو نعيم الأصبهاني: ذكر أخبار أصبهان ج2 ص99.

(4) محمد علي كرد: الاسلام والحضارة العربية ج2 ص149 ـ 150.

(5) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص81.

(6) محمد علي كرد: نفس المعطيات ج2 ص238.

(7) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج2 ص93.

(8) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج5 ص359.

(9) البلاذري: فتوح البلدان ص368.

تدابير عمر الثاني الاصلاحية ـ دوافعها وأهدافها

أمام تذمر الجماهير الذي بدأ يتحول إلى انتفاضات وثورات، رأى الخليفة عمر بن عبد العزيز بدافع من واقعية سياسية، اتخاذ بعض التدابير الضرورية التي من شأنها استرضاء الطبقات الشعبية والتقرب من ممثلي الشيعة والخوارج وذلك بهدف دعم أركان الحكم الأموي بتوسيع نطاق التأييد الشعبي. فألغى الجزية عن المسلمين الجدد وأبطل هدايا النيروز والمهرجان وأجور الضرابين وأجور البيوت وضرائب النكاح ورسوم العرائض، وأمر بمعاملة الفلاحين برفق، حيث جاء في الرسالة التي كتبها إلى عامله في الكوفة. (... إن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله وسنة خبيثة استنها عليهم عمال السوء. وإن قوام الدين العدل والاحسان، فلا تحمل خراباً على عامر ولا عامر على خراب. أنظر الخراب فخذ منه ما أطاق وأصلحه حتى يعمر ولا يؤخذ من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض، ولا تأخذن أجور الضرابين ولا هدية النيروز والمهرجان ولا ثمن الصحف ولا أجور الفيوج ولا أجور البيوت ولا دراهم النكاح ولا خراج ـ المقصود هنا الجزية ـ على من أسلم من أهل الأرض)[1]. ورد السُّخْرَة[2]. وألغى ضريبة الخراج ـ الوظيفة ـ عن أهل اليمن مكتفياً بالعشر[3]. وعمل على حماية الرعية من الولاة، وحرص على أن لا تكون إدارة الأمصار مجرد وسيلة لاستغلالها استغلالاً مالياً[4]. وخفف العبء على أهل نجران[5]. وكانت عشور عمان ترسل إلى البصرة فأمر أن تبقى في عمان نفسها وتوزع على فقرائها ومن سقط إليها من أهل البادية ومن أضافته إليها الحاجة والمسكنة وانقطاع الطريق[6]. وأسقط عن البربر جزية الأبناء[7]. حيث كان المقصر في الجزية يلزم بتسليم نسائه وأبنائه للبيع[8]. وفرض للفقراء أو الزمني ما

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج5 ص321.
(2) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ج2 ص306.
(3) البلاذري: فتوح البلدان ص73.
(4) ولهاوزن: تاريخ الدولة العربية ص396.
(5) نفس المصدر وذات المكان.
(6) البلاذري: نفس المصدر ص77.
(7) ولهاوزن: نفس المصدر ص296.
(8) مصطفى شاكر: في التاريخ العباسي ج1 ص26.

يساعدهم[1]. وأسقط الكسور عن أهل الخراج[2]. وجعل الخراج متعلقاً بالأرض يدفعه من يملك أرض خراج من المسلمين وغير المسلمين ـ وكان الغرض من إقرار مبدأ المساواة في دفع الخراج بين جميع الناس تحسين الوضع الاجتماعي والاقتصادي لدى الموالي وبصورة خاصة موالي المدن الكبيرة، وليس تحسين الزراعة ذاتها[3].

يحدثنا أحمد بن يحي عن غيلان الدمشقي، أنه كتب إلى الخليفة الصالح المصلح عمر بن عبد العزيز يدعوه إلى المذهب القدري واصفاً حال الإسلام والمسلمين في عهد بني أمية وما أدى إليه هذا الحال من سوء، حتى أخيف العالم فلا يتكلم ولا يعطى السائل فيسأل ـ ويظهر من الحديث أن عمر بن عبدالعزيز لم يقتنع بمذهب غيلان، ولكنه استدعاه إليه، وهو واثق من عدالته وصحة دينه. فلما جاء طلب إليه أن يعينه على إصلاح شؤون المسلمين، فاستجاب غيلان لهذا الطلب مشترطاً أن يتولى بيع خزائن الأمويين وردّ حقوق الناس إلى أهلها فقبل الخليفة ذلك. فلما تولّى غيلان هذا الأمر نادى أهل دمشق بقوله: تعالوا إلى متاع الخونة ـ يقصد حكام بني أمية السابقين لعمر بن عبد العزيز ـ تعالوا إلى متاع الظلمة، تعالوا إلى متاع من خلف الرسول (ﷺ) في أمته بغير سنته وسيرته. ثم أخذ يبيع أمتعة بني أمية وهو يقول في الناس المجتمعين حوله: من يعذرني ممن يزعم أن هؤلاء كانوا أئمة هدى، وهذا متاعهم ـ يقصد الأمتعة الثمينة التي كان يتمتع بها الحكام الأمويون ـ والناس يموتون جوعاً[4].

وفي سياق مراسلة بين الخليفة وعامله على خراسان الجراح بن عبدالله الحكمي، وهو ممن عرف بتعصبه لبني قومه وبظلمه وبسوء معاملته للناس البسطاء من أهالي الإقليم إياه، أقول كتب الجراح إلى عمر يقول عن خراسان: إن أهلها لا يصلحهم الا السيف والعصا، فكتب إليه عمر بن عبد العزيز في جواب ذلك يقول: كذبت بل يصلحهم العدل والحق فابسطه بينهم[5].

---

(1) الطبري: المصدر السابق ج6 ص569 ـ 570.
(2) الماوردي: الأحكام السلطانية ص77.
(3) ي. أ: بليايف: المصدر السابق 246.
(4) أحمد بن يحيى ابن المرتضى: المنية والأمل ص16 ـ 17.
(5) عبد الرؤوف المناوي: الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ج1 ص143. انظر تاريخ الطبري ج5 ص 314 ـ 15.

وقد نالت تدابير عمر بن عبد العزيز الاصلاحية رضى الناس واستحسانهم، لما كان لها من أثر ملحوظ في عودة المالية إلى حالة الصحة بعد أن كانت سيئة في الأحوال المضطربة لعهد عبدالملك والحجاج[1]. ولكن هذه السياسية التي اتبعها عمر بن عبد العزيز لم تستطع أن تستأثر بولاء النخبة من الناس ومساندتهم لحكمه، فتآمروا عليه ووضعوا عليه من سقاه سماً فمات[2]. ومهما يكن الأمر فإن الخلفاء الذين أتوا بعده عادوا إلى سالف عهدهم في استغلال الناس، فعادت أوضاع الفلاحين والحرفيين وفقراء المدن إلى التردي مما دفعهم إلى مواصلة الكفاح، فاشتركوا في العديد من الانتفاضات وكانوا قاعدة الثورة العباسية التي قضت على حكم الأمويين.

مسألة الأراضي ـ العلاقات الاقتصادية وقوانين الملكية

طرحت الفتوحات مشكل الأرض والفلاح بصورة لم يسبق لها مثيل عند العرب قبل الاسلام. وأصبحت القضية الزراعية إلى جانب المشاكل التي نجمت عن سياسة الأمويين المالية والعربية الأعرابية مثار أزمات ومنافسات ومنازعات واصطدامات اجتماعية واقتصادية وسياسية أضعفت الأمويين وأطاحت بدولتهم وهزت أركان المملكة العباسية في أعمق جذورها.

ومن أجل فهم طبيعة المشكل الزراعي وخلفياته والحلول التي وُضعت لمعالجته، لا بد من الأخذ بعين الاعتبار الأمور التالية:

أ ـ كانت العلاقات الاجتماعية الاقتصادية[3] وقوانين الملكية السائدة في مجتمعات

---

(1) ولهاوزن: تاريخ الدولة العربية ص297.

(2) ابن الأثير: الكامل ج4 ص157.

(3) يرى الدكتور حسين مروة: (أن علاقات الانتاج الاقطاعية في دولة الاسلام بدأت بزمن معاوية الأول بخاصة في بلاد الشام أولاً ثم العراق ـ بدأت بداية حيوية جددت شباب الاقطاعية البيزنطية والساسانية التي كانت قبل دولة الاسلام تعاني مرحلة انحدار وتناقض حاد مع قوى الانتاج البشرية (العبيد والأحرار معاً) غير أن الفئة الحاكمة الاسلامية دخلت طرفاً مباشراً في عملية الانتاج الزراعي، أي أنها دخلت العملية، لا بوصف كونها سلطة سياسية ممثلة لفئة الاقطاعيين وحسب، بل كذلك بصفتها المالك الأكبر للأرض والمستثمر الاقطاعي الأكبر. وهذا الواقع أخذ يحدث، تدريجياً، تأثيرات سلبية في تطور العلاقات الاقطاعية وتطور القوى المنتجة العاملة في الأرض إذ أخذت السلطة بصفتيها معاً: الاقتصادية والسياسية ترهق هذه القوى (الفلاحين والشغيلة الزراعيين) بالعمل وبالمزيد من الضرائب وسوء جبايتها، فتعرقل نموها بل تضعف حيويتها وتدفعها إلى التخلي عن العمل في الأرض والهجرة عنها إلى العمل في المدن أو البطالة): النزعات المادية ج2 ص13 ـ 14.

البلدان المحتلة جديدة وغريبة في نظر العرب الفاتحين الذين لم يكونوا قد استكملوا، بعد، تطورهم نحو التشكيلة الاجتماعية التي وجدوها قائمة في تلك الأقطار، فنظام الاقطاع الذي كان شائعاً هناك، لم يُثِرْ فيهم أي اهتمام كما أنهم لم يهتموا في أول الأمر بالأرض بوصفها مصدراً للإنتاج واعتبروها ملكاً عاماً للمسلمين[1]. ثم إن انهيال الغنائم وجمع الخراج وفرض الضرائب، صرف العرب عن الاهتمام بمصادر الثروة فتركوا الأمور كما هي، ولم يحاولوا إدخال أي تعديل على الأنظمة القائمة بهذا الشأن. فظلوا طبقة عسكرية حاكمة فرضت نفسها على مجتمع اقطاعي[2]. وهكذا فإن الفتوحات العربية لم تحدث تغييراً في أسلوب الإنتاج والعلاقات الانتاجية التي كانت قائمة في البلدان المفتوحة، وبالتالي ظل التركيب الاجتماعي الطبقي على حاله بوجه عام.

ب - اعتمدت الاريستقراطية العربية على الملاك المحليين من أجل تثبيت سلطان دولتها في البلدان المستولى عليها. وترتب على هذا التعاون وقوع الفلاحين تحت نير مزدوج، نير السلطة والاريستقراطية العربية من جهة، ونير الملاك المحليين من جهة أخرى.

جـ - كانت الحلول للقضية الزراعية وللضرائب مشابهة، في كثير من الأحوال، لمثيلاتها لدى الفرس والبيزنطيين مع بعض التغييرات التي استدعتها التطورات الزمنية[3].

د - كانت جماهير الفلاحين والحرفيين وكادحي المدن موضع استغلال مرهق وابتزاز مشين وانتهاك صارخ لحقوقها الانسانية، فتعاظم استياؤها وكثرت انتفاضاتها وثوراتها.

كان الهيكل العام لنظام الأراضي والضرائب قد بدأ يتشكل منذ عهد الرسول الكريم والفتوحات، ثم دخلت عليه التغييرات في العصرين الأموي والعباسي. وقد تصرف العرب حيال الأرض بوضع الضرائب عليها وتصنيفها حسب عائديتها وموقف أهلها عند الفتوح[4]. فالأراضي التي افتتحت صلحاً تترك بأيدي أهلها وتكون

---

(1) ي.أ. بليابيف: المصدر السابق، ص 182.

(2) نفس المصدر ص183.

(3) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص64.

(4) نفس المصدر ص66.

خراجية[1]. ويكون أهلها أهل ذمة إن لم يسلموا[2]. وعليهم بالتالي أن يدفعوا إتاوة أو ضريبة على أرضهم والجزية على رؤوسهم[3]. أما إذا أسلموا عند الفتح فتبقى أرضهم بأيديهم وتكون عشرية[4]. وأما الأراضي التي تفتح عنوة فإذا أبقاها الخليفة بأيدي أهلها فتكون خراجية[5]. وعليهم في هذه الحالة أن يدفعوا ضريبة الخراج على أرضهم والجزية على رؤوسهم أو أتاوة متفق عليها[6]. وإلّا يعاملوا معاملة الأرقاء[7]. وإذا وزعها الخليفة على الفاتحين فتصبح عشرية[8]. وكذلك إذا أوقفها لمصالح المسلمين. وأما الأراضي التي تمتلك عفواً دون قتال لجلاء أهلها خوفاً فتصبح وقفاً وتكون خراجية وهي التي تدخل ضمن الفيء[9]. وأما الصوافي، وهي الأراضي المصادرة فللإمام الحق المطلق في تقرير ما شاء بخصوصها[10]. فإذا قسمت بين الفاتحين فهي أرض عشر[11]. وكذلك إذا وقفت لمصالح المسلمين[12]. أما إذا تركت بأيدي أهل البلد فتكون خراجية. والفرق بينها وبين الأراضي الخراجية التي افتتحت صلحاً هو أن لملاك الأراضي الصلحية أن يبيعوا أراضيهم أو يوصوا بها للآخرين، في حين لا يملك الفلاحون في الصوافي ذلك الحق لأن الأراضي أصبحت ملكاً للدولة. يؤيد ذلك قول الطبري: (ما باع أهل الصلح من أراضيهم فهو جائز لهم، وأما ما افتتح عنوة فإن أولئك لا يشتري منهم أحد ولا يجوز لهم بيع شيء مما تحت أيديهم من الأرض)[13].

---

(1) أبو يوسف القاضي: كتاب الخراج ط بولاق ص35.
(2) نفس المصدر ص35.
(3) البلاذري: فتوح البلدان ص 177. دينيت: الجزية والإسلام ص103.
(4) يحيى بن آدم: كتاب الخراج والصنعة ص21.
(5) أبو يوسف القاضي: المصدر السابق ص36. ابن سلام: كتاب الأموال ص110.
(6) أبو يوسف: نفس المصدر ص16، 23. ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص152 ـ 154.
(7) الفريدفون كريمر: الحضارة الاسلامية. الترجمة العربية ص81 والبلاذري: فتوح البلدان ص447.
(8) أبو يوسف القاضي: نفس المصدر ص35.
(9) الماوردي: الأحكام السلطانية ص131 ـ 132. الورقة 99ب.
(10) أبو يوسف القاضي: نفس المصدر ص33.
(11) نفس المصدر وذات المكان.
(12) الماوردي: الورقة 99أ.
(13) الطبري: اختلاف الفقهاء ص 218.

ويمكن تصنيف الأراضي حسب نوع ملكيتها إلى:

أ ـ ملكية عامة للدولة وتشمل: الصوافي وهي كل أرض لكسرى أو لقيصر أو لأهلهما أو لشريف قتل في الحرب أو هرب[1]. كما تضم عملياً الأراضي الخراجية التي افتتحت عنوة[2].

ب ـ ملكية خاصة للأفراد: وتضم الأراضي التي وزعت على الفاتحين أو اقطعت لبعض رجالات العرب ومن الأراضي الخراجية الصلحية[3]. وغير ذلك.

جـ ـ أراضي الموات: وتتألف من الأراضي المهملة أو المغمورة بالمياه أو الأحراش. وأراضي الموات لا يملكها أحد، فمن أحيا أرضاً ميتة فهي له إذا أجازه الإمام[4]. فإذا كانت في أرض العشر أدى عنها العشر، وإن كانت في أرض الخراج أدى عنها الخراج[5].

د ـ أراضي المؤسسات الدينية[6].

هـ ـ الأراضي المشتركة (الحمى)، حمى الأرض ذات الكلأ والماء[7].

إن ظهور الملكية الخاصة للأرض القابلة للبيع والشراء، أي ملكية الأرض التي أصبحت بضاعة قد اشترط نشوء عدم المساواة في الممتلكات العقارية، وقد خلق هذا بدوره قاعدة لتطور الملكية العقارية.

توسع الملكية العقارية الخاصة

انتقلت الأرض إلى الملاك الخصوصيين عن طريق الاقطاع أو عن طريق إحياء الأرض الموات أو الشراء أو الإلجاء وغير ذلك. وكانت الأراضي تمنح في العصر الأموي وكذا في العصر العباسي للعاملين في الجيش والدولة وللمقربين من الخلفاء[8].

---

(1) أبو يوسف القاضي: نفس المصدر ص 32. ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ج1 ص594 ـ 595.
(2) ولهاوزن: تاريخ الدولة العربية ص 266.
(3) الطبري: اختلاف الفقهاء ص 218.
(4) أبو يوسف القاضي: نفس المصدر ص36.
(5) نفس المصدر ص37.
(6) دانيل دينيت: الجزية والإسلام ص98.
(7) ابن سلام: كتاب الأموال ص 413.
(8) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص 65.

وتذكر المصادر أن اقطاع الأرض للأفراد قد بدأ منذ عهد الرسول (ﷺ) واستمر في عهد خلفائه. ويفصِّل ابن سلام أسماء الاقطاعات التي منحت[1]. كما خصص القاضي أبو يوسف فصلاً عن القطائع وموات الأرض[2]. ومثل ذلك فعل يحي بن آدم[3]. وفي ثنايا كتاب اللاذري أمثلة عديدة للاقطاعات التي منحت[4]. وقد توسع الخليفة عثمان في منح الأراضي للمقربين إليه مما أوغر صدور الناس عليه[5]. وكانت أرض الصوافي هي أغلب ما يمنح[6] فقد كتب معاوية أثناء إمرته على الشام إلى الخليفة عثمان يسأله أن يقطعه مزارع صافية سماها له فوافق عثمان[7]. واستصفى معاوية في خلافته كل ما كان لكسرى وأهل بيته من أرض الكوفة والبصرة وسواهما وضرب عليها المسنيات - السدود[8] -. وفعل بالشام والجزيرة مثل ما فعل بالعراق من استصفاء ما كان للملوك من الضياع وتصييرها لنفسه خالصة وأقطعها أهل بيته وخاصته[9]. ثم إن أناساً من قريش وأشراف العرب سألوا معاوية أن يقطعهم من بقايا الصوافي ففعل. كما فعل من بعده عبد الملك والوليد وسليمان[10].

وكان بنو أمية قد استخرجوا بعض أرض البطائح - وهي أراضٍ واطئة مغمورة بالماء بين الكوفة والبصرة -. ففي خلافة معاوية عين أحد مواليه، عبدالله بن درَّاج عاملاً على خراج الكوفة فاستصلح لمعاوية أرضين من البطائح ما بلغت غلته خمسة ملايين درهم وذلك بعد أن قلع القصب وغلب الماء بالمسنيات. واستخرج حسان النبطي أراضي للوليد ثم لهشام من البطيحة[11].

وعمد الحجاج إلى ضياع كان عبدالله بن دراج، مولى معاوية بن أبي سفيان،

---

(1) كتاب الأموال ص 386 - 404.
(2) كتاب الخراج ط بولاق ص 32 - 38.
(3) كتاب الخراج 77 - 89.
(4) فتوح البلدان ص 12 - 152.
(5) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص66.
(6) نفس المصدر ص65.
(7) ابن عساكر، أبو القاسم علي بن هبة الله بن عبدالله الشافعي: تاريخ مدينة دمشق... ج1 صفحة 595.
(8) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ج2 ص218.
(9) المصدر ذاته ص234.
(10) ابن عساكر: المصدر ذاته ص 595 - 596.
(11) البلاذري: فتوح البلدان ص 293.

استخرجها له أيام ولايته خراج الكوفة من موات مرفوض ونقوض مياه ومغايض وآجام قلع قصبها وضرب عليها المسنيات[1] فحازها لعبد الملك بن مروان[2].

واستصلح مسلمة بن عبد الملك أراضي كثيرة أيضاً. ففي إمارة الحجاج على العراق، اتسعت البطيحة لأن بثوقاً انفجرت فلم يعان الحجاج سدها مضارة للدهاقين لأنه كان اتهمهم بممالأة ابن الأشعث حين خرج عليه[3]. فكتب الحجاج إلى الوليد بن عبدالملك يعلمه أنه قدر لسدها ثلاثة ملايين درهم فاستكثرها فقال له أخوه مسلمة، أنا أنفق عليها شريطة أن تقطعني الأرضين المنخفضة التي يبقى فيها الماء... فأجابه الوليد إلى ذلك. فحفر السيبين وتألف الأكرة والمزارعين وعمر تلك الأراضي... والجأ الناس إليها ضياعاً كثيرة للتعزز به. فلما جاءت الدولة العباسية وقبضت أموال بني أمية، اقطع جميع السيبين داود بن علي ابن عبد الله بن العباس[4].

وعندما أحرق الديوان في يوم الجماجم عام 82هـ/ 701م أثناء ثورة ابن الأشعث، أخذ كل قوم ما يليهم من القطائع[5]. وصيروها أرضاً عشرية وملكاً خاصاً للأفراد والأسر بعد أن كانت أرضاً خراجية وملكاً للدولة منذ أيام الفتح وكانت غلتها في أيام عثمان خمسين مليون درهم[6].

وأقطع الخليفة (سليمان بعد عبد الملك) يزيد بن المهلب، واليه على العراق، ما اعتمل من البطيحة، فاستصلح الشرقيّ والجبان والخست والريحية ومُغيرَتّان وغيرها فصارت حوزاً، فقبضها يزيد بن عبدالملك، ثم أقطعها هشام ولده[7].

وحفر خالد القسري، والي العراق في خلافة هشام لمدة خمسة عشر عاماً 105 ـ 120هـ/ 723 ـ 737م، أنهار (الجامع) قرب الكوفة و(المبارك) جهة واسط (نهر خالد) و(بارمانا) و(الصلح). وكوَّن لنفسه ضياعاً واسعة على ضفاف تلك الأنهر[8] بلغت غلتها ثلاثة عشر ألف ألف درهم في رواية وعشرين ألف ألف درهم في رواية

---

(1) البلاذري: فتوح البلدان ص 293.
(2) المصدر ذاته ص290.
(3) المصدر ذاته ص293.
(4) المصدر ذاته ص294.
(5) المصدر ذاته ص294.
(6) الماوردي: الأحكام السلطانية ص183.
(7) البلاذري: المصدر ذاته ص 369.
(8) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص475.

أخرى[1]. ويعلل القاضي أبو يوسف إقطاع الأراضي بأنه (أعمر للبلاد وأكثر للخراج)[2]. وانتقلت الأراضي أيضاً إلى الأفراد عن طريق الإلجاء والشراء. وكان إلجاء الأراضي معروفاً في الشرق الأدنى قبل الإسلام[3]، كما كان معروفاً لدى البيزنطيين[4]. وفي العصر الأموي كان الكثير من صغار الملاك يلجئون أراضيهم إلى بعض رجال الأسرة الأموية أو الاريستقراطية القبلية للتعزز بهم من عبث الجباة والعمال ومن ارهاقهم. وبمرور الزمن كان الحامي يصبح المالك الحقيقي للأرض بينما يتبدل وضع المالك الأصلي إلى حالة مزارع في الأرض[5]. وقد رأينا في نص البلاذري الآنف الذكر كيف ألجأ كثير من الملاك في السواد أراضيهم لمسلمة بن عبدالملك للتعزز به. كما ذكر البلاذري أيضاً أنه: (لما نزلت العرب اذربيجان نزعت إليها عشائرها من المِصْرَين والشام وغلب كل قوم على ما أمكنهم وابتاع بعضهم من العجم الأرضين وألجئت إليهم القرى للخفارة)[6]. ويذكر كلود كاهن أنه وجدت أنواع من التلجئة فرضت بطبيعة الحال على الفلاح فرضاً، وكان يتعذر عليه الفكاك منها مهما رغب في ذلك[7]. وكان لظاهرة إلجاء الأراضي تأثيرات سلبية في تطور القوى المنتجة الزراعية.

ولم يقتصر توسع الملكية الخاصة على حساب أملاك الدولة وأرض الموات والملكيات الصغرى، وإنما تجاوز ذلك إلى بعض الحمى[8] (الأراضي الجماعية أو المشاعة).

وهكذا لم يمض على ملك بني أمية نصف قرن حتى أصبحت أخصب أراضي البلاد وأوسعها في أيدي الاريستقراطية شبه الاقطاعية من أعضاء الأسرة الأموية وحلفائها وأعوانها ومقربيها[9].

---

(1) المصدر السابق، ص468 ـ 475.

(2) كتاب الخراج: طبعة بولاق ص34.

(3) د. ضياء الدين الريس: الخراج والنظم الإسلامية ص 48.

(4) دانيل دينيت: الجزية والاسلام ص 97 ـ 98 الهامش.

(5) د. عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص 18.

(6) فتوح البلدان ص329.

(7) تاريخ العرب والشعوب الاسلامية. ترجمة الدكتور بدر الدين القاسم ج1 ص 185.

(8) البلاذري، فتوح البلدان ص 181. العزيز: حسين قاسم: البابكية ص 66.

(9) د. بندلي جوزي صليبا: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ج1 ص 48.

وقد ساهم في تكوين الضياع الخاصة الواسعة كل من السلطة العربية ورجالات الاريستقراطية العربية. وكان هشام بن عبد الملك وخالد القسري ومسلمة بن عبد الملك أكبر ملاكي عصرهم[1]. وقد بلغت غلة أراضي خالد القسري بالعراق ثلاثة عشر ألف ألف درهم أي ثلاثة عشر مليون درهم[2] وفي رواية أخرى عشرين ألف ألف درهم أي عشرين مليون درهم[3]. وقد خطب يوماً قائلاً: (إنكم زعمتم أني أغلي أسعاركم فعلى من يغليها لعنة الله)[4]. وكتب الخليفة هشام إلى عامله خالد القسري: (لا تبيعن من الغلات شيئاً حتى تباع غلات أمير المؤمنين)[5] حتى بلغت كيلجة درهماً.

هذا، وكانت الضرائب التي يؤديها الملاكون العرب بسيطة لا تتوازن مع سعة أراضيهم إذ كانوا يدفعون عنها العشر أو نصف العشر. فقد ذكر القاضي أبو يوسف: (فأما القطائع فما كان منها سيحاً فعلى العشر وما سقي منها بالدلو والغرب والسانية فعلى نصف العشر)[6]. ولم يكن الملاك العرب أصحاب القطائع في العادة يقيمون فيها - ويشرفون على إدارة أملاكهم - بل كانوا يقيمون في الأمصار أو في العاصمة. وكانوا يستثمرون أقطاعاتهم بتشغيل الفلاحين من غير العرب والعبيد.

وقد اعتمد الأمويون على ملاك الأراضي المحليين من أجل تثبيت سلطانهم في البلاد المفتوحة. واحتفظ الاقطاعيون من أهل البلاد بأراضيهم وبحقوقهم الكاملة وبامتيازاتهم وظلوا يستغلون الفلاحين كسالف عهدهم[7]. وفي رواية للطبري إشارة إلى أن دهاقين خراسان كانوا على صلات حسنة مع والي الاقليم أسد بن عبدالله القسري[8]. ولهذا لم يشتركوا في الانتفاضات المعادية إلا حينما ازدادت مضايقة السلطة لهم وامتدت يد الاستغلال بالتنظيمات المالية المستحدثة وبعد أن زحف الملاك العرب للاستيلاء على أراضيهم[9].

---

(1) الدوري: المصدر السابق ص19.

(2) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص468.

(3) المصدر ذاته ج5 ص475.

(4) نفس المصدر ج5 ص 477.

(5) نفس المصدر ج5 ص477.

(6) كتاب الخراج ط بولاق ص 29.

(7) ي. أ. بليايف: المصدر السابق ص 183.

(8) الطبري: المصدر السابق ج5 ص465.

(9) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص 67 - 68.

وقد نجم عن توسع الملكية العقارية الخاصة نتائج اقتصادية واجتماعية زادت من الوضع المتأزم الذي تتخبط به الدولة منذ نشوئها بسبب سياسة الأمويين العربية الاعرابية والمالية والاقتصادية والحربية. وكتدبير للحيلولة دون استمرار انتقال أراضي أملاك الدولة إلى الأفراد ولتفادي النقص فيما يدخل إلى بيت المال نتيجة تحول الأراضي المنتقلة إلى أيدي العرب المسلمين من ضريبة الخراج التي لا تقل عملياً عن نصف المحصول إلى ضريبة العشر فقط ولتحسين الوضع الاجتماعي والاقتصادي لدى الموالي:

لجأت السلطة العربية اعتباراً من عهد عبد الملك بن مروان ومروراً بحكم عمر بن عبد العزيز وإمارة عمر بن هبيرة على العراق ونصر بن سيار على خراسان، إلى اتخاذ جملة من القرارات تنص بوجه عام على ما يلي:

أ ـ أخذ الحجاج الخراج (ضريبة الأرض) من العرب المسلمين أو من غيرهم[1].

ب ـ منع عمر بن عبدالعزيز بيع أرض الخراج للعرب والمسلمين اعتباراً من عام 100هـ/ 718م دون أثر رجعي[2] حتى لا تقل مساحتها بتحويلها إلى قطائع للمسلمين لا تجب عليها الا ضريبة العشر. كما منع اقطاع الصوافي للناس للغرض نفسه من أجل المحافظة على ريعها الكامل للدولة[3]. غير أنه اضطر إلى تطبيق خطة الحجاج في أخذ الخراج من العرب المسلمين أو من غيرهم[4].

جـ ـ أخذ الحكام الأمويون يفرقون بين الخراج والجزية وخاصة في العقود الثلاثة الأخيرة من تاريخ دولتهم، فانحصرت الجزية في غير المسلمين، فإن أسلموا سقطت عنهم واستمروا في دفع الخراج عن الأرض. وبذلك حافظت الدولة على موردها الذي كانت تأتي غالبيته من الخراج، وبالتالي أصبح الخراج (ضريبة الأرض) هو الدخل الضروري الثابت لبيت المال[5].

---

(1) البلاذري: فتوح البلدان ص 368.
(2) ابن عساكر: تاريخ دمشق ج1 ص596.
(3) نفس المصدر والصفحة.
(4) د. نبيه عاقل: دراسات في تاريخ العصر الأموي ص 232.
(5) ولهاوزن: تاريخ الدولة العربية ص 273.

غير أن هذه التنظيمات جاءت، بشكلها النهائي، متأخرة في وقت اندلعت فيه الحروب الأهلية وعمت البلاد موجة كاسحة من الاضطرابات، فاستغل العباسيون هذه الظروف وضموا تحت لوائهم جميع المستائين، بمن فيهم الملاكون المحليون، في جبهة سياسية واحدة وقضوا على الدولة الأموية.

الفصل السادس

النشاط البشري
الزراعة ـ الحرفة ـ التجارة

الزراعة

أخذت روابط الاقتصاد الطبيعي، في صدر الإسلام، تتفسخ مع تطور الزراعة وتوسع الحركة التجارية. وكان الاقتصاد الأموي اقتصاداً زراعياً ـ تجارياً متداخلاً أي أن كبار ملاك الأراضي كانوا يمارسون التجارة إلى جانب فعالياتهم الزراعية، كما أن التجار كانوا يستملكون الأراضي ويقومون باستثمارها إلى جانب أعمالهم التجارية.

وكانت الزراعة هي القطاع المنتج الرئيسي، يعمل فيها ويعيش منها أكثرية سكان الامبراطورية العربية. وكان الانتاج الزراعي يقوم على استغلال جماهير الفلاحين والعبيد. وإذا أخذنا بوجهة النظر القائلة (إن القوى المنتجة هي الجزء الرئيسي في الانتاج)، فهذا يعني أن جماهير الفلاحين والعبيد في المجتمع العربي ـ الاسلامي كانت القوى المنتجة الرئيسية، وكان جميع ما ينتج في أراضي أملاك الدولة والملكية الخاصة لكبار الملاكين العقاريين من جهد الفلاح والعبد.

لقد تمت في ظل الحكم الأموي خطوات هامة على طريق تنمية الزراعة. فاستصلحت أراضٍ جديدة وأقيمت السدود وأعيد حفر الأقنية المهجورة وشقت ترع جديدة، واستعين بالمهندسين والاخصائيين في التربة والهندسة المائية والهندسة الزراعية، وباشرافهم تحولت مساحات كبيرة من الأراضي الموات إلى حقول ومروج وحدائق وكروم ذات عطاء عظيم. وجندت في كل هذه الأعمال، وخاصة في عهد امرة الحجاج على العراق، فصائل من العبيد والفلاحين لشق الأقنية والترع الجديدة

لإيصال المياه إلى الأرض الموات وتصريف مياه المستنقعات وإزالة الطبقة الملحية لجعل الأرض صالحة للزراعة.

وتجدر الاشارة إلى أن معظم التدابير التي اتخذت في إطار تنمية الزراعة كانت تهدف إلى توسيع مساحة الأراضي الصالحة للزراعة لأن زيادة رقعة الأرض المزروعة تعني زيادة في الخراج، ومساعدة الفلاحين على زيادة إنتاجهم وبالتالي قدرتهم على دفع الضرائب.

لقد تردت أحوال الفلاحين في عهد بني أمية نتيجة لاستغلالهم الفظيع وارهاقهم بالضرائب. فكان يتوجب عليهم أن يدفعوا الخراج ـ ضريبة الأرض[1]، والجزية ـ ضريبة الرأس[2]. وكانت تفرض عليهم أعمال السخرة، العامة والخاصة، كبناء واصلاح الطرق والجسور والأسواق[3]، وشق الأقنية والترع[4]، وإعالة الفاتحين[5]. وكان عليهم أن يقدموا هدايا النيروز والمهرجان[6]، وضرائب أخرى كأجور الفيوح والبيوت ورسوم العرائض[7].

وهكذا وجدت الجماهير الفلاحية نفسها ترزح تحت ثقل نظام مالي مجحف، زاد من وطأته عليهم تعسف الجباة والمتقبلين[8]، وما كان يرافق جباية الضرائب من أشكال الابتزاز والتعذيب[9]. رغم كل ما كتب في مؤلفات الفقهاء من أوامر الرفق بأهل الجزية والخراج والنهي عن تعذيبهم[10].

لقد كان على فلاحي البلاد المفتوحة، إن هم بقَوا في أرضهم، دفع ضريبة الخراج لقاء إيجار الأرض التي يزرعونها. ويكون مقداره إما بقدر ما اتفق عليه بين الطرفين حين جرى الصلح، أو كما يفرض الفاتحون عليهم إذا فتحت ديارهم

---

(1) أبو يوسف القاضي: كتاب الخراج ط. بولاق ص 16.
(2) نفس المصدر والصفحة ابن سلام: كتاب الأموال ص5.
(3) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج5/ ص547.
(4) ي. أ. بليايف: نفس المصدر ص223.
(5) الطبري: نفس المصدر ج5 ص547. ابن سلام: كتاب الأموال ص55.
(6) الجهشياري: كتاب الوزراء والكتاب ص 24.
(7) الطبري: نفس المصدر ج5 ص321. ابن سلام: كتاب الأموال ص65.
(8) أبو يوسف القاضي: نفس المصدر ص 60 ـ 62.
(9) نفس المصدر وذات المكان.
(10) ابن سلام: كتاب الأموال ص 59 ـ 63.

عنوة[1]. وسواء جُبي الخراج على وحدة المساحة من الأرض الزراعية ـ أي خراج معلوم لا يتغير أعطت الأرض أم أجدبت ـ أو مقاسمة[2] ـ خراج نسبي يتناسب مع المحصول يزيد بزيادته ويقل بنقصه ـ وبمعنى آخر كان يقع عبء موارد الدولة، بالدرجة الأولى، على كاهل الفلاحين. وإذا صحت وجهة النظر القائلة بأن ضريبة الأرض أصبحت تعتبر مبلغاً ثابتاً لا يمكن انقاصه بأية حال. وبالتالي كان نقص السكان معناه ضعف القدرة على دفع الضرائب[3].

وكان على شغيلة الريف ـ من غير العرب المسلمين ـ أن يدفعوا أيضاً ضريبة الجزية عن رؤوسهم مع كمية محدودة من الطعام[4]. وقد اختلف الفقهاء في تقدير الجزية[5]. والتحديد الفقهي، حسب رأي أبي حنيفة، 48 درهماً على الموسرين و24 درهماً على متوسطي الحال و12 درهماً على الفقراء[6]، كان عرضة للزيادة كما فعل الخليفة عبد الملك بن مروان حين رفع جزية أهل الجزيرة إلى أربعة دنانير بعد أن كانت جزيتهم ديناراً واحداً على كل رأس أيام الفتوح. وجعل الناس طبقة واحدة يستوي في دفعها الفلاح الفقير والملاك الغني[7]. ويذكر بليابيف أن الضرائب ارتفعت في عهد عبد الملك إلى ضعفي ما كانت عليه سابقاً، مما أدى إلى نشوب اضطرابات وثورات عديدة من الفلاحين[8].

عاش الفلاحون في عهد بني أمية حياة بائسة مريرة. فقد أثقلت كاهلهم الضرائب الفادحة وابتزازات الجباة والمتقبلين[9]. وكان الحكام الأمويون، باستثناء عمر بن عبد العزيز، يسخّرون الفلاحين في الأعمال العامة والخاصة كما تقدم. وكان الحَجاج يجمع الفعلة من كل مكان بالقوة ويأمر بربطهم بالسلاسل حتى لا يهربوا وذلك

---

(1) د. نبيه عاقل: دراسات في العصر الأموي 219.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) كريمر، الفريدفون: الحضارة الاسلامية. الترجمة العربية ص 84.
(4) أبو يوسف القاضي: نفس المعطيات ص16.
(5) الماوردي: الأحكام السلطانية ص 144.
(6) نفس المصدر والصفحة.
(7) أبو يوسف القاضي: نفس المصدر ص24.
(8) العرب والاسلام والخلافة ص 248.
(9) أبو يوسف القاضي: نفس المصدر ص 60 ـ 62.

لتسخيرهم في تجفيف المستنقعات وحفر قنوات الري[1].

وكان ملاك الأراضي من أعضاء الأسرة الأموية أو من الاريستقراطية العربية يستغلون أراضيهم بواسطة فلاحي البلاد أو زنوج أفريقيا الذين كانوا يأتون بهم من بلادهم ويجبرونهم على الشغل في مستنقعات العراق ومصر وما وراء القفقاس حيث كانت الملاريا والحر والجوع تفتك بهم فتكاً ذريعاً[2].

لقد كان الأمويون يدركون العلاقة بين حالة الزارع وبين الوارد. إذ لما كانت ضريبة الأرض أهم مورد للخزينة فإن النشاط الزراعي معناه ازدياد موارد الجباية للدولة. وهكذا فإن معظم التدابير التي اتخذها الأمويون في مجال التنمية الزراعية، كانت تهدف إلى توسيع مساحة الأرض المزروعة ومساعدة الفلاحين على انتاجهم وبالتالي قدرتهم على دفع الضرائب وزيادة موارد الدولة واغناء الملاكين الخصوصيين من أعضاء الأسرة الحاكمة أو الأريستقراطية العربية. فقد ذكر المسعودي أن الخليفة هشام بن عبدالملك اهتم بتعمير أراضي العراق حتى تزيد ايراداته حيث كان يحب المال كثيراً[3]. وشارك خالد القسري، عامل الخليفة على العراق، فحفر أنهاراً عديدة حتى يكثر ايراداته الخاصة[4]. وقد سبق الكلام أن غلة أراضي خالد القسري بالعراق بلغت ثلاثة عشر مليون درهم في رواية وعشرين مليون درهم في رواية أخرى[5]. وكان بين الملاكَيْن العقاريَيْن الكبيرَيْن، الخليفة هشام وواليه خالد، تنافس للتحكم في السوق وبيع المحصول بأسعار أعلى لتحقيق ربح فاحش على حساب بؤس الجماهير ومعاناتها.

لقد ورثت الأريستقراطية العربية التبعية الاقطاعية على الفلاحين من الساسانيين والبيزنطيين. ولهذا جاءت حلولها لقضايا الأرض والضرائب ونظرتها للناس، في كثير من الأحوال، مطابقة أو مشابهة لما هو متعارف عليه مع بعض التغييرات التي اقتضتها التطورات الزمنية[6].

---

(1) البلاذري: فتوح البلدان ص 283 ـ 298. الخربوطلي: تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ص 340 ـ 341.

(2) د. بندلي جوزي صليبا: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ج1 ص 48.

(3) المسعودي: مروج الذهب. نقلاً عن الخربوطلي: د. علي حسني: تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ص 342.

(4) نفس المصدر وذات الصفحة.

(5) راجع صفحة 92.

(6) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص 64.

ولهذا استمرت حالة الفلاحين في التدهور، ولم يتخذ الأمويون، باستثناء عمر بن عبد العزيز، من التدابير للتخفيف من بعض ما تعانيه الجماهير الفلاحية من جور وإرهاق وازدراء.

ولم يقبل الفلاحون ظروفهم التعسة بهدوء، بل حاولوا العمل لتحسين أحوالهم بمختلف الوسائل السلمية والثورية. فقد رفعوا إلى السلطة شكاواهم ومظالمهم وطالبوها أن ترفق بهم وترفع ما أصابهم من بلاء وشدة وجور على حد تعبير الخليفة المصلح عمر بن عبد العزيز[1]. وعندما أصرَّ الحكام الأمويون على التمسك بقاعدة (احلب الدرّ فإذا انقطع فاحلب الدم) ورفضوا الاستجابة لشكاوى المظلومين، لجأوا إلى الثورة، واشتركوا في انتفاضات عديدة، ولكن الأمويين قمعوها بوحشية ورأى الفلاحون ألا سبيل للتخلص من هذا الذل والارهاق الا باعتناق الاسلام.

ولكن اعتناق الاسلام يسقط الجزية عنهم ولا يعفيهم من ضريبة الأرض التي كانت ملكاً للدولة. وحيث إن الفلاحين لم يكونوا مرتبطين بالأرض، فإذا هجروها وتدفقوا على المدن تخلصوا بطبيعة الحال من ضريبتي الجزية والخراج ومن ثم من كل التزاماتهم الضريبية[2]. ولكن الاضطهاد لاحقهم حتى في المدن[3]. أما الفلاحون الذين لم يهجروا الأرض في العراق مثلاً، فإن سلطات الحجاج كانت ترغمهم على العمل في إصلاح وسائل الري وتمنعهم من بيع مواشيهم حين يضطرون لبيعها كي يدفعوا الضرائب ويسدوا حاجتهم للعيش الضروري[4].

لقد خلق تدفق الفلاحين إلى المدن آثاراً اقتصادية وسياسية. فتدهورت الزراعة وانكسر الخراج في عدد من المناطق[5]. وأصبح تجمعهم الكثيف في المدن مصدر خطر على الدولة[6]. لذا صمم الحجاج، عامل الخليفة عبد الملك على العراق، أن يشتت شملهم، ويفض جموعهم كيف شاء وقال له (انتم علوج وقراكم أولى بكم).

---

(1) الطبري: تاريم الأمم والملوك ج5 ص 321.

(2) دانيل دينيت: الجزية والاسلام ص 75.

(3) د. حسين مروة: النزعات المادية ج1 ص 415.

(4) نفس المصدر والصفحة.

(5) الطبري: نفس المصدر ج5. ص 182. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج5 ص48. الجهشياري: الوزراء والكتاب ص 57.

(6) دانيل دينيت: الجزية والاسلام 72.

ونقش على يد كل رجل منهم اسم المكان الذي وجهه إليه[1]. وارغمهم على دفع الجزية عن رقابهم[2]. ودفع الخراج - ضريبة الأرض[3]. وهذا يدل على أن المورد المالي للدولة كان في المركز الأول من الاهتمام، يدل أن يكون اسلام السكان هو صاحب المركز الأول[4].

ورب سائل يسأل، إن الأمويين لم يضيّقوا على الموالي، ويمكنه أن يقيم الدليل على ذلك. كل هذا صحيح، ولكن دائرة ذلك كانت تقتصر على (النخبة) منهم. وحول هذا السؤال يجيب دينيت: «لم يكن للمتحولين إلى الإسلام من هذا الفريق أو النخبة) ما يدعو إلى الضيق والشكوى. أما الذين أسلموا من الطبقات الأدنى في المجتمع، الجهلاء الفقراء الذين ينتمون إلى الفلاّحين(الأجلاف) فقد عوملوا بازدراء واستخدمت أساليب العنف بحقهم وأعيدوا إلى قراهم بعد أن ختم على يد كل منهم اسم المكان الذي وُجِّهَ إليه ثم أُرغموا على دفع الجزية والخراج[5]، كأنّهم لم يدخلوا في الاسلام ولم تجر عليهم أحكامه[6].

وهكذا كان الفلاحون والمشتغلون بالزراعة في الأرياف العراقية والفقراء الكادحون الحرفيون في المدن هم أكثر من أصابهم الاضطهاد في عهد الحجاج[7]. فقد أرهقهم بالضرائب التعسفية وبأعمال السخرة وبالاعتقالات والتجويع[8].

وقد حاول الأمويون تعميم سياسة الحجاج المالية في القسم الغربي من المملكة، ولكن مقاومة الأهلين - وقاعدتهم الجماهير الفلاحية - حالت دون ذلك[9].

وهكذا فإن طرق استثمار الملكيات العقارية الكبرى أصبحت من القسوة في أواخر العهد الأموي على شغيلة الأرض من أهل البلاد ومن الأسرى العبيد بحيث

---

(1) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج3 ص 416.
(2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. ج5 ص359.
(3) البلاذري: فتوح البلدان ص 268.
(4) د. حسين مروة: النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ص 417.
(5) الجزية والإسلام ص 74.
(6) د. بندلي جوزي صليبا: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ج1 ص46.
(7) د. حسين مروة: نفس المصدر ج1 ص415.
(8) نفس المصدر والصفحة.
(9) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج5 ص 48. الجهشياري: الوزراء والكتاب ص 57.

كونت عائقاً دون تطور القوى المنتجة لماانتهت إليه حالة هؤلاء الشغيلة من سوء العيش وفتك الأمراض الوبائية[1].

جاء في إحدى روايات الطبري أن زياداً، والي معاوية على العراق والمشرق، أخبر عامله في خراسان بأن الخليفة معاوية كتب إليه أن اصطفِ له الصفراء والبيضاء ـ أي الذهب والفضة ـ والروائع فلا تحركن شيئاً حتى تخرج ذلك[2]. وأجاب الخليفة سليمان بن عبد الملك عامله على مصر، حين استشاره أن يرفق برعيته ويخفف من خراجها: (احلب الدرّ وإذا انقطع فاحلب الدم)[3]. وانفق الحجاج على الحملة التي أرسلها لفتح السند بقيادة محمد ابن القاسم الثقفي ستين مليون درهم وأعادت عليه بعشرين ومائة ألف ألف درهم أي بمائة وعشرين مليون درهم[4]. والسؤال هو: ممن يستصفي زياد الصفراء والبيضاء فيما لو تحقق له ذلك؟ ومن المقصود بعبارة سليمان (احلب الدر وإذا انقطع فاحلب الدم)؟ ومن أين جاء الحجاج بنفقات حملة السند؟ ومن أين جاء محمد بن القاسم بمبلغ العشرين ومائة مليون درهم؟ ومن المستفيد من كل ذلك؟ الجواب. كان الفلاحون والحرفيون، أناس العمل والمنتجون المباشرون للخيرات المادية، مصدر معظم هذه الأموال لصالح الحكام وقواد الجيش والجباة ووكلاء السلطة والأريستقراطية العربية.

فالظلم مؤذن بخراب العمران والدولة على حد تعبير ابن خلدون[5].

نمو المدن

مع توسع الحركة التجارية ونهوض الاقتصاد النقدي، اكتسبت المدن، تحت ظل السلطة الأموية، أهمية متصاعدة من حيث هي مراكز اقتصادية وثقافية مكثفة إلى جانب احتفاظ بعضها بمهامها العسكرية أيضاً. وقد ساهم الملاكون الكبار والمتوسطون، الذين اتخذوا المدينة أماكن إقامتهم، إلى جانب قوى اجتماعية أخرى، بشكل مباشر

(1) د. حسين مروة: نفس المصدر والصفحة.
(2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج4 ص 187.
(3) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص 51 ـ 52.
(4) البلاذري: فتوح البلدان ص 440.
(5) ابن خلدون المقدمة: ص 241.

في تطور الحياة الاقتصادية للمدينة[1]. ذلك أن قسماً منهم كان يعمل، في الوقت نفسه، كتاجر وكمالك لمراكز صناعية حرفية[2].

نمو الصنائع والحرف

وقد نمت الصنائع والحرف في صدر الاسلام لِتُجاري تطور القوى المنتجة بالنسبة لصناعة أدوات إنتاج متقدمة نسبياً في الزراعة والري بخاصة[3]، ولازدياد ترف الطبقات العليا في المجتمع وتكاثر احتياجاتهم نتيجة الغنى الذي نجم عن الفتوحات والغنائم[4]. فقد ذكر المسعودي أن الخليفة سليمان بن عبد الملك كان يلبس الثياب الرقاق وثياب الوشي، وفي أيامه عمل الوشي الجيد باليمن والكوفة والاسكندرية، ولبس الناس جميعاً الوشي جباباً وأردية وسراويل وعمائم وقلانس، وكان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته إلا في الوشي، وكذلك عماله وأصحابه ومن في داره[5]. وذلك فضلاً عن ضرورة تطور صناعة الأسلحة تلبية لحاجات الدولة المتوسعة باستمرار[6].

وكان في بلاد الشام والعراق ومصر وإيران صنائع تشهد لصناعها بالمهارة والبراعة والدقة والذوق. فقد اشتهر الصناع اللبنانيون والسوريون، الذين كانوا يحتفظون بالتقاليد الصناعية الفينيقية وبأسرار مهنهم، بصنع الزجاج والأواني الزجاجية. وفي عهد معاوية الذي اختار دمشق عاصمة للخلافة نعمت سورية بامتيازات وبمنافع جمة بصفتها المركز الرئيسي للأمبراطورية الجديدة. وكانت الجمارك تحيط بالبلاد السورية من كل صوب، رغم كونها جزءاً من بلاد الخلافة، لمنع دخول البضائع والسلع، حماية للانتاج المحلي[7]. وبما أن الحدود القديمة التي كانت قد وضعتها بيزنطة أو تلك التي رسمها الفرس زالت في عهد الأمويين، فإن الأسواق الخارجية

---

(1) د. طيب تيزيني: مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط ص 176.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) د. حسين مروة: النزعات المادية ج1 ص 476.
(4) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص 85.
(5) مروج الذهب ج3 ص 184 ـ 185.
(6) د. حسين مروة: نفس المصدر ج، ص 476.
(7) ي. أ. بليايف: العرب والإسلام والخلافة العربية ص 215.

في العراق وفارس انفتحت وأخذت تستورد ما كانت الصناعة السورية المتقدمة تنتجه من (الزجاج والمرايا والأصبغة والثياب والديباج والسفن والحبال والكاغد والخمور والعطور والأسلحة والصابون وغيرها)[1]. ووصف المسعودي أهل العراق بأنهم (بارعون في كل صناعة)[2] واشتهرت مصر بورق البردى والثياب والستور والفرش والجلود وغيرها[3].

وعلى الرغم من توافر الإمكانات لنمو الصناعة وتقدمها أكثر مما كانت عليه في واقع الحال، إلا أن كثرة الاضطرابات وتعسف السلطات وقف عائقاً أمام تطورها. فقد فرض الأمويون الضرائب على الحرف والصناعات[4]. ولربما كانت الضرائب والرسوم على الصنائع والحرف أشد وطأة على الأهالي في البلدان المغلوبة من الخراج والجزية، لأنها لم تكن محددة معروفة ومبنية على قاعدة مقبولة. وكان مقدارها وزمن تأديتها منوطين بعمال الخليفة وجباة المال[5].

توسع الحركة التجارية ونشوء المصارف

لقد رافق عملية الفتوحات وقيام امبراطورية عربية اسلامية مترامية الأطراف وزوال الحدود والحواجز التي كانت قد وضعتها بيزنطة أو تلك التي رسمها الفرس، رافق ذلك نمو الحركة التجارية وازدهارها كما ساعد في تنشيط التجارة اهتمام الحكام بطرق المواصلات وإنشاء الأسطول وبناء القناطر والجسور وشق الترع والأقنية وحفر الآبار. وتذكر كتب التاريخ والفقه أن التجار كانوا يرافقون الجيوش العربية في حملاتها فيزودونها بما تحتاج أو يشترون بعض غنائم الحرب[6] مكونين أسواقاً متنقلة.

وكانوا يمارسون تجارة مختلف السلع. وكان بعضهم يقرض الجيوش والقواد. يؤيد ذلك ما ذكره المبرد: (أن المهلب بن أبي صفرة بعث إلى التجار وقال لهم: إن

---

(1) ابن حوقل: صورة الأرض ص 165 ـ 185.
(2) التنبيه والاشراف ص 37.
(3) اليعقوبي: كتاب البلدان ص 331.
(4) الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ص 71.
(5) د. بندلي جوزي صليبا: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ج1 ص 42.
(6) ابن سلام: كتاب الأموال ص 259 ـ 60.

تجارتكم منذ حَوْلٍ قد كسدت عليكم بانقطاع مواد الاهواز وفارس عنكم، فهلم فبايعوني واخرجوا معي أوفكم أن شاء الله حقوقكم، فتاجروه: فأخذ من المال ما يصلح به عسكره)[1].

وروى البلاذري: أن العرجي غزا مع مسلمة بن عبد الملك في آخر خلافة سليمان فقال: يا معشر التجار من أراد من الغزاة المعدمين شيئاً فاعطوه إياه فأعطوهم عليه عشرين ألف دينار. فلما استخلف عمر بن عبد العزيز قال بيت المال أولى بمال هؤلاء التجار من مال العرجي فقضى ذلك من بيت المال[2].

كانت الأرباح التي يجنيها بعض التجار عالية، فقد اشترى عبدالله بن عمر من غنائم جلولاء بأربعين ألفاً وباعها في الحجاز بأربعمائة ألف أي بربح نسبته 1000%، ولكن الخليفة عمر لم يقرّ له أخْذَ كل الربح خشية أقاويل الناس فقال له: إني معطيك أكثر ما ربح تاجر من قريش. لك ربح الدرهم درهماً[3]. واشترى عمرو بن حريث من غنائم نهاوند بمليوني درهم ثم باعها في الكوفة بضعف الثمن أي بأربعة ملايين درهم[4].

وقد قامت المصارف الخاصة بوظائف أقراض النقود واستعمال الحوالات والسفاتج والصكوك التي ساعدت وسهلت التبادل التجاري بين المدن والأقاليم المتباعدة وخففت من مصاعب نقل النقود بين البلدان وتعرضها إلى أخطار اللصوص والنهب[5]. وهكذا فإن نشوء المصارف ساعد بدوره على تسهيل عمليات التجارة بين مختلف أقطار الدولة العربية الإسلامية.

اتبعت الحكومة الأموية في معظم بلدان الخلافة سياسة حرية التجارة، فلم تقيد نقل السلع بين مختلف ولايات الدولة، ولم تحتكر تجارة أية سلعة أو تمنع مبادلتها. ولا ريب أن هذه السياسة أتاحت لبعض الأفراد احتكار بعض السلع. وقد أدى الاحتكار وانتشار الرفه والنعيم في أوساط الطبقة الأريستقراطية إبّان الحكم الأموي

---

(1) المبرد: الكامل ج3 ص627.
(2) البلاذري: انساب الأشراف ج5 ص112 - أبو الفرج الاصفهاني ج1 ص395.
(3) ابن سلام: كتاب الأموال ص 259 - 260.
(4) الطبري: تاريخ الرسل ج2 ص220. ابن سلام: نفس المصدر ص253. ابن الأثير: الكامل ج3 ص16.
(5) د. صالح أحمد العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص 264.

إلى ارتفاع الأسعار. ويروى أن احدهم سأل الخليفة عمر بن عبد العزيز: (لو أنك سعَّرت لنا قال: ليس إلينا من ذلك، إنما السعر إلى الله)[1].

وكانت التجارة ومواردها مكرسة بالدرجة الأولى لرفاهية الخلفاء والحكام وقواد الجيش والطبقة الأريستقراطية. ولا غرو فأهم سلعها كانت من الكماليات كالبسط الجيدة والأثاث الثمين والجواهر والحرير والرقيق. وكان كبار التجار هم المشتغلون بتجارة سلع الترف.

ولم تكن الرسوم المفروضة على التجارة في عهد الأمويين باهظة. ويذكر أبو يوسف أن الدولة كانت تأخذ 10% من قيمة التجارة من الأجانب و5% من تجارات أهل الذمة و2,5% من تجارة المسلمين[2]. وكانت الدولة تعفي كل تجارة تقل قيمتها عن مئتي درهم[3].

وهكذا نشأ وتطور تبادل بضاعي نشيط ومتعدد الجوانب بالعلاقة مع توسيع الحركة التجارية في المنطقة. وكان صك النقود العربية وتوحيدها على نطاق الدولة كلها دليلاً على اتساع التجارة وازدهار الاقتصاد في جميع بلدان الخلافة، كما أنه كان دليلاً على اتجاه الدولة إلى المركزية وإلى ضبط الجهاز المالي[4].

اصلاحات عبد الملك والوليد ابنه

لقد تم في عهد عبد الملك والوليد من بعده اصلاحات تنظيمية حضارية متميزة في تاريخ الدولة الأموية. منها صك نقود عربية وتوحيدها في الامبرادطورية، وتعريب سجلات الدولة في الأمور الإدارية والمالية لأول مرة، تحقيقاً لرغبة الاريستقراطية العربية في الاشراف المباشر على الجهاز الإداري والسيطرة على الأمور المالية[5].

وكان رد الفعل البيزنطي لاستبدال عملتهم بعملة عربية رداً عنيفاً دفعهم لاستئناف القتال ضد الخلافة ومنع الرعايا من الاتجار مع العرب، لأن استعمال النقود البيزنطية

---

(1) أبو يوسف القاضي: كتاب الخراج ص 76.
(2) نفس المصدر والصفحة. ابن سلام: كتاب الأموال ص 68.
(3) المصدر ذاته ص76.
(4) ي. أ. بليايف: العرب والإسلام والخلافة العربية ص236.
(5) المصدر ذاته ص236.

في الدولة العربية ـ الإسلامية كان يعني سياسياً أن دولة الخلافة تعتمد على بيزنطة[1].

وكانت الاصلاحات التي أدخلها عبد الملك والوليد ابنه، تعريب الإدارة والنقد وتوحيده، تشير إلى تغيير أساسي في سياسة الأمويين وهو الانتقال من مرحلة الاحتلال العسكري إلى الإدارة المدنية لشعوب البلدان المفتوحة.

وكان التجار خليطاً من العرب والموالي وغيرهم[2] وللتجار الحق في ممارسة مهنهم حيثما شاءوا في المدينة، غير أنه كان أنسب لهم أن يتجمعوا في أسواق معينة[3]. وكان السوق خاضعاً لرقابة موظف خاص يدعى العامل على السوق[4]. وكان من واجبات العامل على السوق مراقبة الأوزان والمكاييل وجمع ضريبة الأسواق[5]. ومعظم هؤلاء التجار يشتغلون لحسابهم الخاص، ويقومون بأعمالهم بأنفسهم وحدهم أو يعاونهم أولادهم وعبيدهم أو مساعدوهم، وقد يقيمون في المدينة فيشترون البضائع من المستوردين ثم يبيعونها، أو يسافرون بأنفسهم لاستيراد البضائع من البلاد التي تنتجها[6]. أو قد يُنيبون عنهم وكلاء لشراء السلع لهم[7]. غير أن فريقاً من التجار كوَّنوا فيما بينهم شركات مؤقتة أو دائمة[8].

وقد تأثر نشوء المصارف بازدهار الحياة الاقتصادية ونمو التجارة ـ وكان تحريم الإسلام للربا قد أثّر في عمليات الاقتراض وقيام المصارف ونمو أعمالها دون أن يمنعها، ولذا اضطر الأتقياء إلى مزج أعمال المصارف بالتجارة، فيبيعون المدينين بضائع بسعر أعلى من سعر السوق، على أن يكون الدفع مؤجلاً، والفرق بين سعر السوق وسعر البيع هو في الحقيقة الفائدة على ثمن البضاعة عن المدة التي يؤجل فيها الدفع عن ثمن الشراء[9].

---

(1) المصدر السابق، ص236.
(2) د. صالح أحمد العلي: التنظيمات الاجتماعية في البصرة في القرن الأول الهجري ص 235.
(3) نفس المصدر والصفحة.
(4) البلاذري: انساب الأشراف ج5 ص47.
(5) نفس المصدر وذات المكان.
(6) الجاحظ: البخلاء ص298. ابن الفقيه الهمذاني: مختصر كتاب البلدان ص51.
(7) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج1 ص 175.
(8) العلي: التنظيمات ص 241.
(9) نفس المصدر ص 260.

الفصل السابع

المجتمع العربي ـ الإسلامي

هرمية المجتمع العربي ـ الإسلامي وطبقاته

تكوَّن البناء الهرمي للمجتمع العربي ـ الإسلامي في ظل حكم بني أمية من الطبقات والفئات الاجتماعية التالية:

أ ـ طبقة الأريستقراطية الاقطاعية من العرب والأجانب، بيدها السلطة والنفوذ، وتملك الأرض والثروة وتتمتع بامتيازات خاصة.

ب ـ طبقة الفلاحين ومعظمهم من الموالي وأهل الذمة الذين كانوا يئنون من الاستغلال الاقطاعي ويتذمرون من ثقل الضرائب وقسوة الجباة، فضلاً عن الازدراء والتحقير.

جـ ـ فئات العوام: وتضم العمال والحرفيين الكادحين وأصحاب البيوعات الصغيرة في المدن.

د ـ فئات العبيد: وأغلبهم من أسرى الحرب. وكانوا محرومين من أية ملكية بل هم أنفسهم مملوكون.

أ ـ طبقة الأريستقراطية الاقطاعية

لقد أدت الفتوحات وتدفق الغنائم وممارسة الحكام وقواد الجيش لأعمال النهب والابتزاز وانتصار العلاقات الاقطاعية بين شعوب الدولة العربية ـ الإسلامية بما في ذلك العرب أنفسهم أدى ذلك إلى تحول الأريستقراطية العربية القبلية ـ تحت تأثير الأحوال الاقطاعية السائدة في البلدان المفتوحة ـ إلى طبقة الاقطاعيين المسيطرين في أقاليم الخلافة. وقد رأينا العرب في بداية الفتح، ابان الحكم الراشدي ولاسيما في

عهد عمر بن الخطاب يعيشون في المدن ـ المعسكرات التي أنشأوها منعزلين عن السكان الأصليين وعن عملية الانتاج وسائر نشاطات الحياة بصورة عامة، وظلوا طبقة عسكرية حاكمة فرضت نفسها على مجتمع اقطاعي[1].

وكان عمر متشدداً في منع العرب من امتلاك الأراضي أو زراعتها. ولما تولى عثمان الخلافة أباح لقريش امتلاك الأراضي وتوسع في منحها إلى أقربائه والمقربين إليه[2]. ونشأت في عهده طبقة أريستقراطية شبه اقطاعية من الحكام الأمويين الذين عينهم هذا الخليفة من أقربائه[3].

وفي عهد معاوية ـ أميراً وخليفةً ـ كانت السمة البارزة للنظام الاجتماعي في المنطقة كلها، امتداداً من العهود البيزنطية والساسانية هي السمة الاقطاعية المتحصنة بطابعها العسكري[4]. فلم يكن ممكناً إذاً إلا أن يحدث هذا الشكل التاريخي أثره بصورة موضوعية، في تكييف نظام الحكم العربي بعد الفتح وبعد الاستقرار الذي عرفته بلاد الشام أثناء إمارة معاوية ثم خلافته[5]. ثم كانت المصلحة الطبقية للحكام الأمويين أن يستفيدوا إلى أقصى الحدود من النظام الذي وجدوا جذوره نامية وعلاقاته الانتاجية غالبة، وأن يندفعوا إلى تعميق أسس هذا النظام وترسيخها أكثر فأكثر[6]. أما المصلحة الطبقية هذه فقد تكونت من كون معاوية وأسرته أصبح في حيازتهم أراض واسعة ـ الصوافي. كانت قبل الفتح العربي ـ الإسلامي ملكاً لامبراطور بيزنطة وأريستقراطيتها[7]. وكان من المفترض حسب نظام الأراضي في الإسلام، أن تكون ملكاً عاماً للدولة العربية ولكنها تحولت، تحت سلطة معاوية وأقربائه وبطانته إلى ملكية خاصة، أسكِن فيها ألوف من العبيد الأرقاء لحراثتها واستغلالها، واستخدم المهندسون السوريون والاخصائيون في تحسين التربة والهندسة المائية والهندسة الزراعية في تنظيم فلاحتها وريها[8]. فأصبح معاوية وأخص أقربائه وبطانته من أكبر

---

(1) ي. أ. بلياييف: العرب والإسلام والخلافة العربية ص183.
(2) أنظر ص99.
(3) أنظر ص68 ـ 69.
(4) د. حسين مروة: النزعات المادية ج1 ص472.
(5) المصدر ذاته ص473.
(6) نفس المصدر والصفحة.
(7) أنظر ص97 ـ 98.
(8) ي. أ. بلياييف: العرب والإسلام والخلافة العربية ص211.

الملاكين العقاريين وتألفت منهم الأريستقراطية الاقطاعية الجديدة بعد الفتح، في حين كان العرب الآخرون مشغولين بأعمال الفتح في مناطق بعيدة أو مرابطين في المعسكرات لحماية الدولة من الانتفاضات أو لمحاربة الأحزاب المناوئة للأمويين في العراق وغيره[1].

وقد أباح الأمويون للجاليات العربية الوافدة مع جيوش الفتح أن تملك ما تشاء من الأرض في البلدان المستولى عليها، فتهافت أصحاب الثروة والسلطة من العرب على امتلاك الأراضي في العراق ومصر وسائر الأقطار المعروفة بحسن تربتها وغزارة مياهها، وأخذوا يعتملونها ويستثمرونها بكل ما لديهم ـ وقتئذ ـ من الوسائل فأدى ذلك إلى انتقال أكثر الأراضي الطيبة إلى أشخاص أو عائلات قليلة أصبحت ذات ثروة كبيرة[2].

وهكذا تشكلت، تدريجياً، طبقة الأرستقراطية العربية شبه الاقطاعية التي تآلفت مع الاقطاعيين المحليين واعتمدت عليهم لتثبيت سلطان دولتها في البلدان المفتوحة[3]. واحتفظ هؤلاء بأراضيهم وبحقوقهم وامتيازاتهم. ولهذا لم يساهموا في الانتفاضات الشعبية ولم ينضموا إلى الثورات المناوئة لحكم الأمويين إلا في أواخر العهد الأموي، حيث ازدادت مضايقة السلطة لهم، وامتدت إليهم يد الاستغلال بالتنظيمات المالية المستحدثة وبعد أن زحف إليهم الملاك العرب للاستيلاء على أراضيهم حين ذلك انضم الكثيرون منهم إلى صفوف الجماهير في ثوراتها آملين طرد العرب واستعادة سابق نفوذهم الاقطاعي واستغلالهم الواسع للجماهير[4].

ب ـ طبقة الفلاحين

كان الفلاحون يشكلون أكثرية سكان الدولة العربية. وقامت على أكتافهم التنمية الزراعية ومع ذلك كانت ظروف حياتهم المادية والاجتماعية مزرية نتيجة الاستغلال الطبقي وفداحة الضرائب والتسلط الحكومي. فكان عليهم أن يؤدوا الخراج ـ ضريبة

(1) د. حسين مروة: النزعات المادية ج1 ص473.
(2) أنظر ص99 ـ 101.
(3) أنظر ص102.
(4) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص68.

الأرض مقابل السماح لهم بالعمل فيها واستغلالها[1]. ودفع ضريبة الجزية عن رؤوسهم[2].

وكان الولاة الأمويون يتصرفون اعتباطياً في الأمور المالية كما فعل الحجاج عندما أصدر أمراً بتحصيل الجزية من المسلمين الموالي في العراق[3]. وحدث مثل هذا الأمر، أيام الخليفة هشام بن عبد الملك، في شمال أفريقيا مع البربر الذين اعتنقوا الاسلام[4]. وكان على الفلاحين دفع ضرائب النيروز والمهرجان وغيرها[5]، وذلك فضلاً عن ابتزازات المتقبلين والولاة[6]. وفرض عامل اليمن محمد بن يوسف شقيق الحجاج بن يوسف الثقفي، على فلاحي اليمن خراجاً جعله (وظيفة) عليهم عدا العشر الذي قرره الإسلام[7].

ولم تكن الضرائب على الفلاحين مجحفة ومكروهة لفداحتها وحسب، ولكن أيضاً لما كان يرافق جبايتها من الإهانة وصنوف التعذيب[8]. وقاسى الفلاحون من الغبن في الحقوق وعدم المساواة ومن السخرة في الأعمال العامة والخاصة والتي منها العناية بالطرق والجسور والارشاد وضيافة أبناء السبيل ومن يمر بهم من جنود المسلمين[9].

وكانت أغلبية الفلاحين من الموالي وأهل الذمة، ولم يظفر الموالي بالمساواة في الحقوق مع إخوانهم المسلمين من العرب، وتعرض أهل الذمة لمضايقات من جانب الحكام والولاة. فقد حاول معاوية بن أبي سفيان زيادة الخراج عما كان عليه أيام الخلفاء الراشدين فكتب إلى وردان، مولى عمرو بن العاص، أمير مصر أن زد على

---

(1) أنظر ص106.
(2) أنظر ص106.
(3) أنظر ص86 ـ النجار، محمد الطيب. الموالي في العصر الأموي ص 56. ي. أ. بليايف: نفس المصدر ص 224.
(4) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص 57. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج5 ص101.
(5) أنظر ص90.
(6) أنظر ص91 ـ 93، ص 107.
(7) أنظر ص91.
(8) أنظر ص91.
(9) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص547. ابن سلام: كتاب الأموال ص65. البلاذري: فتوح البلدان ص124 ـ 5.

كل امرىء من القبط قيراطاً. فكتب إليه: كيف أزيد عليهم وفي عهدهم أن لا يُزاد عليهم[1].

وفي عهد عبد الملك وإمارة الحجاج على العراق والمشرق، أقبل الموالي وأهل الذمة على الاسلام اعتقاداً أن اسلامهم سيخلصهم من الجزية والخراج. وهجروا قراهم ولحقوا بالأمصار. ولكن الحجاج الذي هاله نقص الأموال من خزانة الدولة[2]، ألزمهم بالعودة إلى قراهم وأجبرهم على دفع الجزية والخراج[3]. ووضع عبد الملك ضرائب استثنائية على أهل الذمة. فقد رفع جزية أهل الجزيرة إلى أربعة دنانير بعد أن كانت ديناراً واحداً على كل رأس أيام الفتوح[4]. ولما ولي مصر عبد العزيز بن مروان 65 ـ 86هـ/ 685 ـ 705م، أمر باحصاء الرهبان، فأُحصوا وأخذت منهم الجزية عن كل راهب دينار وهي أول جزية أخذت من الرهبان[5]. وحاول بعض أهل الذمة الفرار من الجزية فترهبنوا لعلمهم بإعفاء الرهبان منها، ولكن الحجاج فرض الجزية على جميع الرهبان، كما كان يشتد على أهل الذمة إذا ما تأخروا في دفع الجزية[6]. واشتد أسامة بن زيد التنوخي، متولي الخراج على مصر في خلافة يزيد بن عبد الملك 101 ـ 105هـ/ 721 ـ 724م، اشتد على النصارى وأوقع بهم وأخذ أموالهم ووسم أيدي الرهبان بحلقة حديد فيها اسم الراهب واسم ديره وتاريخه فكل من وجده بغير وسم قطع يده، وألزم كل نصراني بمنشور يحمله يدل على أنه أدى ما عليه وكتب إلى العمال بأن كل من وجد من النصارى وليس معه منشور أن يؤخذ منه عشرة دنانير ثم كبس الديارات وقبض على عدة من الرهبان بغير وسم فضرب أعناق بعضهم وضرب باقيهم حتى ماتوا تحت الضرب[7]. وزاد عبيدالله بن الحبحاب، متولي خراج مصر من قبل هشام بن عبدالملك 105 ـ 125هـ ـ 724 ـ

---

(1) البلاذري: فتوح البلدان ص217.

(2) ذكر الطبري أن عمال الحجاج كتبوا إليه: (أن الخراج قد انكسر، وأن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار...)؟ تاريخ الرسل والملك ج6 ص 381/. يقصدون أن الفلاحين من أهل الذمة أسلموا وتركوا أعمال الزراعة في الريف إلى المدن، فقلّت بذلك موارد ضريبة الخراج، وضريبة الجزية.

(3) أنظر ص109.

(4) أنظر ص107.

(5) المقريزي: الخطط ج2 ص 492.

(6) د. علي حسني الخربوطلي: تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ص 271.

(7) المقريزي: الخطط ج2 ص 491 ـ 493.

743م، على القبط قيراطاً واحداً في كل دينار فانتفض عليه عامة القبط[1]. واشتد أيضاً حنظلة بن صفوان، عامل مصر من قبل الخليفة هشام، على النصارى وزاد في الخراج ـ المقصود هنا الجزية ـ وأحصى الناس والبهائم وجعل على كل نصراني رسماً على صورة أسد وتتبعهم فمن وجده بغير وسم قطع يده[2].

وكان من أبرز العوامل التي أثرت في حياة الموالي الاجتماعية تعصب العرب ضدهم. فقد احتقر الأمويون جميع الأقوام غير العربية، وعدوهم في منزلة اجتماعية أدنى من العرب[3]. فالموالي في نظرهم لم يخلقوا الا للحرف والمهن الوضيعة، كما قال عربي: (يكسحون طرقنا، ويخرزون خفافنا ويحوكون ثيابنا)[4].

وكان زواج المولى من عربية يعتبر جريمة، وللوالي أن يفرق بينهما. فقد تزوج مولى بعربية في المدينة ففرق الأمير بين المولى وزوجته وضرب المولى مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه وفي ذلك قال محمد بن بشير:

وفي المائتين للمولى نكال ... وفي سلب الحواجب والخدود
إذا كافأتهم ببنات كسرى ... فهل يجد الموالي من مزيد
فأي الحق أنصف للموالي ... من اصهار العبيد إلى العبيد[5]

وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم إلى أبيها ولا إلى أخيها وإنما يخطبها إلى سيدها. فإن رضي زوَّج وإلاّ ردَّ. وإن زوج الأب أو الأخ بغير رأي سيدهما فسخ النكاح[6].

وكانوا لا يكنونهم بالكنى ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب، ولا يمشون في الصف معهم، ولا يقدمونهم في الموكب[7]. وإن حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم، أي قام الموالي على رؤوس العرب كالخدم، وإن أطعموا المولى لسنه وفضله وعلمه أجلسوه في طرق الخوان لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب[8].

---

(1) المصدر السابق، ص 492. الكندي ولاة مصر وقضاتها ص20.
(2) المقريزي: الخطط ج2 ص 492.
(3) الخربوطلي: المصدر السابق ص 255.
(4) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج3 ص 414.
(5) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ج16 ص 64.
(6) ابن عبد ربه: المصدر ذاته ج3 ص413.
(7) نفس المصدر والصفحة.
(8) نفس المصدر وذات المكان.

وكان نصيبهم من العطاء قليلاً، ومع ذلك فإنه قلما كان يعطى لهم لأن العمال كانوا يستخدمونهم في الغالب بلا عطاء ولا رزق. يؤيد ذلك أن فرض المختار بن أبي عبيد الثقفي العطاء للموالي كان سبباً لغضب العرب عليه «ولم يكن فيما أحدث المختار عليهم، أي على العرب، شيء هو أعظم من أن جعل للموالي من الفيء نصيباً. وكانوا يقولون للمختار: عمدت إلى موالينا وهم فيءٌ أفاءَه الله علينا وهذه البلاد جميعاً فاعتقنا رقابهم نأمل الأجر في ذلك والثواب والشكر فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا في فيئنا»[1]. وشكا أحد الموالي، صالح بن طريف، لعمر بن عبد العزيز سوء معاملة الولاة ومنعهم العطاء عنهم إذ قال: (إن عشرين ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق ومثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يأخذون بالجزية)[2]. وذكروا أن من أسباب سخط الموالي، وهم مسلمو البربر، في شمال أفريقيا وثورتهم ضد الأمويين أنهم كانوا يحاربون بجانب العرب ولا يمنحون العطاء الذي يمنحه هؤلاء[3].

هذا، وإن حرمان الموالي من العطاء قد حرمهم من أي ضمان في حالات المرض أو البطالة أو الشيخوخة كما كان للعرب[4].

وفي المعارك والحروب التي كان يشترك الموالي فيها مع العرب كان العرب يركبون الخيل ولا يسمحون للموالي بذلك، بل يرغمونهم على القتال راجلين[5]. وكان المختار الثقفي أول من سمح لهم بركوب الخيل[6].

وقد نقم الموالي على حكم الأمويين لأنهم لم يستطيعوا تحسين وضعهم الاجتماعي والاقتصادي بعد إسلامهم، ولم يظفروا بالمساواة مع إخوانهم المسلمين من العرب. ويعلل بعض المؤرخين، من الأجانب والعرب، هذا التمييز بين كيان الموالي المسلمين من غير العرب، وكيان العرب المسلمين بقولهم إنه جاء نتيجة لتعالي العربي وفخره (بقوميته). والواقع أن سبب هذا التمييز يعود جانب منه إلى بقايا

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج4 ص518.
(2) المصدر ذاته: ج6 ص 559.
(3) أنظر ص91.
(4) العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري ص 82.
(5) ولهاوزن: تاريخ الدولة العربية ص 245.
(6) الطبري: المصدر ذاته ج4 ص 517.

تقاليد التنظيم القبلي الصارم الذي يمنع العربي أو غير العربي من الدخول في قبيلتهم والاعتراف به أنه واحد منهم، كما يرجع الجانب الآخر إلى تقاليد فرضتها ظروف الفتح وظروف الصراع السياسي الداخلي، ومن هذه التقاليد: احتقارهم للأعمال الزراعية والحرفية التي أوجبت تلك الظروف كلها أن يختص بها العبيد والسكان الأصليون[1]. وكان هذا النوع من التمييز أو التعصب منشأ للحركة الشعوبية، كما كان أحد العوامل التي قوضت دولة الأمويين.

ونظراً لفداحة الضرائب التي كان يدفعها الفلاحون وصعوبة أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، أصبحوا المستودع الثوري لكل الحركات الثورية والانتفاضات التي قامت بوجه الأمويين. ومن أجل ذلك ساهموا في الدعوة العباسية، وكانوا عماد جيشها وخاصة الخراسانيون.

جـ ـ فئات العوام

وكان العمال والكادحون الحرفيون وأصحاب البيوعات الصغيرة، ومعظمهم من الموالي وأهل الذمة، يشكلون قوام (العامة) في مجتمعات المدن. وكان هؤلاء الشغيلة يعيشون في ظروف اجتماعية واقتصادية صعبة، بسبب ثقل الضرائب وارتفاع الأسعار وغلاء المعيشة وأعمال السخرة والتجنيد الاجباري الذي فرض عليهم خاصة في عهد عبد الملك بن مروان وامرة واليه الحجاج على العراق والمشرق.

وكانت حالة الحرفيين سيئة لا تطاق حيث شملهم التعسف الحكومي والاستغلال الطبقي[2]. فقد فرض الأمويون الضرائب على الحرف والصناعات[3]. ولربما كانت الضرائب والرسوم على الصنائع والحرف أشد وطأة على الأهالي في البلدان المغلوبة من الخراج والجزية، لأنها لم تكن معروفة ومبنية على قاعدة مقبولة. وكان مقدارها وزمن تأديتها منوطين بعمال الخليفة وجباة المال[4].

وكان الأمويون والأريستقراطية العربية يحتقرون ذوي المهن ويشار إليهم

---

(1) د. حسين مروة: النزعات المادية ج1 ص 473.
(2) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص 86.
(3) أنظر ص112.
(4) د. بندلي جوزي صليبا: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ج1 ص42.

بازدراء[1]. ولهذا لم يتوان الصناع والحرفيون عن الاشتراك في الانتفاضات المعادية لحكم بين أمية تعبيراً عن استيائهم لظروفهم المزرية. وذكر المبرد أن المهلب بن أبي صفرة دس الجواسيس إلى عسكر الخوارج فأتوه بأخبارهم ومن في عسكرهم، فإذا حشوة من قصَّار وصباغ وداعر وحداد[2]. وهذا يعني انضمام الحرفيين من الموالي إلى الخوارج الذين أعلنوا الثورة على مظالم الأمويين واستبدادهم[3]. ويعلل الدكتور حسين قاسم العزيز اشتراك الحرفيين في ثورة الخوارج بسبب الظلم الشديد والاستغلال الفظيع[4]. وانضم العمال والحرفيون إلى الدعوة العباسية واشتركوا في الثورة العباسية إلى جانب جموع الفلاحين[5].

د ـ فئات العبيد

وإلى جانب الطبقات والفئات الاجتماعية السابقة هناك الرقيق الذين شكلوا قطاعاً عبودياً ظل يعايش نظام المجتمع الاقطاعي العربي ـ الإسلامي زمناً طويلاً. وكان العبيد محرومين من أية ملكية، بل هم أنفسهم واقعون في الملكية الكاملة لأسيادهم.

وكان مصدر الرقيق في صدر الإسلام الأسر في الحروب بخاصة ثم من النخاسة، كما أن بعض العمال خصوصاً في تركستان كانوا يؤدون بعض خراج أعمالهم من الرقيق، كذلك كان بعض أهل الذمة في شمال أفريقيا يقدمونه بدلاً من الجزية[6].

وازداد عدد الرقيق إبَّان حكم الأمويين نتيجة الفتوحات الواسعة التي قاموا بها وخاصة في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (86 ـ 96هـ/ 705 ـ 715م). فقد بلغ سبي موسى بن نصير في أفريقية ثلثمائة ألف رأس من السبي، بعث خَمَسَةَ إلى الخليفة الوليد بن عبدالملك ستين ألف رأس[7]. وحمل موسى عام 95هـ/ 713م ما يخص بيت المال من سبي الأندلس ثلاثين ألف رأس[8].

---

(1) الدوري: دراسات في العصر العباسي الأول ص19.

(2) الكامل ج3 ص629.

(3) اغناتس غولدتسيهر: العقيدة والشريعة في الاسلام ص192.

(4) البابكية ص 68.

(5) المصدر ذاته ص98.

(6) البلاذري: فتوح البلدان ص 224 ـ 225. ابن سلام: كتاب الأموال ص146. ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن: فتوح مصر واخبارها ص 170.

(7) ابن الأثير: الكامل، ج 4، ص112.

(8) أحمد بن محمد المقري: نفح الطيب ج1 ص272،

احتفظ الإسلام بنظام الرق، وحظر على الرقيق أن يخرجوا على ملكية أسيادهم دون موافقتهم ويبدو أنه كان لا يزال للرقيق مكان من النظام الاجتماعي - الاقتصادي. فازدياد عدد الارقاء، والتوقف المؤقت للعلاقات الاقطاعية عن النمو، والتفكك البطيء الذي أصاب الكومونات الزراعية التي قاومت بعناد لأجل بقائها حرة طليقة، وفرض ضريبة الخراج والايجار، وتدني أعمال السخرة جميع هذه الأمور دعت إلى استخدام العبيد في ميادين الانتاج الاجتماعي التي كانت تتطلب أعمالاً يدوية ولاسيما في حقول الزراعة والري والتعدين وفي بعض الصناعات[1].

غير أن الاسلام مع هذا نصح بحسن معاملة الرقيق، فمن أحاديث الرسول (ﷺ) للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق[2]. وحضَّ المسلمين بالعمل على تحريرهم بأن جعله واجباً دينياً في حالات عدة: كالتكفير عن اليمين الكاذبة[3]. أو التكفير عن جريمة القتل الخطأ[4] أو كفارة عن بعض الذنوب[5]. أو وفاء لنذر أو تقرباً إلى الله والتماس المثوبة منه[6]. وقد منع الاسلام استرقاق العرب منذ عهد عمر بن الخطاب، وحُرِّر العرب المسترقون[7]. كما أن الإسلام حرر العبيد المسلمين الذين يفرون من أسيادهم إذا كان هؤلاء الأسياد من أهل الحرب[8].

ومن أهم العوامل التي أدت إلى تحرير العبيد هي الأحوال الاقتصادية، إذ إن الاحتفاظ بالعبد كان يكلف غالياً من إطعامه واكسائه في حالة عمله أو بطالته، وخاصة عندما يصيبه مرض يقعده عن العمل مؤقتاً أو دائماً. فاعتاق العبد كان يخلص السيد من أعباء مادية، وخاصة في الأزمات الاقتصادية والضائقات المالية[9].

وكان السيد يتحايل أحياناً على التخلص من أعباء الانفاق على الرقيق، فيمنحهم

---

(1) ي. أ. بلياييف: العرب والإسلام والخلافة العربية ص320 ـ 321.
(2) أحمد بن محمد ابن حنبل: المسند ج13 ص96.
(3) سورة المائدة: آية 92.
(4) سورة النساء: آية 91.
(5) سورة النساء: آية 92.
(6) سورة البلد: آية 13.
(7) الشافعي: الأم ج1 ص135 ـ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ج2 ص 139.
(8) مالك: المدونة ج1 ص381 ـ الشيباني. الجامع الصغير ص 75. الطبري: اختلاف الفقهاء ص 44.
(9) د. صالح أحمد العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص61 ـ 62.

حرية العمل مع الاحتفاظ بحقوق الاسترقاق القانونية. ويمكن تحرير الرقيق عن طرق (المكاتبة) وذلك أن يتفق العبد مع سيده على مبلغ من المال يقدمه إليه في أجل محدود فيصبح حراً (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً...)[1]. وعن طريق (التدبير) وهي أن يوصي السيد بأن يكون عبده حراً بعد موته. وربما كانت (المكاتبة) أكثر الوسائل شيوعاً في تحرير العبيد، غير أن السيد كان له وحده حق تقرير ما يشاء من الشروط التي يريدها أو المبالغ التي يفرضها على العبد. والواقع أن بعض الأسياد طلبوا من عبيدهم مبالغ باهظة مما حمل العبيد على الاستجداء لوفائها[2].

وكان العبد يعتبر ملكاً لسيده الذي يتمتع بالحق المطلق في بيعه أو استخدامه فيما يشاء من الأعمال، أو تحريره بالشروط التي يقررها السيد بصرف النظر عن رغبات العبد أو قابلياته[3]. وللسيد كذلك أن يعاقب العبد إذا عصى أو أساء السلوك[4]. غير أنه ليس للسيد أن يقتل عبده[5]. وهذا يعني أن العبيد تمتعوا في ظل الاسلام بحق أساسي، هو حق الحياة، ونظر إليهم (كمخلوقات بشرية) لا (كأشياء) أو (أدوات ناطقة) كما كان سائداً في الدولة الرومانية القديمة. فقد روي عن رسول الله أنه قال في خطبة له عند فتح مكة: (من قتل عبده قتلناه. ومن جدعه جدعناه)[6].

وكان ملاك الرقيق، الدولة أو الأفراد، يستخدمون العبيد في الأعمال الزراعية وحفر الأقنية وشق الترع وتجفيف المستنقعات وإزالة الطبقة الملحية وفي الأعمال الصناعية والحرفية والخدمات المنزلية والعسكرية.

وكان هناك نوعان من الرقيق هما الخصيان والجواري. والخصاء ليست عادة عربية بل هي شرقية كانت شائعة في العراق زمن الآشوريين والبابليين[7]. وقد نهى الرسول عن الخصاء[8]. وللخصاء أغراض أبرزها: استخدام الخصيان في دور النساء

---

(1) سورة النور: آية 33.
(2) مالك: المدونة ج3 ص47 وما بعدها.
(3) ابن حنبل: المسند ج2 ص 251.
(4) العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص 53.
(5) ابن حنبل: المسند ج5 ص12.
(6) المصدر ذاته.
(7) د. علي حسني الخربوطلي: تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ص 281.
(8) نفس المصدر والصفحة.

غيرة عليهن[1]. وعندما ظهر الاسلام وغلب الحجاب على أهله، استخدموا الخصيان في دورهم. وكان معاوية بن أبي سفيان أول من اتخذ الخصيان لخدمته[2] وأدى ادخال تقليد اخصاء العبيد إلى الحد من أعدادهم في الدولة.

وكان أهم مصدر للجواري في الإسلام سبي الفتوح في بادىء الأمر ثم الشراء من أسواق النخاسة، فما يقع في أيدي الفاتحين العرب يعتبر سبياً مسترقاً يقسم مع الغنائم[3]. وكان مصير هذه السبايا إما الخدمة أو الاستيلاد أو البيع والاهداء. فكثيراً ما تعتبر الجواري من أعظم الهدايا عند العرب[4]. ويروي الاصفهاني أنه ورد على خالد بن عبدالله القسري والي العراق سبي من الهند ففرقه على وجوه الناس وخاصة القرشيين[5]. ولما تعود الناس اقتناء الجواري اشتغل النخاسون في استجلابهن من بلاد الترك والهند وأرمينية والروم والسودان صغاراً وكباراً يربونهن على ما تقتضيه مواهبهن أو جمالهن. وكان تعليم الجواري وتربيتهن من أبواب الكسب الواسعة[6].

أما التسري فهو اقتناء الجواري للتمتع بهن وإذا ولدت الجارية لسيدها تزوجها وأصبحت أم ولد ولا يجوز له بيعها[7]. كما أن أولادها يصبحون أحراراً ولكن مركزهم أقل من مركز أولاد الحرائر[8]. ونبغت بعض الجواري في الغناء خاصة، وكن يتعلمن الأدب ورواية الشعر مع الغناء، ولذلك أثرن على الأدب من جهة الايحاء إلى الشعراء ومشاركتهن الرجل في إخراج القطع الفنية والأدبية. وكانت سلامة القس وحبابة، جاريتا الخليفة يزيد بن عبد الملك، من أشهر مغنيات العصر الأموي[9]. وكانت أمهات الخلفاء، يزيد بن الوليد وأخيه ابراهيم ومروان بن محمد من الجواري[10].

---

(1) ابراهيم بن محمد البيهقي: المحاسن والمساوئ ج2 ص207.
(2) السيوطي: تاريخ الخلفاءص 200.
(3) الماوردي: الأحكام السلطانية ص 128.
(4) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ج10 ص161.
(5) نفس المصدر والصفحة.
(6) الخربوطلي: المصدر السابق ص 272.
(7) مالك: الموطأ ج2 كتاب العتق والولاء ص 776.
(8) ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري: عيون الأخبار ج2 ص61.
(9) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص207 وما بعدها.
(10) نفس المصدر ج3 ص239 ـ 247. السيوطي: تاريخ الخلفاء ص 252، 254، 255.

والواقع أن الإسلام رغم أنه حث المسلمين على حسن معاملة العبيد والرفق بهم وعدم تكليفهم من العمل ما لا يطيقون، وأنه خطا خطوة متقدمة على طريق تحريرهم، الا أنهم كغيرهم من جماهير الشغيلة، قاسوا، تحت سلطة الأمويين، من شراسة الاستغلال وقلة الأجور وسوء العيش وامتهان الكرامة الإنسانية. ففي مواقع العمل، كان ملاك الأراضي يجبرونهم على الشغل في مستنقعات العراق ومصر وما وراء القفقاس حيث كانت الملاريا والحر والجوع تفتك بهم فتكاً ذريعاً[1]. وقد أصبحت طرق استثمار الملكيات الكبيرة في أواخر العصر الأموي من القسوة على شغيلة الأرض من الفلاحين والعبيد بحيث كونت عائقاً دون تطور القوى المنتجة لما انتهت إليه حالة هؤلاء الشغيلة من سوء العيش وفتك الأمراض الوبائية[2]. كما أنهم لا تجوز شهادتهم[3].

وكان على العبيد أن يحملوا في أعناقهم ختوماً تشير إلى رقهم. فقد ذكر مالك أن الاماء والعبيد يطبع في أعناقهم[4]. وإذا ارتكبوا جريمة قتل فلأهل القتيل أن يقتلوا العبد القاتل. أو يأخذوه بقتيلهم أو يطلبوا دية كاملة من سيده[5].

وقد عبر العبيد عن تذمرهم من شراسة الاستغلال الطبقي وقسوة ظروف حياتهم المادية والاجتماعية بانتفاضات محدودة كانت تقمع بعنف وشدة كما جرى لانتفاضتهم في دمشق وفي فرات البصرة في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان.

---

(1) د. بندلي جوزي صليبا: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ج1 ص48.
(2) د. حسين مروة: النزعات المادية ج1 ص 475.
(3) مالك المدونة ج4 ص77.
(4) نفس المصدر ج4 ص80.
(5) نفس المصدر ج4 ص15، 23، 29، 43. الشافعي: ام ج1 ص21، 33.

الفصل الثامن

الحركات الشعبية

دوافعها وسماتها العامة

أثارت قسوة الاستغلال الطبقي وفداحة الضرائب وممارسة سياسة التمييز تجاه العناصر غير العربية وأعمال القمع والاضطهاد لمختلف القوى المعارضة لحكم بني أمية استياء عارماً لدى أوسع الطبقات الشعبية ما لبث أن تحول إلى انتفاضات وثورات شملت مختلف بلدان الخلافة بما فيها قاعدة وعرين سلطانهم. فعقب وفاة يزيد بن معاوية الأول أوشكت التناقضات الاجتماعية والسياسية والثورات الشعبية أن تعصف بحكمهم قبل أن يمضي من عمره ربع قرن من الزمن. وفي عام 73هـ/ 728م والسنوات التي تلت، كادت التمردات في آسيا الوسطى، اقليم ما وراء النهر، أن تقضي لا على السلطة الأموية في تلك المنطقة وحسب، بل على الوجود العربي فيها من الأساس. وقد نجم عن تفاقم التناقضات وضع اجتماعي توترت فيه العلاقات بين طبقات المجتمع العربي ـ الإسلامي. وبلغ هذا التوتر درجة أدت إلى سقوط الدولة الأموية.

وقد اتصفت هذه الحركات، باستثناء الثورة العلوية ـ العباسية، بالعفوية (احتجاجات تلقائية على الاستغلال والظلم الاجتماعي وتعسف السلطة) والمحلية، وعدم اتضاح السمات الطبقية، وافتقارها إلى التنظيم والضبط الثوريين. وخلوّ الساحة الثورية من قيادة واعية تسترشد ببرنامج سياسي واجتماعي محدد وواضح يمكنها من توحيد وحشد جميع القوى المتذمرة والناقمة على صعيد الدولة، وهو ما حدث في ظل القيادة العلوية العباسية، في جبهة سياسية واحدة بغض النظر عن الاختلافات الدينية والإيديولوجية والقومية والجنسية، يكون هدفها اسقاط النظام الأموي وإقامة

نظام جديد تتحقق في ظله الحرية والمساواة والعدل الاجتماعي والكرامة لجميع المواطنين.

وإذا كانت قيادات بعض الانتفاضات عربية أو خارجية أو شيعية أو اريستقراطية، فإن القوة المحركة لكافة الحركات الشعبية والرقيقية كانت من الفلاحين والعمال والحرفين الكادحين وأصحاب البيوعات الصغيرة والرقيق التي لعبت في الثورة العلوية - العباسية الدور الحاسم في إسقاط الحكم الأموي وإقامة الدولة العباسية.

لقد اشتركت في الثورة على الأمويين جميع القوى والشرائح الاجتماعية المعارضة لحكمهم وفي مقدمتها: الخوارج والشيعة والموالي، كما ثارت على مظالم الأمويين وتعصبهم جماهير الفلاحين والكادحين الحرفيين والعبيد في الأرياف والمدن.

الخوارج

وقد جاءت حركة الخوارج تعبيراً عن النقمة المتزايدة في المجتمع العربي - الاسلامي نتيجة لما كان يعتمل في داخله من متناقضات اجتماعية واقتصادية وسياسية. وكانت حركة الخوارج في نشأتها الأولى استمراراً للثورة التي قُتِلَ فيها عثمان، أي استمراراً للنضال ضد الظلم والمحاباة والتمييز وفي سبيل العدل والمساواة حقاً وفعلاً، تلك المبادىء العظيمة التي نادى بها الإسلام.

والخوارج حزب جماهيري ثوري، وتبرز جماهيريته بكونه المعبر عن أوسع الطبقات المستاءة. وتتجلى ثوريته بتعاليمه الديمقراطية وبوقوفهم في مناسبات عديدة مؤيدين حقوق الناس البسطاء من رعايا الدولة ضد ما تمارسه السلطة تجاههم من أشكال الجور والقمع والاضطهاد.

والواقع أن الذي استهوى عامة الجماهير من تعاليم الخوارج[1]، هو احتجاجاتهم على مظالم الحكام والولاة وتفانيهم في سبيل المبادىء الديمقراطية، حيث كان على رأس برنامجهم السياسي: أن السيادة للجماعة الإسلامية، والجماهير هي التي تمنح الخليفة سلطته العليا. أما إذا عجز الخليفة عن القيام بمهام الخلافة، أو إذا كانت سياسته العامة لا تؤول بالخير على الجماعة، فللجماعة أن تعزله، لا بل أن تقتله[2].

---

(1) أنظر ص131 ـ 132.

(2) الشهرستاني: الملل والنحل ج1 ص116.

وليس لزاماً أن يكون الخليفة قرشياً، بل كانت الخوارج ترى أنه يمكن أن يكون عربياً من أية قبيلة عربية، وحتى أن يكون عبداً حبشياً شريطة أن يكون مسلماً تقياً ورعاً[1]. وتطبيقاً لتعاليمهم الديمقراطية، بايع الخوارج عبدالله بن وهب الراسبي الأزدي، وهو من غير قبيلة قريش، رئيساً عليهم[2]. وطلبوا من إمامهم قطري بن الفجاءة أن يعزل دهقاناً كان قد استعمله وله ضياع وتجارات فأوغر ذلك صدورهم، ولكن قطرياً أبى أن يعزله فقال له القوم: إنا خلعناك وولينا عبد ربه، مولى بني قيس بن ثعلبة[3].

وقد ربط الخوارج بين العمل والإيمان، بين النظرية والمواقف، غير أنهم غالوا كثيراً واعتبروا كل مسلم لا يأخذ بقولهم كافراً لا بد من الجهاد ضده[4]. وترك تطرف الخوارج ومغالاتهم في هذه المسألة آثاراً سلبية على مسيرة حركتهم النضالية وعلى نفوذهم وسمعتهم في أوساط الجماهير. وكثيرون هم العمال البسطاء المؤمنون الذين وقعوا ضحية هذا المبدأ الضيق الصارم. وكان كثير من الطبقات السفلى في الريف والمدن، ينفرون من وسيلة العنف الدموي التي اتبعوها في محاربة خصومهم. ولكن بصورة عامة، كانت هذه المبادىء الاجتماعية، التي تعبر عن أماني الجماهير العاملة وطموحاتها في التحرر من الظلم والاضطهاد والاستغلال من قبل الاقطاعيين المحليين والحكام العرب، تستهوي أهل الريف والمدن المظلومين.

وعلى كل حال، اتفق جمهور الخوارج على النظريتين السابقتين: نظرية ديمقراطية الخلافة، أي سيادة الجماعة الاسلامية (الأمة)، ونظرية أن العمل بأوامر الدين جزء من الإيمان أي الربط بين العمل والايمان، بين النظرية والتطبيق، وتفرقوا إلى عشرين فرقة[5]. أشهرها: الأزارقة أصحاب نافع بن الأزرق الحنفي[6]. وكانوا من أقوى فرق الخوارج وأكثرها عدداً[7]. وكفر الأزارقة جميع المسلمين ما عداهم[8]، وكفروا

---

(1) المصدر السابق نفسه.
(2) نفس المصدر ص117. الدينوري: الأخبار الطوال ص202.
(3) المبرد: الكامل ج4 ص 686.
(4) أنظر ص271.
(5) البغدادي: الفرق بين الفرق ص 54.
(6) الشهرستاني: الملل والنحل ج1 ص118.
(7) البغدادي: المصدر ذاته ص62.
(8) نفس المصدر ص 63. ابن الأثير: الكامل ج3 ص 337.

القعدة[1] أي الذين يقعدون عن القتال مع قدرتهم عليه، ولا تحل، في نظرهم التقية[2]، أي المداراة. وفرقة النجدات، أصحاب نجدة بن عامر الحنفي[3]. وأهم تعاليمه التي انفرد بها أن المخطئ بعد أن يجتهد معذور[4]. والإباضية، اتباع عبدالله بن إباض التميمي[5]. وهم لم يتغالوا في الحكم على مخالفيهم كالأزارقة، ونزعتهم أميل إلى المسالمة[6]. وفرقة الصُفْرية أصحاب زياد بن الأصفر[7] أو عبدالله الصفار[8]، ويتفقون مع الأزراقة في معظم آرائهم[9]. وقد أدى انقسام الخوارج على بعضهم إلى إضعافهم، مما سهل على الأمويين انهاكهم وتشتيت شملهم.

تصدى الخوارج لمقاومة الأمويين في شدة وجرأة وشجاعة دون أن يكترثوا بالصعاب التي تواجههم والأهوال التي تكتنفهم (وليس في الفرق كلها أشد بصائر من الخوارج، ولا أكثر اجتهاداً، ولا أوطن أنفساً على الموت[10]) وليس أدل على شجاعة الخوارج من أنهم أوقعوا الهزيمة بألفين من جند الخلافة في موقعة آسَك بالأهواز، بينما كان عددهم أربعين رجلاً. وفي ذلك يقول أحد شعرائهم:

أألفا مؤمن منكم زعمتم ويهزمكم بآسك أربعونا
كذبتم، ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة ينصرونا
أطعتم أمر جبار عنيد وما من طاعة للظالمينا[11]

واشتركت نساء الخوارج في القتال مع رجالهنَّ، وأبلت كثيرات منهن في المعارك خير بلاء دفاعاً عن الحرية والمساواة والعدل ضد الظلم والاستغلال والاضطهاد والتمييز، كالذي روى أبو الفرج الأصفهاني أن امرأة من الخوارج كانت مع قطري بن

---

(1) الشهرستاني. الملل والنحل ج ص121.
(2) نفس المصدر ج1 ص122.
(3) نفس المصدر ج1 ص122.
(4) نفس المصدر ج1 ص123.
(5) نفس المصدر ج1 ص134.
(6) أحمد أمين: فجر الاسلام ص 320.
(7) الشهرستاني: الملل والنحل ج1 ص 137.
(8) ابن الأثير: الكامل ج3 ص 336 ـ 337.
(9) و(10). ابن عبد ربه: العقد الفريد ج1 ص224 و219.
(11) أحمد بن داود الدينوري: الأخبار الطوال ص 269. المبرد: الكامل ج3 ص 588.

الفجاءة يقال لها أم حكيم كانت من أشجع الناس. وأخبر من شاهدها في الحرب أنها كانت تحمل على العدو وترتجز:

أحمل رأساً قد سئمت حمله وقد مللت دهنه وغسله

ألا فتى يحمل عني ثقله[1]

وذكر المسعودي أن غزالة زوجة شبيب بن يزيد الشيباني الخارجي وجَهيزةَ أمه، كانتا من الشجاعة والفروسية بالموضع العظيم[2]. وروى ابن خلكان أن غزالة كانت شديدة البأس. تقاتل قتالاً شديداً يعجز عنه الأبطال من الرجال. وكان الحجاج يخاف منها أشد خوف حتى أنها قصدته فهرب منها. فعيره بعض الشعراء بقوله:

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر[3].

واستشهدت غزالة وجهيزة في إحدى المعارك مع جيش الخلافة أيام إمارة الحجاج على العراق[4].

وبالنظر لتعاليمهم الديمقراطية الثورية، تجاوز الخوارج عقد التعصب العائلي أو القبلي أو القومي أو الديني، وفتحوا أبواب حزبهم لجميع الناس المؤمنين بمبادئهم بصرف النظر عن الأصل الأسروي أو القبلي أو القومي أو الجنسي أو الديني.

وكانت الغالبية العظمى من أتباع الخوارج ومؤيديهم من بدو العرب والفلاحين الفقراء وعوام المدن وحرفييها الكادحين. فقد انضم إلى الخوارج عدد غير قليل من موالي الكوفة[5]. وكان عدد كبير من جيش قطري بن الفجاءة من الموالي والعجم[6] وذكر المبرد أن المهلب بن أبي صفرة أقام يجبي ما حواليه من الكور ودس الجواسيس إلى عسكر الخوارج فأتوه بأخبارهم ومن هم في عسكرهم فإذا حشوة ما بين قصَّار وصباغ وداعر وحداد[7]. وقال المهلب عن خوارج الأهواز: (إنما هم مهنتكم وعبيدكم)[8]. ويعزى انضمام الموالي للخوارج إلى أملهم بالحصول على

---

(1) الأغاني: ج6 ص141.

(2) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص147.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج2 ص455. ابن الأثير: الكامل ج 4 ص59 الهامش. الأغاني ج18 ص57.

(4) المصدر ذاته.

(5) البلاذري: أنساب الأشراف ج1 ص 576.

(6) المبرد: الكامل ج4 ص 686.

(7) و(8) ـ نفس المصدر ج3 ص 629 و630.

المساواة التي كانوا ينادون بها بين المسلمين. فقد ذكر المبرد أن رجالاً من مجوس أسلموا ولحقوا بالخوارج ففرض لكل واحد منهم خمس مائة[1].

ظهر الخوارج لأول مرة على المسرح السياسي أثر موقعة صفين وحادثة التحكيم. وكان من بينهم جماعة من حفظة القرآن الذين كانوا قبلاً في جيش علي. وأنكروا على علي جعل حقه في الخلافة موضع التحكيم بين الناس، وقالوا: لا حكم إلا لله، وعرفوا بسبب قولهم هذا (بالمحكّمة)[2]. وثاروا عليه وبايعوا عبدالله بن وهب الراسي الأزدي رئيساً عليهم[3]. فحاربهم علي عند جسر النهروان[4] عام 37هـ/ 658م وهزمهم وقتل زعيمهم[5]،

كانت ثورة الخوارج وما انطوت عليه من أخطار واجهت الخليفة علياً في حربه ضدهم من الأمور التي أعاقته عن متابعة حربه ضد معاوية بعد فشل التحكيم سنة 658م. وتآمر نفر من الخوارج: عبد الرحمن بن ملجم المرادي والبرك بن عبدالله التميمي وعمر بن بكر، لاغتيال علي ومعاوية وعمرو بن العاص، ونجحت المؤامرة في اغتيال علي سنة 40هـ/ 661م بينما كان في طريقه من داره في الكوفة إلى المسجد حيث اعترضه عبد الرحمن بن ملجم بخنجر مسموم، ونجا معاوية وعمرو بن العاص[6].

قاوم الخوارج الأمويين لأنهم، في نظرهم جائرون ومغتصبون ومتعصبون، ولأنهم حوّلوا نظام الخلافة الشوري الراشدي إلى نظام الحكم الفردي الوراثي شبه الملكي، وظلوا شوكة في حلق الدولة الأموية يهددونها ويحاربونها حرباً تكاد تكون متواصلة في شدة وشجاعة نادرة وأوشكوا في بعض مواقفهم أن يقضوا عليها.

كان الخوارج رغم أنقسامهم وتعدد جبهات قتالهم، فرعين: فرعاً بالعراق وما

---

(1) المصدر السابق، ج4 ص 657.

(2) البغدادي: الفرق بين الفرق ص 56، 61.

(3) أنظر ص130.

(4) النهروان: كورة واسعة بين بغداد وواسط. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج4 ص 846. ويذكر ابن حوقل: صورة الأرض 1 ـ 232، وابن رسته: الاعلاق النفيسة ـ . وأبو الفداء: تقويم البلدان ـ 305، ولسترانج، غي: بلدان الخلافة الشرقية ـ 85، ان بلدة النهروان، المعروفة أيضاً بجسر النهروان، تقع على نهر النهروان وعلى أربعة فراسخ من بغداد بأول مرحلة في طريق خراسان من بغداد.

(5) الدينوري: الأخبار الطوال ص 202 وما بعدها.

(6) تاريخ اليعقوبي ج2 ص 212. ابن الأثير: الكامل ج3 ص 195 ـ 198.

حوله، وأهم مركز لهم (البطائح) قرب البصرة، وقد استولوا على الأهواز وكرمان وبلاد فارس وهددوا البصرة، وهؤلاء هم الذين حاربهم المهلب بن أبي صفرة مدة تسع عشرة سنة، واشتهر من رجالهم نافع بن الأزرق وقطري بن الفجاءة ـ وفرعاً بجزيرة العرب، استولوا على اليمامة والبحرين وعمان وحضرموت واليمن والطائف. واشتهر من رجالهم أبو طالوت ونجدة بن عامر وأبو فُدَيْك. ولم يتغلب الأمويون على هذين الفرعين الا بعد حروب طويلة امتدت طوال حكم بني أمية، وانهكتهم وانهكت خصومهم.

تحرك الخوارج في عهد معاوية بن أبي سفيان، فهاجموه حينما همَّ بدخول الكوفة لينال بيعتها[1]. كذلك كانوا يهاجمون ولاته في الكوفة والبصرة باستمرار[2]. ويذكر ابن الأثير أن المغيرة بن شعبة والي الكوفة وابن عامر والي البصرة استخدما الشيعة لمحاربة الخوارج[3]. وشغلت ثورات الخوارج في العراق زياداً بن أبيه وابنه عبيدالله من بعده.

وكان زياد (أول من شد أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية، وألزم الناس الطاعة، وتقدم في العقوبة، وجرد سيفه، وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة)[4]. وتهدد أهل البصرة حين خطبهم يوماً قائلاً: يا أهل البصرة، والله لتكفنني هؤلاء، يقصد الخوارج، أو لا بد أؤدبكم والله لئن أفلت منهم رجل لا تأخذون العام من أعطياتكم درهماً[5]. وبلغ عدد الخوارج الذين قتلوا على أيدي سلطة البصرة في إمارة زياد على العراق ثمانية آلاف[6]. وكان زياد يقتل نساء الخوارج ويعريهن لأنه كان يدرك أن وجود النساء في معسكر الخوارج يذكي حماسهم ويشحذ عزائمهم[7].

واشتد عبيدالله بن زياد في ملاحقة الخوارج وملأ بهم السجون، وأخذ الناس بسببهم، وقتل جماعة كثيرة منهم رجالاً ونساء[8]، مما اضطرهم إلى الانسحاب من

---

(1) البغدادي: الفرق بين الفرق ص 62.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) الكامل في التاريخ ج223 ـ 24.
(4) الطبري: تاريخ الرسل ج3 ص 177. ابن الأثير: الكامل ج3 ص 229.
(5) المصدر ذاته، ج4 ص177. ابن الأثير: الكامل ج3 ص 229.
(6) الطبري: تاريخ الرسل ج4 ص176.
(7) الخربوطلي: المصدر السابق ص 101.
(8) ابن الأثير: الكامل ج3 ص 255.

منطقة البصرة إلى الأهواز والتحصن بها. وتكاثر عددهم فيها بمن جاءهم من أهل البصرة ممن استهوتهم آراؤهم الديمقراطية في المساواة، فكانوا يشنون منها حرب عصابات على البصرة، مما أكسبهم خبرة وتمرساً في القتال[1].

وعلى الرغم من إرهاب عبيدالله بن زياد، فقد ظهرت بالعراق في عهد ولايته أقوى فرق الخوارج وأكثرها عدداً وهم الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق. وكان أول خروجهم في أربعين رجلاً[2]. وكان بينهم كبار زعماء الخوارج كنافع بن الأزرق وعطية بن الأسود، وعبدالله بن إباض، وحنظلة بن بيْهَس، وعبدالله بن ماحوز وذلك في خلافة يزيد[3]. فوجه عبيدالله إليهم بألفين من جنده، لكن أربعين الخوارج استطاعوا بشجاعتهم هزيمة الألفين في موقعة (آسك) بالأهواز[4]. وكانت هذه الهزيمة النكراء سبباً في إثارة غضب ابن زياد، فكان لا يدع بالبصرة أحداً ممن يتهم برأي الخوارج إلا قتله، حتى قتل بالتهمة والظنة تسعمائة رجل[5].

ولما اشتد عليهم زياد وسمعوا بثورة عبدالله بن الزبير في الحجاز وخلعه طاعة الأمويين، رأوا أن ينضموا إليه ويتحالفوا معه للتخلص من عدوهم المشترك. فطلب ابن الأزرق من أنصاره أن يلحقوا بابن الزبير بمكة وقال لهم: إن الله قد أنزل عليكم الكتاب وفرض عليكم فيه الجهاد، واحتج عليكم بالبيان، وقد جرد أهل الظلم فيكم للسيوف فاخرجوا بنا إلى هذا الذي قد ثار بمكة فإن كان على رأينا جاهدنا معه وإن كان على غير رأينا دافعنا عن البيت[6]. فسار الخوارج حتى قدموا على ابن الزبير فسر بمقدمهم وأخبرهم أنه على مثل رأيهم من غير تفتيش[7]. فقاتلوا معه جند الخلافة واستبسلوا في الدفاع عن الكعبة ونصرة ابن الزبير. كذلك في الولايات الأخرى مثل مصر، مهد الخوارج وكثروا بها، مما جعل جندها يعلنون البيعة لابن الزبير[8]. ولكن بعد انسحاب جيش الخلافة من الحجاز بعد وفاة يزيد عام 64هـ/

---

(1) د. ماجد عبد المنعم: التاريخ السياسي للدولة العربية ج2 ص 138.

(2) الدينوري: الأخبار الطوال ص 269.

(3) نفس المصدر والصفحة.

(4) نفس المصدر وذات المكان.

(5) نفس المصدر ص270.

(6) ابن الأثير: الكامل ج3 ص 335 ـ 36.

(7) نفس المصدر ج3 ص336.

(8) ابن تغري بردي، جمال الدين ابي المحاسن يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج1 ص 165.

683م، تبين للخوارج أن ابن الزبير يعمل لصالحه فتركوه وعادوا إلى العراق[1]، حيث أصبحوا شوكة في جنب الدعوة الزبيرية التي أخذت تنتشر بعد قليل في مشرق الخلافة، وكان من نتائج ذلك عدم تأكد سلطان ابن الزبير لا في الجزيرة ولا في العراق، وأنهم شاركوا في ملكه طوال مدة ثورته 63 ـ 73هـ/ 682 ـ 692م.

عقب وفاة يزيد ومن بعده بقليل ولده معاوية الثاني، تفجرت من جديد الصراعات السياسية والاجتماعية في قلب الجماعة الإسلامية حتى أوشكت أن تعصف بدولة الأمويين. ففي بلاد الشام نشب النزاع بين القبائل العربية القيسية واليمنية[2]. وبادر الضحاك بن قيس الفهري إلى مبايعة ابن الزبير الذي كتب له عهداً بولاية الشام[3]. وفي قنسرين كان زفر ابن الحارث الكلابي يبايع لابن الزبير، وكذا فعل النعمان بن بشير في حمص[4]. وفي فلسطين ثار ناتل بن قيس وأخرج روح بن زنباع الجذامي وبايع لابن الزبير[5]. وفي الولايات الأخرى سارع الأهالي باخراج عمال بني أمية والمبايعة لابن الزبير، الذي ظفر بمبايعة الحجاز والعراق واليمن ومصر[6]. وولى عليها عمالاً من قبله[7]. وفي العراق، ضعف نفوذ ابن زياد وتعاظم أمر الخوارج وازداد عددهم بم انضم إليهم من أهل البصرة[8]، مما اضطر عبيدالله بن زياد إلى الفرار من العراق إلى بلاد الشام[9].

بدأت الحرب بين الخوارج وابن الزبير، وكانت حرباً مريرة وطويلة، انهكت قوى الطرفين وأضعفت قدرتهما الكفاحية والقتالية أمام خصمهما المشترك، مما يسهل على

---

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج3 ص339.

(2) لم يكن الصراع بين القيسية واليمنية الذي استعرت ناره في جميع انحاء الامبراطورية ـ مجرد عداوة قديمة متأصلة، أو حروب ثأرية أو نزاعات لحل المشاكل الجاهلية القديمة كما يرى بعض المؤرخين المحدثين وعلى رأسهم دوزي، بل كان الصراع الاسلامي يرجع إلى الخلاف على المصالح والنفوذ وإلى دسائس الحكام الأمويين بين زعماء هذه القبائل في سبيل الاحتفاظ بالسلطة والاستمرار في الحكم دون مزاحم وربما يعود أيضاً وإلى حد ما إلى الاختلاف في التفكير السياسي بين القيسيين واليمنيين.

(3) ابن سعد: الطبقات ج5 ص27.

(4) نفس المصدر والصفحة. ابن الأثير: الكامل ج3 ص 326.

(5) نفس المصدرين وذات المكانين.

(6) ابن الأثير: الكامل ج3 ص 325.

(7) البلاذري: انساب الأشراف ج5 ص273 وما بعدها.

(8) الدينوري: الأخبار الطوال ص 270.

(9) نفس المصدر والصفحة.

الخليفة عبدالملك بن مروان القضاء على ثورة ابن الزبير أولاً واستعادة العراق والمشرق إلى حكمه ثانياً.

خرج نافع بن الأزرق، وبايعه أنصاره بإمرة المؤمنين، وانضمَّ إليه خوارج عُمان واليمن فصاروا أكثر من عشرين ألفاً، واستولوا على الأهواز وما وراءها من أرض فارس وكرمان وجَبَوا خراجها[1]. وتقدموا نحو البصرة والحقوا هزيمتين بجيشها، وذلك قبل أن يعهد عبد الله بن الزبير إلى المهلب بن أبي صفرة عامله على خراسان بمهمة محاربتهم[2].

ارتاع أشراف البصرة من تعاظم قوة الخوارج وتقدمهم نحو مدينتهم، فتوجهوا إلى زعيمهم الأحنف بن قيس وسألوه أن يتولى حربهم فأشار عليهم بالمهلب لما يعلم فيه من الشجاعة وحسن الرأي والمعرفة بفنون الحرب[3]. وكتبوا لابن الزبير كتاباً بهذا الخصوص فأمضاه[4].

عبأ المهلب كل ما في استطاعته من امكانات مادية وبشرية ومعنوية لمحاربة الخوارج وقمع ثورتهم. فاختار من ديوان جند البصرة عشرين ألف جندي، فيهم ثمانية آلاف من الأزد قبيلته، والباقي من سائر العرب[5]. واستخدم العيون وفرق الاستطلاع ووسائل الحرب النفسية[6]. وكان شديد الاحتياط والحذر لا ينزل إلا في خندق وهو على تعبئة، ويتولى الحرس بنفسه وذلك خشية البيات ومباغتة الخوارج لقواته[7].

واقع المهلب الخوارج وهزمهم في عدة معارك وأرغمهم على التراجع إلى الأهواز وهناك اشتبك مع الأزارقة في موقعة (سِليّ) قتل فيهم رئيسهم نافع[8]، وأصيب المهلب بضربة في وجهه أغمي عليه منها[9].

واصل المهلب تصديه لزعماء الخوارج بعد نافع، وأغلبهم من أسرة بني الماحوز

---

(1) البغدادي: الفرق بين الفرق ص 64.
(2) الدينوري: الأخبار الطوال ص 270.
(3) ابن الأثير: الكامل ج3 ص 349.
(4) نفس المصدر والصفحة.
(5) الدينوري: الأخبار الطوال ص 272.
(6) ابن الأثير: الكامل ج3 ص 350.
(7) نفس المصدر ج3 ص350 ـ 51. المبرد. ج3 ص630.
(8) الدينوري: الأخبار الطوال ص 373.
(9) نفس المصدر والصفحة.

من قبيلة تميم، عبدالله، وعبيدالله، والزبير، فهزمهم جميعاً في أماكن متفرقة[1]. وانحازوا إلى كرمان، وولوا عليهم زعيماً لا يقل في جرأته وشجاعته عن نافع اسمه (قطري بن الفجاءة)[2]. وكان قطري ـ وهو تميمي أيضاً ـ خطيباً وفارساً[3]. ويسلم عليه بالخلافة، ولقبوه بأمير المؤمنين[4] فأعاد تنظيم صفوف الخوارج وكثر أتباعه فاستولى على الأهواز وهدد البصرة.

إبان ذلك كان المختار بن أبي عبيد الثقفي قد تمرد على ابن الزبير، واشتد ساعده في الكوفة بعد انتصاره على جيش الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان في موقعة عند نهر خازر قرب الموصل عام 67هـ/ 686م[5]، فكتب أمير البصرة مصعب بن الزبير إلى المهلب أن يأتيه بجنده، فهادن المهلب قطرياً[6]. وتمكن مصعب من هزيمة المختار وقتله عام 68هـ/ 687م[7]، ورد المهلب إلى قتال الخوارج الأزارقة[8].

ولما استعاد عبد الملك سلطته على العراق بعد قتله مصعب 72هـ/ 691م[9]. بايع المهلب ابن أبي صفرة عبد الملك[10] الذي عهد إليه بقتال الخوارج[11]. غير أن بشر بن مروان الذي عينه الخليفة أميراً على الكوفة ثم ضم إليه البصرة وجمع له العراق كله[12]، كان يكره المهلب، حيث استخدم معه قائداً آخر، استبد بالأمر دونه وعرقل نشاطه[13]. وقد انتهز الخوارج فرصة اضطراب الأوضاع في العراق إثر وفاة

---

(1) ابن الأثير: الكامل ج3 ص353.
(2) الدينوري: الأخبار الطوال ص 275.
(3) الجاحظ: البيان والتبيين ج2 ص 126.
(4) البغدادي: الفرق بين الفرق ص 65.
(5) المسعودي: التنبه والاشراف ص 312. ولهاوزن: تاريخ الدولة العربية.
(6) الدينوري: الأخبار الطوال ص305.
(7) ابن سعد: الطبقات ج5 ص77.
(8) الدينوري: الأخبار الطوال ص310.
(9) نفس المصدر ص303. البلاذري: انساب الاشراف ج5 ص 351.
(10) ابن الأثير: الكامل ج3 ص16.
(11) تاريخ اليعقوبي ج2 ص272.
(12) البلاذري: انساب الاشراف ج5 ص167 ـ 171 ـ 351.
(13) ابن الأثير: الكامل ج4 ص 30. المبرد الكامل ج4 ص 664.

أميره بشر[1] وترك جند كثير لجيش المهلب وعودتهم إلى أهليهم في البصرة والكوفة[2]. فتقدموا حتى وصلوا نهر دجلة وركبوه وصك قطري العملة باسمه سنة 75هـ/ 694م[3]. فوجَّه عبد الملك الحجاج أميراً على العراق عام 75هـ/ 694م[4]. بعد نجاحه في إخماد ثورة ابن الزبير وقتله عام 73هـ/ 692م[5].

شرع مروان، عقب مبايعته في الجابية عام 64هـ، يعمل بمساعدة القبائل اليمنية في القضاء على الاضطرابات والثورات، وإعادة وحدة المملكة وبسط سلطة الأمويين على جميع بلدان الخلافة. فاستعاد دمشق من الضحاك وانتصر على القبائل القيسية في موقعة مرج راهط، سهل شرقي دمشق، سنة 65هـ/ 684م وقتل الضحاك زعيمها[6]. وأخرجت اليمنية عمال القيسية من بلاد الشام أو أجبرتهم على الهروب[7]. واستوثق الشام لمروان واستعمل عماله عليها[8]. واسترد مصر من عاملها الزبيري عام 65هـ[9]. وأرسل جيشاً لاستعادة الحجاز من ابن الزبير، فدخل جند الأمويين المدينة، ولكن جيش ابن الزبير تمكن من هزيمتهم في الربذة[10]. كما بعث جيشاً بقيادة عبيدالله بن زياد إلى الجزيرة لكي يعبر إلى العراق[11]، الذي مزقته الصراعات بين الأحزاب السياسية. فانتصر ابن زياد، وهو في طريقه إلى العراق، على التوَّابين من شيعة الكوفة الذين كان يقودهم سليمان بن صُرَد عند عين الوردة (رأس العين حالياً) سنة 65هـ/ 685م[12]. وهلك مروان بعد حكم قصير لم يدم أكثر من عشرة

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية ج4 ص30.

(2) ابن الأثير: الكامل ج4 ص30. المبرد: الكامل ج4 ص 664 ـ 665.

(3) د. ماجد عبد المنعم: التاريخ السياسي للدولة العربية ج2 ص148.

(4) ابن الأثير: الكامل ج4 ص33. المبرد: الكامل ج4 ص665.

(5) البلاذري: انساب الاشراف ج5 ص368.

(6) ابن الأثير: الكامل ج3 ص328. المسعودي: مروج الذهب ج3 ص95: البلاذري انساب الأشراف ج5 ص 136.

(7) ابن الأثير: الكامل ج3 ص328.

(8) نفس المصدر ج3 ص329.

(9) البلاذري: انساب الاشراف ج5 ص148. ابن الأثير: الكامل ج3 ص330. المسعودي: مروج الذهب ج3 ص97.

(10) البلاذري: أنساب الاشراف ج5 ص151 ـ 153. ابن الأثير: الكامل ج3 ص335.

(11) ابن الأثير: الكامل ج3 ص335.

(12) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج5 ص599.

أشهر[1]. تاركاً مهمة إنجاز مشروعه الهام في استعادة العراق إلى ابنه عبد الملك.

كان من المفروض، حسب مقررات مؤتمر الجابية[2]، أن يتولى مقاليد الخلافة بعد مروان خالد بن يزيد بن معاوية ثم عمرو بن سعيد بن العاص[3]. غير أن مروان نقض الاتفاق وبايع لابنه عبدالملك ولعبد العزيز من بعده[4].

تولى عبد الملك بن مروان الخلافة بعد وفاة أبيه سنة 65هـ/ 685م. وكان على عبد الملك إنجاز المهمة الكبيرة الصعبة التي بدأها أبوه في إعادة توحيد جميع بلدان الخلافة تحت السيادة الأموية، وذلك بالقضاء على جميع الحركات والثورات المعادية وعلى رأسها ثورة ابن الزبير وحركة الخوارج وثورة الشيعة.

وكان من الطبيعي أن يركز عبدالملك جهوده لاستعادة العراق. وذلك بالنظر لما يتمتع به هذا القطر من أهمية اقتصادية واستراتيجية في نظر الأريستقراطية العربية، لأنه مصدر لمال وفير وخراج عظيم، وهو بموقعه الجغرافي الاستراتيجي باب ينفذ منه إلى ايران والبلدان المجاورة حيث كانت الجيوش العربية لا تزال تحارب وتبعث بالكثير من الفيء والمال إلى سورية[5].

وكان يتنافس للسيطرة على العراق، الخوارج وأنصار ابن الزبير والشيعة بقيادة المختار الثقفي إلى جانب الأمويين. لذا كان القضاء على هذه الحركات المناوئة أمراً ضرورياً بالنسبة للحكومة الأموية من أجل استرداد العراق واستتباب الأمن لها فيه.

انشغل عبيدالله بن زياد بعض الوقت بقتال زفر بن الحارث ومن معه من القبائل القيسية[6] ثم سار بعد ذلك إلى العراق قاصداً الموصل[7]. وذلك في الوقت الذي كان فيه المختار الثقفي قد استولى على الكوفة عام 66هـ/ 685م[8]، وأرسل جيشاً مع ابراهيم الاشتر لقتال ابن زياد بالجزيرة[9]، تمكن من الحاق الهزيمة بجيش ابن

---

(1) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص158.
(2) الجابية: قرية من أعمال دمشق قرب مرج الصفر. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج2 ص91.
(3) ابن الأثير: الكامل ج3 ص327.
(4) البلاذري: انساب الاشراف ج5 ص145.
(5) ي. أ. بليايف: العرب والإسلام والخلافة العربية ص230.
(6) البلاذري: انساب الاشراف ج5 ص299. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج6 ص39.
(7) البلاذري: انساب الاشراف ج5 ص299.
(8) ابن الأثير: الكامل ج3 ص356.
(9) نفس المصدر ج3 ص365.

زياد وقتله في موقعة عند نهر خازر قرب الموصل عام 67هـ/ 686م[1].

وكان من حسن حظ عبدالملك أن مصعب بن الزبير، أمير العراق من قبل أخيه عبد الله، قد ضايقه الشيعة والخوارج في إمارته، فلم يكن يستطيع أن يفكر في الشروع بحرب خارج العراق[2].

وكان لا بد أن يمضي وقت طويل قبل أن يستطيع عبد الملك أن يستأنف مهمة إخضاع العراق بسبب عدد من المشاكل الداخلية والخارجية التي واجهته وأعاقته لوقت ما في مواصلة مهمة استعادة العراق، تاركاً القوى الحزبية والاجتماعية المتصارعة فيه تتقاتل فيما بينها ويضعف بعضها الآخر.

انشغل عبد الملك بتوثب ناتل بن قيس ودخوله فلسطين بأمر من ابن الزبير[3]. ولكن الذي عاقه بنوع خاص أن الروم خرقوا اتفاق السلام ونزلوا في المصيصة يريدون الشام[4]. وأخذوا يحرضون الجراجمة[5] في جبال اللكام (الامانوس) على العرب. ولكي يكفي عبد الملك نفسه خطر الروم فإنه صالحهم على أن يحمل إليهم أموالاً كثيرة، كل جمعة ألف دينار[6]. فقد ذكر اليعقوبي أنه لما أراد عبد الملك النهوض إلى محاربة ناتل بن قيس بفلسطين أتاه الخبر أن طاغية الروم قد أناخ على المصيصة، فكره أن يتشاغل بمحاربته مع اضطراب البلدان، فوجه إليه، فصالحه، وحمل إليه أموالاً كثيرة[7]. ثم انشغل أيضاً بقمع انتفاضة العبيد بدمشق[8]. ثم جاء خبر تمرد عمرو بن سعيد بن العاص بدمشق وتحصنه فيها ودعوة الناس إلى بيعته[9]،

---

(1) أنظر ص114.

(2) ولهاوزن: تاريخ الدولة العربية ص 182.

(3) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص105 ـ تاريخ اليعقوبي ج2 ص 269.

(4) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص105.

(5) الجراجمة (المردة) قوم مجهولو الأصل يتمتعون بقسط من الاستقلال في مواطنهم بمعاقل جبال الحكام (امانوس) وأقاموا من أنفسهم بين بلاد العرب وبلاد الروم جداراً يصون آسيا الصغرى. وكانوا يمدون الروم بجيوش غير نظامية ويهددون العرب بالشام. ومن بقي منهم بالشام كان عنصراً من العناصر التي تألف منها الموارنة.

(6) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج6 ص150. ابن الأثير: الكامل ج3 ص400.

(7) تاريخ اليعقوبي ج2 ص269. 365ألفاً من قطع الذهب و360 عبداً و360 جوداً كريماً ـ أسد رستم: الروم في سياستهم ص 264.

(8) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص105.

(9) البلاذري: أنساب الاشراف ج4 ص138 ـ 139. تاريخ اليعقوبي ج2 ص270. المسعودي: مروج الذهب ج3 ص109 ـ 110.

وذلك في سنة 70هـ/ 689 ـ 690م[1]. فصار عبد الملك مهدداً من الخلف، حيث كان قد سار لمحاربة زفر بن الحارث في قرقيسيا، فاضطر إلى العودة لدرء هذا الخطر، فأعمل السيف في أعناق خصومه وقتل بيده عمرو بن سعيد على نحو فيه غدر وقسوة منكرة[2]. وبذلك جعل عبد الملك قتل عمرو تهديداً لكل من يجرؤ على الخروج عليه من أهل بيته[3].

وفي عام 70 ـ 71هـ/ صيف عام 690م، سار عبد الملك إلى الجزيرة والعراق، فأخضع أرض الجزيرة، واستسلم زفر بن الحارث في قرقيسيا[4] وبايع عبد الملك بعد ن كان يدعو لابن الزبير[5].

وجاء وقت الصدام الحاسم بين عبد الملك ومصعب. وكان مصعب قد تغلب على المختار الثقفي وقتله في قصر الإمارة سنة 68هـ/ 687م[6]. فصفا له العراق سيما وأن المهلب كان قد نجح في إبعاد خطر الخوارج عليه.

وكان عبد الملك يعلم أن أهل العراق يكرهون مصعباً ويحقدون عليه لأنه نكل بجماهير الكوفة وجعل دماء أنصار المختار تجري أنهاراً، حيث أنه ضرب أعناق ستة آلاف من أتباع المختار، ألفين من العرب وأربعة آلاف من الموالي[7]. رغم منحه الأمان لهم[8].

ولهذا كانت مهمة عبد الملك بالفوز على خصمه مهمة سهلة. وأخذ يكاتب قواد جيش مصعب ويبذل لهم المال ويمنيهم بتولية الأعمال وذلك بقصد استمالتهم إليه والدخول في طاعته[9]. حتى أنه كتب إلى ابراهيم بن الأشتر فيمن كتب[10]. كما كتب أشراف البصرة والكوفة إلى عبد الملك يدعونه ويبايعونه وكاتبهم[11]. وكان

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج4 ص600.
(2) البلاذري: انساب الاشراف ج4 ص143. ابن الأثير: الكامل ج3 ص398 ـ 399.
(3) د. ماجد عبد المنعم: التاريخ السياسي للدولة العربية ج2 ص111.
(4) البصيرة حالياً وتقع عند التقاء الخابور بالفرات.
(5) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص112.
(6) ابن سعد: الطبقات ج5 ص77.
(7) الدينوري: الأخبار الطوال ص 309.
(8) تاريخ اليعقوبي ج2 ص 263 ـ 264.
(9) البلاذري: انساب الاشراف ج5 ص377. الدينوري: الأخبار الطوال ص311.
(10) الدينوري: الأخبار الطوال ص311 البلاذري: انساب الأشراف ج5 ص340.
(11) البلاذري: انساب الأشراف ج5 ص332 ـ 333.

الخوارج الأزارقة قد نزلوا سوق الأهواز وعليهم قطري بن الفجاءة، فرفض أشراف البصرة النهوض مع مصعب لقتال عبد الملك بحجة قرب الخوارج من مدينتهم وخطرهم على الديار والأموال[1]، بل أكرهوه على إرسال جزء من جيشه بقيادة المهلب بن أبي صفرة، وهو يومذاك عامله على الموصل والجزيرة، لقتال الخوارج[2].

وكان إبراهيم بن الأشتر والمهلب بن أبي صفرة قد أخبرا مصعباً وأطلعاه على وجود مكاتبات بين عبد الملك وقواد جيش العراق وأشرافه[3]، وطلبا إليه أن يتخذ تدابير حازمة بحق العملاء والخونة ولكن مصعباً لم يحرك ساكناً مما يشير إلى ضعفه وانعزاله. وهكذا استفاد عبد الملك من الفترة السابقة للقتال، وهي الفترة التي انقضت لما كان الجيشان معسكرين أحدهما أمام الآخر في مسكِن[4] وباجُمَيْرا[5]، في استمالة قطاعات من أهل العراق وقادة جيشه إلى جانبه في الوقت الذي عبأ كل قوة استطاع أن يجمعها لقتال مصعب. وعندما نشبت المعركة عند دير الجاثليق[6]، هرب عتّاب بن ورقاء بالناس، وكان على خيل الكوفة، وهو ممن كاتب عبد الملك وبايعه[7]، وعصى بقية القواد ورؤساء القبائل أوامر القائد الأعلى[8]. وبذل عبد الملك، أثناء المعركة، الأمان لمصعب فأباه[9]. وقتل ابراهيم بن الأشتر[10]. ثم قتل مصعب في سنة 72هـ/691م[11]. ودخل عبد الملك الكوفة، وأخذ البيعة من أهل العراق[12] وجنده، كما بايعه أيضاً المهلب بن أبي صفرة.

---

(1) المصدرالسابق، ص335 - 336.

(2) نفس المصدر ج5 ص335 - 336.

(3) الدينوري: الأخبار الطوال ص312. البلاذري: انساب الاشراف ج5 ص334.

(4) مسكن: موضع قريب من أوان عند دير الجاثليق. وكانت الوقعة بين عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير سنة 72هـ/. ياقوت الحموي. معجم البلدان مجلد خامس ص 127.

(5) باجميرا: من أرض الموصل دون تكريت. ياقوت الحموي: معجم البلدان المجلد الأول ص 314.

(6) دير الجاثليق: من طوج مسكن قرب بغداد غربي دجلة، وعنده كانت الحرب بين عبد الملك ومصعب وكان الجيشان على شاطيء دجلة/ياقوت: معجم البلدان المجلد الثاني ص503.

(7) ابن الأثير: الكامل ج4 ص11ـ البلاذري: انساب الاشراف ج5 ص341.

(8) البلاذري: انساب الاشراف ج5 ص341.

(9) نفس المصدر ج5 ص339.

(10) نفس المصدر ج5 ص338 - 339. المسعودي: مروج الذهب ج3 ص114. ابن الأثير: الكامل ج4 ص11.

(11) البلاذري: انساب الاشراف ج5 ص286 - 340 - 341. ابن الأثير: الكامل ج4 ص12.

(12) الدينوري: الأخبار الطوال ص313. ابن الأثير: الكامل ج4 ص 13 - 16.

بعد قتْلِ مصعب واستعادة العراق، وجه الملك حملة من الكوفة بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي للقضاء على انتفاضة عبدالله بن الزبير في الحجاز[1]. فسار الحجاج سنة 72هـ حتى نزل الطائف[2]. ولبث فيها عدة أشهر[3]. ومن هناك شرع يبعث البعوث لمناوشة ابن الزبير في سهل عرفة[4]. ثم استأذن عبد الملك في قتاله بمكة فأذن له وأمدَّه[5]. وسار الحجاج من الطائف حتى دخل مكة ورماها والكعبة. حيث كان يلوذ بها ابن الزبير بالمنجنيق[6]. وأخذ أصحاب ابن الزبير يتفرقون عنه شيئاً فشيئاً، وأخيراً ألقوا السلاح وخرجوا إلى الحجاج يطلبون الأمان[7]. ودخل ابن الزبير إلى أمه فودعها، وخرج من عندها فقاتل أشد قتال حتى قتل سنة 73هـ[8]. ثم دخل الحجاج مكة فبايع من بها من قريش لعبد الملك، وقضى على ثورة ابن الزبير التي شغلت الدولة مدة تسع سنوات.

عادت أوضاع العراق إلى التأزم والتردي من جديد بعد أن استعاد الأمويون بسط سيادتهم عليه في عهد عبد الملك بن مروان 65 ـ 86هـ/ 685 ـ 705م. ففي العراق تركزت أقوى الأحزاب السياسية المعارضة لحكم الأمويين وفي طليعتها حزب الشيعة والخوارج الذين يعتبرون بني أمية جائرين ومغتصبين للخلافة، وجماهير العراق، عرباً وموالِيَ، يحقدون على الحكام الأمويين لظلمهم واستبدادهم وانهماكهم في مصالحهم الخاصة، وعدم اهتمامهم بحل مشاكل الناس البسطاء وتحقيق مطاليبهم ومن بينهاالعمل الجدي والصادق في تحسين ظروف حياتهم الاجتماعية والمادية والانسانية ومساواتهم في العطاءمع أهل الشام والتحرر من النظرة الضيقة في كون العراق بستاناً للأريستقراطية العربية. وقد قمع الحكام الأمويون والزبيريون في العراق انتفاضات الشيعة ومن انضم إليهم من الموالي بشدة وقسوة دون أن يحسبوا إلى ما تخلفه في

---

(1) ابن الأثير: الكامل ج4 ص22.
(2) الدينوري: الأخبار الطوال ص314 ابن الأثير: الكامل ج4 ص22.
(3) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص119.
(4) ابن الأثير: الكامل ج4 ص22.
(5) نفس المصدر والصفحة.
(6) البلاذري: انساب الاشراف ج5 ص359 ـ 360 ـ 362 ـ ابن الأثير: الكامل ج4 ص22.
(7) المصدر ذاته ج5 ص364. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج6/ ص188. ابن الأثير: الكامل ج4 ص23.
(8) المصدر ذاته ج5 ص366 ـ 368. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج4 ص187. ابن الأثير: الكامل ج4 ص25.

النفوس من نار متوقدة، وجيَّشوا الجيوش وأنفقوا أموالاً طائلة لاخماد حركة الخوارج دون أن يراعوا ما أريق من دماء وما أذرف من دموع النساء والأطفال لما سببته الحرب من ضحايا ومصائب وتشرد...

ذكر البلاذري أن عبد الملك بن مروان لما دخل الكوفة قصد مسجدها، وخطب فيه مهدداً ومتوعداً المسيء، أي العصاة. ومما جاء في خطبته: (ان الجامعة ـ أي القيود ـ التي وضعتُ في عنق عمرو بن سعيد عندي والله لا أضَعُها في عنق رجل فأنزعها الا صُعُداً. لا أفكُّها عنه فكاً فلا يتَقيَن امرؤ إلا على نفسه ولا يولِغَني دمه)[1]. وذكر البلاذري أيضاً أن عبد الملك لما أراد الشخوص إلى الشام خطب في الناس، مخوفاً إياهم، فعظم عليهم حق السلطان وقال لهم هو ظل الله في الأرض وحثهم على الطاعة والجماعة[2].

عيَّن عبد الملك على العراق أمراء لم يكونوا يصلحون إلا لتولي المنصب بلا عمل على حد تعبير (ولهاوزن). فلم يكن من خالد بن أسيد الذي عُيِّن على البصرة إلا أن نحّى المهلب عن القيادة وجعله على خراج الأهواز، وتولى هو في أول الأمر القيادة في محاربة الخوارج، ثم عهد بها لأخيه عبد العزيز فجاءت على أثر ذلك هزيمة قبيحة لحقت بجيش الخلافة[3]. قال فيها ابن قيس الرقيات.

عبد العزيز فضحت جيشك كلهم   وتركتهم صرعى بكل سبيل
من بين ذي عطش يجود بنفسه   ومُلَحَّب بين الرجال قتيل
هلا صبرت مع الشهيد مُقاتلاً   اذ رُحْتَ منتكث القوى بأصيل
وتركت جيشك لا أمير عليهم   فارجع بعار في الحياة طويل[4]

فلما كتب خالد إلى عبد الملك يخبره بذلك، رد عليه عبد الملك مسفهاً رأيه قائلاً:

(عرفت ذلك وسألت رسولك عن المهلب فأخبرني أنه عامل على الأهواز فقبح الله رأيك حين تبعث أخاك اعرابياً من أهل مكة على القتال وتدَع المهلب يجبي

(1) البلاذري: انساب الاشراف ج5 ص352 ـ 53. ابن الأثير: الكامل ج4 ص13.
(2) نفس المصدر ج5 ص354.
(3) ابن الأثير: الكامل ج4 ص19.
(4) المبرد: الكامل ج4 ص662 ـ النويري. شهاب الدين بن عبد الوهاب: نهاية الأرب ج21 ص148. ابن الأثير: الكامل ج4 ص19.

الخراج وهو الميمون النقيبة المقاسي للحرب ابنها وابن ابنائها، أرسل إلى المهلب يستقبلهم وقد بعثت إلى أمير الكوفة بشر بن مروان ليمدك بجيش، فسر معهم ولا تعمل في عدوك برأي حتى يحضره المهلب)[1]. ثم أن عبد الملك ولى المهلب حرب الخوارج الأزارقة، ولكنه، بعزله خالداً وتعيينه أخاه بشراً بدلاً منه وجمعه له العراقين، لم يسعف المهلب، لأن بشراً، وكان غلاماً أخرق معجباً بنفسه، لم يكن أحسن صنعاً ممن سبقه من أمراء بني أمية. وقد شق عليه أن أمرة المهلب جاءت من قبل الخليفة مباشرة[2]، فامتلأ قلبه حقداً عليه. وهو قد شد أزر المهلب بجند الكوفة بناء على الأمر الأعلى الآتي له من الخليفة، ولكنه أمر قائدهم أمراً صريحاً بأن يستبد على المهلب بالأمر، ويألا يقبل له مشورة وألا يحترمه[3]. وكان بشر أخرق فيما صنع، لأنه استجهل القائد وطلب منه ما لا يصح طلبه وأغراه بالمهلب مع أنه ابن عمه[4]، لذا لم يكن منه إلا أن تجاهل كلام الأمير واستخف بعقله[5]. وكان من حسن الحظ أن بشراً توفي عام 74هـ[6]، فوجه عبد الملك الحجاج والياً على العراق[7].

ولما أتى جند المهلب نعي بشر بن مروان، ترك كثير منهم الجيش وعادوا إلى أهليهم في البصرة والكوفة رافضين القتال[8]، ولم يعيروا اهتماماً بما وجهه إليه خليفة بشر على البصرة من تهديد بالضرب والقتل[9]. ولما شعر المهلب بتفكك جيشه وخطورة الموقف، كتب إلى عبد الملك كتاباً يقول فيه: (إنه ليس عندي رجال أقاتل بهم، فإما بعثت إليَّ بالرجال وإما خليت ـ يقصد الخوارج ـ بينهم وبين البصرة)[10].

---

(1) ابن الأثير: الكامل ج4 ص20.
(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج6 ص196.
(3) المصدر ذاته ج6 ص196 ـ ابن الأثير: الكامل ج4 ص30.
(4) المصدر ذاته ج6 ص196 ـ ابن الأثير: الكامل ج4 ص30 ـ المبرد: الكامل ج4 ص664.
(5) المبرد الكامل: ج4 ص664.
(6) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج6 ص193.
(7) ابن الأثير: الكامل ج4 ص30.
(8) نفس المصدر والصفحة.
(9) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج6 ص198 ـ 199 ـ ابن الأثير: الكامل ج4 ص30.
(10) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص132.

وكان من آثار تفكك جيش المهلب واضطراب الوضع في العراق وضعف حكامه ورفض أهل العراق للقتال، تقدم الخوارج حتى وصلوا دجلة كما تقدم[1].

عين عبد الملك الحجاج، قائده الجبار وقاهر انتفاضة ابن الزبير، على العراق كله وما يتبعه من الأقاليم الكبار، وأمره أن يحشر الناس إلى المهلب في حرب الخوارج[2].

حكم الحجاج العراق والمشرق مدة عشرين عاماً 75 ـ 95هـ/ 694 ـ 713م حكماً أشبه ما يكون بالإدارة العرفية أو حالة الطوارىء. ولم يكن حكم الحجاج هذا وليد ظروف عمياء، وإنما كان مسألة موت أو حياة: إما الحجاج وقبضته الحديدية، أو العراق الثائر الذي قد يقضي على الأمويين وحكمهم[3]. ويروى أن قطع الرؤوس في عهده كان مستمراً ليلاً ونهاراً حتى أنه أصبح من العسير ايجاد العدد الكافي من السيافين لقطع رؤوس المحكوم عليهم بالإعدام. فقد ذكر المسعودي أن الحجاج قتل مائة وعشرين ألفاً نساء ورجالاً، وذلك عدا من قتل في عساكره وحروبه[4]. ومات في حبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة، منهن ستة عشر ألفاً مجردة[5]. يحبس النساء والرجال في موضع واحد، ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف ولا من المطر والبرد في الشتاء[6]. وذكر المسعودي أن عبد الملك كان سفاكاً للدماء، وكان عماله على مثل مذهبه، كالحجاج في العراق والمهلب في خراسان وهشام بن اسماعيل في المدينة وغيرهم. وكان الحجاج أظلمهم وأسفكهم للدماء[7].

لقد كان الحجاج شديد الولاء للأمويين، كما أظهر قدرة فائقة في قمع ثورة ابن الزبير في مكة ـ وكان قائداً حربياً لا يولي أعراف الحرب أهمية ولا يتقيد بخطط مسبقة ليضمن لنفسه حرية التصرف[8]. وكان إلى جانب ذلك قوي الشخصية وخطيباً

---

(1) أنظر ص139.
(2) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج5 ص17.
(3) ي. أ. بليايف: العرب والإسلام والخلافة العربية ص232.
(4) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص175.
(5) نفس المصدر ج3 ص175 ـ 176.
(6) نفس المصدر والصفحة.
(7) نفس المصدر ج3 ص99.
(8) ي. أ. بليايف: العرب والإسلام والخلافة العربية ص230.

ساحراً يعرف كيف يتلاعب بنفوس سامعيه بلغة البأس والارهاب. فعندما وصل الحجاج إلى الكوفة في أول سنة 75هـ لاستلام مهام عمله الجديد، صعد المنبر متلثماً، وخطب خطبته الدموية المرعبة التي مطلعها:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفوني[1]

وهي الخطبة التي تهدد فيها أهل العراق وتوعدهم[2].

وكانت أول مهام الحجاج في العراق إعادة استتباب الأمن فيه وإخماد حركة الخوارج والعمل على ضمان استمرار تدفق الخراج منه إلى خزينة الخليفة في دمشق.

أعلن الحجاج ما يشبه حالة الطوارىء في البلاد، وحظر الجماعات فلا يركبن رجل إلا وحده[3]. وأنذر الجنود الذين تركوا جيش المهلب في (رامَهُرمز) دون إذن لهم بذلك أنذرهم في الالتحاق بمعسكرهم خلال ثلاثة أيام وهدّد المخالفين أو المتخلفين بالقتل وانتهاب دورهم وأموالهم[4]. وقد عرف كيف يؤكد هذا التهديد، فضرب أمثلة قاسية كان لها أثرها[5]. وكان هذا الطاغية شديد الوطأة بصورة خاصة على الخوارج الأزارقة الذين كان يعتبرهم من ألد الأعداء ومن أشدهم خطراً على الحكم الأموي[6]. فجرد عليهم حملة لاستئصال شأفتهم، فتمزقوا. وفر منهم من فر إلى فارس والجزيرة العربية وشمال أفريقيا. وأما من بقي منهم في المدن فقد أعلنوا الطاعة وانصرفوا إلى الوعظ الديني. ويقول البغدادي وهو من ألد خصوم الخوارج، في هزيمتهم: (وطهرت الأرض من الأزارقة، والحمد لله)[7].

وعند منصرم القرن السابع الميلادي، كان الأزارقة قد اختفوا عن المسرح السياسي وخلفهم طائفة أخرى تعرف بالإباضية، كانت أكثر اعتدالاً منهم فلم تخلق في وجه عامل العراق مشكلات كما كان الأزارقة يفعلون دوماً[8].

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج6 ص202. ابن الأثير: الكامل ج4 ص33.
(2) ابن الأثير: الكامل ج4 ص34.
(3) نفس المصدر والصفحة.
(4) نفس المصدر والصفحة. المسعودي: مروج الذهب ج3 ص135 ـ 208.
(5) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج6 ص207 ـ 208. ابن الأثير: الكامل ج4 ص35.
(6) ي. أ. بليايف: العرب والإسلام والخلافة العربية ص232.
(7) البغدادي: الفرق بين الفرق ص66.
(8) ي. أ. بليايف: العرب والإسلام والخلافة العربية ص232.

وكان مما ساعد الحجاج في التغلب عليهم اختلافهم وانقسامهم نتيجة دسائس المهلب بن أبي صفرة[1]. فقد تولى قيادة الأزارقة زعيم جديد اسمه عبد ربه الكبير الذي قتله المهلب في وادي (جيرفت) بأرض كرمان[2]، وقتل قطري بن الفجاءة في طبرستان[3].

وفي الوقت الذي لم يكن قد تم فيه التغلب على الأزارقة في المشرق، قام خوارج آخرون في أول سنة 76هـ في غرب العراق، كانوا ينتمون في الأغلب إلى قبيلة بني شيبان من بكر. وكان أشهر زعمائهم وأخطرهم شبيب بن زيد الشيباني الذي كان بفضل سرعة فرسانه كثير الظهور والاختفاء كأنه في كل مكان وكأنه ليس في أي مكان[4]. بل هو في سنة 76هـ خرج من الجزيرة الفراتية إلى العراق وهزم خمسة جيوش للحجاج وقتل قوادها[5]. وبلغ منه أنه طرق أبواب الكوفة واقتحمها وضرب باب القصر بعموده[6].

ولعل من بين أسباب انتصارات شبيب المذهلة على جيوش الخلافة رغم قلة جنده، أنه كان يعطف على الطبقات الشعبية وينصر المظلومين. فقد ذكر الطبري أن شبيباً كان ببيعة البتّ[7]. فجاءه أهلها فقالوا له: أنت ترحم الضعفاء وأهل الذمة، ويكلمك من تلي عليه، ويشكون إليك ما نزل بهم فتنظر لهم، وتكف عنهم، وإن هؤلاء القوم جبابرة، يقصد الحجاج والمهلب وحكام بني أمية، لا يكلمون ولا يقبلون لعذر، والله لئن بلغهم أنك تقيم في بيعتنا ليقتلننا إن قضي لك أن ترحل عنا، فإن رأيت فانزل جانب القرية ولا تجعل لهم علينا مقالاً فافعل، قال: فإني أفعل ذلك لكم، فخرج عن البيعة فنزل جانب القرية[8]. وذكر الملطي أن شبيباً (كان لا يقتل

---

1) ابن الأثير: الكامل ج4 ص64. المبرد: الكامل ج4 ص678.
2) الدينوري: الأخبار الطوال ص279. البغدادي: الفرق بين الفرق ص66. المبرد: الكامل ج4 ص694. ابن الأثير: الكامل ج4 ص65.
3) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج6 ص309. البغدادي: الفرق بين الفرق ص66. ابن الأثير: الكامل ج4 ص68.
4) ابن الأثير: الكامل ج4 ص56. ولهاوزن: تاريخ الدولة العربية ص 221 - 222.
5) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج2 ص454.
6) ابن الأثير: الكامل ج4 ص48.
7) قرية من أعمال بغداد/ ياقوت الحموي: معجم البلدان ج1 ص334.
8) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج6 ص252. ابن الأثير: الكامل ج4 ص52.

أحَداً ولا يسبي ولا يستحل شيئاً مما حرم الله إلا ما يستحله في الحجاج وأصحابه[1].

كانت موارد الحجاج من الجند قد نضبت، فوجد نفسه مضطراً إلى أن يطلب إلى الخليفة أن يرسل له جنداً من الشام[2]. وإن الموالي، الذين كانوا يكرهون الحجاج لما لاقوه من مهانة واستغلال وظلم إبان حكمه، رفضوا بعناد أن يجندوا في الفرق التي كان يشكلها لمحاربة الخوارج[3].

وبمساعدة جند الشام، استطاع الحجاج أن يهزم الخوارج ولمّا صار شبيب على جسر نهر دجيل نفر به حصانه فسقط في الماء ومات غرقاً[4].

وهكذا تيسر للحجاج تمزيق شمل الخوارج، وجنى الوليد بن عبد الملك ثمار هذه الجهود فبعث بجيوشه لفتح بلاد ما وراء النهر والسند.

وقد حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز، ضمن إطار سياسته الواقعية في دعم الدولة بتوسيع نطاق التأييد الشعبي لها، حاول التقرب من ممثلي الخوارج عله يصل معهم إلى نوع من التفاهم. فأمر بايقاف الحملات العسكرية ضدهم، وبعث إليهم يطلب مناظرتهم[5] اعتقاداً منه أنه يستطيع إرضاءهم بمناظرته إياهم. وقد نجح عمر على الأقل في أن جعلهم يغمدون سيوفهم ويخلدون إلى الهدوء والسكينة ما امتدت حياته[6].

كان الخوارج حتى الآن يكتفون بالحروب الصغيرة، ويعتمدون في قتالهم أسلوب الكر والفر وتكتيك البيات والمباغتة وسرعة الظهور والاختفاء[7]، وذلك بالنظر لقلة عددهم أمام تفوق جيوش عدوهم عليهم بالعدد والعدة.

ولكن الأمر تغير في أيام بني مروان الأخيرة. فقد تضخمت جماعتهم الصغيرة، فصارت جماهير كبيرة، هذا إلى أنهم تركوا ما كانوا عليه من غلو وتطرف أخرجهم

---

(1) الملطي: التنبيه والرد ص55.
(2) ابن الأثير: الكامل ج4 ص 55. المسعودي: مروج الذهب ج3 ص147.
(3) ي. أ. بليايف: العرب والإسلام والخلافة العربية ص343.
(4) ابن الأثير: الكامل ج4 ص61. المسعودي: مروج الذهب ج3 ص147.
(5) ابن الأثير: الكامل ج4 ص155.
(6) ولهاوزن: تاريخ الدولة العربية ص299.
(7) ابن الأثير: الكامل ج4 ص56.

على الناس وباعد الناس عنهم، وصاروا يقبلون كل من ينضم إليهم ليعينهم على تحقيق أغراضهم[1]. ولم يكن بينهم وبين الظفر بالسلطة الأموية إلا قليل[2].

تحرك الخوارج في وقت كانت فيه الظروف قد نضجت لسقوط الدولة الأموية. فقد تفاقمت التناقضات السياسية والاجتماعية، وازدادت الأزمة الداخلية حدة، وتعاظمت نقمة الجماهير، وتمردت الولايات، واندلعت الثورات من كل نوع وفي كل مكان، واستمر الصراع بين القبائل اليمنية والقيسية، واحتدم التطاحن على السلطة في قلب الأسرة الأموية الحاكمة وبدأت (المسودة) بالتحرك من خراسان.

ثار الخوارج في أرض الجزيرة الفراتية بقيادة الضحكاك بن قيس، من بيت مرة الذي كان فيه شبيب بن يزيد الشيباني الخارجي، وانحاز إليه الخوارج في شهرزور وأرمينية وأذربيجان[3]. فاستولى على الكوفة وواسط والقادسية وجبى خراج السواد[4]، وانضم إليه عدد من القادة وأعضاء البيت الأموي[5].

وكاتب أهل الموصل الضحاك ليقدم عليهم ليمكنوه[6]. فسار بجماعة من جنده واستولى على الموصل وكورها وعين العمال على المناطق التي سيطر عليها[7]. والتفت إليه جموع كثيرة، خصوصاً وأنه كان يدفع لهم أعطيات كبيرة[8]. ويذكر ابن الأثير أن جيش الضحاك بلغ أكثر من مائة ألف جندي[9]، وفي رواية للطبري مائة وعشرين ألف رجل[10].

وبعد أن تمكن مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية من اخضاع الشام لسلطته، خرج إلى الرقة لقتال الخوارج، والتقى الجيشان عند «كفرتوثا» من أعمال «ماردين» فقتل الضحاك في المعركة عام 128هـ/ 746م[11]. فولى الخوارج عليهم الخيبري

---

(1) ولهاوزن: تاريخ الدولة العربية ص373.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) الطبري تاريخ الرسل ج5 ص612.
(4) نفس المصدر والصفحة.
(5) نفس المصدر ص620.
(6) نفس المصدر ج6 ص15.
(7) نفس المصدر والصفحة.
(8) نفس المصدر ج6 ص16.
(9) ابن الأثير: الكامل ج4 ص296.
(10) الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص16.
(11) نفس المصدر ج6 ص16.

خلفاً له وكان معه سليمان بن هشام بن عبد الملك فتمكن من هزيمة مروان وهو في القلب من جيشه، ودخل خيمته، إلا أن موالي مروان تمكنوا من قتله عنوة[1].
واستطاع مروان، بعد اصلاح جيشه وادخال نظام الكراديس بدل الصف[2]، أن يمزق شمل خوارج الجزيرة الفراتية والعراق ويهزمهم، بعد أن أخضع أهم ولايات الدولة: الشام ومصر والعراق والجزيرة الفراتية. كما تمكن من اخماد تمرد خوارج حضرموت الذين كانوا قد استولوا بزعامة أبي حمزة ـ واسمه المختار بن عوف الازدي ـ الذي تحالف مع خارجي آخر ظهر في اليمن يدعى عبدالله بن يحي المعروف بطالب الحق[3]، على صنعاء ومكة والمدينة في الجزيرة العربية[4]، فأرسل مروان حملة بقيادة عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي لقتال الخوارج[5]، والتقى الجمعان بوادي القرى، فانهزم الخوارج وقتل أبو حمزة[6]، ودخل ابن عطية المدينة، وسار منها إلى اليمن وقتل فيها عبد الله بن يحيى طالب الحق، ودخل ابن عطية صنعاء[7]. وأُعيدت الجزيرة العربية إلى السيادة الأموية بعد أن تم القضاء على حركة الخوارج فيها.

الخلاصة: ظهرت حركة الخوارج كتعبير عن النقمة المتزايدة لدى قطاع عريض من الناس في المجتمع العربي ـ الإسلامي نتيجة التناقضات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في المجتمع ذاك. وناضل الخوارج رجالاً ونساء، بثبات وجرأة وبطولة عن مبادئهم منذ قيام الدولة الأموية حتى سقوطها.

وبالنظر لجماهيرية هذا الحزب المعارض وثوريته وديمقراطيته وما تشكله أفكاره من خطر على مصالح الأريستقراطية العربية ودولتها، اعتبرتهم السلطة من ألدّ أعدائها. فقاومتهم بشدة وقتلتهم بالتهمة والظنة، ولاحقتهم من بلد إلى آخر حتى استأصلت فرقاً منهم بأكملها واختفت من المسرح السياسي.

وقد أغنى الخوارج الفكر السياسي ببعض آرائهم الايجابية، وعلى وجه الخصوص بنظريتهم القائلة: إن السيادة للجماعة الإسلامية (الأمة). وإن الأمة فوق

(1) الطبري: ج6 ص17. ابن الأثير: الكامل ج4 ص297.
(2) الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص19. ابن الأثير: الكامل ج4 ص297.
(3) الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص18. ابن الأثير: الكامل ج4 ص297/ 307.
(4) الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص42/ 56. ابن الأثير: الكامل ج4 ص307/ 314/ 315.
(5) الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص60. ابن الأثير: الكامل ج4 ص315.
(6) المصدر ذاته.
(7) المصدر ذاته، ص316.

الخليفة. وهي آراء لا تزال صالحة إلى يومنا هذا، حيث يواصل العديد من شعوب الأمة العربية والإسلامية النضال في سبيل تحقيق المساواة والعدالة الاجتماعية وسيادة الشعب، تلك المبادىء التي نادى بها الخوارج منذ القرن السابع الميلادي، وكافحوا إلى جانب الجماهير من أجلها.

لقد نادى الخوارج بالعودة إلى مبادىء المساواة والعدالة والتضامن التي كانت تسود في الجماعية البدائية والتحلي بالأخلاقيات الرفيعة القديمة، وإقامة شكل من أشكال المجالس المشيخية التي ترشد ولا تحكم وتقهر. غير أن الأساس الاقتصادي والاجتماعي للمشاعية البدائية كان قد زال وولى زمانه وتجاوزه التطور وخاصة في الأقاليم التي تتحكم في نشاط الانتاج والتبادل والاستهلاك[1]. لذا انتهت حركتهم، تحت ضربات القادة الأمويين وبسبب من الخلافات والتطرف فيما بينهم، إلى الفشل والهزيمة والضعف والتمزق.

الشيعة

كانت الشيعة إحدى الفصائل الرئيسية المعارضة لممارسات الحكم الأموي لأساليب الظلم والاضطهاد تجاه الفئات في المجتمع العربي ـ الإسلامي التي كان عامة الشيعة يشكلون جزءاً عضوياً منها. وقد أسهم نضال الشيعة مع غيرهم من قوى المعارضة في إضعاف الدولة الأموية وسقوطها.

نشأ التشيُّع فكرة بسيطة مع نشوء مسألة الخلافة، ثم أخذ يتبلور ويتفاعل مع أحداث الحياة العربية ـ الاسلامية، حتى نشأت وتفرعت عنه مواقف سياسية وفكرية تألفت منها مذاهب وفرق شيعية متعددة.

ففي ميدان النظرية، ينطلق الشيعة على اختلاف فرقهم ومذاهبهم بأن علياً بن أبي طالب أحق المسلمين بعد النبي بالخلافة، وأن الإمامة حق إلهي وليست حقاً للناس في اختيار من يصلح لقيادتها. يؤيد ذلك قول الشهرستاني: ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصبهم، بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين، لا يجوز للرسول عليه السلام إغفاله وإهماله، وتفويضه إلى العامة وإرساله[2]. وقالت الشيعة بعصمة الأئمة وبراءتهم من الذنوب الكبيرة والصغيرة[3].

---

(1) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي ـ ص 143.

(2) الشهرستاني: الملل والنحل ج1 ص146.

(3) نفس المصدر والصفحة.

وقد ضم حزب الشيعة في صفوفه عناصر عربية وغير عربية وعلى وجه الخصوص الموالي، تلك الفئات من المجتمع العربي الإسلامي التي كانت تعاني ما يعانيه جمهور الشيعة العرب من صنوف الجور والمذلة والاضطهاد. وتذكر المصادر التاريخية أن أغلبية شيعة المختار الثقفي بالكوفة كانت من الموالي[1]. هذا وإن كون جمهور الشيعة من الطبقة السفلى لمجتمع الخلافة هو الذي طبع موقفهم السياسي أو الطبقي بطابع المعارضة لسلطة الأمويين ثم العباسيين من بعدهم على ما يرجح.

قاوم الشيعة الحكم الأموي علناً وتقية، وتعرضوا للقتل والاضطهاد. فقد استخدم معاوية وولاته مختلف الأساليب لقمع المعارضة ومن بينها الارهاب والقتل والرشوة. ويذكر الطبري أن زياداً، والي معاوية على العراق، كان يأخذالناس بالظنة ويعاقبهم بالشبهة[2] وأنه كان يتتبع الشيعة في الكوفة وهو بهم عارف، لأنه كان منهم أيام علي، فقتلهم تحت كل حجر ومدر، وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشردهم عن العراق، فلم يبق به من هو معروف منهم، وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق ألا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة[3]. وقتل معاوية حجر بن عدي، أحد زعماء الشيعة، وعدداً من أصحابه[4]. وذكر الدينوري أن المغيرة بن شعبة، والي معاوية على الكوفة، كان يرشو أصحاب عليّ ليضمن سكوتهم[5].

وعندما توفي معاوية عام 60هـ/ 680م وتولى يزيد ابنه مقاليد السلطة، بحكم كونه وليّ العهد كما فرضه والده حسب النظام الذي ابتدعه بتحويل نظام الخلافة الشوري الراشدي إلى نظام الحكم الفردي الوراثي، تفجرت مراجل الغضب الكامن. وإن سكت الناس في عهد معاوية فإن ذلك نتيجة ما أشاعه وولاته من ارهاب وما استخدموه من وسائل الرشوة والخداع والمناورة. وجاء موت معاوية وتولية يزيد، الشخص المطعون بسلوكه وسيرته وبعبثه بالدين وبجهله بطرق التصرف بالشؤون العامة للدولة وبغطرسته، فرصة للتعبير عن غضبهم. وكان الناقمون على ذلك كثيرين، ولكن

---

(1) الدينوري: الأخبار الطوال ص293 ـ 300 ـ 309.
(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج4 ص222.
(3) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج4 ص503. أحمد أمين: فجر الاسلام ص 336 ـ 37.
(4) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج5 ص276. الدينوري: الأخبار الطوال ص224.
(5) الدينوري: الأخبار الطوال ص223.

أول معارضة لخلافته ظهرت من الشيعة في الكوفة بعد أن علموا رفض الحسين بن عليّ في مكة مبايعة يزيد بالخلافة. فكتب هؤلاء إليه، ووجهوا بالرسل على أثر الرسل[1]، تدعوه باسم الشيعة بالقدوم إلى الكوفة ليقود ثورتهم على يزيد وعلى الخلافة الأموية ذاتها «إن الناس ينتظرونك، لا إمام لهم غيرك، فالعجل العجل»[2].

وجه الحسين إلى الكوفة ابن عمه مسلم بن عقيل قبل أن يشخص هو، وذلك لكي يتأكد من صدق ما كتبوا به له. وليمهد له الطريق، وكتب إلى شيعة الكوفة، وأعلمهم أنه إثر كتابه[3]. فلما قدم مسلم الكوفة اجتمعوا إليه، وبايعوه وعاهدوه وعاقدوه وأعطوه المواثيق على النصرة والمشايعة والوفاء[4]. وكانت الشيعة تبايع مسلماً على الدعوة إلى الكتاب والسنة وجهاد الظالمين والدفاع عن المستضعفين واعطاء المحرومين وقسمة الفيء بين المسلمين بالسوية ورد المظالم إلى أهلها ونصرة أهل البيت والمسالمة لمن سالموا والحرب لمن حاربوا[5]. ولم يزل مسلم يأخذ البيعة من أهل الكوفة حتى بايعه منهم ثمانية عشر ألف رجل في ستر ورفق[6]. وساعده على نجاحه هذا، في الشطر الأول من مهمته، أن النعمان بن بشير والي الكوفة آنذاك، اعتبر من المستضعفين[7]، وأنه كان رجلاً يحب العافية[8]، فكتبوا إلى يزيد بأمره، فعزله، وعين عبيدالله بن زياد والياً على العراق وجمع إليه الكوفة والبصرة[9]، وأمره بطلب مسلم وقتله أو نفيه[10].

وجد مسلم نفسه، قبل أن يستحكم له الأمر، مضطراً إلى قتال عبيدالله بن زياد، فاجتمع له من أهل الكوفة أربعة آلاف، وقصد القصر الذي فيه ابن زياد[11]. غير أن ابن زياد، بمساعدة أشراف الكوفة وباستخدامه لأساليب التهديد والرشوة، تمكن من

---

(1) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ج2 ص241.
(2) نفس المصدر 243.
(3) نفس المصدر والصفحة.
(4) نفس المصدر والصفحة.
(5) المقرم الموسوي: الشهيد مسلم بن عقيل ص103.
(6) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج4 ص275. الدينوري: الأخبار الطوال ص235.
(7) الدينوري: الأخبار الطوال ص235.
(8) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج3 ص267.
(9) نفس المصدر ص268.
(10) نفس المصدر والصفحة.
(11) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج4 ص275.

صرف المؤيدين عن مسلم[1]. ثم القبض عليه وقتله رغم اعطاء الأمان له[2]. وكان مسلم قبل قتله كتب إلى الحسين بن عليّ: إن الرائد[3] لا يكذب أهله، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألف رجل فاقدم، فإن جميع الناس معك ولا رأي لهم في آل أبي سفيان[4].

ولما عزم الحسين الشخوص إلى الكوفة، حاول الكثير أن يثنوه عن عزمه، فقال عبدالله ابن عباس: يا بن العم: إن أبيت إلا محاربة هذا الجبار فاشخص إلى اليمن، فإنها في عزلة، ولك فيها أنصار وإخوان، فأقم بها وبث دعاتك[5]. ولكن الحسين رأى أن مقاومة يزيد والعرش الأموي أمر يجب أن يتصدى له ما دام قد اجتمع له العنصر البشري اللازم من أهل الكوفة.

وسار الحسين من مكة يريد الكوفة. فلما بلغ يزيد خروجه، كتب إلى ابن زياد أن يستقبله بالرجال حتى يقتله ومن معه، وتهدده إن لم يقتله أرجعه إلى نسبه وإلى أبيه عبيد[6]. ولما بلغ الحسين القطقطانة[7] من أرض العراق أتاه الخبر بقتل مسلم وأن كثيراً من أنصاره الذين دعوه للمقاومة قد ضعفوا عن تنفيذ وعدهم، لما واجههم به عبيدالله بن زياد من إرهاب وتهديد للبعض، ومن إغراء ورشاوى للآخرين[8]. وقد صور أحد أنصار الحسين في الكوفة عند لقائه في القطقطانة حالة الشيعة في المصر تصويراً واقعياً فقال: (أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم، يستمال ودهم ويستخلص به نصيحتهم... أما سائر الناس بعد فإن أفئدتهم تهوى إليك وسيوفهم غداً مشهورة عليك)[9].

كان موقف الحسين هنا حرجاً. فالعودة إلى الحجاز تعني التخاذل والتراجع عن

---

(1) المرجع السابق، ص276 ـ 77.

(2) نفس المصدر ص280 ـ 283.

(3) الرائد الذي يتقدم القوم يبصر لهم الكلأ ومساقط الغيث.

(4) نفس المصدر ص281. الدينوري: الأخبار الطوال ص243.

(5) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص64. الدينوري: الأخبار الطوال ص244 الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج4 ص288. ابن الأثير: الكامل ج3 ص276.

(6) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ج2 ص242 ـ 249.

(7) موضع قرب الكوفة من جهة البرية. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج4 ص137.

(8) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ص277 ـ 306.

(9) نفس المصدر ص206.

أمر يراه واجباً، والإقدام على قتال جيش يفوق قوته الصغيرة عشرات المرات تعني مغامرة بالنساء والأطفال الذين جاء بهم وبالقلة القليلة من أنصاره الذين صحبوه في مسيرته. ولكنه حسم الموقف بأن فضل الإقدام على الاحجام وصمم على الموت في سبيل الدفاع عن قضية يراها حقاً وواجباً، ولسان حاله يقول:

سأمضي وبالموت عار على الفتى ... إذا ما نوى خيراً وجاهد مسلما
وواسى رجالاً صالحين بنفسه ... وخالف مثبورا وفارق مجرما
فإن عشت لم أندم وإن مت لم ألم ... كفى بك ذلاً أن تعيش وترغما[1].

ومضى الحسين لقتال الأربعة آلاف جندي الذين أرسلهم ابن زياد بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص[2] بقوته الصغيرة التي تعد اثنين وسبعين جندياً ما بين راجل وفارس[3]. والتقى بجيش الخلافة في كربلاء على الفرات في 10 محرم 61هـ/ 10 تشرين أول (اكتوبر) 680م[4]. وقاتل الحسين وصحبه قتالاً بطولياً حتى قتلوا كلهم، وكانوا سبعين شهيداً[5]، فيهم بضعة عشر شاباً من أهل بيته[6]. ولما قدم أحد أنصار الحسين أسيراً أمام ابن سعد قال: لقد قتلت منكم، أي من جيش الخلافة، اثني عشر رجلاً سوى من جرحت ولو بقيت لي عضد وساعد ما أسرتموني، فانتضى شمر بن ذي الجوشن سيفه وقتله[7]. وأسر الأطفال والنساء من أهل الحسين الشهيد[8].

لقد كان لمذبحة كربلاء المأسوية نتائج هامة في تاريخ الحركة الشيعية. وإذا بدا بأن الأمويين قد انتصروا انتصاراً ساحقاً على تلك الجماعة القليلة العدد في كربلاء، فإن التشيع كسب بعداً سياسياً وفكرياً جديداً امتد عمقاً واتساعاً على مدى التاريخ

---

(1) ابن الأثير: الكامل ج3 ص281. في الطبري البيت الثالث غير موجود. وورد البيت الثاني:
رأسى الرجال الصالحين بنفسه ... وفارق مثبورا يغش ويرغما
تاريخ الطبري ج4 ص305.

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج4 ص310.

(2) الدينوري: الاخبار الطوال 256. ابن الأثير: الكامل ج3 ص286.

(3) الطبري: تاريخ الرسل ج4 ص296.

(4) نفس المصدر ص258.

(5) نفس المصدر ص 293.

(6) ابن الأثير: الكامل ج3 ص293.

(7) الطبري: تاريخ الرسل ج4 ص293. الدينوري: الأخبار الطوال ص 259. ابن الأثير: الكامل جج3 ص298.

(8) الدينوري: الأخبار الطوال ص288.

العربي ـ الاسلامي الوسيط، واستمرت الحركة الشيعية وامتدت في الزمن وفي الحياة العامة، كما يتجلى ذلك مثلاً في حركة (التوّابين) وثورة المختار الثقفي اللتين قامتا تحت شعار (أخذ الثأر للحسين وأهل بيته).

ثورة المختار الثقفي

شهدت منطقة الكوفة في العقد السابع من القرن الأول الهجري ثورة اجتماعية جماهيرية شيعية كبرى بقيادة المختار الثقفي، تحت شعار التحرر والمساواة والعدل وأخذ الثأر للحسين وأهل بيته.

نشأت الكوفة عام 17 هـ/ 638م كمعسكر للجند بعد استيلاء العرب على العراق في خلافة عمر بن الخطاب، وسريعاً تطورت المدينة ـ المعسكر وتحولت إلى مركز حيوي لنشاط سياسي وثقافي واقتصادي. ففي الكوفة وسوادها، احتشدت قوى سياسية واجتماعية متناقضة ومتناحرة: فهناك فئات الأمراء والاقطاعيين، وهم أشراف الكوفة ـ كما في الطبري والدينوري والبلاذري والمسعودي وابن الأثير ـ وأصحاب النفوذ والثروة والفعاليات الاقتصادية، وهناك فئات البؤساء والمستثمرين والمسخرين وأغلبيتهم من الموالي والعبيد، إذ كان في الكوفة زهاء عشرين ألفاً من الموالي[1]. وقد عرفت الكوفة بنزعتها الشيعية السائدة.

ويبدو أن وجود عدد كبير من الموالي في الكوفة، وهم من أشد المعارضين لأساليب الظلم والتمييز التي كان يمارسهاالحكام الأمويون، وضع المدينة والمناطق المجاورة لها في صف المعارضة السياسية لهذا النوع من النهج في الحكم.

لذلك كله كانت الكوفة بحكم وضعها الديموغرافي والسياسي والاجتماعي ـ الاقتصادي أحد المستودعات الرئيسية للحركة الشيعية في صدر الاسلام. وإليها كان بعض قادة الشيعة يشدون رحالهم لتنظيم الدعوة وتعبئة القوى وتوعية الجماهير وتوحيد صفوفها في وجه السلطة الأموية، وهو ما قام به المختار بن أبي عبيد الثقفي رسول محمد بن الحنفية، أحد أبناء علي بن أبي طالب.

شخص المختار إلى الكوفة بكونه داعياً شيعياً للقيام بمهمة الدعوة إلى محمد بن

---

(1) ابن سعد: الطبقات ج5 ص99. النوبختي: فرق الشيعة ص23.

الحنفية في ستر وكتمان[1]. وقبض عليه وزج في السجن عدة مرات لتشيعه[2].

ورافق مجيئه إلى الكوفة ظروف أزمة سياسية واجتماعية حادة، تفاقمت فيها التناقضات واتسعت موجة الاضطرابات واشتدت حتى كادت تعصف بحكم بني أمية.

وبدأ اتصالاته بالأهالي من العرب والموالي. وكان يلجأ إلى التقية. وقد يضطر أحياناً إلى التظاهر بأنه مع السلطة لدفع الشبهة عنه[3].

استجاب إلى دعوة المختار قوم كثير من الموالي[4]. كما انخرطت في دعوته جماعات من العرب[5]، وطوائف من أهل الذمة تعرف بالعباد[6]. وأخذ يكثر أنصاره[7].

سعى المختار إلى توحيد صفوف الشيعة[8]. فكان يختلف إليهم ويختلفون إليه[9]. وعندما علم أنهم ينوون الخروج بقيادة سليمان بن صُرَد لأخذ الثأر من قتلة الحسين، قال لهم: إن سليمان بن صرد ليس بذي تجربة للأمور ولا علم له بالحروب، وإنه إنما يريد أن يقتل نفسه ويقتلهم، أي الشيعة، معه[10]. وكان أنصار ابن الزبير بالعراق وعلى رأسهم عبدالله بن زيد الأنصاري يحرضون التوابين ويشجعونهم بالخروج حتى يتخلصوا منهم ويستقر لهم حكم العراق[11]. وتمكن المختار بعد جهد أن يستميل طائفة منهم[12]. وبعد هزيمة التوابين في عين الوردة من أرض الجزيرة عام 65هـ/ 684م، انضمت فلولهم إلى المختار، كما انضم إليه ابراهيم بن الاشتر[13].

وبعد أن شعر الشيعة بعطف اجتماعي وسياسي كبير لدى أهل الكوفة أحسوا

---

(1) البلاذري: انساب الاشراف ج5 ص215 ـ 218. الطبري: تاريخ الرسل ج4 ص442 ـ 450.
(2) الطبري: تاريخ الرسل ص 441 ـ 442.
(3) الدينوري: الأخبار الطوال ص288.
(4) نفس المصدر والصفحة.
(5) د. ماجد عبد المنعم: التاريخ السياسي للدولة العربية ج2 ص117.
(6) ابن سعد: الطبقات ج5 ص100.
(7) الطبري: تاريخ الرسل ج4 ص450.
(8) نفس المصدر ص449. الدينوري: الأخبار الطوال ص288.
(9) الطبري: تاريخ الرسل ج4 ص449.
(10) د. ماجد عبد المنعم: نفس المصدر ص115.
(11) الطبري: تاريخ الرسل ج4 ص449. ابن الأثير: الكامل ج3 ص335.
(12) الدينوري: الأخبار الطوال ص289.
(13) الطبري: تاريخ الرسل ج4 ص508. ابن الأثير: الكامل ج3 ص363.

آنذاك بشيء من القوة، وذلك لأن سكان مدينة الكوفة والمناطق المجاورة لها كانوا من الشيعة. عندها أعلن المختار الثقفي مبايعته لمحمد بن الحنفية. وكان خروجه على ابن الزبير ايذاناً باعلان الثورة.

أعلن المختار ثورته تحت شعار مبايعة الإمام المهدي محمد بن الحنفية والعمل بالكتاب والسنة والطلب بدماء أهل البيت والدفاع عن الضعفاء ومحاربة من يحاربنا ومسالمة من يسالمنا[1].

سار الثوار إلى قصر الإمارة في الكوفة فأخرجوا عبدالله بن مطيع، عامل ابن الزبير منه[2]. وغلبوا على المدينة[3]. وأصاب المختار تسعة ملايين درهم في بيت مال الكوفة. فأعطى الجند الذين اشتركوا في حصار ابن مطيع في قصر الإمارة خمسمائة درهم لكل منهم[4]. وفرض العطاء للموالي[5]، فالتفوا حوله. وأصبح لديه جيش قوي، أكثره منهم[6]. وعقد الرايات لقواده[7]. ودانت له العراق وسائر البلاد الا الجزيرة والشام ومصر[8]. وأرسل الهدايا إلى محمد بن الحنفية وبني هاشم[9].

شرع المختار يستعد للتصدي إلى الجيش الأموي المتقدم من أرض الجزيرة الفراتية لاحتلال العراق، فهادن ابن الزبير، وأرسل جيشاً بقيادة ابراهيم بن الأشتر لمحاربة الجيش الأموي، وانتصر عليه في موقعة خازر قرب الموصل عام 67هـ / 686م، وقتل أميره الحصين بن نمير، وكان من قتلة الحسين[10]، كما قتل عبيدالله بن زياد وشرحبيل بن ذي الكلاع وعظماء قادة الجيش[11]. وكافأ المختار ابراهيم على انتصاره بتعيينه أميراً على الجزيرة[12].

---

(1) الدينوري: الأخبار الطوال ص292 الطبري: تاريخ الرسل ج4 ص507 ابن الأثير: الكامل ج3 ص356.
(2) الدينوري: الأخبار الطوال ص292.
(3) الطبري: تاريخ الرسل ج4 ص508، ابن الأثير: الكامل ج3 ص363.
(4) الدينوري: الأخبار الطوال ص399.
(5) نفس المصدر ص393.
(6) الطبري: تاريخ الرسل ج4 ص509. ابن الأثير: الكامل جج3 ص364.
(7) الدينوري: الأخبار الطوال ص293.
(8) البلاذري: أنساب الأشراف ج5 ص270.
(9) الدينوري: الأخبار الطوال ص297.
(10) نفس المصدر والصفحة.
(11) نفس المصدر والصفحة. البلاذري: انساب الاشراف ج5 ص251.
(12) ابن سعد: الطبقات ج5 ص100.

وإبان ذلك كان المختار يتعقب بلا هوادة قتلة الحسين ومن أعان عليه فيقتلهم[1]. وبذلك استحق تقدير بني هاشم حتى قال عبدالله بن عباس عنه: «إنه أصاب بثأرنا»[2].

نقم أشراف الكوفة على المختار وثورته الاجتماعية، لأنه حرر عبيدهم وأشرك الموالي مع العرب في العطاء وحد من نفوذهم وقضى على امتيازاتهم، فأرجفوا عليه، وأخذوا يقولون.

«لقد تآمر علينا المختار بغير رضى، فأدنى موالينا فحملهم على الدواب وأعطاهم وأطعمهم فيئنا، وعصتنا عبيدنا»[3]. وكان المختار يقول «من جاءنا من عبد فهو حر»[4].

استغل الأشراف فرصة خروج جيش المختار بقيادة ابراهيم بن الاشتر إلى الجزيرة لصد الجيش الأموي عن التقدم لاحتلال العراق، فتمردوا على المختار - «ثورة مضادة»[5] -. غير أن المختار وبمساعدة الموالي، تمكن من سحق تمردهم[6]. فقتل وأسر عدداً كبيراً منهم، وهرب الآخرون إلى البصرة وبها مصعب بن الزبير فانضموا إليه[7].

وكان عبدالله بن الزبير في مكة، وقد أعلن نفسه أميراً للمؤمنين، فامتلأ حقداً على محمد ابن الحنفية وبني هاشم منذ خروج المختار عليه واستيلائه على الكوفة ومبايعته لمحمد بن الحنفية وإعلانه أنه الإمام المهدي الذي سيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً[8]. فخاف ابن الزبير، وألح على محمد بن الحنفية وأصحابه في البيعة له، فحبسهم وهددهم بالقتل والاحراق بالنار إن لم يبايعوا له خلال أجل حدَّده لهم[9]. فكتب محمد بن الحنفية إلى المختار يطلب منه النجدة، فوجه المختار

---

(1) المصدر السابق. أنساب الأشراف ج5 ص265.

(2) الطبري: تاريخ الرسل ج4 ص517.

(3) البلاذري: انساب الأشراف ج5 ص267.

(4) الطبري: تاريخ الرسل ج4 ص519.

(5) الدينوري: الأخبار الطوال ص300.

(6) نفس المصدر ص 301.

(7) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص87.

(8) ابن سعد: الطبقات ج5 ص101. ابن الأثير: الكامل ج3 ص374.

(9) المصدر ذاته، ج5 ص101 - 102. ابن الأثير: الكامل ج3 ص374 - 375.

إلى مكة بعثاً من جنده أخاف ابن الزبير، مما اضطره إلى التخفيف عنهم[1]. فلما قتل المختار تضعضعوا واحتاجوا[2].

وعندما أخذ يتوطد نفوذ المختار بخضوع الجزيرة الفراتية على يد ابراهيم بن الاشتر واخماد فتنة الأشراف، قرر مصعب، والي البصرة من قبل أخيه عبدالله به الزبير، أن يهاجمه قبل استفحال أمره، خصوصاً وأن اشراف الكوفة، الذين لجأوا إلى البصرة بعد فشل تمردهم، ما انفكوا يحرضون مصعباً على محاربة المختار والقضاء على ثورته السياسية والاجتماعية لاستعادة نفوذهم وامتيازاتهم.

طلب مصعب من المهلب بن أبي صفرة أن يهادن الخوارج الأزارقة ويفد إليه مع جنده[3]. وأخذ يستعد ويحشد جميع قواه وإمكاناته. ويبدو أنه استطاع أن يكسب بعض قادة جيش المختار المنحدرين من أصل شريف. فتآمروا لوضع خطة آثمة لإبادة الموالي والعبيد، قاعدة جيش المختار[4]. وأرسل عملاءه إلى الكوفة لحشد الأنصار وتثبيط الناس وصرفهم عن المختار ودعوتهم إلى بيعة ابن الزبير سرّاً[5]. وتوجه نحو الكوفة وألقى الحصار عليها، وقطع عن جيش المختار وصول المادة والماء[6].

قاتل المختار وأصحابه قتال الأبطال مدة أربعة أشهر، إلى أن قتل بقصر الإمارة سنة 68هـ[7]. وقتل مصعب جند المختار الذين دخلوا القصر وتحصنوا فيه، وكانوا ستة آلاف: ألفين من العرب، أربعة آلاف من الموالي[8] رغم إعطائه الأمان لهم[9].

وفي ذلك يقول عقبة الأسدي:

قـتـلـتـم سـتـة الآلاف صـبـراً   مع الـعـهـد الـمـوثـق مـكـتـفـيـنـا[10]

---

(1) ابن الأثير: الكامل ج3 ص375.

(2) الدينوري: الأخبار الطوال ص304.

(3) راجع تفصيل المؤامرة في الطبري ج4 ص560. وعلق الطبري على المؤامرة ووصفها بأنها كانت غشاً للموالي والعبيد، الذين لعبوا الدور الحاسم في قمع ثورة الأشراف المضادة.

(4) ابن الأثير: الكامل ج3 ص382.

(5) البلاذري: انساب الأشراف ج5 ص260 ـ 261.

(6) ابن سعد: الطبقات ج5 ص105.

(7) البلاذري: انساب الأشراف ج5 ص264.

(8) الدينوري: الأخبار الطوال ص309.

(9) تاريخ اليعقوبي ج2 ص264.

(10) الطبري: تاريخ الرسل ج4 ص577.

ووصف اليعقوبي هذه المذبحة بأنها (احدى الغدرات المذكورة المشهورة في الإسلام)[1].

وقال عبدالله بن عمر بن الخطاب لمصعب: أأنت الذي قتلت ستة آلاف من أهل القبلة في غداة واحدة على دم... والله لو كانوا غنماً من تراث الزبير لقد كان ما أتيت عظيماً[2]. وقام مصعب باضطهاد أهل الكوفة، وفعل بهم ما كان يفعله عمال بني أمية[3]. وتتبع الشيعة بالقتل في الكوفة وغيرها[4]. مما أثار نقمة الأهالي على الزبيريين ويسر لجيش عبدالملك في التغلب عليهم وطردهم من العراق.

لقد وعد المختار أنصاره بالتحرر والعدل والمساواة في الحقوق والواجبات ولكن النتائج المتوخاة من ثورته الاجتماعية والسياسية لم تتحقق في هذه المدة القصيرة التي استولى فيها على السلطة 685 ـ 687م، فانصرف عنه كثير من الموالي، وأخذت حركته بالتقلص، مما يسر لمصعب بن الزبير من قتله ومن تبقى من أصحابه، وسحق ثورة الجماهير الشعبية وتصفية المكاسب الاجتماعية والسياسية التي حصل عليها شعب العراق خلال فترة حكمه.

اتجه الشيعة، عقب مذبحة كربلاء والتنكيل الدموي بأنصار المختار وملاحقة واضطهاد المؤيدين أو المتعاطفين مع الشيعة، إلى الدعوة السرية أو ما يسمونه التقية والكتمان واكتسبوا مع الزمن خبرة وتمرساً على التنظيم الخفي والمقاومة السرية، فأصبحوا أقدر الفرق الإسلامية على العمل في الخفاء. وكان تنظيمهم السري في الثلث الأول من القرن الثاني للهجرة نواة لحركة ثورية جماهيرية واسعة نجحت في اسقاط الدولة الأموية.

واصل الحكام الأمويون سياستهم في قمع قوى المعارضة والعمل على التخلص من الشيعة احدى فصائلها الرئيسية، فتتبع الحجاج كل شيعي بالقتل والتعذيب وأخذهم بكل ظنة[5].

وعندما ولي عمر بن عبدالعزيز الخلافة، حاول التقرب من زعماء المعارضة

---

(1) تاريخ اليعقوبي ج2 ص264.
(2) البلاذري: انساب الأشراف ج5 ص265.
(3) الطبري: تاريخ الرسل ج4 ص558.
(4) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص107.
(5) المظفري: تاريخ الشيعة ص42.

ومنهم الشيعة، وذلك لدعم دولته بتوسيع نطاق التأييد الشعبي لها كما تقدم[1]. فأمر ولاته بالكف عن لعن علي من على المنابر[2]. وأزال ما كانت الشيعة تشكو من ظلم واضطهاد[3]. وأعطى بني هاشم الخمس، ورد فدكاً على ولد فاطمة[4]. غير أن الشيعة ما لبثوا أن تعرضوا في عهد خلفائه للاضطهاد مما دفعهم إلى الثورة ومناهضة الحكم الأموي بزعامة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

شخص زيد من المدينة، موطن أسرته، إلى الكوفة معقل الشيعة، واستمرت إقامته فيها نحو عشرة أشهر مستخفياً يتنقل في المنازل، وأقبلت الشيعة تختلف إليه[5]. وفي خلال هذه الفترة اتخذ الاهبة للثورة[6]. وضم لنفسه انصاراً في البصرة والموصل أيضاً[7]. وبايعه الناس في الكوفة حتى أحصى ديوانه خمسة عشر ألف رجل[8]. وكانت بيعته التي يبايع عليها الناس: (إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، واعطاء المحرومين، وقسم هذا الفيء بين أهله بالسواء، ورد المظالم، واقفال المجمَّر[9]، ونصر أهل البيت على من نصب لنا وجهل حقنا)[10].

لبث يوسف بن عمر، والي العراق من قبل هشام بن عبد الملك، زماناً طويلاً لا يعرف عن الحركة شيئاً ولكنه أفلح أخيراً في أن يحصل على معلومات عما يدبره زيد، من رجلين من الموالين له كان يوسف قد قبض عليهما[11]. ثم عرف أيضاً أن زيداً، على أثر القبض هذا، قرر التعجيل بالثورة مخافة أن يؤخذ، وأنه حدد لها ليلة الأربعاء أول ليلة من صفر سنة 122هـ/ 6 كانون الثاني (يناير) 740م[12]. فأمر

---

(1) انظر ص 71.

(2) تاريخ اليعقوبي ج2 ص305.

(3) ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبدالعزيز ص 56.

(4) تاريخ اليعقوبي ج2 ص305 ـ 306.

(5) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص491. ابن الأثير: الكامل ج4 ص242.

(6) الاصفهاني: مقاتل الطالبيين ص 135.

(7) المصدر ذاته.

(8) المصدر ذاته، ابن الأثير: الكامل ج4 ص242.

(9) جمر الأمير الجند: رأى ابقاءهم في الثغر، ثغر العدو ولم يقفلهم.

(10) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص492. ابن الأثير: الكامل ج4 ص242.

(11) نفس المصدر ص 498 ابن الأثير: الكامل ج4 ص245. الأصفهاني: مقاتل الطالبيين ص 135.

(12) نفس المصدر ص 499. ابن الأثير: الكامل ج4 ص246.

يوسف بدعوة أهل الكوفة في يوم الثلاثاء السابق على يوم الثورة، وجمعهم في المسجد الأعظم وحصرهم فيه، وغلق عليهم دروب السوق وأبواب المسجد، ووضعهم تحت حراسة طائفة من جند الشام[1].

ولما جاء زيد، ومعه مائتان وثمانية عشر رجلاً، وأراد أن يخلص أهل الكوفة من الحصر، لم يتحركوا، مما يدل على أن الذي دعا إلى تأييده حماس المجموع، وأنهم لم يكونوا منظمين تنظيماً كافياً للمقاومة، ورماه جند الشام بالحجارة من فوق المسجد[2]. واضطر أن ينسحب من أمام المسجد، لأن ألفين من جند الشام كانوا قد قدموا من الحيرة، حيث يقيم يوسف بن عمر، لمحاربته، فردهم زيد في يوم الأربعاء، وثبت في الخميس أيضاً هو وأصحابه القلائل أمام رماة النشاب من القيقانيَّة والنجارية[3]، حتى جاء الليل، فأصيب زيد بسهم في جانب جبهته اليسرى[4]. ومات من السهم، ووقعت جثته في أيدي يوسف فصلب جسده في الكوفة، وبعث رأسه إلى هشام فأمر بنصبه على باب دمشق، ثم أرسله إلى المدينة[5].

وأما ابنه يحي، وكان غلاماً حدثاً، فقد استطاع ان يفر إلى خراسان[6]، فأقام متوارياً في بلخ سنين عديدة[7]، ولكنه عرف بعد ذلك، فصار ينتقل من مكان إلى آخر، حتى قتل في الجوزجان من بلاد خراسان سنة 125هـ/ 743م في عهد الوليد بن يزيد، وهو يقاتل من كانوا في طلبه من جند الخلافة[8].

وقد أتى يحي، وهو في خراسان قبل قتله، أناس من الخوارج يسألونه أن يخرج معهم فيقاتلون بني أمية، فأراد لما رأى من نفاذ رأيهم وقوتهم أن يخرج معهم ولكن أصحابه نهوه أن يفعل. وفي هذا دلالة على ما يشعر به الخوارج من اتفاق مع الزيدية في الخروج على الإمام الظالم[9].

---

(1) المصدر السابق، 499 ـ 500. ابن الأثير: الكامل ج4 ص246.
(2) أبو الفرج الأصفهاني: مقاتل الطالبيين ص 139. الطبري: المصدر ذاته ص501.
(3) الطبري: تاريخ الرسل ج500 ـ 502.
(4) المصدر ذاته ص 502. ابن الأثير: الكامل ج4 ص247.
(5) المصدر ذاته ص505. ابن الأثير: الكامل ج4 ص248.
(6) المصدر ذاته. ص 506.
(7) المصدر ذاته ص536. ابن الأثير: الكامل ج4 ص259.
(8) المصدر ذاته ص537. ابن الأثير: الكامل ج4 ص260.
(9) الاصفهاني: مقاتل الطالبيين ص 154.

ومع أن ثورة الزيدية هذه قد انتهت إلى نهاية يرثى لها على حد تعبير «ولهاوزن» فإنها كانت انتفاضة لها شأنها. لأن ثورات شيعية أخرى أكثر تنظيماً أعقبتها. وأمام هذه سقطت دولة بني أمية[1].

وقد ترتب على ثورة زيد بن علي ومقتله أن تفرق أنصاره في بلدان الخلافة، وانشأوا فرقة الزيدية[2]. وتمكنوا في أيام العباسيين من تكوين دويلة لهم في جنوب بحر قزوين.

هذا وبلغت الدعوة السرية على يد أبي هاشم، عبدالله بن محمد بن علي بن أبي طالب درجة متقدمة من التنظيم، وكان أتباعه يسمون «الهاشمية»[3]. ولما أحس أبو هاشم بدنو أجله، ورأى أنه لم يبق من أفراد البيت العلوي رجل واحد ذو قدرة على الاضطلاع بالمهمة لكثرة ما قتل من شبابه، اتخذ ابن عمه محمد بن علي بن عبدالله بن عباس، (وصياً)، وعهد إليه بمهمة الدعوة، وأخبره بأسماء الدعاة، وأطلعه على اسرار الدعوة، وطلب إليه أن يختار اثني عشر نقيباً للإشراف عليها[4]. ودعا الشيعة إلى الطاعة له[5]. ولما مات أبو هاشم، اضطلع محمد بالمهمة.

لقد ساقت الظروف، العباسيين للارتقاء على أكتاف الشيعة، وورثوا قيادة نظام سري محكم له أجهزته ودعاته وأنصاره، فجنوا ثماراً زرعها المناضلون العلويون، وركبوا المد الثوري، وطرحوا شعارات براقة، كالمساواة والعدل ونصرة المستضعفين

(1) ولهاوزن: تاريخ الدولة العربية ص327.

(2) تعتبر الزيدية أكثر فرق الشيعة اعتدالاً. ومن تعاليمها الرئيسية: القول بجواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل/الشهرستاني. الملل والنحل ج1 ص155/ . وأن الإمامة من أولاد فاطمة، ولا تجوز الامامة في غيرهم/نفس المصدر ص154/ . ولكن لا يجوز أن يكون واحد منهم بعينه إماماً بل «يجوز أن يكون كل فاطمي عادل زاهد شجاع سخي خرج بالإمامة إماماً واجب الطاعة سواء أكان من أولاد الحسن أم من أولاد الحسين»/ نفس المصدر ص 154 ـ 155/ وقالت الزيدية أيضاً بـ «عدم عصمة الأئمة» فالإمام الفاطمي في رأي الزيدية غير معصوم ولا علم لديه مخزون/ د. علي سامي النشار. نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ج2 ص164/ وبتجويز خروج إمامين من قطرين يستجمعان هذه الخصال، ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة. الشهرستاني: الملل والنحل ج1 ص250/ ويبدو أن زيد بن علي تابع المعتزلة في جوهر عقائدهم مع اختلافات يسيرة/ د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ج2 ص168.

(3) الشهرستاني: الملل والنحل ج1 ص150.

(4) تاريخ اليعقوبي ج2 ص 297.

(5) ابن الأثير: الكامل ج4 ص159.

والقضاء على مظالم الأمويين، جذبت إليه جميع الفئات المستاءة. وانضوت تحت راية العباسيين مختلف الطبقات والقوميات الناقمة على حكم بني أمية. وكان تحرك «المسودة» بقيادة أبي مسلم الخراساني من واحة مرو اعلاناً عن بدء الثورة العباسية التي نجحت بالقضاء على الدولة الأموية وإقامة الدولة العباسية عام 132هـ/ 750م.

ثورات الموالي

الموالي ـ وهو الاصطلاح الذي أطلق على المسلمين من غير العرب ـ فئات من المجتمع العربي الاسلامي، اعتنقت الاسلام اعتقاداً منهم بأنهم سوف يظفرون بالمساواة مع اخوانهم العرب المسلمين، ويتحسن وضعهم الاجتماعي والاقتصادي بعد اسلامهم.

وكان جمهور الموالي يتألف من الفلاحين والعمال والحرفيين الكادحين وأصحاب البيوعات الصغيرة والقراء. أما ملاك الأراضي من الموالي فقد عملوا مع السلطة، وكانوا الأدوات الطبيعية لتثبيت تسلط الحكم العربي. ولهذا لم يساهموا في الانتفاضات الشعبية المناوئة لحكم الأمويين سواء أكانت هذه الانتفاضات خارجية أم شيعية ذات قيادة عربية أم تكون خاصة بأبناء الشعوب، أقول إن ملاك الأراضي من الموالي لم يساهموا في الانتفاضات إلا بعد أن شملتهم مساوىء الاحتلال ولا سيما في أواخر العصر الأموي[1].

تعرض جمهور الموالي، اعتباراً من خلافة عثمان وخاصة في عهد بني أمية، باستثناء عمر بن عبد العزيز، للاستغلال والتمييز والقمع والاضطهاد، مما دفعهم إلى الثورة أو الانضمام إلى الحركات الثورية من كل نوع وفي أي بلد من بلدان الخلافة. وكان تذمرهم من سياسات الحكام الأمويين المالية والعربية الأعرابية ونشاطهم الثوري المعادي عاملاً في إضعاف دولتهم وإسقاطها في نهاية المطاف.

ومما يلفت النظر في ثورات الموالي كونها ذات طابع محلي وتلقائي، فلم يكن لهم حزب سياسي يعمل على تنظيم كفاحهم وتوحيد صفوفهم حول برنامج محدد على صعيد الدولة، ويسعى إلى التعاون مع الأحزاب المعارضة والقوى الاجتماعية الساخطة، مما أتاح للسلطة فرصة ثمينة في إخماد انتفاضاتهم.

---

(1) أنظر ص 102.

حرص الخليفتان أبو بكر وعمر بن الخطاب على أن يساووا بين العرب والموالي. فكان أبو بكر، يقسم بين الناس بالتساوي دون تفضيل عربي على مولى[1]. ولما ولي عمر بن الخطاب كتب إلى أمراء الأجناد: (ومن أعتقتم من الحمراء، أي الموالي، فأسلموا فالحقوهم بمواليهم، لهم ما لهم، وعليهم ما عليهم. وإن أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلوهم أسوتكم في العطاء)[2]. ويبدو أن سوء الاستعمال في جباية الأموال ووضع بعض الضرائب على غير المسلمين من قبل هذا الأمير أو ذاك، ابتدأ في أواخر أيام خلافة عمر بن الخطاب كما يفهم من الشكاوى العديدة التي كانت ترفع إليه[3]. وفي خلافة عثمان تردت أوضاع الموالي الاجتماعية والاقتصادية وزادت حالتهم سوءاً، وذلك عندما أرادت الأريستقراطية العربية أن تجعل من السواد «بستاناً لقريش»[4]. فانفلت أقاربه الحكام في انتزاع أراضي الموالي وأرزاقهم واستغلال جهودهم دون رحمة، مما دفعهم إلى الانحياز إلى جانب عليّ الذي أدخلهم في صفوف جيشه، إذ كان منهم فيه ثمانية آلاف[5]. وساوى بين الموالي والعرب في العطاء[6]. وكتب إلى عماله يأمرهم بحسن معاملتهم[7].

ولما قامت الدولة الأموية، ساءت أحوال الموالي كثيراً، وخاصة في خلافة عبدالملك بن مروان وإمرة واليهِ الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق والمشرق بسبب قسوة استغلالهم وإرهاقهم بالضرائب وسوء معاملتهم واضطهادهم[8].

أسفر احتلال العراق في عهد معاوية عن قيام أول ثورة للموالي في الكوفة سنة 43هـ في إمرة المغيرة بن شعبة عليها. ويذكر اليعقوبي أن جماعة من الموالي، أميرهم أبو علي من أهل الكوفة وهو مولى لبني الحارث بن كعب، خرجت في الكوفة، وكانت أول خارجة خرجت فيها الموالي[9]، وطالبوا بالمساواة مع إخوانهم

---

(1) تاريخ اليعقوبي ج2 ص134.

(2) ابن سلام: الأموال ص 235.

(3) الطبري: تاريخ الرسل ج3 ص263.

(4) البلاذري: انساب الأشراف. القسم الثاني 4 ص 130.

(5) الطبري: تاريخ الرسل ج4 ص59.

(6) تاريخ اليعقوبي ج2 ص183.

(7) ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري: الامامة والسياسة ج1 ص148.

(8) انظر ص105 وما بعدها، ص119 وما بعدها.

(9) تاريخ اليعقوبي ج2 ص221.

العرب المسلمين. وبعد أن قمع معاوية ثورتهم، أمر بنقل أعدادهم إلى سواحل الشام وانطاكية[1].

واشترك الموالي في انتفاضة المدينة على حكم يزيد وكان عليهم يزيد بن هرمز[2]. ودافعوا عنها ضد جيش الخلافة وأبلوا في ذلك خير بلاء. وقال شاعرهم:

إن في الخندق المكلل بالمجـ ـد لضرباً يسوء ذا النشوات
لست منا وليس خالك منا يا مضيِّع الصلاة للشهوات
يَرْقِع الدُبَّ واحمل القرد وانزل في بلاد الوحوش بالفلوات[3]

ولما علم الموالي بمبايعة أهل الحجاز لعبدالله بن الزبير، سارعوا إلى تأييده، ثم نفروا منه وانصرفوا عنه لسوء تصرفه وشحه. وفي ذلك يقول أحدهم موجهاً خطابه إلى ابن الزبير:

إن الموالي أمست وهي عاتبة على الخليفة تشكو الجوع والحربا[4]

وقال آخر منددأ بسياسة ابن الزبير:

تخبرنا أن سوف تكفيك قبضة وبطنك شبر أو أقل من الشبر
وأنت ما نلت شيئاً قضمته كما قَضَمت نارُ الغضى حطب السدر
فلو كنت تجزى أو تبيت بنعمة قريباً لردتك العطوف على عمرو[5]

وكان عهد عبد الملك بن مروان وإمرة الحجاج على العراق والمشرق أقسى ما عاناه الموالي في العصر الأموي[6]. ويبدو أن الخليفة عبد الملك كان على علم بأن الكوفة معقل الموالي وأحد مراكز المعارضة القوية ضد الحكم الأموي. فلما ولى الحجاج على العراق كتب إليه: (... فإذا قدمت الكوفة فطأها وطأة يتضاءل منها

(1) البلاذري: فتوح البلدان ص 376.
(2) البلاذري: انساب الأشراف. القسم الثاني ج4 ص35.
(3) نفس المصدر والصفحة.
(4) نفس المصدر ص58. المسعودي: مروج الذهب ج3 ص84.
(5) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص85 - وعمرو هو أخو عبدالله بن الزبير. كان الخليفة يزيد قد أمر بإرساله على رأس حملة إلى مكة لحرب أخيه عبدالله. وكان عمرو منحرفاً عن عبدالله. فلما هزم ابن الزبير الحملة وظفر بأخيه عمرو، أقامه للناس بباب المسجد مجرداً، ولم يزل يعذبه بالسياط حتى مات. نفس المصدر والصفحة.
(6) انظر ص 105 وما بعدها، ص119 وما بعدها.

أهل البصرة)[1]. فأصدر الحجاج أوامره بارغام الموالي على دفع الجزية على رقابهم وتأدية ضريبة الخراج عن أرضهم[2]. ولهذا كره الموالي الحجاج كرهاً شديداً لما لاقوه من مهانة واستغلال وظلم إبان حكمه. فقد رفضوا أن يجندوا في الفرق التي أمر بتشكيلها لمحاربة الخوارج، إلا بعد أن أنذرهم وهدد المتخلفين عن الالتحاق بجيش المهلب بالقتل ومصادرة أموالهم[3].

وعندما قامت ثورة عبد الرحمن بن الأشعث على طغيان الحجاج وظلم بني أمية، سارعت فصائل الموالي، من أهل الكوفة والبصرة وغيرهما من الأمصار والقرى، بالانضمام إليها أملاً بالحصول على المساواة مع العرب والاشتراك في ديوان العطاء، مما اسبغ على الثورة طابعاً شعبياً. ويذكر الطبري أن عدد الموالي في جيش ابن الأشعث بلغ مئة ألف عند دير الجماجم[4]. ويعلل فون كريمر مساندة الموالي لابن الأشعث كرد فعل لفرض الجزية عليهم بعد اسلامهم، وأملاً في الحصول على المساواة مع العرب، والتخلص من دفع الجزية، وأخذ نصيبهم من العطاء[5]. ولا شك أن هذا العامل مباشر لسخط الموالي الذي تراكم نتيجة لمظالم الحكام الأمويين واضطهادهم لهم. ومن المستغرب أن (ولهاوزن) لا يوافق كريمر على رأيه هذا، اذ يعتبر مساهمة الموالي مع أسيادهم كتقليد أو عادة لواجبات الموالي[6]. فمتى كانت العلاقة بين السيد والعبد أو بين القوي والضعيف عادة أو تقليداً؟.

وقد عزم الحجاج بعد قمعه لثورة عبد الرحمن بن الأشعث إلى تشتيت تجمع الموالي الكثيف في الكوفة والبصرة وغيرهما تشتيتاً تاماً[7] لإضعاف قوتهم كمصدر خطر على السلطان، على حد تعبير معاوية، أولاً، وإرغامهم على العودة إلى قراهم لتأمين الأيدي العاملة للزراعة وإلزامهم بدفع الجزية والخراج لإعمار خزينة الخليفة

---

(1) تاريخ اليعقوبي ج2 ص273.

(2) أنظر ص 120.

(3) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص42. المسعودي: مروج الذهب ج3 ص135. ابن الأثير: الكامل ج4 ص34.

(4) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص156.

(5) ولهاوزن: تاريخ الدولة العربية ص 235.

(6) نفس المصدر ص347.

(7) لعل اجراء الحجاج في إعادة الموالي إلى قراهم كان على دفعتين: أولاهما قبل ثورة ابن الاشعث ـ وكانت جزئية والأخرى بعد ثورته وكانت شاملة وهي التي أشار إليها المبرد.

بالمال ثانياً. ولكي لا يستطيع أحد منهم، مستقبلاً أن يهجر القرية التي أمره الحجاج بالمقام فيها، فإنه أمر بأن ينقش على يد كل رجل اسم القرية التي يجب عليه ألا يبرحها. يؤيد ذلك ما ذكره المبرد (ونظر الحجاج فإذا جل من خرج مع عبد الرحمن بن الأشعث من الفقهاء وغيرهم من الموالي فأحب أن يزيلهم عن موضع الفصاحة والآداب ويخلطهم بأهل القرى والانباط فقال إنما الموالي علوج وإنما أتي بهم من القرى، فقراهم أولى بهم، فأمر بتسييرهم من الأمصار وإقرار العرب بها، وأمر أن ينقش على يد كل منهم اسم قريته)[1].

ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة ورأى حالة التمزق والوهن الذي تعاني منه الدولة واتساع الهوة بين الجماهير الساخطة والحكومة، اتخذ سلسلة من التدابير التي لم يفرضها ورعه وتقواه، كما يرى البعض، بل أملتها الواقعية السياسية. وكان الغرض منها، كما قلنا، دعم أركان الدولة بتوسيع التأييد الشعبي. فألغى الجزية عن الموالي، وأبطل هدايا النيروز والمهرجان وأجور الضرابين وضرائب النكاح ورسوم العرائض وأجور البيوت[2]. ونهى عماله عن تسخيرهم، وأمر بحسن معاملة الرعية والموالي من ضمنها[3]. وأسقط عن البربر جزية الأبناء[4]. وأبطل الكسور عن أهل

---

(1) المبرد: الكامل ج2 ص286. يتفق نص المبرد مع نص الطبري، على إخراج الموالي وإعادتهم إلى قراهم، وعلى تأييدهم ثورة ابن الأشعث. إلا أنه يختلف عنه من حيث أن اخراجهم في رأي المبرد، كان بعد ثورة ابن الأشعث، بينما في رأي الطبري كان قبل الثورة. وهذا رأي الطبري للاطلاع والمقارنة: (إن عمال الحجاج كتبوا إليه أن الخراج قد انكسر وأن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار. فكتب إلى البصرة وغيرها أن من كان له أصل في قرية، فليخرج إليها، فخرج الناس، فعسكروا فجعلوا يبكون وينادون يا محمداه يا محمداه وجعلوا لا يدرون أين يذهبون فجعل قراء أهل البصرة يخرجون إليهم متقنعين، فيبكون لما يسمعون ويرون. قال فقدم ابن الأشعث على تفيئة ذلك واستبصر قراء أهل البصرة في قتال الحجاج مع ابن الأشعث/الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص182/ وهناك أيضاً نص للجاحظ في كتابه الموالي والعرب ـ مذكور في كتاب العقد الفريد جاء فيه: (... إن الحجاج لما خرج عليه ابن الأشعث وعبدالله بن الجارود ولقي ما لقي من أهل العراق... وعلم أن الموالي هم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم أحب أن يسقط ديوانهم ويفرق جماعتهم حتى لا يتألفوا ويتعاقدوا فأقبل عليهم أي على الموالي وقال: أنتم علوج وعجم. وقراكم أولى بكم. ففرقهم وفض جموعهم كيف أحب، وصيرهم كيف شاء. ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجهه إليها/ ابن عبد ربه. العقد الفريد ط بولاق ج2 ص93.

(2) أنظر ص 93.

(3) أنظر ص 93.

(4) أنظر ص 94.

الخراج[1]. ورسم أن يتساوى جميع الناس في دفع ضريبة الخراج[2]. وكان الغرض من المساواة في تأدية الضرائب بين المسلمين العرب، والمسلمين الموالي، تحسين الأحوال الاجتماعية والاقتصادية لدى الموالي[3]، مما يجعلهم يرضون على الحكومة ويقبلون على تأييدها ودعمها. ولكن هذه الاجراءات لم يكن لها صفة البقاء والاستمرار، فبعد وفاة عمر، عاد خلفاؤه إلى سياسة أسلافهم، وعادت أوضاع الموالي إلى التردي من جديد، مما حملهم على الاشتراك في عدد من الثورات المناوئة للسلطة. فقد انضم كثير من الموالي إلى ثورة الحارث بن سريج 116 ـ 128هـ تحت شعار إلغاء الجزية عن المسلمين الجدد واستلام العطاء كبقية العرب المسلمين[4]. كما اشتركوا في الدعوة العباسية، وكان المولى أبو مسلم الخراساني أحد القادة البارزين للثورة العباسية التي أطاحت بحكم بني أمية ودولتهم عام 132هـ/ 750م.

واشترك الموالي في الحركات التي قادتها الأحزاب السياسية الرئيسة المعارضة لحكم بني أمية فانضموا إلى الخوارج لميولهم الديمقراطية ولأملهم في الحصول على المساواة التي كانوا ينادون بها بين المسلمين، ولأن مبادئهم الاجتماعية كانت تعبر عن أماني الجماهير العاملة في التحرر من الظلم والاضطهاد والاستغلال من قبل الاقطاعيين المحليين والحكام العرب.

فقد حاربوا جنباً إلى جنب مع أنصار أبي مريم الذي ظهر قرب الكوفة عام 659م[5]. ومع أنصار نافع بن الأزرق وعبيد الله الماحوز وقطري بن الفجاءة الذي انفصل عنه أكثر من الشطر وجلهم من الموالي، انضموا إلى عبد ربه، وكان هناك منهم ثمانية آلاف[6]. وإذا ما أضفنا لهذه الأسباب نقمة الموالي على الحجاج وكراهيتهم له لما لاقوه من مهانة واستغلال في أيام حكمه، تبيّن لنا لماذا رفضوا أن يجندوا في الفرق التي دعا الحجاج إلى تشكيلها لمحاربة الخوارج.

---

(1) انظر صفحة 94.
(2) أنظر ص 94.
(3) أنظر ص 94.
(4) ولهاورن: تاريخ الدولة العربية ص 442.
(5) أبو النصر، عمر: الخوارج ص 22.
(6) المبرد: الكامل ج4 ص686.

وانضم الموالي إلى الشيعة أيضاً في مقاومة الحكم الأموي. فالطرفان كانا يعانيان ذات الظلم والاضطهاد من قبل السلطة، ولأن حزب الشيعة كان أقوى أحزاب المعارضة للحكم الأموي، ولتبنيه قضية العدل بمفهومه الاسلامي. فقد انخرطوا في دعوة المختار الثقفي والتفوا حوله، بعد أن وعدهم بالتحرر والمساواة في الحقوق والواجبات مع إخوانهم العرب المسلمين، ولعبوا دوراً حاسماً في قمع الثورة المضادة، وانتخب المختار عشرين ألف رجل، أرسلهم مع ابن الاشتر إلى الموصل لصد الجيش الأموي ومنعه من التقدم لاحتلال العراق، وكان جلهم من موالي الكوفة[1]. وساهم الموالي في العمل التنظيمي السري لحزب الشيعة، كما ساهموا في الدعوة العباسية لما فيها من وعود لنصرة المظلومين والقضاء على مظالم الحكام الأمويين وتحقيق العدالة والمساواة بين العرب وأولئك الذين عانوا طويلاً من الظلم الاجتماعي والتمييز. ويذكر الطبري أن أربعة من أصل اثني عشر نقيباً كانوا من الموالي[2]. وكان المولى أبو مسلم الخراساني، الذي وحد تحت راية العباسيين السوداء مختلف القوميات والطبقات الاجتماعية المستاءة والموالي من ضمنها، أحد القادة البارزين للثورة العباسية التي أطاحت بالدولة الأموية.

ولما رأى الموالي تحولاً في موقف حزب المرجئة من الموالاة للأمويين إلى المعارضة لهم، أقبلوا على اعتناق المذهب فشكلوا القوى الرئيسة للإرجاء في صيغته الجديدة. ويبدو أن المرجئة قد تأثروا بآراء الخوارج والشيعة بالثورة على الظلم والسلطان الجائر، وتبنوا مبادىء القدرية في الحرية الانسانية[3]. وأصبح الارجاء بمفهومه الثوري الجديد ثالث أحزاب المعارضة للحكم الأموي إلى جانب الخوارج والشيعة[4]. فقد اشترك المرجئة في عدد من الثورات المناوئة للسلطة الأموية كثورة عبد الرحمن بن الأشعث[5]، وثورة الحارث بن سريج[6].

---

(1) الدينوري: الأخبار الطوال ص293.
(2) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص317.
(3) د. اسماعيل محمود: الحركات السرية في الاسلام ص37.
(4) نفس المصدر ص38 ـ 39.
(5) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص157 ـ 158، ص 162، 169.
(6) نفس المصدر ص433.

انتفاضة المدينة

ثار أهل المدينة في خلافة يزيد، على مختلف طبقاتهم ونزعاتهم السياسية والاجتماعية والدينية، تعبيراً عن نقمتهم على نظام معاوية الوراثي، وتذمرهم من نقل مركز الخلافة من المدينة إلى دمشق الذي أفقد أغنياءها مصالح جمة كانوا يجنونها يوم صارت عاصمة مركزية للدولة العربية الإسلامية، وعطل نشاطهم الاقتصادي والسياسي، وسد الطريق دون طموحاتهم المتعددة الجوانب، وجعلهم في شبه عزلة عن المسرح السياسي والاجتماعي.

وإذا كانت نقمة أهل المدينة وتذمرهم وغضبهم ظلت كامنة في خلافة معاوية لقوته ودهائه، فإنها ما لبثت أن ظهرت إلى السطح لتتفجر في عهد ولده يزيد الذي فرضه نظامه الوراثي «البدعة» مَلِكاً على العرب والمسلمين. وقد لعبت الخصائص الذاتية لشخصية يزيد، الذي وصف بأنه رجل «ليس له دين، يشرب الخمر ويعزف بالطنابير، وتضرب عنده القيان، ويلعب بالقرود، ويسامر الخُرَّاب والفتيان»[1]، إلى جانب الغضب العارم الذي آثاره قتله للحسين وأهل بيته وأنصاره في كربلاء، لعبت دورها في تسريع عملية الانفجار. والواقع أن الانفجار قد بدأ يحدث فعلاً منذ مصرع الحسين، حين كان تركز في العراق نشاط الخوارج والشيعة المناوىء لحكم بني أمية.

وإذن كان أهل المدينة يأملون من وراء انتفاضاتهم أن يتوصلوا إلى المنصب الذي يحتله يزيد، وتستعيد المدينة ما كان لها من سيادة في عهد الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل، وبالتالي أن يستعيد أشرافها وأغنياؤها مصالحهم الاقتصادية ودورهم السياسي القائد في الدولة.

بدأت انتفاضة المدينة، حين نادى أهلها بخلع يزيد[2]. وكانت أولى خطوات الثوار طردهم عامل الخليفة على المدينة، ووثوبهم على من في المدينة من الأمويين ومواليهم ومن رأى رأيهم من قريش[3]. وكان بنو أمية في المدينة نحواً من ألف رجل، فخرجوا بجماعتهم ونزلوا دار مروان بن الحكم عميدهم، فحاصرهم الثوار[4].

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل ج4 ص368. الأصفهاني: الأغاني ج20 ص106.
(2) نفس المصدر ص 370.
(3) نفس المصدر والصفحة.
(4) نفس المصدر والصفحة.

فكتب مروان إلى يزيد يخبره بما هم فيه من ضيق قائلاً: (إننا قد حصرنا ومنعنا العذِب ورمينا بالحجارة فياغوثاه ياغوثاه)[1]. وعلى الرغم من أن يزيد قد سخر من أمويي المدينة ومواليهم الذين لم يستطيعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار مع أنهم ألف رجل، فإنه قرر أن يوجه جيشاً لنجدتهم على الفور[2].

أرسل يزيد جيشاً من اثني عشر ألفاً من جند الشام بقيادة مسلم بن عقبة المريّ، أخذوا عطاءهم كاملاً، ومعونة مائة دينار لكل جندي، وضعت في يده من ساعته[3]. وكان معظم الجيش من قبائل كلب خلفاء الأمويين[4]. وتذكر الروايات أن الخليفة يزيد قال لمسلم: (ادع القوم ثلاثاً فإن أجابوك وإلا فقاتلهم فإذا ظهرت عليهم فأبحها ثلاثاً، فكل ما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند)[5]. ولما بلغ أهل المدينة إقبال جيش مسلم، شددوا الحصار على رجال بني أمية، ولم يكفوا عنهم إلا بعد أن أعطوا عهد الله وميثاقه على ألا يبغوا غائلة ولا يَدُلّوا على عورة ولا يظاهروا عليهم عدواً، ثم أخرجوهم من المدينة وتوجهوا إلى الشام[6].

لقي مسلم وهو في طريقه إلى المدينة أولئك الأمويين الهاربين عند وادي القرى[7]. فأعطاه عبدالملك بن مروان ـ أحد الهاربين ـ معلومات هامة، ووصف له خطة العمل، أعجب بها مسلم، واتبعها تماماً[8]. ورجع معه بعض المطرودين ومنهم مروان.

نشطت المقاومة الشعبية بالمدينة إلى تحصين ركنها الشمالي المكشوف، وذلك بإقامة أسوار وحفر خنادق[9]. وكان جيش المدينة مؤلفاً من أربعة أقسام. وكان عبدالله بن حنظلة الأنصاري في أعظم تلك الأرباع وفي الوقت نفسه القائد الأعلى وأمير الجماعة كلها[10].

---

(1) المصدر السابق، وذات المكان.
(2) المصدر السابق، وذات المكان.
(3) المصدر السابق ص 371.
(4) ولهاوزن: تاريخ الدولة العربية ص 152 الهامش.
(5) الطبري: تاريخ الرسل ج4 ص 372. ابن الأثير: الكامل ج3 ص311.
(6) نفس المصدر والصفحة.
(7) نفس المصدر ص 373.
(8) نفس المصدر والصفحة. ابن الأثير: الكامل ج3 ص 312.
(9) نفس المصدر ص 374. تاريخ اليعقوبي: ج2 ص 250.
(10) نفس المصدر والصفحة.

عسكر مسلم بجيشه في الحرة[1]، إلى شمال شرقي المدينة عام 63هـ/ 683م. وأعطى الثوار مهلة ثلاثة أيام لالقاء السلاح والعودة إلى الطاعة، ولكن الثوار رفضوا الاستسلام[2]. فلم يلبث أن نشب القتال بين الجانبين. وقاتل الثوار قتالاً شديداً، ولكنهم هزموا في آخر الأمر، ودخل جيش الخلافة المدينة، وقمعت الانتفاضة، وقتل خلق كثير من بني هاشم وقريش والانصار، وأربعة آلاف من سائر الناس[3]. ويعزي وهب بن جرير سبب هزيمة الثوار إلى خيانة بني حارثة الذين أدخلوا من ناحيتهم قسماً من جند الشام إلى المدينة حيث ضرب الثوار من ظهورهم[4]. ويذكر اليعقوبي أن مروان بن الحكم خدع بعض المقاومين، فدخل ومعه مائة فارس، فاتبعه الخيل حتى دخلت المدينة[5]. وإذا صحت رواية أبي مخنف، فإن مسلم بن عقبة أباح مدينة الرسول ثلاثة أيام للجند، ينهبون ما فيها من مال أو سلاح، ويقتلون الناس[6]، فأفزع ذلك مَنْ بها من الصحابة[7]. وأجبر مسلم أهل المدينة على أن يبايعوا على أنهم عبيد يزيد بن معاوية لإذلالهم[8]. ومن تلكأ كان يضرب عنقه[9]. وبذلك نفذ وعده ليزيد بأن يجعل مدينة الرسول أسفلها أعلاها[10].

ثورة ابن الزبير

تابع جيش يزيد، بعد قمعه انتفاضة المدينة، مسيرته إلى مكة، حيث كان عبدالله بن الزبير يقيم فيها ممتنعاً من بيعة يزيد[11]، مستغلاً مقتل الحسين للتشنيع

---

(1) أرض ذات حجارة بركانية سوداء سميت الوقعة باسمها ـ وقعة الحرة.
(2) المصدر نفسه والصفحة.
(3) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص79.
(4) الطبري: تاريخ الرسل ج4 ص381.
(5) تاريخ اليعقوبي ج2 ص250.
(6) الطبري: تاريخ الرسل ج4 ص 377.
(7) نفس المصدر والصفحة. ابن الأثير: الكامل ج3 ص313.
(8) نفس المصدر ص 381 تاريخ اليعقوبي ج2 ص250. المسعودي: مروج الذهب ج3 ص79. البلاذري: انساب القسم الثالث ص 79.
(9) نفس المصدر 378 ـ 379.
(10) تاريخ اليعقوبي ج2 ص 250.
(11) الطبري: تاريخ الرسل ج4 ص 364.

بحكومة بني أمية وللتعريض بيزيد ذاته[1]. وكان يبايع الناس سراً ويظهر أنه عائذ بالبيت علناً[2]. وفي أثناء الحصار الأول لابن الزبير في مكة، مات الخليفة يزيد عام 64هـ/ 683م، فبويع لمعاوية ابنه بالشام بالخلافة ولعبدالله بن الزبير بالحجاز[3].

وعبدالله هذا هو ابن الزبير الثري المعروف، وأحد كبار صحابة النبي[4]، ومن أعضاء الشورى الستة الذين اختارهم عمر بن الخطاب لينتخبوا واحداً من بينهم خليفة من بعده[5]. وهذا ولده عبدالله يظهر الآن في الحجاز داعياً نفسه خليفة، حين رأى حكم الأمويين يهتز في دمشق منذ مقتل الحسين بن عليّ وأهل بيته في كربلاء في العراق. ثم بدا له وكأنما انهارت دولة بني أمية لما مات يزيد ولحقه ابنه معاوية بعد حكم قصير استمر ثلاثة أشهر أو أربعين يوماً[6].

لقد حانت الفرصة لهؤلاء الفتيان من أبناء الصحابة، وفي مقدمتهم الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وأضرابهما، الذين عزلهم معاوية الأول عن المسرح السياسي بإنشائه الخلافة الأموية في بلاد الشام بعيداً عن مكة والمدينة عاصمتي العرب والمسلمين من قبل. حانت الفرصة لهؤلاء الفتيان الطامحين إلى مراكز الحكم، وهم يرون أنفسهم جديرين بذلك بحكم كونهم أبناء الزعامة المكية والمدينية، بل يرون أنفسهم أحق من أبناء أبي سفيان الذي كان حرباً على النبي والاسلام في حين كان آباؤهم من كبار صحابة الرسول[7].

نهض عبدالله ليعيد الخلافة إلى منبتها الأول في الحجاز تؤيده في توجهاته هذه شرائح وفئات اجتماعية وسياسية واسعة في مختلف أقطار الخلافة، مستغلاً الصراع الذي نشب بين القبائل العربية القيسية واليمنية عقب وفاة معاوية الثاني عام 64هـ/ 683م.

وقفت قيس بجانب ابن الزبير، وأعلن زعماؤها في بلاد الشام، الضحاك بن قيس

---

(1) المرجع السابق نفسه.
(2) المرجع السابق نفسه.
(3) المرجع السابق، ص 385.
(4) ابن سعد: الطبقات ج3 ص 105.
(5) نفس المصدر ج3 ص61. الطبري: تاريخ الرسل ج3 ص 193.
(6) نفس المصدر ج5 س 39. الطبري: تاريخ الرسل ج4 ص 386.
(7) د. حسين مروة: النزعات المادية ج1 ص 485.

الفهري في دمشق والنعمان بن بشير في حمص وزفر بن الحارث في قنسرين[1]، وناتل بن قيس في فلسطين مبايعتهم لابن الزبير بالخلافة[2]. وذلك أملاً في التغلب على الكلبيين وانتزاع مواقع القوة من أيديهم، واجتمعت لابن الزبير ولايات الخلافة، باستثناء الأردن وبايعته بالخلافة وولى عليها عمالاً من قبله[3]. حتى أن مروان بن الحكم همَّ أن يشخص إلى ابن الزبير فيبايعه لولا أن ثناه عن ذلك عبيدالله بن زياد[4].

وهكذا فإن جميع المؤشرات والمعطيات كانت تشير إلى أن ابن الزبير سوف يكسب المعركة ويصبح خليفة باجماع الأمة، وتستعيد المدينتان المقدستان سيادتهما في دولة الخلافة. ولكن أياً من هذه التوقعات لم يتحقق للأمور التالية:

أ ـ عدم تمتع ابن الزبير بالحنكة السياسية وبعد النظر بحيث يستطيع أن يستفيد من هذه المواقع والقوى المعارضة لحكم بني أمية أو يحتفظ بها. فقد قال له الحصين بن نمير، قائد جيش الخلافة المحاصر لمكة، يوم أخبر بهلاك يزيد: إن يكُ هذا الرجل قد مات فأنت أحق الناس بهذا الأمر. هلم فلنبايعك ثم اخرج معي إلى الشام فإن هؤلاء الجند الذين معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم فوالله لا يختلف عليك اثنان وتؤمّن الناس وتهدِر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك والتي كانت بيننا وبين أهل الحرّة، يقصد أهل المدينة[5]. فأجابه ابن الزبير: أنا أهدر تلك الدماء. أما والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة[6]. ورد عليه الحصين قائلاً: قبح الله من يعدك بعد هذه داهياً أو أديباً. قد كنت أظن لك رأياً... أدعوك إلى الخلافة وتعدني القتل والهلكة ثم قام فخرج وعاد إلى الشام[7]. وقاتل الخوارج والموالي إلى جانبه

(1) قنسرين: كورة بالشام جنوب حلب قرب العواصم والبعض يدخلها في العواصم فتحها أبو عبيدة بن الجراح عام 17هـ ياقوت الحموي: معجم البلدان ج4 ص403 ـ 404.

(2) انظر ص 136.

(3) انظر ص 136. الطبري: تاريخ الرسل ج4 ص 408.

(4) الطبري: تاريخ الرسل ج4 ص 409.

(5) نفس المصدر، ص 386.

(6) نفس المصدر والصفحة.

(7) نفس المصدر والصفحة. البلاذري: أنساب الأشراف القسم الثاني 4 ص 52، 55.

ودافعوا عن مكة والبيت الحرام وعن ابن الزبير[1]، ثم تركوه بعد ما تبين إليهم أنه يعمل لصالحه[2]. كما أنه خسر قوة المختار وأنصاره للسبب ذاته.

ب - لاستبداده وبطشه وحماقاته وإلحاده: كان يحكم ابن الزبير بالتسلط والبطش. فقد تحامل على بني هاشم تحاملاً شديداً[3]، وأساء جوارهم وحصرهم وأذاهم، وقصد لمحمد بن الحنفية فأظهر شتمه وعيَّبه[4]، وأخذه وجماعة من بني هاشم ليبايعوا له فامتنعوا فحبسهم، وهددهم بالقتل والاحراق بالنار إن لم يبايعوا له خلال أجل حدده لهم[5]. فكتب محمد بن الحنفية إلى المختار الثقفي يستغيث ويستنجد، فوجه المختار بعثاً من جنده أخاف ابن الزبير، مما اضطره إلى التخفيف عنهم[6]. فلما قتل المختار تضعضعوا واحتاجوا[7]. وقتل مصعب، شقيق ابن الزبير وعامله على البصرة، ستة آلاف من جند المختار الثقفي رغم اعطائه الأمان لهم[8]. وأقام أخاه عمرواً للناس بباب المسجد مجرداً، ولم يزل يضربه بالسياط حتى مات[9]. ويذكر البلاذري أن الناس تجلبوا إلى ابن الزبير ليقاتلوا معه اعظاماً للبيت وحرمته، وقدم عليه قوم من الأعراب تقعقع وفاضهم. وقالوا: (قدمنا لنقاتل معاً فأعنا على قتال أعدائك فإذا مع كل امرىء منهم سيف كأنه شفرة قد خرج من غمده فقال يا معشر الأعراب لا قرَّ بكم الله، فوالله أن سلاحكم لرَثّ وإن حديثكم لغث وإنكم لعيال في الجدب وأعداء في الخِصْب فتفرقوا عنه)[10]. وكان معه قوم قدموا مع ابن عُديس من مصر ثم صاروا خوارج ذوي شجاعة وبأس فقاتلوا معه دافعين عن البيت معظمين لحرمته. وكانت لهم نكاية مع جند الخلافة، وجعل

---

(1) البلاذري: انساب الأشراف. القسم الثاني 4 ص 58.
(2) انظر ص 136.
(3) تاريخ اليعقوبي ج2 ص 261.
(4) ابن سعد: الطبقات ج5 ص 101.
(5) نفس المصدر والصفحة. ابن الأثير: الكامل ج3 ص 374.
(6) ابن الأثير: الكامل ج3 ص 374 - 375.
(7) نفس المصدر ص 375.
(8) انظر ص 161.
(9) أنظر ص 181 هامش رقم 5.
(10) البلاذري: انساب الأشراف ج5 ص 360.

ابن الزبير يماكرهم فقالوا والله ما نرى أن نقاتل مع رجل يكفر أسلافنا وما قاتلنا إلا لحرمة هذا البيت وأن نردها شورى فتفرقوا عنه فاختل عسكره[1]. ويروي الواقدي أن العُبَّاد من أصحاب ابن الزبير كانوا يأكلون لحوم البراذين في حصر ابن الزبير، وبيعت الدجاجة بعشرة دراهم ومدّ الذرة بعشرين درهماً، في حين كانت بيوت ابن الزبير مملوءة قمحاً وشعيراً وذرة وتمراً[2]. هذا وكان ابن الزبير بالإضافة إلى تسلطه وبطشه وسوء تصرفه، يعلن إلحاده، واستخفافه بالدين وهو جالس في الكعبة[3].

ولهذا تفرقت عنه القوى الرئيسة في ثورته المناوئة لحكم بني أمية الواحدة تلو الأخرى وتألبت عليه، بعد أن قاتلت في صفه جيش الخلافة فترة من الزمن والتي كان انتصارها مؤكداً لو تهيأت لها قيادة واعية ومخلصة وواقعية تحسن التصرف في زمام الأمور في ظروف الأزمات السياسية والاجتماعية الخطيرة وتحدث تحولاً نوعياً ديمقراطياً تقدمياً في الثورة التي تتزعمها لصالح الجماهير الملتفة حولها والداعمة لها.

أما الأمويون فقد اجتمعوا وحلفاءهم الكلبيين في الجابية[4] على هيئة مؤتمر، واتخذوا جملة من القرارات، سويت بموجبها الخلافات، مؤقتاً بين الزعامة الأموية، فبويع مروان بن الحكم بالخلافة على أن يليها من بعده خالد بن يزيد ثم عمرو بن سعيد بن العاص، وضمنت مصالح امراء بني كلب على أن يكون لهم من الشروط ما كان لهم على معاوية الأول وابنه يزيد ومعاوية الثاني ومنها أن يكون لهم الأمر والنهي، وصدر المجلس، وكل ما كان من حل وعقد فعن رأي منهم ومشورة، وأن يفرض لألفي رجل منهم ألفان ألفان[5].

وهكذا ظهر الأموي الجديد الذي كان القيسيون يخشون ظهوره. فإذا هو مروان بن الحكم الذي أمسك بمقاليد السلطة في دمشق تؤيده ـ عدا القبائل الكلبية ـ، طبقة الأغنياء المسيطرين على الثروات الكبرى والأراضي، إذ كان من ممثلي هذه

---

(1) المصدر السابق، ص 361.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) د. حسين مروة: النزعات المادية ج1 ص 486.
(4) قرية من أعمال دمشق قرب مرج الصفر شمال حوران وبالقرب منها تل الجابية. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج2 ص 91.
(5) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص 95.

الطبقة[1]. وظهر مروان لا منقذاً لحكم بني أمية من الزوال وحسب، بل جاء لينقذ كذلك امتيازات الأغنياء والملاكين وكبار الأمويين وحلفائهم، الطبقة الغنية المحلية وقبائل الكلبيين[2]. فاستعاد دمشق من الضحاك، وانتصر على القيسيين في موقعة مرج راهط[3]. واستوثقت الشام لمروان، واستعاد سيادة بني أمية على مصر[4]، وأرسل حملة لاستعادة الحجاز من ابن الزبير[5]، وحملة أخرى إلى الجزيرة الفراتية لتصفية جيوب المقاومة القيسية وللعبور منها إلى العراق لاسترداده[6]. ولكن مروان هلك بعد حكم قصير لم يدم أكثر من عشرة أشهر، حيث مات مخنوقاً أو مسموماً[7]. وكان مروان، قبل موته، قد نقض اتفاق الجابية، فعهد بالخلافة إلى ولديه: عبدالملك أولاً وعبد العزيز من بعده[8].

تولى عبد الملك الخلافة بعد موت والده مروان، عام 65هـ/ 685م، وبعد أن وطد حكمه في بلاد الشام، وأخضع الجزيرة الفراتية والعراق للسيادة الأموية[9]، وجه حملة من الكوفة بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي للقضاء على ثورة ابن الزبير في الحجاز[10]. فسار الحجاج سنة 72هـ حتى نزل الطائف[11]. ومن هناك شرع يبعث البعوث لمناوشة ابن الزبير في سهل عرفة[12]. ثم استأذن عبدالملك في قتاله بمكة فأذن له وأمده[13]. وسار الحجاج من الطائف حتى دخل مكة ورماها والكعبة، حيث

(1) د. حسين مروة: النزعات المادية ج1 ص 486.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) انظر ص 139.
(4) انظر ص 139.
(5) انظر ص 139.
(6) انظر ص 139.
(7) المسعودي: مروج الذهب. ج3 ص98. الطبري: تاريخ الرسل ج4 ص475. الدينوري: الأخبار الطوال ص 285. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ج2 ص 257. ابن الأثير: الكامل ج3 ص 348.
(8) انظر ص 140.
(9) انظر ص 142 ـ 143.
(10) انظر ص 143.
(11) انظر ص 143.
(12) الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص20. انظر ص 98.
(13) انظر ص 144.

كان يلوذ بها ابن الزبير، بالمنجنيق[1]. وأخذ أصحاب ابن الزبير يتفرقون عنه شيئاً فشيئاً[2]، نتيجة لسوء تصرفه وتسلطه وحماقاته وإلحاده كما تقدم. وأخيراً ألقوا السلاح وخرجوا إلى الحجاج يطلبون الأمان[3]. ودخل ابن الزبير إلى أمه فودعها، وخرج من عندها فقاتل حتى قتل سنة 73هـ. ثم دخل الحجاج مكة فبايع من فيها من قريش لعبد الملك[4]، وقضى على ثورة ابن الزبير التي شغلت الدولة مدة تسع سنوات[5].

انتفاضات آسيا الوسطى

مد العرب فتوحاتهم، في أوائل القرن الثامن الميلادي، إلى ما وراء النهر الواقع شمال حدود خراسان المعروف بجيحون (أموداريا) أي إلى البلاد التي سموها ما وراء النهر.

وكان يسكن هذه البلاد خليط من الأقوام الآسيوية أغلبهم من الفرس[6]. وفي القرن السادس الميلادي، تعرضت المنطقة لغزو الترك ومن ثم الإقامة فيها مستفيدين من انشغال الدولة الساسانية بحروبها مع بيزنطة[7].

وقد نشأت في بلاد ما وراء النهر، قبل الفتح العربي، ممالك مستقلة متناحرة أهمها: طخارستان[8]. (باكترا عند الاغريق)، ومملكة الخُتَل أو (خَتْلان)[9]، ومملكة

---

(1) انظر ص 144.
(2) الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص30.
(3) انظر ص 144.
(4) الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص 34.
(5) انظر ص 144.
(6) د. عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية ـ عصر الخلفاء الأمويين ص 209.
(7) المصدر ذاته ص 215، 216.
(8) بلاد واسعة على صفتي نهر جيحون. قاعدتها بلخ وتنقسم إلى طخارستان العليا والسفلى/ ياقوت الحموي: معجم البلدان. طبعة دار صادر 1376هـ/ 1957م ج4 ص23.
(9) أول بلاد ما وراء النهر خلف جيحون على تخوم السند ـ قصبتها هلبك ـ المصدر ذاته ج2 ص 346.
د. عبد المنعم ماجد: المصدر ذاته ص 210.

صغانيان[1]، ومملكة الصغد[2] ومملكة خُوارِزم[3]، ومملكة فرغانه[4]، ومملكة آشروسنه[5]، ومملكة الشاش[6]. وكان الانقسام بين الأمراء الأتراك عاملاً مساعداً لنجاح الفتح العربي لهذه المنطقة الذي تم في أوائل القرن الثامن الميلادي.

بدأ العرب يمهدون لفتح بلاد ما وراء النهر منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان، وذلك بارسال السرايا والبعوث[7] وفي إمارة الحجاج على العراق والمشرق 75 ـ 95هـ غزاها عماله. وكان المهلب بن أبي صفرة، عامل خراسان، قد غزاها عدة مرات وجنى من حملاته فيها غنائم هائلة. يؤيد ذلك قول الشاعر:

ألا ذهب الغزو المقرب للغنى ومات الندى والجود بعد المهلب[8]

ولكن سياسة فتح بلاد ما وراء النهر لم تنظم وتنفذ إلا في خلافة الوليد بن عبد الملك 86 ـ 96هـ/ 702 ـ 714م[9].

استولى الملاك العرب ووجهاء القبائل على القسم الأكبر من أفضل الأراضي ومشاريع الري والمراعي في ما وراء القفقاص وآسيا الوسطى، وحولوا السكان المحليين إلى أقنان (عبيد الأرض) وفرضوا عليهم خراج الأرض الثقيل. أما الذين لم يدخلوا الاسلام فقد أجبروهم على دفع الجزية. وقام القادة العسكريون العرب وجباة الأتاوات بأعمال التعسف والاستهتار تجاه الشعب ودمروه[10]. وقد وصف أحد

(1) ولاية عظيمة من ما وراء النهر تجري إليها عدة فروع من نهر جيحون وافرة العمارة كثيرة الخيرات. أهم مدنها شومان. المصدر ذاته ج3 ص 409.

(2) احدى مناطق وسط ما وراء النهر، بلاد عريضة وافرة الثروة عُدَّت من جنات الدنيا الأربع قصبتها سمرقند. المصدر ذاته ج3 ص 410.

(3) بلاد عامرة تقع في دلتا النهر. قاعدتها كركانج. أغلب سكان الاقليم من الفرس وفيها أقوام من الترك. المصدر ذاته ج2 ص 395 ـ 397.

(4) اقليم جبلي يقع في أعالي سيحون متاخم لتركستان قصبتها اخسيكت يسيطر عليها الترك وكان ملوكها يتلقبون بالأخشيد ومقرهم (ماكاشان) ماجد: المصدر ذاته ص 213.

(5) بين سيحون وسمرقند إلى الغرب من فرغانه، يغلب عليها الطبيعة الجبلية غزاهاالترك. مقر ولايتها (بنجيكت)/ ياقوت: المصدر ذاته ج1 ص 197.

(6) تقع وراء سيحون إلى الشمال من أشروسنة. اقليم سهلي متاخم لبلاد الترك. قصبتها (بنكث)/ ياقوت. المصدر ذاته ج3 ص308 ـ 310.

(7) تاريخ اليعقوبي ج2 ص 236 ـ 337.

(8) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 254. ابن الأثير: الكامل ج4 ص 128.

(9) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 214 وما بعدها.

(10) فيدوسوف بيفانوف: تاريخ الاتحاد السوفيتي ص 99.

الشعراء العرب أعمال النهب وتحويل الأحرار إلى عبيد، والفواجع التي ألحقها الفاتحون بشعوب بلاد ما وراء النهر بقصيدة منها الأبيات التالية:

كل يوم يحوي قتيبة نهباً ويزيد الأموال مالاً جديداً
باهلي قد ألبس التاج حتى شاب منه مفارق كن سودا
دوّخ السغد بالكتائب حتى ترك السغد بالعراء قعودا
فوليد يبكي لفقد أبيه وأب موجع يبكي الوليدا
كلما حل بلدة أو أتاها تركت خيله بها أخدودا[1]

وحاول الفاتحون العرب أن يجدوا سنداً لهم بين الوجهاء المحليين فوهبوهم قطع الأرض مع الفلاحين التابعين لها. وهكذا أصبح الفلاحون وفقراء المدن تحت نير مزدوج، اضطهاد الاقطاعيين المحليين، والفاتحين العرب[2].

لقد قوبل غزو العرب لبلاد ما وراء النهر بمقاومة عنيدة من قبل الأهالي كانت تضطر الفاتحين إلى إعادة فتح مناطق الإقليم المرة تلو الأخرى[3]. ويبدو واضحاً من أخبار المؤرخين أن السياسة المالية التي اتبعها حكام بني أمية كانت العامل الرئيسي في حدوث التذمر الذي تراكم وتفاقم حتى تحول إلى انتفاضات مسلحة كادت تقضي على سلطة العرب في تلك البلاد.

وكسبيل للتخفيف عن بعض ما يعانيه بسطاء الناس من وطأة الضرائب، لجأ سكان بلاد ما وراء النهر إلى الدخول في الإسلام. ولكن الحكام الأمويين، باستثناء عمر بن عبد العزيز، لم يرفعوا عنهم الجزية رغم اسلامهم، بل أضافوا إليها ضرائب جديدة. وقد استغل ملوك الترك، وعلى رأسهم (الخاقان الأعظم) الاستياء المتعاظم في صفوف الطبقات السفلى لاستعادة نفوذهم وامتيازاتهم، فحاربوا السلطة حروباً طويلة مرهقة.

ففي خلافة هشام بن عبدالملك 105 ـ 112هـ/ 724 ـ 743م، ساءت حالة الموالي في بلاد ما وراء النهر بسبب سوء معاملة الولاة لهم. فكتب أشرس، حاكم خراسان، سنة 110هـ/ 728م، إلى عماله أن يستمروا في أخذ الخراج ممن أسلم لأن

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 255. البلاذري: فتوح البلدان ص 421. ابن الأثير: الكامل ج5 ص128.

(2) بيفانوف: المصدر السابق، ص 99.

(3) ابن الأثير: الكامل ج4 ص 118، 127.

فيه قوة للمسلمين، وفرض الجزية، وعزل العمال الذي لم يوافقوه، مما حمل أهالي الاقليم إلى الثورة والارتداد عن الإسلام[1].

وفي أثناء انتفاضات الأهالي في بلاد ما وراء النهر، وقفت جماعات من العرب المرجئة إلى جانب المنتفضين تؤيد حقهم على السلطة الأموية في إسقاط الجزية ورفع المظالم وتطبيق العدالة الاجتماعية[2].

تزعم الثورة، في فترات محدودة، الحارث بن سريج، وانضوت تحت رايته السوداء جموع الفلاحين المعدمين وكادحو المدن وصغار الملاك، الذين كان يضطهدهم أمراء الولايات وعمال الخراج[3]، والمرجئة إذ كان الحارث بن سريج أحد زعمائها[4] وعدد من الأمراء الأتراك[5].

تغلب الثوار على بلاد ما وراء النهر، وخضعت لهم طخارستان كلها، وقسم كبير من ولاية خراسان[6] وتقدم الثوار بقيادة ابن سريج إلى مرو في جيش جرار بلغ ستين ألفاً[7]. وكاد الثوار يقضون على السيادة العربية في تلك البلاد. وأمام هذا الخطر المُحدِق، ثبت جيش الخلافة أمام الثوار، خاصة بعد تولية أسد بن عبدالله القسري أميراً على خراسان ووصوله إليها في جند لم تنهك قواهم الحرب، فهزمهم وأرغمهم على التراجع إلى بلاد ما وراء النهر سنة 118هـ[8]. وقاتل الحارث مع أهالي الإقليم، واستمر يقاتل السلطة الأموية إلى أن قتل في سنة 128هـ/ 745م[9].

وإذا كانت انتفاضة شعوب آسيا الوسطى قد انتهت إلى الفشل، إلا أنها أسفرت عن بعض النتائج الايجابية. فقد اضطرت الحكومة الأموية إلى التنازل عن بعض إجراءاتها المالية الجائرة، فأسقطت الجزية عن المسلمين الجدد بالكلية وأصبحت لا تؤخذ إلا من غير المسلمين، واتبعت سياسة أكثر ليناً واعتدالاً[10].

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 397 - 398 - 399. ابن الأثير: الكامل ج4 ص 202.
(2) انظر ص 140.
(3) انظر ص 190.
(4) الطبري: المصدر ذاته ج5 ص 433.
(5) ولهاوزن: الدولة العربية وسقوطها ص 369.
(6) انظر ص 191.
(7) الطبري: المصدر ذاته ج5 ص 429.
(8) المصدر ذاته ج5 ص 436 - 439.
(9) ابن الأثير: الكامل ج4 ص 294.
(10) انظر ص 192.

وعندما اندلعت الثورة العباسية في واحة مرو بخراسان عام 129هـ بقيادة أبي مسلم الخراساني وقف أهالي بلاد ما وراء النهر إلى جانب الثورة، وتوافوا من بلاد الصغانيان وطخارستان وختلان وكَشّ ونسف مسوّدي الثياب[1].

ثورة ابن الأشعث

في مطلع القرن الثامن الميلادي، اهتز عرش بني أمية من جديد وأوشك حكم الحجاج العرفي الدموي على السقوط نتيجة الثورة الشعبية التي اندلعت في سجستان والكوفة والبصرة وانضمت إليها جماهير الجنود والموالي والقراء والعلماء بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث.

عين الحجاج بن يوسف الثقفي عبد الرحمن بن الأشعث أميراً على سجستان[2]. (أفغانستان اليوم). وشد أزره بجيش كبير كامل الأعطيات، تام الأهبة والعدة[3]. وانتخب عناصره من أهل الكوفة والبصرة[4]. ولذلك سمي هذا الجيش «(جيش الطواويس)»[5]. وذلك لإخضاع ملكها الذي أبى أن يدفع الأتاوه (الجزية)[6].

اتبع عبد الرحمن في قتال ملك سجستان طريقة هي أشبه بحرب حقيقية منها بالغارات المتفرقة، فكان لا يفتح حصناً ولا يجاوز عمراناً إلا خلّف فيه قائداً[7]. ونظم المراسلات بالبريد بين البلاد[8]. وبعد أن حاز أرضاً عظيمة من بلاد سجستان وامتلأت يده بالغنائم، حبس الناس عن الوغول في البلاد حتى يتعود جنوده على طبيعة الجبال، بما فيها من شعاب وعقاب[9]. وكتب إلى الحجاج يخبره بذلك، ولكن

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج4، انظر ص 206.
(2) تاريخ اليعقوبي ج2 ص 277 ـ الطبري: تاريخ الرسل. ج5 ص 141.
(3) الطبري: تاريخ الرسل. ج5 ص141.
(4) نفس المصدر ج5 ص140.
(5) المسعودي: التنبيه والاشراف ص 314. العيون والحدائق وأخبار الحقائق ص 320 الطبري: المصدر ذاته ج5 ص142
(6) الطبري: تاريخ الرسل، ج5 ص136.
(7) الطبري: المصدر ذاته، ص141.
(8) نفس المصدر ص 141 ـ 142.
(9) نفس المصدر ص 142.

الحجاج أرسل إليه يتهمه بالضعف والجبن ومحبة المهادنة والموادعة[1]. وحثه على التوغل في بلاد العدو، وهدده إن لم يفعل أن يترك القيادة لأخيه اسحق بن محمد بن الأشعث[2]. فأغضب ذلك عبد الرحمن وجمع رؤساء الجند وأخبرهم بأن الحجاج يأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو، وهي البلاد التي هلك إخوانكم فيها بالأمس[3]. وكان أهل العراق في (جيش الطواويس) يبغضون الحجاج لظلمه وقسوته، وكرهت نفوس الجند ما يتوقعونه من حرب طويلة شاقة في بلاد نائية، غنمها للحجاج وأسياده وغرمها على أبناء الشعب ومنهم الجنود المقاتلون. يؤيد ذلك ما قاله أحدهم: (إن الحجاج والله لا يبالي أن يخاطر بكم فيقحمكم بلاداً كثيرة اللهوب واللصوب والعقاب والشعاب، فإن ظفرتم فغنمتم أكل البلاد وحاز المال وكان ذلك زيادة في سلطانه، وإن ظفر عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذين لا يبالي عنتهم ولا يبقى عليهم)[4]. وتمرد (جيش الطواويس)، وتحت تحريضهم، خلع ابن الأشعث الحجاج وبايعه الجند على قتاله حتى يخرج من العراق[5].

ارتد (جيش الطواويس) عن سجستان ثائراً وخالعاً الحجاج ومجمعاً على انهاء ظلمه وحكمه التعسفي وطرده من العراق. وكان ابن الأشعث، قبل أن يسير إلى العراق، قد وادع ملك سجستان وعقد معه معاهدة سلام، وعين خلفاء له في بُسْت وزَرَنْج حاضرتيْ سجستان[6]. ثم تحرك بالجيش في سنة 81هـ/ 700م، وانضم إليه في طريقه جند من الكوفة والبصرة كانوا في حاميات الأمصار[7]. وفي فارس، خلع الثوار الخليفة عبد الملك نفسه[8]. وأقبل جيشهم (مثل السيل المنحدر من عل ليس شيء يرده حتى ينتهي إلى قراره) على حد تعبير المهلّب بن أبي صفرة والي خراسان آنذاك[9]. ودخلوا الأهواز[10].

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل، ج5، ص 142 ـ 146.
(2) نفس المصدر ص 146.
(3) نفس المصدر والصفحة.
(4) نفس المصدر ص 146 ـ 147.
(5) نفس المصدر 147.
(6) نفس المصدر والصفحة.
(7) نفس المصدر ص 149.
(8) نفس المصدر ص 157.
(9) نفس المصدر ص 149.
(10) المسعودي: التنبيه والاشراف ص 314.

كتب الحجاج إلى عبد الملك يعلمه بخبر ثورة ابن الأشعث ويستمده، وسار لقتال الثوار. ووقع أول صدام بين الطرفين عند نهر دجيل عام 81هـ/ 701م، انتصر الثوار على مقدمة جيش الحجاج[1]. وفر المهزومون إلى البصرة واتبعهم الثوار ودخلوا المدينة فاستقبلهم سكانها بترحاب وابتهاج، وبايعه جميع أهلها ـ ومنهم الموالي ـ على حرب الحجاج وخلع عبد الملك[2]. ويعلل ابن الأثير السبب في سرعة استجابتهم إلى بيعته (أن عمال الخراج كتبوا إليه أن الخراج قد انكسر وأن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار، فكتب إلى البصرة وغيرها أن من كان له أصل من قرية فليخرج إليها، فأخرج الناس لتؤخذ منهم الجزية فجعلوا يبكون وينادون يا محمداه يا محمداه، ولا يدرون أين يذهبون، وجعل قراء البصرة يبكون لما يَرَوْنَ، فلما قدم ابن الأشعث عقيب ذلك بايعوه، أي بايعه الموالي لثقل وطأة الحجاج عليهم، على حرب الحجاج وخلع عبد الملك[3].

نزل الحجاج ـ بعد أن أخلى البصرة من جنده ـ الزاوية إحدى ضواحيها وخندق بها ووقع فيها قتال شديد عام 82هـ/ 701م انتصر فيه الثوار انتصاراً غير حاسم[4]. وسار ابن الأشعث إلى الكوفة التي كانت المركز الحقيقي للثورة، وفيها التقت جيوش الحاميات العراقية آتية من جميع نواحي الأمصار[5].

وكان أهل الكوفة قد وثبوا بعامل الحجاج، وحرق الناس الديوان سنة 82هـ/ 701م[6] وخرج أهلها يستقبلون ابن الأشعث حين أقبل[7]. فلما دخلها مال إليه أهلها كلهم[8].

وكان الحجاج، بعد انسحاب ابن الأشعث من معركة الزاوية، قد هزم أهل العراق في الخريبة هزيمة حاسمة وقتل من أهل البصرة أحد عشر ألف رجل بعد أن

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 149 ـ 150.
(2) ابن الأثير: الكامل ج4 ص 79.
(3) ابن الأثير: الكامل ج4 ص 79. الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 182.
(4) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 151.
(5) نفس المصدر ص 155.
(6) البلاذري: فتوح البلدان ص 273.
(7) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 155.
(8) نفس المصدر والصفحة.

خدعهم بالأمان[1]. ثم سار لقتال ابن الأشعث، بعد أن جاءته أمداده من قبل عبد الملك، وعسكر في دير قرة عند الكوفة[2]. ولكن ابن الأشعث على الرغم من هذه النكسة، استطاع أن يجمع جيشاً كبيراً من أهل الكوفة وأهل البصرة والثغور والمسالح بلغ عدده في دير الجماجم مئتي ألف رجل، بينهم مئة ألف من الموالي[3]. وانضم إلى صفوف الثوار جماعة من قراء العراق من المصرين منهم: الحسن البصري، وعامر الشعبي، وسعيد بن جبير وابراهيم النخعي[4]. وخرجت المرجئة مع ابن الأشعث[5]. وانضم إليه العباد المسيحيون[6]. كما اشترك في ثورته الأساورة والزط[7]. اجتمع هؤلاء كلهم، عرباً وموالياً وذميين، على حرب الحجاج وجمعهم عليه بغضهم وكراهيتهم له[8].

خندق الثوار في دير الجماجم، وخندق الحجاج في عسكره أمامهم في دير قرة، وظل الطرفان يقتتلان شهوراً كثيرة دون الوصول إلى نتيجة حاسمة، ثم اشتد القتال وقلق عبد الملك، فحاول انهاء الحرب بتقديم ترضيات للعنصر العربي دون الموالي، فعرض على أهل العراق خلع الحجاج، وأن تجري عليهم أعطياتهم كما تجري على أهل الشام، وأن ينزل ابن الأشعث أي بلد من العراق شاء يكون عليه والياً ما دام حياً[9].

ولما كان عرض الخليفة على أهل العراق لم ينص على وضع حد لمظالم الحكام الأمويين وإلغاء التدابير التعسفية التي اتخذها الحجاج إزاء الوالي بخاصة، ومساواة هؤلاء مع اخوانهم العرب المسلمين في الحقوق والواجبات، فقد رفضه الثوار، وأبى الموالي، - وهم القوة المحركة الرئيسة في ثورة ابن الأشعث - أبوا الا

---

(1) الكبري: تاريخ الرسل، ج5، ص182.
(2) نفس المصدر ص 156.
(3) نفس المصدر ص 155 - 156.
(4) تاريخ اليعقوبي ج2 ص 278.
(5) أبو سعيد، نشوان بن سعيد الحميري: الحور العين ص 204.
(6) الدينوري: الأخبار الطوال ص317.
(7) البلاذري: فتوح البلدان ص 374.
(8) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 155 - 156.
(9) نفس المصدر ص 156.

خلع الخليفة نفسه[1]. وكان عبد الملك قد سحب جنده من الحدود مع الروم وبعث بامدادات ضخمة من جند الشام إلى الحجاج[2]. فهزم الثوار في موقعة دير الجماجم خارج الكوفة عام 82هـ/ 701م، على الرغم من ضراوة المقاومة التي أبدوها[3]. وأثخن الحجاج بالثوار قتلاً، وأرغم الأسرى أن يشهدوا أنهم بثورتهم قد كفروا[4]. ففعل الكثير منهم خوفاً وتقية ومن أبى أمر الحجاج يضرب عنقه[5].

ولكن الكثير من أهل العراق الذين تشتتوا في الكوفة تجمعوا في مواضع أخرى فقاتلهم الحجاج في مسكن على نهر دجيل، وكان القتال مستميتاً ودام مدة طويلة وانحسم آخر الأمر لصالح جيش الخلافة[6]. وتقهقر ابن الأشعث نحو المشرق. وحدث انشقاق في صفوف جيشه، ولجأ قائد الثورة أخيراً إلى ملك سجستان[7]. وقيل إنه مات بالسل، فلما أرادوا دفنه احتز ملك سجستان رأسه وبعث به إلى الحجاج[8]. وقيل إن ملك سجستان غدر به وسلمه فانتحر واحتز رأسه وأرسل إلى الحجاج ومنه إلى عبد الملك[9].

كانت ثورة ابن الأشعث تعبيراً عن سخط الجماهير الشعبية ونقمتها على مظالم الحكام الأمويين وتعسفهم وامتهانهم لكرامات الناس. وقد بدأت الحركة بتمرد (جيش الطواويس) رافعة شعار خلع الحجاج لجوره وطغيانه، ثم تطورت، بعد أن اتسع طابعها الشعبي وتعمق، إلى خلع الخليفة نفسه، الذي كان يتربع على قمة الحكم الأوتوقراطي شبه الملكي، وإعادة الأمر شورى إلى الجماعة الإسلامية، أو بمعنى آخر إعادة الحقوق الأساسية للأمة ومنها حقها في انتخاب الخليفة وسيادتها عليه. ولهذا كانت الثورة شعبية وذات مضمون سياسي ـ اجتماعي. ويتجلى الطابع الشعبي للثورة باشتراك اعداد كبيرة من الجنود والموالي من أهل الكوفة والبصرة وجماعات من

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل، ج5، ص 157.
(2) ولهاوزن: تاريخ الدولة العربية ص 229.
(3) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 164.
(4) نفس المصدر، ص 169.
(5) نفس المصدر والصفحة.
(6) نفس المصدر ص 171 ـ 183.
(7) نفس المصدر ص 173.
(8) نفس المصدر ص 188 ـ 189.
(9) نفس المصدر ص 189 ـ 190.

الشيعة والمرجئة والقراء والعلماء والأساورة والزط وطائفة العباد المسيحيين، وعدد من الأشراف والأغنياء ممن أغضبهم الحجاج لسوء معاملتهم لهم وتعسفه ولمحاولته انقاص عيار العملة[1]. اجتمع هؤلاء كلهم، على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية وقومياتهم وايديولوجياتهم ومذاهبهم الدينية، في مناوأة الحكم الأموي.

وكان الموالي ـ ضحايا الاستغلال المالي ـ وجماهير الجنود العرب ـ ضحايا حروب التوسع ـ كانوا القوة المحركة الرئيسة للثورة. ويتجلى المضمون السياسي ـ الاجتماعي للثورة في اصرار الثوار على انهاء الحكم الاستبدادي، أو حكم الجبابرة كما كان يسمى في ذلك العصر[2]، وإقامة حكم شورى وتحقيق المساواة السياسية والاجتماعية فعلاً بين جميع أفراد الرعية بصرف النظر عن اختلاف قومياتهم أو عناصرهم أو طبقاتهم الاجتماعية ومذاهبهم الدينية.

إذاً لم تكن ثورة ابن الأشعث مجرد صراع بين أهل العراق وأهل الشام، أو بين الموالي والعرب كما يرى ولهاوزن، وكذا لا يمكن اعتبارها نتيجة طموح شخصي ليس إلا.

صحيح أن جند العراق كانوا يطالبون بمساواتهم في العطاء مع إخوانهم جند الشام. ومطلبهم هذا عادل وواقعي، ولكنه يظل جزءاً من القضية الأهم التي يعاني منها بسطاء الناس، عرباً وموالياً وذميين وأقليات، من نظام الاستغلال والتمييز والاضطهاد الذي كان يمارسه الحكام (الجبابرة) الأمويون على امتداد رقعة الخلافة. وكما ثار أهل العراق على الظلم والتمييز، تمرد اخوانهم في الشام أيضاً على نظام الاستغلال والتمييز. وليس أدل على ذلك من ثورة القبائل القيسية وانتفاضة العبيد بدمشق في عهد عبد الملك بن مروان إياه.

هذا ولم يكن الموالي وحدهم يتعرضون لمظالم الحكام (الجبابرة) وإنما كان يشاركهم في معاناة محن الظلم والتمييز بسطاء العرب ومستضعفيهم. يؤيد ذلك اشتراك الموالي وجماهير الجنود العرب في الثورة والقتال جنباً إلى جنب ضد حكم (الجبابرة) الجائر.

---

(1) د. صالح أحمد العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري ص 189.

(2) الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص 252.

وإذا كان لعبد الرحمن بن الأشعث، قائد الثورة، أطماعه الخاصة فلا يعني ذلك اعتبار الثورة نتيجة طموح شخصي ليس إلا. يؤيد ذلك أن عبد الملك، عندما قدم عروضه إلى الثوار، حاول ابن الأشعث اقناعهم بقبولها، ولكنهم أبوا إلا خلع الخليفة[1]. وكان اجتماعهم على خلع الخليفة في دير الجماجم أجمع من خلعهم إياه بفارس[2]. مما يؤكد الطابع الشعبي للثورة.

وكان جل الثوار من الموالي والقراء. وذكر أبو مختف أن عدد الموالي في معسكر دير الجماجم بلغ مئة ألف[3]. وكان الموالي أكثر فئات الثوار نقمة على الحكام (الجبابرة) نتيجة لشدة الاستغلال وفظاعة التمييز وعنف الاضطهاد الذي منه يعانون.

ولعل الثوار كانوا يرمون من وراء اصرارهم على خلع الخليفة، إلى إعادة الأمر شورى للأمة وإقامة حكم ترضى عنه الأكثرية، يعمل على إزالة المظالم وإبطال التمييز ومنع ممارسات القمع والاضطهاد وتحقيق المساواة السياسية والاجتماعية بين جميع الناس. وهذا ما أشار إليه الحجاج لممثلي عبد الملك بقوله: (إن المستهدف من الثورة هو حكم بني أمية)[4]. ثم أضاف قائلاً، (إنما أقاتل من أجل بني أمية وإنما سلطاني سلطانهم)[5].

وبعد انهزام الثوّار في (دير الجماجم) شرع الحجاج في الانتقام منهم، وأصرّ على أن يعلن الثوار المنهزمون كفرهم[6]. وصمم أن يطرد الموالي من الكوفة والبصرة ويشتتهم تشتيتاً لا يجتمع لهم بعده شمل، حتى لا يستطيعوا أن يتجمعوا من جديد فيكونوا معارضة موحدة قوية وخطرة على السلطة ونظامها الاجتماعي. ويذكر المبرد

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 157.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) نفس المصدر ص 156.
(4) نفس المصدر ص 157.
(5) نفس المصدر والصفحة.
(6) كان الحكام الأمويون يزعمون بأنهم يحكمون باسم الحق الالهي أي باسم قضاء الله وقدره. وهذا يعني بأن أي تمرد على حكمهم هو، بزعمهم، تمرد على الله، وبالتالي فهو كفر. وهدف الحكام الأمويون من وراء ذلك تخويف جماهير المظلومين والمستغلين والمستضعفين وتيئيسهم ودفعهم إلى الاستسلام والخنوع.

(ونظر الحجاج فإذا جل من خرج مع عبد الرحمن بن الأشعث من الفقهاء وغيرهم من الموالي، فأحب أن يزيلهم من موضع الفصاحة والآداب ويخلطهم بأهل القرى والأنباط فقال: إنما الموالي علوج، وإنما أُتي بهم من القرى، فقراهم أولى بهم، فأمر بتسييرهم من الأمصار وإقرار العرب بها، وأمر أن ينقش على يد كل إنسان منهم اسم قريته[1]. ولجأ أيضاً إلى بناء مدينة واسط، بين الكوفة والبصرة، لتكون معسكراً لجند الشام لحماية السلطة ونظامها الاجتماعي وقمع الانتفاضات الشعبية، وحصناً يحتمي فيه الحاكم الجبار الجائر من غضبة الجماهير.

ثورة الحارث بن سريج

دفعت الأوضاع المزرية والانتهاكات الفظة لأبسط الحقوق في ولاية خراسان الحارث بن سريج، أحد زعماء المرجئة، لقيادة ثورة شعبية عام 116هـ/ 734م أيام خلافة هشام بن عبد الملك، لتخليص المظلومين والمضطهدين.

لقد ساءت أحوال جماهير العامة من الناس، في عهد هشام، نتيجة لرفع الضرائب. ويعود سبب تردي أحوال الجماهير وزيادة الضرائب عليهم إلى عدم رغبة الأريستقراطية الأموية ـ وقد أصبح عدد منهم من كبار الملاكين العقاريين ـ في التنازل عن أي من الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها، أو في التخلي عن مخصصاتهم الكبيرة التي كانت تصيبهم من بيت المال[2]. ولذا كانوا يعارضون بشدة الاجراءات التي اتخذها عمر بن عبد العزيز للمساواة بين الموالي والمسلمين العرب. وكان هشام وواليه، على العراق والمشرق، خالد بن عبدالله القسري من كبار الملاكين، وكانا يتزاحمان في اقتناء الأراضي وطرق استغلالها[3]. ويلجآن إلى احتكار المواد الغذائية ويتنافسان على السوق لجني أقصى ما يمكن من الأرباح على حساب البسطاء والمستضعفين الذين كانوا يعانون من وطأة الضرائب والغلاء وقسوة الاستغلال الطبقي. ويذكر الطبري أن هشاماً عزل خالداً وكان سبب ذلك أنه اعتقد بالعراق أموالاً وحفر أنهاراً حتى بلغت غلته عشرين مليون درهم، منها نهر خالد وكان يغل

---

(1) المبرد: الكامل ج2 ص 286.

(2) ي. أ. بلياييف: العرب والاسلام والخلافة العربية ص 248.

(3) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 468.

خمسة ملايين درهم، وباجَوّى وبارُمّانا والمبارك والجامع وكورة سابور والصّلح[1].
وخطب خالد يوماً قائلاً: (إنكم تزعمون أني أغلي أسعاركم فعلى من يغليها لعنة الله). وكان هشام كتب إلى خالد (لا تبيعن من الغلاّت شيئاً حتى تباع غلات أمير المؤمنين حتى بلغت كيلجة درهماً)[2].

وفي ولاية خراسان تعاظمت نقمة الموالي على السلطة، وكان الولاة الذين عينتهم حكومة الأمويين قد عادوا إلى أخذ الجزية من المسلمين الجدد، وأفقدوا هذه الحكومة في خراسان، بسوء معاملتهم، كل ثقة عند الصديق وعند العدو، وكانت سياستهم مع السغد خاصة سبباً في جلب خطر عظيم[3]. وقد بدأ الحارث ثورته مستنداً إلى هذا التذمر في صفوف الموالي والفئات المستضعفة والساخطة من العرب وغير العرب. فدعا إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله[4]، وإسقاط الجزية عن الموالي وإشراكهم في العطاء كبقية المسلمين[5]. وإقامة حكومة ترضى عنها الأغلبية[6]، تعمل على إزالة المظالم وتطبيق العدالة الاجتماعية[7].

بدأت الثورة في بلاد ما وراء النهر ثم امتدت إلى خراسان[8]. وقد رفع الحارث بن سريج رايته السوداء، وانضوت تحتها لا جموع الفلاحين المعدمين من بلاد السغد وخراسان فحسب بل وحتى الدهاقين من صغار الملاك الذين كان يضطهدهم امراء الولايات وعمال الخراج[9]. كما انضوت تحتها جماعات من العرب[10]، والمرجئة، إذ كان الحارث أحد زعمائها[11]. وهكذا تولى العرب مرة أخرى قيادة الثورة الاجتماعية لانصاف الموالي الذين دخلوا الإسلام في سبيل

---

(1) المصدر السابق ص 475.
(2) نفس المصدر ص 477. الكيلجة، مكيال، الجمع كيالج وكيالجة ـ الجوهري: الصحاح 1 ـ 161.
(3) ولهاوزن: تاريخ الدولة العربية ص 442.
(4) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 428.
(5) ولهاوزن: تاريخ الدولة العربية ص 442.
(6) الدمشقي: تاريخ الجهمية والمعتزلة ص 8.
(7) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 606.
(8) نفس المصدر ص 428 ـ 429.
(9) فان فلوتن: السيادة العربية ص 63.
(10) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 429.
(11) نفس المصدر ص 433.

الحصول على المساواة الكاملة بالعرب في الحقوق الوطنية، ولذلك جاءت ثورة ابن سريج من أسفل ولم تأت من أعلى[1].

تغلب الحارث على الفارياب وبلخ والجوزجان والطالقان ومرو الروذ، وخضعت له طخارستان كلها، وانضم إليه عدد من الأمراء الأتراك، ولم يكن قد بقي في يد السلطة الأموية من مدن لم ينازعها عليها الحارث سوى مرو وابرشهر[2]. وكلاهما في غرب خراسان، وتضخم جيش الحارث بعد انتصاراته في طخارستان تضخماً كبيراً، وفي هذا الجيش اجتمع فرسان من العرب ورجالة من جند الموالي[3]. فتقدم الحارث إلى مرو في جيش جرار بلغ ستين ألفاً[4]. وكان أهل مرو قد كاتبوا الحارث[5]. وأمام هذا الخطر المحدق، ثبت جيش الخلافة أمام الثوار، خاصة بعد تولية أسد بن عبدالله القسري أميراً على خراسان ووصوله إليها في جند لم تنهك قواها الحرب، فهزمهم وأرغمهم على التراجع إلى بلاد ما وراء النهر سنة 118هـ.

وفي عام 127هـ/ 745م، عاد ابن سريج إلى مرو بعد أن أقام ببلاد الترك اثنتي عشرة سنة[6]. وكان الخليفة يزيد بن الوليد كتب له الأمان[7]. وجدد الحارث دعوته وكان ساعده الأيمن في نشر الدعوة جهم بن صفوان، كاتبه[8]. وأمر الحارث رجاله أن يقرأوا مبادىء الدعوة في الأسواق والمساجد[9]. وبعث نصر إلى الحارث هدايا كثيرة، فباعها وقسمها في أصحابه بالسوية[10]. ورفض الحارث الاستجابة إليه حين عرض عليه أن يوليه ويعطيه مئة ألف دينار[11]. فأرسل إلى نصر: (إني لست من هذه الدنيا ولا من هذه اللذات ولا من تزويج عقائل العرب في شيء وإنما اسأل كتاب

(1) ولهاوزن: تاريخ الدولة العربية ص 441.
(2) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 429 ـ 430، ص 436.
(3) نفس المصدر ص 429 ـ 430.
(4) نفس المصدر ص 429.
(5) نفس المصدر والصفحة.
(6) ابن الأثير: الكامل ج4 ص 276.
(7) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 604.
(8) الدمشقي: تاريخ الجهمية والمعتزلة ص 7.
(9) ابن الأثير: الكامل ج4 ص 293.
(10) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 605.
(11) نفس المصدر ص 606.

الله عز وجل والعمل بالسنة واستعمال أهل الخير والفضل فإن فعلت ساعدتك على عدوك)[1] وقال له أيضاً: (خرجت من هذه المدينة منذ ثلاث عشرة سنة انكاراً للجور وأنت تريدني عليه)[2]. وانضم إليه ثلاثة آلاف رجل[3]. ويروى أن الحارث ونصراً، والي خراسان، تناظرا فتراضيا أن يحكم بينهما مقاتل بن حيان ممثلاً من جانب نصر، وجهم بن صفوان ممثلاً من جانب الحارث، فحكما بأن يعتزل نصر ويكون الأمر شورى، فلم يرض نصر[4]. وعند ذلك بدأ القتال، وأسر جهم بن صفوان وقتل[5]. ثم قتل الحارث عام 128هـ/ 746م وصلب جسده عند مدينة مرو بغير رأس[6].

كانت ثورة الحارث بن سريج تعبيراً عن تذمر الفئات المظلومة والمستضعفة من الموالي والعرب الذين وحدتهم مظالم الأريستقراطية الحاكمة، ولم تكن تعبيراً عن أطماع شخصية أو مجرد تطاحن قبلي أو عنصري. كما كانت تعبيراً عن المرحلة المضيئة في تاريخ المرجئة التي تبنوا فيها المسألة الاجتماعية والدفاع عنها بروح اسلامية خالصة[7]، ولذلك كانت ثورة من أسفل على حد تعبير ولهاوزن ولم تأت من أعلى كما حدث في عهد عمر بن عبد العزيز.

وإذا كانت الثورة قد انتكست، إلا أنها أسفرت عن بعض النتائج الايجابية فقد اضطرت الحكومة إلى التنازل عن بعض اجراءاتها المالية الجائرة في خراسان. حيث تم فصل تام بين ضريبة الأرض، فأصبحت وحدها تسمى خراجاً، وبين ضريبة الرأس التي بقي لها اسم الجزية. وأسقطت الجزية عن المسلمين بالكلية وأصبحت لا تؤخذ إلا من غير المسلمين[8]. واتبعت سياسة أكثر ليناً واعتدالاً. وكان الدعاة العباسيون في خراسان يتابعون عن كثب تضعضع القوة الأموية تحت ضربات الثوار ويطلعون على عورات النظام الأموي وثغرات الضعف في قوته العسكرية، فأفادوا من ذلك كله حين قاموا بثورتهم بقيادة أبي مسلم الخراساني[9].

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 605.
(2) نفس المصدر وذات المكان.
(3) نفس المصدر ذوات المكان.
(4) نفس المصدر ج6 ص3.
(5) نفس المصدر ص6.
(6) نفس المصدر ص11.
(7) د. اسماعيل محمود: الحركات السرية في الاسلام ص 47.
(8) ولهاوزن: تاريخ الدولة العربية ص 456.
(9) د. اسماعيل محمود: الحركات السرية في الاسلام ص47.

انتفاضات العبيد

العبيد فئة من الناس البسطاء المظلومين المضطهدين في مجتمع الخلافة. وكان مصدر الرقيق في صدر الإسلام من الأسر في الحروب بخاصة من النخاسة وغيرها. وقد أخذت أعدادهم تتزايد إبان الحكم الأموي نتيجة الفتوحات الواسعة التي قاموا بها وخاصة في عهد الوليد بن عبد الملك[1].

استخدم العبيد في ميادين الانتاج الاجتماعي التي كانت تتطلب أعمالاً يدوية ولا سيما في حقول الزراعة والري والتعدين وفي بعض الصناعات[2]. كما استخدموا في قطاعات الخدمة المنزلية والعسكرية.

وعاشوا تحت سلطة الأمويين، حياة قاسية ومزرية، نتيجة لشدة الاستغلال وقلة الأجور والاذلال. ففي مواقع العمل، كان ملاك الأراضي يجبرونهم على الشغل في مستنقعات العراق ومصر وما وراء القفقاس حيث كانت الملاريا والحر والجوع تفتك بهم فتكاً ذريعاً[3]. وكان على العبيد أن يحملوا في أعناقهم ختوماً تشير إلى رقهم[4].

وقد عبَّر العبيد عن تذمرهم من شراسة الاستغلال الطبقي ومن قسوة ظروف حياتهم المادية والاجتماعية بانتفاضات محلية تلقائية غير منظمة، كانت تقمع بعنف وشدة كما جرى لانتفاضاتهم في دمشق وفي فرات البصرة في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان.

استغل العبيد اضطراب الأوضاع الداخلية في خلافة عبد الملك بن مروان، فقاموا بأول انتفاضة لهم في المعقل الحصين للأمويين في الشام، في عاصمة الامبراطورية ـ دمشق.

وتوجه الثائرون إلى السجون وأخرجوا من فيها من السجناء، ثم ذهب العبيد والسجناء المحررون إلى حيث اعتصموا في الجبل المطل على دمشق[5]. ولكن هذه الانتفاضة انتهت إلى الاخفاق، حيث قضى عليها جيش الخلافة. غير أن قائد هذا

---

(1) أنظر ص 124 ـ 125.
(2) انظر ص 125.
(3) انظر ص 128.
(4) انظر ص 128.
(5) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص 105.

الجيش نهى جنوده عن قتل العبيد الثائرين احتراماً لملكية أسيادهم[1].

وفي منطقة البصرة، كان العبيد يستخدمون في أكثر الأعمال مشقة في منظومة الري الاصطناعي، وتجفيف المستنقعات وإزالة الطبقة الملحية لجعل الأرض صالحة للزراعة، وغير ذلك من الأعمال الفلاحية أو الحرفية. وقد دفعتهم شروط حياتهم القاسية إلى التمرد على أسيادهم، مستغلين ثورات الفلاحين والخوارج في هذه المنطقة وانشغال السلطة بمواجهتها. ففي آخر أيام مصعب بن الزبير عام 70هـ. انتفض الزنج بفرات البصرة ولم يكن عددهم كبيراً آنذاك، فقصدوا بساتين أسيادهم وعبثوا بثمارها. فجمع لهم والي المدينة جيشاً وقمع انتفاضتهم، وأخذ بعضهم فقتلهم وصلبهم[2].

وفي عام 75هـ/ 694م، أيام امرة الحجاج على العراق، الذي كان منشغلاً بقمع الانتفاضة الفلاحية بالبصرة، ثار الزنج في فرات البصرة، وقودوا عليهم رجلاً منهم يدعى رباح، وكان يلقب «شير زنجي» أي أسد الزنج. ويبدو أن حركتهم هذه المرة كانت أكثر تنظيماً من سابقتها. إذ إن الحجاج، وقد قمع انتفاضة ابن الجارود، أمر زياد بن عمرو، رئيس شرطة البصرة، أن يرسل إليهم جيشاً يقاتلهم، ففعل. فهزم الزنج جيش السلطة وقتلوا رئيس الحملة حفص بن زياد. ثم أرسل إليهم زياد جيشاً آخر فهزم الزنج وقتلهم واستقامت البصرة على حد تعبير ابن الأثير[3].

وهكذا أخفقت انتفاضات العبيد، ولم يكن لها أن تظفر بشيء من النجاح لأن الثائرين لا يملكون السلاح حتى للدفاع عن أنفسهم، ولأنهم أيضاً لا يملكون المساندة من القوى الاجتماعية المظلومة المضطهدة من فقراء الفلاحين والحرفيين الكادحين وغيرهم من الفئات المستثمَرة في المجتمع العربي ـ الإسلامي.

الحركة الشعوبية

تعرض حكم الاريستقراطية الأموية، القائم على استغلال الجماهير العاملة والتمييز الفظ واللاإنساني بين أفراد الرعية، لمقاومة شديدة من قبل الأحزاب

(1) د. حسين مروة: النزعات المادية ج1 ص 487.
(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج4 ص 40.
(3) نفس المصدر والصفحة.

المعارضة الرئيسة وفي مقدمتها الشيعة والخوارج. كما ثار عليه الموالي والعبيد وفئات من العرب أنفسهم. وذلك على الرغم من الآثار السلبية التي خلفتها الإيديولوجية الجبرية أو فكرة القضاء والقدر، سلاح الأمويين الديني للدفاع عن مواقعهم السياسية ومصالحهم الطبقية، في تيئيس جماهير المستثمرين والمستخدمين والمعدمين البؤساء.

لقد عبرت الجماهير الشعبية عن تذمرها على حكم (الجبابرة) الجائر، في انتفاضات تحت قيادات شيعية أو خارجية أو عربية أو خاصة بأبناء الشعوب المغلوبة والفئات المستعبدة. وقد استعرضنا فيما سبق أمثلة للحركات الشعبية والرقيقية على الحكم الأموي الفردي الأريستقراطي شبه الملكي. وكان لهذه الثورات الدور الحاسم في إضعاف حكم بني أمية وإسقاطه في نهاية المطاف.

وفي أواخر العصر الأموي ظهرت الحركة الشعوبية، كرد فعل على سياسة الأمويين المالية والعربية الأعرابية بهدف إقامة دولة جديدة تتحقق فيها المساواة في الحقوق الوطنية والعدالة الاجتماعية لجميع الشعوب والقوميات والأقليات، بصرف النظر عن الأصل والعرق والدين والطبقة الاجتماعية والمذهب الفكري. وكانت الحركة النامية بين أفراد الفئات المضطهدة ذات طابع (تقدمي)، لأنها كانت تنشد الدفاع عن حقوق الشعوب وكرامتها وإظهار مآثرها ورفع الاحتقار والانتقاص من شأنها[1]. فابن قتيبة، المؤرخ المعروف بعد أن دافع عن العرب وابان فضلهم، عاد فنقد كل ذلك وقرر المساواة فقال في آخر كتابه (تفضيل العرب): (وأعدل القول عندي، أن الناس كلهم لأب وأم، خلقوا من تراب وأعيدوا إلى التراب... فهذا نسبهم الأعلى الذي يردع به أهل العقول عن التعظيم والكبرياء، والفخر بالآباء ثم إلى الله مرجعهم فتنقطع الأنساب، وتبطل الأحساب، إلا من كان حسبه التقوى)[2].

وفي العصر العباسي الأول، استغل الاقطاعيون الفرس ـ بعد فشل تعاونهم مع العباسيين ـ الحركة الشعوبية وأفرغوها من محتواها الأممي الجماهيري الثوري ليحولوها إلى حركة معادية للعرب ودولتهم وثقافتهم آملين من وراء ذلك إعادة قيام دولة فارسية مستقلة تحت سيطرتهم.

---

(1) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص 93.

(2) أحمد أمين: ضحى الإسلام ج1 ص 53.

الثورة العلوية ـ العباسية

أثارت سياسة الأمويين المالية وتعسف حكامهم في التمييز الاجتماعي بين العرب والموالي موجة متنامية من السخط لدى جماهير الفلاحين والعوام والعبيد على حكام بني أمية. ما لبثت أن تحولت إلى هبات فانتفاضات وثورات تحت قيادات خارجية أو شيعية أو عربية أو رقيقية أو من أبناء الشعوب المغلوبة[1]. وكانت سلطة الخلافة تقمع هذه الحركات المناوئة بمنتهى الشدة ودونما رحمة، وتعاقب قادتها ومؤيديها أو المتعاطفين معها بالقتل والحبس والتعذيب والاضطهاد.

لجأ حزب الشيعة، أقوى أحزاب المعارضة وأكثرها نفوذاً وشعبية في أوساط الجماهير، عقب المذابح الدموية التي تعرض لها وبسبب من ظروف الملاحقة والاضطهاد والتنكيل، إلى العمل السري المنظم، وإلى التقية والكتمان لمواجهة خصم ذي بأس شديد.

بدأت الدعوة علوية في أسلوبها وتنظيمها وأهدافها وقيادتها، ثم أخذ بنو العباس ينخرطون فيها. ولما أحس الإمام أبو هاشم، عبدالله بن محمد بن علي بن أبي طالب، بدنو أجله، اختار محمد بن علي بن عبدالله بن عباس، من أفراد البيت الهاشمي، وصياً، وأناط إليه مهمة الدعوة وأطلعه على أسرارها وأخبره بأسماء الدعاة وسلمه كتب الوصاية ليقدمها إليهم بعد وفاته[2].

ينتسب العباسيون، وهم أسرة عربية اقطاعية موسرة، إلى العباس بن عبد المطلب عم الرسول (ﷺ). ولم يكن للعباس سابقة في الاسلام، فقد تأخر اسلامه إلى ما قبل فتح مكة[3]. كما أن بني العباس لم يقوموا بدور موجه أيام الصراع الذي تفجر بين فئات الجماعة الإسلامية حول مسألة الإمامة، ولما ولي عليّ الخلافة، بعد مقتل عثمان، آزره عبدالله وعبيد الله ولدا عمه العباس. فعين الأول والياً على البصرة والثاني عاملاً على اليمن[4]. وعندما لاح لبني العباس غروب شمس عليّ بعد التحكيم، خذلوه وانحازوا إلى خصمه معاوية بن أبي سفيان. ولم يدوِّن التاريخ أن

---

(1) أنظر ص 110 وما بعدها.
(2) تاريخ اليعقوبي ج2 ص 297.
(3) ابن هشام: السيرة النبوية ج2 ص 814.
(4) البلاذري: انساب الأشراف. القسم الثالث طبعة بيروت 1978 ص 27 ـ 58.

أحداً من ولد العباس قاد ثورة مناوئة للحكم الأموي قبل انخراطهم في الدعوة العلوية.

والمهم في الموضوع، أن العباسيين أحسنوا استغلال الظرف الذي وأتاهم، وساروا مع التيار الثوري تكتيكياً، وأبلوا بلاء حسناً في القيام بأمر الدعوة، وأظهروا مهارة فائقة في التنظيم الحزبي إبان العمل السري. وتشير الروايات التاريخية والوثائق الرسمية للحكومة العباسية في العصر العباسي الأول، إلى أن الجهاز السري للهيكل التنظيمي للدعوة كان يتألف من:

أ ـ إمام الوقت المستتر في قرية الحميمة[1]. وكانت له زعامة الجهاز السري، وسلطة التخطيط للدعوة، واختيار الدعاة، وتحديد مناطق عملهم ونشاطهم[2]. وكان يساعد الأئمة المستترين تنظيمات من (دعاة الدعاة) و(الدعاة) و(النقباء) و(الخلايا) الحزبية.

ب ـ الدعاة: وكان يختارهم الإمام ممن يثق في ولائهم من العرب وغير العرب، ويحدد لهم مناطق عملهم ونشاطهم[3]، وكان هؤلاء الدعاة يكتبون إليه ويلتقون به في أوقات معينة لاخباره عن أوجه نشاطهم وتسليمه ما اجتمع لديهم من مال ومتاع[4]. كما كان بدوره يبعث إليهم برسائل تحمل أوامره ونواهيه ووصاياه ونصائحه[5]. وقد حرص الأئمة على إعداد الدعاة إعداداً حزبياً وسياسياً وثقافياً ونفسياً قبل توليهم مهام الدعوة. ويصف الدكتور حسن محمود هؤلاء الدعاة بأنهم كانوا جميعاً من طراز واحد «قدرات عسكرية خلاّقة، واخلاص للدعوة وفناء فيها، وقدرة بارعة على الدبلوماسية والدهاء ومداراة الأحوال واجتذاب الأنصار ومنطق في المخاطبة فيه أدب وبلاغة وفن ومراعاة مقتضى الحال»[6]. . واشتهر من دعاة العراق أسماء أبي ميسرة النبال مولى الأزد وقيل مولى بني

---

(1) قرية صغيرة إلى الجنوب من بحر الميت. كانت في الظاهر بمعزل عن مسرح السياسة ولكنها في الواقع مركز جغرافي هام يشرف على خط القوافل وعلى مقربة من ملتقى طرق الحج.

(2) تاريخ اليعقوبي ج2 ص 297 ـ 298.

(3) الدينوري: الأخبار الطوال ص 333. الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 316.

(4) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص535 ـ 622. الدينوري: الأخبار الطوال ص 333.

(5) مؤلف مجهول: أخبار الدولة العباسية. تحقيق عبد العزيز الدوري ود. عبد الجبار الطلبي، دار الطليعة بيروت ص 200 وما بعدها.

(6) د. حسن حمود: العالم الاسلامي في العصر العباسي ص 39 ـ 40.

أسد[1].. وأبي هاشم بكير بن ماهان[2].. وأبي سلمة حفص بن سليمان الخلال[3].. واشتهر من دعاة خراسان سليمان بن كثير مولى خزاعة[4]. وأبو مسلم الخراساني[5]..

جـ ـ النقباء: وهم يلون الدعاة في كادر الدعوة، ولكل سبعين تابعاً اثنا عشر نقيباً[6].، يختارهم الداعي ممن اوتوا مؤهلات وقدرات خاصة دعائية وعسكرية. وكان النقباء يعملون وفق أوامر الدعاة ويتصلون بهم فقط. ومهمتهم تنفيذ مخططات الدعوة وتجنيد الكوادر التالية في الرتبة والإشراف على نشاطهم. واستعان كل نقيب بسبعين «عاملاً» يديرون الجهاز السري، وينتشرون بين الأهالي في المدن والقرى لتكوين الخلايا وتنظيم الجماهير وتعبئتها وتوحيد نضالها. وذكر أحد الدعاة بكير بن ماهان. (أن ليس للنقيب أن يدعي الفضل على غيره في النقابة وإنما الفضل هو بالعمل لا بغيره)[7].. وكان هناك نظراء النقباء وعددهم اثنا عشر أيضاً وهم نواب للنقباء يخلفونهم إذا مات من النقباء رجل أو فصل أو ترك العمل أو لأي سبب آخر[8].. وتشير إحدى قوائم النقباء لأهل مرو أن أربعة منهم كانوا من الموالي والباقي من العرب[9].. واحتفظ كتاب أخبار الدولة العبّاسية بقائمة تتضمن أسماء نظراء النقباء لأهل مرو[10].

---

(1) البلاذري: أنساب الأشراف. القسم الثالث ص 114.

(2) وكان والده مولى لرجل من بني مسليه سكن الشام. مؤلف مجهول: أخبار الدولة العباسية ص 191.

(3) مولى همدان. وكان صيرفياً وقيل خلالاً. وعرف باسم «وزير آل محمد» البلاذري: أنساب الأشراف القسم الثالث ص 118 ـ 138.

(4) البلاذري: أنساب الأشراف. القسم الثالث ص 118/ وفي الطبري: أبو سلمة مولى السبيع وعرف بـ «وزير آل محمد» تاريخ الرسل ج6 ص 79، 76.

(5) كان أبو مسلم من أهل اصبهان، وكان اسمه ابراهيم بن حيكان أو حتكان ثم دعاه ابراهيم الإمام بعبد الرحمن بن مسلم. كان عبداً يخدم عيسى بن معقل أحد رؤساء الشيعة، ويعمل سرّاجاً عنده، اشتراه بعض الدعاة وقدّموه إلى ابراهيم الإمام. وبعد أن تدرب على جملة من الأعمال والمهام، أمَّره على خراسان، وقدر له أن يعلن الثورة ويقودها إلى النصر/البلاذري: انساب الأشراف القسم الثالث ص 84 وما بعدها ص118 ـ 121. مؤلف مجهول: أخبار الدولة العباسية ص 253 وما بعدها.

(6) البلاذري: انساب الأشراف. القسم الثالث ص 82.

(7) مؤلف مجهول: أخبار الدولة العباسية ص 214.

(8) نفس المصدر ص 219.

(9) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 317. مؤلف مجهول: أخبار الدولة العباسية ص 216 ـ 217.

(10) مؤلف مجهول: أخبار الدولة العباسية ص 219 ـ 220.

وتشير بعض المصادر التاريخية إلى وجود (دعاة الدعاة)[1]. ولعلهم كانوا مسؤولين عن تنظيم الدعوة والإشراف على الدعاة خارج حدود منطقة مرو الإدارية.

بدأت الدعوة في أواخر القرن الأول الهجري، ثم تطورت خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن الثاني للهجرة، واتسعت ميادين نشاطها، وتصلب عودها، وضربت بجذورها في أعماق الجماهير الساخطة على مظالم الحكام الأمويين، وتوجت باعلان الثورة عام 129هـ/ 746م وانتصارها على الأمويين عام 132هـ/ 750م وسقوط دولتهم وقيام الدولة العباسية.

ويمكن تقسيم الأدوار التي مرت بها الدعوة إلى مرحلتين: مرحلة التنظيم السري التحضيري للثورة والمرحلة العلنية للدعوة وإعلان الثورة 129 ـ 132هـ/ 745 ـ 750م.

آ ـ مرحلة التنظيم السري التحضيري للثورة

بدأ العمل السري المنظم للحركة العلوية العباسية في أواخر القرن الأول الهجري. واستمر طوال العقود الثلاثة الأولى من القرن الثاني للهجرة. وفي هذه المرحلة، انتقلت قيادة الدعوة من الفرع العلوي لبني هاشم إلى الفرع العباسي منه[2]، وتم بناء الهيكل التنظيمي للدعوة[3]. وكان مركز الدعوة (الحميمة)[4]، وامتدت ميادين نشاطها إلى العراق وخراسان وبلاد ما وراء النهر وسجستان[5] «فسار الدعاة من مدينة مرو إلى بخارى ومن بخارى إلى سمرقند، ومن سمرقند إلى كش ونسف، ثم عطفوا على الصغانيان، وجازوا منها إلى ختلان، وانصرفوا إلى مرو الروذ، والطالقان وعطفوا إلى هراة، وبوشنج وجازوا إلى سجستان»[6]. وغرس الدعاة في هذه البلدان غرساً كثيراً[7]، وتفاقم أمرالدعوة في خراسان بخاصة، وكثر من استجاب إليها[8].

---

(1) المصدر السابق، ص 222 ـ 223.

(2) تاريخ اليعقوبي ج2 ص 292.

(3) مؤلف مجهول: أخبار الدولة العباسية ص 213 وما بعدها.

(4) الدينوري: الأخبار الطوال ص 332 ـ 357.

(5) نفس المصدر ص334 ـ 336.

(6) نفس المصدر ص336.

(7) نفس المصدر والصفحة.

(8) نفس المصدر ص339.

وينم تركيز بني العباس في اختيار خراسان لنشر الدعوة عن بعد نظر ومعرفة بنزعات الأقاليم الإسلامية. يؤيد ذلك قول (إمام الوقت) لرجال الدعوة حين أراد توجيههم: (أما الكوفة وسوادها فشيعة وأماالبصرة وسوادها فعثمانية، وأما الجزيرة فحرورية، وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان... وأما أهل مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر، ولكن عليكم بأهل خراسان فإن هناك العدد الكثير والجَلَد الظاهر وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدغل...

وبعد فإني أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق)[1]. ولعل اختيار خراسان يعود إلى تعاظم نقمة الجماهير العاملة نتيجة لتردي أحوالها وارهاقها بالضرائب، وإلى استياء القبائل اليمنية نتيجة ممارسة عمال السلطة لسياسة التمييز في هذا الإقليم وتقريب زعماء القبائل القيسية وايثارهم بالمنح والامتيازات، إذ كانت المناصب والمغانم في يد الدولة تمنحها وتمنعها موضوعاً وسبباً للصراع بين القبائل[2]، وأظهر العباسيون دهاء وحنكة سياسية في مجاراتهم لتوجهات التيار الثوري، وفي طرحهم شعارات براقة تدغدغ آمال الجماهير وطموحاتها في تحقيق المساواة والعدل والقضاء على مظالم الأمويين[3].

وكان الدعاة يجوبون البلاد لبث الدعوة في زي التجار[4]، وقد يلجأون أحياناً ـ إمعاناً منهم في التستر والتمويه على رجال السلطة وعيونها ـ إلى اتخاذ أسماء حركية مثل (خداش) الذي تسمى به عمار بن يزيد[5] لما وجَّهه بكير بن ماهان للقيام بمهمة الدعوة في مرو وخراسان[6]، وأبي محمد، وهو الاسم الحركي لزياد بن درهم أحد شيعة خراسان[7]. وكان الدعاة يقومون بالمهام الموكل بها إليهم بنشاط واخلاص وشرف وتفان.

---

(1) مؤلف مجهول: اخبار الدولة العباسية ص 206 ـ 207. أبو بكر أحمد محمد الهمذاني.. ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان ص 315. المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص 293 ـ 294.

(2) مؤلف مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق ج3 ص 184.

(3) الدينوري: الأخبار الطوال ص 332.

(4) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 358 ـ 394.

(5) يقال إن عماراً هذا كان فاخرانياً من نصارى الحيرة ثم أظهر الإسلام وصار معلماً بالكوفة. البلاذري انساب الأشراف. القسم الثاني ص 117.

(6) نفس المصدر ص116. الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 440.

(7) نفس المصدر والصفحة. مؤلف مجهول: اخبار الدولة العباسية ص 203.

وفي خلافة هشام بن عبد الملك وإمرة سعد بن عبدالله القسري على خراسان، تعرض الدعاة إلى القتل والتعذيب والاضطهاد[1]، ولكن ذلك لم يفتَّ من عزيمتهم أو يثنيهم عن القيام بواجباتهم الحزبية. وكان رجال السلطة في خراسان يعرضون على الدعاة المعتقلين البراءة من الدعوة وممن يدعون إليه أو قتلهم[2]. ويذكر الطبري في إحدى رواياته أن حاكم خراسان، أسد بن عبد الله القسري، عرض على عشرة من الدعاة المعتقلين البراءة، فتبرأ اثنان منهم، وضربت أعناق من أبوا البراءة بالسيف. فلما كان الغد أقبل أحد اللذين تبرآ وأسد في مجلسه المشرف على السوق بالمدينة القديمة فقال لأسد أسألك أن تلحقني بأصحابي، فدعا أسد بسيف (بخار أخذاه) فضرب عنقه بيده[3].

وفي إبان العقد الثاني من القرن الثاني للهجرة، لاقت الدعوة في خراسان نجاحاً كبيراً على يد الداعية عمار بن يزيد المسمى (خداش) حيث تدفق إليه أهل مرو بكثرة وقبلوا ما جاء به وسمعوا إليه وطاعوا[4]. وصار الدعاة النقباء في خراسان أكثر تعلقاً به منهم بالإمام محمد بن علي نفسه[5]. وتكوَّن في مرو تنظيم حزبي محلي (الهاشمية) من أهل خراسان، وأصبح مستقلاً عن رئاسة الدعاة في الكوفة، ولم يشأ أن يخضع لتوجيهاتها ويأتمر بأوامرها، وإن كان ذلك على كل حال لا يؤثر على الولاء لمحمد بن علي نفسه، ولكن نشأ أيضاً خطر بالنسبة لمحمد بن علي، وهو أن يفلت من يده زمام أهل خراسان، ذلك أنه كان يسيطر عليهم عن طريق شيعته في الكوفة.

ويبدو أن «خداشاً» قبل أفكاراً من اشتراكية مزدك[6]، فجلب الخرمية[7]. إلى

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 387، 389، 395، 425، 439.

(2) نفس المصدر ص395.

(3) نفس المصدر والصفحة.

(4) نفس المصدر ص440.

(5) ولهاوزن: تاريخ الدولة العربية ص 478.

(6) مصلح اجتماعي، هاجم نظام التملك الشخصي. ودعا إلى إعادة توزيع الثروة بالتساوي بين الناس ومنح المرأة حقوقها وكرامتها الإنسانية. هذه الآراء، أطلق عليها المؤرخون الإباحة (احل النساء وأباح الأموال)/ الشهرستاني. الملل والنحل ج1 ص249/ . (استباح المزدكية المحرمات وزعموا أن الناس شركاء في الأموال والنساء)/ البغدادي: الفرق بين الفرق ص266/ . علماً بأن صفات الشهوة والإباحة متناقضة مع العفة والزهد وتطهير الأنفس من النزوات وغير ذلك من مبادىء السلوك الأخلاقي الإنساني التي كانت أساساً للمزدكية/ د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص 116، 123.

(7) هي المزدكية أو شكل منها. (ذكر الطبري دون تدقيق، أن خداشاً أظهر دين الخرمية ودعا إليه ورخص

تأييد الدعوة، فتعاظم نفوذ «الهاشمية» في أوساط الجماهير، وكثر أتباعها ومؤيدوها وخاصة من أهل مرو، وغالبيتهم من فقراء الفلاحين، الذين أخذوا يتدفقون على خداش كالسيل على حد تعبير ولهاوزن[1].

وكان من الطبيعي أن يثير تكوين (التنظيم الهاشمي) وتعاظم نفوذه في خراسان قلق بني العباس، الذين رأوا في هذا التنظيم خطراً قد يؤدي إلى أن يفلت زمام أهل خراسان من أيديهم، ويفسد عليهم (تكتيك) استغلال القوى المستاءة في هذا الإقليم وتعبئتها في الدعوة لإسقاط الحكم الأموي والتغلب من ثم على الخلافة. ولذا عزم الإمام بالعمل على إعادة انصياع الدعاة في خراسان وخضوعهم (للوزير) بالكوفة وربما كان اعتقال خداش (صاحب الهاشمية)، كما ذكر الطبري، وقتله عام 118هـ[2]، على يد أسد بن عبدالله القسري عامل خراسان، قد يسر مهمة محمد بن علي وابراهيم ابنه من بعده. وعلى حين أن أهل خراسان ردوا (وزير الكوفة) بكير بن ماهان سنة 120هـ، لما جاء إليهم في مرو[3]، فإننا نجد أنهم رحبوا به في سنة 126هـ، وأعطوه أيضاً ما اجتمع قِبَلهم من نفقات الشيعة وخمس أموالهم. يؤيد ذلك قول الطبري: إنه في سنة 126هـ، وجه الإمام ابراهيم بن محمد بكير بن ماهان إلى خراسان وبعث معه بالسيرة والوصية، فقدم مرو وجمع النقباء ومن بها من الدعاة فنعى لهم الإمام محمد بن علي ودعاهم إلى ابراهيم ودفع إليهم كتابه فقبلوه وأعطوه ما

= لبعضهم في نساء بعض/ تاريخ الرسل ج5 ص440. في حين أنه نفى ذلك عن مزدك وعزا إلى السفلة ذلك واغتنموه وكاتفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم فابتلى الناس بهم /تاريخ الرسل ج3 ص685 ـ 686/ . وقد أكد دياكانوف أن هذا الادعاء، (إباحة النساء)، يعترف الآن بأنه مجرد اختلاق المؤرخين الناظرين بعداء للحركة المزدكية الثورية، لأنه لا توجد أية معلومات تؤكد بأية حالة ظهور مثل هذه التهمة التي لا تتغير ضد الذين هاجموا نظام التملك الشخصي/ د. حسين قاسم العزيز: : البابكية ص 123/ . والغريب أن الأريستقراطيين الايرانيين، أباحوا لأنفسهم زواج الأمهات والأخوات والبنات ومع ذلك فإن المؤرخين لم تأخذهم الحمية على الأخلاق والحرص على الشرف من هذا التهتك والعمل الشنيع/ نفس المصدر ص 122/ . (وقد ظهرت الخرمية ـ الخداشية في العصر العباسي في حركات المقنعية والمازيارية والبابكية).

(1) ولهاوزن: تاريخ الدولة العربية ص 487.

(2) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص440. البلاذري: أنساب الأشراف. القسم الثالث ص 117. ويذكر البلاذري في نفس الصفحة أنه قيل أيضاً قتله أصحاب محمد بن علي.

(3) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 467.

اجتمع عندهم من نفقات الشيعة فقدم بها بكير على ابراهيم[1]. وفي سنة 127هـ، كتب بكير بن ماهان إلى ابراهيم بن محمد، عندما أحس بدنو أجله، انه قد استخلف حفص بن سليمان وهو رضي للأمر، وكتب ابراهيم إلى أبي سلمة يأمره بالقيام بأمر أصحابه وكتب إلى أهل مرو يُخبرهم أنه قد أسند أمرهم إليه ومضى أبو سلمة إلى خراسان فصدَّقوه وقبلوا أمره ودفعوا إليه ما اجتمع قبلهم من نفقات الشيعة وخمس أموالهم[2]. وقد اتخذ ابراهيم بن محمد وخليفته خطوة حاسمة لكي يقبض على زمام الأمر في خراسان قبضاً تاماً، وذلك بأن أمَّر عليها أبا مسلم، وجعله رئيساً للدعوة وممثلاً دائماً للبيت العباسي فيها[3].

توفي محمد بن علي عام 125هـ[4]، وولي ابراهيم ابنه الأمر من بعده، فأحسن القيام به، إذ اتسعت الدعوة، وكثر أتباعها، وتصلب عودها حتى أنه أمر الدعاة بالظهور بعد الكتمان، وكان ذلك إيذاناً بتفجير الثورة.

ب ـ مرحلة تفجير الثورة 129 ـ 132هـ

بلغت التناقضات السياسية والاجتماعية ـ الاقتصادية في مجتمع الخلافة حينذاك درجة من الحدة لم تستطع الحكومة في هذه المرة على مواجهتها والصمود أمام خصومها والبقاء في الحكم طويلاً، فسقطت الدولة الأموية تحت ضربات الشعوب الثائرة. فقد اندلعت الثورات، وتمردت الولايات واستمر الصراع بين القبائل العربية اليمنية والقيسية واشتد التطاحن على السلطة بين أمراء البيت الأموي.

وجه ابراهيم الامام، حينما اختمرت الثورة وانحلت سلطة الأمويين في خراسان، أبا مسلم الخراساني ممثلاً له في الاقليم، وجعل له سلطة تامة على الدعوة فيه، وأمر بقية الدعاة بطاعته وقال لمن اجتمع عنده من الدعاة: (إني قد رأيت أن أولي الأمر هناك، أي خراسان، أبا مسلم لما جربت من عقله وبلوت من أمانته، وأنا موجهه معكم، فاسمعوا له وأطيعوا أمره فإن والدي كان قد وصف لناصفته ورجوت أن يكون

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص592.

(2) نفس المصدر ص622.

(3) نفس المصدر ج6 ص 14 ـ 15.

(4) نفس المصدر ج5 ص535.

هو الذي يسوق إلينا الملك، فعاونوه وكاتفوه وانتهوا إلى رأيه وأمره. قالوا: سمعاً وطاعة لك أيها الإمام)[1].

وكان الدعاة قد هيأوا ظرفاً جيداً وملائماً لأبي مسلم ليعمل في توطيد الدعوة. كما أنه أصبح معروفاً في خراسان بعد زياراته المتكررة إليها[2]. ثم آن الأوان، فكان الاستياء العام ولا سيما في جموع الفلاحين. وكانت القبائل العربية الثائرة في خراسان قد أخرجت نصر بن سيار من مرو وأصبحت أيدي الحكومة مشغولة بثورات من كل نوع وفي كل مكان[3].

تشمر أبو مسلم للدعوة، وأخذ القوم بالبيعة، ووجه كل رجل من أصحابه إلى ناحية من خراسان فكانوا يدورون بها كورة كورة، وبلداً بلداً، في زي التجار[4]. فاستجاب له جمهور كثير من الناس[5].

وفي هذه الفترة التاريخية (125 ـ 132هـ) المشحونة بالتوتر والاضطرابات السياسية والاجتماعية، تربع على عرش الدولة الأموية خلفاء أربعة هم: الوليد بن يزيد بن عبد الملك 125 ـ 126هـ 743 ـ 744م. وكان مهملاً لأمور الدولة، متشاغلاً عن حل مشاكل الناس، قليل العناية بأطراف البلاد، وكان صاحب ملاه وقيان وشرب ومجون وإظهار للقتل والجور[6]. وكان شغوفاً ببناء القصور الضخمة والفخمة[7]. وأنفق عليها موارد هائلة، في الوقت الذي كانت فيه جماهير الفقراء والمعوزين يتضورون من الجوع وتفتك بهم الأمراض، وتموج البلاد كلها بالاضطرابات والفتن[8]. فقد ثارت اليمانية وهم وقتئذ أكثر جند الشام[9] وحرَّضوا ابن

---

(1) الدينوري: الأخبار الطوال ص 343.

(2) مؤلف مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق ص 183 ـ 184.

(3) ولهاوزن: تاريخ الدولة العربية ص 491.

(4) الدينوري: الأخبار الطوال ص 343.

(5) نفس المصدر والصفحة.

(6) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص538. تاريخ اليعقوبي ج2 ص333. المسعودي: مروج الذهب ج3 ص 225.

(7) بنى قصر عمرة وقصر المشتى والأزرق والأغدف واللؤلؤ/د. عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية ج2 ص 309.

(8) تاريخ اليعقوبي ج2 ص 333.

(9) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 538.

عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك على البيعة لنفسه[1]. فاستولى يزيد على دمشق[2] وأرسل جيشاً إلى الوليد الذي كان يقيم في قصر الأغدف ببادية الأردن، هرباً من الطاعون[3]، واقتحموا عليه القصر وذبحوه في سنة 126هـ/ 744م[4]. وبعد قتله، ولي الخلافة يزيد بن الوليد عام 126هـ/ 744م، وكان يزيد يذهب مذهب المعتزلة[5]، أو القدرية[6]. ولكنه باعتماده على اليمنية أثار عليه القيسية في الشام[7]. وأظهر مروان بن محمد حاكم الجزيرة وأرمينية، الخلاف ليزيد بحجة المطالبة بدم الوليد، ثم بايعه بعد أن أبقاه في عمله[8]. ونشب الخلاف بين النزارية واليمانية في خراسان[9]، وعاد الحارث بن سريج إلى الظهور ثانية في بلاد الترك وسار منها إلى خراسان[10]. وثار العلويون في العراق بزعامة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، مستغلاً التطاحن بين أعضاء الأسرة الأموية[11]. وكان أمر المسوِّدة في خراسان قد بان، ودنا من الجبل وقرب من العراق، واشتد إرجاف الناس ونطق العدو بما أحب في بني أمية وأوليائهم[12]. ومات يزيد الناقص[13]، بعد أن حكم ستة أشهر وقيل خمسة أشهر[14]. ثم خلفه أخوه ابراهيم بن الوليد بعهد منه[15]. غير أن بيعته لم تتم، وكان يسلم عليه مرة بالخلافة ومرة بالإمرة وتارة لا يسلم عليه بواحدة منهما[1].

---

(1) المصدر السابق، ص543. ابن الأثير: الكامل ج4 ص 265.

(2) نفس المصدر ص545.

(3) كانت الشام تلك الأيام مصابة بمرض الطاعون /نفس المصدر ص 543/ .

(4) نفس المصدر ص551. ابن الأثير: الكامل ج4 ص 268.

(5) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص 234.

(6) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 596. تاريخ اليعقوبي ج2 ص336.

(7) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 564 ما بعدها، ابن الأثير: الكامل ج4 ص 270 ـ 271.

(8) ابن الأثير: الكامل ج4 ص277 ـ 282.

(9) نفس المصدر 276 ـ 277.

(10) نفس المصدر والصفحة.

(11) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 599 وما بعدها. ابن الأثير: الكامل ج4 ص 284 ـ 285.

(12) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص 233.

(13) سمي بالناقص لأنه أنقص أعطيات الجند التي كان الوليد زادها/ الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 564. ابن الأثير: الكامل ج4 ص 269.

(14) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 595. تاريخ اليعقوبي ج2 ص 235. المسعودي: مروج الذهب ج3 ص 233.

(15) ابن الأثير: البداية والنهاية ج10 ص 15.

وخرج عليه مروان بن محمد، أحد امراء البيت الأموي، بحجة المطالبة بدم الوليد[2]. واندلعت حرب أهلية بين أنصار مروان بن محمد ومؤيديه من جهة، وأنصار ابراهيم ومؤيديه من جهة أخرى، انتصر فيها مروان ودخل دمشق، فبايعه أهلها بالخلافة في سنة 127هـ/ 744م[3].

وفي خلافة مروان بن محمد بن مروان بن الحكم 127 ـ 132هـ/ 744 ـ 750م، استعر الصراع بين القبائل العربية القيسية واليمانية في خراسان والشام والأندلس.

ورأى اليمانية في تولية مروان، الذي ناصرته القيسية، انتصاراً للمضرية عليها. وقد ارتكب مروان خطأ كبيراً حين نقل البلاط وإدارة الحكومة إلى حران في الجزيرة الفراتية، بحيث أخذت قلوب أهل الشام تنصرف عنه[4]. وثار الخوارج في العراق وشبه الجزيرة العربية[5]. وانتفض القبط في مصر[6]. وبينما كان مروان يقاتل خصومه من أهل الشام والخوارج، اندلعت نيران الثورة العباسية وامتدت ألسنتها من الشرق لتجرف بناء الدولة الأموية المتداعي.

نشط أبو مسلم في تجنيد الأنصار وتعبئة الجماهير استعداداً لإعلان الثورة. وقد ساعد انحلال السلطة في خراسان، نتيجة لضعف الحكومة المركزية وانشغالها بمواجهة الثورات من كل نوع وفي كل مكان والشلل الذي أصاب الإقليم بسبب الاستياء العام والصراع القبلي المستعر بين اليمانية بزعامة جديع بن علي الكرماني والنزارية بزعامة نصر بن سيار والي خراسان، أبا مسلم على تركيز جهوده الدعائية والتنظيمية والتعبوية خلال عام 128 ـ 129هـ وخاصة في مرو. وفي سنة 129هـ/ 747م، تلقى أبو مسلم كتاباً من ابراهيم الإمام يأمره فيه بإظهار الدعوة[7]. ومن أجل ذلك، قام برحلة في بلاد خراسان غرضها الظاهري الحج[8]، أما ما كان يريده في الحقيقة فهو زيارة الشيعة المتفرقين ودعوة الناس إلى الاستعداد للثورة القريبة.

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص 596.

(2) نفس المصدر ص 597، ابن الأثير: الكامل ج4 ص 282.

(3) نفس المصدر 606 ـ 607. ابن الأثير: الكامل ج4 ص 283 ـ 284.

(4) د. فيليب حتي: تاريخ العرب ج2 ص 355.

(5) انظر ص 126 ـ 127.

(6) المقريزي: الخطط ج2 ص 87 ـ 88.

(7) الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص 24.

(8) نفس المصدر ص23.

حدد أبو مسلم يوم 25 رمضان لإعلان الثورة والظهور بها وعلامتها، وأخبر بذلك الاتباع في مرو الروذ والطخارستان وخوارزم[1]. وفي 25 رمضان 129هـ 9 حزيران (يونيو) 747م، أوقدت النيران وأضيئت المشاعل على قمم الجبال إيذاناً بإعلان الثورة[2].

وعقد أبو مسلم اللواء والراية الأسودين، اللذين بعث بهما الإمام ـ ويدعى الأول الظل[3] والثاني السحاب[4]. ولبس الثوار الثياب السوداء شعاراً، فعرف جيش الثورة بـ (المسوِّدة)، وأقيمت في يوم عيد الفطر أول صلاة جامعة على المذهب العباسي[5]. وانجفل الناس على أبي مسلم من هراة وبوشَنْج ومرو الروذ والطالقان ومرو ونسا وأبيورد وطوس ونيسابور وسرخس وبلخ والصغانيان وطخارستان وخُتّلان وكَشّ ونسف، فتوافوا جميعاً مسودي الثياب[6]. وأقبلوا فرساناً وحمَّارة ورجَّالة[7]، غالبيتهم من الفلاحين الايرانيين وخاصة من خراسان حيث كان التذمر على أشده ولا سيما في واحة مرو، التي كانت نقطة الانطلاق ومنها زحفت نحو أبي مسلم جموع الفلاحين والحرفيين والباعة والتجار من العرب والموالي وحتى الملاك المحليين، الدهاقين، الذين انضموا إلى الثورة بعد أن امتدت إليهم يد الاستغلال بالتنظيمات المالية المستحدثة وبعد أن نشط الملاك العرب بالاستيلاء على أراضيهم. وبهذا نجح أبو مسلم في الدعوة حيث وحد تحت راية العباسيين السوداء مختلف القوميات والطبقات الاجتماعية المستاءة[8]. وقد لعبت الجماهير العاملة الدور الحاسم في إسقاط حكم الأريستقراطية الأموية، حكم الجبابرة الجائر.

---

(1) المصدر السابق، ص24 ـ 25.

(2) نفس المصدر ص25.

(3) وتأويل الظل أن الأرض لا تخلو من الظل أبداً وكذلك لا تخلو من خليفة عباسي أبد الدهر/ نفس المصدر والصفحة/ .

(4) ويرمز السحاب إلى عالمية الدعوة، فكما أن السحاب يطبق الأرض كذلك ستشمل الدعوة كل العالم المعروف آنذاك/ نفس المصدر والصفحة/ .

(5) نفس المصدر ص 26. وقد أمر أبو مسلم سليمان بن كثير ان يصلي به وبالشيعة. ويبدأ الصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة، وكان بنو أمية يبدأون بالخطبة والآذان ثم الصلاة/ نفس المصدر والصفحة/ .

(6) الدينوري: الأخبار الطوال ص 361.

(7) نفس المصدر والصفحة.

(8) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص 98.

ولما رأى نصر بن سيار قوة الثوار وعجزه عن مقاومتهم، كتب إلى مروان بن محمد كتاباً يعلمه فيه حال أبي مسلم وكثرة من معه، وأن أمره قد ظهر وأنه يدعو إلى ابراهيم بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس[1]، وطلب إليه أن يمده بالجند وذيل كتابه بأبيات من الشعر[2]:

أرى تحت الرماد وميض جمر ... ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تذكى ... وان الشر مبدأه كلام
وقلت من التعجب، ليس شعري ... أأيقاظٌ أمية أم نيام؟
فإن يقظت، فذاك بقاء ملك ... وإن رقدت، فإني لا ألام
فإن يكُ أصبحوا وثووا نياماً ... فقل قوموا، فقد حان القيام

ولكن مروان لم ينجد نصراً، لأنه كان مشغولاً بقمع الثوار من أهل الشام والخوارج، وكتب إلى نصر قائلاً: (الشاهد يرى ما لا يرى الغائب فاضبط ثغرك بجندك)[3]. فلما قرأ نصر الكتاب قال لخواص أصحابه: (أما صاحبكم فقد أعلمكم ألا نصر عنده)[4]. فكتب إلى يزيد بن عمر بن هبيرة، والي مروان على العراق، يستمده، وضمن رسالته بأبيات شعر[5]:

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه ... وقد تبينت ألا خير في الكذب
إن خراسان أرض قد رأيت بها ... بيضاً لو أفرخ قد حدثت بالعجب
فراخ عامين إلا أنها كبرت ... لما يطرن وقد سربلن بالزغب
فان يطرن ولم يحتل لهن لها ... يلهبن نيران حرب أيما لهب

فقال يزيد:

«لا غلبة إلا بكثرة وليس عندي رجل)[6].

---

(1) مؤلف مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق ص 189.

(2) الدينوري: الأخبار الطوال ص 357 ـ الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص/ 36 ـ 37/. البيت الرابع والخامس غير موجودين. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ج2 ص341 البيت الرابع والخامس غير موجودين. ابن الأثير. الكامل ج4 ص 303 البيت الرابع والخامس غير موجودين. المسعودي؛ مروج الذهب ج3 ص 255 البيت الرابع غير موجود.

(3) الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص37.

(4) نفس المصدر والصفحة، المسعودي: مروج الذهب ج3 ص 256.

(5) المصدر ذاته، ص 257.

(6) نفس المصدر والصفحة.

اهتم مروان بالقضاء على رأس الدعوة ابراهيم الإمام المستتر بالحميمة، فأرسل إليه من أوثقه وبعث به إليه، فحبسه بحران في سجنها ومات فيه خنقاً أو سماً[1]. وهرب أبو العباس، عبدالله بن محمد، واخوته وأهل بيته إلى الكوفة عام 132هـ، فأخفاهم أبو سلمة الخلال في دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم في بني أود، وكتم أمرهم نحواً من أربعين ليلة عن جميع القواد والشيعة[2]. ويروى أن ابراهيم بن محمد حين أخذ للمضي به إلى مروان نعى نفسه إلى أهل بيته حين شيعوه وأمرهم بالمسير إلى الكوفة وأوصى إلى أخيه أبي العباس وجعله الخليفة من بعده[3].

لبث أبو مسلم مخندقاً مع أنصاره في إحدى قرى مرو، عدة شهور دون أن يستولي على مرو عاصمة خراسان، وإنما أخذ يحتل الأماكن والمواقع المحيطة بها، وساعده على ذلك انشغال نصر والكرماني بالقتال الدائر بينهما[4]. وكان أبو مسلم يكاتب نصراً والكرماني ويسعى للحيولة دون اتحادهما وتعاونهما ضده، وكان يرغب أن يستميل أحد الطرفين إلى جانب الثورة ليقصم به شوكة الآخر[5]. غير أنه كان يميل إلى ايثار الكرماني وأنصاره ارضاء لمشاعر الناس المعادية للحكام الأمويين وأنصارهم. وانتهى الأمر باختيار عليّ بن جديع الكرماني وأصحابه من اليمنية والربعية على نصر بن سيار وأصحابه من مضر[6].

وفي هذا الجو المشحون بالمكايد والصراع الخفي تارة والعلني تارة أخرى، دس نصر إلى الكرماني من قتله غيلة[7]. فلما قتل الكرماني، أقبل عليّ ابنه وانضم مع أنصاره من اليمنية والربعية إلى أبي مسلم فقاتلوا معاً نصر بن سيار الذي كان يملك مرو حتى أخرجوه من دار الإمارة، ودخل الثوار بقيادة أبي مسلم مدينة مرو عام

---

(1) البلاذري: أنساب الأشراف القسم الثالث ص 121 ـ 122. والصحيح عند مؤلف العيون أنه خنق ص 190 وكذا لدى الدينوري: الأخبار الطوال ص 358 ولدى اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ج2 ص242. وعند ابن الأثير: أن مروان هدم على ابراهيم بيتاً فقتله. ويقال إنه مات مسموماً: الكامل ج4 ص 329.

(2) الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص80. البلاذري: أنساب الأشراف القسم الثالث ص 139. مؤلف مجهول: العيون والحدائق ج3 ص196.

(3) نفس المصدر ص80.

(4) ابن الأثير: الكامل ج4 ص303.

(5) الدينوري: الأخبار الطوال ص 362.

(6) الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص44.

(7) نفس المصدر ص 37 ـ 38. الدينوري: الأخبار الطوال ص 362.

130هـ/ 748م[1]. وهرب منها نصر إلى نيسابور ومنها إلى الري حيث توفي بـ «ساوة» قرب الري عام 131هـ[2]. وأمر أبو مسلم طلحة بن زريق، أحد النقباء الاثني عشر بأخذ البيعة من أهل مرو. وكانت البيعة على كتاب الله وسنة رسوله والطاعة للرضا من آل محمد[3].

ومن مرو، زحف المسودة، عرباً وموالياً وعبيداً، بقيادة أبي مسلم لتخليص خراسان من أيدي الحكام الأمويين، واستطاع الثوار بعد سلسلة من المعارك المظفرة فتح: سرخس وطوس ونيسابور وجرجان وقومس وطبرستان والري وهمدان وقم واصبهان ونهاوند[4]. وبذلك غلب الثوار على ايران وبلاد ما وراء النهر، وسكّ أبو مسلم العملة باسم «أمين آل محمد» وعيَّن العمال[5].

اتجه الثوار، بعد السيطرة على ايران وبلاد ما وراء النهر، إلى العراق يقودهم الداعية والقائد المقدام قحطبة بن شبيب، وعندما علم أبو سلمة الخلال ـ وزير آل محمد ـ بتقدم المسودة في الأراضي العراقية، واختلاط الأمور على ابن هبيرة، بعث رسله ودعاته إلى الموصل وإلى البوادي المطلة على أهل الكوفة والبصرة فدبوا فيهم ودعوهم إلى النهوض[6]. وخرج في سواد الكوفة والبصرة عدة من ربيعة، وسوَّدوا وشهروا ذلك[7]. وخرج أبو أمية التغلبي بتكريت وما والاها، وأعلن انضمامه إلى الثورة[8]. ولم تبق في يد ابن هبيرة إلا الأمصار[9]. وبعث أبو سلمة الخلال إلى محمد بن خالد القسري وطلحة بن اسحق بن محمد بن الأشعث الكندي يحثهما على الخروج[10]. فخرج محمد القسري وأخذ الكوفة لبني هاشم. وسوَّد، وأظهر دعوتهم،

---

(1) نفس المصدر ص 38. ابن الأثير: الكامل ج4 ص303.

(2) ابن الأثير: الكامل ج4 ص311، 317. مثلف مجهول؛ أخبار الدولة العباسية ص 318 ـ 319 ـ 334.

(3) الطبري: تاريخ الرسل: ج6 ص45 ـ 46 ـ ابن الأثير: الكامل ج4 ص310.

(4) مؤلف مجهول: اخبار الدولة العباسية ص 322 وما بعدها، الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص 43 وما بعدها. الدينوري: الأخبار الطوال ص 363 وما بعدها. ابن الأثير: الكامل ج4 ص 309 وما بعدها.

(5) د. ماجد عبد المنعم: التاريخ السياسي للدولة العربية ج2 ص 334.

(6) مؤلف مجهول: أخبار الدولة العباسية ص 355.

(7) نفس المصدر والصفحة.

(8) نفس المصدر والصفحة.

(9) نفس المصدر والصفحة.

(10) نفس المصدر والصفحة.

وشرد من كان بالكوفة من بني أمية وأصحابهم[(1)]. وغلب سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة على البصرة وسوَّد[(2)]. وشرع أبو سلمة بتعيين العمال على الادارات والمصالح[(3)]. وفرض للجند، فجعل رزق الرجل في الشهر ثمانين درهماً، وأجرى للخواص كبراء القواد وأهل الغناء من النقباء وغيرهم ما بين ألف إلى ألفين، وخصَّ من دونهم ما بين مئة إلى ألف[(4)].

وكان قحطبة بن شبيب قد قدم العراق بأمر أبي مسلم الخراساني، وعبر دجلة متوجهاً إلى الكوفة فعسكر قريباً منها، فجاءه يزيد بن عمر بن هبيرة، فهزمه قحطبة، إلا أن قحطبة غرق[(5)] في الفرات سنة 132هـ/ 749م. فقام الحسن ابنه مقامه، واضطر يزيد للهرب إلى واسط[(6)]. ودخل الحسن الكوفة، وأخرج أبو العباس من مخبئه فيها، وبويع له بالخلافة[(7)]. عام 132هـ/ 28 تشرين الثاني (نوفمبر) 749م.

وجه أبو العباس عمه عبدالله بن عبد الله بن عباس لقتال مروان، فلقيه بالزاب قرب الموصل سنة 132هـ/ 750م، فدارت معركة رهيبة بين الجيشين العباسي والأموي، انتهت بهزيمة مروان وغرق كثير من جنده في نهر دجلة[(8)]. وكان النصر الذي أحرزته الجيوش العباسية على جيوش مروان عند نهر الزاب بمثابة المعركة الفاصلة التي أسقطت حكم بني أمية وأقامت دولة بني العباس.

والواقع أن الجيش العباسي لم يواجه بعد انتصاره الحاسم في موقعة الزاب، أية

---

(1) تاريخ اليعقوبي ج2 ص 345 ـ الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص 75.

(2) نفس المصدر والصفحة.

(3) نفس المصدر والصفحة. مؤلف مجهول: أخبار الدولة العباسية ص 376 ـ 77.

(4) مؤلف مجهول: أخبار الدولة العباسية ص 376.

(5) الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص72، 74.

(6) نفس المصدر ص74.

(7) نفس المصدر ص81. تذكر الروايات التاريخية أن أبا سلمة الخلال كان يميل إلى العلويين، وأنه سعى بعد موت ابراهيم الإمام، في تحويل الأمر إلى آل أبي طالب، ولكن أبا الجهم، أحد خاصة أبي مسلم، وبمساعدة مجموعة من قواد أهل خراسان أفسدوا عليه مسعاه، فأخرجوا أبا العباس من مخبئه في الكوفة وسلموا عليه بالخلافة، فاضطر أبو سلمة، بعد أن علم بذلك، إلى أن يذهب ويسلم هو أيضاً على أبي العباس بالخلافة/ الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص 81 ـ 82 ـ المسعودي: مروج الذهب ج3 ص 268 وما بعدها. مؤلف مجهول: العيون والحدائق ج3 ص 196 وما بعدها. ابن الأثير: الكامل ج4 ص 323 ـ 24 ـ قارن تاريخ اليعقوبي ج2 ص 345.

(8) الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص 88 ـ 90.

مقاومة ذات بال، حتى أن الخليفة مروان إياه (فكر بالهرب إلى ملك الروم ولكن خلصاءه نصحوه بالسير إلى مصر)[1] وقالوا: (فتجعل الشام أمامك، وافريقية خلفك، فإن رأيت، ما تحب انصرفت إلى الشام، وإن تكن الأخرى اتسع المهرب نحو أفريقية، فإنها أرض واسعة، نائية منفردة)[2]. فأخذ مروان برأيهم، وعبر الشام سائراً نحو مصر حتى وافاها[3].

وبعد اندحار الأمويين في الزاب، أصبحت سورية تحت رحمة العباسيين المنتصرين وأخذت مدنها تفتح أبوابها الواحدة تلو الأخرى لاستقبال عبدالله وجند خراسان، إلا دمشق فإنها رفضت الاستسلام فحوصرت بضعة أيام ودخلها العباسيون في 26 نيسان 750م الموافق 10 رمضان 132هـ[4]. ومن فلسطين، أرسل عبدالله بن علي سرية لتعقب الخليفة الهارب، فقبض عليه وقتل في قرية بوصير بالأشمونين في صعيد مصر[5].

بمقتل مروان، انتهت دولة بني أمية في المشرق، وقامت مكانها الدولة العباسية. أما يزيد بن عمر بن هبيرة فإنه لما انهزم من جيش قحطبة وابنه الحسن، أتى واسط وتحصن بها[6]. فحاصرته الجيوش العباسية أحد عشر شهراً[7]. ولما جاءه خبر مقتل مروان، طلب له ولمن معه الصلح، وجعل له الأمان، ثم قتله أبو جعفر، ومداد الأمان لم يجف[8].

وباستسلام ابن هبيرة وأتباعه في واسط، صفي آخر معقل للمقاومة الأموية في مشرق الخلافة، وانتصرت الثورة على المستويين الواقعي والشرعي، وقامت الدولة العباسية، وانتقلت العاصمة من دمشق إلى بغداد.

---

(1) الدينوري: الأخبار الطوال ص 365.
(2) نفس المصدر ص365 ـ 66.
(3) نفس المصدر ص366.
(4) الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص 94 ـ 95.
(5) نفس المصدر ص93. تاريخ اليعقوبي ج2 ص 346.
(6) نفس المصدر ص104. ابن الأثير: الكامل ج4 ص 336.
(7) نفس المصدر ص107.
(8) نفس المصدر والصفحة.

الفصل التاسع

الخطوط العريضة لسياسة العباسيين
وتنكرهم لبرنامجهم السياسي والاجتماعي

لم تتغير سياسة العباسيين في جوهرها، وخاصة ما كان له علاقة بالمال والاقتصاد والأراضي عن سياسة أسلافهم الأمويين. فقد تنكروا لبرنامج الثورة السياسي والاجتماعي. وحكموا البلاد حكماً اقطاعياً استبدادياً مطلقاً. وتعاونوا مع الأرستقراطية المحلية (الفارسية) لضبط جماهير الفلاحين والعوام (الأحرار ونصف الأحرار) والعبيد. وواصلوا اقطاع الأراضي إلى أعضاء الأسرة الحاكمة وأقربائها ومقربيها والعاملين في الجيش والدولة وحولوا بيت المال إلى خزينة خاصة بهم وبطبقتهم الاجتماعية. واستخدموا الدين لتبرير حكمهم المطلق الاستبدادي. وتعزز النظام الاقطاعي واشتد استغلال الشغيلة. وتكررت ظاهرات الغلاء والمجاعات. وتفاقمت التناقضات الاجتماعية بين المستغلّين والمستغلِّين، وتعاظمت الصراعات الطبقية وثورات الكادحين.

واعتباراً من عهد المعتصم أخذ يتزايد نفوذ القادة العسكريين وكبار الموظفين في التدخل بشؤون الدولة وتسيير إدارتها. وبدأ الخليفة يفقد تدريجياً سلطاته الفعلية. وازدادت عزلة النظام عن الجماهير وكثرت الحركات الانفصالية الاقطاعية. ونشأت إلى جانب الخلافة العباسية ببغداد، الخلافة الأموية في الأندلس والخلافة الفاطمية في شمال أفريقيا. وتفاقمت الأزمة المالية والاقتصادية، وتخرب نظام الري، وتدهورت الزراعة والصناعة. وبيع الخراج وسائر الضرائب من أفراد عرفوا بجشعهم وتعسفهم.

وانتشرت ظاهرة الفساد، وانهارت سمعة الخلافة وتقوضت معنوياتها. وأصبحت نفقات البلاط وامراء الجيش عبئاً باهظاً على الخزينة.

وهكذا تضافرت الأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في إضعاف الدولة وانحلالها وتجزئتها مما سهل في سقوطها لاحقاً على أيدي المغول عام 656هـ/ 1258م.

عقب هزيمة الأمويين، استلم العباسيون السلطة عام 132هـ/ 750م يعاونهم في ذلك الأرستقراطية الفارسية.

بيد أن تبني العباسيين لبرنامج الثورة السياسي والاجتماعي وقيادتهم لجبهة المعارضة، لم يكن سوى عمل تكتيكي، هدف منه إزاحة الأسرة الأموية لتؤول إليهم مقاليد السلطة في قيادة الدولة الجديدة، دون اجراء تحولات ديمقراطية واجتماعية اقتصادية، كما وعدوا، لمصلحة الجماهير وأناس العمل الذين ساهموا بشكل حاسم في كسب الثورة. فابن طباطبا، وصف الدولة العباسية بأنها كانت ذات خدع وغدر[1]. وبتعبير آخر كان هدف العباسيين احلال حكم اقطاعي استغلالي محل حكم استبدادي شبه اقطاعي. فقد كان الجلاد يلازم الخليفة دائماً، وكان النطع حاضراً أبداً قرب العرش لاستقبال الرؤوس المغضوب عليها[2].

لقد اتخذ العباسيون من انتسابهم لأسرة النبي (ﷺ) وسيلة لتوطيد مركزهم الروحي، واستخدموا الدين لتقوية حكمهم المطلق وتبريره، ولتخدير الرأي العام[3]. فقد خطب الخليفة أبو جعفر المنصور في الناس يوم عرفات عام 150هـ قائلاً: (أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه...)[4].

ومن أجل تضليل الجماهير وإيهامها بتحقيق المساواة، تعاون العباسيون مع الأرستقراطية الفارسية على أساس أنها تمثلها في السلطة[5]. كما كان لاعتماد العباسيين على الأرستقراطية المحلية والنخبة المثقفة هدف آخر هو ضبط العوام ولجم الصراع الطبقي[6].

هذا وعلى الرغم من وحدة المصالح الطبقية بين الأرستقراطية العربية والمحلية

---

(1) الفخري في الأداب السلطانية والدول الاسلامية ص 149.
(2) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية. الترجمة العربية ج2 ص 10.
(3) د. عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص 11.
(4) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص 263.
(5) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص 99.
(6) د. عبد العزيز الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ص 76.

في استغلال جماهير الكادحين في الدولة العربية الجديدة، فإن وحدة المصالح تلك لم تكن متينة، ونوايا أصحابها لم تكن مخلصة. فتعاون الأرستقراطية العربية ـ رغم دلالته على فقدانها وضعها المميّز الذي كان لها زمن الأمويين ـ هذا التعاون مع الأرستقراطية المحلية كان يشوبه الحذر التام[1]. وكثيراً ما كان ينتهي بمصادرة الأموال والتنكيل الذي بلغ ذروته في نكبة الرشيد للبرامكة ومصادرته لأموالهم وممتلكاتهم[2]، وفي نكبة المأمون لبني سهل وتركه لمرو ورجوعه إلى بغداد[3].

ولم تتوقف الشكوك وأعمال البطش للخلفاء في العصر العباسي الأول عند حدود الفتك بزعماء الأرستقراطية المحلية وأعوانهم ومصادرة أموالهم، وإنما تجاوزت ذلك لتنصب حتى على أشخاص كأبي مسلم الخراساني، صاحب الجهود العظيمة في قيادة الثورة، وصاحب الدولة والقائم بأمرها على حد تعبير الخليفة العباسي الأول أبي العباس[4]. عندما لاحظ الخليفة أبو جعفر المنصور إمكانية قيادة أبي مسلم لثورة جماهيرية يمكن أن تلتهب بين الناس بلحظة، أمر بقتله[5].

إن الأرستقراطية المحلية، لم تكن ترمي من تعاونها مع العباسيين لجم الصراع الطبقي وإفساح المجال أمامها لتنفرد في استغلال أبناء شعبها فحسب، وإنما كانت تطمح أيضاً إلى ما هو أبعد من ذلك. إذ عندما تردت العلاقات وفشل التعاون بينهما[6]، حاولت الأرستقارطية الفارسية، استخدام التيار الشعوبي وافراغه من محتواه الأممي الجماهيري التقدمي وتوجيهه كحركة معادية للعرب ولدولتهم وتراثهم الثقافي. كما سعت إلى استغلال نقمة الجماهير والتعاون معها ضد الحكم العباسي. فنشأت الإمارات الاقطاعية المستقلة في إيران وبلاد ما وراء النهر وغيرهما من بلدان الخلافة العباسية[7].

---

(1) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص 99.

(2) تاريخ اليعقوبي ج2 ص 422.

(3) نفس المصدر ص451 ـ 52.

(4) نفس المصدر ص351.

(5) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص 99.

(6) د. عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور المتأخرة ص 11.

(7) نفس المصدر ص16.

السلطة تستخدم المرتزقة لحماية نظامها ومؤسساتها ومحاربة المتمردين من كل نوع

إن اتجاه حكام الولايات الاقطاعيين نحو الاستقلالية الواسعة بأقاليمهم عن الإدارة المركزية، والتفكك في روابط الدولة، وعجز النظام الاقتصادي ـ الاجتماعي عن تطوير نفسه وحماية مؤسساته من الانهيار ومن نقمة الجماهير المستثمرة والمضطهدة، كانت من العوامل الرئيسية التي اضطرت الخلفاء، اعتباراً من المعتصم 218 ـ 227هـ/ 833 ـ 842م ومروراً بالواثق 227 ـ 232هـ/ 842 ـ 847م والمتوكل 232 ـ 247هـ/ 847 ـ 861م، لاصطناع الأتراك من بلاد ما وراء النهر وتركستان كمحاربين مأجورين في أجهزة الجيش أولاً ثم الادارة من قاعدتها إلى القمة، ثم تحول الأتراك هؤلاء إلى أداة تخريب جديدة، وأداة تنكيل بالخلفاء[1] الذين لا يسلسون لمطامعهم ورغباتهم، ثم تحولهم ـ أي الأتراك ـ إلى اقطاعيين أشد تخريباً لعلاقات الانتاج الاقطاعية من سابقيهم[2].

تعاظم نفوذ الترك، في ظروف تزايد عزلة النظام عن الجماهير الشعبية، وامتد إلى مختلف مرافق الدولة، وأصبحت السلطة الحقيقية في العصر العباسي الثاني في أيدي امراء الجيش وأكثرهم من الأتراك ثم في أيدي البيروقراطية العليا أصحاب الدواوين والوظائف العالية من الوزراء والكتّاب، وأكثرهم من الفرس وغير العرب الذين لم تكن مهمتهم، في الغالب، إلا منافعهم الشخصية (فتفرد بالأمور غير الخلفاء فصاروا مقهورين خائفين قد قنعوا باسم الخلافة ورضوا بالسلامة)[3]. وقد عبر شعراء ذلك العصر بتهكم عن تدهور الحالة المعنوية للخلفاء في نظر الأهالي. فقال أحدهم دعبل الخزاعي بمناسبة وفاة المعتصم وخلافة الواثق:

الحمد لله لا صبر ولا جلد ... ولا عزاء إذا أهل البلا رقدوا

---

(1) اعتلى عرش الخلافة خلال تسع سنوات تقريباً من قتل الأتراك للمتوكل عام 247هـ/ 861م إلى قتلهم للمهتدى 256هـ/ 869م أربعة خلفاء (المنتصر ـ المستعين ـ المعتز ـ المهتدي) ذهبوا جميعاً، على يد الأتراك، قتلاً أو سماً أو تعذيباً وخلعاً/ السيوطي. تاريخ الخلفاء ص 350، 357، 358، 363 ـ 4.

(2) د. حسين مروة: النزعات ج2 ص24 ـ 25.

(3) المسعودي: التنبيه والإشراف ص 396.

خليفة مات لم يحزن له أحد وآخر قام لم يفرح به أحد
فمر هذا ومر الشؤم يتبعه وقام هذا، فقام الشؤم والنكد[1]

وقال آخر:

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا[2]

واستمرت شبحية الخليفة أيضاً في عهد تغلب الأمراء البويهيين الفرس ومن بعدهم السلاجقة الأتراك على مقاليد السلطة الفعلية في الخلافة العباسية.

وفي معظم حقبة سيطرة السلاجقة على الخلافة، كانت حروب الصليبيين العدوانية، يتفاقم شرها في سورية وفلسطين[3]. غير أنه لا السلاجقة ولا العباسيون أبدوا اهتماماً بها. فلما فتح المعتدون بيت المقدس سنة 492هـ/ 1099م، أقبل وفد من الشام إلى بغداد مستغيثاً بأولي الأمر مستنفراً بما دهم العرب بذلك البلد الشريف من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد ونهب الأموال والآثار، ولكنهم عادوا من غير قضاء حاجة[4]. وقال أبو المظفر الأبيوردي في هذا المعنى أبياتاً منها:

وكيف تنام العين ملء جفونها على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم تجرون ذيل الخفض فعل المسالم[5]

وما وافت سنة 656هـ/ 1258م، حتى سقطت بغداد في أيدي جحافل المغول، وقضوا بوحشية على ما تبقى من معالم الحياة الاقتصادية والصناعية والثقافية[6]. وبسقوط بغداد، انتهى تاريخ الخلافة العربية الحقيقية[7].

لقد ظلم العباسيون جماهير الشغيلة وقمعوا ثوراتها، وبطشوا بجميع شرائح

---

(1) د. عبد الكريم الاشتر: ديوان دعبل بن علي الخزاعي طبعة دمشق ص 93.
(2) المسعودي: مروج الذهب ج4 ص 145.
(3) د. فيليب حتي: تاريخ العرب ج2 ص 575.
(4) ابن الأثير: الكامل ج8 ص 189.
(5) نفس المصدر ص190.
(6) د. طيب تيزيني: مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسطي ص 186.
(7) د. فيليب حتي: تاريخ العرب ج3 ص 580.

المعارضة لحكمهم فانعزلوا عن الشعب. واستخدموا الجنود المرتزقة لحماية نظامهم الاقطاعي المتخلخل وللحدّ من تمزق البلاد لصالحهم ففقدوا سلطتهم الحقيقية وأضاعوا دولتهم، وتركوا البلاد وأهاليها وتراثها الحضاري فريسة سهلة أمام الغزاة المغول.

الفصل العاشر

نظام الأراضي وتعزز العلاقات الاقطاعية

وجدت العلاقات الاقطاعية النامية في البلدان التي افتتحها العرب أتم تعبير لها في خلافة بغداد. ففي عهد العباسيين، تطور شكل الملكية الاقطاعية للأرض المسمى (اقطاع) بوتائر أسرع. واعتباراً من أواخر القرن التاسع الميلادي، تطور الاقطاع حيث أصبح يعني حق التصرف بالأرض ومن عليها بعد أن كان يعني قبل ذلك حق استثمار الأرض[1].

اتبع العباسيون في مسألة نظام الأراضي سياسة أسلافهم وخصومهم الأمويين[2]. وقد توسعت في عهدهم الملكية العقارية الخاصة للأرض عن طريق الاقطاع أو الشراء أو الالجاء أو احياء الأرض الموات وغير ذلك.

ففي العصر العباسي الأول كانت الأراضي المقطعة تمنح لأعضاء الأسرة الحاكمة واقربائها ومقربيها وللعاملين في الدولة ورجال الجيش. وفي إبان سيطرة المتغلبين، البويهيين والسلاجقة على الخلافة، ازداد انتشار الأراضي المقطعة للعسكريين، كما تطور أيضاً نظام الاقطاع ـ التقبل، وأصبح الاقطاع اقطاعاً. وكان الخليفة مانح الاقطاع الأول، ثم شاركه في هذا الامتياز المتغلبون على الخلافة[3].

توسع الخلفاء العباسيون في توزيع الأراضي على أعضاء الأسرة الحاكمة ومقربيها وعلى رجال الدولة والقواعد. فقد اقطعت الحكومة، بعد مصادرتها لأراضي وأموال

---

(1) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص 66.

(2) د. بندلي جوزي صليبا: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ج1 ص51.

(3) الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ص 28.

بني أمية، جميع السيبين إلى القائد والعامل العباسي داود بن علي[1]. وأقطع الخليفة أبو جعفر المنصور أولاد وزيره أبي أيوب المورياني جميعاً قطائع[2]. كما أقطع صالح بن أيوب المورياني ضيعة تقرب من الأهواز وقدم له ثلاث مائة ألف درهم لمساعدته في استثمارها[3]. ولما شرع المنصور ببناء بغداد أقطع مواليه وقواده القطائع داخل المدينة وأقطع الجند أرباض المدينة وأقطع أهل بيته الأطراف[4]. ويعزو الطبري بناء الرصافة في الجانب الشرقي من بغداد، بسبب اقطاع القواعد[5].

واعتباراً من عهد الخليفة المعتصم 218 ـ 328هـ/ 833 ـ 842م، أخذ يتعاظم دور العنصر العسكري في الحياة السياسية والاقتصادية، واستبدلت القبائل العربية، التي صارت غير مؤهلة للأعمال الحربية التقنية، بمرتزقة يغلب فيهم العنصر التركي. وصارت الخدمة العسكرية الزامية في الدولة العربية ـ الإسلامية نتيجة لتغلغل العسكريين اللاحق، وسوء استخدام السلطة في ظل الاقطاع القائم. وتعززت هذه العملية في عهد سيطرة المتغلبين البويهيين والسلاجقة على الخلافة العباسية. وأصبحت الأراضي المقطعة تمنح للتمتع بها مدى الحياة أو بصورة مؤقتة بدل المرتبات[6]. أو لقاء أداء الخدمة العسكرية[7]. فقد منح المعتصم جنده الأتراك قطائع خاصة في عاصمته الجديدة سامراء[8]. وفي عهد البويهيين الذين اغتصبوا السلطة الدنيوية من الخلفاء عام 945م، جرى توزيع الأراضي على شكل حصص اقطاعية ـ حربية[9]، وتطور الاقطاع إبان حكمهم وأصبح اقطاعاً[10].

---

(1) البلاذري: فتوح البلدان ص 294. والسيب. أصله مجرى الماء كالنهر، كورة من سواد الكوفة وهما سيان الأعلى والأسفل. ياقوت: معجم البلدان ج3 ص 293.

(2) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص 117.

(3) نفس المصدر ص117 ـ 118.

(4) تاريخ اليعقوبي ج2 ص 374.

(5) تاريخ الرسل ج6 ص 393.

(6) الدوري: المصدر السابق 299.

(7) المصدر ذاته ص 30.

(8) مصطفى، شاكر: في التاريخ العباسي ج1 ص328.

(9) مجلة الطريق: دراسات في التاريخ الاجتماعي ـ الاقتصادي حول تطور الاقطاعية في ظل الدولة العربية ـ الاسلامية. للباحثين السوفياتيين د/ف. اتساميا ود/ل. نادر اوزه. العدد الأول شباط (فبراير) 1980 ص114.

(10) المصدر ذاته ص115.

ففي أوائل فترة سيطرة البويهيين على الخلافة، أقطع معز الدولة سنة 334هـ قواده وخواصّه وأتراكه ضياع السلطان وضياع المستترين وضياع ابن شيرزاد[1]. وكذلك أقطع أكثر أعمال السواد على حال خرابه ونقصان ارتفاعه وقبل عودته إلى عمارته. ثم سامح الوزراء المقطعين وقبلوا منهم الرشى وأخذوا المصانعات وقبلوا الشفاعات في البعض الآخر، فأعطيت الاقطاعات لهم بعبر، معدلات ايجار، متفاوتة. ولما كان الجند لا يهمهم إلا جمع المال فإنهم احتفظوا بالاقطاعات المربحة وردوا الخاسرة. (فلما أتت السنون وعمرت النواحي وزاد الارتفاع في بعضها بزيادة الغلات ونقص في بعضها الآخر بانحطاط الأسعار ذلك أن الوقت الذي أقطع فيه الجند الاقطاعات كان السعر مفرط الغلاء بسبب القحط)، فتمسك الرابحون بما حصل في أيديهم من اقطاعاتهم ولم يمكن الاستقصاء عليهم في العبرة (أي لا يمكن أخذ حقوق الخزينة بكاملها) ورد الخاسرون اقطاعاتهم فعوضوا عنها وتممت لهم نقائصهم[2]).

ولم يكن المقطعون يعيشون في المناطق الزراعية ويشرفون على إدارة أملاكهم، وإنما اقتصروا على تدبير نواحيهم بغلمانهم ووكلائهم، فلا يضبطون ما يجري على أيديهم ولا يهتدون إلى وجه تثمير ومصلحة ويقطعون أموالهم بضروب الإفساد واعتاض أصحابهم مما يذهب من أموالهم بمصادراتهم وبالحيف على معامليهم[3].

وأعطيت الأراضي التي لم تقطع بالضمان إلى كبار القواد والجند من جهة، وإلى أصحاب الدراريع والمتنفذين من المدنيين من جهة أخرى. وسعى المقطعون، العسكريون منهم والمدنيون، إلى جمع المال بكل وسيلة، وتجنب تدخل الدولة، واستغلال الفلاحين إلى أقصى حد. يؤيد ذلك قول مسكويه: (فأما القواد فإنهم حرصوا على جمع المال وحيازة الأرباح ودعوى المظالم، والتماس الحطائط، والتخفيف من مقدار الضمان... وأما أصحاب الدراريع فكانوا أهدى من الجند إلى تغريم السلطان والحيلة عليه في كسب الأموال. ونظر بعضهم إلى بعض فيما تجري عليه معاملاتهم وبذلوا المرافق واعتصموا بالوسائل... وتوالت السنون عليهم فتفردوا

(1) مسكويه: تجارب الأمم ج2 ص 96.
(2) المصدر ذاته ص 97.
(3) المصدر ذاته ص 98 ـ 99.

بنواحيهم وخلوا بمعامليهم، فمن مستعف يصادر ويغير رسمه وتنقص معاملته على قدر حاله وماله. ومن مانع جانبه فيخفف عنه الرسوم ويرتفق على ذلك منه بالأموال يتخذه الضامن عضداً في شدائده وعند مناظرة سلطانه ويصطلم المستضعفين)[1].

وكان الولاة في عهد البويهيين، غالباً ما يحصلون في المناطق التي يديرونها على الاقطاعات بدلاً من المرتبات. وكانوا يجمعون بين حقوق المقطع ومهمات الوالي[2]. وكان الولاة يمتلكون المدن والقلاع، ولا يدفعون لسيدهم أية ضريبة، مكتفين بمده بالجند عند الحاجة وباعلان ولائهم والتعبير عن احترامهم له[3].

ومع انتقال السلطة إلى السلجوقيين، الذين انتزعوا بغداد من أيدي البويهيين عام 1055م، ظل الاقطاع بالرغم من نموه الكمي في عهد أوائل السلاجقة، محافظاً على طابعه السابق في حكم البويهيين[4].

وفي عهد متأخرة السلاجقة صار مصطلح الاقطاع لا يدل على الحق في جباية الضرائب، وإنما على ملكية الأراضي الوراثية التي كان يحصل عليها المقطعون من القادة العسكريين لقاء الخدمة والوظيفة الإدارية[5]. كذلك تطورت البنية الداخلية لطبقة المقطعين. فقد كان أصحاب الاقطاعات الكبيرة ملزمين بتقديم الجند للمشاركة في العمليات الحربية. وكان الكثيرون من العسكريين ينالون الاقطاعات بدل المرتبات[6].

إن إنهيار دولة السلاجقة، وانتقال السلطة الفعلية في الاقاليم إلى يد الاتابكة، والتوزيع المتزايد للاقطاعات الإدارية والعسكرية حتى في المناطق المركزية من الدولة، هذه العوامل كلها حرمت الدولة المركزية من الجزء الأساسي من الواردات، وأدت إلى استقلالية المقطعين، وانهيار (بيت المال) وتضعضع السلطة المركزية[7].

وكان اقطاع الأرض على نوعين:

أ ـ اقطاع تمليك: ويعني التنازل عن الأرض، ومنحها كملكية دائمة مع حق توريثها

(1) المصدر السابق ص 98 ـ 99.
(2) مجلة الطريق البيروتية. العدد الأول. شباط (فبراير) 1980 ص 111.
(3) المصدر ذاته ص111 ـ 112.
(4) المصدر ذاته ص112.
(5) المصدر ذاته.
(6) المصدر ذاته.
(7) المصدر ذاته.

أو ملكية موقتة بهدف استثمارها. ويعطى عادة من الأرض الموات لاحيائها. وعلى صاحب هذا الاقطاع دفع العشر أو الزكاة[1].

ب ـ اقطاع استغلال: ويعطى عادة لرجال الجيش من أرض الخراج بدل المرتبات (رزق)، وهو لا يورث، حتى ولا لمدى الحياة. وكان يعاد توزيعه من حين لآخر. وفي حال وفاة المقطع المالك لم يكن ورثته يحصلون على اقطاعاته. وإنما على معاش تقاعدي[2]. وكان المقطع من العسكريين ملزماً بتأدية الخدمة العسكرية مقابل اقطاعه، وخاضعاً لمراقبة صارمة من قبل الدولة. أما المقطع من الأمراء، فلم يكن يتحمل أية مسؤولية مادية فيما يتعلق بدفع مرتبات الجند، الذين كانوا يتلقون، مباشرة، مرتباتهم (رزق) من الدولة، أو يحصلون على اقطاع[3]. وكان أصحاب اقطاع الاستغلال مُعْفَوْنَ من ضريبة العشر[4].

ويمكن الاستنتاج مما تقدم أن نظام (الاقطاع) قد لعب دوراً حاسماً في تطور العلاقات الاقطاعية في العالم الإسلامي.

وكانت الأراضي تنتقل إلى كبار الملاك عن طريق الشراء أو الالجاء، إذ إن ضغط الجباة واضطراب الوضع، دفع صغار الملاكين إلى إلجاء ضياعهم لبعض أعضاء الأسرة الحاكمة أو لأحد الأمراء والشخصيات الكبيرة المتنفذة، وذلك مقابل دفع جزء من الحاصل إلى الحامي[5]. وبمرور الزمن كان الحامي يصبح المالك الحقيقي للأرض بينما يتبدل وضع المالك الأصلي إلى حالة مزارع في الأرض ـ محاصص. وقد أدت عملية الالجاء إلى توسع وانتشار الملكية الكبرى على حساب الزراع الصغار[6].

فقد ألجأ أهل زنجان[7] ضياعهم إلى القاسم بن أمير المؤمنين الرشيد، عامل

---

(1) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي. الأحكام السلطانية والولايات الدينية ص 178.

(2) مجلة الطريق البيروتية. العدد الأول شباط (فبراير) 1980 ص111.

(3) المصدر ذاته.

(4) المصدر ذاته.

(5) الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ص 34.

(6) الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص 18.

(7) زنجان: بلد كبير مشهور من نواحي الجبال بين أذربيجان وبينها. وهي قريبة من قزوين/ ياقوت: معجم البلدان ج3 ص152.

جرجان وطبرستان، تعززاً به ودفعاً لمكروه الصعاليك وظلم العمال لهم، وكتبوا له الأشرية وصاروا مزارعين له[1]. وكان القاقزان عشرياً لأن أهله أسلموا وأحيوه بعد الاسلام، فألجأوه إلى القاسم أيضاً على أن جعلوا له عشراً ثانياً سوى عشر بيت المال[2]. والجأ أهل الشعيبية من الفرات ضياعهم لعلي بن هارون الرشيد في خلافته على أن يكونوا مزارعين له ويخفف مقاسمتهم، فتكلم فيها فجعلت عشرية، وقاسم أهلها[3]. ويشير الاصطخري أن ضياعاً في فارس ألجأها أصحابها إلى بعض رجال الحاشية المتنفذين، مقابل ربع الحاصل[4]، ويذكر مسكويه أن كثيراً من الملاك ألجأوا أراضيهم سنة 358هـ/ 968م لابن شيرزاد، الذي كان شديد الحظوة وذا كلمة مسموعة لدى الأمير البويهي صمصام الدولة[5].

ونتيجة لتوسع الحركة التجارية في العهد العباسي، تكدست لدى كبار التجار رساميل ضخمة، فوظفوا قسماً منها في ابتياع الأراضي واستثمارها استثماراً مركزاً بواسطة استخدام العبيد على نطاق واسع[6] مما أسهم بدوره أيضاً في انتشار الملكيات الواسعة في الأراضي[7]. وكان التاجر ابن الجصاص يعد من كبار الملاكين العقاريين[8].

وكان إحياء الأرض الموات من طرق توسع الملكية العقارية الخاصة أيضاً[9]. إذ كان الخليفة يعهد إلى بعض أهله أو خاصته في تعميرها وغرسها ثم تصير له، كما فعل الخليفة أبو جعفر المنصور بابنه صالح، إذ أمره بعمارة بعض المزارع العاطلة في الأهواز[10]. وما أحيي من الموات معشور لا يجوز أن يضرب عليه خراج سواء سقي بماء العشر أو بماء الخراج[11].

---

(1) البلاذري: فتوح البلدان ص 323.
(2) نفس المصدر والصفحة. والقاقزان: ثغر من نواحي قزوين، ياقوت: معجم البلدان ج4 ص 298.
(3) المصدر ذاته ص371.
(4) المسالك والممالك ص 158.
(5) تجارب الأمم ج2 ص 557.
(6) د. عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص 20.
(7) نفس المصدر والصفحة.
(8) د. عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ص 33.
(9) الماوردي. الأحكام السلطانية ص 178.
(10) ابن طباطبا: الفخري في الأداب السلطانية والدول الاسلامية ص 167.
(11) الماوردي: الأحكام السلطانية ص 178.

وامتدت عملية توسع الملكيات الكبرى فشملت الاستحواذ على بعض الأراضي المشاعة ـ الحمى[1]. مما أدى إلى قيام انتفاضات فلاحية نتيجة التجاوز على حقوق الزراع المشاعيين[2].

ولم ينقض العصر العباسي الأول حتى أصبح في حوزة الخلفاء وأقاربهم ورجال دولتهم ما لا يحصى عدده من الضياع[3]. وكان الخليفة وأصحاب المراكز القيادية في الدولة أكبر ملاكي عصرهم[4].

وكان الاقطاعيون، أصحاب الحظوة والنفوذ لدى السلطة، يستطيعون بطرقهم الخاصة أن يحصلوا على اعفاءات كثيرة من الضرائب. وكانوا ينالون، أحياناً، مساعدات مالية عند منحهم الأراضي المقطعة ولا سيما الموات منها[5]. وازداد اعتماد الحكومة على الملاكين المحليين والعرب، فامعنوا جوراً واستغلالاً لجماهير الفلاحين. ويذكر المسعودي أن محمد بن سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس، والي البصرة كان يغل كل يوم مائة ألف درهم[6]. كما يذكر التنوخي أن الرشيد اعتل، فداواه طبيبه، فأمر بمساعدته حتى ابتاع ضياعاً غلتها مليون درهم[7]. وبلغت غلة الخيزران، والدة الرشيد مئة وستين مليون درهم في العام[8]، وغلة أم محمد بن الواثق عشرة ملايين دينار في العام، أكثر من مئة وخمسين مليون درهم[9]. وما حصل من ارتفاع ضياع ابن الفرات الملك سوى الاقطاع والايغار في مدة سبع عشرة سنة مع ما انصرف في ذلك من المبيع والمقطع والموغر للحاشية حساباً في السنة مئتين وخمسين ألف دينار، أربعة آلاف ألف ومئتين وخمسين ألف دينار[10].

وقد تطور الاقطاع في العصر العباسي الأول وتعززت قواعده، حيث أصبح يعني

---

(1) د. عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص 72.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الاسلامي ج2 ص 127.
(4) د. عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ص 34.
(5) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ص 176.
(6) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص348.
(7) التنوخي، أبو علي المحسن بن علي: الفرج بعد الشدة ج2 ص 102 ـ 103.
(8) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص239.
(9) الطبري: تاريخ الرسل ج3 ص 531.
(10) مسكويه: تجارب الأمم ج1 ص 279.

حق التصرف بالأرض ومن عليها بعد أن كان يعني قبل ذلك حق استثمار الأرض[1].

وكانت الملكية الاقطاعية للدولة هي السائدة في معظم بلدان الخلافة[2]. وكانت بعض الأراضي ملكية خاصة تسمى (أراضي الملك)[3]. وكذلك وجدت أراضي الوقف وهي تخص المؤسسات الاسلامية الدينية. وأراضي الوقف لا تنقل ملكيتها من حيث المبدأ[4].

(1) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص 66.

(2) جماعة المؤلفين السوفييت: عرض اقتصادي تاريخي ج1 ص 243.

(3) الدوري تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ص 32.

(4) المصدر ذاته ص37.

الفصل الحادي عشر

النظام المالي والضريبي

حوَّل العباسيون والبيروقراطية العليا بيت المال إلى خزينة خاصة بهم وبطبقتهم الاجتماعية[1]. وأنفقوا موارد الجباية حسب اجتهادهم[2].

كما تنكروا لبرنامجهم الاجتماعي ـ الاقتصادي بتحقيق العدل بين جميع المواطنين، وتنكروا لوعودهم بتحقيق المساواة لمختلف القوميات وشعوب المملكة[3]. واتبعوا سياسة الأمويين في ميدان المال والضرائب[4]. فأرهقوا الفلاحين وصغار الحرفيين وسائر الكادحين في الريف والمدينة بصنوف الضرائب، واستخدم الحكام والجباة وسائل التعذيب في جبايتها[5]. ولزَّمت الضرائب وانتشرت الرشوات واختلاسات الموظفين وكثرت المصادرات[6]. وتوسعت الطبقة العليا في حياة البذخ والترف وازدادت النفقات[7]. واتسعت الهوة في مستويات الدخل. وكانت كلما ازدادت الطبقة السائدة غنى ازداد الفقراء فقراً[8].

استأثر العباسيون والقادة العسكريون وكبار الموظفين ببيت المال وموارد الجباية. ولم يكن حب الحكام العباسيين للمال وحرصهم على جمعه بأي وسيلة ليقل عما كان

(1) د. طيب تيزيني: مشروع رؤية جديدة للفكر العربي الوسيط ص 172.
(2) الماوردي؛ الأحكام السلطانية ص 203.
(3) د. عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص 10.
(4) د. بندلي جوزي صليبا: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ج1 ص51.
(5) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الاسلامي ج2 ص 121.
(6) د. عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور السياسية المتأخرة ص 40.
(7) ابن خلدون: المقدمة ص 234.
(8) د. فيليب حتي: تاريخ العرب ج2 ص 582.

عليه الحال لدى أسلافهم وخصومهم الأمويين. والمال في نظرهم سند الدولة وعصب السياسة. فأبو جعفر المنصور، أقدر خلفاء بني العباس وأبعدهم نظراً وأعظمهم شدة وكيداً وأكثرهم حرصاً على جمع المال لما له في نظره من أثر فعال في اصطناع الرجال ومحاربة الأعداء، فقد أنفق مثلاً في حرب الخوارج بأفريقيا سنة 154هـ ثلاثة وستين مليون درهم، فاعتبر ما أنفقه في الحروب الأخرى وهي كثيرة[1]. وذكر الطبري أن المعتصم حوّل في عام 222هـ/ 837م ثلاثين مليون درهم لينفقها في حرب بابك[2]. حتى أن الذهبي يتصور أن المعتصم أنفق بيوت الأموال لقمع الانتفاضة البابكية. وعندما مات أبو جعفر المنصور خلف في بيت ماله ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار[3]. ولما دنا أجله أوصى ابنه وولي عهده المهدي قائلاً: قد جمعت لك من الأموال ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور، فاحتفظ بها، فإنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً[4]. فما هو مصدر المال في خزينة الدولة؟ وكيف كان يجمع ويصرف؟ ومن هي الجهة أو الطبقة الاجتماعية التي كانت تنتفع به بالدرجة الأولى؟

موارد بيت المال

كانت الدولة العباسية، شأن الدولة الأموية، تستقي مواردها القانونية (الشرعية) في نظر الفقهاء وغير القانونية من المصادر التالية:

(1) المصادر القانونية (الشرعية).

أ ـ الجزية: وقد نقصت مواردها بدخول الناس في الإسلام بتوالي الأعوام[5].

ب ـ الزكاة: تناقصت مواردها أيضاً بتوالي السنين حتى كان دفعها من قبل المثرين يقتصر على زكاة المواشي والزروع[6].

---

(1) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ج2 ص39.

(2) الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص342.

(3) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص 318.

(4) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص 240.

(5) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ج2 ص122.

(6) التنوخي: الفرج بعد الشدة ج2 ص 116.

جـ ـ الغنائم: قلّت جداً بسبب توقف الفتوحات تقريباً، حتى لم يبق لها أثر في القرن الرابع الهجري[1].

د ـ الخراج: ضريبة الأرض. وظل، كما كان في العصر الأموي، البند الرئيسي في خزينة الدولة[2].

(2) المصادر غير القانونية أو الضرائب في الواقع حسب تعبير الدوري[3]. وقد نشأت عن حاجات وظروف جديدة ولعبت دوراً مهماً في السياسة المالية[4] ومنها:

أ ـ اخماس المعادن[5].

ب ـ أعشار التجارة، وتختلف باختلاف جنسية التجار 10% على الأجانب و5% على تجارات أهل الذمة و2,5 على تجارات المسلمين[6]. وكان يرد منها إلى بيت المال مبالغ وافرة نتيجة لتوسع الحركة التجارية[7].

جـ ـ المكوس والمراصد: تقابلان الرسوم الجمركية في هذه الأيام[8]. وتعاظم دخلها في العصر العباسي الثاني[9].

د ـ ضريبة الحوانيت والأسواق: فرضت لأول مرة من قبل الخليفة المهدي عام 783م/ 167هـ[10]. وقدر اليعقوبي هذه الضريبة في بغداد باثني عشر مليون درهم سنوياً[11].

هـ ـ ضريبة الإرث: وضعت لأول مرة في خلافة المعتمد[12] 256 ـ 279هـ/ 870

---

(1) الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ص 187.

(2) جرجي زيدان: نفس المصدر السابق ج2 ص 173.

(3) الدوري: المصدر ذاته ص 187.

(4) نفس المصدر والصفحة.

(5) أبو بكر محمد بن يحيى الصولي: أدب الكتاب ص 199.

(6) أبو يوسف القاضي: كتاب الخراج طبعة بولاق ص 76. ابن سلام. كتاب الأموال ص 68.

(7) زيدان، جرجي المصدر ذاته ج2 ص91.

(8) نفس المصدر ص93.

(9) نفس المصدر ص94.

(10) تاريخ اليعقوبي ج2 ص 399.

(11) اليعقوبي: كتاب البلدان ص22.

(12) الدوري: نفس المصدر ص198.

ـ 892م ولا يعرف بالضبط فيما إذا كانت هذه الضريبة تصاعدية، واستمرت طيلة القرن الرابع الهجري وكانت مورداً مهماً للخزينة[1].

و ـ المستغلات: ضرائب تجبى لبيت المال من المنازل والأسواق والطواحين التي بناها الناس على أرض حكومية[2].

ز ـ ضرائب الاحداث: وهي الغرامات التي تأخذها الشرطة على الجنايات[3].

ح ـ غلة دار الضرب: ضريبة تتقاضاها الحكومة من صاحب احتكار سكّ العملة[4].

ط ـ ضرائب أخرى: على الطحين والمواد الغذائية، وعلى بيع المواشي والخضر والفواكه، وضرائب على الصناعة وغير ذلك[5].

غير أن عمدة الخزينة، من بين تلك الضرائب الكثيرة، كانت على الخراج[6]. فالجباية من الخراج والخراج على الأرض، والأرض إنما يعمل بها الفلاحون، وبالتالي فالثروة العباسية تجمع من جهد الفلاحين[7]. وقد أكّد هذه الحقيقة الخليفة أبو جعفر المنصور في وصيته الآنفة الذكر لابنه وولي عهده المهدي[8].

وسواء أجبي الخراج على حساب المساحة أو مقاسمة، فقد كان، كما في العهد الأموي، ثقيلاً على جماهير الفلاحين[9]. فقد جعله أبو جعفر المنصور مقاسمة بالنصف[10]. ثم أصبح 5/3 ثلاثة أخماس الحاصل[11] وعاد للنصف في خلافة الرشيد[12]. وجعله المأمون 5/2 خمسي الحاصل[13] وارتفع في القرن الرابع الهجري

(1) المصدر السابق، ص200.
(2) ابن حوقل، أبو القاسم محمد النصيبي البغدادي: المالك والمسالك ص 217.
(3) الدوري: العصر العباسي الأول ص 228.
(4) جرجي زيدان: نفس المصدر ج2 ص 75 الهامش.
(5) الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص205.
(6) زيدان: نفس المصدر ج2 ص 94.
(7) نفس المصدر ص173.
(8) أنظر ص 228.
(9) زيدان: نفس المصدر ج2 ص90.
(10) الماوردي: الأحكام السلطانية ص 176.
(11) البلاذري: فتوح البلدان ص 238.
(12) الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص 446.
(13) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ص 216.

في زمن ناصر الدولة إلى 3/ 5 ثلاثة أخماس الحاصل[1].

وكان الجباة يعسفون الناس ويزيدون عليهم. وكان عمال المال والجهابذة يبتكرون كل يوم أسلوباً جديداً لجباية مال جديد[2]. وبيع جباية الخراج وسائر الضرائب من أشخاص عرفوا بشرهم وشراستهم أو من عمال الدولة ومساعديهم الذين كانوا أشد ظلماً على الرعية وأسرع إلى الارتشاء من غيرهم من الجباة الذين كانوا على كل حال تحت مراقبتهم[3]. وقال أبو يوسف للخليفة هارون الرشيد: (ورأيت أن لا تقبل شيئاً من السواد ولا غير السواد من البلاد. فإن المتقبل إذا كان في قبالته فضل عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم ليسلم مما دخل فيه. وفي ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعية. والمتقبل لا يبالي بهلاكهم بصلاح أمره في قبالته. ولعله أن يستفضل بعدما يتقبل به فضلاً كثيراً وليس يمكنه ذلك إلا بشدة منه على الرعية وضرب لهم شديد وإقامته لهم في الشمس وتعليق الحجارة في الأعناق وعذاب عظيم ينال أهل الخراج)[4]. ويضيف القاضي أبو يوسف قائلاً:

(إنما أكره القبالة لأني لا آمن أن يحمل هذا التقبل، الملتزم، على أهل الخراج ما ليس يجب عليهم فيعاملهم بما وصفت لك فيضر ذلك بهم فيخربوا ما عمروا ويدعوه فينكسر الخراج[5]). وقد أصبح نظام الالتزام أو التقبل أو الضمان، على ما يبدو، النظام السائد، وفي رأي ابن عباس أن (القبالات حرام) فهو، كما يقول ابن عمر، (الربا العجلان)[6].

ومع تطور الاقطاع وازدهار الاقتصاد النقدي وجباية الخراج عملة، اشتد استغلال الفلاحين، إذ اضطروا إلى بيع محاصيلهم للتجار الذين أشركوا الجباة في هذه العملية. وانخفضت أسعار المبيع انخفاضاً كبيراً، وازداد انتشار الربا في الريف،

(1) الدوري: نفس المصدر ص 45.
(2) زيدان: نفس المصدر ج2 ص 121 الهامش.
(3) د. بندلي جوزي صليبا: : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ج1 ص52.
(4) أبو يوسف القاضي: كتاب الخراج ـ طبعة بولاق ص 60.
(5) نفس المصدر والصفحة.
(6) الصولي: المصدر السابق ص 222.

وأخذ الفلاحون يهربون من الأرض، فكلف موظفون مخصصون بمطاردتهم وإعادتهم إلى الأرض قسراً أي إلى حالة القنانة أو (رق الأرض)[1].

وتحت سلطة العباسيين، أصبح كبار الموظفين هم كبار المقطعين أو المتقبلين (الملتزمين) والذين يتولون العمليات التجارية والمالية والمصرفية الكبرى[2]. وفي العصر العباسي الثاني، تبوأت البيروقراطية العليا مراكز الصدارة في الاقتصاد والسياسة والحرب[3].

كان العمال والوزراء يستغلون وظائفهم فينهبون الرعية ويختلسون موارد الدولة. فقد ذكر عريب أن حامد بن عباس جمع بخلال تقلده الوزارة في زمن المقتدر، ثروة طائلة وضمن بعض المقاطعات من الحكومة[4]. وكان حامد قبل تقلده الوزارة سقاء وبائع تمر[5]. وحول ارتشاء الوزارة قال أحد الشعراء:

وزير ما يفيق من الرقاعة يُولي ثم يعزل بعد ساعة
إذا أهل الرشا صاروا إليه فأحظى القوم أوفرهم بضاعة[6]

ويذكر محمد كرد علي بأن العمال أصبحوا في الدولة العباسية صورة عجيبة من استنزاف الأموال واعنات الناس[7]. وقد عبر الشاعر أبو العطاء السندي عن إرهاق العباسيين وشدة جورهم للرعية بالبيت التالي:

يا ليت جور بني مروان عاد لنا يا ليت عدل بني العباس في النار[8]

وكان الخلفاء يقاسمون وزراءهم وعمالهم فيما ينهبون عن طريق قبول الرشا والمصادرة فقد ولى الرشيد علي بن عيسى بن ماهان سنة 796م على خراسان. فكان الوالي القاسي الظالم مدة عشر سنين، حمل من أموال الناس إلى الرشيد (ألف بدرة معمولة من ألوان الحرير فيها عشرة آلاف ألف درهم)[9]. فسر الخليفة بذلك، وزاد

---

(1) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي ص 160.
(2) نفس المصدر ص161.
(3) نفس المصدر والصفحة.
(4) عريب بن سعد القرطبي: صلة تاريخ الطبري. ص 59 ـ 77.
(5) ياقوت الحموي. معجم الأدباء ج5 ص 72.
(6) عريب بن سعد القرطبي: صلة تاريخ الطبري ص 29.
(7) محمد علي كرد: الاسلام والحضارة العربية ج2 ص 238.
(8) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ج17 ص 250.
(9) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص 228.

علي في الحظوة عنده. ولما شكا الناس ظلمه وسوء سيرته فيهم لم يستمع الخليفة لشكواهم[1]. حتى وسوس إليه بعض الوشاة أن علياً ينوي الثورة، فمشى بنفسه إليه سنة 189هـ/ 804م. ولكن علياً قدم على الرشيد وعلى حاشيته بالأموال والهدايا والطرف، من المتاع والمسك والجوهر وآنية الذهب والفضة والسلاح والدواب، وأهدى بعد ذلك إلى جميع من كان معه من ولده وأهل بيته وكتابه وخدمه وقواده على قدر طبقاتهم ومراتبهم فرضي الخليفة عنه ورده إلى خراسان مقتنعاً بولائه[2].

ومن يتتبع تاريخ الدولة العباسية يجده مليئاً بحوادث مصادرة الأموال. وكانت أمثال هذه الابتزازات التي خضع لويلاتها العمال والوزراء والموظفون الذين أثروا عن طريق الوظيفة تؤلف وسيلة مطّردة لملء خزانة الدولة بعد فراغها[3]. وتجاوزت أعمال المصادرة كبار موظفي الدولة لتشمل أحياناً أموال الرعية. فقد صادر الخليفة أبو جعفر المنصور 136 ـ 158هـ/ 754 ـ 775م ثلاثة ملايين درهم من خالد البرمكي[4]. وأخذ أموال الناس حتى ما ترك عند أحد فضلاً، وكان مبلغ ما أخذ لهم ثمانمائة مليون درهم[5]. وصادر الخليفة هارون الرشيد أموال محمد بن سليمان عامله على البصرة، وكان مبلغها خمسين مليون درهم سوى الضياع والدور والمستغلات[6]. وكانت أطماع الرشيد الشخصية في مصادرة أموال آل برمك من بين الدوافع الرئيسة في نكبتهم[7]. وأكثر الواثق (227 ـ 232هـ/ 842 ـ 847م) من مصادرة موظفيه حتى صارت سنة سيئة لمن خلفه ومصدراً يعول عليه في أوقات الحاجة[8]. وهكذا صارت المصادرة متسلسلة الحلقات: فالعامل يتفنن في ابتزاز الأموال من الشعب الكادح. والوزير يقبض من العامل مالاً لقاء تعيينه، وقد يصادره بعد توليته. وكان الوزراء يجمعون الثروات الضخمة عن طريق الرشوة. وأما الخليفة فهو يصادر

---

(1) الطبري. تاريخ الرسل ج6 ص 506.
(2) نفس المصدر ص 506 ـ 507.
(3) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية. الترجمة العربية ج2 ص 19.
(4) الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص302.
(5) تاريخ اليعقوبي ج2 ص 387.
(6) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص 348.
(7) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص 243. د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص 99.
(8) د. عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص 40.

الجميع: الرعية وكل صاحب مال والكتاب والعمال والوزراء، حتى أنهم أنشأوا ديواناً خاصاً للمصادرة[1]. وكان أولى بهم أن يدعوه ديوان الابتزاز واللصوصية، ذلك أن الدولة كانت تلجأ إلى المصادرة كلما كانت بحاجة إلى المال وهي في الواقع كانت دائماً بحاجة إليه. وهذه المصادرة لم تكن تسوغها خيانة فرد أو عامل أو وزير، وإنما كانت تقوم على الاغتصاب فحسب[2].

تشير المعطيات المالية على قلتها ورودها عرضاً في كتب التاريخ والرحلات، أن خزينة الدولة ظلت عامرة بالمال، وموارد الجباية استمرت بالزيادة حتى منتصف القرن الثالث الهجري ثم أخذت الموارد تقل، والوضع المالي يسوء ويتدهور حتى أصبح عجز الخزينة مزمناً.

ذكر المسعودي أن المنصور خلف في بيت ماله عند وفاته ستمائة مليون درهم وأربعة عشر مليون دينار أي ما مجموعه حوالي ثمانمائة وعشرة ملايين درهم[3]. عدا ما أنفقه من أموال طائلة في قمع الاضطرابات والثورات الداخلية وما بذله لأهله[4]، وما صرفه في بناء بغداد[5]. ولما مات الرشيد خلف في بيت ماله تسعمائة مليون درهم ونيفاً[6]. غير ما أنفقه وبذله وأسرف فيه[7]. ناهيك من أمر البرامكة وما امتلكوه أيام الرشيد من الضياع وما بذلوه من الأموال[8]. وقد أنفق المهدي كل ما خلفه المنصور وكل ما جباه في أثناء خلافته[9] 158 ـ 169هـ/ 775 ـ 785م. وقد اتسعت الثروة في زمن المأمون بسبب نمو الزراعة واتساع الحركة التجارية. ولكننا لم نقف على مقدار ما خلفه في بيت ماله عند وفاته، ولعله ضاع أو احترق أثناء الحرب الأهلية بينه وبين أخيه الأمين. ويشير إلى ذلك قدامة بن جعفر قائلاً: وحساب بيت

---

(1) الصابي: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء. ص 306.

(2) د. محمد ضياء الدين الريس: الخراج في الدولة الاسلامية ص 470 ـ 474.

(3) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص 318.

(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج6 ص 31،

(5) المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد الشافعي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص 121.

(6) الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص 544.

(7) د. حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام السياسي ج2 ص424.

(8) زيدان: نفس المصدر ج2 ص 40.

(9) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص 322.

المال في بغداد، احترق في الفتنة بين الأمين والمأمون ثم لم يدون الحساب إلاّ بعد سنة 204هـ[1].

وتشير قوائم ابن خلدون وقدامة بن جعفر وابن خرداذبه ان مجموع صافي الدخل أو ما يعبر عنه (بارتفاع الدولة)، أي المال الذي يأتي من دواوين الخراج في الولايات إلى ديوان الخراج المركزي في بغداد بعد دفع أرزاق الجند وموظفي الدواوين وما تتطلبه الجباية من نفقات واصلاح الترع، أقول إن صافي الدخل بلغ في أيام المأمون بين سنة 204 و210هـ/ حوالي 155 و396 مليون درهم[2]، و388 مليون درهم. ونيفاً في أيام المعتصم أو بعيده إلى سنة 225هـ[3]، وحوالي ثلثمائة مليون درهم في أواسط القرن الثالث الهجري[4].

يتميز العصر العباسي الثاني بتناقص موارد بيت المال وكثرة النفقات مما أدى إلى تدهور الوضع المالي وفراغ الخزينة حتى صارت تشكو الافلاس[5].

ومن أمثالهم المأثورة أن ما جمعه السفاح والمنصور والمهدي والرشيد من الأموال فرقه الأمين[6]. وما جمعه المأمون والمعتصم الواثق أنفقه المتوكل[7] (232 ـ 247هـ/ 847 ـ 861م) حتى قيل إنه لم تكن النفقات في عصر من العصور مثلها في أيام المتوكل[8]. فقد أنفق على أعمال عمرانية غير منتجة مئتين وأربعة وتسعين مليون درهم[9]. وبنى قصوراً كثيرة منها: الشاه والعروس والشبداز والبديع والغريب والبرج[10]. كما أنفق على قصر العروس ثلاثين مليون درهم، وعلى كل من الشيدان والبرج والجعفري المحدث وقصر بستان الايتاخية عشرة ملايين درهم، وعلى كل من قصر المختار والصبح والمليح والتل خمسة ملايين وعلى الجوسق نصف مليون

(1) ابن جعفر، قدامة: كتاب الخراج والصنعة ص 236 ـ 237.
(2) ابن خلدون: المقدمة ص 156 ـ 158.
(3) ابن جعفر، قدامة: نفس المصدر ص 249 ـ 251.
(4) ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله: المسالك والممالك ص 237 ـ 340.
(5) الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة. ص 16.
(6) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل: لطائف المعارف ص 118.
(7) نفس المصدر والصفحة.
(8) المسعودي: مروج الذهب. ج4 ص122.
(9) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج3 ص175.
(10) تاريخ اليعقوبي: ج2 ص491.

درهم[1]، وأنفق على قصر الشبداز مليوناً وسبعمائة ألف دينار[2]. وأنفق في بناء مدينة الماحوزة، على بعد خمسة عشر كيلومتراً شمال سامراء، أكثر من مليون درهم[3]. وأحضر إليها أصحاب الملاهي فوهب لهم مليون درهم[4]. وبنى فيها قصراً أسماه اللؤلؤة لم ير مثله في علوه أنفق عليه خمسة ملايين درهم[5]. وكانت لديه أربعة آلاف سرية[6]. ولعل كثرة نفقاته وقلة الوارد دفعته إلى مصادرة كبار موظفيه[7]. حتى لنستطيع أن نعد منها أربع عشرة مصادرة كبرى فيما ذكر اليعقوبي[8]. وما جمعه المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي أنفقه المقتدر[9] (295 ـ 320هـ / 908 ـ 932م). فقد قُدِّر ما أنفقه المقتدر ضياعاً وتبذيراً بنيف وسبعين مليون دينار[10]، ما عدا نفقات الدولة. وقدر مسكويه مجموع ما صادره المقتدر من الوزراء والكتاب ومن التاجر ابن الجصاص الجوهري بحوالي ثمانية وستين ونصف مليون دينار[11]. واضطر مع ذلك ـ لاسترضاء الجند والغلمان ـ أن يبيع ضياعه وفرشه وآنية الذهب والفضة[12]. وأخيراً عندما وجد نفسه عاجزاً عن دفع نفقات الجيش، طلب من والدته الثرية شغب، المعروفة بـ (السيدة) وهي أهم شخصية بارزة في خلافة ابنها، أن تعينه، فادَّعت أنها لا تملك شيئاً[13]، وهكذا انهار أساس الدولة المالي ولقي المقتدر مصرعه[14].

ومما زاد الأوضاع المالية سوءاً على سوء، الخراج المرهق وظلم الملتزمين

---

(1) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج3 ص 175.
(2) تاريخ اليعقوبي ج2 ص 491.
(3) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص382.
(4) نفس المصدر والصفحة.
(5) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج3 ص 175.
(6) المسعودي: مروج الذهب ج4 ص122.
(7) الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص 51.
(8) مصطفى شاكر: من التاريخ العباسي ج1 ص358.
(9) الثعالبي: لطائف المعارف ص 118.
(10) مسكويه: تجارب الأمم ج1 ص238 ـ 241.
(11) المصدر ذاته. ص 240.
(12) عريب بن سعد القرطبي: صلة تاريخ الطبري ص 100.
(13) نفس المصدر ص128.
(14) الدوري: نفس المصدر ص 229.

وخطة التحكم في شؤون الأمصار لمصلحة الطبقة الاجتماعية السائدة وتجزئة الخلافة إلى دويلات وكثرة الاضطرابات والثورات والحروب المتواصلة وهجر الفلاحين للأرض وخراب نظام الري والمزارع وتكرر الفيضانات والمجاعات وانتشار الأوبئة من طاعون وجدري وملاريا التي فتكت بالسكان فتكاً ذريعاً[1].

يستبين مما تقدم ومما سوف يذكر في حينه الأمور التالية:

أ ـ إن بيت المال كان يعتمد على موارد الضرائب وعلى المصادرات ـ وكان الخراج يشكل البند الرئيسي في خزينة الدولة.

ب ـ كان نظام العباسيين المالي جائراً وفاسداً. وكانت طرق الجباية عنيفة ومرهقة[2] وبمعنى آخر، كانت الضرائب موزعة على الرعايا توزيعاً غير عادل. فكان الاقطاعيون وأمراء المال وكبار التجار بوسائلهم الخاصة وبنفوذهم وحظوتهم لدى السلطة يدفعون ضرائب لا تتناسب مع ما تغله عليهم أراضيهم ولا مع ضخامة الثروات التي يملكونها وأرباب المال. في حين كان الفلاحون المعدمون، أهل الخراج، وصغار ملاك الأراضي يتحملون القسم الأعظم من موارد الجباية. (فالجباية من الخراج، والخراج على الأرض، والأرض إنما يعمل بها الفلاحون، فالثروة العباسية وموارد بيت المال مصدرها الرئيسي جهد الفلاحين وأناس العمل الآخرين.

جـ ـ إنه على الرغم من اتخاذ الحكومة العباسية بعض الاجراءات للتخفيف نسبياً من وطأة الضرائب على الفلاحين ومعاملة الموالي وأهل الذمة بالحسنى نسبياً، إلا أن الضرائب ظلت ثقيلة عليهم واتجاهها العام كان إلى الزيادة[3]. وعلى سبيل المثال، ذكر ياقوت الحموي أن الحجاج بن يوسف الثقفي جبى خراج فارس والأهواز ثمانية عشر مليون درهم[4]. ثم أخذت هذه الضريبة تزداد إلى أن بلغت حوالي النصف الأول من القرن التاسع الميلادي خمسة وثلاثين مليون

---

(1) د. فيليب حتي: تاريخ العرب ج2 ص582.
(2) الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص 207.
(3) زيدان: نفس المعطيات ص 121 الهامش.
(4) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج4 ص 227.

درهم التزم جمعها وتأديتها إلى بيت المال الفضل بن مروان وزير المتوكل[1]. ومعنى ذلك أن الضرائب التي كانت تؤخذ من ذينك الإقليمين قد تضاعفت في مئة سنة. وطبيعي أن جماهير الفلاحين في فارس والأهواز هم الذين كانوا يدفعون القسم الأكبر منها. وفي مصر استمر العمال العباسيون يضاعفون الخراج على الفلاحين ويشددون في تحصيله كما فعل موسى بن علي سنة 156هـ في أواخر حكم المنصور، وكما فعل موسى بن صعب في زمن المهدي حيث ضاعف الخراج وشدد في استخراجه[2]. ويبدو أن الخراج في مصر زاد بعد المأمون حتى بلغ في أواسط القرن الرابع الهجري ثلاثة دنانير ونصفاً وجعلها القائد جوهر، الذي فتح مصر باسم الفاطميين، سبعة دنانير عن الفدان الواحد[3].

ويروي الطبري أن المأمون عندما أتى أهل قم عام 210هـ، بعد منصرفه من الري، شكوا إليه ثقل الخراج عليهم وطلبوا إليه أن يخفف عنهم كما فعل بالري فأبى، فامتنعوا عن أداء الخراج فحاربهم وجباه سبعة ملايين درهم بعدما كانوا يتظلمون في مليوني درهم[4].

د - ولم يكن الفلاحون يشكون من ثقل الضرائب وعسف الجباة فحسب، وإنما كان يكمن الغبن أيضاً في أخذ الحكومة منهم ربع الأرض - الخراج دون أن تعمل للتخفيف مما يعانون إلا شيئاً يكاد لا يذكر ودون أن تقدم لهم من المساعدات والمرافق والخدمات الاجتماعية والسكنية الا النذر اليسير. وعلى سبيل المثال، كان السواد يدفع إلى خزينة الدولة خراجاً سنوياً حوالي مائة وعشرين مليون درهم، وذلك يعادل ثلث خراج المملكة كلها، وتدفع فارس والأهواز خمسة وثلاثين مليون درهم، أي أنه إذا أضيف إلى خراج السواد بلغ المجموع نحو نصف جباية الدولة. ومع ذلك ظلت الأغلبية الساحقة من سكان السواد وفارس والأهواز، وهم عادة الفلاحون والحرفيون أناس العمل المنتجون المباشرون

---

(1) ياقوت الحموي: نفس المصدر والصفحة.

(2) المقريزي، الخطط ج1 ص 308.

(3) ابن حوقل: المسالك والممالك ص 108.

(4) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص 184.

للخيرات المادية، ظلت هذه الأغلبية تعيش، طوال العهد العباسي، في فقر مدقع، يلفها ظلام الجهل، وتفتك بهاالأمراض، والأوبئة والمجاعات فتكاً ذريعاً، في الوقت الذي كانت فيه أقلية طفيلية، تتألف من الأسرة الحاكمة والعمال والبيروقراطية العليا والقادة العسكريين والاقطاعيين والمتقبلين وأمراء المال وكبار التجار، تتغذى بالعمل الفائض وتعيش حياة الرفاه والنعيم والترف والبذخ على حساب بؤس الجماهير وعوزها وفقرها ومرضها وتخلفها المزري.

الفصل الثاني عشر

الاقتصاد العباسي
الزراعة ـ الحرفة ـ التجارة

الاقتصاد العباسي

ازدهر الاقتصاد في العصر العباسي الأول، فنشطت الزراعة ونمت الصنائع والحرف وتطورت مصادر القوى المحركة وتوسعت التجارة وازدهر رأس مال تجاري قوي، تبعاً لتطور الاقتصاد النقدي، مما أثر على عملية تجديد الانتاج الاقتصادي بشكل ايجابي فعال[1]. وقد حدثت المتغيرات تلك، بالعلاقة مع الانجازات العلمية والتقنية التي توصل إلها علماء ذلك العصر وعصور الحضارة القديمة الزاخرة[2].

وفي العصر العباسي الثاني، تعرضت دولة الخلافة لضائقات اقتصادية ـ اجتماعية بسبب الحروب الداخلية والمنازعات بين أمراء الجيش وفوضى الادارة وارهاق الجماهير بالضرائب وعسف المتقبلين والجباة وعدم وجود سياسة اقتصادية مرسومة تخدم مصالح الناس البسطاء «أناس العمل»، فتدهورت الزراعة، وتخربت منظومات الري، وتأخرت الحرفة، وواجهت التجارة بعض المصاعب وخاصة في فترات الاضطرابات وقلة الأمن، فتناقصت موارد بيت المال وكثرت نفقات الحكومة مما أدى إلى تدهور الوضع المالي وفراغ الخزينة حتى صارت تشكو الافلاس[3]. وتردت أحوال الجماهير بسبب شدة الاستغلال وكثرة الضرائب وجشع الملتزمين والجباة

(1) د. طيب تيزيني: مشروع رؤية ص 182.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص 16.

ومعاناتها من الغلاء والاحتكار، وتفاقمت التناقضات الاجتماعية وتعاظم التباين في الثروة بين الأغنياء والفقراء مما دفع الجماهير الشعبية إلى التمرد والثورة على الظلم والاستغلال والطغيان.

نمو الزراعة

اهتم العباسيون بتنشيط الزراعة، لأنهم أدركوا بأنها القطاع الرئيسي الذي يدر على خزينة الدولة أهم موارد الدخل. ولما كان الخراج، ضريبة الأرض، أهم مورد لبيت المال، فإن النشاط الزراعي معناه ازدياد تدفق الضرائب على خزينة الخليفة. فأنشأوا السدود والمسنيات وبنوا القناطر على الأنهار وأصلحوا أقنية الري، وشقوا ترعاً جديدة. وذكر الاصطخري: (أنه شقت للماء أقنية من الفرات بعضها قديم مهجور وبعضها محدث بحيث صارت الأرض سواداً مشتبكاً غير متميز)[1]. وأصبح سواد العراق من أشهر بقاع العالم خصباً وتنظيماً للري. وكانت في ايران والمغرب أقنية مسقوفة (تحت الأرض) لحماية الماء من التبخر[2]. واشتهرت مقاطعات آسيا الوسطى، وبخاصة فرغانة، برقي نظام الري فيها[3].

وكان تخطيط أقنية الري والعناية بها وتغذيتها بالماء يقتضي وجود تقنية بارعة، كما يتطلب الإدارة واليقظة[4]. وقد أُنشئت إدارة خاصة للزراعة والري عرفت بـ (ديوان الماء). وكان في إمرة صاحب ديوان الماء في مصر وخراسان عشرة آلاف عامل يقومون بكري الأنهار والسدود وما إلى ذلك من الأمور الزراعية.

كما اعتنى العباسيون باستصلاح الأراضي واستخدام الخبراء والمهندسين الزراعيين[5]، وسعوا إلى تأخير ميقات الخراج وتنظيم موعد جبايته ليتناسب مع نضوج الحاصل، وأدخلوا مزروعات جديدة، وتفوقوا في زراعة البستنة، وتوصلوا إلى التهجين وإلى الأساليب التي تنتج أنواعاً جديدة من الفواكه والزهور[6].

---

(1) الاصطخري، أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي: مسالك الممالك ص 85.
(2) كاهن. كلود: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ج1، ص 173.
(3) المصدر ذاته، ص 173.
(4) نفس المصدر والصفحة.
(5) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: التبصر بالتجارة ص 21.
(6) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي ص 156.

وعملوا على تخفيف نسبي للضرائب المتوجبة على الفلاحين. فقد جعل المنصور الخراج مقاسمة بالنصف[1]. ثم أسقط الرشيد العشر وأبقى الخراج مناصفة[2]. وأنقصه المأمون عشرين بالمائة وجعله خمسي الحاصل[3]، مما حفز الفلاحين في الاقبال على الزراعة وزيادة الانتاج الزراعي وأسهم في نمو القوى المنتجة.

كانت الأرض وسيلة الانتاج الأساسية وهي تعود بملكيتها إلى الدولة الاقطاعية أو إلى الأمراء الاقطاعيين وكبار الملاك أو إلى الأوقاف[4]. أما الملكيات الصغرى، التي يعمل فيها الفلاح وأسرته، فقد تضاءلت نسبتها إلى الحد الأدنى لصالح الملاكين الكبار وخصوصاً عن طريق الالجاء. وينسحب الوضع ذاته على الأراضي الجماعية التي كانت في حال من التصدع[5].

كان يتم استثمار الأراضي الواسعة التي تملكها الدولة الاقطاعية أو الأمراء الاقطاعيون وكبار الملاكين العقاريين عن طريق استغلال عمل الفلاحين الفقراء والعبيد الزنوج. وكانت العلاقات الزراعية بين الاقطاعيين من جهة وبين العاملين في أراضيهم من الفلاحين والعبيد تقوم على أساس الاستغلال والتبعية. وكانت المزارعة والمساقاة والمغارسة من أشكال الاستغلال الاقطاعي. وكانت الأولى أوسعها انتشاراً، وهي عقد بسيط يقدم بموجبه المالك أرضه مع البذار (أو جزء منه) والحيوان والمعدات اللازمة، في حين يقدم الفلاحون عملهم، أي أنهم كانوا يقومون عملياً بكامل العملية الفلاحية، ومع ذلك فلا يحق لهم أن يحصلوا من الانتاج إلا على خمسه، ويأخذ الباقي مالك الأرض[6]. وفضلاً عن ذلك فإن الاقطاعيين كانوا يلجأون إلى تسخير الفلاحين في أراضيهم. وقد أدى تعزيز الملكية الاقطاعية إلى زيادة استغلال الفلاحين واضطهادهم، حيث كانوا يدفعون إلى مالك الأرض حصة تتراوح بين خمسي المحصول وأربعة أخماسه.

وهكذا كان الخراج ـ ريع الأرض ـ والسخرة شكلين مرهقين لاستغلال الفلاحين.

---

(1) الماوردي: الأحكام السلطانية ص 176.
(2) الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص342.
(3) ابن طباطبا: الفخري ص 216.
(4) انظر ص 207.
(5) كلود كاهن: المصدر السابق ص 183.
(6) المصدر ذاته ص 181.

وكانت أدوات الزراعة بسيطة كالمحراث والمسحاة والمنجل. وكان الزراع يستخدمون الزبل والرماد وفضلات البشر والبعر[1]. ويذكر الجاحظ: (أي كل شيء من الخضر لا يصلح ولا يزكو إلا بالزبل والسماد)[2].

كانت الزراعة تعتمد على الري الاصطناعي وعلى الأمطار وكانت الحكومة تشرف على توزيع المياه وتضطلع، بالدرجة الأولى، بمسؤولية انشاء القنوات والسدود وخزانات المياه والمسنيات والقناطر[3]. وكانت المزارع تسقى سيحاً أو بواسطة الآلات الرافعة (كالدالية، والناعورة، والدولاب وغيرها)[4]. وقد تختلف الحالة في مصر بعض الاختلاف حيث كانوا يهتمون بتصريف فيضان النيل الدوري فأوجدوا في الفسطاط مقياساً شهيراً يقيس كل سنة ارتفاع النهر وتبعاً لذلك تنظم الإدارة كيفية استخدام الأحواض على جوانبه وزراعة الأراضي المروية[5].

وكانت أراضي السواد في العراق، وأراضي خراسان وما وراء النهر، وسهول الفرات والعاصي وغوطة دمشق في سورية، وسهول الدلتا ووادي النيل في مصر تعتمد على الري الاصطناعي بالدرجة الأولى. ويذكر الجاحظ أن حقولاً واسعة في البراري وعلى سفوح الجبال كانت تعتمد على مياه الأمطار وتغل غلة كبيرة[6]. وكانت الأمطار مهمة للزراعة في منطقة الجزيرة الفراتية. ويذكر الاصطخري أن حقولاً واسعة في نصيبين كانت ترويها مياه الأمطار[7]، كما أن مزارع فلسطين وبساتينها كانت تعتمد على مياه الأمطار أما نابلس فإن بها مياهاً جارية[8]. وكان يؤدي احتباس المطر أو تأخر سقوطه إلى حدوث غلاء[9]، كما كان يقع الغلاء عند قصور النيل[10].

وكانت طريقة المناوبة في الزراعة شائعة، وذلك بأن يزرع نصف الأرض ويترك

---

(1) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ج14 ص 119 ـ 120.
(2) الدلائل والاعتبار ص25.
(3) الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص 51.
(4) نفس المصدر والصفحة.
(5) كلود كاهن: المصدر السابق ص 173.
(6) الجاحظ: المصدر السابق ص17.
(7) مسالك الممالك ص 72 ـ 73.
(8) المصدر ذاته. ص 56.
(9) ابن الأثير: الكامل ج8 ص 82. ج9 ص 39.
(10) المقريزي: إغاثة الأمة في كشف الغمة ص 28.

الثاني دون زرع للاستراحة[1]. إلا أن خصب التربة في مصر ساعد على ايجاد نظام أكثر تعقيداً للزراعة المتناوبة. وربما تمتعت ضياع كثيرة (باستثناء البساتين) بنظام جماعي للزراعة المتناوبة[2].

وأنتجت الزراعة محاصيل متنوعة كالحبوب والبقول والزراعات الصناعية (كالقنب والكتان والقطن وقصب السكر والبردي) والنباتات العطرية والأصبغة (كالبنفسج والورد والياسمين والنرجس والزعفران والنيلة وبخور اليمن)، وأضيفت إليها نباتات زيتية (كالسمسم والزيتون) وأصناف الخضار في البساتين حول التجمعات السكنية من فول وفاصولياء وخس وخيار وقلقاس. وزرعت الأشجار المثمرة في البساتين أو في مزارع بعلية كالنخيل والكرمة والزيتون والتفاح والإجاص والدراق والرمان والسفرجل والليمون والبرتقال والبطيخ.

وأهم مزروعات العراق: النخيل والقمح والشعير والأرزّ والسمسم والفواكه وخاصة الكرمة. وكانت منطقة البصرة أهم مركز لزراعة النخيل، حيث تمتد بساتينه من عبدسي إلى عبادان على مسافة نيف وخمسين فرسخاً[3]. وكانت حدائق الأبلة تعتبر إحدى جنات الدنيا الأربع[4]. وانتشرت مزارع الحنطة والشعير في جميع أنحاء العراق باستثناء منطقة البطيحة. وتتميز أراضي الجزيرة بكثرة زراعة القمح والشعير وخاصة حول الموصل[5]. لذا كانت الجزيرة المخزن الذي يمون العراق ولاسيما بغداد بالحبوب وخاصة في أوقات الشدة[6]. واختصت منطقة البطيحة بزراعة الأرز لوفرة المياه والحرارة[7]. وزرع قصب السكر حول البصرة وفي منطقة سنجار والبطيحة[8]. وتقع أهم مناطق زراعة السمسم في تكريت والنهروان[9]. وانتشرت زراعة الفواكه في

---

(1) الماوردي: الأحكام السلطانية ص 167.
(2) كلود كاهن: المصدر السابق ص 176.
(3) الاصطخري: مسالك الممالك ص 80.
(4) الجنات الأربع هي: غوطة دمشق ـ بساتين الأبلة وشعب بوان في فارس ووادي الصغد في بلاد ما وراء النهر. ابن حوقل: صورة الأرض القسم الثاني ص 472.
(5) المقدسي: أحسن التقاسيم ص 145. ابن حوقل: صورة الأرض القسم الأول ص 217 ـ 218.
(6) المصدر ذاته. ص 138. مسكويه: تجارب الأمم ج2 ص 91.
(7) المصدرذاته. ص 119.
(8) الماوردي: الأحكام السلطانية ص 168. كلود كاهن: المصدر السابق ص 174.
(9) المقدسي: أحسن التقاسيم ص 123. ابن حوقل: صورة الأرض القسم الأول ص 244.

مختلف أنحاء العراق. ويبدو أن الكرمة كانت تزرع بكثرة. واشتهرت أعناب عكبرا ودير العاقول ومعلثايا وسروج وحلوان وبغداد[1].

وفي بلاد الشام كانت تزرع الحبوب (القمح والشعير والأرز) والفواكه (الكرمة والزيتون والتفاح والجوز واللوز وغيرها) والقطن وقصب السكر[2]. واشتهرت غوطة دمشق بكثرة فواكهها وخاصة التفاح الشامي الذي يضرب به المثل في الحسن والطيب[3]. واشتهرت نابلس بزيتونها[4]، وحوران والبلقاء بحبوبها[5]. وحلب والحولة بأقطانها[6]، وصور بقصب السكر[7].

وأهم مزروعات مصر: الحبوب (القمح والشعير والأرز) والبقول والكتان وشجيرة النيلة وزراعتهم سقوية تعتمد على مياه النيل. فإذا جاد بمائه، أي إذا بلغ الفيضان ستة عشر ذراعاً، استبشر الناس خيراً ولا تسأل بما يحدث من خصب ورخص، وإذا قصر، أي نقص عن اثني عشر ذراعاً، حدث القحط ووقع الغلاء والوباء[8]. واشتهرت الفيوم بكتانها وأرزّها[9]. والصعيد والواحات بشجيرة النيلة[10].

وكانت بلاد المغرب تزرع الحبوب والفواكه (الكرمة والزيتون والنخيل)[11]. واشتهرت أفريقية (تونس اليوم) بزيتونها[12]، وسجلماسة بكرومها[13]، ومتيجة، في المغرب الأوسط، بقموحها[14]، وقسطلية وقابس وفاس بنخيلها[15] وكان انتاج التمور

---

(1) المصدر السابق ص 122 ـ 123 ـ 145.

(2) نفس المصدر ص160 ـ 162 ـ 164 ـ 171 ـ 172 ـ 174 ـ 175 ـ 180 ـ 181.

(3) نفس المصدر ص157. الثعالبي: لطائف المعارف ص 156.

(4) نفس المصدر ص174.

(5) نفس المصدر ص160 ـ 175.

(6) نفس المصدر ص160.

(7) نفس المصدر ص180.

(8) نفس المصدر ص202، الأدريسي: نزهة المشتاق ص 113.

(9) نفس المصدر ص201 ـ 203 ـ 206.

(10) الأدريسي، الشريف أبو عبدالله محمد بن العزيز: المصدر ذاته ص 44.

(11) المقدسي: أحسن التقاسيم ص 216 ـ 224 ـ 225 ـ 227 ـ 228 ـ 231.

(12) نفس المصدر ص239.

(13) نفس المصدر ص231.

(14) نفس المصدر ص228.

(15) نفس المصدر ص230 ـ 239.

في قسطلية وقابس من الكثرة بحيث يباع في بعض السنين وقر الجمل بدرهمين[1].

وفي ايران، كانت تزرع الحبوب (القمح والشعير والذرة والأرز) والأشجار المثمرة وقصب السكر والكتان والزهور والورود. وقد نافست خراسان العراق (السواد) ومصر في ميدان الانتاج الزراعي كما يتضح من لوائح دخل الدولة[2]. وكانت أرض خراسان تنتج الحبوب (حنطة وشعير وأرز وسمسم)[3]، والفواكه والبواكير[4]، واشتهر اقليم خوزستان بزراعة قصب السكر[5]. وكانت خوزستان أكبر مركز لصناعة السكر في ايران وخصوصاً في مدينة جنديسابور، حتى كان يقال إن عامة سكر خراسان والجبل منها[6]. واشتهرت فارس بحدائق الزهور والورد وبساتين الفواكه[7]. ففي حدائق سابور، كان يزرع البنفسج والنيلوفر والنرجس وكارده والسوسن والزنبق والمرسين والمرزنجوش والبادرنك والنارنج[8]. وفي مدينة جور، كان يزرع الورد الأحمر[9].

وفي السند كان يزرع الحبوب (الحنطة والذرة والأرز)[10]، والفواكه (كالنخيل والجوز واللوز والموز)[11]. وأما ما وراء النهر فهو من أخصب أقاليم الأرض منزلة وأكثرها خيراً[12] ويعتبر وادي الصغد، بين سمرقند وبخارى، من جنات الأرض الأربع[13]. وكان يزرع في اقليم ما وراء النهر الحبوب والأشجار المثمرة (كالنخيل

---

(1) المصدر السابق، ص230.
(2) ابن خلدون: المقدمة ص 179 ـ 181. ابن خرداذبة: كتاب المسالك والممالك 237 ـ 252 حتي: تاريخ العرب ج1 ص 397 ـ 8.
(3) المقدسي: أحسن التقاسيم ص 324.
(4) نفس المصدر ص318 ـ 324.
(5) نفس المصدر ص402.
(6) نفس المصدر ص443.
(7) نفس المصدر والصفحة.
(8) نفس المصدر والصفحة.
(9) نفس المصدر والصفحة.
(10) نفس المصدر ص480.
(11) نفس المصدر ص473 ـ 480.
(12) ابن حوقل: صورة الأرض القسم الثاني ص 464.
(13) نفس المصدر ص472.

والتفاح والبرقوق والدراق والخوخ والليمون والبرتقال والفستق والكرمة والزيتون واللوز والرمان) والقطن والورد والريحان والبطيخ[1].

وكانت فواكه وادي الصغد من كثرتها ما يزيد على سائر الآفاق حتى ترعاها لوفرتها دوابهم[2]. وكان البطيخ الذي يقال له (البارَنْج) أحلى البطاطيخ وأطيبها[3]. وكان يحمل إلى المأمون وإلى الواثق في قوالب الرصاص معبأة ثلجاً وتباع البطيخة الواحدة ببغداد بسبعمائة درهم[4].

ومما يدل على أهمية الزراعة في اقتصاد دولة الخلافة وفي حياة سكانها أن ابن النديم يذكر في فهرسه عدة كتب في النبات وأخرى في العطر[5]. ومن الأولى كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية.

نمو الصناعة والحرف

ازدهرت الصناعة اليدوية في كثير من أنحاء دولة الخلافة العباسية، وارتقت أدواتها ووسائلها، وتقدمت طرقها، وتطورت مصادر القوى المحركة، وأفاد الصناع من منجزات العلوم الطبيعية والتجريبية (الميكانيك ـ الحيل ـ والكيمياء، والحيوان، والنبات) لزيادة الانتاج وتحسينه والاكثار من أنواعه، وازداد عدد العاملين في الصناعة والحرف، وصارت الأصناف أكثر تنظيماً، وانشئت النقابات لضم العمال والحرفيين وتوحيد صفوفهم وتشديد نضالهم الطبقي.

وقد نمت الصنائع والحرف نتيجة لتطور القوى المنتجة، وتوظيف قسم من الرأسمال التجاري المتراكم في خدمة الصناعة، لازدياد الطلب على السلع الصناعية وخصوصاً مواد الترف.

وفي العهد العباسي، أخذت الصناعة تحتل مكانة هامة في الاقتصاد والعمالة وانتاج السلع لتلبية الحاجات المتزايدة للمجتمع والدولة. وليس أدل على ذلك من

---

(1) المصدر السابق ص474 ـ 481.

(2) المصدر ذاته ص 465.

(3) الثعالبي: لطائف المعارف ص 226.

(4) نفس المصدر والصفحة.

(5) ابن النديم، أبو الفرج محمد بن اسحق: الفهرست ص 80، 87.

اهتمام رجال الفكر بالصناعة والعمل. فقد أولى اخوان الصفا[1] في الرسالة الثامنة من رسائلهم عناية خاصة إلى العمل والصناعة وثناء على شرف الصنائع[2]. وصنفوا الناس على أساس مادي حسب عملهم، وعرفوا الصناع بأنهم الذين يعملون بأبدانهم وأدواتهم يعيشون من بيع ما ينتجون[3]. وصنفوا الصنائع حسب فائدتها فهناك:

أ ـ الصنائع الضرورية للمجتمع كالزراعة والحياكة والبناء، وجعلوا صناعة القوت والغذاء التي يحتاج إليها الناس لمعيشتهم ووجودهم، وصناعة النجارة والحدادة تابعة ومتممة لصناعة الزراعة، كما اعتبروا صناعة الخياطة والملابس تابعة ومتممة لصناعة الحياكة. وصناعة النجارة والحدادة تابعة ومكملة لصناعة البناء[4].

ب ـ صنائع الزينة والجمال أو (الكمالية بمفهوم اليوم) كصناعة الديباج والحرير والعطر وما شاكلها[5] وصنفوا الصنائع أيضاً حسب موضوع الصناعة إلى:

1 ـ الصناعة الجسمانية وتشمل الحرف اليدوية.

2 ـ الصناعة الروحانية وتشمل المهن الفكرية[6].

وفي العصر العباسي، تقدم المستوى التقني للفعالية المهنية المنتشرة في المدن كما يظهر ذلك في التحسن الذي طرأ على صناعة الورق، والفولاذ الدمشقي، وفن استخدام النحاس، وتقدم صناعة الزجاج والخزف، وحياكة النسيج، واستكمال فن تحضير العطور والأصبغة والصابون[7].

---

(1) جمعية سرية بدأت نشاطها في البصرة، أو بغداد في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وانتشرت فروعها في مختلف بلدان الخلافة، وكانت تعمل ضد نظام الحكم العباسي السياسي والاجتماعي، وتسعى لتوعية الجماهير وتربيتهم وتثقيفهم وتنظيم صفوفهم واعدادهم لاحداث ثورة سياسية واجتماعية، ولهذا الغرض ألفوا رسائلهم المشهورة بـ /رسائل اخوان الصفا). وقد شملت هذه الموسوعة اثنين وخمسين رسالة تناولت كل نواحي المعرفة. وكان الهدف الرئيسي من هذه الرسائل هي جعل المعرفة في متناول الجماهير، وخصصت رسائل عديدة تمجد العلم والعمل وتحث الناس البسطاء على اكتساب العمل المهني والحرفي.

(2) رسائل اخوان الصفا: باعتناء أحمد زكي باشا ج1 ص 210 ـ 226.

(3) المصدر ذاته ص 217.

(4) المصدر ذاته ص216 ـ 7.

(5) المصدر ذاته ص217.

(6) المصدر ذاته ص213 ـ 4.

(7) كلود كاهن: تاريخ العرب. والشعوب الاسلامية. ترجمة الدكتور بدر الدين القاسم ج1 ص 198.

واستخدمت قوى محركة لإدارة الآلات، وشرع على نطاق واسع باستخدام الماء والرياح لإدارة الطواحين حتى لم يعد يسمع - في القرن الرابع الهجري - شيء عن الطواحين التي تدار باليد وتحدث جعجعة، لا عند أهل المدن ولا عند أهل القرى، بل كان على الأنهار أرحاء في سفن[1].

وقد عالج أهل البصرة مشكلة من أحدث مشاكل استعمال حركة الماء. وذلك أنه كان يحدث عندهم المد والجزر مرتين في اليوم. ففي أثناء المد يدخل الماء الأنهار وفي أثناء الجزر ينحسر راجعاً، فعمدوا إلى أرحية أقاموها على أفواه الأنهار ليديرها الماء في أثناء حركته خارجاً وداخلاً[2]. ولم يكن الناس يستعملون الدواب في إدارة الطواحين الا في الجهات التي ليس بها أنهار[3].

وكانت أكثر الأرحاء القائمة تقوم على نهر دجلة، وذلك في بغداد وتكريت والموصل وبلد[4]، وقد انتهى إلينا وصف مطاحن الموصل، فكانت تسمى الواحدة منها عربة، وهي مصنوعة من الخشب والحديد لا يمازجه شيء من الحجر والجص، وهي تقوم في وسط الماء بسلاسل حديد، كل عربة فيها حجران يطحن كل حجر منها خمسين وقْراً في كل يوم[5]. وكانت أكبر رحى في بغداد رحى البطريق. فقد كانت مائة حجر تغل في كل سنة مليون درهم[6]. وكان أهل سجستان وكرمان ينتفعون من الرياح التي تشتد في بلديهما وتدوم مائة وعشرين يوماً، فنصبوا عليها ارحاء يسيرونها بها لطحن قموحهم[7].

ومع نمو المدن وتطور الحياة فيها، ازداد نشاط الحرف والمهن، واتسعت أسواقها ومحلاتها، إضافة إلى اختصاص كل حرفة بسوقها. فمن محال بغداد الصناعية، محلة صناع الصابون ومحلة العطارين والفراشين وسوق الصفارين[8]

---

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم ص 444. ابن حوقل: صورة الأرض. القسم الثاني ص 311.

(2) المصدر ذاته: ص124 - 5.

(3) الاصطخري: مسالك الممالك. ص 273.

(4) بلد: مدينة قديمة على نهر دجلة شمال الموصل بينهما سبعة فراسخ. ياقوت الحموي. معجم البلدان ج1 ص 481.

(5) ابن حوقل: صورة الأرض القسم الأول ص 219.

(6) اليعقوبي: كتاب البلدان ص 243.

(7) ابن حوقل: صورة الأرض القسم الثاني ص 415. المقدسي: أحسن التقاسيم ص 333.

(8) طيفور، أحمد بن ظاهر: تاريخ بغداد ص 179.

(النحاسين)، وسوق صناعة الأحذية في الموصل[1]. وسوق النحاسين في البصرة[2]، والسارجين بدمشق. وظهرت لدى الحرفيين تنظيمات تعبر عن تماسكهم وتعاونهم وصار يشار إليهم بـ (الأصناف) و(أصحاب الحرف) و(أهل الصنايع)[3].

ويبدو أنه استقر لكل حرفة عرفها وأصولها، حتى كان هذا العرف مقبولاً لدى المحتسب والقاضي في فض مشاكلهم المهنية[4].

ويتدرج العامل من (مبتدىء) إلى (صانع) إلى استاذ (أو معلم في القاهرة)، ولكل حرفة زيها[5] ويكوّن الصناع جمهور الصنف، منهم الذين تعلموا الحرفة، ولهم فتح حوانيت خاصة وممارسة الصنعة مستقلين وعلى أيديهم يتدرب المبتدئون[6].

وكانت الحرفة مفتوحة للعاملين على اختلاف قومياتهم وأجناسهم ودياناتهم. وتعتبر المهنة رابطة أساسية بين أصحابها، فهم يتساندون ويتعاونون. وللحرفة شيخ أو رئيس (يدعى «بالأمين» في بلاد المغرب و«بالعريف» في المشرق عامة) تعترف به الحكومة أو تختاره أحياناً وتنظر إليه ممثلاً للحرفة[7].

وكانت المهن الحرفية وراثية يتعلمها الأبناء عن الآباء والأجداد. وكان توارث المهارات اليدوية في هذه الحالة وسيلة للمحافظة عليها باعتبارها أداة عمل ذات انتاجية أعلى من العتالة البسيطة[8]. وكان كل صانع يفضل حرفته على غيرها. ويلمح الجاحظ إلى هذه النظرة في قوله: (ولكن لكل صنف من الناس مزين عندهم ما هم فيه ومسهل ذلك عليهم، فالحائك إذا رأى تقصيراً من صاحبه أو سوء حذق أو خرقاً قال له يا حجام، والحجام إذا رأى تقصيراً من صاحبه قال له يا حائك)[9].

وكانت الحرف والأسواق تحت اشراف المحتسب[10] (موظف مرتبط بالسلطة

---

(1) ابن الأثير: الكامل ج8 ص 89.

(2) ابن حوقل: صورة الأرض القسم الأول ص 237.

(3) الجهشياري: الوزراء الكتاب ص 47. الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص 66.

(4) الدوري: نفس المصدر والصفحة.

(5) المصدر ذاته.

(6) المصدر ذاته.

(7) المصدر ذاته.

(8) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي ص 278.

(9) رسائل الجاحظ: باعتناء السندوبي. ص 116 ـ 117.

(10) الماوردي: الأحكام السلطانية ص 241 ـ 249. رسائل الصابي ج1 نشرة شكيب أرسلان 1898 ص 141.

الحكومية مباشرة أو عن طريق القاضي). ومن بين مهامه مراقبة أعمال البيع والشراء والغش في الصناعة... والمحافظة على الهدوء والرقابة على الحركة ومنع حوادث الاضطراب[1].

وكان عمال الصناعة في غالبيتهم من الموالي وأهل الذمة والعبيد. ومع نمو الصناعة ازداد عدد العاملين فيها. ففي صناعة النسيج كان يعمل ألوف من العمال[2]. ويذكر برنارد لويس أنه كان يعمل في مناجم الفضة في سجستان التي يملكها أصحاب رؤوس الأموال عشرة آلاف عامل[3].

وفي معظم الحرف استمر العمل على صعيد الأفراد، أي أن الصانع ينهض وحده بالانتاج أو هو على كل حال يتكفل بعنصر هام من عناصر الانتاج المركب. ولم يهيأ الآلات للقيام بعمل جماعي منظم تنظيماً عضوياً. بيد أننا نشاهد في المراكز الكبرى على الأقل، توزيعاً واضحاً للمهن يتضمن اختصاصاً دقيقاً جداً وخصوصاً في الصناعات الغذائية[4]. وفي حرفة مثل حرفة النسيج، يفترض صنع القماش أعمالاً متوالية يزاولها عمال مختلفون: كعمال الغزل والحياكة والتلبيد والصباغة. وغالباً ما اجتمع في ورشة كبرى توفرت فيها التجهيزات والمعدات اللازمة نفر من الصناع ممن يقومون بالعملية الفردية نفسها بدلاً من أن يقوم بها كل على حدة وفي مصنعه الخاص[5]. وكان تقسيم العمل داخل كل مصنع حرفي قد تقدم بعض الخطوات.

ويذكر متز أن صناعة النسيج في دلتا النيل كانت صناعة منزلية، فكان النساء يغزلن الكتان والرجال ينسجونه[6]. وفي المدن الكبيرة كان التجار أو السماسرة هم الذين يمدون بالغزل نساجين يقاولون بعضهم ويعمل البعض الآخر لديهم بالأجرة.

وكان نظام الانتاج العادي داخلياً، فكان في استطاعة الصناع أن يبيعوا إنتاجهم إما لوكلاء الدولة أو لأحد المتعهدين الذين كانوا يمولونهم[7]، أو أن يبيع الصانع

---

(1) الدوري: المصدر السابق ص 68.
(2) كلود كاهن: المصدر السابق ص 200.
(3) العرب في التاريخ: ترجمة نبيه أحمد فارس ومحمود يوسف زيدان ص 121.
(4) كلود كاهن: المصدر السابق ص 199.
(5) نفس المصدر والصفحة.
(6) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج2 ص 298.
(7) برنارد لويس: المصدر السابق ص 200.

بالذات انتاجه، مع بعض التحفظات المحتملة في صناعة النسيج، وهو يعمل في حانوته على مرأى من الناس[1].

وكانت معظم المهن تعود في ملكيتها إلى القطاع الخاص. وقد وجدت أيضاً مهن انفردت بها الدولة كصناعة الأسلحة وقطع الأسطول والنقد و(الطراز)[2].

وكان العمل المأجور هو القاعدة المتبعة. وكثيراً ما استعان صاحب العمل بالمستخدمين والعبيد[3]. وفي العديد من المشاريع العامة التي تنفق عليها الدولة استقر أيضاً نظام الأجرة ولو أنها، فيما يبدو، لجأت إلى مصادرة العمال وبخاصة في العصور الأولى، كما يشهد على ذلك كثير من وثائق البردي المصري، وكما كانت الحال عند إنشاء مدينة بغداد[4].

وكان العمال يعملون ساعات طويلة وفي ظروف عمل صعبة، ومع ذلك كانوا يتقاضون أجوراً قليلة. ويعطي الحريري فكرة واضحة عن وضعهم المعاشي حين يقول: (وأما حرف أهل الصناعات فغير فاضلة عن الأقوات، ولا نافقة في جميع الأوقات، ومعظمها معصوب بشبيبة الحياة)[5].

وكان العامل في العراق يأخذ أجراً قدره درهم واحد في اليوم، وفي مصر أقل من ذلك[6]. ويذكر متز أن أجرة النساج في أوائل القرن الثالث الهجري كانت نصف درهم عن كل يوم عمل وكان ذلك لا يفي بثمن الخبز الذي يأكله[7]. ويشبه هذا ما قاله أهل مدينة تنيس بمصر شاكين للبطريرك ديونيسيوس من قلة أجورهم لما مر ببلدهم في ذلك العصر[8].

لقد حملت قلة الأجور والظروف المزرية إلى تمرد العمال وإضرابهم عن العمل. فقد أضرب صناع المنسوجات القطنية والحريرية في بغداد عام 375هـ/ 985م حين

---

(1) كلود كاهن: المصدر السابق ص200.

(2) المصدر ذاته ص 205.

(3) المصر ذاته ص 199.

(4) المصدر ذاته. الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص 237. ابن الأثير: الكامل ج5 ص 15 ـ 21. البغدادي: تاريخ بغداد ج1 ص67، 70. ياقوت: معجم البلدان ج1 ص 458 ـ 459.

(5) مقامات الحريري ص 399.

(6) كلود كاهن: المصدر السابق ج1 ص 199 ـ 200.

(7) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج2 ص 298.

(8) نفس المصدر والصفحة.

فرض البويهيون ضريبة العشر (رسما) على هذه المنسوجات، ولم تهدأ الحالة حتى الغيت الضريبة[1]. وأضربوا ثانية عام 389هـ/ 998م، حين أعيد فرض هذه الضريبة، واستمر هياجهم أربعة أيام دون جدوى[2]. كذلك أضرب عمال النسيج في مدينة تنيس بمصر مطالبين بزيادة الأجور. وقد لعب البطريرك ديونيسيوس دور الوساطة وحصلوا على الزيادة[3].

مع نمو الحرف، ازداد عدد الكادحين الحرفيين وتعاظم الوزن الاقتصادي الكبير للانتاج الحرفي، وتطور التنظيم المهني، وارتبطت الطوائف الحرفية بالحركة العامة المناوئة للحكم العباسي، وأخذت الأصناف تقوم بأدوار مختلفة اعتباراً من القرن العاشر الميلادي. واقترن هذا التغير في علاقة الطوائف الحرفية بالسلطة العباسية بصعود الحركة الاسماعيلية، وخاصة القرمطية منها.

لقد اعتمد القرامطة على نقباء الحرف كدعاة بين العمال، وجندوا العديد من الحرفيين في صفوف تنظيماتهم السرية، وتعاظم نفوذ القرامطة في أوساط التنظيمات المهنية وأسهموا في ضم العمال وتوحيد صفوفهم في إطار تنظيم نقابي ذي صيغة متقدمة على أساس من وحدة مصالح الطبقة العاملة للنضال في وجه الاستغلال الطبقي وتعسف السلطة. وأصبحت النقابات العمالية مصدراً رئيساً للمقاومة، ولعبت دوراً هاماً في قيام الدولة القرمطية الاشتراكية في شرقي الجزيرة العربية. وساعدت على تمهيد الطريق أمام الفاطميين في الاستيلاء على مصر.

وهكذا أسهم القرامطة في تطوير التنظيم الحرفي وتوظيف القوة العاملة في النضال الطبقي الذي خاضته الجماهير الكادحة في تلك الفترة التاريخية ضد الطغيان الاقطاعي الطبقي.

تركّزت الصناعة في آسيا الغربية على حياكة السجاد والنسيج الموشى للتعليق على الجدران والحرير والقطن والمنسوجات الصوفية والديباج والأطلس وأغطية الوسائد وغيرها من مواد الفرش والأثاث وأواني المطبخ[4]. وكانت أنوال فارس والعراق

---

(1) ابن الجوزي. جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي: المنتظم ج7 ص127 ـ ابن الأثير: الكامل ج7 ص 128.

(2) أبو شجاع محمد بن الحسين الروذراوري: ذيل كتاب تجارب الأمم ج3 ص 336.

(3) كلود كاهن: المصدر السابق ج1 ص200.

(4) د. فيليب حتي: تاريخ العرب ج2 ص 433.

الكثيرة تنتج أفخر أنواع السجاجيد والمنسوجات، وكان لأم المستعين سجادة حيكت لها خصيصاً بلغت تكاليفها مئة وثلاثين مليون درهم عليها صور لكثير من أنواع الطيور مصنوعة من الذهب وعيونها من الياقوت وسواه من الأحجار الكريمة[1].

وكان العراق مشهوراً بصناعاته[2]. وكانت مصنوعاته الرئيسية هي سلع الترف التي يستعملها الأغنياء[3]. أما الصناعات التي تنتج لاستهلاك العامة فكانت محدودة، مثل صناعة القطن وعمل الأحذية وصنع الأواني النحاسية[4]. وكان الأغنياء يتنافسون في ارتداء الملابس الثمينة ويمتلكون صناديق واسعة للملابس تحتوي على عشرات لا بل على مئات من القطع من نفس النوع[5]. وكان ما أحصي من المتاع الذي خلفه المستكفي من الثياب الخراسانية المروزيَّة والشعبية ثلاثة وستون ألف ثوب، ومن الملاء ثمانية آلاف ملاءة، ومن العمائم المروزيَّة ثلاثة عشر ألف عمامة، ومن الحلل الموشيَّة اليمانية وغيرها المنسوجة بالذهب ألف وثمانمائة حلة، ومن البطائن التي تحمل من كرمان في أنابيب قصب فارسي ما لم يكن يعتبر إلا بمثله ثمانية عشر ألف أنبوبة[6]. وإن مبلغ ما أحصي في خزانة الفرش والبسط الكبار الأرمنية والأوساط ثمانية عشر ألف بساط[7]. وقد شجع هذا الطلب المتزايد على مواد الترف الصناع على تحسين انتاجهم وعلى الإكثار من أنواعه[8].

واشتهرت الكوفة بصنع المناديل الحريرية وشبه الحريرية التي تلبس على الرأس وتعرف اليوم (بالكوفية)[9]. وتفوقت الموصل بصنع أنسجة قطنية تدعى «الشاش» كان لها شهرة واسعة وقد انتشرت إلى الغرب باسم (الموصلين)[10]. كما اشتهرت بغداد بالنسيج العتّابي وجله من الحرير.

وكانت بلاد فارس تصنع البسط وثياب الوشي والديباج وهو لباس الشرف الذي

---

(1) الابشيهي، شهاب الدين أحمد الابشيهي: المستطرف من كل فن مستظرف ج1 ص 151.
(2) ابن حوقل: صورة الأرض ج1 ص234.
(3) رسائل إخوان الصفا ج1 ص217.
(4) و(5) ـ الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص 88 و89.
(6) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل: لطائف المعارف ص 119.
(7) نفس المصدر والصفحة.
(8) ابن خلدون: المقدمة ص 344.
(9) د. فيليب حتي: تاريخ العرب ج2 ص 423.
(10) الدوري: نفس المصدر ص 91.

كان يصنع أولاً لملبوس الملوك والأمراء[1]. وكانت أكبر معامل نسج الحرير في ذلك العصر توجد في اقليم خوزستان[2] وكانت أنواع الحرير من ديباج وخز وستور تصنع هناك[3]. أما منسوجاتهم من وبر الإبل والماعز والعباءات المصنوعة من الحرير المغزول فقد كانت كلها واسعة الانتشار[4]. واشتهرت خراسان وأرمينية بأغطية الفرش والستائر وأغطية المقاعد والمساند[5]. وكانت مدينة مرو تصنع الابريسم التي تصدر إلى الآفاق[6].

واختصت بخارى بسجادها الفاخر[7]. واشتهرت سمرقند بالورق. وذكر الثعالبي أن كواغيد سمرقند عطلت قراطيس مصر والجلود التي كان الأوائل يكتبون فيها، لأنها أحسن وأنعم وأرفق وأوفق[8]. وكان الورق يصنع في بلاد ما وراء النهر فقط في القرن الثالث الهجري[9]. أما في القرن الرابع فكانت توجد مصانع الورق بدمشق وطبرية[10] وبطرابلس الشام[11]. ولكن سمرقند ظلت أكبر مركز لصناعته دائماً[12].

وفي إيران واقليم سابور بخاصة، ازدهرت صناعة الروائح العطرية. وكانت الزيوت العطرية تتخذ من البنفسج والنيلوفر والنرجس والكارده والسوسن والزنبق والمرسين والمرزنجوش والبادرنك والنارنج[13] وكان يحضر في جور وكوار ماء الورد، وذلك من زهور الورد والطلع والقيسوم والزعفران والخلاف[14]. وكان ينقل

---

(1) الاصطخري: مسالك الممالك ص 153.
(2) آدم متز: الحضارة الإسلامية ج2 ص302.
(3) نفس المصدر والصفحة.
(4) د. فيليب حتي: تاريخ العرب ج2 ص424.
(5) نفس المصدر والصفحة.
(6) الاصطخري: مسالك الممالك ص 212.
(7) د. فيليب حتي: نفس المصدر والصفحة.
(8) الثعالبي: لطائف المعارف ص 218. دخلت صناعة ورق الكتابة البلدان الاسلامية في أواسط القرن الثامن الميلادي من الصين عن طريق سمرقند التي فتحها المسلمون سنة 704م وظهرت أنواع مختلفة من الورق منها الأبيض.
(9) الاصطخري: مسالك الممالك ص 288.
(10) المقدسي: أحسن التقاسيم ص 180 ـ 181.
(11) ناصر خسرو: سفرنامة ص 130.
(12) آدم متز: الحضارة الاسلامية ج2 ص 309.
(13) المقدسي: أحسن التقاسيم ص 443.
(14) ابن حوقل: صورة الأرض ج2 ص 298.

ماء الورد من مدينتي جور وكوار إلى المغرب والأندلس واليمن ومصر والهند والصين والقسطنطينية وروما وبلاد الفرنج[1] يؤيد ذلك ما ذكره الثعالبي: (أن من خصائص فارس ماء الورد الذي لا مثيل له في سائر البلاد طيباً)[2]. وأماالجوري منه، المنسوب إلى جور، موصوف مضروب به المثل في الطيب مجلوب إلى أقاصي المشرق والمغرب[3].

واختصت بلاد الشام بصنع الزجاج في صيدا وصور وسواهما من المدن التي حافظت على تقاليد هذه الصناعة منذ عهد الفينيقيين. وقد ضرب المثل بالزجاج السوري لرقته وصفائه[4]. وكان الزجاج المخطط منه والمطلي بالميناء مثالاً اتخذه الأوروبيون أثر الحروب الصليبية لصنع الزجاج الملون الذي استعملوه لتزيين كاتدرائياتهم[5]. وكثر الطلب على الآنية الزجاجية والمزهريات المعدنية من مصنوعات الشام وأصبحت تعتبر من لوازم المنزل ومن متممات الرفاهية[6].

وكانت دمشق مركز صناعة واسعة للفسيفساء والقاشاني[7]، كما اشتهرت بصنع النسيج الذي عرف عند الأوروبيين (بالدمسقو) والمنسوجات الحريرية والديباج[8]. وانشئت فيها وفي طرابلس الشام مصانع للورق كما تقدم. وذكر خسرو أن معامل طرابلس تصنع الورق الجميل مثل الورق السمرقندي بل أحسن منه[9].

واشتهرت اليمن بصنع السيوف والبرد[10]. وكان يقال: إن السيف إذا كان من قلع الهند وطبع اليمن، فناهيك به[11].

واشتهرت مصر بصناعة الكتان وقلدها الفرس. وتميز مركز النسيج في الدلتا

(1) المصدر السابق، ص 298.
(2) الثعالبي: لطائف المعارف ص 178.
(3) نفس المصدر والصفحة.
(4) نفس المصدر ص 157.
(5) د. فيليب حتي: نفس المصدر ج2 ص 425.
(6) نفس المصدر والصفحة.
(7) نفس المصدر والصفحة.
(8) المقدسي: أحسن التقاسيم ص 181.
(9) ناصر خسرو: سفرنامة ص 13.
(10) الثعالبي: لطائف المعارف ص 166.
(11) نفس المصدر والصفحة.

المصرية بالانتاج الضخم، وكان أهم وأكبر مراكز النسيج في منطقة المتوسط دون جدال[1]. وكان انتاج مصانع الدلتا يصدر نحو الشرق الإسلامي وغربه، والمحيط الهندي وبيزنطة، والموانىء الايطالية[2]. وكانت المادة الأساسية لصناعة النسيج في الدلتا هي الكتان، المنتج محلياً والمسدى بالحرير وقد تداخله خيطان من الذهب[3]. وذكر ابن حوقل ان مصنعات الكتان في دمياط ودبيق وتنيس ليس في جميع الأرض ما يدانيها في القيمة والحسن والنعمة والترف والرقة والدقة[4]، وربما بلغت الحلة مائتي دينار إذا كان فيها ذهب وقد يبلغ ما لا ذهب فيه مائة دينار وأكثر أو أقل[5].

وبالفيُّوم تصنع الستائر والاستبرقات[6] والشرع والخيام والبسط والمضارف بالصوف والكتان بأصباغ لا تتغير وألوان تثبت فيها من صورة البقة إلى الفيل[7].

وكانت صناعة النسيج في مصر منزلية، حيث تغزل النساء الكتان وينسجه الرجال. وكان تجار القماش يقدمون المواد الأولية إلى العمال ويدفعون لهم أجرهم كل يوم[8].

وقراطيس مصر للمغرب ككواغيد سمرقند للمشرق[9]. وينقل متز عن غيره أن صناعة تجهيز ورق البردي بمصر للكتابة، قد أصبحت منتهية بالاجمال حوالي منتصف القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ 300هـ/ 912م[10].

وكان للخلفاء والأمراء معامل خاصة تعرف بدور الطراز[11]. وكانت دور الطراز

(1) لومبار خسرو: الإسلام في فجر عظمته ص 217.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) نفس المصدر والصفحة.
(4) ابن حوقل: صورة الأرض ج1 ص 152.
(5) نفس المصدر والصفحة.
(6) ما غلظ من الحرير والابريسم. فارسية معربة/ ابن منظور: لسان العرب ج11 ص 285.
(7) ابن حوقل: نفس المعطيات ص 159.
(8) آدم متز: الحضارة الاسلامية ج2 ص 298. وهو أجر لم يكن يتجاوز نصف الدرهم. أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي ص 202.
(9) الثعالبي: لطائف المعارف ص 161.
(10) آدم متز: الحضارة الاسلامية ج2 ص 308.
(11) الاصطخري: مسالك الممالك ص 153.

تنتج البسط والثياب والاعلام والبنود والفرش[1]. وكانت منطقة فارس وخزستان تحتوي على مصنع رسمي، يعمل حصراً لحاجيات الخليفة وبلاطه. وكانت المنطقة تشكل مجمعاً للنسيج ومنتجاً كبيراً للأنسجة الثمينة والعادية التي كانت تصدر من ميناءي البصرة وسيراف[2].

ومهر الصناع بالصباغة. وقد دفع تعدُّد المواد الأولية في النسيج والصباغة إلى تقدم تقنية التصنيع[3]. وكان تنوع الألوان في الأقمشة يدل على فن راق في صناعة الأصباغ. وكان الناس يتبارون في لبس الملابس الزاهية المتنوعة الألوان في حفلاتهم المسائية[4].

وكانت خامات الصباغة المستخدمة تشتمل النيلة والفوة والزعفران والقرمز. وكانت جميع مواد الصباغة، باستثناء القرمز، من مصدر نباتي[5]. وكانت النيلة تستعمل لكل أنواع الزرقة كما كانت الفوة تستعمل لكل أصناف الحمرة من اللون الوردي الفاتح إلى اللون الرماني[6]. وكان الزعفران يستعمل لتكوين صبغة صفراء ممتازة[7]. أما القرمز فهو حشرة طفيلية تعيش على البلوط الأخضر وتستخدم للصباغة باللون الأحمر القرمزي. وقد أدى استخدام القرمز والبقم (أو خشب البرازيل القادم من الهند) في الصباغة إلى تراجع الفوة والأرجوان[8].

وكان الصباغون يتفننون في مهنتهم، وبعضهم يختص بالصبغ بصبغة واحدة مثل الفوة والنيلة. وكانت الأصباغ المركبة تكوَّن بخلط الأصباغ الأولية[9]، فكانوا مثلاً يخلطون الفوة بالدباغ بنسب مختلفة لتكوين أصباغ يتراوح شكلها بين اللون القرمزي والتمري[10].

---

(1) الصابي، أبو اسحق: رسائل الصابي، الجزء الأول، نشره شكيب ارسلان، لبنان 1898 ص141.
(2) موريس لومبار: الاسلام في فجر عظمته ص 217.
(3) نفس المصدر ص216.
(4) الوشاء، أبو الطيب محمد بن إسحق بن يحيى الوشاء: كتاب الموشي. ص 123. ابن طاطبا: الفخري ص 205.
(5) الدوري: نفس المصدر ص97.
(6) نفس المصدر وذات المكان.
(7) نفس المصدر وذات المكان.
(8) موريس لومبار: نفس المصدر ص 215.
(9) الدوري: نفس المصدر 97.
(10) نفس المصدر والصفحة.

وتقدمت صناعة الحلي والمجوهرات لازدياد الطلب على مواد الترف من قبل الحكام وأعضاء الأسرة المالكة والأغنياء. فقد كان اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزمرد والماس من الجواهر التي يرغب فيها الحكام وذووهم[1]. أما الفئات الشعبية فكانت تعتمد الفيروز والجزع[2]. وقد اشترى الرشيد حجراً من الياقوت الأحمر بأربعين ألف دينار ونقش عليه اسمه[3]. وكان يضيء بالليل كضياء المصباح، إذا وضع في بيت لا مصباح فيه أشرق[4]. ولم تكن زبيدة زوج الرشيد وابنة عمه، تقتني من آنية المائدة سوى المصنوع من الذهب والفضة والمرصع بالجوهر. وهي أول من اتخذ الخفاف المرصعة بالجوهر[5]. وكانت علية، أخت الرشيد، تزاحم زبيدة في الاسراف على اقتناء مواد الترف. فقد اتخذت العصائب المطرزة بالجوهر لتستر بها جبينها، وكان فيه عيب، فاحدثت بتلك العصائب زياً جديداً أخذته النساء عنها[6]. وفي ليلة زواج المأمون ببوران، فرش المأمون لها بساطاً حيك من خيوط الذهب[7]، وجيء بمكتل مرصع بالجواهر، فيه درر كبار، فنثرت على من حضرن من النساء[8]. واستعملت موائد وصوان من الذهب مرصعة بالجواهر في وليمة ملكية فخمة أقامها المتوكل[9].

ويزعم المسعودي أن الخليفة المعتز 252 ـ 255هـ/ 866 ـ 869م كان أول من أحدث الركوب بحلية الذهب على سرج مذهب[10]. أما جميع من سلف من خلفاء بني العباس وبني أمية فإنما ركبوا بالحلية الخفيفة من الفضة في المناطق والسيوف والسروج واللجم[11]. وكان للمقتدر خمسمائة سرج من ذهب وفضة في اسطبله[12]. وكانت له خزائن ملأى بالجواهر النفيسة من جملتها ياقوتة هارون الرشيد

(1) د. فيليب حتي: نفس المصدر ج2 ص426.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) المسعودي: مروج الذهب ج4 ص168.
(4) نفس المصدر والصفحة.
(5) نفس المصدر ص 317.
(6) الاصفهاني: الأغاني ج10 ص 172.
(7) الثعالبي: لطائف المعارف ص121.
(8) نفس المصدر والصفحة.
(9) نفس المصدر ص122.
(10) المسعودي: مروج الذهب ج4 ص180.
(11) نفس المصدر والصفحة.
(12) أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج1 ص 103.

الحمراء والدرة اليتيمة التي كان وزنها ثلاثة مثاقيل، إلى غير ذلك من الجواهر الثمينة ففرق ذلك كله وأتلفه في أيسر مدة[1]. وذكر الثعالبي أن ما خلفه الرشيد من الأثاث والعين والورق والجوهر، سوى الضياع والعقار، ما قيمته مائة وخمسة وعشرون مليون دينار[2]. وأن ما خلفه المكتفي 289 ـ 295هـ/ 902 ـ 918م من العين والورق والأواني المعمولة منهما، والجواهر والطيب والكسوة والفرش ما قيمته ستون مليون دينار[3]. ويروى أنه وجد في مخبآت (قبيحة) أم المعتز في الدهاليز من تحف وجواهر ثمينة، من ذلك سفط فيه مكوك زمرد، وسفط فيه لؤلؤ حب كبار، وكيلجة ياقوت أحمر، مما قدر قيمته بمليوني دينار[4].

وكان مما ساعد على ترويج صناعة الحلي والمجوهرات غنى الدولة بالمعادن الثمينة، وأهمها: الذهب والفضة من خراسان وما وراء النهر[5]. ثم الياقوت واللازورد وحجر البازهر من بلاد ما وراء النهر[6]. والفيروز من نيسابور[7]، واللؤلؤ من البحرين[8] والعقيق من صنعاء[9].

ازدهار التجارة

ازدهرت التجارة ازدهاراً كبيراً في العهد العباسي، وساعد على ذلك عوامل عدة منها:

أ ـ اتساع رقعة الامبراطورية وتنوع مواردها.

ب ـ توسع الانتاج الزراعي والحرفي.

جـ ـ حرية التجارة والانفتاح التجاري على العالم.

د ـ تشجيع الدولة للتجارة.

(1) ابن طباطبا: الفخري ص 260.

(2) الثعالبي: لطائف المعارف ص118.

(3) نفس المصدر وذات المكان.

(4) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي: تاريخ الخلفاء ص 360.

(5) المقدسي: أحسن التقاسيم ص 226. الاصطخري: مسالك الممالك ص 303.

(6) نفس المصدر ص303.

(7) الاصطخري: مسالك الممالك ص 258.

(8) المقدسي: أحسن التقاسيم ص101.

(9) نفس المصدر والصفحة.

هـ ـ العناية بتحسين طرق المواصلات التجارية.

و ـ موقع دولة الخلافة الجغرافي في قلب العالم القديم ومرور والتقاء أهم طرق التجارة الدولية في أراضيها أو البحار والمحيطات التي تشرف عليها.

اتبع العباسيون سياسة حرية التجارة والانفتاح التجاري على العالم وتشجيع التجار بصورة مباشرة وغير مباشرة. فالخليفة والبيروقراطية العليا زادوا الطلب على البضائع الأجنبية. وكانت احتياجات الطبقة الحاكمة الغنية تشكل السوق الرئيسي للتجارة مما دعا ابن خلدون أن يسمي الدولة (السوق الأعظم للتجارة)[1]. كما أعفى بعض الخلفاء التجار من بعض الرسوم، بل وقدموا لهم مكافآت مالية[2]. وكان لهذه السياسة، في بعض جوانبها، أثر في تطور الاقتصاد النقدي فازدهر تبعاً لذلك رأسمال تجاري قوي، مما أثر في عملية تجديد الانتاج الاقتصادي بشكل ايجابي وفي تطور القوى المنتجة. ذلك لأن قسماً كبيراً من الرأسمال التجاري المتراكم وضع في خدمة تطوير الانتاج وفي ايجاد فروع انتاجية جديدة[3].

ولم تكن الحكومة تتدخل في حرية التجارة بالبيع والشراء وجني الأرباح الهائلة إلا في الحالات التي تشعر فيها بأن السخط العام والغليان الشعبي قد وصلا إلى درجة التفجر نتيجة لاحتكار المواد الغذائية وما كان يرافق ذلك من غلاء وارتفاع الأسعار[4].

ارتفع شأن التجارة والتجار الاقتصادي والمعنوي. يؤيد ذلك عناية الكتاب والجغرافيين والرحالة بها وبمسالكها البرية والبحرية وأوضاع البلاد الاقتصادية ومواردها وأصناف البضائع والمعاملات التجارية وأصولها وبعض القواعد الاقتصادية ليكون ذلك في خدمة التجار. فقد كتب الجاحظ، المتوفي عام 255هـ/ 869م، رسالة للتجار بعنوان (كتاب التبصر في التجارة)[5]. بدأها بذكر بعض المبادىء العامة في التجارة. ثم تحدث عن الذهب والفضة والأحجار الكريمة والعطور والثياب وبعض المنسوجات وغيرها من مواد الترف التي كان الطلب يزداد عليها من قبل

---

(1) ابن خلدون: المقدمة. ص 239.

(2) تاريخ اليعقوبي ج2 ص483.

(3) تيزيني، طيب: مشروع رؤية ص 182.

(4) انظر ص 26 ـ 28. مسكويه: تجارب الأمم ج1 ص 73 ـ 75.

(5) نشره الأستاذ حسين حسني عبد الوهاب التونسي أحد أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق 1932.

الحكام والأغنياء[1]. وكتب أيضاً رسالة في مدح التجار وفي ذم خدمة السلطان[2]. ويبدو أن هذا الكاتب الموسوعي الواسع الأفق أدرك بثاقب نظره القوة المتنامية لطبقة وسطى جديدة، يشكل التجار عمودها الفقري.

وكتب ابن خرداذبه، وقدامة بن جعفر، وابن رستة، واليعقوبي، وابن الفقيه، والمسعودي، والمقدسي، والاصطخري، وابن حوقل وغيرهم في المنتوجات المحلية، ووصفوا طرق المواصلات ودونوا رحلاتهم تسهيلاً لأسباب التجارة[3]. وألف أبو الفضل الدمشقي (كتاب الاشارة إلى محاسن التجارة) تناول فيه أصناف المال والبضائع (ص 2 ـ 33) والمعاملات التجارية وأصولها (43 ـ 47) والتجار وأصنافهم (ص 48 ـ 52)، ثم أثنى على التجارة بقوله: (إذا ميزت من جميع المعايش كلها وجدتها أفضل وأسعد للناس)[4].

لقد أنعش التوسع الكبير للحركة التجارية على الصعيد الخارجي في العصر العباسي الأول فئات التجار والمرابين وأرباب المؤسسات المصرفية وأصحاب الحرف. ومع نمو الفاعلية الاقتصادية لهذه الفئات الاجتماعية المدينية كان دورها يتزايد للتأثير في مجرى الأحداث السياسية في المجتمع العباسي الاقطاعي.

وكان لتدفق الذهب، من سفالة والنوبه والسنغال ـ النيجر والحجاز والقوقاز وأرمينية والأورال والطائي، ووفرة مناجم الفضة في أرمينية وايران الشمالية وآسيا الوسطى، أثر كبير في تطور الاقتصاد النقدي.

وقد أكد الجغرافي ابن خرداذبه عام 850م واقع وقوة هذا التداول النقدي وتكاثر النقود الذهبية والفضية في أصغر الدساكر، وحدد بالنقد مبالغ الضريبة والأموال التي أنفقها الخلفاء في البناء والتي تشهد على التقدم المديني. ونشط هذا التداول النقدي في كل العالم الإسلامي وتجاوز الحدود، فلامس مناطق واسعة في المجالات الاقتصادية المجاورة يؤكد ذلك العثور على كميات كبيرة من النقود العباسية في روسيا وفي منطقة حوض البلطيق[5]. وأخذ الدينار الإسلامي يحتل مركز السيادة على

---

(1) الجاحظ: التبصر في التجارة. ص 6 ـ 28.

(2) الجاحظ: رسائل الجاحظ. الرسالة السادسة القاهرة 1324.

(3) زيدان: نفس المصدر ج5 ص47.

(4) الدمشقي، أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي: كتاب الإشارة إلى محاسن التجارة ص 47.

(5) آدم متز: الحضارة الإسلامية ج2 ص 314.

العملات الذهبية الغربية منذ أواخر القرن الثامن الميلادي في مجالي التبادل الدولي والمحلي الكبير، ثم غدا نقداً دولياً بلا منازع في منتصف القرن العاشر[1].

وبفضل غزارة هذه الأداة الممتازة في المبادلات، نعني الذهب، فان مراكز مدينية في أوج تقدمها استطاعت أن تجذب إليها كل المنتجات التي تحتاجها مهما تكن بعيدة، كما أمنت حاجة تفهم مدى الحاحها من ارتباطها بالغنى وبصعود بعض الفئات الاجتماعية[2].

وكان التجار يتاجرون بشراء وبيع السلع التي يحتاجها الناس عامة، إلا أن تجارتهم كانت، بالدرجة الأولى، في سلع الترف كالذهب والفضة والجواهر والبسط الفاخرة والثياب الحريرية والرقيق كما يظهر ذلك من محتويات كتابي التبصر بالتجارة للجاحظ والإشارة إلى محاسن التجارة للدمشقي.

وقد جمع كبار التجار ثروات طائلة من التجارة. ففي البصرة، بلغت ثروة أحدهم عشرين مليون دينار[3] وظل ابن الجصاص تاجر المجوهرات الشهير ببغداد غنياً موسراً بالرغم من أن المقتدر صادر منه ستة عشر مليون دينار[4].

وكان ابن الجصاص يتعامل بسلع الترف فقط كالجواهر والرياش. وكانت له صلات بالأمير الطولوني حتى قال هذا عنه: (لعن الله ابن الجصاص، أفقرني في السعر)[5]. وكذلك كانت صلاته بالخلفاء العباسيين في بغداد. وعن طريق صلاته تلك وبيعه الجواهر والرياش للحكام وذويهم جمع ثروة ضخمة، وصار له نفوذ واسع يمكنه من تهديد الوزير والتأثير عليه[6]. وفي سيراف، الميناء الذي تمر به صادرات ايران ووارداتها، وجد من التجار من يملك الأربعة ملايين دينار وأكثر[7]. ويذكر ابن حوقل أنه لقي تاجراً في سيراف يملك ثلاثة ملايين دينار[8]. وألف تجار سيراف البحر حتى

---

(1) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي ص 160.

(2) لومبار، موريس: نفس المعطيات ص 139.

(3) زيدان: نفس المصدر ج5 ص49.

(4) الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد: فوات الوفيات. ص 271.

(5) التنوخي. أبو علي المحسن بن علي التنوخي. نشوار المحاضرة. ج2 ص315.

(6) نفس المصدر ج1 ص33 ـ 35.

(7) الاصطخري: مسالك الممالك ص 139.

(8) ابن حوقل: صورة الأرض. القسم الثاني ص 291.

ربما غاب أحدهم عامة عمره فيه[1]. وبلّغ الاصطخري أن أحدهم لم يخرج من السفينة نحواً من أربعين سنة[2]. وترمز قصص السندباد البحري في كتاب ألف ليلة وليلة عن واقع النشاط الزاخر للتاجر البغدادي أو البصري في العراق.

وكانت المعاملات الضخمة تستدعي اعتماد وسائل للدفع، مأمونة من الضياع خفيفة الحمل، بعيدة عن متناول اللصوص. ومن هذه الوسائل السفتجة التي شاع استعمالها في القرن الرابع الهجري حتى صارت عاملاً مهماً في الحياة الاقتصادية. فأخذ الولاة يرسلون ما زاد من دخل ولاياتهم إلى بغداد بسفاتج[3]. واستعملت السفتجة من قبل التجار لتصفية حساباتهم بين مدن واقطار مختلفة دون الحاجة إلى نقل النقود والبضائع[4]. ويذكر الروذراوري أن أمر التجار نافذ في المشارق والمغارب لأنهم يكتبون سفاتج بالأموال الجمة على معاملاتهم فيكون أسرع في الرواج من مال الجباية والخراج. وينوّه بأن سفاتج التجار كانت تقبل في بلاد الأعداء إضافة إلى رواجها في البلاد الاسلامية المستقلة[5].

وكان من وسائل المعاملات الصك الذي استعمل في الدوائر الحكومية لدفع الرواتب وخصوصاً رواتب الجيش[6]. وتجاوز استعمال الصك دوائر الحكومة إلى الشعب[7]. واستعملت الصكوك لمختلف المدفوعات[8]. كما استخدم الصك بمثابة سند الدين. ويحدثنا ابن حوقل «أنه رأى صكاً كتب بدين على التاجر محمد بن سعدون باودغشت، من أعمال مراكش، باثنين وأربعين ألف دينار وشهد عليه العدول»[9].

وكانت معاملات الاعتماد تحصل بين الدولة والتجار. ففي أوقات الضائقات

---

(1) الاصطخري: نفس المعطيات ص138.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) مسكويه: تجارب الأمم ج1 ص43 ــ 146.
(4) نفس المصدر ج3 ص138 ــ 9.
(5) أبو شجاع محمد بن الحسين الروذاوري: ذيل كتاب تجارب الأمم باعتناء هــ. ف امدروز ج3 ص138 ــ 139.
(6) نفس المصدر ج3 ص46. الصابي: تحفة الأمراء ص 235.
(7) الدوري: نفس المصدر ص178.
(8) نفس المصدر والصفحة.
(9) ابن حوقل: صورة الأرض ج1 ص61، 99.

المالية، وعند تأخر جباية الضرائب، كانت الدولة تقترض من التجار. فقد نصح وزير المعتضد ابنه ونائبه علي بن عيسى أن يقترض من التجار[1]. ومتى اقترض الوزير من التجار، قدم لهم ضماناً بالدين، فكان علي بن عيسى يعطي التجار سفاتج على الواردات، مؤجلة، تصرف حينما يحل موعدها[2].

كان التجار يأخذون فائدة على ما يقرضونه للدولة، وعلى السفاتج التي يصرفونها[3]. ونشأت البيوتات المالية من ضرورات التجارة من جهة وحاجة الدولة إلى النقود من جهة أخرى[4].

ودأب أصحاب المؤسسات المصرفية إلى تنمية رساميلهم وتوسيع دائرة نفوذهم في الدولة. ويستنتج من بعض الروايات عن قيام صلات بين كبار البيروقراطية وبين أصحاب البيوتات المالية[5]. وأن هذه الصلات كانت تخدم المصالح الأنانية الجشعة للطرفين على حساب اختلاس موارد الدولة ونهب الشعب. فيذكر التنوخي أن الوزير ابن الفرات نصب سنة 296هـ/ 908م يوسف بن فنحاس وهارون بن عمران الجهبذين، وأسند إليهما حفظ كل الأموال المصادرة من ابن المعتز وأنصاره «دون يد صاحبي بيت المال العامة والخاصة»[6]. ولكنه أفرد ابن فرجويه كاتبه بمحاسبتهما والاستبقاء عليهما فكان يحاسبهما ولا يرفع إلى الدواوين شيئاً من حسابهما[7].

وعندما سجن ابن الفرات بعد وزارته الأولى، اعترف لمؤنس الحاجب، صاحب بيت المال، بأنه بقي قِبَل يوسف بن فنحاس وهارون بن عمران 1,470,546 درهماً، فقبض مؤنس منهما تلك البقية ومضى الأصل كله لا يعرف في أي شيء صرف، وكان مبلغه فيما ظنه الكاتب نحو مليون دينار. وفاز ابن الفرات بجميعها ولم يقم بها حجة عليه»[8]. ولكن هذا لم يرض الوزير الجديد علي بن عيسى 300 ـ 304هـ/ 902 ـ 906م، فأمر باحضار ابن فنحاس وابن عمران وطالبهما بما أودع ابن الفرات

(1) التنوخي: نشوار المحاضرة ج8 ص26.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) الصابي: تحفة الأمراء ص 188.
(4) الدوري: نفس المصدر ص 159.
(5) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص 100. التنوخي: نشوار المحاضرة ج8 ص57.
(6) التنوخي: نشوار المحاضرة ج8 ص23 ـ 4.
(7) الصابي: تحفة الأمراء ص79،
(8) نفس المصدر والصفحة. التنوخي: نشوار المحاضرة ج8 ص24.

وبعد ضغط شديد اعترفا «أنه بقي عندهما مئة ألف درهم لحساب ابن الفرات، ولكن علياً ألح حتى ألزمهما بمئتي ألف درهم»[1]. وكان الماليان ابن فنحاس وابن عمران صاحبي شركة مصرفية في بغداد.

وكانت رساميل البيوتات المالية تتألف من أرباح التجارة ومن الودائع العائدة للوزراء والكتاب وكبار الموظفين ومن تفويض جباية ضرائب بعض المقاطعات إلى أصحاب تلك المؤسسات[2]. وهكذا ساهمت الرأسمالية الطفيلية، المرابون وأصحاب البيوتات المالية، في ارباك الوضع المالي والاقتصادي للدولة وفي تردي أحوال الجماهير العاملة.

وكان مركز التجارة في الأسواق، شأنها شأن الصناعة. وكانت الأسواق تشكل جزءاً حيوياً من المدن. فعندما وضعت مثلاً خطط بغداد في القرن الثامن، وخطط سامراء في القرن التاسع، وجهت عناية خاصة للأسواق[3].

وكان لكل طائفة من التجار سوق مفردة تنتشر الحوانيت على جانبيه[4]، كسوق البزازين لبيع الأقمشة، وسوق المجوهرات، وسوق العطارين لبيع العطور، وسوق الحبوب، وسوق الصرافين، وسوق النخاسة لبيع الرقيق.

وكانت المدن بصورة عامة أسواقاً لما يحيط بها من قرى وأرياف، فهي مخازن لانتاجها ومراكز تبيع لها ما تحتاج إليه من مواد وسلع. وكان القرويون يأتون إلى الأسواق الاعتيادية، أو يفدون إلى أسواق اسبوعية تعقد في أيام معينة من الأسبوع، فمثلاً كان يعقد في ضاحية الموصل سوق الأحد حيث يعرض فيه المتاع ويجتمع التجار والأكرة (الفلاحون) والأكراد والرحل للبيع والشراء[5]. وسوق القيروان في أفريقية (تونس اليوم) يعقد في يومي الأحد والخميس[6] وسوق العسكر (خوزستان) يوم الجمعة[7].

---

(1) المصدر السابق، ص80. التنوخي: نشوار المحاضرة ج8 ص24 ـ 25.
(2) مسكويه: تجارب الأمم ج1 ص66 ـ 7. التنوخي: نشوار المحاضرة ج8 ص103 ـ 104 ص26.
(3) اليعقوبي: كتاب البلدان ص241. ص257.
(4) نفس المصدر ص243، ص246.
(5) ابن حوقل: صورة الأرض ج1 ص217.
(6) المقدسي: أحسن التقاسيم ص 225 ـ 226.
(7) نفس المصدر ص405 ـ 6.

لقد كان لعمليات البيع والشراء أشكال ثلاثة هي:

أ ـ المقايضة: وهي أقدم أشكال التبادل التي عرفها الانسان. وتعني أن يجري مقايضة سلعة بأخرى أو بشيء آخر مباشرة وكانت المقايضة في العهد العباسي تتبع في التعامل مع زنوج شرقي أفريقيا ووسطها[1] ومع جزر المحيط الهندي[2] ويذكر المسعودي أن أهالي بعض تلك الجزر كانوا يخرجون معهم في المراكب العنبر والنارجيل، فيقايضون بالحرير وشيء من الثياب ولا يبيعون ذلك بالدراهم ولا بالدنانير[3].

ب ـ التبادل المزدوج: وهي أن يأخذ التجار العملة المحلية لقاء سلعتهم، ثم يشترون بهذه العملة من تلك البلدان. وكانت هذه الطريقة تتبع أحياناً في الصين وفي بعض جهات الهند[4].

جـ ـ التبادل بالعملة: كانت العملة العباسية من دراهم ودنانير، تقبل أحياناً ثمناً للبضائع المشتراة في التجارة مع شرقي أوروبا[5]. ويؤكد اكتشاف كميات كبيرة من النقود العباسية في روسيا وفي منطقة حوض البلطيق أن شعوب شرقي أوروبا كانت تقبل النقود العباسية، التي أصبح لها السيادة على العملات الغربية وغدا الدينار الذهبي نقداً دولياً دون منافس في منتصف القرن العاشر الميلادي[6]، في معاملاتها التجارية.

لقد نشط التجار العرب والمسلمون في العهد العباسي، وارتادوا الآفاق بتجارتهم الواسعة المنفتحة على العالم دون أن تثني من عزيمتهم بعد المسافة أو المصاعب والأخطار التي كانوا يتعرضون لها في البحر والبر، وأخذوا، تدريجياً، يحلون محل التجار الأجانب في تسلم زمام التجارة العالمية.

ولم ينظر العرب إلى التجارة بشيء من الاحتقار كما نظروا إلى الزراعة والصناعة في أول عهدهم. ومن هنا أخذت بغداد والبصرة وسيراف ودمشق وحلب وعدن والقاهرة والاسكندرية تتقدم وتصبح مراكز هامة للتجارة البرية والبحرية.

---

(1) أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني: الجماهر في معرفة الجواهر: ص 237 ـ 239.
(2) ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص 65.
(3) المسعودي: مروج الذهب ج1 ص152 ـ 153.
(4) الدوري: نفس المصدر ص156.
(5) أبو علي أحمد بن عمر ابن رسته: الأعلاق النفيسة باعتناء دي غويه ليدن 1892 ص 142.
(6) أنظر ص 260.

واتجهت خلافة بغداد بتجارتها، بعد أن رأت منافذها على الغرب البيزنطي قد أغلقت أو كادت، بقوة أكبر نحو الشرق في بادىء الأمر. وساعدتها ظروفها الطبيعية الاقليمية على تحقيق هذا الهدف، لارتباط العاصمة ومدنها الكبرى بالخليج والمحيط الهندي عن طريق دجلة والفرات، ومن ثم سهولة علاقاتها عبر الهضبة الايرانية بآسيا الوسطى. كما أن تحول سكان جنوب آسيا وجنوبي شرقيها إلى الإسلام لعب دوراً في تنمية التجارة البحرية البعيدة. فأخذت السفن العباسية تجوب البحار الجنوبية والشرقية[1]. ووصل التجار العرب والمسلمون إلى موانيء الصين من البصرة منذ خلافة أبي جعفر المنصور[2].

وكانت السفن الخارجة من البصرة، والتي تقصد الصين، تمر في طريقها بمسقط، ثم الديبل فكُولَمْ ملي (كيلون) جنوب ملبار، ثم حول الهند إلى خليج البنغال إلى لنجبالوس (احدى جزر نيكوبار) غرب ساحل ملقا. ثم كله بار (كذا في ملقا) ميناء على الساحل الغربي لملقا، ومنها إلى جزيرة تيومه الواقعة إلى الشرق قليلاً من الساحل الشرقي لملقا، ثم كندا رانج (في دلتا الميكونغ) ثم إلى الصنف (على الساحل الشرقي للهند الصينية). ثم في بحر الصين إلى لونغ بيان في طونغ كينغ، وأخيراً إلى خانفو (كانتون الحديثة)[3] مرفأ السفن، ومجتمع تجارات العرب وأهل الصين[4].

وكان الطريق البحري إلى الصين خاضعاً لما تقتضيه هبوب الرياح الموسمية التي تستطيع السفن أن تسير معها من غير حاجة إلى استعمال البوصلة[5]. وكان التجار يعودون إلى بلادهم بمعاونة الرياح الموسمية والعادية[6]. فرحلة الذهاب والعودة معاً كانت تستغرق حوالي عام ونصف العام[7].

وكانت المراكب التي تذهب إلى الصين كبيرة جداً، وكان أكثر ملاحيها من

---

(1) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي ص 163.
(2) د. فيليب حتي: نفس المعطيات ج2 ص421.
(3) ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص 62 ـ 67.
(4) جورج فاضلو حوران: العربَ والملاحة في المحيط الهندي ترجمة. يعقوب بكر ص 224.
(5) متز: الحضارة الاسلامية ج2 ص377.
(6) جورج فاضلو حوران: نفس المصدر ص 221. متز: نفس المصدر ص378.
(7) المسعودي: مروج الذهب ج1 ص147.

سيراف وعمان[1]. وطوال ذلك العصر، كانت مراكب التجار العرب والمسلمين تذهب إلى بحار الصين، كما كانت مراكب الصين تختلف إلى عمان وسيراف والأبلة والبصرة[2].

وقد أنشأ التجار العرب والمسلمون مراكز تجارية لهم في الصين وخاصة في خانفو ميناء الصين العظيم[3]. ولعب العرب الدور الرئيسي بين التجار الأجانب الذين كانوا يتاجرون مع الصين. كما كانوا يعاملون معاملة حسنة من قبل الحكومة الصينية[4].

أما التجارة البرية مع الصين فكانت ضئيلة، إذ إن الرحلة كانت طويلة وكثيراً ما أغلقت الحكومة الصينية الطرق المؤدية إلى الصين كوسيلة للتحفظ من التسلل الأجنبي[5]. فالطريق البحري كان أسهل بكثير لدرجة أن بعض التجار كانوا يأتون من سمرقند إلى البصرة، ومنها يسلكون الطريق البحري إلى الصين[6].

وكان التجار العرب والمسلمون يحملون إلى الصين العاج والكهرب الفصوصي السلافي (الصقلبي) والكندر (عطر)، والكافور، والياقوت، ودرق السلاحف (قشر السلاحف)، والختو (قرن الكركدن) الذي كان أهل الصين يتخذون منه المناطق[7]. ويأخذون منها الحرير والثياب الحريرية والديباج، والغضائر[8]، والجواري والخصيان واللبود والعقاقير، والدارصيني، والمسك والطواويس، والأقفال، وأواني الذهب، والفضة، والسروج والكاغد والمداد، ومهندسي الماء وعلماء الحراثة[9].

وكان للعرب علاقات تجارية نشيطة مع الهند، حيث أنشأوا في كبريات مدنها، كالديبل والمنصورة وملتان، مراكز تجارية[10]. ويذكر المسعودي أنه شاهد في عام

---

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم ص 18. المسعودي: مروج الذهب ج1 ص147 ـ 148.
(2) المسعودي: مروج الذهب ج1 ص140.
(3) نفس المصدر والصفحة.
(4) الدوري: نفس المصدر ص 148.
(5) نفس المصدر ص153 ـ 154.
(6) المسعودي: مروج الذهب ج. 1
(7) الدوري: نفس المصدر ص148.
(8) جمع غضارة وهي القصعة أو الصحن الكبير أو ساق يتخذ من الخزف.
(9) الجاحظ: التبصر بالتجارة ص 21. ابن خرداذبه، أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله بن خرداذبه: المسالك والممالك ص 70 ـ 71.
(10) المسعودي: مروج الذهب ج1 ص167.

304هـ/ 916م مستعمرة عربية تجارية في منطقة صيمور، فيها طائفة من وجوه العرب ونحو من عشرة آلاف قاطنٍ بياسرة[1]. وسيرافيين وعمانيين وبصريين وبغداديين وغيرهم[2].

وفي الديبل كان العرب يتبادلون، السلع مع التجار الهنود الذين يجلبون بضائعهم من داخل الهند أو من المدن المجاورة. وكانت ملتان مركزاً هاماً للتجارة مع المناطق الداخلية الهندية، لأن فيها معبداً يقصده ويحج إليه ألوف الهنود من داخل البلاد[3].

وكانت تجارة العرب مع الهند تجري معظمها بطريق البحر، كما كانت القوافل متصلة من خراسان إلى السند والهند[4].

وكان التجار يجلبون من الهند، التوابل، والياقوت الأحمر، والعقاقير، والكافور، وجلود النمور، والصندل الأبيض، والأبنوس، وجوز الهند، والرماح، والقطيفة[5]. ويحملون إليها البضائع والتمور من البصرة[6].

وكان التجار العرب يتاجرون مع سرنديب (سيلان) وجزائر الهند الشرقية، فيشترون منها الأحجار الكريمة وخاصة العقيق ثم التوابل[7]. ويأخذون إليها البضائع ومنها النبيذ العراقي[8]. ولكن هذه التجارة كانت معرضة لخطر القرصنة الهندية[9].

وكانت التجارة مع خراسان وبلاد ما وراء النهر تسلك «طريق خراسان». وكانت خوارزم محطة للتجار الذين يتاجرون مع الترك وآسيا الوسطى وأوروبا الشرقية. فأكثر رقيق الصقالبة(السلاف) والخزر والترك، وكذا الفرو الصقلبي والخزري كان يأتي بطريق خوارزم[10].

---

(1) يراد بهم من ولدوا من المسلمين بارض الهند.
(2) المسعودي: مروج الذهب، ج1 ص210.
(3) نفس المصدر ص167.
(4) نفس المصدر والصفحة.
(5) الجاحظ: التبصر بالتجارة ص 20. ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص 70 ـ 71. اليعقوبي: كتاب البلدان ص346 ـ 7.
(6) أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن علي بن محمود الشافعي: تقويم البلدان ص 375.
(7) اليعقوبي: كتاب البلدان ص44.
(8) ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص 67.
(9) نفس المصدر ص62.
(10) ابن حوقل: صورة الأرض ج2 ص487.

ونفذ التجار العرب والمسلمون من خوارزم إلى بلاد البلغار (في وادي الفولغا) وبلاد الروس بطريق آتل (عاصمة اقليم الخزر) براً أو في القوارب بصعود نهر الفولغا إلى مدينة بلغار[1]. وكانت قوافل التجار متصلة من خوارزم إلى بلغار، ومن بلغار إلى خوارزم[2].

وكان التجار العرب يدفعون ضريبة قدرها 10% من قيمة بضائعهم في مدينة بلغار، ويعاملون معاملة حسنة لأن ملك البلغار كان قد أسلم وأهل بلاده عام 310هـ/ 922م في خلافة المقتدر[3] 295 ـ 320هـ/ 908 ـ 932م، مما يستنتج أن الدعوة إلى الإسلام كانت وثيقة الصلة بالفعالية التجارية في هذه الفترة التاريخية.

وكان التجار الخزر وسطاء مهمين في التجارة بين البلاد الإسلامية وشرقي أوروبا. وكانت مراكبهم التجارية تسلك نهر الفولغا وسلعتهم الوحيدة غراء السمك. أما البضائع الأخرى مثل الرقيق والعسل والشمع والخز والأوبار فمجلوبة إليهم[4].

وكان البرطاسيون، شعب فنلندي كان يسكن الأراضي الواقعة بين الخزر والبلغار، يصدرون الفرو، وخصوصاً فرو الثعالب السود النفيس الذي تتنافس ملوك العرب والعجم في لبسه، وهو أغلى عندهم من فرو السمور والفنك. وكانت تجارتهم تحمل بطريق خراسان[5].

وفي القرن الرابع الهجري، تمَّ فتح الطريق التجاري أمام العرب إلى بلاد الروس في الشمال وكانت ثمة بعض العلاقات قبل القرن المذكور بين بلاد الروس وبلدان العالم الإسلامي. وتحدث ابن خرداذبه عن التجار الروس ووصف لنا مسلكهم من بلادهم إلى ديار الإسلام بقوله. «فأما مسلك تجار الروس، وهم جنس من الصقالبة (السلاف)، فهو نهر الدون، ثم يعبرون الفولغا وينحدرون فيه إلى بحر قزوين، وبعد أن يصلوا إلى الساحل الجنوبي منه، يحملون بضائعهم على الجمال إلى بغداد، وهناك يتظاهرون بأنهم مسيحيون فيؤدون الجزية. وكانوا يتاجرون بفرو الخزر وبفرو الثعالب

---

(1) وهي عاصمة البلغار. والبلغار قوم مجهول الأصل. تسلل بعضهم إلى أواسط حوض الفولغا وأقاموا فيه مملكة عاصمتها مدينة بلغار.

(2) المسعودي: مروج الذهب ج1 ص181.

(3) نفس المصدر والصفحة. ابن رسته. الاعلاق النفيسة ص 140 ـ 1.

(4) ابن حوقل: صورة الأرض ج2 ص394.

(5) المسعودي: التنبيه والاشراف ص 62 ـ 3 مروج الذهب: ج1 ص181.

السود، وبالسيوف، ويستعينون بخدام الصقالبة ليترجموا لهم»[1]. وقال ابن رسته عن الروس الذين كانوا يسكنون حول مدينة نوفغرود، إنهم كانوا يتاجرون بفرو السمور والسنجاب والرقيق[2]. وذكر ابن حوقل أن التجارة الروسية كانت تحمل دائماً عبر أراضي الخزر، وأن التجار المسلمين كانوا يتاجرون مباشرة مع كويابه[3] (كييف حالياً).

وكان للعرب محطات تجارية على طرق التجارة البرية. ففي سمرقند، كانت جالية عراقية تجارية[4]. وفي اتيل، عاصمة الخزر، طائفة كبيرة من المسلمين، فيها مسلمون من الخزر، وتجار وصناع مسلمون من الأقطار الإسلامية[5]. وكان في بلغار طائفة من التجار المسلمين[6].

وقد وجدت كميات كبيرة من النقود العباسية في روسيا وفنلندا والسويد والمانيا. وهي شاهد على اتساع التجارة التي تعاطاها التجار المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها[7]. وأقدم هذه النقود يعود إلى القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، ولكن معظمها يرجع إلى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وأكثر من ثلثيها نقود سامانية[8]. والباقي نقود بغدادية[9]. وكانت بلاد الروس منذ ذلك العصر وفي أثناء الحروب الصليبية هي الطريق بين شمال أوروبا وبين الشرق[10].

وكان للتجار العرب علاقات تجارية مع أقطار شرقي أفريقيا تعود إلى عصور

---

(1) ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص 154.

(2) ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر بن رسته: الأعلاق النفيسة ص 145.

(3) ابن حوقل: صورة الأرض ج2 ص392 ـ 397.

(4) نفس المصدر ص498.

(5) المسعودي: مروج الذهب ج1 ص180. ابن حوقل: نفس المصدر ص388 ـ 390.

(6) الدوري: نفس المصدر ص155.

(7) د. فيليب حتي: نفس المصدر ج1 ص379.

(8) آدم متز: نفس المصدر ج2 ص314. حكم السامانيون (874 ـ 999م) بلاد ما وراء النهر كولاة للخليفة المأمون سنة 198 ـ 218هـ/ 786 ـ 833م، ثم استقلوا بإمارتهم، وانتزعوا من الصفارين خراسان وطبرستان وسجتان. وفي عهدهم تطور الاقتصاد الاقطاعي في ما بين نهري أمو ـ داريا وسر ـ داريا. وأصبحت مدن بخارى وسمرقند واورغنج مراكز تجارية وحرفية. وقد فتح نهوض الاقتصاد الاقطاعي عند شعوب آسيا الوسطى الطرق نحو تطوير المعارف العلمية.

(9) الدوري: نفس المصدر ص153.

(10) آدم متز: نفس المصدر ج2 ص314.

موغلة في القدم. وظلت صلاتهم وثيقة بعد الإسلام. وكان مسلكهم إليها الطريق البحري من البصرة إلى البحر الأحمر، وكان التجار، وهم من العرب العمانيين، يذهبون إلى سواحل أفريقيا الشرقية عبر خليج عمان وبحر العرب إلى ميناء عدن الكبير، دهليز الصين[1]. ثم تنحدر مراكبهم على طول الساحل الافريقي في بحر الزنج إلى قنبلو (زنجبار أو زنزبار) ومنها إلى بلاد سُفالة (موزامبيق) وهي حد أسفارهم وأقصى بلاد الزنج وإليها تقصد مراكب العمانيين والسيرافيين[2]. وكان يغريهم بقصدها البحث عن الرقيق في سفالة، وكثرة معدن الذهب في الواق الواق (ماشوانا لاند) التي هي أيضاً من أقاصي بلاد الزنج[3].

ولقد سيطر العرب على سواحل أفريقيا الشرقية، وأنشأوا فيها مستعمرات ومستوطنات واستولوا على تجارتها وجعلوا منها سوقاً عربية ثم اسلامية لا ينازعهم فيها منازع، يوم كانوا أسياد المحيط الهندي وأرباب الملاحة والاكتشافات والعلوم البحرية[4].

وكان الطريق إلى شواطىء أفريقيا الشرقية مهدداً بالقرصان أو متلصصة البحر حسب تعبير الاصطخري[5]. ولذلك كان لا بد في كل مركب من مقاتلة ونفاطين لحمايته[6] وكانت جزيرة سقطرى أو (اشقطرة) خاصة عشاً خطراً للقرصان[7]. وكانت المراكب إذا مرت لا تزال ركابها في هلع حتى تتجاوزها، وكانت تأوي إليها بوارج قراصنة الهند ليقطعوا الطريق على مراكب المسلمين[8].

وكان العرب يتصلون أيضاً بأفريقيا الوسطى، بواسطة البر، وذلك عبر الطريق التجاري الذي ينطلق من بغداد ويمر بسورية ومصر فشمالي افريقية[9].

كما كان التجار يحملون من سواحل افريقية الشرقية: الذهب والرقيق والعاج

---

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم ص34.
(2) المسعودي: مروج الذهب ج1 ص107 - 8 ج2 ص6.
(3) نفس المصدر ج2 ص6.
(4) ابراهيم الفحام: فضل العرب في ارتقاء المعارف البحرية: مجلة الهدف، شباط)فبراير(1958 ص65.
(5) الاصطخري: مسالك الممالك ص 33.
(6) المقدسي: أحسن التقاسيم ص12.
(7) نفس المصدر ص14.
(8) المسعودي: مروج الذهب ج2 ص20.
(9) ناجي معروف وعبد العزيز الدوري: موجز تاريخ الحضارة العربية ص 74.

والأبنوس[1] وينقلون إليها التمور والقطن والأنسجة والأدوات الفولاذية والأواني الزجاجية[2].

وقد نقل تجار الرقيق في العهدين الأموي والعباسي أعداداً ضخمة من الزنج، وجعلوا من بغداد محطة كبرى لتلك التجارة الوضيعة الرابحة التي دعوها النخاسة. ولم يكن ثمة من فرق في نظر النخاسين في سوق التجارة بين السلع التجارية والبضاعة البشرية طالما كان الهدف الربح ولو كان على حساب تحويل الانسان إلى سلعة تباع وتشرى. وكان الثمن الجاري للعبد في سوق الرقيق حوالي منتصف القرن الثاني الهجري مائتي درهم[3].

وكان التجار يتبعون المقايضة في تعاملهم مع زنوج شرقي أفريقيا. يؤيد ذلك قول البيروني: إن من رسم تجار البحر في مبايعات الزنوج أن لا يأتمنوهم في العقود وإنما تجيء رؤساؤهم وكبارهم ويرهنون أنفسهم حتى يستوثق منهم بالقيود، ويدفع إلى قومهم ما أرادوا من الأمتعة ليحملوها إلى أرضهم ويقتسموها فيما بينهم. ثم إنهم يخرجون إلى الصحارى في طلب أثمانها، ولا يجد كل واحد من الذهب في تلك الجبال إلا بمقدار ما خصه من السلع. فيجيئون به إلى المراكب ويسلمونه إلى مراكبهم ورهائنهم حتى يؤدوه ويرفعون الوثائق عنهم[4].

وبالنظر لموقع دولة الخلافة العباسية بين الامبراطورية البيزنطية وبين موارد الحرير والتوابل في آسيا الشرقية، كان محتماً أن تستمر المبادلات بين التجار المسلمين والروم. ويلاحظ المؤرخون أن الأقمشة ذات الأسماء العربية، عادت إلى الظهور بكثرة في القسطنطينية منذ بداية القرن التاسع، وأن التجارة العربية البيزنطية ازدهرت مرة أخرى في القرن العاشر رغم الخطر الامبراطوري المتكرر[5].

ويبدو أن علاقات العباسيين التجارية مع أوروبا الغربية ظلت محدودة، وذلك بسبب الأوضاع السياسية والمطامع الاقتصادية المتشابكة لدول حوض البحر الأبيض

---

(1) المسعودي: مروج الذهب ج2 ص6، 7 د. فيليب حتي: نفس المصدر ج1 ص379.
(2) جميل المدفعي: صاحب الزنج أو ثورة الزنج (كراس) ص 10.
(3) الاصفهاني: الأغاني ج3 ص207.
(4) أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني: الجماهر في معرفة الجواهر ص 239.
(5) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي ص 164.

المتوسط. ويصف ابن خرداذبه تجاراً يهوداً يسمون الراذانية[1] يتكلمون اللغات العديدة (العربية والفارسية والروسية والافرنجية والأندلسية والصقلبية - السلافية)، ويأتون من الغرب بالرقيق (من الخصيان والاماء والغلمان) وبالأقمشة الغالية والفرو والسيوف ويمرون بمصر عبر البحر الغربي، فينزلون بالفرما، ومنها يحملون تجارتهم على ظهور الابل إلى القلزم، ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى جدة والسند والهند والصين، يستجلبون منها المسك والعود والكافور والدارصيني[2]. وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم ثم يحملونه إلى الفرما ثم يركبون البحر الغربي (يقصد البحر الأبيض المتوسط) فربما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية فباعوها من الروم وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة فيبيعونها هناك، وإن شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بانطاكية ويسيرون على الأرض إلى الجابية ثم يركبون في الفرات إلى بغداد ثم يركبون في دجلة إلى الأبلة ومن الأبلة إلى عمان والسند والهند والصين كل ذلك متصل بعضه ببعض[3].

وكانت قوافل التجار العراقيين تخترق الصحارى قاصدة مصير وسواحل أفريقيا الشمالية حتى المغرب، ومنها تنتقل السلع إلى موانيء أوروبا مع البحر الأبيض المتوسط فيعود منها التجار بالذهب والنفائس[4].

وكانت الحكومة تفرض على التجارة رسوماً تختلف باختلاف جنسيات التجار: 10% على الأجانب و5% على تجارات أهل الذمة و2,5% على تجارات المسلمين[5]. وكان يرد منها إلى بيت المال مبالغ وافرة نتيجة لتوسع الحركة التجارية[6].

لقد رافق توسع الحركة التجارية تطور علوم الرياضة والفلك والجغرافية، فاخترع علماء الرياضيات الجبر والنظام العشري للأرقام بعد أن استحدث محمد بن موسى الصفر في القرن التاسع الميلادي، وقد أسهم استحداث الصفر في تسهيل العمليات

---

(1) لعلها مشتقة من اسم ردانو: أي نهر الرون حيث تقوم بعض مراكزهم التجارية ومؤسساتهم المصرفية.

(2) ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله بن خرداذبه: المسالك والممالك ص 153.

(3) نفس المصدر ص154.

(4) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي الاقتصادي ص 164.

(5) أبو يوسف القاضي: كتاب الخراج طبعة بولاق ص 76.

(6) زيدان: نفس المصدر ج2 ص91.

الحسابية في حقل التجارة. واخترعوا الجيب والظل وظل التمام، وترجمت كتب فلكية فارسية ويونانية إلى العربية، وأقيمت المراصد في جنديسابور وبغداد ودمشق وغيرها[1]. وصنعت الاسطرلابات وفق النمط اليوناني[2] واستخدمت البوصلة التي وضعها القبساقي لأول مرة سنة 1282م[3]. وظهر كبار الفلكيين المسلمين كالخوارزمي والبتّاني والبيروني وعمر الخيام[4]. وكان الكتاب الأول الذي صنف في موضوع المواصلات البحرية العربية مع الهند والصين ووصفها كتاب: (بيان أسفار التاجر سليمان السيرافي). ومن بيان هذه الرحلة وسواها نشأت تدريجياً تلك الحكايات المضافة إلى السندباد البحري[5] التي ليست في نظر الباحثين إلا أخباراً لها أساس واقعي لرحلات حقيقية قام بها أهل التجارة من المسلمين[6]. وظهر أعلام الجغرافيين وكتاب الرحلات أمثال: ابن خرداذبه مؤلف كتاب المسالك والممالك[7]. واليعقوبي مؤلف كتاب البلدان[8]، وابن رسته مؤلف كتاب (الأعلاق النفيسة)[9]. وابن الفقيه الهمذاني مؤلف كتاب البلدان[10]، والاصطخري مؤلف كتاب (مسالك الممالك)[11]، وابن حوقل الذي نقح خرائط الاصطخري وأصلح جغرافيته ثم عمد إليها بعد مدة وكتبها ثانية وانتحلها لنفسه بعنوان (المسالك والممالك)[12]. وهناك نسخة أخرى تعرف (بصورة الأرض)[13]. والمقدسي أو المقدّسي مؤلف كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)[14]. والجغرافي اليماني مؤلف كتابي (الاكليل)[15] و(صفة

---

(1) د. فيليب حتي: نفس المصدر ج2 ص456 ـ 58.
(2) نفس المصدر ص458.
(3) متز: الحضارة الإسلامية ج2 ص364.
(4) د. فيليب حتي: نفس المصدر ج2 ص459 ـ 463.
(5) المصدر ذاته ص 468.
(6) المصدر ذاته ج1 ص379.
(7) نشره دي غويه. ليدن ـ 1889.
(8) نشره دي غويه. ليدن ـ 1892.
(9) نشره دي غويه. ليدن ـ 1891 ـ 1892.
(10) نشره دي غويه. ليدن ـ 1885.
(11) نشره دي غويه. ليدن ـ 1870.
(12) نشره دي غويه. ليدن ـ 1873.
(13) نشرها فون كرامر في مجلدين ـ ليدن 1838 ـ 1839.
(14) نشره دي غويه 1877.
(15) نشره الكرملي بغداد 1931.

جزيرة العرب)[1]. وياقوت الحموي مؤلف القاموس الجغرافي (معجم البلدان)[2]. وقد اعتمدنا على هذه المؤلفات القيمة وغيرها لاقتباس معطيات اقتصادية ومالية مفيدة وهامة.

وبعد أن كان ازدهار التجارة الخارجية العباسية قد جلب مزيداً من النشاط الاقتصادي والفكري، شهدت الطرق التجارية انقطاعاً، وظهرت مراكز جديدة لتبادل السلع، وبخاصة في المغرب والموانيء الايطالية، نابلي والبندقية وأمالفي وغيرها. فكانت هذه الظروف المحيطة بمثابة خنق لحكم بغداد الذي فجَّرت تناقضاته الداخلية أوصاله[3].

---

(1) نشره ملر في مجلدين ليدن 1884 ـ 1891.

(2) نشره وستنفلد في 6 مجلدات لايبزيغ 1866 ـ 1873.

(3) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي ص170.

الفصل الثالث عشر

النظام الاجتماعي والمجتمع العباسي

عقب هزيمة الأمويين، تربَّع العباسيون، وهم أسرة عربية اقطاعية موسرة، على رأس السلطة في الدولة الجديدة، واستعانوا ببعض الأسر الأريستقراطية العريقة النسب فأسندوا إليها مناصب هامة وفي مقدمتها منصب الوزير.

وكان من أولى الاجراءات التي اتخذها الحكام الجدد مصادرة أراضي وممتلكات وأموال بني أمية[1]، وصيروها سنداً وقاعدة للنظام الاجتماعي الطبقي الذي حل نهائياً محل النظام القبلي البدائي المندثر.

وينبغي الإشارة إلى أن الأريستقراطية العربية في العهد العباسي، فقدت وضعها المميز الذي كان لها في ظل الدولة الأموية، وأخذ يلعب الدور الحاسم بدلاً منها الاقطاعيون الايرانيون[2].

ومن أجل تضليل كادحي العمل وايهامهم بتحقيق المساواة، تعاون العباسيون مع الأريستقراطية الفارسية والنخبة المثقفة على أساس أنها تمثلهم في السلطة، وذلك من أجل ضبط الجماهير ولجم الصراع الطبقي[3].

لقد استخدم العباسيون الجبرية كسلاح ديني لتوطيد مواقعهم السياسية ومصالحهم الطبقية وتعزيز حكمهم المطلق وتبريره، ولتخدير المستثمَرين والمستخدَمين والمعدَمين البؤساء وصرفهم عن النضال الطبقي ضد أسيادهم المستغِلين.

وقد وضعت دولة الخلافة نفسها، من حيث كونها دولة الإسلام، في مكان

---

(1) انظر ص 219.

(2) جماعة من المؤلفين السوفييت: عرض اقتصادي تاريخي ج1 ص242.

(3) الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ص 76.

الممثل الشرعي الوحيد للنظام الاجتماعي الذي تحدده الشريعة الإلهية. وعلى هذا الأساس تترتب معادلة ذات صورة منطقية تنتج المستند النظري الإسلامي لمفهوم «الحق الإلهي» في الحكم المطلق. وهذه المعادلة تأتي على الوجه التالي: النظام الاجتماعي الذي تحدده الشريعة هو نفسه نظام حكم الخلافة. وحيث إن الشريعة، التي تحدد هذا النظام شريعة الهية، فهي مقدسة، وبالتالي فنظام حكم الخلافة نفسه نظام مقدس[1]. وإضفاء طابع القداسة الدينية على حكم الخلافة، يمنح الطبقة الحاكمة في مجتمع الخلافة حق السيطرة المطلقة التي تعني أن الاعتراض عليها أو الخروج عن طاعتها هو اعتراض على حكم الله وخروج عن طاعة (أولي الأمر) التي فرضها الله. يؤيد ذلك قول أبي العباس السفاح، أول خلفاء بين العباس: الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه، فكرمه وشرفه وعظمه، واختاره لنا وأيده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوَّام به والذابِّين عنه والناصرين له...)[2]. وقول أبي جعفر المنصور، ثاني خلفاء بني العباس: (أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه ورشده)[3].

هرمية المجتمع العباسي وطبقاته

مع توطد العلاقات الاقطاعية وتوسع الحركة التجارية وتطور الاقتصاد النقدي، ازداد التمايز المادي بين فئات المجتمع، وتبلور انقسام المجتمع على أساس الثروة إلى طبقتين اجتماعيتين متضادتين الأولى: الطبقة العليا أو الخاصة أو الأريستقراطية وهي الطبقة السائدة التي تحكم وتملك المال والثروة وتستغل الجماهير العاملة. وتضم أعضاء الأسرة الحاكمة والبيروقراطية العليا والقادة العسكريين والأمراء والاقطاعيين وكبار التجار وأرباب المال. وهي تشغل بحكم ثروتها ونفوذها قمة الهرم الاجتماعي. والثانية هي الطبقة السفلى أو الشعبية، وتضم الجماهير العاملة وفئات العبيد، ويتجلى التمايز الصارخ والجائر بين الأغنياء والفقراء في توزع الثروة والدخل والمعيشة والسكن كما سيتوضح ويستنتج من الفقرات التالية:

---

(1) د. حسين مروة: النزعات المادية ج1 ص857.

(2) من خطبة لأبي العباس السفاح: الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص81 ـ 82.

(3) من خطبة لأبي جعفر المنصور خطبها يوم (عرفة) على منبر عرفة: السيوطي: تاريخ الخلفاء ص 262.

1 ـ الطبقة العليا أو الخاصة أو الأريستقراطية

كان الخليفة، الذي يعد أكبر الاقطاعيين في الدولة، يتمتع بالسلطة المطلقة في منح الأراضي والامتيازات. وكان الاقطاعيون، أصحاب الحظوة والنفوذ، يستطيعون بطرقهم الخاصة أن يحصلوا على اعفاءات كثيرة من الضرائب، كما كانوا ينالون، أحياناً، مساعدات مالية من الحكومة عند منحهم الأراضي المقطعة ولا سيما الموات منها[1] وازداد اعتماد الحكومة على الملاكين المحليين والعرب فأمعنوا جوراً واستغلالاً لجماهير الفلاحين. ويذكر المسعودي أن محمد بن سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس، والي البصرة، كان يغل من أملاكه كل يوم مائة ألف درهم[2]. وعندما مات قبض الرشيد أمواله في البصرة فكان مبلغها نيفاً وخمسين مليون درهم نقداً[3]. وروى التنوخي أن الرشيد اعتل فداواه طبيبه، فأمر بمساعدته حتى ابتاع ضياعاً غلتها مليون درهم[4]. وبلغت غلة الخيزران، والدة الرشيد، مئة وستين مليون درهم في العام[5]. وبلغت غلة أم محمد بن الواثق عشرة ملايين دينار في العام، أكثر من مئة وخمسين مليون درهم[6]. وما حصل من ارتفاع ضياع الوزير ابن الفرات الملك سوى الاقطاع والايغار في مدة سبع عشرة سنة مع ما انصرف من ذلك من المبيع والمقطع والموغر للحاشية حساباً في السنة مائتين وخمسين ألف دينار، أربعة ملايين ومائتين وخمسين ألف دينار[7].

وفي العصر العباسي الثاني، أصبحت السلطة الفعلية بيد القادة العسكريين والبيروقراطية العليا، وغدا للاقطاع العسكري أهمية خاصة.

هذا وتجدر الملاحظة إلى أن تعاون العباسيين مع الأريستقراطية المحلية لم يكن وثيقاً، وإنما كان يشوبه الحذر التام، وكثيراً ما كان ينتهي بمصادرة الأموال والتنكيل

---

(1) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية. ص 176.
(2) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص348.
(3) نفس المصدر والصفحة.
(4) التنوخي: الفرج بعد الشدة ج2 ص102 ـ 3.
(5) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص348.
(6) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص531.
(7) مسكويه: تجارب الأمم. باعتناء هـ. ف أمدروز ج1 ص239.

الذي بلغ ذروته في نكبة الرشيد للبرامكة ومصادرته لأموالهم وممتلكاتهم[1].

استغل الاقطاعيون المحليون الاستياء العام لدى أبناء الشعوب المغلوبة، ولا سيما في أوساط الجماهير الفلاحية، للقيام بحركات انفصالية. وقد حدثت مثل هذه الحركات الانفصالية الاقطاعية في مشرق الخلافة ومغربها. وكان للتناقضات القائمة بين مختلف فصائل الأريستقراطية الاقطاعية بالإضافة إلى التناحرات بين أعضاء الأسرة الحاكمة ودسائس البلاط أثر ملموس في إضعاف الدولة وتمزيق وحدة الخلافة.

لقد كدس أعضاء الأسرة الحاكمة وكبار الموظفين والاقطاعيين والتجار وأرباب المال، الفئات الطفيلية في المجتمع العباسي، ثروات أسطورية على حساب جهد الجماهير العاملة وبؤسها وفقرها وتخلفها. وكانوا يتنافسون في اكتناز المال واقتناء المجوهرات والحلي والروائع والفرش والثياب والرياش وبناء القصور الفخمة العامرة بالجواري والغلمان، وإنفاق الأموال الطائلة على الموائد والحفلات، في الوقت الذي كان الفقراء والمعدمون يتضورون من الجوع ويسحقهم الغلاء وتفتك بهم الأمراض الوبائية فتكاً ذريعاً.

2 ـ الطبقة السفلى أو الشعبية مع فئات العبيد

تشغل الطبقة السفلى أو الشعبية مع فئات العبيد القاعدة العريضة من الهرم الاجتماعي لمجتمع الخلافة العباسي، وإليها تنتمي فئات الفلاحين الفقراء والعوام، الأحرار ونصف الأحرار.

أ ـ الفلاحون

احتلت الزراعة الركن الرئيسي في الاقتصاد العباسي، وظل نشاطها يعتمد أساساً على جهد الفلاحين والعبيد. ويغذي بالعمل الفائض الفئات الطفيلية من الموظفين وملاك الأراضي والتجار وأصحاب البيوتات المالية وغيرهم.

وكان الفلاحون قد اشتركوا في الثورة العباسية أملاً في التخلص من الظلم والاضطهاد والاستغلال المرهق وتحسين ظروف حياتهم الاقتصادية والاجتماعية.

---

(1) تاريخ اليعقوبي: ج2 ص422. صادر الرشيد أموال البرامكة وقدرها ثلاثون مليوناً وستمائة وسبعون ألف دينار نقداً كما صودرت ضياعهم وغلاتهم ودورهم ورياشهم. ابن عبد ربه: العقد الفريد ج3 ص28.

لقد اتخذ الخلفاء العباسيون الأوائل جملة من التدابير لتنشيط الزراعة وتنمية الموارد الفلاحية، وذلك بإقامة مشروعات كبرى للري واستصلاح الأراضي وتخفيض نسبي للضرائب المتوجبة على الفلاحين والرفق بالعامل الزراعي، مما حفّز الفلاحين على زراعة الأرض وساعد على زيادة الانتاج ونمو القوى المنتجة. ومع ذلك ظلت الضرائب ثقيلة على الفلاحين، وظل اتجاهها العام نحو الزيادة[1]، واستمر العسف في جبايتها[2]. وعلى سبيل المثال، ذكر ياقوت الحموي أن الحجاج بن يوسف الثقفي جبى خراج إقليمي فارس والأهواز ثمانية عشر ألف ألف درهم، أي ثمانية عشر مليوناً[3]. ثم أخذت هذه الضريبة تزداد إلى أن بلغت حوالي النصف الأول من القرن التاسع الميلادي خمسة وثلاثين مليون درهم التزم جمعها وتأديتها إلى بيت المال الفضل بن مروان وزير المتوكل[4]. ومعنى ذلك أن الضرائب التي كانت تؤخذ في ذينك الإقليمين قد تضاعفت في مئة سنة. وطبيعي أن جماهير الفلاحين في فارس والأهواز هم الذين كانوا يدفعون القسم الأكبر منها.

وفي مصر، استمر الولاة العباسيون يضاعفون الخراج على الفلاحين ويشددون في تحصيله كما فعل موسى بن علي سنة 156هـ[5] في أواخر حكم المنصور، وموسى بن صعب في زمن المهدي، الذي ضاعف الخراج وشدد في استخراجه[6]. وفي أيام المأمون كان الخراج المفروض على مصر دينارين على كل فرد[7]. ثم زاد الخراج في مصر بعد المأمون حتى بلغ في أواسط القرن الرابع الهجري ثلاثة دنانير ونصفاً، وجعلها القائد جوهر الصقلي، الذي فتح مصر باسم الفاطميين سبعة دنانير[8].

وروى الطبري أن المأمون عندما أتى أهل قم عام 210هـ، وبعد منصرفه من الري، شكوا إليه ثقل الخراج عليهم، وطلبوا إليه أن يخفف عنهم كما فعل بالري

(1) زيدان: التمدن ج2 ص121 الهامش.
(2) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص 70 ـ 71.
(3) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج4 ص227.
(4) نفس المصدر والصفحة.
(5) المقريزي: الخطط ج1 ص308.
(6) نفس المصدر والصفحة.
(7) نفس المصدر ص99. ابن حوقل: المسالك والممالك ص 129.
(8) ابن حوقل: المسالك والممالك ص 152.

فأبى، فامتنعوا عن أداء الخراج، فحاربهم وجباه سبعة ملايين بعدما كانوا يتظلمون من مليوني درهم[1].

وكان أهل الخراج يعذبون بصنوف العذاب حتى عام 184هـ، حين أمر الرشيد (170 ـ 193هـ/ 786 ـ 809م) برفعه عنهم[2]. وفي عام 187هـ/ 803م، ولي محفوظ بن سليمان عاملاً على خراج مصر بعد أن ضمن الخراج عن آخره بلا سوط ولا عصا[3]. على أن ديونيسيوس يصف جباة الخراج في العراق عام 200هـ/ 815م (بأنهم عتاة ليس في قلوبهم رحمة ولا إيمان، شر من الأفاعي، يضربون الناس ويحبسونهم، ويعلقون الرجل البدين من ذراع واحد حتى يكاد يموت)[4].

وقد أدى تعزيز الملكية الإقطاعية إلى زيادة استغلال الفلاحين واضطهادهم وكانوا يدفعون إلى مالكي الأرض ضريبة تتراوح بين خمسي المحصول وثلاثة أخماسه[5]. وكان الفلاحون يقومون بأعمال السخرة في أراضي الإقطاعيين المدنيين والروحيين، ويدفعون لهم الضرائب العينية الفادحة[6].

وقد عبر الشاعر أبو العطاء السندي عن إرهاق العباسيين وشدة جورهم للرعية بالبيت التالي:

يا ليت جور بني مروان عاد لنا   يا ليت عدل بني العباس في النار[7]

وقد نجم عن عودة جباية الخراج نقداً والتوسع في نظام الالتزام ـ القبالة ـ وعسف الجباة وزيادة الربا وانتشاره في الريف، أن تردت أحوال الفلاحين وحلت بهم من جديد المصائب والنكبات، فأخذوا يهربون من الأرض مما اضطر الحكومة إلى ملاحقتهم والقبض عليهم وإعادتهم إلى الأرض قسراً. وبهذا ساهمت أجهزة الدولة في إعادة الفلاحين المعدَمين إلى حالة «القنانة» ـ رق الأرض ـ[8].

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص184.

(2) تاريخ اليعقوبي ج2 ص415.

(3) أبو عمر محمد بن يوسف الكندي: ولاة مصر وقضاتها ص 37. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد: الخطط ج1 ص309.

(4) متز، آدم، الحضارة الاسلامية. ج1 ص22/ .

(5) انظر ص 230. والدوري: نفس المصدر ص45.

(6) بيفانوف: تاريخ الاتحاد السوفياتي ص71.

(7) الأصفهاني: الأغاني: ج17 ص250.

(8) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي ص 160.

ولم يكن الفلاحون يشكون من ثقل الضرائب وعسف الجباة فحسب، وإنما كان يكمن الغبن أيضاً في أخذ الحكومة منهم ربع الأرض ـ الخراج دون أن تقدم لهم من المساعدات والمرافق والخدمات الاجتماعية والسكنية إلا النذر اليسير الذي يكاد لا يذكر. وعلى سبيل المثال، كان السواد يدفع إلى خزينة الدولة خراجاً سنوياً 120 مليون درهم، وذلك نحو ثلث خراج المملكة كله، وتدفع فارس والأهواز خمساً وثلاثين مليون درهم، أي أنه إذا أضيف إلى خراج السواد بلغ المجموع نحو نصف جباية المملكة. ومع ذلك ظلت الأغلبية الساحقة من سكان السواد وفارس والأهواز، وهم عادة الفلاحون الفقراء والحرفيون الكادحون أناس العمل المنتجون المباشرون للخيرات المادية، تعيش طوال العهد العباسي في فقر مدقع، يلفهم ظلام الجهل وتفتك بهم الأمراض الوبائية والمجاعات فتكاً ذريعاً. وكان فلاحو السواد فقراء جداً. ويذكر المقدسي في معيشة أهل البطيحة (عيش ضيق، ادامهم السمك، وماؤهم حميم)[1].

ويذكر الدوري: (أن المثل الأعلى للمساواة والعدل ظل وهماً، إذ لم يحقق العباسيون وعودهم ولم يعملوا ما يذكر لتخفيف الضغط الاقتصادي والاجتماعي على جماهير الفلاحين، فاستمر العسف والجور)[2]. وازداد الاستغلال الاقطاعي نتيجة لتعزز العلاقات الاقطاعية وتعاون الاريستقراطية مع السلطة وتطور الاقتصاد النقدي. ولهذا أصيبت الجماهير الفلاحية وخاصة فلاحو خراسان، الذين كانوا القاعدة الاجتماعية للثورة العباسية، بخيبة أمل لعدم تحقيق ما كانت تصبو إليه من المساواة والعدالة الاجتماعية[3]، مما دفعها إلى مواصلة الكفاح والاشتراك في العديد من الثورات كما سيأتي.

ب ـ العوام

ارتبط ظهور العوام بالوضع الطبقي والتقسيم الاجتماعي للعمل، وكانت فئات العوام تتألف من عمال الصناعة الحرفية وأصحاب البيوعات البسيطة والفعلة وسائر كادحي

---

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم ص 119.
(2) الدوري: العصر العباسي الأول ص44 ـ دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص11.
(3) د. طه حسين: مرآة الإسلام. د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص98.

المدن. وبمهارة الصناع اليدوية تم انتاج ما يحتاج إليه المجتمع من أدوات، وسلع الاستهلاك، ومواد الترفيه لتغطية الطلبات المتزايدة عليها من قبل الحكام والأغنياء، بالإضافة لإنتاج لوازم الجيش من السلاح والعتاد. وبجهود الفعلة والمهندسين، بنيت المدن والأسواق وشيدت المساجد والقصور ودور الكتب والمستشفيات والقلاع والأسوار وغير ذلك من المنشآت والمرافق والخدمات المدينية.

وكان العوام يشكلون أكثرية السكان في المدن. وقد خلقت الشروط المادية المزرية التي كانوا يعيشونها، شعوراً بالمصلحة المشتركة فيما بينهم، وذلك على الرغم من اختلاف عناصرهم الجنسية ومذاهبهم الدينية وخاصة في العاصمة بغداد، كما أسهمت اللغة العربية التي كانوا جميعاً يتكلمونها في تعزيز تضامنهم الطبقي[1].

وكان الصناع أكثر الأحرار فقراً وأوطأهم منزلة. يؤيد ذلك قول الدمشقي: «إن الصانع بيده لا يكاد كسبه يقصر عن إقامة ما لا بد منه، وإذا ميِّز الناس دخل في أدون طبقاتهم[2]. وذكر متز أن أجرة النساج في أوائل القرن الثالث الهجري نصف درهم عن كل يوم عمل (وكان ذلك لا يفي بثمن الخبز الذي يأكله)[3].

وتحدث التنوخي عمن يبيع يسيراً ومن رأسماله دينار وديناران وثلاثة، وبين أن واردهم كان ضئيلاً[4]. أما الأجراء والحمالون والخدم والفعلة فكانت شروط حياتهم أكثر بؤساً وقساوة، فهم لا يملكون أي وسيلة للانتاج ويعيشون على بيع قوة عملهم أو قوة جسدهم وهو بيع لا يدر عليهم إلا النذر اليسير، إذ كانوا يتذمرون من قلة الأجور وضآلة الدخل ومن البطالة وقلة العمالة وسوء المعيشة وارتفاع الأسعار والغلاء، خاصة في أوقات الضائقات الاقتصادية ـ الاجتماعية والحروب الداخلية والاضطرابات السياسية حيث تستفحل البطالة ويسحقهم ارتفاع الأسعار وغلاء المعيشة وتبيدهم المجاعات والأوبئة[5].

---

(1) زيدان: التمدن ج5 ص51.

(2) الدمشقي: الإشارة إلى محاسن التجارة ص 43.

(3) آدم متز: الحضارة الاسلامية ج2 ص298.

(4) التنوخي: نشوار المحاضرة ج1 ص60.

(5) ابن الأثير: الكامل ج8 ص 29،46، 50، 81، ج9 ص145، 255. المقريزي: اغاثة الأمة في كشف الغمة ص11، 12، 23، 26، 28، 29، 33، 34. الصولي، أبو بكر محمدبن يحيى: اخبار الراضي ص237.

وكان فقراء العامة يأكلون الجراد وخاصة في السنين العجاف(1). كما كانوا يضطرون إلى أكل الميتة والكلاب وغيرها في سنوات الغلاء(2).

وكان العوام، الأحرار، ونصف الأحرار، يشكون من العسف الشديد في توزيع الدخل وسوء الوضع المعاشي والفوضى السياسية، ويتذمرون من ارتفاع الأسعار والغلاء نتيجة احتكار المواد الغذائية من قبل وجوه الدولة والتجار المقربين(3).

وكان ارتفاع الأسعار والغلاء ينزل النكبات بفقراء العوام وصغار الموظفين. وعلى العكس من ذلك، فإنه يكون لصالح المحتكرين والتجار وأرباب المهن الحرة(4). وكان الاحتكار السبب الرئيسي للغلاء(5).

وكان العوام يشكون أيضاً من البطالة. فقد ذكر أن عيَّاراً قال: (نشأت فلم أتعلم غير معالجة السلاح، وجئت إلى بغداد أطلب الديوان، أي يبحث عن عمل أو وظيفة، فما قبلني أحد فانضفت إلى هؤلاء، يقصد العيارين، وطلبت الطريق. فلو كان أنصفني السلطان ونزَّلني بحيث استحق من الشجاعة لانتفع بخدمتي وما فعلت هذا)(6). وكان وضعهم يزداد سوءاً كلما تعاظم التباين الاقتصادي الطبقي وتفاقمت الأزمة المالية واشتد الغلاء وخيم شبح البطالة واضطربت الأوضاع السياسية وفسدت الإدارة وتفسخ الحكم.

وقد نتج عن اشتداد الاستغلال الاقطاعي، وتمركز رأس المال والعمل، والغلاء، وتدهور الوضع المالي، وانتشار الفوضى في دار الخلافة وضعاً وصفه مسكويه بقوله: (الرعية هالكة والدور خراب والأقوات معدومة والجند متهارجون)(7).

ولم يقبل العوام ظروف حياتهم المزرية باستكانة، فيستسلموا لمظالم الحكام

---

(1) المصدر السابق، ص449، 448، 439.

(2) التنوخي: الفرج بعد الشدة ج2 ص107 ـ 108.

(3) ابن الأثير: الكامل ج6 ص163، 249، 281، 284، 299، 317، 321، 358. ج7 ص36، 122، 131، 162، 254، 312. ج8 ص29، 46، 50، 81. ج9 ص145، 255. ابن مسكويه: تجارب الأمم جـ1 ص73 ـ 74. ج2 ص25، 91. المقريزي إغاثة الأمة في كشف الغمة ص 11، 13، 14، 23، 26، 36.

(4) مسكويه: تجارب الأمم ج1 ص74 ـ 75.

(5) المقريزي: إغاثة الأمة في كشف الغمة ص13، 14، 17، 18، 36.

(6) التنوخي: الفرج بعد الشدة ج2 ص107.

(7) مسكويه: تجارب الأمم ج2 ص314.

ومفاسد النظام، بل حاولوا العمل على تحسين أحوالهم بكافة الوسائل السلمية منها أو الثورية. وأسهمت دعاية الأحزاب السياسية كالاسماعيلية ورجال الفكر الطليعيين كإخوان الصفا وغيرهم في إثارة بعض الوعي في نفوس العامة وتشجيعهم على الخروج والثورة على الحكومة. فكوّنوا الجمعيات والنقابات وانتسبوا إلى الأحزاب السرية الثورية واشتركوا في العديد من الانتفاضات الشعبية أملاً في إحداث تغيير في سياسة الحكومة أو إقامة حكم جديد يعمل لصالح الجماهير ومن بينها العوام.

جـ ـ العبيد

انحصر مورد العبيد في العصر العباسي بالنخاسة بعد أن انتهى عهد الفتوحات وتوقفت تقريباً حروب التوسع. وكان النخاسون يجلبون الرقيق من ثلاث مناطق تشكل المصادر الرئيسية للعبيد هي: بلاد ما وراء النهر، وسواحل أفريقيا الشرقية، وبلاد الصقالبة وأوروبا الشرقية[1].

وكان العبيد أوطأ فئات الطبقة السفلى منزلة في مجتمع الخلافة. فهم لا يملكون أي وسيلة للانتاج، بل هم أنفسهم مملوكون.

استُخدم العبيد في ميادين الانتاج الاجتماعي التي كانت تتطلب أعمالاً يدوية وجهداً عضلياً قوياً ولاسيما في حقول الزراعة واستصلاح الأراضي وأعمال الري والمناجم، كما استخدموا في ميادين الصناعة الحرفية والخدمة المنزلية والعسكرية والخدمات الثقافية.

وكان الرقيق يعملون في قصور الحكام والأغنياء نساء ومخصيين لخدمة الحريم، وخداماً ومغنين وموسيقين في قصور الخلفاء والأمراء والشخصيات الكبيرة والموسرين. فقد ذكر السيوطي أنه كان في قصر الخليفة المقتدر أحد عشر ألف غلام غير السلاف والروم والسود[2]. وكان لدى الخليفة المتوكل أربعة آلاف سرية[3]. وأهدى إليه أحد قواده مرة مئتي وصيفة ووصيف[4]. وكان بيت الثري حامد بن

---

(1) لومبار، موريس: نفس المصدر ص 228.

(2) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص 384. ابن طباطبا: الفخري ص 260: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج1 ص100.

(3) المسعودي: مروج الذهب ج4 ص122.

(4) المصدر ذاته. ص 124.

عباس، ملتزم ضرائب السواد والوزير فيما بعد، عامراً بالغلمان[1].

وكان الرقيق يعملون أيضاً حرساً خاصاً أو جنداً في الجيش الخليفي الذي كان في ملاكه فرقة كاملة من المماليك[2] وفرقة أخرى من السودان[3]. وكان عند الأخشيد[4] صاحب مصر ثمانية آلاف مملوك يحرسه في كل ليلة ألفان[5]. ولعب هذا الحرس من العبيد دوراً من الطراز الأول، فابن طولون كان ابن عبد تركي معتق، وأبو المسك كافور، الذي تزعم مصر من 966 ـ 968م، كان زنجياً مخصياً[6].

وهناك العبيد الزنج الذين كان يجلبهم النخاسون من سواحل أفريقيا الشرقية[7]. وكان العبيد الزنج يستخدمون في أكثر أعمال سهول البصرة مشقة، في منظومة الري الاصطناعي وتجفيف المستنقعات وإزالة الطبقة الملحية لجعل الأرض صالحة للزراعة وللإفادة من الأملاح المتجمعة[8]. وقد تكاثرت أعداد العبيد الزنج في العصر العباسي عما كانت عليه في العهد الأموي. ذلك أن توسع الزراعة وتطورها الكبير وخاصة في جنوب العراق، تطلب أعداداً جديدة من الأيدي العاملة الرخيصة. وكان الزنج يعملون على شكل جماعات تتراوحُ بين خمسمائة وخمسة آلاف[9]. وقد بلغ عدد إحدى الجماعات التي كانت تشتغل في أراضي نهر دجيل خمسة عشر ألفاً[10]. وكانوا يحشرون بلا أكل ولا مأوى[11].

---

(1) مسكويه: تجارب الأمم ج1 ص73 ـ 74.

(2) البغدادي: تاريخ بغداد ج1 ص100 ـ 104. الصابي، أبو الحسن هلال، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص 11 ـ 14.

(3) مؤلف مجهول: العيون والحدائق ص349.

(4) حكمت مصر حكماً مستقلاً لأول مرة في تاريخها الاسلامي في عهد الأسرتين: الطولونية (868 ـ 905م) والأخشيدية (935 ـ 969م). وفي عهدهما امتد سلطان مصر إلى فلسطين وسورية والجزيرة العربية. وعلى الرغم من نهوض الاقتصاد المصري نسبياً في حكمهما وتمتعهما بنوع من العطف الوطني من قبل الأهالي، غير أن حكمهما كان حكماً أجنبياً معتمداً على جيوش أجنبية في غالبيتها ويخدم في الأساس مصالح التجارة الخارجية التي في أيدي الأجانب لذا لم تستطع الدولتان الصمود طويلاً، فسقطت الأسرة الطولونية أمام الجيش العباسي كما سقطت الدولة الأخشيدية أمام الجيش الفاطمي.

(5) زيدان: التمدن ج5 ص32.

(6) لومبار، موريس: نفس المصدر ص 327.

(7) ميتز: الحضارة الاسلامية ج1 ص264. د. فيليب حتي: تاريخ العرب ج1 ص379.

(8) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص547.

(9) دائرة المعارف الإسلامية: الترجمة العربية. كلمة زنج ج10 ص422.

(10) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص547.

(11) دائرة المعارف الإسلامية: ج10 ص422.

وعلى الرغم من قسوة ظروف عملهم فإنهم كانوا يشتغلون دون مقابل تقريباً. فقد اقتصرت أجورهم على قوت قليل من الدقيق والتمر والسويق[1]، مما جعل وضعهم المعاشي سيئاً. ولم يكن للزنج زوجات وأولاد، بل كانوا على هيئة الشطار عزاباً[2]. وكانوا محرومين من أبسط الخدمات الاجتماعية والتعليمية والصحية. يعيشون في أكواخ من القصب وسعف النخيل وكانت الملاريا والحر والجوع تفتك بهم فتكاً ذريعاً[3].

وكثيراً ما هرب العبيد من أسيادهم، وكانت سائر الولايات الإسلامية في القرن الرابع الهجري غاصة بالعبيد الأبَّاق. ولذا تؤكد عهود الخليفة على ضرورة إرجاع العبيد الهاربين (الاباق) إلى أسيادهم. وكان من أول ما يؤمر به ولاة النواحي في كتب توليتهم أن يقبضوا على العبيد الآبقين ويحبسوهم ويسلموهم لأسيادهم إن استطاعوا[4].

وإذن كان هؤلاء الزنج، يرزحون تحت ظروف اقتصادية واجتماعية سيئة وقاسية. وقد ساعد تجمعهم الكثيف في مواقع العمل على خلق شعور طبقي عام بالمصلحة المشتركة والثورة ضد أسيادهم الطبقيين. وقام الزنج بعدة انتفاضات في منطقة البصرة أعظمها شأناً كانت ثورتهم الكبرى بقيادة محمد بن علي في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري كما سيأتي.

واستخدمت أيضاً جماعات كثيرة من الرقيق في حقل الثقافة والفن وأسهموا مساهمة جديدة بالتقدير والاحترام في إغناء هذا القطاع الهام من التراث العربي ـ الإسلامي. وتدل قصة تودّد، التي روت ـ (ألف ليلة وليلة) ـ الليالي أن الرشيد اشتراها بمئة ألف دينار بعد أن فازت في امتحان صعب وضعه لها العلماء في الطب والفقه والفلك والموسيقى والرياضيات فضلاً عن المعاني والبيان والنحو والشعر والتاريخ والقرآن وهي على ما فيها من غرابة تدنيها من الأساطير فإنها تدل على ما بلغه بعض الجواري من العلم والثقافة[5].

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص546.

(2) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ج7 ص311.

(3) د. بندلي جوزي صليبا: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ج1 ص48.

(4) رسائل الصابي ص160. ميتز: الحضارة الاسلامية ج1 ص279.

(5) د. فيليب حتي: تاريخ العرب ج2 ص419. ألف ليلة وليلة. ج4 الليلة 437 ـ 62 ص52 ـ 82.

وكان معظم القيان اللائي يحترفن الغناء ببغداد في سنة 306هـ جواري، وقليل منهن أحرار[1].

وكان أكثر الأرقاء البيض من اليونان (الروم) أو السلاف أو الأرمن أو البربر[2]، وبعض الأرقاء خصيان، وكانوا يستخدمونهم في دور الحريم، والبعض الآخر غلمان[3].

وكانت الجواري من الرقيق يُتّخذن مغنيات وراقصات وسراري، وكان لبعضهن نفوذ عظيم على أسيادهم الخلفاء. فقد ذكر عن الرشيد أنه اشترى جاريته ذات الخال بسبعين ألف درهم ثم وهبها لوصيفه حمويه. إلا أنه اشتاقها بعدئذٍ فأخرجت إليه وحلف ألا تسأله في يومه ذلك حاجة إلا قضاها لها فسألته أن يولي حَمَويه الحرب والخراج بفارس سبع سنين ففعل[4]. وكان الرشيد قد شغف بجارية أخرى اسمها دنانير كانت مولاة يحيى بن خالد البرمكي فأخذ يتردد إليها ويقيم عندها ويبرها فعلمت بالأمر زوجته زبيدة فشكته إلى أهله وعمومته فعاتبوه فلم يرتدع فأشاروا عليها أن لا تلح في أمرها، وحاولت فصله عنها فأهدته عشر جوار منهن ماردة أم المعتصم ومراجل أم المأمون وفاردة أم صالح[5].

وكانت قصور الخلفاء والأمراء والأغنياء تعج بالجواري والقيان، وكان علية القوم يتخذون منهن، في مجالس الأنس وليالي الصفو، بلابل يصدحن بأعذب الألحان، بين رنين الكؤوس وبهجة الندمان[6].

ودعاهم الشغف بالغناء إلى تعليم الجواري للتمتع بغنائهن وجمالهن معاً، وتعلُّم الغناء استتبع تعلم الأدب. وكان كثير من هؤلاء الجواري يحسنَّ الشعر وصناعته، كما يحسنَّ الغناء[7]. ووصل فن الغناء على أيديهن إلى أبعد غاية من التقدم والرقي. وعني العباسيون بالمتأدبات النابغات منهن، حتى قيل إن الرشيد اتخذ ألفي جارية في قصره، لكل منهن صنعة وفن وميزة في الأدب والموسيقى والطرب[8].

---

(1) محمد بن أحمد الأزدي أبو المطهر: حكاية أبي القاسم البغدادي. ص 78 وما بعدها.

(2) د. فيليب حتي: تاريخ العرب ج2 ص418.

(3) نفس المصدر والصفحة.

(4) الأصفهاني: الأغاني ج16 ص266.

(5) نفس المصدر ج18 ص14 ـ 16.

(6) الوشاء: الموشى. تحقيق كمال مصطفى. المقدمة ص5.

(7) نفس المصدر ص6 ـ 7.

(8) نفس المصدر ص6.

وكان لمجالس الخلفاء العباسيين روح دنيوية، وكانت مجالس الغناء في عصر الرشيد والواثق وأمثالهما من خلفاء بني العباس تعد من عجائب الفن[1].

ويقول الجاحظ في رسالة القيان: وتروي الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت، أغنية، فصاعداً، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات، عدا ما يدخل في ذلك من الشعر، إذا ضرب بعضه ببعض كان ذلك عشرة آلاف بيت[2].

ولقد نشرت الجواري الفنون الجميلة وما يتبعها من رقي الذوق الفني، وكان إلى جانب الحركة العلمية في ذلك العصر، حركة أخرى لا تقل عنها شأناً وهي الحركة الفنية من غناء ورقص وتصوير[3].

انتشرت تجارة الرقيق في العهد العباسي، وكان في بغداد شارع يسمى (شارع دار الرقيق[4]. وسمي تاجر الرقيق (نخاساً)[5]. وكان على تجار الرقيق عامل من عمال الحكومة يشرف على أعمالهم ويراقب تجارتهم يسمى (قيم الرقيق)[6]. وكان أهم أسواق الرقيق الأسود: مصر وشمال أفريقيا وجنوب الجزيرة العربية[7]. وكانت مدينة سمرقند أهم مركز لتجارة الرقيق الأبيض[8]. وأغلب ما يجلب الرقيق الهندي من قندهار[9]. وكان الثمن الجاري للعبد في سوق الرقيق حوالي منتصف القرن الثاني الهجري مائتي درهم[10].

ولقد تألفت شركات لبيع وشراء هذه (البضاعة البشرية) وتعليم الأرقاء. ويذكر الأصفهاني أن ابراهيم الموصلي ويزيد حوراء ألّفا شركة لشراء الجواري وتعليمهن الغناء والمشاركة في ربحهن[11].

---

(1) المصدر السابق، ص 6.

(2) الجاحظ: رسائل الجاحظ. تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون. القاهرة 1384هـ/ 1964م ج2 ص176.

(3) الوشاء: الموشى. المقدمة ص10.

(4) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص418.

(5) أحمد أمين: ضحى الاسلام ج1 ص83.

(6) نفس المصدر ص84.

(7) نفس المصدر ص85.

(8) ابن حوقل: صورة الأرض القسم الثاني ص 494. المقدسي: أحسن التقاسيم ص 278.

(9) أحمد أمين: ضحى الاسلام ج1 ص86.

(10) الأصفهاني: الأغاني ج3 ص207.

(11) المصدر ذاته ص246.

وكان من الطبيعي أن تخضع هذه السلعة البشرية، كأية بضاعة أخرى، لقوانين العرض والطلب، فيرتفع ثمنها حين يزداد الطلب عليها، وينخفض عندما يقل الطلب. فقد ارتفعت أثمان الرقيق الأبيض ارتفاعاً خاصاً حينما خرجت الثغور الغربية وانقطع رقيق الأندلس في القرن الرابع الهجري، وكاد ينضب مصدر الرقيق الآتي من بيزنطة (بلاد الروم) وأرمينية[1]. وبيع أسرى الروم عقب وقعة عمورية سنة 223هـ بيع الرقيق، وكانوا لكثرتهم ينادون عليهم خمسة وعشرة عشرة[2]. وبلغ من كثرة غنائم المسلمين في وقعة الأرك بالأندلس أن بيع الأسير بدرهم[3].

لقد كانت العبودية واحدة من أكبر الوقائع الاقتصادية في العالم الإسلامي. وقد سمح تدفق العبيد بالقيام بالحروب، كما غذى التجارة وتوسعها حتى آسيا الوسطى، والغابات الشمالية والسودان الغربي وشواطىء أفريقيا الشرقية والهند[4]. إلا أن مصادر العبيد بدأت تنضب منذ القرن الحادي عشر: فقد انتهت الفتوحات الكبرى، ولم يعد ممكناً بيع السلافيين الذين دخلوا المسيحية للمسلمين، كما أنه لم يعد ممكناً اخضاع الأتراك الذين أسلموا للعبودية، ولم يبق إلا الزنوج. ولكن هنا أيضاً أدى تقدم الاسلام إلى ابتعاد مناطق الصيد أكثر فأكثر، ونجم عن هذا الواقع أزمة في العمل الرخيص، وقاد ذلك إلى أشكال جديدة في تنظيم العمل واليد العاملة[5].

---

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم ص242.
(2) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص275.
(3) المقري: نفح الطيب ج1 ص209.
(4) موريس لومبار: الإسلام في فجر عظمته ص 239.
(5) نفس المصدر والصفحة.

الفصل الرابع عشر

الحركات الشعبية

دوافعها

مع توطد النظام الاقطاعي وازدهار التجارة وتطور الاقتصاد النقدي، تفاقمت التناقضات الاجتماعية واحتدم الصراع الطبقي في مجتمع الخلافة العباسية. فعلى صعيد الطبقة الاجتماعية السائدة، حدثت تناحرات مصلحية بين مختلف شرائحها كالنزاع بين الأرستقراطية العربية والفارسية والذي بلغ ذروته في هجوم الرشيد على البرامكة والفتك بهم وبأنصارهم ومصادرة أموالهم[1]. هذا النزاع الذي أدى إلى قيام الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون، حيث وقف تجار المدن وحرفيوها ومثقفوها الأحرار إلى جانب المأمون ضد زعامات القوى الاقطاعية وأمرائها الذين ساندوا الأمين[2]، أو كتلك التمردات الاقطاعية الانفصالية التي كان يقوم بها ممثلو الدولة من القواد العسكريين أو الولاة في مغرب المملكة ومشرقها مستغلين ضعف الحكومة المركزية. غير أن التناقض الرئيسي كان قائماً بين المستثمِرين والمستثمَرين بين الظالمين والمظلومين، بين الأغنياء والفقراء، بين الاقطاعيين والفلاحين بخاصة.

إن وسيلة الانتاج الأساسية في ظل الاقطاعية هي الأرض التي كانت ملكيتها تعود إلى الدولة الاقطاعية بصورة رئيسية وإلى الاقطاعيين الأفراد أو إلى الأوقاف[3]. وإن مصدر مداخيل الاقطاعيين من كل نوع كان استثمارهم الفاضح للمنتجين

(1) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص99.

(2) د. حسين مروة: النزعات المادية ج1 ص854.

(3) انظر ص225.

المباشرين ـ الفلاحين. وكان ميل معدل الاستثمار ـ ضرائب وسخرة ـ يتجه نحو الارتفاع[1]. وكانت الأغلبية الساحقة من سكان المجتمع العربي ـ الإسلامي في العصر العباسي، يقع في تبعية تامة للدولة الاقطاعية أو للاقطاعيين المدنيين والروحيين. وهذا ما حدد التناحر الرئيسي في المجتمع العربي ـ الإسلامي. وكانت الدولة الاقطاعية تنفذ بلا كلل وظيفتها الأساسية وهي تعزيز سيادة الملاكين العقاريين واستثمارهم المرهق للفلاحين الفقراء والعبيد والعوام الأحرار ونصف الأحرار المعدمين. وقد أدت الضرائب الثقيلة وشدة الاستغلال الاقطاعي وارتفاع الأسعار والغلاء ووحشية الاستثمار العبودي والتعسف الحكومي إلى ثورات الفلاحين والعبيد والعوام على حكم بني العباس.

الانتفاضات الفلاحية: دوافعها وسماتها العامة

تنكر العباسيون لوعودهم، ولم يعملوا إلا النذر اليسير الذي يكاد لا يذكر للتخفيف من آلام الجماهير العاملة، فخابت الآمال التي عقدت على العباسيين، وشعر الفلاحون، وهم القاعدة الاجتماعية في الثورة العباسية، بالخديعة الكبرى، ووجدوا في الحكم الجديد معاملة لا تختلف كثيراً عما عرفوه عن سياسة أسلافهم الأمويين وخاصة في شؤون المال والضرائب ونظام الأراضي. فانفصلوا عن العباسيين وواصلوا الكفاح ضد الظلم الاقطاعي والتعسف الحكومي وفي سبيل تحسين ظروف حياتهم الاقتصادية والاجتماعية.

وإذا كان النضال في العصر الأموي لم تتميز فيه الصفات الطبقية، لمساهمة الملاكين المحليين في انتفاضات الفلاحين والفئات المستغلة الأخرى، فإن الوضع قد تغير في العصر العباسي، إذ حصل استقطاب من السلطة العباسية والأريستقراطيين العرب والمحليين من جهة، والجماهير المستغلة من فلاحين معدمين ورحالة وعبيد وصغار كسبة وكادحي المدن من جهة أخرى، مما جعل النضال يتسم بصفاته الطبقية. هذا وإن بدا أن لأكثر الانتفاضات الفلاحية صفة دينية، فإن تلك لم تكن إلا حجاباً شفافاً يحجب ما وراءه من العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي هي السبب الحقيقي لثورات الفلاحين.

---

(1) انظر ص241. و278 ـ 280.

وإذا لم يتيسر للانتفاضات الفلاحية، باستثناء القرمطية، أن تضع حداً للظلم الاقطاعي والتعسف الحكومي، فإنها هزت الخلافة وزعزعت كيانها وتركت آثاراً جساماً في النظام الاجتماعي والسياسي.

أبرز الانتفاضات الفلاحية

انتفاضة سنباذ

بدأت انتفاضات الفلاحين المعدمين والعبيد بعيد قيام الدولة العباسية ببضع سنوات. ففي عام 137هـ/ 755م، هبت الجماهير الشعبية تحت قيادة سنباذ في خراسان على الظلم الاقطاعي والتسلط الحكومي الجائر. وكان لمقتل أبي مسلم الخراساني، زعيم الجناح الثوري في الحركة العباسية، أثر في قيام هذه الانتفاضة. وامتدت الانتفاضة إلى إقليم الجبال وطبرستان[1]، وهي المناطق التي يسكنها الخرميون. وقد أشار المسعودي إلى ذلك بقوله: (فاجتمعت الخرمية، حين علمت بقتل أبي مسلم، بخراسان فخرج فيهم رجل يقال له سنفاذ من نيسابور يطلب بدم أبي مسلم)[2]. والمسعودي هنا يتصور بأن السبب الرئيسي لثورة الخرميين هو مقتل أبي مسلم، ولكن مصرع أبي مسلم كان أحد الأدلة على تنكر العباسيين لمطالب الشعب[3]. وبالتالي فإن مقتله عجل في قيام الانتفاضة. وتغلب الثوار على مدن

---

(1) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص306.

(2) نفس المصدر والصفحة.

(3) حسين قاسم العزيز: البابكية. قام الخرميون بنشاط محدود في أواخر العهد الأموي 118هـ/ 737م أيام الدعوة العباسية. في عهد المسؤول عن الدعوة في خراسان، عمار بن يزيد الذي سمى نفسه خداش. ولما ظهر زيف ادعاءات الخلفاء العباسيين وتنكرهم لمطالب الجماهير، التي ساعدتهم في الدعوة والظفر على الأمويين، وتحقق ذلك بمقتل أبي مسلم، نشطت الانتفاضات الجماهيرية التي لعب الخرميون الدور البارز في تحريكها وقيادتها والمساهمة فيها. ولما كانت غالبية المتمين إلى الخرمية من الفلاحين والعبيد وشغيلة المدن والرعاة، فقد أثار هذا مخاوف الفقهاء ورجال الدين لأنه أخذت تجذب إليها الطبقات المستغلة وهم غالبية أبناء الشعب، لهذا صبُّوا جام غضبهم على هذه الفرقة ونعتوها بالإباحة والفسق واستباحة المحرمات والزندقة وغير ذلك من الافتراءات والصفات القبيحة بقصد تشويه تعاليمها الاجتماعية والتشهير بها والنيل من سمعتها.

نيسابور وقومس والري[1]، فوجه الخليفة أبو جعفر المنصور حملة بقيادة جهور بن مرار العجلي فوافته على طرف المفازة بين همذان والري[2]. فقتل من المنتفضين ستين ألفاً وسبى منهم سبايا وذراري كثيرة[3]. وفر سنباذ مع البقية ولكنه قتل بين همذان والري[4]. ويرى ابن خلدون أن سنباذ لحق بطبرستان فقتله بعض عمال صاحبها[5]. وهذا يدل، إن صح قول ابن خلدون، على تعاون الأريستقراطية المحلية مع السلطة ضد الثوار. وقد دامت الانتفاضة سبعين يوماً[6].

انتفاضة استاذ سيس

وفي عام 149هـ/ 766م، قامت حركة جماهيرية واسعة في خراسان بزعامة استاذ سيس ضد الظلم واستبداد السلطة. فوجهت الخلافة جيشاً بقيادة خازم بن خزيمة تمكن من قمع الانتفاضة بعد جهد، وقتل سبعين ألفاً[7]. وأسر منهم أربعة عشر ألفاً[8]، قتلوا جميعاً بعد الأسر، استسلم بقية المنتفضين مع قائدهم استاذ سيس[9].

انتفاضة المقنع

وفي النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي (160 ـ 163هـ/ 776 ـ 779م)، نشبت في خراسان ثورة فلاحية شعبية بقيادة هاشم بن حكيم المقنع، ثم امتدت إلى بلاد ما وراء النهر. يؤيد ذلك قول الشهرستاني: (وتابعه مبيِّضة ما وراء النهر وهؤلاء صنف من الخرمية)[10]. ولم تضم الانتفاضة خرمية ايران وما وراء النهر فحسب،

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص140. المسعودي: مروج الذهب ج3 ص306.
(2) نفس المصدر ص140 ـ 141. المسعودي: نفس المصدر والصفحة.
(3) نفس المصدر ص141. المسعودي: نفس المصدر وذات المكان.
(4) نفس المصدر والصفحة.
(5) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ج3 ص184.
(6) الطبري: نفس المصدر والصفحة. المسعودي: نفس المصدر والصفحة.
(7) نفس المصدر ص 287.
(8) نفس المصدر والصفحة.
(9) نفس المصدر ص288.
(10) الملل والنحل. ج1 ص154. البغدادي: الفرق بين الفرق ص 241.

ولكن ضمت أيضاً رحالة الأتراك[1].

وكان سبب الانتفاضة يعود إلى سخط الفلاحين من ثقل الخراج وأعمال السخرة، لذا انضمت قرى بكاملها إلى صفوف المقنع[2]. وكانت تسعى للتحرر ونزع الأرض من الاقطاعيين الموسرين وتسليمها للمشاعية الزراعية داعية للعدل وتعميم الاستفادة من الممتلكات والمنافع العامة[3]. فجردت الخلافة حملة واسعة بقيادة سعيد الحرشي[4]، تمكنت من قمع الثورة، وانتهت حياة القائد وعائلته وبعض رجاله المخلصين بالانتحار[5].

انتفاضة خرمية جرجان

في عام 162هـ/ 778م، وفي الوقت الذي كانت انتفاضة الخرمية المبيِّضة (المقنعية) مستعرة في ما وراء النهر، انتفض خرمية جرجان المعروفين بالمحمَّرة لارتداء الثوار الأردية الحمراء واتخاذهم الراية الحمراء كشعار للانتفاضة[6]. وقد أطلق على المشتركين في الحركة اسم «حمر الرايات» ـ سرخ علم بالفارسية[7]. وهذه هي المرة الأولى التي تستخدم فيها الجماهير الفلاحية اللون الأحمر أو الراية الحمراء في ثورتها ضد الإقطاع.

تزعم هذه الانتفاضة شخص يدعى عبد القهار الذي استطاع أن يحرر جرجان[8]. وبأمر من الخليفة، غزا القائد عمر بن العلاء جرجان من طبرستان وقمع الانتفاضة وقتل عبد القهار وأنصاره[9].

---

(1) البغدادي: الفرق بين الفرق ص 258. ابن الأثير: الكامل ج5 ص23.
(2) ي. أ. بليايف: نفس المصدر ص311.
(3) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص 147.
(4) الطبري: تاريخ الرسل ج6 ص367.
(5) نفس المصدر ص374.
(6) جماعة من المؤلفين السوفييت: عرض اقتصادي تاريخي ج1 ص260 ـ 261.
(7) نفس المصدر والصفحة.
(8) الطبري: تاريخ الرسل ج6ص373. الدينوري: الأخبار الطوال ص 386.
(9) ابن الأثير: الكامل جج5 ص62.

انتفاضة خرمية أذربيجان

في عام 192هـ/ 807م، خرج خرميو اذربيجان على السلطة إبان حكم الرشيد (170 ـ 193هـ/ 786 ـ 809م). فوجه الخليفة حملة بقيادة عبدالله بن مالك، تمكن من قمع الانتفاضة، وقتل منهم ثلاثين ألفاً[1]، ووافى بالأسرى والسبي هارون بقرميسين (كرمنشاه)،فأمر بقتل الأسرى وبيع السبي[2].

انتفاضة الزط في العراق

الزط من الهنود، كان الساسانيون قد أنزلوهم بين واسط والبصرة في مناطق الأهوار أو المستنقعات المعروفة بالبطائح. وعقب فتح العرب للسند، جلب الحجاج، أمير العراق والمشرق، أعداداً منهم وأسكنهم مع إخوانهم في نفس المنطقة ليستخدمهم في الأعمال الفلاحية وتربية الجاموس والبقر[3]. وقد لحقهم الجور، حيث كان وضعهم المعيشي سيئاً جداً مما دفعهم إلى التذمر ومن ثم التمرد على السلطة. ويذكر الدوري: «... ويبدو أن وضعهم المعاشي كان واطئاً جداً وهذا يدعو إلى الظن بأنهم كانوا يشاركون العبيد الهاربين (الأبّاق) في التذمر من سوء الوضع المعاشي وأن ذلك التذمر كان سبب ثورتهم»[4].

قام الزط بانتفاضات عديدة في خلافة المأمون والمعتصم. وقد بدأت اضطراباتهم سنة 205هـ/ 820م، فوجهت الخلافة حملات متلاحقة لمحاربتهم[5] دون أن يتيسَّر لها القضاء على انتفاضتهم لعدم تمكنها من التوغل وسط الأهوار، حيث يعتصم الزط[6]. وقد دامت انتفاضتهم بضعة عشر عاماً إلى أن قمعها المعتصم عام 219هـ/ 834م[7]. وذلك بعد أن تمكن قائده عجيف بن عنبسة من سد مسالك المياه

---

(1) المقدسي: البدء والتاريخ ج6 ص103.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص181. البلاذري: فتوح ص373.
(4) د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص240.
(5) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص159.
(6) نفس المصدر ص225. العزيز: د. حسين قاسم: البابكية ص 181.
(7) نفس المصدر والصفحة.

ومحاصرتهم من كل وجه[1]، فطلبوا منه الأمان فآمنهم على دمائهم وأموالهم وكانت عدتهم حسبما أحصاهم (عجيف) سبعة وعشرين ألف انسان بين رجل وامرأة وصبي، المقاتلة منهم، اثنا عشر ألفاً[2]. وكان رئيس الزط رجلاً يقال له محمد بن عثمان ومساعده والقائم بشؤون الحرب سملق[3].

نقل الزط بالسفن إلى بغداد[4]، ومنها أرسلهم المعتصم إلى أحد ثغور كيليكيا، فأغارت عليهم الروم واجتاحوهم ولم يفلت منهم أحد[5].

الانتفاضات الفلاحية في مصر

وفي مصر، ترافق نشاط الحركة الفلاحية في أواخر العهد الأموي مع ازدياد الأعباء الضريبية وتعسف السلطة[6]. وعندما قامت الثورة العباسية وسقطت دولة بني أمية، وقفت الجماهير المصرية ضد فلول الأمويين[7]، واستقبلت الجيش العباسي بالاعلام السوداء تعبيراً عن تأييدها وتعاطفها مع الثورة[8] أملاً في التخلص من الظلم والاضطهاد وتحسين ظروف حياتها الاقتصادية والاجتماعية. غير أن الجماهير الشعبية وجدت في الحكم الجديد معاملة لا تختلف كثيراً عما عرفوه عن سياسة أسلافهم الحكام الأمويين فقاوموه ايجابياً وسلبياً.

ففي عام 753م، ثارت سمنود ثم ثارت سخا التي هزم اقباطها جنود الوالي العباسي وطردوا جباة الضرائب[9]. وأصبحت الثورة تعم أجزاء كبيرة من الدلتا، واشتدت خاصة في 767 و773م[10]. وبلغت منتهى خطورتها في أعوام 211هـ/ 826م و215هـ/ 830م، 216هـ/ 831م، 217هـ/ 832م، حيث اضطرت المأمون

---

(1) المصدر السابق نفسه.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) نفس المصدر والصفحة.
(4) نفس المصدر والصفحة.
(5) نفس المصدر ص226.
(6) المقريزي: الخطط ج1، ص79.
(7) الكندي: ولاة مصر وقضاتها ص24.
(8) نفس المصدر والصفحة.
(9) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي. ص 213 ـ 314.
(10) تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي. المصدر ذاته ص 214.

إلى أن يكلف أخاه المعتصم أو يحضر بنفسه. وقد أرسل أو قاد جيوشاً عظيمة، ساهم الافشين قيادة بعضها[1]. وبين 830 و832، أخذت انتفاضة البشامرة طابع الثورة الفلاحية الشاملة. فلم يعد الثوار يكتفون بطلب تخفيض الضرائب أو الكف عن الاضطهاد. ولم تعد وساطة البطرك نفسه لتخليهم عن قتال الحاكم الذي ركز جيوشه عليهم في حرب منظمة، فأعمل السيف في جميع الذين قاوموه وأحرق مساكنهم وحدائقهم وكرومهم وهدم كنائسهم، وقد أوقف المأمون المذبحة ولكنه باع خمسة آلاف من زعماء الثورة كرقيق في أسواق بغداد[2]. وعندما سحق المأمون الثورة الفلاحية، أصبحت قرى بأكملها مهجورة بعد ذبح أهاليها أو فرارهم[3]. وذكر اليعقوبي تذمر الناس من شدة قسوة الخليفة في قمع الثوار الذين خرجوا على الظلم وهم في ذلك أهل حق قائلاً: «... واستفتى في ذلك (يقصد القتل والسلب والسبي) فقيهاً بمصر يقال له الحارث بن مسكين مالكيّ، فقال: إن كانوا خرجوا لظلم نالهم، فلا تحل دماؤهم وأموالهم، فقال المأمون: (أنت تيس ومالك أتيس منك) هؤلاء كفار لهم ذمة، إذا ظُلموا تظلموا إلى الإمام وليس لهم أن يستنصروا بأسيافهم»[4]. فالمأمون، حسب رواية اليعقوبي، اعترف بأنهم مظلومون ولكن لا يحق لهم الخروج على السلطان.

لقد أشغلت اضطرابات الزط في العراق وانتفاضات الفلاحين في مصر الدولة وانهكت قواها في عهدي المأمون والمعتصم مما خفف الضغط على الثوار البابكيين.

الانتفاضة البابكية

كانت الثورة الفلاحية البابكية واحدة من أهم وأعمق انتفاضات العصر الوسيط، قام بها فلاحون وعبيد وعوام (أحرار ونصف أحرار معدمون) للتخلص من الظلم الاقطاعي والتسلط الحكومي الجائر. استمرت الثورة نحو عشرين عاماً ونيفاً، وأحرز المنتفضون النصر تلو الآخر على جيوش الخلافة قرابة ثمانية عشر عاماً، غير أن الحكومة نجحت أخيراً في قمعها وقتل زعيمها.

---

(1) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص 181.

(2) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي ص214.

(3) نفس المصدر ص197.

(4) تاريخ اليعقوبي ج2 ص466.

كانت أذربيجان وشمال غربي ايران وأرمينية الشرقية التربة الخصبة للانتفاضة البابكية وذلك بسبب ما كان يعانيه الفلاحون المعدمون والعبيد وكادحو المدن من الجور الاقطاعي وثقل الضرائب وقسوة الجباة والضيق الاقتصادي والاستبداد الحكومي[1].

وقد انضم إلى الثورة فئات من أصل ارستقراطي أو من الأغنياء أو من الملاكين الصغار أو من موظفي الدولة (ولاة وقادة عسكريين)، لا حباً فيها وتأييداً لمنهاجها الاجتماعي الثوري، بل بسبب حقدها وكراهيتها للنظام القائم وبدافع من مطامعها أو خوفاً من الانتفاضة وعدم استطاعتها الوقوف بوجه تيارها[2]. إلا أن هذه العناصر المصلحية أو الانتهازية أو المترددة أصبحت مصدر خطر للثورة، ولم تتورع عن القيام بأحط الأعمال كالخيانة والتخريب وتثبيط معنويات الثوار والاساءة إلى سمعتهم. فقد اعتبر الطبري خيانة ابن البعيث لزعيم الثورة كهزيمة حلت ببابك لا تختلف عن الهزائم العسكرية، لأن ابن البعيث غدر بأحد قادة بابك عصمة الكردي وأتباعه[3]، وقتل قسماً منهم وأرسل عصمة مخفوراً إلى المعتصم، حيث اضطر إلى الاعتراف والادلاء بما يعرف عن بلاد بابك وطرق وأوجه القتال فيها[4]. ولم يكتف ابن البعيث بذلك القدر من الغدر، بل انضم إلى جيش الخلافة وساهم في الحملة ضد بابك واشترك في معركة هشتادسر الثانية[5] عام 221هـ/ 836م. وذكر المطهر المقدسي: «وانضوى إليه القطاع والخراب والذعار وأصحاب الفتن»[6] وكتب بندلي جوزي: «أن انضمام هؤلاء اللصوص وقطاع الطرق كان لأغراض سافلة معلومة ولم يكونوا على مبادىء البابكيين الأدبية والاجتماعية أبداً»[7].

---

(1) البلاذري: فتوح البلدان ص314 ـ 330 العزيز، حسين قاسم: البابكية وانتفاضة الشعب الأذربيجاني ضد الخلافة العباسية 162 ـ 163.

(2) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص 167.

(3) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص227.

(4) نفس المصدر والصفحة.

(5) نفس المصدر ص 237 ـ 238. وهشتادسر موقع استراتيجي إلى الشرق من البذ. أما معركة هشتادسر الأولى فقد حدثت عام 214هـ/ 829م حيث انتصر فيها الثوار على جيش الخلافة. فعظم أمر بابك الخرمي وتهيبه الناس/الدينوري: الأخبار الطوال ص 338. الطبري: المصدر ذاته ج7 ص189.

(6) البدء والتاريخ ج6 ص166.

(7) د. بندلي جوزي صليبا: من تاريخ الحركة الفكرية في الإسلام ج1 ص80.

غير أن الغالبية العظمى من المشتركين في الانتفاضة كانوا من الفلاحين والعبيد وذلك بسبب الحالة السيئة التي كانوا يعيشونها[1]. فقد ذكر الطبري أن المازيار لما عزم على الخلاف. . . أمر أكرة الضياع – أي الفلاحين – بالوثوب بأرباب الضياع وانتهاب أموالهم وكان المازيار يكاتب بابك ويعرض عليه النصرة[2]. وأكد المسعودي في معرض تعداده لمناطق الخرمية، على أن أكثر هؤلاء في القرى والضياع[3]. فغالبية سكان مناطق أذربيجان وأرمينية والجبال التي عمتها الثورة هم من الفلاحين (الأكرة) الذين كانوا يتذمرون من الظلم الاقطاعي والتعسف الحكومي ومن الأمراض الوبائية والمجاعات التي كانت تفتك بالعديد منهم[4]. ومما ضاعف متاعب الفلاحين هو إلحاق الأراضي الواسعة الخصيبة بأملاك الخلفاء وذويهم[5]، ووطأة الاستغلال الاقطاعي وثقل الضرائب وقسوة الجباة حسب روايات البلاذري[6]. وتذكر احدى هذه الروايات أن أهالي مدينة قم، وهي من مناطق الخرمية، طلبوا من المأمون أن يخفف من خراجهم فأبى، فثاروا عام 210هـ/ 825م وامتنعوا عن تأدية الخراج، فحاربهم المأمون وهدم سور مدينتهم وألصقه بالأرض وجباها سبعة ملايين درهم بعد أن كانوا يتظلمون من مليوني درهم[7].

وكان الولاة، الحكام على المقاطعات، وكلاء على أملاك الخلفاء وذويهم مما يتعذر على الفلاحين الشكوى[8]. وهكذا كان الفلاحون المعدمون والعبيد التربة الخصبة للأفكار الخرمية والمستودع الذي مد الانتفاضة البابكية، طوال عشرين عاماً، بمعين لا ينضب من القوى الثائرة[9].

---

(1) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص 164 ـ 165.

(2) الطبري. تاريخ الرسل ج7 ص284. استغل المازيار النزاع القائم بين الفلاحين والملاكين حول الأرض من أجل مطامحه، والتجأ إلى الجماهير الشعبية الساخطة على السلطة وعلى الاقطاعيين. فتعاون معها لتحطيم الأرستقراطية المحلية التي تعتمد عليها الخلافة.

(3) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص306.

(4) البلاذري: فتوح البلدان ص314، 330. الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص141.

(5) البلاذري: فتوح البلدان ص330.

(6) نفس المصدر ص 314، 330.

(7) نفس المصدر ص314. الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص184.

(8) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص165.

(9) نفس المصدر ص 166.

وكان القائد البارع بابك في شبابه راعياً وحاوياً للجمال، وأجيراً متدرباً عند أحد الحرفيين[1]. وقد أتاح له هذا العمل الاطلاع عن كثب على ما كان يعانيه العمال من شقاء وعناء، فكان يشعر بالمؤاساة نحوهم ويشاطرهم آمالهم. ويرى الدكتور حسين قاسم العزيز أن بابك عراقي الأصل (من ناحية أبيه) اذربيجاني المولد والمنشأ، وأنه تربى في أحضان الفقر وذاق مرارة العوز والفاقة وانحدر من فئة الكسبة وعاش وسط الفلاحين، لهذا كان متفهماً وشاعراً بأحاسيس ومشاكل مجتمعه[2]. وقد أثبت بابك أنه قائد حربي مقتدر يعرف كيف يوجه طاقات الجماهير نحو الثورة، كما أثبت أنه ذو مواهب عسكرية عظيمة مكّنته من ابتداع أساليب قتالية متنوعة لدحر القوات العباسية[3].

شملت الثورة البابكية اذربيجان وشمال غربي ايران وأرمينية الشرقية، ثم أخذت الحركة تقوى وتمتد بسرعة نادرة حتى عمت مناطق خراسان والري وأصبهان وأذربيجان وكَرَج أبي دلف والبرج المعروف بالرذ والورسنجان والصيروان والصميرة ومهرجا نقذف والسيروان وأريوجان من بلاد ماسبذان[4] وماه الكوفة وماه البصرة وأرمينية وقم وقاشان[5]. وشارك في الانتفاضة أناس من مذاهب وقوميات مختلفة (مسلمين وذميين من عرب وايرانيين وأذربيجان وديالمة وأرمن وأكراد)[6] قاموا جميعاً، كنتيجة لتناقض طبقي وليس لخلاف عنصري أو ديني، بثورة مسلحة بوجه الخلافة العباسية للتخلص من النير الاقطاعي والتسلط الحكومي الجائر[7].

وأحرز الثوار الانتصار تلو الانتصار، وألحقوا عدداً من الهزائم الكبيرة بجيوش الخلافة[8]. وكان لهذه الهزائم وقع شديد على المأمون وحكومته وبعض قواد جيشه الذين ابتدأوا يترددون في إخلاصهم لخليفتهم ويفكرون في الانضمام إلى بابك[9].

---

(1) يفانوف: تاريخ الاتحاد السوفياتي ص 69.
(2) البابكية ص 226.
(3) نفس المصدر ص188.
(4) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص305. الصَيْمَرَة ومهرجان قَذق عند ياقوت.
(5) المسعودي: التنبيه والإشراف ص306.
(6) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص163 ص167 ـ 174.
(7) نفس المصدر ص162.
(8) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص159، 174، 189.
(9) نفس المصدر ص192.

وقد ساعد ضعف جيش الخلافة، وانشغال الدولة بمواجهة الانتفاضات الفلاحية في مصر والزط في العراق خلال عهدي المأمون والمعتصم وانهماك العباسيين في الحروب المهلكة المستنزفة للأموال والأرواح مع الروم ومساندة البيزنطيين للثوار وموقع مواطن الانتفاضة الجغرافي وطبيعة البلاد الجبلية الكثيرة الأدغال، أقول ساعدت هذه العوامل وغيرها على قيام الانتفاضة البابكية المسلحة ونجاحها في مرحلتها الأولى[1].

وكان منهاج الحركة الثوري والانتصارات الكبرى للمتنفضين على جيوش الحكومة تجذب إليها المزيد من المساهمين والمؤيدين والأنصار. ووقف الاسماعيلية إلى جانب البابكية يمدونهم بالمال والنصيحة والرجال. وبلغ من انضم تحت ألويتهم الحمر ثلثمائة ألف مقاتل من أهل البدين والديلم[2]. ورواية البغدادي وإن كانت غير دقيقة في تحديد العدد وحصرها لجيش بابك بأهل البدين والديالمة إلا أنها تدل على ضخامة عدد المساهمين فيها من الأذربيجانيين والديالمة الذين كانوا يقاسون من شدة الاستغلال الاقطاعي وثقل الضرائب وجور السلطة.

لقد أولت البابكية عظيم اهتمامها إلى قضايا الأرض والمرأة والحقوق الأساسية والحريات العامة والشخصية لمختلف القوميات والأفراد. فدعت للتخلص من التبعية الاقطاعية والتسلط الحكومي، وذلك بنزع الأراضي الواسعة من الاقطاعيين وتوزيعها على مجموعات فلاحية مشاعاً، والإفادة من المرافق والثروات العمومية، والتحرر من دفع الضرائب، والمساواة العامة، وحرية المعتقد، وتحرير المرأة من عبوديتها الأبدية ومنحها ما للرجل من الحقوق والواجبات العائلية والمجتمعية[3].

ويبدو أن الخليفة المأمون قيم بصورة صائبة أبعاد الحركة وخلفياتها وجسامة خطرها على السلطة الاقطاعية ومصالح الطبقة الاجتماعية السائدة، فعزم أن يحشد لعدوه - بعد هزائم عساكره أمام الثوار ودخول اليأس إلى نفوسهم - جيشاً جديداً تحت قيادة أشهر قواده وأعظمهم في شؤون الحرب الجبلية ليبث فيه روحاً جديدة ويدربه على قتال أعداء الدولة ونظامها الاجتماعي في جبالهم الوعرة[4].

---

(1) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص177 - 192.

(2) البغدادي: الفرق بين الفرق ص 268.

(3) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص153 - 161.

(4) بندلي جوزي: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ج1 ص83.

توفي المأمون وفي قلبه حسرة مما أصابه من الفشل في حروبه مع بابك، فلما شعر بدنو أجله دعا إليه ولي عهده أخاه المعتصم وألح عليه أن يواصل حرب البابكية (بحزم وصرامة وجلد)[1]. ثم أشار عليه أن يمد عامل أذربيجان بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة وأن يتجرد لهم بمن معه من الأنصار والأولياء إن طالت المدة[2].

إن الانتصارات الباهرة التي أحرزها الثوار البابكيون على جيوش الخلافة، دفعت عدداً من الحكام الاقطاعيين بل حتى بعض الولاة ومساعديهم في المناطق، بالانحياز إلى جانب بابك[3]. لقد سعت الفئة الاقطاعية الأريستقراطية أن تتصل ببابك أو أن تمتنع، في أسوأ الحالات، عن مقاومته والوقوف في وجهه حفاظاً على سلامتها وسلامة أملاكها وامتيازاتها. هذه الدوافع الذاتية الأنانية التي كانت تدفع بهذه الزمرة الموالية ظاهرياً، كانت من أشد الأخطار على الثورة الفلاحية البابكية كما ظهر ذلك جلياً في المراحل الأخيرة من الثورة[4].

ولما ولي المعتصم الخلافة عام 218هـ/ 833م، كان في مقدمة الأعمال التي خطط لتنفيذها في السنوات الأولى من حكمه قمع حركة بابك والقضاء على ثورته. وقد أفاد الخليفة من انشغال جيش الروم في الحرب التي كان يخوض غمارها في جزيرة صقلية، فلم تقع أعمال حربية على الحدود بين الروم والعرب حتى سنة 837م. في هذه السنوات الأربع 833 ـ 837م التي كانت بمثابة هدنة فعلية بين البيزنطيين والعرب في آسيا الصغرى مكنت الخليفة من أن يحشد أكبر جيش، تضمن جنوداً تمّ سحبهم من العواصم والثغور الحدودية مع الروم، لمحاربة بابك[5]. وكان جيش الخلافة مجهزاً بكل ما يحتاجه من سلاح وعتاد وغذاء ومال، وكان لديه آلات للحصار ولدكّ الحصون وكلها من النوع الذي يمكن استخدامه في الحروب الجبلية[6].

أرسل المعتصم عام تسلمه مقاليد الخلافة جيشاً لمحاربة بابك. واستطاع هذا

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص209.

(2) نفس المصدر والصفحة.

(3) ي. أ. بليابيف: نفس المعطيات ص313.

(4) و(5) ـ نفس المصدر والصفحة وذات المكان.

(6) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص240، 243، 249، 251.

الجيش لأول مرة أن يلحق الهزيمة بالثوار على مقربة من همذان عام 218هـ/833م[1]. وهلك في هذه المعركة وما تلاها من مناوشات ستون ألفاً من رجال بابك، ومن نجا منهم فر إلى بلاد الروم[2]. وقد أدت معركة همذان إلى ضعضعة جيش بابك، فاقتصرت فعالياته على أذربيجان وقل اعتماده على خرمية ايران[3].

وفي سنة 834م، عين المعتصم الافشين حيدر بن كاؤوس الاشروسني، قائداً لحرب البابكية. وكان الافشين قائداً ماهراً حنّكته التجارب في خدمة مصالح أسياده. فقد أبلى بلاء حسناً في قمع الثورة الفلاحية في مصر أيام المأمون[4]، وحارب تحت إمرة المعتصم في مصر وشمال أفريقيا، وأظهر نبوغاً وتفوقاً ومهارة وشجاعة، جعلت المعتصم يعتمد عليه في الملمات ويدخره للأيام العصيبة[5]. وأمر المعتصم أن يرفع مرتبه إلى عشرة آلاف درهم في اليوم الواحد من أيام المعارك ضد بابك وخمسة آلاف درهم في يوم توقفها[6].

وفي عام 222هـ، وجّه المعتصم مدداً إلى الأفشين بقيادة جعفر بن دينار الخياط ثم أتبعه بإيتاخ الطباخ وأرسل معه ثلاثين مليون درهم عطاء للجند وللنفقات[7].

وكانت خطة الافشين البارعة هي في إطالة مدة الحرب[8]، وتشديد طوق الحصار العسكري والاقتصادي على الثوار، وحماية الطرق تأميناً لسلامة القوافل والتموين[9]، والزحف بالجيش كله رويداً رويداً[10]، والتحصن في المواقع الجديدة بحفر الخنادق وبناء الحصون والتحوط من البيات (المباغتة)[11].

وعندما شرع جيش الخلافة بالهجوم على الثوار، بعث بابك برسالة إلى حليفه امبراطور الروم تيوفيل يطلب منه بإلحاح أن يقوم الجيش البيزنطي بعملية حربية جانبية تضلل جيش الخليفة فيضطر إلى سحب بعض جنوده من ساحة المعركة إلى ساحات

---

(1) المصدر السابق، ص223.

(2) نفس المصدر والصفحة. ابن العبري، غريغوريوس الملطي: تاريخ مختصر الدول. ص 139.

(3) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص210.

(4) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص192.

(5) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص194.

(6) المقدسي، المطهر: البدء والتاريخ ج6 ص117.

(7 8 9 10 11) ـ الطبري تاريخ الرسل ج7 ص240، 249، 228 ـ 252، 249، 242، 243، 244، 263.

أخرى ليصد جيش الروم فيخف الضغط عن بابك. وقد أورد الطبري نص الرسالة على النحو التالي:

(كتب بابك إلى تيوفيل بن ميخائيل يعلمه أن المعتصم قد وجه عساكره ومقاتلته إليه بمن فيه (خياطه)، يعني جعفر بن دينار، و(طباخه)، يعني ايتاخ، ولم يبق على بابه أحد. فإن أردت الخروج إليه فاعلم أنه ليس في وجهك أحد يمنعك. ويعلق الطبري قائلاً: إن بابك كان يطمع منه بكتابه إليه في أن ملك الروم إن تحرك انكشف عنه بعض ما هو فيه بصرف المعتصم بعض من بإزائه من جيوشه إلى ملك الروم واشتغاله به عنه)[1].

غير أن الامبراطور لم يسارع بتلبية طلب بابك لإنقاذه من محنته وذلك بتخفيف الضغط عنه بمهاجمة الحدود الاسلامية إبان اشتداد الحملة كما أشار الطبري.

وقد سبق القول إن الخرميين الناجين من معركة همذان عام 218هـ[2]، التجأوا إلى الروم، وأن هؤلاء كانوا يهاجمون الثغور الاسلامية كمساعدة منهم لبابك ونكاية بالخلافة التي آزرت الثائر توما الصقلبي[3]. والملاحظ أن الصلات بين بابك وبيزنطه لم تتوسع أكثر من ذلك، وأن اتصال بابك بتيوفيل لم يتعد الطلب منه في مهاجمة الحدود الاسلامية المكشوفة له.

والواقع أن الامبراطور البيزنطي كان يكره كل انتفاضة شعبية وخاصة إذا كانت ذات برنامج ثوري كالانتفاضة البابكية. لهذا لم يكن يميل إلى نجاح الثورة الاذربيجانية، وإنما كان يريدها كوسيلة لإضعاف العباسيين. وإلا لماذا لم يستجب لطلب بابك بمهاجمة الثغور الإسلامية المكشوفة له وقد أخبره بعدم قدرة الخليفة على ملاقاته لأنه زج بكل جيوشه حتى أرسل خياطه وطباخه لمحاربة بابك ولم يبق في

---

(1) المصدر السابق.

(2) انظر ص 300.

(3) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص204. توما الصقلي: ضابط كبير في الجيش البيزنطي من أصل صقلي أو أرمني. ثار في آسيا الصغرى على حكومة القسطنطينية عام 821م واستمرت ثورته ثلاث سنين. اشترك في الانتفاضة جموع غفيرة من المظلومين والمضطهدين، والصقالبة وانصار الايقونات. تحالف توما مع الخليفة المأمون فساعده هذا عسكرياً بقصد اضعاف دولة الروم. انتصر الثوار على جيش الامبراطور ميخائيل الثاني (280 ـ 8729م) وحاصروا القسطنطينية. انتكست الثورة بسبب الخلافات بين أطراف الجبهة التي تزعمها توما، وتمكن الامبراطور من قمع الانتفاضة وقتل قائدها عام 823م. ولم يقو المأمون على امداد توما بأكثر مما أمده لانشغاله بثورة بابك الخرّمي.

وجهه أحد يمنعه؟ وحتى في هجومه على زبطرة عام 223هـ جاء بعد سقوط البذ عام 222هـ، ولما لم يقم بذلك الهجوم إلا متأخراً فقد جنى نتيجة حمقه وتهوره[1].

ولم يكتف الافشين باستخدام جنوده وأسلحته ومعدات الحصار لديه في محاربة بابك، بل كان يبعث بالجواسيس خلف صفوف الثوار ليقوموا بأعمال تخريبية، وكان هؤلاء الجواسيس والمحرضون يجرون في الوقت ذاته اتصالاً مع رجال الاقطاع الذين انضموا ظاهرياً إلى الثورة البابكية حفاظاً على سلامتهم وسلامة أملاكهم ومصالحهم الخاصة[2]. وكان للانتصارات التي أحرزها جيش الخلافة بين أعوام 835 ـ 837م وقع شديد في نفوس هذه الفئة من الاقطاعيين الاريستقراطيين دفعتهم ليس إلى التخلي عن بابك وحسب، بل راح بعضهم يقاتله في مؤخرة جيشه[3].

وكان لعزل خرمية الجبال، إثر هزيمتهم في معركة همذان عام 218هـ، عن ثوار أذربيجان ولهرب الاقطاعيين من صفوف الثوار والتجائهم إلى صف جيش الخلافة وأعمال الانتهازيين التخريبية وتباطؤ الروم في مساعدة الثوار، كل ذلك أثّر في تلك الاندحارات[4].

وفي أواخر سنة 837م، ضرب الافشين الحصار على قلعة البذ التي كانت مقراً لأركان الجيش البابكي ومسكناً لزعيم الثورة. وبعد تهيئة قواته، أمر جنوده بالزحف إلى البذ، وزج في جبهة القتال كل جيشه وقواه الاحتياطية والكتائب التي تحمي مؤخرته[5].

واستبسل الثوار في الدفاع عن البذ، ولجأوا إلى كل ما ادخروه لأجل دفاعهم فاستخدموا حتى الأكداس الهائلة من الأحجار اهيلت على جيش العدو[6]. وعندما اقتحم الجند حصن الخرميين سارع الافشين للاشراف بنفسه على نهاية البذ[7]. وكان في المدينة بقية من المقاتلين الثوار يعدهم الطبري ستمائة رجل[8]، قد صمموا على

---

(1) المصدر السابق، ص205.

(2) و(3) ـ ي. أ. بليايف: نفس المعطيات ص 317.

(4) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص193.

(5) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص249 ـ 252. د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص226 والبذّ كورة من نواحي أذربيجان.

(6) نفس المصدر ص251.

(7) نفس المصدر ص254.

(8) نفس المصدر والصفحة.

الثبات والمقاومة حتى آخر قطرة من دمائهم فأمر الأفشين النفاطين بتوجيه النيران عليهم فأُحرقوا واهيلت عليهم الدور وقتلوا عن آخرهم[1]. وأخرج من كان بالبذ من أسرى المسلمين فكانوا سبعة آلاف وستمائة[2]. وأسر بعض من عثر عليه من عائلة بابك[3]. أما بابك نفسه فقد استطاع الافلات في بعض أصحابه[4].

وفي اليوم الثاني، تعرضت البذ إلى تفتيش دقيق عمن بقي من الأحياء فلم يجدوا أحداً فيها، فأمر الافشين بتهديم القصور وحرقها وجرى ذلك لثلاثة أيام على التوالي. ويذكر الطبري أن الافشين استمر يهدم ويحرق ثلاثة أيام[5]. ولم يدع فيها بيتاً ولا قصراً إلا أحرقه وهدمه[6].

اضطر بابك بعد سقوط البذ عام 222هـ للهرب إلى غيضة مكتظة بالأدغال[7]. ومنها سلك درباً خلواً من الحراس لتطرفه وقلة المياه فيه[8]، واجتاز الحدود إلى أرمينية ومعه أخوه عبدالله وغلام لهم[9]. وتشير بعض المصادر إلى أن بابك كان يبغي الذهاب إلى بلاد الروم[10]. ويأخذ بهذا الرأي بندلي جوزي[11] والدوري[12]. ويرى الدكتور حسين قاسم العزيز بأن تفكير بابك في اللجوء إلى الروم لم يكن واضحاً أو لم يكن ليحظى باهتمامه بصورة رئيسية ولا سيما وقد تباطأ الامبراطور تيوفيل بنجدته[13].

اتجه بابك وصحبه في الأراضي الأرمينية شمالاً يبحث عن مكان أمين يلوذ به

---

(1) المصدر السابق وذات المكان.
(2) تاريخ اليعقوبي ج2 ص 474.
(3) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص254.
(4) نفس المصدر والصفحة.
(5) نفس المصدر والصفحة.
(6) نفس المصدر والصفحة.
(7) نفس المصدر والصفحة.
(8) المصدر ذاته ص256.
(9) نفس المصدر والصفحة.
(10) الدينوري: الأخبار الطوال ص 404. الطبري: ج7 ص257. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص 139.
(11) د. بندلي جوزي صليبا: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ج1 ص85.
(12) د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص 235.
(13) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص244.

ويكون قريباً من أتباعه الذين تبعثروا ليواصل الدعوة منه[1]. فبلغ أراضي سهل بن سنباط صاحب قلعة شكي. وكان ابن سنباط من الأرمن الذين سبق أن تحالفوا مع بابك ثم تحولوا عنه بعد تغير الموقف ورجحان كفة الخلافة[2]. إلا أن سهلاً، الذي استلم رسالة مغرية من الأفشين[3]، أخفى نواياه عن بابك وأظهر أنه لا يزال على موقفه السابق من السلطة[4]، وأمّنه وأنزله وصحبه في قلعته، ثم غدر به وتواطأ مع رجال الأفشين على خطة معينة، فقبضوا عليه واقتادوه أسيراً تحت حراسة مشددة[5] إلى الأفشين بمعسكره في برزند[6]، وكوفيء سهل بن سنباط على (مآثره) تلك بأن أنعم عليه بالإمارة، وأعفيت بلاده مما عليها من واجبات، ومنح مليون درهم ومنطقة مغرقة بالجوهر[7].

وكان لخبر أسر بابك وقع عظيم لدى الخليفة والخاصة لزوال ذلك الخطر الجسيم، ولدى سكان العاصمة الذين فقد ذووهم الكثير من أهليهم في معارك القتال مع الثوار البابكيين، فكان يوماً مشهوداً (ضج الناس فيه بالتكبير وعمهم الفرح والسرور)[8]. وكتب الخليفة إلى الأمصار معلناً فرحته بالانتصار ولأجل بعث الثقة وإعادة الهيبة لسمعة الخلافة المتداعية[9].

حمل الأفشين بابكاً وشقيقه عبدالله، الذي قدم إليه مرسلاً من عيسى بن اصطيفانوس[10] إلى الخليفة في سامراء، فأمر بقطع يده ورجليه ثم بذبحه وشق بطنه وصلب بدنه بسامراء، وبعث رأسه إلى خراسان[11]، وأمر بحمل أخيه عبدالله إلى

(1) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص257.
(2) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص244.
(3) تاريخ اليعقوبي ج2 ص474.
(4) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص257.
(5) المسعودي: مروج الذهب ج4 ص56.
(6) الطبري: نفس المصدر ص258 ـ 259. وبَرْزَند: كورة من نواحي موقان.
(7) نفس المصدر ص262.
(8) المسعودي: مروج الذهب: ج4 ص56.
(9) نفس المصدر والصفحة. العزيز، حسين قاسم: البابكية ص 246.
(10) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص259.
(11) نفس المصدر ص261.

بغداد، فضرب أميرها اسحق بن ابراهيم عنقه وصلبه في الرصافة (الجانب الشرقي من بغداد) عند رأس الجسر[1].

يتبين مما تقدم أن الانتفاضة البابكية لم يكن غرضها مقاومة العرب كافة ولا مناهضة الإسلام كدين، وإنما كانت ضد السلطة الاقطاعية وضد الاقطاع، وقد صوَّر المؤرخون والباحثون أن معارضة الاقطاع والسلطة الاقطاعية بالأفكار الخرمية نزاعاً ضد العروبة والاسلام.

والحقيقة أن الأفكار الخرمية كانت الغطاء الأيديولوجي لمعارضة الفلاحين وحلفائهم الثورية للاقطاع والسلطة الاقطاعية[2].

لقد اتهمت السلطة وأعوانها وحلفاؤها الطبقيين الخرمية ـ البابكية بأقبح النعوت وأحط الصفات، وكل ما قيل في ماني ومزدك والخرمية وسنباذ والمقنع، أطلق على بابك وجماعته الخرمية (المحمرة) مع إضافة افتراءات جديدة، وانساق المؤرخون العرب الاسلاميون إلى الأخذ بالخديعة التاريخية التي أشاعتها السلطة وبطانتها وحلفاؤها الطبقيون عن أهداف الانتفاضة البابكية إمَّا محاباة للسلطة وحلفائها الطبقيين أو بسبب العجز التاريخي عن استكشاف الجذور التاريخية لثورة الفلاحين هذه أو لأغراض ذاتية أو طبقية فكرية، ووقفوا موقفاً متحيزاً إلى جانب وجهة نظر السلطة وايديولوجيتها مهما اختلفت الأشكال التي يتجلى بها هذا الموقف. وأهم التهم التي ألصقت بالحركة الخرمية ـ البابكية وايديولوجيتها: استباحة المحرمات والفسق والدعارة[3]. إذ يشير البغدادي، العدو الألد للخرمية ـ البابكية: أنه كانت (للبابكية في جبلهم ليلة عيد يجتمعون فيها على الخمر والزمر وتختلط فيها رجالهم ونساؤهم فإذا اطفئت سرجهم ونيرانهم افتض فيها الرجال والنساء على تقدير من عزَّ بزّ)[4] وإباحة النساء، حيث يقول المطهر المقدسي: إنه وجد بين الخرمية من يقول بإباحة النساء على الرضا منهن[5]، والتناسخ والحلول والعبث والفساد، حيث ذكر الطبري أن

---

(1) المصدر السابق، ص261 ـ 2.

(2) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص163.

(3) البغدادي: الفرق بين الفرق ص 241 ـ 251.

(4) نفس المصدر ص252.

(5) المقدسي، المطهر: البدء والتاريخ ص4 ص31.

بابك الخرمي ادعى أن روح جاويدان دخلت فيه وأخذ في العبث والفساد[1]، والكفر[2]، والقتل وسلب المارة والمسافرين والحجاج[3].

وعلى الرغم من أن الافتراءات والتهم التي وجهت إلى الخرمية ـ البابكية ضعيفة لإنها من اختلاقات السلطة وأعوانها وحلفائها الطبقيين أو موضوعة من قبل المؤرخين المعادين لايديولوجية المنتفضين أو من مؤرخين آخرين دون روية وتفكير وتحقق وبسبب الخوف من السلطة والتزلف لها وأنها ليست دامغة الحجة قوية الاسناد وإنما مبنية على قول جماعة منهم (ووجد من يقول بإباحة النساء على الرضا منهن)[4]. (ويقال إن لهم ليلة في السنة تجتمع فيها رجالهم ونساؤهم ويطفئون السرج يتناهضون للنساء فيثب كل رجل منهم إلى امرأة)[5]، أقول على الرغم من كل ذلك فإن الباحث المدقق فيما رواه المؤرخون يجد إفادات تناقض التهم التي وجهت للخرمية ـ البابكية، من ذلك مثلاً ما قاله المطهر المقدسي: (... وكل ذي دين مصيب عندهم، أي عند البابكين، إذا كان راجي ثواب وخاشي عقاب ولا يرون تهجينه والتخطيء بالمكروه ما لم يَرمُ كيد ملتهم وخسف مذهبهم. ويتجنبون الدماءَ جداً إلا عند عقد راية الخلاف)[6]. وهذا يؤكد احترام البابكية لحرية المعتقد وكرههم لسفك الدماء إلا إذا أجبر الخرميون على القتال. وذكر أبو منصور البغدادي، العدو الألد للخرمية ـ البابكية: أن بابك وأنصاره لم يكونوا يمنعون المسلمين المقيمين بينهم من التمسك بدينهم، وإقامة شعائرهم علناً، بل كانوا يساعدونهم على بناء مساجدهم، (وقد بنوا في جبلهم مساجد للمسلمين يؤذن فيها المسلمون وهم يعلمون أولادهم القرآن)[7].

وكانوا يعاملون الناس، بمن فيهم أعداؤهم، بالحسنى والملاطفة. يؤيد ذلك ما ذكره المطهر المقدسي: (أنه وجد البابكيين في غاية التحري للنظافة والطهارة والتقرب

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص141.

(2) البلاذري: فتوح البلدان ص 330. الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص230.

(3) تاريخ اليعقوبي ج2 ص471.

(4) المقدسي، المطهر: البدء والتاريخ ج3 ص31.

(5) ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي: نقد العلم والعلماء أو تلبيس ابليس ص 101.

(6) المقدسي، المطهر: البدء والتاريخ، ج 4، ص 80 ـ 81.

(7) البغدادي: الفرق بين الفرق ص252.

إلى الناس بالملاطفة وبتقديم الصنيعة)[1]. وأن بابك كان يطلق أسراه بالألوف ويعطف على نسائهم وأولادهم ويحسن إليهم. يؤيد ذلك قول الطبري: (إنه لما أسر بابك وجيء به مع أخيه إلى سامراء للتعذيب كانت النساء اللواتي أطلقهن بابك قبلاً من الأسر يلطمن على وجوههن ويصحن ويبكين حزناً وشفقة عليه. فلما سألهن حيدر الأفشين عن سبب بكائهن، أجبنه بأن بابك كان يحسن إلينا)[2].

إذن لم يكن بابك يعذب أسراه أو يقتلهم ويسفك دماءهم، ويستبيح النساء ويفجر بهن كما اتُّهم، وإنما كان (يحسن إلى الأسرى). وهذا الاحسان نابع من شعوره الانساني الذي كان يدفعه لجلب الخير للناس الضعفاء المغلوبين سواء كانوا ايرانيين أم عرباً أم اذربيجاناً أو أرمناً وسواء كانوا مسلمين أم خرميين أم مسيحيين. لقد تحلى هو وغالبية أتباعه بمبادىء الخرمية الداعية لسيادة الخير على الشر وطرد المستغِلين الجالبين الشقاء والتعاسة لبني البشر[3]. وإذا حدثت بعض الانتهاكات لمبادىء الخرمية ـ البابكية، فإنما تعود مسؤولية تلك التصرفات إلى العناصر الانتهازية التي تسللت إلى صفوف الحركة لأغراض سافلة معلومة[4] أو طمعاً في الفوائد المادية[5]. وقد نفى الطبري تهمة إباحة النساء عن الخرمية بقوله: (... فافترص السفلة ذلك واغتنموه وكاتفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم فابتلى الناس بهم)[6]. وقد أدى انضمام اللصوص وقطاع الطرق والسفلة إلى صفوف الحركة إلى تشويه سمعتها باضفاء صفات النهب والسلب والقتل وغير ذلك من الأعمال المنحطة على رجال الحركة من أجل المنافع المادية.

لقد سعت البابكية ـ الخرمية إلى تحقيق المساواة وتعميم الاستفادة من المنافع العامة وتحرير المرأة من عبوديتها ومنحها كرامتها الانسانية وحقوقها العائلية والمجتمعية، واحترام حرية الاعتقاد وتجنب سفك الدماء الا إذا اجبروا على القتال. فأثارت الدعوة إلى مثل هذه المبادىء الاجتماعية الثورية، الإنسانية والأخلاقية، حقد

---

(1) المقدسي، المطهر: البدء والتاريخ ج4 ص31.
(2) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص259.
(3) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص160.
(4) د. بندلي جوزي صليبا: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ج1 ص80.
(5) د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص 235.
(6) الطبري: تاريخ الرسل ج1 ص520.

السلطة الاقطاعية وأعوانها وحلفائها الطبقيين فاختلقوا الافتراءات ضد الحركة الخرمية البابكية لتشويهها والتشهير بها والنيل من سمعتها.

ولا شك ان انعدام امكانية معرفة الأسباب الاجتماعية والاقتصادية للحركات الثورية في ذلك العصر؛ وهذا طبيعي بالنسبة لمفكري ومؤرخي تلك الحقبة، بالإضافة إلى خوف المؤرخين من بطش الحكام والتفاف قسم منهم حول السلطة والسيادة الأفكار الرجعية ولانحدار بعض المؤرخين والفقهاء الطبقي كل ذلك جعلهم يقفون ضد الحركة الخرمية ـ البابكية[1].

لقد قمعت الخلافة انتفاضة بابك بعد كفاح مرير استغرق عشرين عاماً ونيفاً واستنزف منها الكثير من الأرواح والأموال. وعلى الرغم من أن الانتفاضة لم تستطع أن تضع حداً للاستغلال الاقطاعي المرهق والتسلط الحكومي الجائر، إلا أنها هزت الخلافة وزعزعت كيانها وتركت آثاراً جساماً في النظام الاجتماعي والسياسي أبرزها: إضعاف قوة السلطة المركزية وتجزئة الامبراطورية ونشوء الإمارات الاقطاعية الوراثية المستقلة في الولايات[2] وتطور الاقطاع فيها، وازدياد نفوذ الأتراك وسيطرتهم على الجيش وتسلطهم على الخلفاء حتى فقدوا سلطاتهم الفعلية وصاروا مقهورين خائفين قد قنعوا باسم الخلافة، ورضوا بالسلامة، واهتزاز جلال السلطان وتداعي هيبة الخلافة. وقد عبر شعراء ذلك العصر بتهكم عن تدهور الحالة المعنوية للخلفاء في نظر الأهالي فقال أحدهم دعبل الخزاعي بمناسبة وفاة المعتصم، الذي استخدم جل إمكاناته وأنفق بيوت أمواله لاستعادة جلال السلطان وهيبة الخلافة، وخلافة الواثق:

الحمد لله لا صبر ولا جلد ... ولا عزاء إذا أهل البلا رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد ... وآخر قام لم يفرح به أحد
فمر هذا ومر الشؤم يتبعه ... وقام هذا، فقام الشؤم والنكد[3].

وقال آخر:

خليفة في قفص ... بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له ... كما تقول الببغا[4].

---

(1) د. حسين قاسم العزيز: البابكية ص139.

(2) كالدولة الطاهرية (821 ـ 873م) والصفارية (876 ـ 903م) والسامانية (875 ـ 998م) والغزنوية (962 ـ 1186م) والطولونية (868 ـ 905م) وغيرها.

(3) انظر ص 216.

(4) انظر ص 216.

غير أن الانتفاضات الفلاحية، بما فيها البابكية، ساعدت من جهة أخرى على تطور القوى المنتجة. وهذا هو الدور الثوري من حيث محتواه والتقدمي موضوعياً الذي لعبته الانتفاضات الثورية.

انتفاضة الزنج

وفي جنوب العراق، شهدت منطقة البصرة، في الربع الثالث من القرن الثالث الهجري، ثورة العبيد الزنج في وجه أسيادهم كبار ملاك الأراضي والسلطة الاقطاعية في سبيل تحررهم وتحسين ظروف حياتهم. وقد هزت ثورة الزنج الخلافة، كما هزتها انتفاضة بابك قبلها وشغلتها حوالي أربعة عشر عاماً، والحقت بجيوشها هزائم كبرى، غير أنها قمعت في نهاية المطاف وقتل زعيمها.

وكان من نتائجها توقف تطور الملكية الخاصة القائمة على الأسلوب العبودي.

تتكون منطقة سهول البصرة ـ المسرح الرئيسي لانتفاضات الزنج ـ من سهل غريني غني، أمطاره لا تكفي للزرع وتسقط في غير مواسمه[1]، مما استوجب حفر القنوات وبناء السدود والمسنيات والاعتماد على الري الاصطناعي، وتتكرر في المنطقة فيضانات دجلة والفرات، وتكثر فيها الأهوار أو المستنقعات (البطائح)[2] التي تغمر مساحات واسعة بين واسط والبصرة. وبسبب حرارة الجو والرطوبة أصبحت المنطقة موبوءة بحمى[3] المستنقعات (الملاريا).

إن الاقبال على شراء الرقيق لاستخدامه في الانتاج الاجتماعي وفي الأعمال المنزلية على نطاق واسع أدى إلى رواج النخاسة. وقد قدر للعبيد الزنج، المجلوبين من زنجبار وسواحل أفريقيا الشرقية[4]، أن يستخدموا في ميادين الانتاج الاجتماعي التي كانت تتطلب أعمالاً يدوية ومشقة ولا سيما: في منظومة الري الاصطناعي، وتجفيف المستنقعات، وإزالة الطبقة الملحية وهي السباخ أو الشورج لجعل الأرض

---

(1) طه الهاشمي: مفصل جغرافية العراق ص 34. حماده، سعيد: النظام الاقتصادي في العراق ص 71 ـ 73.

(2) ابن رسته: الاعلاق النفيسة ص 185.

(3) ي. أ. بليايف: العرب والاسلام والخلافة ص 322.

(4) انظر ص 282.

صالحة للزراعة، وللإفادة من الأملاح المتجمعة[1]. وكان الزنج ينقلون الشورج - أو الملح - بواسطة البغال إلى حيث يعرض ويباع[2]. وكان الشورجيون يتعاطون بتجارة الشورج. وكان لهم غلمانهم من العبيد والأحرار أيضاً[3]. واستخدم الزنج في بساتين النخيل وفي زراعة الأرزّ والقطن وقصب السكر[4]. ومن الزنج من كان يعمل في استخراج الدبس من التمر، وهم غلمان الدباسين[5]. والتّمارين[6]. وهناك أيضاً من كان يخدم في بيوت دهاقين البصرة[7].

وقد تكاثرت أعداد الزنج في العهد العباسي عما كانت عليه في عهد بني أمية. ذلك أن توسُّع الزراعة وتطورها الكبير، وخاصة في جنوب العراق، تطلب أعداداً جديدة من الأيدي العاملة الرخيصة. وأخذ كبار تجار البصرة يوظفون جزءاً من رساميلهم المتراكمة نتيجة لتوسع الحركة التجارية في امتلاك الأراضي الواسعة أو استغلال أراضي الدولة بعد إصلاحها، لقاء دفع قسم من غلتها إلى الحكومة[8]، فجلبوا العبيد بأعداد كبيرة وحشدوهم في سهول البصرة لاستخدامهم في أعمال الري والفلاحة والصناعة والخدمة المنزلية وغيرها.

وكان الزنج يعملون على شكل جماعات تتراوح بين خمسمائة وخمسة آلاف[9]. وقد بلغ عدد احدى الجماعات التي كانت تشتغل في أراضي نهر دجيل خمسة عشر ألفاً[10]. وكانوا يحشرون حشراً بلا أكل ولا مأوى[11]. وعلى الرغم من قسوة ظروف عملهم، فلم تتعد جراية الواحد منهم حفنات قليلة من الدقيق والتمر

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص543.
(2) المصدر نفسه ص547.
(3) المصدر نفسه ص546.
(4) ي. أ. بليايف: العرب والإسلام والخلافة ص 321.
(5) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص546.
(6) المصدر نفسه ص560.
(7) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ج8 ص126.
(8) د. فيصل السامر: بعض الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية في ثورة الزنج: مجلة الثقافة الجديدة ك1 ص17.
(9) دائرة المعارف الإسلامية: الترجمة العربية ج10 العدد الحادي عشر كلمة زنج ص 422.
(10) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص547.
(11) دائرة المعارف الإسلامية: ج10 العدد الحادي عشر ص 422.

والسويق[1]، مما جعل وضعهم المعاشي سيئاً. ولم يكن للزنج زوجات وأولاد بل كانوا على هيئة الشطار عزاباً[2]. فضلاً عن بعدهم عن أوطانهم وأهاليهم. وكانوا محرومين من أبسط الخدمات الاجتماعية والتعليمية والصحية. وكانوا يعيشون في أكواخ حقيرة قذرة خانقة مصنوعة من القصب وسعف النخيل[3]. وكانت الملاريا والحر والجوع تفتك بهم فتكاً ذريعاً[4]. كما فتكت خلال ثورة الزنج الكبرى بجيوش أعدائهم من جند الموَفّق. يؤيد ذلك ما رواه الطبري: كثر العلل فيمن مع الموفق من جنده وغيرهم وفشا فيهم الموت[5]. وكانوا يلاقون البلاء الشديد على أيدي القيمين عليهم[6].

وإذن كان هؤلاء الزنج، مع من انضم إليهم من العبيد الأبّاق من القرى والمدن المجاورة يرزحون تحت ظروف اقتصادية واجتماعية سيئة وقاسية وقسرية. وبسبب تذمرهم من أوضاعهم، كانوا مهيئين للثورة في كل فرصة سانحة. وقد ساعد تجمعهم الكثيف في مواقع العمل على خلق شعور طبقي عام بينهم بالمصلحة المشتركة والثورة ضد أسيادهم الطبقيين.

وقد سبق ثورة الزنج بقيادة علي بن محمد عام 255هـ/ 869م، انتفاضات رقيقية زنجية محدودة في سهل البصرة كانت تقمع بعنف وقسوة[7]. وفي خلافة أبي جعفر المنصور، ثار الزنج أيضاً في منطقة البصرة التي انفردت بانتفاضات العبيد الزنج[8]. غير أن ثورتهم عام 255هـ، كانت أعنف ثورة قاموا بها، وأكثر تنظيماً، وأعمق تجربة وممارسة، وأصلب عوداً، وأكبر حجماً وأشد تكتلاً، وأوقع ضرباً وأكثر انجازاً وأطول مدة وأخطر تهديداً مما سبقها من انتفاضات العبيد الزنج. فقد تمكن الثوار من تأسيس دويلة لهم عاصمتها (المختارة). وتشكيل مجلس للثورة، وسكّ نقود ذهبية

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص546.

(2) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ج8 ص311،

(3) ي.أ. بلياييف: نفس المصدر ص321.

(4) د. بندلي جوزي صليبا: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ج1 ص48.

(5) الطبري: تاريخ الرسل ج8 ص9.

(6) ي. أ. بلياييف: نفس المصدر ص322.

(7) انظر ص 193 ـ 194.

(8) د. صالح أحمد العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري ص 60.

مستقلة عن عملة الخلافة عام 261هـ نقش عليها اسم زعيم الثورة مقروناً بلقب (أمير المؤمنين)[1].

تزعم الثورة رجل اسمه بهبود[2]. ولد في قرية (ورزنين) من أعمال الري[3]. فكأنه من أصل ايراني[4]. ولكنه تسمى محمد بن علي وزعم أنه عربي[5] وادعى العلوية لكسب عطف العلويين. وعلويته مختلقة. فاليعقوبي يذكره دائماً بأنه (دعي آل أبي طالب)[6]. ويذكر المسعودي: وأكثر الناس يقول إنه دعي آل أبي طالب[7]. وقال المسعودي: (وظهر من فعله ما دل على تصديق ما رمي به أنه كان يرى رأي الأزارقة من الخوارج)[8]. ويغلب على الظن أنه لم يكن علوياً ولا خارجياً، وإنما تأثر بالتيارات السياسية السائدة في عصره. وانجذب الناس البسطاء إلى لوائه لأنه دعا إلى مبادىء تسوية أقرب إلى تعاليم الخوارج. وكان علي بن محمد فصيحاً بليغاً[9].

قام علي بن محمد بمحاولات فاشلة لتفجير الثورة في البحرين والبادية أولاً ثم في البصرة ثانياً، وهرب إلى بغداد ثم عاد منها ومعه علي بن أبان المهلبي، ويحي بن محمد، ومحمد بن سلم وسليمان بن جامع، وغلاما يحي بن عبد الرحمن مشرق ورفيق، ونزلوا بـ (بئر نخل)، من أعمال البصرة، سنة خمس وخمسين ومائتين للهجرة[10]. وشرعوا في دعوة الزنج واستنفارهم إلى الثورة[11].

وبعد أن اطلع علي بن محمد على أحوال الزنج المادية والاجتماعية، حدَّد برنامج الثورة في خطبتين له أمام الزنج وعدَهم في الأولى ومنَّاهم أن يأخذ بناصرهم وأن ينتشلهم مما كانوا عليه من شقاء ويملكهم الأموال، وألا يغدر بهم ولا

---

(1) أحمد علي: ثورة الزنج ص 83، 84. المختارة: بنيت على نهر أبي الخصيب جنوب البصرة.

(2) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج5، القسم الثاني ص69، 74 السيوطي: تاريخ الخلفاء ص 363.

(3) المسعودي: مروج الذهب ج4 ص194.

(4) د. عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص 181.

(5) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص543.

(6) تاريخ اليعقوبي ج2 ص57، 59.

(7) المسعودي: مروج الذهب ج4 ص194.

(8) المصدر نفسه، ج4 ص194.

(9) ابن طباطبا: الفخري. ص250.

(10) المسعودي: مروج الذهب ج4 ص195.

(11) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص595.

يخذلهم[1]. وفي الثانية، خاطبهم بعد الصلاة بهم في يوم عيد الفطر من عام 255هـ. قائلاً: (إن الله قد استنقذهم به من سوء الحال، وأنه يريد أن يرفع أقدارهم ويملكهم العبيد والأموال والمنازل ويبلغ بهم أعلى الأمور)[2]. وعندما ارتاب الزنج في «صاحبهم» أن يغدر بهم ويردهم إلى أسيادهم، أخبرهم أنه لن يفعل ذلك وحلف لهم على ذلك بالايمان الغلاظ[3]، ثم جمع الباقين وهم الفراتية والقرماطيون، طائفة من الزنج، والنوبة وغيرهم ممن يفصح بلسان العرب فحلف لهم على ذلك وضمن ووثق من نفسه وأعلمهم أنه لم يخرج لعرض من أعراض الدنيا وما خرج إلا غضباً لله ولما رأى عليه الناس من الفساد في الدين[4].

يتضح مما تقدم، أن حركة الزنج هي حركة سياسية اجتماعية بغلاف ديني، هدف منها تحرير طبقة العبيد الزنج العاملين في منطقة البصرة وتحسين ظروف حياتهم الاقتصادية والاجتماعية في إطار دولة مستقلة لهم في جنوب العراق.

كان المسرح الرئيسي لثورة الزنج منطقة البصرة، حيث يعمل فيها الكادحون الزنج في مزارع أسيادهم، وقد حُبيت سهول البصرة مناعة طبيعية لكثرة أنهارها ومستنقعاتها وازدحام أدغالها وكثافة نخيلها. وعزز الزنج مناعة أرضهم الطبيعية بما أنشأوه من حصون وخنادق وأسوار وقنوات وسدود، مما يجعل حركة الجيوش النظامية أمراً عسيراً، كما يساعد على حرب العصابات والمباغتات ونصب الكمائن وإطالة أمد الحرب. وكان اختيار «موضع» المختارة وتحصينها لتكون حصناً للثورة وعاصمة لدولة الزنج ومركزاً تعبوياً وتموينياً خير مثال على ذلك. وهكذا أيضاً شيد الثوار الزنج «المدينة المنيعة» قرب واسط و«المدينة المنصورة» بجوار طهيثا لتكونا بمثابة خطوط دفاعية أمامية عن العاصمة «المختارة».

وفي البصرة ومنطقتها، ترتسم اللوحة عن واقع المجتمع العربي الإسلامي الهرمي بأدق تفاصيلها. كما يتجلى فيها التفاوت الطبقي والتناحرات الاجتماعية والطبقية بأجلى صورها. فقد تجمع فيها كبار الملاك الاقطاعيين والتجار وأرباب المال الذين يتربعون على قمة الهرم الاجتماعي لمدينة البصرة ومنطقتها، وهم الحلفاء الطبيعيون

---

(1) المصدر السابق ج7 ص546.
(2) المصدر نفسه ص 547.
(3) المصدر نفسه ص 550.
(4) نفس المصدر والصفحة.

لسلطة البصرة وحكومة بغداد. واحتشد فيها أيضاً الفلاحون المعدمون والعبيد والحرفيون وصغار الباعة وكادحو المدينة الذين يشغلون القاعدة العريضة للهرم ذاته، ويرزحون تحت وطأة الضرائب ويعانون من شدة الاستغلال وحمأة الاضطهاد.

ويبدو من مجريات الأحداث أن علي بن محمد «صاحب الزنج» قد درس أوضاع المنطقة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والطبيعية والاستراتيجية وسخرها في سبيل تحقيق مطامعه الشخصية في اقتطاع جزء هام وغني من أراضي الخلافة وانشاء دويلة مستقلة فيه تحت قيادته مستغلاً ظروف انحلال الخلافة.

لاقت دعوة علي بن محمد نجاحاً سريعاً في أوساط الزنج. إذ كانوا ينضمون إليه جماعات تتراوح بين الخمسين والخمسمائة في المرة الواحدة[1]. ولم يزل يفعل ذلك حتى اجتمع إليه بشر كثير من غلمان الشورجيين[2].

وكانت فصائل الثوار تتألف من طوائف الزنج، القوة الضاربة والرئيسية في الثورة[3]. وتعاون معهم بعض فلاحي قرى منطقة البصرة وساعدوهم بتقديم المير لجيوشهم[4]. وانضم إليهم بعض الحرفيين واشتركوا معهم في القتال[5]. وتحالف معهم أيضاً بعض الأعراب وأمدوهم بالمؤن من إبل وغنم وطعام[6]. واشتركوا معهم في بعض العمليات الحربية[7]. ومما قوّى الزنج، انضمام فئات من الجنود السود في جيش الخلافة، عقب الهزائم التي مني بها[8].

وكان على رأس حركة الزنج مجلس ثورة، يتألف من ستة أعضاء وجندي يكنّى أبا يعقوب برئاسة علي بن محمد. وهؤلاء الأعضاء هم: علي بن أبان المعروف بالمهلبي وله القيادة العامة[9]، وهو من علية أصحاب علي بن محمد[10]، ويحي بن

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص547.

(2) نفس المصدر والصفحة.

(3) نفس المصدر ص550.

(4) نفس المصدر ص552.

(5) د. عبد العزيز الدوري: دارسات في العصور العباسية المتأخرة ص 83.

(6) الطبري: تاريخ الرسل ج8 ص95.

(7) نفس المصدر ج7 ص603. ابن الجوزي: المنتظم ج5 ص8.

(8) أحمد علي، ثورة الزنج ص 116.

(9) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ج8 ص17.

(10) المسعودي: مروج الذهب ج4 ص507 وقد أسر المهلبي عام 270هـ وصلب عام 272. الطبري: تاريخ الرسل ج8 ص142، 151.

محمد المعروف بالبحراني، وكان يشتغل كيالاً وهو من الاحساء مولى لبني دارم[1] ومحمد بن سلم من أهل هجر، وكان قصاباً[2]. والعضو الرابع في مجلس الثورة هو سليمان بن جامع مولى لبني حنظلة أسود، وهو أحد عظماء قادة جيش الزنج[3]. وهناك أخيراً غلاما يحي بن عبد الرحمن بن خاقان: مشرق ورفيق، كسبهما علي بن محمد إلى جانبه عند نزوله بغداد بعد فراره من البصرة عام 255هـ[4]. وكان يحضر مع هؤلاء الستة، كما يذكر الطبري، جندي يكنى أبا يعقوب ولقب نفسه بعد ذلك بجربان[5].

وكان من مهام مجلس الثورة نشر الدعاية للثورة، ورسم الخطط العسكرية والتعبوية والتموينية وبناء الاستحكامات ونصب الكمائن وغير ذلك من الأمور الاستراتيجية والتكتيكية. وكان أعضاء مجلس الثورة، مع غيرهم من القواد الذين برزوا إبان الثورة، ينفذون أوامر القائد الأعلى للثورة علي بن محمد، ويحتكمون إليه كلما كانت الضرورة تستدعي إلى الاحتكام، وذلك حرصاً على وحدة الثورة ومنعاً لأي انقسام قد يحدث في صفوف قادتها. من ذلك مثلاً أن سليمان بن جامع نهى الجبائي، أحد مرؤوسيه، عن احراق الميرة فما انتهى. وكان يقول إن هذه الميرة مادة لعدونا فليس الرأي ترك شيء منها. فكتب سليمان إلى علي يشكو من سلوك الجبائي فورد كتاب عليّ بن محمد على الجبائي يأمره بالسمع والطاعة لسليمان والائتمار له فيما يأمر به[6]. ويبدو أيضاً أن رجال مجلس الثورة كانوا على وفاق تام مع علي بن محمد منذ بدء الثورة فما خذلوه ولا خانوه[7].

واستبسل الزنج في الدفاع عن ثورتهم وأبدوا ضروب الشجاعة. وفيهم صدق قول الشاعر شيخ بن رباح مفاخراً جريراً بالزنج:

---

(1) وقد جرح في احدى المعارك عام 258 وأسر ثم أخذ إلى سامراء حيث أمر المعتمد بتعذيبه وقتله والتمثيل بجثته/ الطبري: تاريخ الرسل ج8 ص8.

(2) نفس المصدر ج7 ص544. وقد قتل في البصرة غدراً في أول أيام الثورة عام 255. إذ بعثه علي بن محمد إلى أهل البصرة ليعظهم ويشرح لهم سبب الانتفاضة فغدروا به وقتلوه/ نفس المصدر ج7 ص564/ .

(3) نفس المصدر ج7 ص544. أسر عام 270هـ وصلب عام 272هـ/ نفس المصدر ج8 ص141، 151.

(4) نفس المصدر ج7 ص545.

(5) نفس المصدر والصفحة.

(6) نفس المصدر ج8 ص28.

(7) أحمد علي: ثورة الزنج ص 92.

والزنج لو لاقيتهم في صفهم لاقيت ثم جحاجحاً أبطالاً[(1)]

اعتمد الزنج كثيراً تكتيك المباغتة الليلية ونصب الكمائن في حربهم مع جيوش الخلافة النظامية والمتطوعة، وهي أحسن عدة وأكثر تنظيماً وتمويناً واستخدموا الحصار الاقتصادي ولجأوا إلى قطع مواصلات العدو البرية والمائية وتعطيل محاور امداداته بالميرة والجند والعتاد[(2)].

ويبدو أن الثوار الزنج قد التزموا بعدم التعرض إلى من لا يقاتلوهم ولا يعينوا عليهم أحداً. يؤيد ذلك ما رواه الطبري عن اتفاق جرى بين الثوار وأهل قرية الجعفرية ينص على «ألا يقاتلوا الزنج ولا يعينوا عليهم أحداً ولا يستروا عنهم خبراً وأن يساعدوهم متى اجتاز أحد من الثوار أرضهم»[(3)]. ولم يكن الثوار يتعرضون لأموال الناس ولا يؤذون أحداً وإنما يريدون أخذ أموال السلطان[(4)].

بدأت انتفاضة الزنج عام 255هـ/ 869م بغارات على القرى المجاورة وعلى مدينة البصرة. وشرع البصريون يحشدون المتطوعين للقضاء عليها واسترجاع عبيدهم الهاربين (الاباق). انتصر الثوار على جيش البصرة في معركة «يوم الشذا» عام 255هـ. وكان هذا الانتصار كافياً لالقاء الرعب في قلوب البصريين وتحطيم معنوياتهم، فأمسكوا عن حربهم وكتبوا إلى حكومة سامراء يستعينون بها[(5)].

ألحق الثوار، في مرحلة انتصاراتهم 255 ـ 265هـ، بجيوش الخلافة النظامية والمتطوعة الهزيمة تلو الأخرى[(6)]. واتسعت فتوحاتهم بعد انتصارهم على البصريين في معركة«يوم الشذا» فدخلوا الأبله عام 256هـ[(7)]. واستسلمت عبادان وحرر الثوار العبيد من أسيادهم وضموهم إلى صفوفهم[(8)]. واتسعت الثورة حتى عمت الأهواز (خوزستان) حيث انضمت إليهم جماعات الفلاحين الناقمين وجماعات أخرى من

---

(1) رسائل الجاحظ: تحقيق عبد السلام محمد هارون ص191.
(2) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص556.
(3) نفس المصدر ج7 ص549.
(4) ابن كثير: البداية والنهاية ج11 ص19.
(5) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص566.
(6) نفس المصدر ج7 ص555، 566، 595، 603، ج8 ص26، 38، 39.
(7) نفس المصدر ج7 ص596.
(8) نفس المصدر والصفحة.

سكان المدن[1]. وانحاز سعيد بن يكسين والي حربها فيمن كان معه من جند الخلافة إلى صفوف الزنج، وأسر ابراهيم بن محمد والي الخراج والضياع فيها، وحوى الثوار كل ما كان يملك من مال ورقيق[2].

ألقى نجاح ثورة الزنج الرعب في قلوب أغنياء البصرة. فهرب منهم جمع على عجل[3]. واتجهوا شمالاً. وفي الوقت نفسه هزم الزنج جيشاً آخر كان قد بعث به الخليفة لمحاربتهم[4].

وفي سنة 257هـ أحرزوا انتصارات أخرى على جيش الخلافة[5]. ولم تقف أسباب انتصاراتهم المتكررة عند مجرد استماتتهم في القتال وفنونهم الحربية في المباغتة الليلية التي كانوا يقومون بها ضد معسكرات جيش الخلافة، وإنما تعدت ذلك ـ وهذا ما سبب قلقاً لقواد الخليفة ـ إلى هرب الزنوج من جيش الخليفة إلى اخوانهم الزنج الثائرين[6]. وقد اشتد أزر المنتفضين بهؤلاء، لأن الفارين كانوا من المدربين ويملكون أسلحة جيدة. وهكذا وبعد انقضاء سنتين على قيام انتفاضة الزنج استحالت جماعاتهم إلى قوة عسكرية نظامية قوية[7].

وفي سنة 257هـ/ 871م، حاصر الثوار مدينة البصرة حصاراً اقتصادياً وعسكرياً[8] ودخلوها من ثلاث جهات[9]. ولابن الرومي قصيدة في رثاء البصرة يصف فيها دخول الثوار لها وما الحقته الحرب فيها من خسائر في الأرواح والممتلكات وتوقف حركة التجارة، من أبياتها:

دخلوها كأنهم قطع اللـيـ ... ـل، إذا راح مُدْلِهِمَّ الظلام
أين ضوضاء ذلك الخلق فيها ... أين أسواقها ذوات الزحام
أين فلك فيها، وفلك إليها ... منشآت في البحر كالأعلام؟[10]

---

(1) ي. أ. بليايف: العرب والاسلام والخلافة ص 325.
(2) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص596 ـ 7.
(3) نفس المصدر ص597.
(4) نفس المصدر ص597، 599.
(5) نفس المصدر ص599، 600، 601.
(6) ي. أ. بليايف: العرب والاسلام والخلافة ص326.
(7) نفس المصدر والصفحة.
(8) الطبري: تاريخ الرسل ج8 ص602.
(9) نفس المصدر ج7 ص605.
(10) ديوان ابن الرومي: اختيار وتصنيف كامل كيلاني ج3 ص422.

غير أن الزنج لم يجعلوا من مدينة البصرة مقراً عسكرياً وسياسياً لهم لأن هذه المدينة لم تكن تتلاءم مع استراتيجيتهم الحربية فكانوا يؤثرون أماكن أخرى يتحصنون بها[1]. وفي أثناء قتالهم المتواصل لجيوش الخلافة ابتنوا لأنفسهم ملاجيء حصينة على الجزر الواقعة في شط العرب وعلى جزر تقع في الأقنية والترع الأخرى. وكانوا يختارون مواقع لهذه الملاجيء محاطة بأجمات كثيفة من القصب ومن الأعشاب التي تنمو في المستنقعات. وكانوا يحيطون ملاجئهم بأسوار من الطين تحمي المنازل والمخازن، حتى إذا لم يكن باستطاعتهم، أو إذا لم يكن من صالحهم، أن يحاربوا أو أن يجابهوا جيش الخليفة، جاؤوا إلى هذه الملاجيء بين الأهوار والترع وأقاموا فيها متربصين[2]. وإلى هذه الملاجيء كانوا يجلبون المغانم والاسلاب والأطعمة والبضائع التي كانوا يظفرون بها في حربهم مع جيش الخلافة، أو تلك التي كانوا يستولون عليها في القرى والمدن التي كانوا يهاجمونها، أو تلك التي كانوا يغنمونها في مهاجمتهم القوافل والمراكب التجارية. واستحال أحد هذه الملاجيء التي كان يقيم فيها زعيمهم علي بن محمد إلى مدينة صغيرة محصنة سماها المختارة، وأصبحت فيما بعد عاصمة الدولة الزنجية[3]. وهكذا أيضاً شيد الزنج سلسلة من تلك الملاجيء ـ الحصون لتكون بمثابة خطوط دفاعية أمامية عن عاصمتم «المختارة»[4].

بعد سقوط البصرة، توسع الثوار شمالاً فاستولوا على البطيحة عام 262هـ[5]، وتقدموا نحو بغداد فاحتلوا واسط[6] عام 264هـ. ودخلوا النعمانية عام 265هـ ثم وصلوا إلى بغداد»[7]، وأمست الخلافة مهددة بالسقوط تحت ضربات سيوف الثوار.

كان ميزان الحرب بين الثوار الزنج وجيش الخلافة حتى أواخر السبعينات من القرن التاسع الميلادي يميل بصورة عامة إلى جهة الثائرين من الزنج. وكان جنود الخلافة أقل ثباتاً في الحرب من جنود الزنج الذين كانت قد ارتفعت معنوياتهم بسبب ما أحرزوه من انتصارات متكررة، فكانت انتصاراتهم أكثر من هزائمهم[8].

---

(1) ي. أ. بليايف: العرب والاسلام والخلافة ص326.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) انظر ص 311.
(4) انظر ص 312.
(5) الطبري: تاريخ الرسل ج8 ص25.
(6) نفس المصدر ج8 ص44.
(7) نفس المصدر والصفحة.
(8) ي. أ. بليايف: العرب والاسلام والخلافة ص327.

وتعزى انتصارات الثوار المتكررة على جيوش الخلافة إلى استبسالهم وصمودهم في ميادين المعارك، وفنونهم الحربية في المباغتة الليلية، وانضمام جماعات من الزنج في جيش الخلافة بأسلحتهم الجيدة وخبراتهم التدريبية إلى الثوار، وإلى تفسخ الخلافة وانشغالها بحرب الروم والصفار وغيرهم من المتمردين على الحكومة.

ففي الوقت الذي قامت فيه انتفاضة الزنج، وأخذ المنتفضون يلحقون الهزائم ويحرزون النصر تلو الآخر على جيوش حكومة سامراء، كانت الخلافة في الساحة الداخلية مشغولة بحرب يعقوب بن الليث الصفار وغيره من العصاة.

ففي مشرق الخلافة، خرج يعقوب الصفار[1]، واستولى على سجستان، ثم على خراسان وأطاح بملك آل طاهر فيها، واحتل طبرستان وفارس، وواصل زحفه نحو بغداد عبر خوزستان واستولى على رامَهُرْمُزْ، واجتاز عسكر مكرم ودخل واسط وسار إلى دير العاقول بين واسط وبغداد عام 262هـ[2].

وفي عام 875م، انضم يعقوب الصفار[3] إلى الثوار الزنج، وحارب الحليفان معاً جيش الخلافة في خوزستان. غير أنهما هُزما سنة 876م على مقربة من سوزا[4]. وفي أعقاب هذه الهزيمة، انفصل يعقوب عن الزنج ووقع العداء بينهما. فأرغم علي بن محمد على الجلاء عن الأهواز متنازلاً عنها ليعقوب كي يأمن شره ويجنب نفسه خطر الحرب معه[5]. ولو استمر التحالف بين الزنج والصفار لسقطت الخلافة وتغير مجرى الأحداث. ولكن حكومة سامراء أسرعت إلى عقد الصلح مع الصفار، عمرو بن الليث الذي خلف أخاه يعقوب عام 265هـ، لتتفرغ لحرب الزنج، ومنذ عقد هذا الصلح، أخذت كفة الخلافة ترجح.

وبالإضافة إلى خطر الصفار، كان هناك خطر العلويين. ففي عام 256هـ، ظهر علي ابن زيد العلوي بالكوفة وهزم الجيش الذي وجه لقتاله[6]. وكان الحسن بن زيد

---

(1) كان أجيراً يعمل بالصفر أي النحاس. أسس الدولة الصفارية 862 ـ 902 بفارس وسجستان (أفغانستان اليوم)، ثم ضعفت وانقرضت على يد السامانيين.

(2) الطبري: تاريخ الرسل ج8 ص21 ـ 22.

(3) كان يعقوب الصفار حليفاً متردداً.

(4) ي. أ. بليايف: العرب والاسلام والخلافة ص327.

(5) نفس المصدر والصفحة.

(6) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص597.

العلوي قد استولى على طبرستان وجرجان منذ عام 250هـ[1]. وفي عام 256هـ غلب على منطقة الري[2].

وثار مساور بن عبد الحميد الخارجي من بني شيبان وغلب على الموصل وطرد عاملها، ثم توجه نحو سامراء ونزل في المحمدية على بعد ثلاثة فراسخ من قصور الخليفة. وهزم جيوش المعتز وقويت شوكته[3]. وظل متغلباً على منطقة الموصل، صامداً في وجه جيوش الخلافة حتى وفاته عام 263هـ[4]. وعصى بعض المتمردين الأكراد، كأحمد بن الليث في فارس[5]، ومحمد بن عبدالله بن ازارْمَرْد في الأهواز[6].

ويبدو أن الاسماعيلية في ايران، وكانوا لا يزالوان يعملون سراً في نشر دعوتهم، حاولوا الاتفاق مع الثوار الزنج، ووصل بالفعل إلى العراق وفد الحسين الأهوازي عام 264هـ[7]، واجتمع بعلي بن محمد «صاحب الزنج» وناظره وحاول اغراءه بالدخول في دعوته نظير تقديم المساعدة إليه في حربه مع الخلافة ولكنه رفض قبول ذلك العرض[8].

وفي مغرب الخلافة، استقل أحمد بن طولون بمصر، وزحف إلى سورية وأخضع مدنها ودعي له من على منابرها[9]، وذلك عام 264 ـ 265هـ. ولم يعد في حوزة الخلافة سوى العراق والجزيرة الفراتية والأهواز[10].

وهكذا ظل الثوار يقاتلون جيوش الخلافة منفردين متفرقين أو يقتتلون فيما بينهم تاركين الفرصة وحرية العمل السياسي والدبلوماسي والحربي لعدوهم في انقاذ الخلافة والانفراد بهم الواحد تلو الآخر.

---

(1) المسعودي: مروج الذهب ج4 ص153.
(2) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص597.
(3) تاريخ اليعقوبي ج2 ص502.
(4) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص524، 583، ج8 ص16، 18، 19، 34.
(5) نفس المصدر ج7 ص598.
(6) نفس المصدر ج8 ص30.
(7) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص 153.
(8) ابن الجوزي: مرآة الزمان ج6 ص640.
(9) الكندي: ولاة مصر وقضاتها ص 57 ـ 58.
(10) محمد عبد الفتاح عليان: قرامطة العراق في القرنين الثالث والرابع الهجري ص 127.

عين الخليفة المعتمد (256 ـ 279هـ/ 870 ـ 892م) أخاه أبا أحمد طلحة، الموفق، آمر الجيش والولايات. وصار الموفق المدبر الفعلي لشؤون الخلافة[1]. ثم حظر على المعتمد وحبسه[2] وأصبحت كلمة الموفق هي العليا على الأتراك وقوادهم.

أظهر الموفق من الحنكة الدبلوماسية ومضاء العزيمة والكفاءة ورباطة الجأش والمثابرة ما مكّنه من استرجاع هيبة الخلافة وسلطتها في المقاطعات المركزية[3].

فقد صالح عمرو بن الليث الصفار عام 265هـ وأرضاه بكثير من الامتيازات، بقصد اخراج الصفارين من ساحة المعركة ليتفرغ لحرب الزنج وقمع ثورتهم. ومنذ توقيع هذا الصلح، أخذت كفة الدولة ترجح في حربها مع الزنج[4]. كما صالح الموفق الثائر الكردي محمد بن عبدالله وتخلص من شره[5].

وفي ذلك الحين طرأت على حياة الزنج تغييرات جذرية أدت في النهاية إلى هزيمتهم. فالزنوج الذين كانوا بالأمس عبيداً لم ينادوا بالغاء الرق، بل أصبحوا أنفسهم يملكون العبيد من الأسرى ومن بعض سكان المدن. فقد ذكر المسعودي أن كل زنجي كان لديه عشر نساء وعشرون بخدمته بوصفهن محظيات ممتهنات يقمن بأحط الأعمال المنزلية[6].

وظل الفلاحون وهم من أقوى حلفاء الزنج يلاقون من فداحة الضرائب بلاء عظيماً في المناطق التي احتلها الزنج. ومني أهل المدن، ولا سيما الأغنياء منهم، بخسائر عظيمة من جراء الحريق والنهب، كما أن كثيرين منهم قتلوا بحد السيف[7]. وتوقفت حركة التجارة أو كادت، وأصيبت بنكسة في المناطق التي بسط الزنج فيها حكمهم، كذلك لقي التجار والصناع وأصحاب الحرف بلاء عظيماً[8]. وتعطلت الزراعة في المناطق التي كانت مسرحاً للمعارك.

وفي آخر السبعينات من القرن التاسع الميلادي أصبح زعماء الزنج من كبار

---

(1) المسعودي: مروج الذهب ج4 ص211.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) نولدكه: نقلاً عن الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص 88.
(4) السامر: ثورة الزنج ص 98.
(5) نفس المصدر ص114.
(6) المسعودي: مروج الذهب ج4 ص208.
(7) ي. أ. بلياييف. العرب والإسلام والخلافة ص 328.
(8) نفس المصدر والصفحة.

الملاكين وأصحاب العبيد، فراحوا يظلمون الفلاحين ويبتزون المال من العمال في الأرياف والمدن[1]. كما أنهم كانوا يحتفظون بواردات الخراج والضرائب عوضاً من استخدامها في تحسين وضع عامة الشعب من الزنج[2]. وأعلن علي بن محمد نفسه خليفة في المناطق التي استولى عليها الزنج[3]. وطلب إلى الخطباء في صلاة الجمعة أن يدعوا له على المنابر[4]. وهذه الخلافة الصغرى، إن دلت على شيء فعلى عمق التباين الاجتماعي الذي حدث في صفوف الزنج. فقد انتهى التحالف الذي عقد بينهم وبين جماهير العمال الأحرار الكادحين[5]. وانقسم الزنج على أنفسهم بسبب التفاوت الاقتصادي والسياسي الصارخ. كما أن مصالح مختلف الفئات بينهم ازدادت تضارباً وتبايناً. وشعر ثوار الزنج بخيبة أمل مريرة، ووهنت إرادة المقاتلين وفقدوا عزمهم على متابعة القتال مما ساعد الموفق في القضاء على حركتهم.

عبأ الموفق جل إمكانات الخلافة لحرب الزنج وقمع ثورتهم. فحشد الجيوش والأساطيل، وأعد أسلحة الحصار وتدمير الحصون من المجانيق والعرادات والقسيّ الناوكية وسائر الآلات[6]. كما استخدم النار اليونانية والرصاص المذاب وسفن الحريق لتخريب القناطر[7]. واهتم الموفق وقواده بنظام الاستطلاع للتعرف على المواقع والطرق والممرات والمسالك[8]. واستعمل طرق الحصار الاقتصادي والعسكري وقطع مواصلات الثوار ومصادر تموينهم[9]. وأنشأ وابنه أبا العباس المعسكرات والحصون مثل «العمر»[10]، قرب واسط، و«الموفقية»[11] إزاء المختارة. كما وأن خبرته بحرب الزنج والتجارب التي استفادها من فشل الجيوش العباسية

---

(1) المصدر السابق نفسه.
(2) نفس المصدر ص329.
(3) المسعودي: مروج الذهب ج4 ص207.
(4) نفس المصدر والصفحة.
(5) ي. أ. بلياييف. العرب والإسلام والخلافة ص 329.
(6) الطبري: تاريخ الرسل ج8 ص75.
(7) نفس المصدر ص125، 110، 150.
(8) المصدر ذاته ص 58.
(9) المصدر ذاته ص 94، 97، 133.
(10) المصدر ذاته ص55.
(11) المصدر ذاته ص79.

المتكرر جعلته أبعد بصيرة وأكثر جلداً ومثابرة بحربهم ممن تقدمه[1]. واستعمل تكتيكات جديدة، هدف منها إلى إضعاف مقاومة الثوار وتصديع صفوفهم ودفعهم إلى الاستئمان والاستسلام[2]. ذلك أن قواد الخلافة السابقين كانوا يقتلون كل أسير يقع بين أيديهم. أما سياسة الموفق الحكيمة فكانت تتسم بالشفقة والرحمة في معاملة الأسرى غير المسلمين من الزنج. فمنع رجاله من قتلهم وإنزال العذاب فيهم بغية استمالتهم وحملهم على التسليم دون مقاومة عوضاً عن أن يكون العنف ضدهم باعثاً على اليأس فالقتال.

تغيرت موازين القوى على ساحة الحرب مع الزنج لصالح الخلافة نتيجة للعوامل التي أتينا على ذكر بعض منها. وأخذت جيوش الموفق تلحق الهزائم بالثوار الزنج. وانتقل الزنج من الهجوم إلى الدفاع، ووزعوا مقاتليهم على القلاع والأمكنة الحصينة التي كان الموفق أخذ في مهاجمتها واحدة تلو الأخرى بواسطة أسطوله الذي استطاع أن يبلغ مراكزهم المنيعة وأن يقضي على مقاومة المدافعين عنها[3]. فسقطت «المنيعة»[4]. ثم تلتها «المنصورة»[5]. وكان الزنج قد حصنوها بخمسة خنادق وجعلوا أمام كل خندق منها سوراً يمتنعون به[6]. واسترجعت واسط والأهواز[7]. ولم يبق تحت سيطرة الزنج سوى «المختارة».

كانت المختارة «حصناً» منيعاً و«عاصمة» لدولة الزنج و«مستودعاً» للمؤن والأسلاب. فقد أحيطت بالأنهار والخنادق والأسوار[8]. وكان تحصينها شديداً مما لم يَرَ مثله الموفق[9]. لهذا استخدم أبو طلحة فريقاً من الفعلة لهدم أسوارها[10]. كما اضطر إلى المصابرة والمكايدة وبذل الضحايا والأموال مدة ثلاث سنوات حتى ظفر باقتحامها عام 270هـ.

---

(1) د. عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص 92.
(2) الطبري: تاريخ الرسل ج8 ص60، 74، 77، 78، 86، 89، 92، 116، 118، 123، 127.
(3) ي. أ. بليايف: العرب والإسلام والخلافة ص 330.
(4) الطبري: تاريخ الرسل ج8 ص63.
(5) المصدر ذاته ص68.
(6) نفس المصدر والصفحة.
(7) المصدر ذاته ص69.
(8) نفس المصدر ص88.
(9) نفس المصدر ص75.
(10) نفس المصدر ص93، 106.

كما كانت الحياة في داخل العاصمة منتظمة، فقامت فيها الدواوين[1] وأسواق البيع[2]. وربطت أقسام المدينة التي كانت تجري فيها الأنهار، قناطر وجسور[3]. وكانت المختارة مستودعاً للمؤن والأموال التي غنمها الزنج إبان حروبهم. وكانت الميرة، من إبل وغنم وطعام، ترد إليها من البادية بواسطة الأعراب[4]، كما يصلها السمك من البطيحة[5].

قضى الموافق فترة من الزمن في الاستعداد لمحاصرة المختارة، ثم سار إليها بأساطيله وقواته وأسلحة الحصار وفريق من الفعلة لهدم الأسوار، فأشرف عليها وتأملها فرأى من منعتها وحصانتها بالأسوار والخنادق المحيطة بها وما عَور من الطرق المؤدية إليها وأعد من المجانيق والعرادات والقسي الناوكية وسائر الآلات على سورها ما لم ير مثله ممن تقدم من منازعي السلطان وأبصر من كثرة عدد مقاتلتهم واجتماعهم ما استغلظ أمره[6]. ولم يكتف الزنج بهذا القدر من التحصينات بل استمروا في انشاء وسائل دفاع جديدة حتى أنهم كانوا يلجأون إلى بثق القنوات أحياناً[7] كما سلحوا بعض القناطر والأنهار[8].

وعندما علم الموفق بصمود الزنج واستبسالهم في القتال وكثرة عددهم ومناعة مدينتهم قرر الصبر عليهم ومحاصرتهم اقتصادياً وعسكرياً واضعاف معنوياتهم ودفعهم بشتى السبل، إلى الاستئمان. فبنى الموفقية لتكون معسكراً لجيشه إزاء المختارة. وكتب إلى عماله في النواحي بحمل الأموال والمير إلى مدينته الجديدة[9]. وأنفذ مبعوثيه إلى سيراف وجنابا في بناء الشذا والاستكثار منها لما احتاج إليه من ترتيبها في المواضع التي يقطع بها المير عن الثوار[10]. وجهز التجار صنوف التجارات

(1) الطبري: تاريخ الرسل ج 8 ص106.
(2) نفس المصدر ص106، 17.
(3) نفس المصدر ص113.
(4) نفس المصدر ص94 - 95.
(5) نفس المصدر والصفحة.
(6) نفس المصدر ص75.
(7) نفس المصدر ص110.
(8) نفس المصدر ص112 - 115.
(9) نفس المصدر ص79.
(10) نفس المصدر والصفحة.

والأمتعة وحملوها إلى الموفقية، واتخذت بها الأسواق[1]. وبنى مسجد الجامع، واتخذ دور الضرب فضرب فيها الدنانير والدراهم، فجمعت مدينة أبي أحمد جميع المرافق وسيق إليها صنوف المنافع[2].

شرع الموفق يتقدم رويداً رويداً مشدداً الخناق على المختارة، وأخذ بقطع التموين عن الزنج من كل الجهات، وعندما لم يرتدع الأعراب عن تموين الزنج،، أوقع بهم قتلاً وأسراً وتمثيلاً[3]. وقد أدى ازدياد الضغط العسكري والاقتصادي إلى ضعف مراكز الثوار، وأدرك الأعراب رجحان كفة جيش الموفق «فتهيبوا جلب الميرة إلى صاحب الزنج» فانقطعت عنه كل مادة[4]، «فبلغ عنده الرطل من خبز البر عشرة دراهم...»[5]. وأنفذ الموفق قائداً من قواده في خمس شذوات إلى مؤخرة عسكر الزنج بنهر أبي الخصيب لإحراق بيادر جليلة للثوار «وكان احراق ذلك من أقوى الأشياء على إدخال الضعف على «الفاسق» يقصد علي بن محمد، وأصحابه إذ لم يكن لهم معوّل في قوتهم غيره»[6].

دعا الموفق أولاً الثوار الزنج إلى الاستئمان، ثم عرضه على زعيمهم ثانياً ودعاه إلى التسليم والتوبة ومبايعة الخليفة مقابل العفو عن حياته[7]. ولكن صاحب الزنج رفض العرض[8] مع علمه أن لا جدوى من المقاومة.

وكان جيش الموفق خمسين ألفاً من الفرسان والرجالة في أحسن زي وأكمل هيئة[9]. ووافته نجدات جديدة منها مثلاً، جيش كثيف من سامراء عدده عشرة آلاف بين فارس وراجل[10]. كما أن لؤلؤ قائد شمال سورية انفصل عن سيده أحمد بن طولون وفاوض الموفق في الانضمام إليه وجاء «بجيش من الفراعنة والأتراك والروم

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل ج 8 ص 79.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) نفس المصدر ص95، 97.
(4) نفس المصدر ص117.
(5) نفس المصدر والصفحة.
(6) نفس المصدر ص133.
(7) نفس المصدر ص74 ـ 75.
(8) نفس المصدر ص75.
(9) نفس المصدر ص131.
(10) نفس المصدر ص133.

والبربر والسودان وغيرهم من نخبة أصحاب ابن طولون»[1]. واستخدم الموفق في حرب الزنج أسطولاً ضخماً من السفن الناقلة والزوارق المهاجمة والسفن الحارقة يعمل فيه عشرة آلاف ملاح سوى سفن أهل العسكر التي تحمل فيها المير ويركبها الناس في حوائجهم وغيرها مما كان لكل قائد ومن يحضر من أصحابه من السميريات والجريبيات والزواريق[2].

وعندما نفذت الأطعمة في المختارة ولاح شبح المجاعة بسبب حصار الموفق لها وقطعه الميرة والمدد عنها، أخذت فلول من جند الزنج وقوادهم تفر من المدينة المحاصرة، وتلتحق بمعسكرات جيش الخليفة حيث كانوا يحسنون استقبالهم ووفادتهم[3]. وأخيراً لم تستطع الحامية المنهكة القوى في المختارة أن تقف في وجه الهجوم الأخير الذي شنه الموفق، فسقطت قلعة الزنج (المختارة) بيد جيوش الخليفة عام 270هـ وقطع رأس علي بن محمد ورُمِيَ به عند قدمي الموفق[4].

وبعد أن تم قمع الانتفاضة تعرض الزنج إلى أعمال انتقامية مروعة، فقتل منهم وغرق في النهر وأسر خلق كثير[5]. وعاد من نجا إلى وضعه السابق، ولاذ زهاء ألف زنجي نحو البر فمات أكثرهم عطشاً وظفر الأعراب بمن سلم منهم واسترقوهم[6]. وأسر علي بن أبان المهلبي وسليمان بن جامع ثم صلبا[7]. وأحرقت دور الزنج في المختارة وهدمت أسوارها وطمت خنادقها[8]. وانتهت ثورة الزنج إلى الفشل. وأصدر الموفق بياناً إلى العالم الإسلامي يبشرهم بانتهاء الخطر ويدعو (أهل البصرة والأبلة وكور دجلة وأهل الأهواز وكورها وأهل واسط وما حولها بالعودة إلى أوطانهم)[9].

وإذا كانت ثورة الزنج قد انتهت إلى الاخفاق، إلا أنها تركت آثاراً في النظام الاقتصادي لدولة الخلافة. فقد تضاءل نظام الرق ولم يزل بالكلية، حيث ظل الناس

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل ج 8 ص 133.
(2) نفس المصدر ص129 ـ 130.
(3) نفس المصدر ص118 ـ 123.
(4) نفس المصدر ص141.
(5) نفس المصدر ص142.
(6) نفس المصدر والمكان.
(7) نفس المصدر ص141، 142، 143، 151.
(8) نفس المصدر ص142.
(9) نفس المصدر ص144.

زمناً يستخدمون العبيد في الأعمال الصناعية ولكن استغلالهم استغلالاً بشعاً في أعمال الري والزراعة زال بصورة عامة[1]. كذلك تقلصت تجارة الرق التي كانت قائمة بين بلدان الخلافة وأفريقيا إلى حد أدنى. إذ أن الطلب على العبيد أصبح مقتصراً على اقتنائهم لأغراض الخدمة المنزلية[2].

حركة القرامطة

لم تكد الخلافة تصحو من الضربات المنهكة التي أنزلها بها الثوار البابكيون والزنج حتى ألفت نفسها في مواجهة مصيرية مع خطر جديد، يتمثل بالحركة الاسماعيلية وفرعها القرمطي بخاصة، كاد أن يودي بدولتها ونظامها الاجتماعي المتعفن.

والاسماعيلية حركة فلسفية سياسية ثورية سرية، انخرطت في صفوفها الطبقات المضطهدة والفئات الطليعية من رجال الفكر والأدب. واجتازت الحركة مراحل كثيرة وهي تنمو وتتكيف تبعاً لمطالب الزمن وظروفه ولتطور المستوى الفكري لزعماء الحركة أنفسهم إلى أن استقرت على برنامج اجتماعي محدد يقوم على المبادىء التالية:

أ ـ القضاء على الدولة العباسية ونظامها الاجتماعي الطبقي.

ب ـ تأسيس دولة جديدة مبنية على قواعد المساواة والعدل وذلك عن طريق نزع الأرض وتوزيعها على المحتاجين إليها مجاناً وتحقيق الاخاء والسلم والمحبة بين جميع الرعايا بغض النظر عن اختلاف قومياتهم وطبقاتهم الاجتماعية وأديانهم، ومنح المرأة ما للرجل من الحقوق العائلية والمجتمعية[3].

وقد استطاع الدعاة الاسماعيليون، بنشاطهم الجم واخلاصهم لمبادئهم وشجاعتهم النادرة، أن ينظموا ويوجهوا السخط الاجتماعي والاقتصادي والديني في الطريق المرسومة لتحقيق أهداف الحركة.

ولقد ساعدت ظروف انحلال الخلافة وسوء أوضاع الطبقات الشعبية على انتشار

---

(1) ي. أ. بلياييف: العرب والإسلام والخلافة ص 331.

(2) نفس المصدر والصفحة.

(3) د. بندلي جوزي صليبا: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ج1 ص108 ـ 110.

الدعوة الاسماعيلية بسرعة غريبة حتى لم يبق عمل أو مقاطعة في الدولة العباسية إلا وتأسس فيها خلايا سرية، منها الخلية القرمطية في العراق والبحرين الذي نيط بدعاتها نشر الدعوة بين الجماهير العاملة بخاصة.

بدأ القرامطة، وهم الجناح الأكثر ثورية واخلاصاً وأمانة لمبادىء الاسماعيلية، عملهم التنظيمي السري في العراق والبحرين في ظروف وأوضاع ومناخات ملائمة لاتساع حركتهم ونجاحها.

فعلى صعيد الوضع الاقتصادي لدولة الخلافة العباسية، توسعت الزراعة والتجارة، وتعمق التقسيم الاجتماعي للعمل بانفصال الحرفة نهائياً عن الزراعة، وبنمو الانتاج السلعي وتطور الاقتصاد النقدي مما أدى إلى قيام أوليجاركية من أصحاب الثروات الطائلة والأراضي الواسعة بجانب طبقة كبيرة جداً من الفقراء المعدمين.

وعلى صعيد الوضع السياسي، ضعفت قوة السلطة المركزية وتجزأت الامبراطورية. ونشأت إمارات اقطاعية وراثية مستقلة في الولايات التي انفصلت عن الحكومة المركزية، وازداد نفوذ الأتراك وسيطرتهم على الدولة وتسلطهم على الخلفاء حتى فقدوا سلطاتهم الفعلية. واهتز جلال السلطان وتداعت هيبة الخلافة[1]، وأصبح البلاط مسرحاً لدسائس وصراعات رهيبة حول السلطة، أدت فيما أدت إلى قتل أربعة خلفاء[2] في الفترة الواقعة بين 247 ـ 256هـ، وازداد الحكم عزلة عن الجماهير، وانتشرت ظاهرة الفساد، وأصبحت نفقات البلاط وامراء الجيش عبئاً باهظاً على الخزينة[3].

ومع توطد النظام الاقطاعي ونمو الانتاج السلعي وتطور الاقتصاد النقدي، تعاظم التباين الاجتماعي في سلم الهرم الطبقي، وتردت أوضاع الفلاحين بسبب شدة الاستغلال الاقطاعي والضرائب الباهظة كما أن الحرفيين والصناع وأصحاب البيوعات الصغيرة كانوا هم الآخرون يتذمرون من وطأة الأعباء والتكاليف. وهكذا فإن الانتفاضات الجماهيرية التي شهدها القرن الثالث الهجري كانت دليلاً ساطعاً على تطور التناقضات الاجتماعية وحدة الصراع الطبقي. وما كانت الحركة القرمطية، التي

---

(1) انظر ص 308.

(2) هم: المتوكل قتل سنة 247هـ والمستعين قتل سنة 252هـ. والمعتز قتل سنة 255هـ والمهتدي قتل سنة 256هـ. المسعودي، مروج الذهب ج4 ص119 ـ 164.

(3) انظر ص 213.

ظهرت في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري في العراق وبلاد البحرين، إلا تعبيراً عن سخط الطبقات السفلى على الظلم الاقطاعي والتعسف الحكومي ورغبتها في التغيير وطموحاتها في حياة جديدة سعيدة تتحقق فيها المساواة والعدل وتسودها علاقات المحبة والتعاون والسلام بين الجميع.

ظهرت الدعوة القرمطية في سواد الكوفة عام 264هـ، على إثر اللقاء الذي تم بين حسين الأهوازي، أحد دعاة الاسماعيلية، وحمدان بن الأشعث، الملقب بالقرمط، وفي هذا اللقاء قال الأهوازي لحمدان: (أمرت أن أشفي هذه القرية وأغني أهلها واستنقذهم وأملكهم أملاك أصحابهم)[1].

تتلمذ حمدان قرمط على يد حسين الأهوازي[2]، ثم استلم منه رئاسة الدعوة[3]. وإليه تنسب القرامطة[4]. وكان حمدان أكاراً بقاراً[5] من فقراء سواد الكوفة، عارفاً بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المزرية لأهل السواد ونقاط الشكوى التي كانوا يتذمرون منها.

انتشرت الدعوة القرمطية بين أوساط الفلاحين والعمال من أهل السواد، وأقبل على اعتناقها وتأييدها أعراب البادية المحيطة به. وكان اقتصاد السواد يعتمد أساساً على جهود الفلاحين والعمال[6]. وكان الفلاحون يئنون من ضغط الجباة واسراف الاقطاعيين في استغلالهم واستحواذهم على عائد كدحهم ـ فائض العمل. وقد وصف المقدسي معيشة فلاحي السواد بالبؤس والفاقة وذكر أن أغلبهم من النبط[7]. ومما زاد وضعهم سوءاً الخراب الذي خلفته حرب الزنج 255 ـ 270هـ. وأتت الجوائح على التناء (الزراع) ورقت أحوالهم ولم يجد الكثير منهم بداً من الفرار إلى المدينة والاشتغال بالمهن، كما استكان البعض الآخر للظلم على مضض وتحولت البقية

(1) المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا. تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال. ص 152 ـ 153. ثابت بن سنان: أخبار القرامطة ص 96.
(2) المصدر ذاته ص152.
(3) المصدر ذاته ص155. ثابت بن سنان: المصدر ذاته ص97.
(4) البغدادي: الفرق بين الفرق ص267.
(5) الطبري: تاريخ الرسل ج8 ص159. ابن النديم: الفهرست ص 187. ثابت بن سنان: تاريخ أخبار القرامطة تحقيق الدكتور سهيل زكار ص 10.
(6) المصدر ذاته ج8 ص204.
(7) المقدسي: أحسن التقاسيم ص 119.

الباقية إلى مجرد اجراء، وفي ذلك يقول مسكويه: (وصاروا بين هارب حال وبين مظلوم صابر لا ينصف وبين مستريح إلى تسليم ضيعته إلى المقطع ليأمن شره ويوافقه)[1]. لهذا كان السواد التربة الخصبة لغرس الأفكار القرمطية ونموها. واستطاع حمدان بذكائه ودهائه أن يكسب أهل السواد إلى دعوته[2]. وانتشرت الدعوة كذلك بين الحرفيين وعوام المدن[3]. وكان مستوى معيشة هذه الفئات منخفضاً، حتى إن الدمشقي يصفهم بأنهم أكثر الأحرار فقراً[4]. وكان عمال المدن أكثر وعياً بالمسألة الاجتماعية، لما انطوت عليه طبيعة العمل بالمهنة الواحدة من ترابط وتماسك، وبحكم تجمع المهن والصناعات بمكان واحد في المدينة وتنامي الشعور بوحدة مصالحهم الطبقية. لذا سعى القرامطة لكسب العمال إلى جانبهم وتنظيمهم واختيار النشطاء منهم دعاة في نشر الدعوة.

وفشت الدعوة أيضاً بين أعراب البوادي المتاخمة للكوفة، حيث كانوا مضرب الأمثال في الفقر، فلما قال بدوي: الغناء زاد المسافر، علق عليه بعضهم بأنه يقول ذلك لأنه لا يعرف خبز السميد ولا شواء باب الكرخ ببغداد ولا الخضر والفالوذج المصري[5] ولهذا استجاب العبيد وجفاة الأعراب في بادية السماوة لدعاة القرامطة[6]. وذكر المقريزي: ودخل في دعوة حمدان من العرب طائفة، فنصب منهم دعاة، ولم يتخلف عنه رفاعي ولا ضبعي، ولم يبق من البطون المتصلة بسواد الكوفة بطن إلا دخل في الدعوة منه ناس كثير أو قليل من بني عباس وذهل وعنزة وتيم الله وبني ثعل وغيرهم من بني شيبان فقوي قرمط[7].

ولما رأى حمدان اقبال الناس على دعوته ودخولهم في المذهب الجديد، رتب لهم نظاماً يضمن نجاح الحركة وسيرها حثيثاً ويكون لهم دستوراً يرجعون إليه عند الحاجة.

---

(1) تجارب الأمم ج2 ص99.

(2) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص 155.

(3) الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص178.

(4) الدمشقي: الاشارة إلى محاسن التجارة ص43.

(5) البغدادي: الفرق بين الفرق ص 94. أبو المطهر، محمد بن أحمد الأزدي: حكاية أبي القاسم البغدادي ص92.

(6) الطبري: تاريخ الرسل ج8 ص214 ـ 5.

(7) اتعاظ الحنفا ص 156. ثابت بن سنان: المصدر ذاته ص97 ـ 8.

بدأ حمدان يأخذ ضريبة بسيطة من جميع الاتباع باسم (الفُطْرَة) وقدرها درهم على الرجل أو المرأة أو الطفل[1]. وكان القرامطة ملزمين بدفعها بالتضامن يساعد الغني منهم الفقير[2]، ولما وجد استجابة تامة من أتباعه، فرض ضريبة أخرى سماها (الهجرة) وقدرها دينار كان يؤديه كل بالغ وبالغة لينفق في محله على حاجات (دار الهجرة) فكانوا يؤدونها عن طيبة خاطر حتى إذا عجز أحدهم عن تأديتها أداها عنه غيره راضياً مسروراً[3]. وذكر المؤرخ أخو محسن، وحديثه مذكور في كتاب النويري، أن حمدان بعد أن بنى (دار الهجرة) ورتب أمورها عرض على من أحب ممن دخل في دعوته أن يؤدي ضريبة أخرى سماها (السُلْغَة) وقدرها سبعة دنانير يدفعها كل من أراد أن يشارك في (عشاء المحبة) وهي أكلة لذيذة قال لهم حمدان إنها طعام أهل الجنة كان يأتيه من الإمام تواً[4]. وبعد ذلك دعا أتباعه أن يؤدوا لدار الهجرة (خمس) ما كانوا يملكون أو يكتسبون فلبوا دعوته راضين ثم قوموا جميع ما يملكون ودفعوا عنه الخمس فرحين حتى كنت ترى المرأة تقدم للداعي خمس ما تغزل والرجل خمس ما يكسبه[5]. وأخيراً فرض عليهم (الألفة)[6]. وهو أن يحملوا إلى محل واحد كل ما يملكون، فلما جمعوه جعله مشاعاً بين الأعضاء يتولى توزيعه بالتساوي رجل منهم ذو ثقة[7]. وأقام الدعاة في كل قرية رجلاً مختاراً من ثقاتها يجمع عنده أموال أهل قريته من بقر وغنم وحلي ومتاع وغيره ثم يوزعه على سائرهم حسبما يكفيهم، كما ينفق منه على المحتاجين من القرامطة حتى لم يبقَ فيهم فقير أو محتاج. فكنت ترى الرجال منهم يشتغلون برغبة ونشاط ليكون لهم الفضل في رتبتهم والنساء يحملن إلى (بيت الجماعة) ما كن يكسبنه من المال بالغزل والأولاد الصغار أنفسهم كانوا يقدمون إلى مدير البيت ما كانوا يأخذونه أجرة نظارتهم للطير من أصحاب البساتين الذين كانوا يحرسونها في النهار ويطيرون الطير من أشجارها وبقولها حتى لم يعد

---

(1) المصدر السابق ص156، النويري: نهاية الأرب ج23 ص58. ثابت بن سنان: أخبار القرامطة ص 98.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) نفس المصدر والصفحة.
(4) نفس المصدر والصفحة. ثابت بن سنان: المصدر ذاته، ص98.
(5) نفس المصدر ص157. ثابت بن سنان: المصدر ذاته ص98 ـ 9.
(6) النويري: نفس المعطيات: المقريزي، نفس المعطيات. ابن سنان: المصدر ذاته ص99.
(7) المقريزي: نفس المعطيات. ابن سنان. المصدر ذاته ص99.

أحد يملك لنفسه إلا سيفه وسلاحه[1]. وهكذا يتبين أن حمدان اعتقد أن سبب التذمر هو الشقاء المادي والحطة الاجتماعية وأنه لا يمكن تحقيق المساواة الاجتماعية دون المساواة المادية، وخير وسيلة لذلك، في نظره، هي اشتراكية المال[2].

وقد تمت هذه التدابير سنة 276هـ[3]. وطالبهم بشراء السلاح واعداده[4]. ثم جمع الدعاة وقرروا اختيار محل ليكون دار ولاية ووطناً لهم و(دار هجرة) يجتمع فيها بأوقات معلومة كل من كان يدخل في الدعوة من أهل القرى لاستماع مواعظ حمدان والنظر في الأحوال الاقتصادية والاجتماعية لمن قبل الدعوة وتبليغهم ما كان حمدان يتلقاه من «إمام الزمان» وأعوانه من الأوامر والأخبار. فاختاروا سنة 277هـ قرية (مهتماباذ) من ضياع السلطان في سواد الكوفة[5]. ونقلوا إليها الأحجار وأحاطوها بسور قوي وانشأوا فيها بناية واسعة فلجأ إليها عدد كبير من الرجال والنساء من مختلف المناطق[6]. وقوي بها جانبهم[7].

يتبين مما تقدم أن التدابير المالية التدريجية التي فرضها حمدان على أتباعه، انتهت إلى انشاء أول مجتمع مشاعي على أسس مادية في تاريخ الاسلام، مجتمع خال من الطبقات والاستغلال والظلم والتمييز والحقد، مجتمع عاش فيه جميع أفراده، رجالاً ونساء، متساوين ومتآلفين، واختفت الفوارق الاجتماعية داخل المجتمع المشاعي القرمطي الصغير، حيث لم يبق فيه محتاج أو فقير. وأصبح اخلاص الفرد في العمل وما يقدمه من عطاء وخدمات للجماعة هو الذي يحدد مركزه في مجتمع الألفة.

وعندما أتم حمدان مهمته في سواد الكوفة، انتقل إلى (كلواذى) قرب بغداد من جهتها الشرقية، فأقام هناك يعمل على نشر الدعوة الاسماعيلية، وليكون على صلة

---

(1) المقريزي نفس المعطيات. النويري، نفس المعطيات. ابن سنان: المصدر ذاته ص99.
(2) الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص76.
(3) المقريزي: نفس المعطيات. النويري: نفس المعطيات.
(4) المقريزي نفس المعطيات.
(5) المقريزي: المصدر ذاته ص158. ابن سنان: المصدر ذاته ص100.
(6) المصدر ذاته ص158. النويري: المصدر ذاته ص69. ابن سنان. المصدر ذاته ص100.
(7) عبد الفتاح عليان: قرامطة العراق. المقريزي: نفس المعطيات. ابن سنان المصدر ذاته ص100.

بدعاة اسماعيليين أعلى منه درجة يقيمون وقتذاك في عسكر مكرم والطالقان، وليراقب في الوقت نفسه، مجرى السياسة في بغداد عن كثب[1].

أظهر حمدان في حسن اختياره للدعاة ذكاء ومهارة لا يقلان عن مقدرته الفائقة في عمله التنظيمي الحزبي. وقد لعب الدعاة القرامطة دوراً نشيطاً في نشر الدعوة الاسماعيلية في العراق ومنطقة الخليج واليمن وبلاد الشام وغيرها من بلدان الخلافة.

أخذت الدعوة الاسماعيلية بالتوسع والانتشار حتى بلغت جنوب الجزيرة العربية حيث تأسست خلية اسماعيلية قوية على يد (ابن حوشب) أصبحت تناوىء بعد قليل من الزمن عمال السلطة المركزية. وفي سنة 293هـ عرفت حكومة بني العباس أن الاسماعيليين غلبوا على سائر مدن اليمن[2]. وتكونت بمساعي أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنَّابي خلية اسماعيلية في جنوب غربي إيران[3]. وبعد أن اكتشفت الشرطة نشاطه هرب واختفى ثم استدعاه حمدان لمقابلته في (كلواذى) ووقف على مدى حماسه للدعوة فوجهه إلى البحرين حيث لاقى نجاحه الأكبر[4]. وفي شمال غربي العراق وبلاد الشام، تمكن فريق من الدعاة القرامطة من القيام بنشاط كبير[5]. وفي المغرب تأسست خلية اسماعيلية حيث كان يعمل الداعي أبو عبيدالله الحسين بن أحمد، فعظم شأنه واستقام له أمر البربر وعامة كتامة[6].

وكان عبدان، قريب حمدان وصهره، من أبرز دعاة القرامطة وأكثرهم نشاطاً واخلاصاً لمبادىء الاسماعيلية وأهدافها. فهو منظر القرامطة وعقلها المفكر. يصفه ابن النديم بقوله: هو أكثر القرامطة كتباً وتصنيفاً[7]. وعبدان هذا هو الذي عين زكرويه بن مهرويه داعياً في العراق وأبا سعيد الجنابي في جنوب غرب ايران[8].

أخذت هذه الخلايا تنمو وتتسع حتى عمت أكثر البلاد الاسلامية. وكانت كلها

---

(1) ابن النديم: الفهرست ص165.
(2) الطبري: تاريخ الرسل ج8 ص242. ابن الأثير: الكامل 6 ص115.
(3) ابن النديم: الفهرست ص188.
(4) الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص 166.
(5) عليان. محمد عبد الفتاح: قرامطة العراق ص 85 ـ 6.
(6) ابن الأثير: الكامل ص 137 ـ 138.
(7) ابن النديم: الفهرست ص 189.
(8) د. بندلي جوزي صليبا: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ج1 ص126.

ترمي إلى غرض واحد وتعمل تحت مراقبة دعاة محنكين مدربين ممن كانوا يستمدون قواهم الروحية من دعاة أعظم منهم. فلا عجب إذا عظم أمر هذه الدعوة وأقبل الناس عليها من كل جانب حتى من بغداد حيث دخل فيها جماعة كبيرة من أصحاب الطبقات العالية[1] كان القرامطة يعتمدون عليهم عند الملمات وكانوا لهم عيوناً على الحكومة المركزية التي لم تكن تعرف من أمر هؤلاء الخوارج إلا الشيء القليل، ولم تكن تشعر بالخطر الذي أخذ يحدق بها ويتهدد كيانها إلى أن دخلت سنة 378هـ/ 891م، فخرجت الاسماعيلية من خفائها وأخذت تستعد لمهاجمة عدوها الأكبر[2].

ومع أن القاعدة الاجتماعية لأتباع الاسماعيلية كانوا من الفلاحين والعملة والحرفيين وعوام المدن والبدو الذين كانوا يؤيدون كل تغيير في سياسة الخلافة من شأنه أن يحسن أحوالهم، فقد كانت الدعوة عامة أثرت في جميع الطبقات والأصناف، حتى دخل فيها جماعة كبيرة من علية القوم كما تقدم. قال المعري:

كيف لا يشرك المضيقين في النعمة ... قوم عليهم النعماء

وقال أيضاً:

يقال إن زماناً يستقيد لهم ... حتى يبدل من بؤس بنعماء[3]

استغل القرامطة الاسماعيليون انشغال الخلافة بمواجهة الاضطرابات الداخلية ومشاكلها الكثيرة المتعبة[4]، وبدأوا يتسلحون ويستعدون لمهاجمة عدوهم. ففي عام 284هـ/ 897م حاول قرامطة سواد الكوفة لأول مرة تحقيق برنامجهم الثوري فلم يوفقوا إلى ذلك، فاضطروا إلى ارجاء عملهم لفرصة أخرى. وشرعوا بمراقبة خصمهم وبث العيون عليه. ثم ثاروا في أعوام 287هـ/ 890م و288هـ/ 891م و289هـ/ 892م[5]. وقاوموا عماله في الأقاليم البعيدة عن العاصمة، لكنهم لم ينجحوا في معركة من المعارك لأن عدوهم كان لم يزل أقوى منهم. وكان على رأس الخلافة ملك مقدام شجاع[6]، وهو الخليفة المعتضد (279 ـ 289هـ / 892 ـ 902م) الذي

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل ج8 ص190.
(2) نفس المصدر ج8 ص159 ـ 160.
(3) د. طه حسين. وابراهيم الأبياري: شرح لزوم ما لا يلزم للمعري ص 137.
(4) الطبري: تاريخ الرسل ج8 ص159.
(5) نفس المصدر ج8 ص201، 206، 207، 214.
(6) ابن الأثير: الكامل ج6 ص101. السيوطي: تاريخ الخلفاء ص 268 ـ 9.

ظل يقاوم الاسماعيلية وينكل بالقرامطة ويرد شرهم عن دولة أجداده إلى أن توفي سنة 289هـ.

وقد تعرض القرامطة إبان نضالهم ذاك إلى أعمال البطش والتنكيل الوحشية من قبل السلطة. ففي عام 287هـ، أوقع بدر غلام الطائي، والي الكوفة، بالقرامطة على غرة منهم بنواحي رود ميسان وغيرها، فقتل منهم مقتلة عظيمة ثم توقف عن التنكيل خوفاً على السواد أن يخرب، إذ كانوا فلاحيه وعماله[1]. وفي عام 289هـ، انتشر القرامطة بسواد الكوفة فوجه إليهم شبل غلام أحمد بن محمد الطائي فقبض على من ظفر منهم وكان بينهم رئيس لهم يعرف بـ /ابن أبي الفوارس) وحملوا إلى باب السلطان بحيث عذبوا ونكل بهم وأمر المعتضد بقلع أضراس ابن أبي الفوارس ثم خلعت إحدى يديه ببكرة وعلق في الأخرى على صخرة وترك على حاله تلك من نصف النهار إلى المغرب، ثم قطعت يده ورجلاه وضربت عنقه ثم صلب مع غيره من القرامطة[2].

أفاد القرامطة من ضعف المكتفي (289 ـ 295هـ / 902 ـ 908م)، الذي خلف المعتضد، فأعادوا الكرة على عدوهم وانصبوا عليه من كل جانب، من الشام والعراق ومن البحرين واليمن حتى لم يعد في وسع الحكومة المركزية أن تراقب حركات الاسماعيلية في كل الجهات وتخمد ثوراتها في الولايات البعيدة فصارت هذه تنفصل عن خلفاء بغداد وتؤلف دويلات مستقلة.

وفي بادية السماوة وبلاد الشام، تزعم الثورة زكرويه بن مهرويه[3] وأهل بيته (289 ـ 294هـ)، حيث لجأ أولاده إلى استغلال الأوضاع الاجتماعية السيئة في بادية السماوة لجذب الناس إليهم، فأثاروا الفقراء على الأغنياء مما أدى إلى حدوث اضطرابات اجتماعية. يؤيد ذلك ما رواه الطبري من أن الملقب بالشيخ، أبو القاسم يحيي بن زكرويه، قد حمل بني العلَّيص على أسيادهم فقتلوا جماعة منهم واستذلوهم[4]. وألحقوا بجيوش الخلافة الهزيمة في ناحية الرصافة سنة 289هـ[5].

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل ج8 ص204.

(2) المصدر ذاته ص207.

(3) من قرية بسواد الكوفة وأحد دعاة حمدان.

(4) المصدر ذاته ص215.

(5) المصدر ذاته ص214.

وتوالت انتصارات القرامطة في بلاد الشام التي كانت وقتذاك تحت سلطة الطولونيين. وقد بلغ هؤلاء درجة من الضعف بحيث عجزوا عن الوقوف في وجه القرامطة ووضع حد لنشاطهم في ذلك الاقليم. ويروي الطبري أن القرامطة هزموا جيوش طُغْج بن جُف، والي الشام ثم حاصروا دمشق. ولما طالت مدة الحصار اضطر جف إلى طلب النجدة من مصر فأنفذ المصريون إليه بدراً الحمامي، غلام ابن طولون، فتمكنوا من الحاق الهزيمة بالقرامطة وقتل يحي بن زكرويه[1]. ولكن هزيمة القرامية عند باب دمشق لم تكن حاسمة. وفي البحرين[2] لم يكد أبو سعيد الجنابي يطأ أرضها عام 274هـ ويشرع في بث أفكار القرامطة حتى أخذ يلتف حوله أهل المدن والفلاحون الفقراء وأعراب البادية الناقمون على الظلم الاقطاعي والتعسف الحكومي. ودعا أتباعه على اختلاف قومياتهم وأديانهم إلى المؤاخاة والمحبة ووعدهم بالسعادة.

وكانت بلاد البحرين، بالإضافة إلى شهرتها العالمية بتجارة اللؤلؤ الذي يستخرج من سواحلها، من أخصب مناطق شبه الجزيرة العربية. وعلى الرغم من غنى مواردها الاقتصادية والطبيعية فإن جماهير الفلاحين والعملة والحرفيين والعبيد وأصحاب البيوعات الصغيرة وأعراب بواديها كانوا يئنون من وطأة الضرائب ويتذمرون من الضيق الاقتصادي والاضطهاد. ويذكر قدامة بن جعفر بأن الخراج السنوي لهذه البلاد بلغ عام 237هـ خمسمائة ألف دينار[3]. وبذلك يكون خراج هذه المنطقة أكثر من خراج دمشق والبصرة والكوفة وأرمينيا[4]. والخراج على الأرض، والأرض يعمل فيها الفلاحون والعملة، وبالتالي فإن عبء الخراج كان يقع على الجماهير العاملة. مما يفسر أحد العوامل الرئيسة لتذمر الطبقات الشعبية.

ركز الدعاة القرامطة بث أفكارهم في أوساط الفئات المتذمرة من سكان البلاد. ويصف لنا المقريزي هوية الأشخاص الذين استجابوا إلى دعوة أبي سعيد الجنابي بقوله:

(وأول من أجابه الحسن بن سنبر في قوم ضعفاء ما بين قصاب وحمال وأمثال

(1) المصدر السابق ص215. ثابت بن سنان: المصدر ذاته ص19.
(2) يقصد ببلاد البحرين: القطيف والاحساء والبحرين الحالية.
(3) ابن جعفر، قدامة: كتاب الخراج وصنعة الكتابة ص 249.
(4) د. ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية 529 ـ 530.

ذلك)[1]. ويستنتج من قول المقريزي أن الحرفيين الكادحين كانوا أول من انضم إلى صفوف الحركة القرمطية في منطقة البحرين.

وكسب الدعاة أيضاً أعراب البادية إلى حركتهم الثورية من خلال استجابتهم للحاجات الأساسية لهذه الفئات الفقيرة البائسة من الناس البسطاء، وحل مشاكلهم المادية والاجتماعية بوعدهم بإلغاء الضرائب الثقيلة عليهم وتحسين ظروف حياتهم. وهذا ما جعل القبائل تتفاعل مع الحركة القرمطية التي جسدت مصالحهم. ويذكر المقريزي (أن أبا سعيد دعا العرب فأجابه بنو الأضبط من كلاب، وساروا إليه بحرمهم وأموالهم فأنزلهم الاحساء... ولما اجتمع إليه العرب مناهم ملك الأرض كلها)[2].

هذا ومن العوامل التي ساعدت على انتشار أفكار القرامطة ونجاح حركتهم: تذمر الطبقات الشعبية وانخراطها في الدعوة، وطرح برنامج اجتماعي ثوري تتعزز من خلاله الرؤية الطبقية لاستقطاب كافة الفئات المظلومة والمضطهدة من الحكم العباسي، وامتلاك الدعاة لخبرات نضالية وتجارب ثورية في التنظيم الحزبي السري الدقيق والبناء الداخلي للمجتمع الجديد، والإفادة من الفكر الفلسفي الاجتماعي الاسماعيلي، وإخلاص الدعاة وتفانيهم وأمانتهم في التطبيق الدقيق والصارم لمبادىء الاسماعيلية.

وعندما أدرك أبو سعيد الجنابي أن الظروف الموضوعية والذاتية مهيئة وملائمة لاعلان الثورة الشعبية، خرج على السلطة عام 286هـ[3]. فاستولى على القطيف والاحساء والبحرين، ولم يبق في طاعة الخليفة إلا هجر، عاصمة البلاد ومركز التجارة والأغنياء، وبعض القرى المجاورة لها[4]، التي سقطت بيد الثوار عام 290هـ بعد حصار عسكري واقتصادي دام نيفاً وعشرين شهراً[5].

شرع أبو سعيد، عقب نجاح ثورته، في بناء المجتمع القرمطي وهيئات السلطة الشعبية، ويصف المقريزي أعمال أبي سعيد بقوله: (أقبل أبو سعيد على جمع الخيل وإعداد السلاح، ونسج الدروع والمغافر، واتخاذ الابل، واصلاح الرحال، وضرب

---

(1) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص 160.

(2) نفس المصدر والصفحة.

(3) الطبري: تاريخ الرسل ج8 ص196. ثابت بن سنان: المصدر ذاته ص13.

(4) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص160.

(5) المصدر ذاته ص161.

السيوف والأسنة، وتعليم الصبيان الفروسية، وسد الوجوه التي يتعرف منها أمر بلده وأحواله بالرجال، وإصلاح أراضي المزارع وأصول النخيل، وإصلاح مثل هذه الأمور وتفقدها، ونصب الأمناء على ذلك وأقام العرفاء على الرجال، واحتاط على ذلك كله، حتى بلغ من تفقده أن الشاة إذا ذبحت يتسلم العرفاء اللحم ويفرق على من ترسم له، ويدفع الرأس والأكارع والبطن إلى العبيد والأماء، ويجز الصوف والشعر من الغنم ويفرقه على من يغزله، ثم يدفعه إلى من ينسجه عبياً وأكسية وغرائر وجولقات ويفتل منه حبال، ويسلم الجلد إلى الدباغ، ثم إلى خرازي القرب والروايا والمزاد، وما كان من الجلود يصلح نعالاً وخفافاً عمل منه، ثم يجمع كله إلى خزائن، يقصد خزائن الدولة)[1].

يمكن الاستنتاج من نص المقريزي أن أبا سعيد ركز اهتمامه على احداث تحولات اقتصادية واجتماعية وسياسية لمصلحة الجماهير العاملة، وبناء قاعدة مادية تعزز الجذور الطبقية للنظام القرمطي وتؤمن الاحتياجات الأساسية للجماهير لتشدها، أكثر فأكثر إلى التفاعل والتلاحم وهذا النظام الديمقراطي الاشتراكي الشعبي. كما أولى أبو سعيد اهتمامه إلى إنشاء جيش شعبي، وتسليح عناصره وتعليمها وتدريبها على فنون الحرب والقتال للذود عن مكاسب الثورة ومواصلة النشاط العسكري الثوري من أجل تحقيق مبادىء الاسماعيلية وأهدافها في القضاء على الخلافة العباسية وتشييد دولة جديدة لا طبقات فيها ولا استغلال بل مساواة وعدل ومحبة وسلام. لهذا شن القرامطة حروبهم التحريرية الطبقية ضد الخلافة العباسية والدولة البويهية والفاطمية، وبرز خلال هذه الحروب قادة عسكريون ثوريون بارزون كأبي سعيد، وأبي طاهر، والحسن الأعصم القرمطي.

حاصر أبو سعيد هجر، عاصمة بلاد البحرين، بقسم من جيشه ثم زحف منها إلى البصرة عام 289هـ واتصل بالخليفة المعتضد خبره، فخاف منه على عين العراق وميناثها الأكبر على شط العرب والخليج فأنفذ عباس الغنوي في عشرة آلاف مقاتل لمحاربة القرامطة وأقطعه اليمامة والبحرين[2].

توجه الغنوي بجيشه إلى البصرة وانضم إليه جمع كثير من المتطوعة والجند

---

(1) المصدر السابق ص164.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية؛ ج11 ص83.

والخدم[1]. التقى الجيشان قرب البصرة وحلت الهزيمة بجيش الخليفة وتبددت عساكره وأسر قائده الغنوي[2]. ثم أطلق أبو سعيد سراح عباس وأرسله إلى الخليفة ليبلغه ما كان من أمر جيشه وبأس القرامطة ومعه الكتاب الهام التالي:

(ما هذا؟ أتخرق هيبتك وتقتل رجالك وتطمع أعداءك في نفسك وتتعبها في طلبي بانفاذ الجيوش إلي وأنا رجل مقيم في فلاة، لا زرع عندي ولا ضرع ولا غلة ولا بلد، وقد رضيت بخشونة العيش والأمن على المهجة والعز بأطراف الرماح. وانظر فإني ما اغتصبتك بلداً كان في يدك ولا أزلت سلطانك عن عمل جليل. ومع هذا فوالله لو أنفذت إليّ جيشك كله ما جاز أن تظفر بي ولا تنالني لإني رجل نشأت في هذا القشف فتعودته أنا ورجالي فلا مشقة علينا فيه ونحن في أوطاننا مستريحون وأنت تنفذ جيشك من الحرير والثلج والرياحين والنديم ثم يجيئون من مسافة بعيدة وطريق شاق فيصلون إلينا وقد قتلهم السفر قبل قتالنا وإنما غرضهم أن يبلوا[3] عذراً في قتالنا ومواقعتنا ساعة ثم يهربون، فإن ثبتوا مع ما لحقهم من وعثاء السفر وشدة الجهد التي هي أكثر أعواني عليهم فما هو إلا أن أحقق عليهم حتى ينهزموا. وأكثر ما يقدرون عليه أن يجيئوا فيستريحوا ثم تكون عدتهم كثيرة وبصيرتهم قوية فحينئذ لا يكون لي بهم قبل فأنهزم فلا يقدر جيشك أن يتبعني إلا مسافة قريبة فما هو أن أبعد عشرين فرسخاً أو ثلاثين وأجول في الصحراء شهراً أو شهرين ثم اكبسهم على غرة فاقتل جمعهم وإن لم يتم لي هذا وكانوا متحرزين فما يمكنهم أن يطوفوا حولي وخلفي في البراري ولا يتبعني الطلب في البوادي ثم لا يحملهم البلد في المقام ولا الزاد إن كانوا كثيرين فلا بد أن ينصرف الجمهور ويبقى الأقل منهم قتلى سيوفي أول يوم نلتقي فيه، هذا إن سلموا من وباء هذه الناحية ورداءة مائها وهوائها الذي لا طاقة لهم به، لأنهم نشأوا في ضده وربوا مع غيره ولا عادة لأجسامهم بالصبر عليه، ففكر في هذا ونحوه، وانظر هل يفي تعبك وتغريرك بعسكرك وجيشك وإنفاقك الأموال وتجهيزك الرجال وتكلفك هذه الأخطار وتحملك المشاق بطلبي، وأنا مع هذا خالي الذرع منها سليم النفس والأصحاب. وأما هيبتك فتخرق. وأما الأطراف فتنتفض وأما ملوك من الأعداء فتتجاسر كلما جرى عليك من هذا شيء ثم لا تظفر من بلدي بطائل

(1) ابن الأثير: الكامل ج6 ص94.

(2) نفس المصدر ص95: المقريزي؛ اتعاظ الحنفا ص 162.

(3) يبدوا: في فرج الشدة.

ولا تصل مني إلى حال ولا مال. فإن اخترت بعد هذا محاربتي فاستخر الله تعالى وأقدم على بصيرة، وانفذ من شئت واضطرب كيف أحببت وإن أمسكت فذلك إليك)[1].

فلما قرأ الخليفة كتاب أبي سعيد امتعض وأراد أن يزحف عليه بنفسه إلا أن أوضاع الخلافة آنذاك وعلى الأخص اضطراب الجيش وانشغال المعتضد بأمر وصيف غلام ابن أبي الساج[2] وتدهور المالية اضطرته إلى قبول نصيحة خصمه فتركه وشأنه، وهذا كل ما كان يرجوه أبو سعيد، فإنه انتهز هذه الفرصة النادرة واستولى على هجر بعد حصارها مدة نيف وعشرين شهراً[3]. ثم صار كل إقليم البحرين في يده سنة 290هـ/ 903م[4] وأخذ يستعد للاستيلاء على البلاد المجاورة لبلاد البحرين، وبث دعوته فيها. فزحف إلى اليمامة وضمها إلى بلاده، وتوجه إلى عمان فاستولى على قسم كبير منها ومن الجزر التابعة لها[5]. ولولا اغتياله في الحمام عام 301هـ/ 914م، نتيجة مؤامرة عهد بتنفيذها إلى خادم كان قد أخذه من عسكر العباس الغنوي، لضمها كلها وأكثر منها وألف منها جمهورية عربية اشتراكية كبيرة[6].

استلم أبو طاهر سليمان، أحد أبناء أبي سعيد، رئاسة المجلس العقداني عام 305هـ[7] وانتخب قائداً عاماً للجيش عام 310هـ. وكان أبو طاهر رجلاً شهماً شجاعاً[8]. اشتهر بعلو الهمة وبعد النظر والثبات في القتال. وسار على خط والده في تحقيق أهداف الاسماعيلية. فقاد حملات كثيرة زحف بها إلى البصرة والكوفة تارة، وإلى الغرب أي إلى الحجاز تارة أخرى. وكان في كل غزواته مظفراً حتى صار

---

(1) مؤلف مجهول: كتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق. تحقيق عمر السعيدي دمشق 1972ج 4 ص94 ـ 95. مسكويه: تجارب الأمم ج7 ص5 نقلاً عن بندلي جوزي: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ج1 ص130 ـ 131.. التنوخي: الفرج بعد الشدة ج1 ص98 ـ 99. ابن الجوزي: المنتظم ج5 ص134.

(2) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص163.

(3) المصدر ذاته ص161 ـ 162.

(4) د. بندلي جوزي صليبا: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ج1 ص131.

(5) نفس المصدر والصفحة. أخبار القرامطة: جمع وتحقيق ودراسة الدكتور سهيل زكار ص 215، 337.

(6) نفس المصدر والصفحة.

(7) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص165.

(8) ابن الأثير: الكامل ج6 ص147.

الخليفة يخشى بأسه وأصبحت بغداد وسكانها يرتعدون عند ذكر اسمه أو اسم القرامطة. وانحدرت أخلاقية حكام الخلافة إلى الحضيض وأصبح بعضهم، إذا صح ما أشيع عنهم، يميلون إلى خصومهم ويتجسّسون لهم ويدسون لدولتهم الدسائس أو صار يرتاب في إخلاصهم للخليفة وللدولة. وعلى العكس من ذلك كان القرامطة مطيعين مخلصين لزعمائهم ولمبادئهم صامدين في القتال في وجه أعدائهم. وأصابت دعوتهم من النفوذ والانتشار درجة اقتحمت فيها على بغداد أسوارها وحواجزها. وكان قادة القرامطة يعرفون حقيقة الحال في عاصمة بني العباس بواسطة أتباعهم هناك الذين كانوا يرسلون لهم الأخبار مع الحمام الزاجل[1].

ففي عام 311هـ، دخل القرامطة بقيادة أبي طاهر البصرة ليلاً، ولم يشعر بهم عاملها إلا في السحر ولم يعلم أنهم القرامطة[2]. وفي عام 312هـ ألحق أبو طاهر الهزيمة بجيش الخلافة ودخل الكوفة[3]. وفي عام 315هـ، وردت الأخبار بمسير أبي طاهر من هجر نحو الكوفة فأمر الخليفة يوسف بن أبي الساج، عامله على أرمينيا وأذربيجان، بالمبادرة إلى الكوفة وكتب الوزير علي بن عيسى إلى والي الكوفة بإعداد الميرة والعلوفات لعسكر ابن أبي الساج[4].

رأى يوسف قائد جيش الخليفة قلة القرامطة فاحتقرهم واستخف بهم وقال: من هؤلاء الكلاب؟ هؤلاء بعد ساعة في يدي. وكتب كتاب الفتح والبشارة بالظفر قبل اللقاء تهاوناً بهم[5]. وعندما التقى الجمعان انهزم جيش الخليفة، الذي سبق له نهب قرى واسط وأذى أهلها، وأسر قائده ابن أبي الساج وعدد كبير من غلمانه[6] وورد خبر وقعة الكوفة وأسر يوسف إلى بغداد، فخاف الخاص والعام فيها من القرامطة خوفاً شديداً[7]. ودخلتهم لأبي طاهر هيبة عظيمة ورهبة شديدة[8]. وعزمت الجماعة

---

(1) عريب: صلة تاريخ الطبري ص 76.
(2) ابن الأثير: الكامل ج6 ص175.
(3) المصدر ذاته ص180.
(4) مسكويه: تجارب الأمم ج1 من القسم الأخير ص 173، ثابت بن سنان: المصدر ذاته ص46.
(5) المصدر ذاته ص174. ابن الأثير: الكامل ج6 ص186.
(6) المصدر ذاته ص174. ابن الأثير: الكامل ج6 ص187.
(7) ابن الأثير: الكامل ج6 ص187.
(8) مسكويه: المصدر ذاته ص175.

على الهرب إلى حلوان وهمذان، ودخل المنهزمون بغداد أكثرهم رجالة حفاة عراة[1].

أرسل الخليفة جيشاً آخر على رأسه قائده المحنك مؤنس المظفر ثم أتبعه بعسكر جرار بقيادة نصر الحاجب[2]. واجتمع جيش عباسي كثيف في نيف وثمانين ألف مقاتل[3]. فساروا حتى بلغوا نهر زبارا على بعد فرسخين من بغداد[4]. وعلى الرغم من تفوق الجيش الخليفي تفوقاً هائلاً في العدد والعدة على جيش أبي طاهر الذي كانت عدته ألفاً وخمسمائة رجل في رواية، وألفين وخمسمائة في رواية أخرى، فإنه لم يجرأ على عبور النهر ومهاجمة القرامطة مما يفسر مبلغ الهلع وانهيار معنويات الجيش الخليفي قيادة وجنوداً. فأشار أبو الهيجاء عبدالله بن حمدان، الذي صحب وأخوته أبا الوليد وأبا العلاء وأبا السرايا الجيش العباسي، بقطع القنطرة التي على نهر زبارا فقطعوها[5]. فسار أبو طاهر ومن معه يريدون بغداد[6]. وبلغوا نهر زبارا وفي طليعتهم رجل أسود، يقال له صبح، فما زال الأسود يدنو من القنطرة ونشاب السلطان يأخذه ولا يمتنع حتى أشرف عليها فرآها مقطوعة فعاد وهو مثل القنفذ[7]. وأراد القرامطة العبور فلم يمكنهم لأن النهر لم يكن فيه مخاضة. ولما أشرفوا على عسكر الخليفة هرب منهم خلق كثير إلى بغداد من غير أن يلقوهم[8]. لعظم ما تداخل القلوب من الرعب[9]. ولما عاد أبو طاهر إلى الأنبار لم يجرأ أحد من الجيش الخليفي أن يتبعه أو يصلح قنطرة زبارا أو يعبرها[10]. وكان ما أشار به أبو الهيجاء من قطع القنطرة توفيقاً من الله؛ فإنها لو كانت صحيحة لعبر أصحاب القرمطي عليها وما هالهم وفور عسكر السلطان ولانهزم جيش الخليفة وملك القرمطي بغداد[11].

---

(1) ابن الأثير: المصدر ذاته ص187. ثابت بن سنان المصدر ذاته ص 47.
(2) ابن الأثير: المصدر ذاته ص187.
(3) المصدر ذاته ص188.
(4) نفس المصدر والصفحة. ثابت بن سنان: المصدر ذاته ص48.
(5) المصدر ذاته ص187.
(6) غريب: صلة تاريخ الطبري ص 92.
(7) ابن الأثير: المصدر ذاته، ثابت بن سنان: المصدر ذاته ص48.
(8) نفس المصدر والصفحة.
(9) مسكويه: تجارب الأمم ج1 من القسم الأخير ص 177. ثابت بن سنان. المصدر ذاته ص48.
(10) نفس المصدر والصفحة.
(11) نفس المصدر والصفحة.

ولما علم الخليفة المقتدر (295هـ ـ 320هـ / 908 ـ 932م) بعدة عسكره وعسكر القرامطة قال: (لعن الله نيفاً وثمانين ألفاً يعجزون عن الفين وسبعمائة)[1].

كان انتصار القرامطة على جيوش الخليفة في أكثر المواقع نتيجة اجتماع كلمتهم وثباتهم في القتال المتوقف على اعتقادهم الراسخ في صحة ما يقاتلون من أجله فضلاً عن أنهم كانوا أشد بأساً وأثبت جناناً وأقوى على احتمال مشقات الحرب من جنود الخليفة الذين اعتادوا (الراحة والثلج والرياحين والنديم) كما قال عنهم أبو سعيد الجنابي في رسالته السابقة[2] إلى الخليفة المعتضد. ذكر ابن مسكويه أن أحدهم سأل يوماً قرمطياً عن السبب في سرعة هزيمة جيوش الخليفة وثباتهم هم، فأجابه قائلاً: (إن أصحاب السلطان يقدرون أن السلامة في الهرب فيقدمونه ونحن نقدر أن السلامة في الصبر فنثبت ولا نبرح)[3]. وذكر ابن الأثير أن شخصاً جاء إلى علي بن عيسى وزير المقتدر وأخبره أن في جيرانه رجلاً من شيراز على مذهب القرامطة يكاتب أبا طاهر بالأخبار فأحضره وسأله فاعترف قائلاً: ما صحبت أبا طاهر إلا لما صح عندي أنه على الحق وأنت وصاحبك كفار مبطلون تأخذون ما ليس لكم ولا بد لله في أرضه من حجة وأمام عدل وإمامنا المهدي. . . . فقال له الوزير: قد خالطت عسكرنا وعرفتهم فمن فيهم على مذهبك؟ فأجابه قائلاً: (وأنت بهذا العقل تدبر الوزارة كيف تطمع مني أنني أسلم قوماً مؤمنين إلى قوم كافرين يقتلونهم؟. لا أفعل ذلك أبداً فأمر به فضرب ضرباً شديداً وقيده وغله بغل ثقيل وجعل في فمه سلسلة وسلمه إلى نازوك وحبسه في المطبق ومنع الطعام والشراب عنه فمات بعد ثلاثة أيام حسب رواية ابن الأثير وثمانية أيام حسب رواية ابن مسكويه)[4].

أما العاصمة بغداد، فكانت تسودها حالة من الفزع والرعب يوم قصد أبو طاهر زبارا، يصفها ابن مسكويه قائلاً: واكترى كثير من أهل بغداد سفناً ونقلوا إليها أموالهم وربطوها لينحدروا إلى واسط، وفيهم من نقل متاعه إلى واسط وإلى حلوان

---

(1) ابن الأثير: المصدر ذاته ص188. ثابت بن سنان: المصدر ذاته ص 49 ـ 50.

(2) انظر ص 336،

(3) ابن مسكويه: المصدر ذاته ص179.

(4) ابن الأثير: المصدر ذاته ص188. ابن مسكويه المصدر ذاته ص181 ـ 182، ابن سنان: المصدر ذاته ص50.

ليسيروا إلى خراسان[1]. ولم يكن عند أحد من الخواص والعوام شك في أن القرمطي يملك بغداد[2]. وأعلن الوزير علي بن عيسى حظر التجول ليلاً، وأمر نازوك أن يطوف هو وأصحابه ليلاً ونهاراً ومن وجدوه بعد العتمة قتلوه[3]. وأغلق أهل باب المحوّل ونهر طابق والقلائين وغيرهم دكاكينهم وتحرز الناس فنقلوا أمتعتهم إلى منازلهم فانجحر العيارون وسلمت بغداد من نهبهم[4].

شجعت انتصارات أبي طاهر على جيوش الخليفة ووصوله إلى نهر زبارا قرب بغداد العاصمة، قرامطة العراق على الخروج وإعلان الثورة على الخلافة من جديد عام 316هـ. فقد اجتمع من كان بالسواد ممن يعتقد مذهب القرامطة فيكتم اعتقادهم خوفاً فأظهروا اعتقادهم، واجتمع منهم بسواد واسط أكثر من عشرة آلاف ثائر بزعامة حريث بن مسعود، كما ثارت طائفة أخرى منهم بعين التمر ونواحيها بزعامة عيسى بن موسى وكانوا يدعون للمهدي[5]. وزحف عيسى إلى الكوفة ونزل بظاهرها وجبى الخراج وصرف العمال عن السواد[6]. وسار حريث بن مسعود إلى أعمال الموفقي وبنى بها داراً سماها (دار الهجرة)[7]. وتمكن الثوار القرامطة من الانتصار على جيوش الخلافة في مطلع انتفاضتهم ولكنهم هزموا أخيراً وأسر منهم كثير وقتل أكثر ممن أسر[8]. وأخذت أعلامهم وكانت بيضاء كتب عليها (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين)[9].

عاد أبو طاهر مع جيشه الصغير مظفراً إلى بلاده مكتفياً بما أصابه من الغنائم وبما وضعه من ضرائب وإتاوات على المدن والقبائل التي كان يمر بها في طريقه إلى عاصمة البحرين[10].

---

(1) ابن مسكويه المصدر ذته ص 180. ثابت بن سنان، المصدر ذاته ص49.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) ابن الأثير: المصدر ذاته ص188. ثابت بن سنان المصدر ذاته ص49.
(4) ابن مسكويه المصدر ذاته ص179.
(5) ابن الأثير: المصدر ذاته ص194. ثابت بن سنان: المصدر ذاته ص53.
(6) نفس المصدر والصفحة. ابن سنان: المصدر ذاته ص53.
(7) نفس المصدر والصفحة. ابن سنان: المصدر ذاته ص53.
(8) نفس المصدر والصفحة. ابن سنان: المصدر ذاته ص53.
(9) نفس المصدر والصفحة. والسورة القرآنية هي سورة القصص 28: 5.
(10) ابن مسكويه: نفس المصدر ص182.

وفي عام 317هـ/ 930م، زحف أبو طاهر، بأمر المهدي، إلى الحجاز ودخل مكة وأوقع بأهلها عند اجتماع الموسم واقتلع الحجر الأسود وأبواب الكعبة وأخذ جميع ما كان فيها من الحلي الثمينة والتحف القديمة كالدرة اليتيمة الثمينة ذات الأربعة عشر مثقالاً وقرطي مريم وقرن كبش ابراهيم وعصا موسى ملبسين بالذهب ومرصعين بالجوهر إلى غير ذلك من المثمنات النادرة والأواني الغالية التي نقلها أبو طاهر إلى عاصمة بلاده[1]. وأعاد القرامطة الحجر الأسود إلى مكة عام 339هـ/ 950م[2]. وقالوا أخذناه بأمر وأعدناه بأمر، يقصدون أنهم أخذوه بأمر محمد بن عبيدالله المهدي وأعادوه بأمر المنصور بالله أحد الخلفاء الفاطميين[3]. وباحتلال الحجاز بعد اليمامة وعمان أصبحت الجزيرة العربية كلها ضمن إطار الجمهورية القرمطية.

لقد كان الاعتداء على المقدسات الاسلامية وكنوزها التاريخية وقتل الحجاج الآمنين وسلب أموالهم عملاً سياسياً خاطئاً للقيادة القرمطية الاسماعيلية أيا كانت مسوغاته وتفسيراته. وقد استغل، دون شك، أعداء الحركة الاسماعيلية القرمطية في الماضي والحاضر هذه الأحداث السلبية لإثارة مشاعر العداء نحو القرامطة والتشهير بمبادئهم وأهدافهم.

مضى على عدوان القرامطة على المقدسات الاسلامية ونكبة الحجاج في مكة عام ونيف وحكومة بغداد لم تبد حركة يستدل منها على أنها تنوي معاقبة القرامطة. فلما رأى أبو طاهر ضعف الحكومة العباسية وأيقن أنها عاجزة عن محاربته، قرر أن يستفيد من هذه الحالة ويستولي على عمان لأهميتها الاقتصادية والاستراتيجية. فزحف إليها واحتلها سنة 318هـ[4]. وأضحى أبو طاهر باخضاعه عمان سيد الجزيرة العربية دون منازع. وفي عام 319هـ، توجه أبو طاهر إلى الكوفة واستولى عليها[5]. ويذكر

---

(1) عريب بن سعد الدين القرطبي: صلة تاريخ الطبري ص 95.
(2) ابن الأثير: المصدر ذاته ص335.
(3) نفس المصدر والصفحة.
(4) ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ج4 ص93.
(5) احتل أبو طاهر الكوفة عدة مرات سنة 312 ـ 313 ـ 315 ـ 319 ـ 323 ـ 325هـ ثابت بن سنان: أخبار القرامطة. ص45 ـ 46 ـ 55 ـ 103 ـ 104، ابن الجوزي: المنتظم ج6 ص188 ـ 196 ـ 208 ـ 216.

السيوطي أن القرمطي عند استيلائه على الكوفة عام 319هـ خاف أهل بغداد من دخوله إليها فاستغاثوا ورفعوا المصاحف وسبوا الخليفة المقتدر بأصوات عالية[1].

ويظهر أن أبا طاهر عاد إلى بلاده لأسباب عرضية. وفي عام 325هـ / 937م، زحف مرة أخرى على الكوفة فاحتلها واضطر الخليفة الراضي (322 ـ 329هـ / 934 ـ 940م) أن يعقد معه هدنة ويؤدي له مئة وعشرين ألف دينار كل سنة ويعطي عن كل حاج ضريبة معلومة[2]. ولم يكتف بل أخذ يتدخل في سياسة حكومة بغداد ويؤثر على سير الأعمال فيها[3].

ولم يمت أبو طاهر القرمطي سنة 332هـ إلا وقد فرض على أهل خراسان وبغداد والشام ومصر الأموال العظيمة كانت تحمل إليه كل سنة اتقاء لشره[4].

نهج خلفاء أبي طاهر نفس السياسة التي رسمها أبو سعيد الجنابي، من حيث حسن الإدارة والميل إلى تضحية المصالح الشخصية في سبيل مصلحة الجماهير والاهتمام بما يعود على الفلاحين والعملة وسائر الكادحين بالخير والاخلاص للنظام الجديد الذي سنه أبو سعيد وحافظ عليه أبو طاهر إلى آخر يوم من حياته[5].

انصرف القرامطة إلى توطيد نظامهم الاجتماعي وتطوير اقتصادهم واصلاح أحوالهم الداخلية وتحسين مستوى معيشة الشعب. وأخذ خلفاء أبي طاهر، منذ أن أصبحت دولة بني العباس عام 334هـ/ 945م تحت سلطة البويهيين الشيعة، يتقربون من حكام بغداد ويطلبون ودهم لما بينهما من أواصر القرابة الروحية. وظهر الفاطميون في شمال أفريقيا واستولوا على مصر وأرسلوا قواتهم لاحتلال بلاد الشام والجزيرة العربية، وهي المناطق التي تشكل الامتداد الطبيعي للطرق التجارية المارة بمصر أوانذاك، فاصطدموا بالقرامطة وقامت بين إخوان العقيدة الواحدة حروب كانت في أغلب الأحيان في جانب القرامطة.

نشأت بين فواطم مصر وقرامطة البحرين علاقة ودية في فترة أولى، وعدائية في

---

(1) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص 384.

(2) الهمذاني: تكملة تاريخ الطبري ص 102 ـ العيون ج4 ـ القسم الأول ص 333.

(3) نفس المصدر والصفحة.

(4) ثابت بن سنان. أخبار القرامطة ص104. أبو المحاسن، جمال الدين يوسف بن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج3 ص217.

(5) د. بندلي جوزي صليبا: المصدر ذاته ص145.

فترة ثانية. فقد كان القرامطة في أول الحركة الفاطمية، يساعدون إخوانهم في المبدأ بالمال والرجال ويظهرون لهم الطاعة والمحبة ويعتقدون أن مؤسس الدولة الفاطمية عبيد الله حقيقة (إمام الزمان) و(المهدي) المنتظر وآخر إنسان تجسم فيه «العقل الأعلى» أي هو ذلك الانسان الذي كانت القرامطة وسائر فرق الاسماعيلية تنتظره وتعول عليه في دكّ دولة الظلم وإقامة دولة العدل والمساواة ومملكة (السلم والمحبة). إلا أن أبا طاهر وأصحابه أخذوا يدركون مع الزمن وبعد أن تعرفوا بالفاطميين في سورية ومصر وشاهدوا عيشتهم وأعمالهم هناك وما أدخلوه من الأنظمة الجديدة في مصر وشمال أفريقيا أن مؤسس دولة الفواطم لا صلة بينه وبين الإمام السابع اسماعيل بن جعفر ولا نسب وأن هذا الامام خدعهم واستخدمهم وسيلة للوصول إلى غاياته الشخصية(1). فلما صح عند القرامطة هذا الخبر وشعروا بدسائسهم وتدخلهم في شؤونهم ثار غضبهم على الحكام الفاطميين وانقلبت علاقات الود بينهما إلى علاقات عداء وحرب.

حارب القرامطة الاخشيديين، حكام مصر والشام، وانتصروا عليهم عام 968م، والزموا الحسن بن عبدالله بن طغج الأخشيدي، والي الشام، على عقد صلح يدفع بموجبه أتاوة سنوية مقدارها ثلثمائة ألف دينار(2). وعندما استولى الفاطميون على مصر عام 969م وقضوا على الدولة الأخشيدية، قطعوا الأتاوة(3) عن القرامطة، وأرسلوا حملة لاحتلال فلسطين وسورية باعتبارهما تشكلان الامتداد الطبيعي للطرق التجارية المارة بمصر وقتذاك. فانقلب القرامطة على الفواطم الذين تخلوا، في نظرهم، عن المبادىء الأساسية للاسماعيلية، وأصبحوا يعبرون عن المصالح التجارية المتمركزة في مصر(4). فتحرك الجيش القرمطي بقيادة الحسن الأعصم إلى الشام بعد أن تلقى مساعدة صاحب بغداد بالسلاح والمال(5). واحتل دمشق سنة 360هـ وأمن أهلها(6)، وقتل واليها القائد الفاطمي جعفر بن فلاح الذي استهان بهم ولم يحترز

(1) د. بندلي جوزي صليبا: المصدر ذاته ص156.

(2) ابن الأثير: الكامل ج7 ص42. المقريزي: اتعاظ الحنفا ص 186 ـ 7. ثابت بن سنان: أخبار القرامطة ص57.

(3) المقريزي: المصدر ذاته ص187.

(4) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي الاقتصادي ص290.

(5) المقريزي: المصدر ذاته ص127. ابن سنان: المصدر ذاته ص 105.

(6) ابن الأثير: الكامل ج7 ص42. المقريزي: المصدر ذاته ص127.

منهم[1]. ولما بلغ الخبر جوهر (تأهب لقتالهم، وعمل خندقاً وأمر ببناء قلعة القاهرة وأنشأ القنطرة على الخليج وفرق السلاح على المغاربة، جيش الفاطميين الرئيسي، والمصريين)[2].

واصل القرامطة زحفهم فاستولوا على الرملة وحاصروا يافا[3]. ثم اقتحموا الأراضي المصرية وغزوا شمال الدلتا، ودار القتال بينهم وبين الفاطميين قرب عين شمس[4]. وانضم إلى القرامطة خلق كبير من العرب والجند والاخشيدية والكافورية[5]. كما ناصرتهم حركات الحرفيين في تنيس المشهورة بصناعة النسيج[6]. وقد استخدم القرامطة في هذه الحملة السفن السورية التي دخلت النيل حتى مدينة تنيس التي اعترفت بسلطانهم[7]. وفي عام 361هـ، عسكر الجيش القرمطي عند عين شمس، والتحم القتال على أسوار القاهرة ودارت معارك طاحنة[8]. وضيق القرامطة الخناق على جيوش الدولة الفاطمية مما جعل القائد الفاطمي جوهر ينادي في المدينة (من جاء بالقرمطي، يقصد الحسن الأعصم، أو برأسه فله ثلاث مائة ألف درهم، وخمسون خلعة، وخمسون سرجاً بحلى على دوابها)[9]. وكاد الجيش القرمطي أن ينتصر لولا خيانة وانقضاض سابور، المؤيد للفاطميين[10]، على السلطة في الاحساء اثناء غياب المجلس العقداني والجيش القرمطي مما اضطر الحسن الأعصم على التراجع وترك حصار القاهرة، حفاظاً على نظامهم الثوري في بلاد البحرين. واستطاع الجيش القرمطي قمع مؤامرة سابور وقتله[11].

وفي عام 363هـ / 974م، زحف القرامطة مرة ثانية إلى مصر بقيادة الحسن بن

---

(1) المصدر السابق والصفحة ذاتها.
(2) المقريزي: المصدر ذاته ص129. والخطط ج2 ص179 ـ 180.
(3) ابن الأثير: المصدر ذاته ص42. ثابت بن سنان: أخبار القرامطة ص58 ـ 9.
(4) المصر ذاته والصفحة.
(5) نفس المصدر والصفحة. ثابت بن سنان: المصدر ذاته ص58.
(6) سعد، أحمدصادق: تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي ص 290. أخبار القرامطة: جمع وتحقيق ودراسة الدكتور سهيل زكار ص 316.
(7) د. حسن ابراهيم حسن: الفاطميون في مصر ص 113.
(8) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص130.
(9) نفس المصدر والصفحة.
(10) د. جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ص 45.
(11) ابن حوقل: صورة الأرض القسم الأول ص25 ـ 27. المسالك والممالك ص 22 ـ 23.

أحمد الأعصم القرمطي[1]، ودمروا قرب يافا الأسطول الفاطمي تدميراً تاماً[2]. ولما سمع الخليفة الفاطمي المعز لدين الله بأن القرمطي يريد مصر بعث إليه رسالة ذكر فيها (فضل نفسه وأهل بيته وأن الدعوة واحدة وأن دعوة القرامطة إنما كانت إلى آبائه ووعظه وبالغ في رسالته وتهدده)[3]. فأجابه الأعصم برسالة مختصرة هذا نصها (وصل كتابك الذي قل تحصيله وكثر تفصيله ونحن سائرون إليك على إثره والسلام)[4].

دخل الجيش القرمطي الدلتا وعسكر في بلبيس[5]، ووصلت كتيبة منه إلى الصعيد ونزلت في نواحي اسيوط وإخميم[6]، ووقعت معركة جديدة في عين شمس[7]. وكانت الأيام الأولى انتصاراً للجيش القرمطي[8]. وكثرت جموع القرامطة وانضم إليهم من العرب خلق كثير، وكان ممن أتاه حسان بن الجراح الطائي، أمير العرب في بادية الشام، ومعه جمع عظيم[9]. فلما رأى المعز كثرة جموعه وانتصاراته على الجيش الفاطمي (استعظم ذلك وأهمه وتحير في أمره وارتبك فجمع حاشيته ووزراءه فأشار عليه أحدهم قائلاً: ليس حيلة غير السعي في تفريق كلمتهم وإلقاء الخلاف بينهم، ولا يتم ذلك الا بابن الجراح، فراسله المعز واستماله وبذل له مائة ألف دينار إن هو خالف على القرمط، فأجابه ابن الجراح إلى ما طلب منه)[10]. وعندما استلم ابن الجراح المال، انهزم مع قبيلته[11]. وعلى الرغم من خيانة ابن الجراح، ثبت القرامطة وقاتلوا[12]، وكادوا أن ينتصروا لولا الهجوم الغادر الذي قامت به الجيوش البويهية

---

(1) ابن الأثير: المصدر ذاته ص54.

(2) ثابت بن سنان: المصدر ذاته ص59. أبو الفداء المختصر في أخبار البشر ج2 ص381.

(3) ابن الأثير: الكامل ج7 ص54. ثابت بن سنان: المصدر ذاته ص60، المقريزي: اتعاظ الحنفت ص 367 ـ 83.

(4) نفس المصدر والصفحة.

(5) ابن الأثير: المصدر ذاته ص68.

(6) المقريزي: اتعاظ النفا ص 150. ثابت بن سنان: المصدر ذاته ص106.

(7) ابن الأثير: المصدر ذاته ص54.

(8) المصدر ذاته ص68.

(9) المصدر ذاته ص54، ثابت بن سنان: اخبار القرامطة ص60.

(10) المصدر ذاته ص54. ثابت بن سنان: أخبار القرامطة ص60.

(11) نفس المصدر والصفحة. ابن سنان: أخبار القرامطة ص 60 ـ 1.

(12) نفس المصدر والصفحة.

على بلاد البحرين واحتلالهم الاحساء[1]، عاصمة القرامطة، فاضطر الجيش القرمطي إلى الانسحاب والعودة لمواجهة الغزو البويهي لبلادهم ودحره وصيانة الجمهورية. وكان الحسن الأعصم بانسحابه قائداً حكيماً، ولم تجرؤ القوات الفاطمية على قتاله وهو في حالة الانسحاب والتراجع، ووصل الجيش القرمطي إلى بلاده واشتبك مع الغزاة وانتصر عليهم وطردهم وحرر الوطن وانقذ الجمهورية وصان النظام الاشتراكي الشعبي. ويصف ثابت بن سنان، الذي عاش تلك الفترة التاريخية، استبسال القرامطة في القتال وسرورهم بالنصر بقوله: (وكانت بينهم وقعة عظيمة قتل فيها رجال العسكر البويهيين وأخذت أموالهم ففرحت نفس الحسن الأعصم وعادت دولته. . .)[2].

احتل الفاطميون فلسطين ودمشق بعد انسحاب القرامطة منها[3]. واعمل الجيش الفاطمي في البلد نهباً وقتلاً وتخريباً[4]. ونزح أهل القرى منها لشدة نهب جند الفواطم أموالهم وظلمهم لهم ودخلوا البلد[5]. فاضطرب أهل المدينة وخافوا، وثارت العامة، وجرى قتال شديد بينهم وبين قوات المحتلين[6]. وأشعل عساكر الفاطميين النار في البلد فأحرقت ناحية باب الفراديس، وامتدت النيران إلى القبلة فالتهمت من البلد كثيراً وهلك بسبب الحريق جمع من الناس، وأتلف ما لا يُحَد من الأثاث والرحال والأموال، وخربت المنازل وانقطعت المواد وانسدت المسالك وتوقف البيع والشراء؛ وقطع الماء عن البلد فبطلت القنوات والحمامات ومات كثير من الفقراء على الطرقات من الجوع والبرد[7]. وبقي الأمر كذلك إلى أن نصّب أهالي دمشق الفتكين[8] أميراً عليها، فطرد الفاطميين من دمشق وأصلح كثيراًمن أمورها[9].

---

(1) ثابت بن سنان: أخبار القرامطة ص107.

(2) المصدر ذاته.

(3) المصدر ذاته ص60.

(4) ابن الأثير: الكامل ج7 ص54 ـ 55.

(5) المصدر ذاته ص55.

(6) المصدر ذاته ص54 ـ 55.

(7) المصدر ذاته ص55.

(8) قائد تركي انهزم من العراق ابان الصراعات بين الحكام البويهيين والقادة الأتراك. (البتكين أي عبد جلد).

(9) المصدر ذاته ص63.

أرسل الخليفة الفاطمي جيشاً بقيادة جوهر عام 365هـ لاستعادة دمشق(1) فلما وصل جوهر إلى المدينة حاصرها، فصمد أهاليها واستبسلوا في القتال إلى جانب الفتكين إلى درجة أذهلت جوهر(2). وعندما رأى الأهالي طول مقام جيش جوهر عليهم أشاروا على الفتكين بمكاتبة الحسن الأعصم القرمطي واستنجاده ففعل ذلك(3). فسار القرمطي إليه من الاحساء فلما قرب من جوهر، خاف هذا واضطر إلى الرحيل عن دمشق(4).

سار القرمطي والفتكين في أثر جوهر فأدركاه، وحاصراه في عسقلان حصاراً شديداً (وطال الحصار وقلت الميرة وعدمت الأقوات، وكان الزمان شتاء فلم يكن حمل الذخائر في البحر من مصر وغيرها، فاضطروا إلى أكل الميتة وبلغ الخبز كل خمسة أرطال بالشامي بدينار مصري)(5). وكان جوهر، إبان اشتداد الحصار عليه، يراسل الفتكين ويرغبه ويبذل له البذول الكثيرة محاولاً خدعه(6). ثم اجتمعا فقال له جوهر: قد عرفت ما يجمعنا من عصمة الاسلام وحرمة الدين وقد طالت هذه الفتنة وأريقت الدماء ونهبت الأموال فراجع نفسك وغلب رأيك على هوى غيرك(7). فقال الفتكين: أنا والله واثق بك في صحة الرأي والمشورة منك لكنني غير متمكن مما تدعونني إليه بسبب القرمطي، يقصد الحسن الأعصم، الذي احوجتني أنت إلى مداراته والقبول منه(8). فقال جوهر: إذا كان الأمر على ما ذكرت فإنني أصدقك الحال تعويلاً على أمانتك وما أجده من الفتوة عندك، وقد ضاق الأمر بنا وأريد أن تمن عليّ بنفسي وبمن معي من المسلمين وأعود إلى صاحبي، يعني الخليفة العزيز، شاكراً لك وتكون قد جمعت بين حقن الدماء واصطناع المعروف(9). فأجابه إلى ذلك، وأذن له بالسفر إلى مصر(10). ولما عرف الحسن الأعصم، الذي كان يحاصر جوهر من

---

(1) ابن الأثير: الكامل ج 7 ص 63. ثابت بن سنان: أخبار القرامطة ص 65.

(2) نفس المصدر والصفحة. ثابت بن سنان: أخبار القرامطة ص 66.

(3) نفس المصدر والصفحة. ثابت بن سنان: أخبار القرامطة ص 66.

(4) نفس المصدر والصفحة. ثابت بن سنان: أخبار القرامطة ص 66.

(5) نفس المصدر ص63 ـ 64. ثابت بن سنان: المصدر ذاته ص67.

(6) نفس المصدر ص64. ثابت بن سنان. المصدر ذاته ص67.

(7) نفس المصدر والصفحة. ثابت بن سنان: المصدر ذاته ص67.

(8) نفس المصدر والصفحة.

(9) نفس المصدر والصفحة.

(10) نفس المصدر والصفحة.

جهة أخرى، خيانة الفتكين قال له لقد أخطأت فإن جوهر له رأي وحزم ومكيدة، وسيرجع على رأس جيش كثيف لقتالنا بما لا طاقة لنا به[1].

وبالفعل أقبل جيش فاطمي لَجِب على رأسه العزيز ومعه جوهر[2]. ونشب القتال عند الرملة[3]. فأرسل العزيز إلى الفتكين يرغبه بالمال والمناصب[4]. وحينما اشتد القتال، انهزمت قوات الفتكين ثم أسر على أثرها[5]. أما الحسن القرمطي فقد انسحب إلى طبرية. فأرسل إليه العزيز عشرين ألف دينار جعلها له ضريبة سنوية[6].

وفي عام 366هـ احتل القرامطة بقيادة الحسن الأعصم الشام والرملة، وفي الرملة توفي الحسن الأعصم القرمطي[7]. وكان الحسن مثالاً رائعاً في الوطنية والبطولة والنجدة والإقدام. وكانت القرامطة تحت قيادته، الشجاعة والحكيمة، إذا كانوا في ألف حطموا مائة ألف[8]. وترك لنا شعراً من نظمه ينم عن تواضع وسمو خلق وعواطف إنسانية وإيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة كقوله[9]:

انـي امـرؤ لـيـس مـن شـأنـي ولا أربـى ... طـبـل يـرن ولا نـاي ولا عـود
ولا اعـتـكـاف عـلـى خـمـر ومـجـمـرة ... وذات دل لـهـا غـنـج وتـفـنـيـد
ولابـيـت بـطـيـن الـبـطـن مـن شـبـع ... ولـي رفـيـق خـمـيـص الـبـطـن مـجـهـود
ولا تـسـامـت بـي الـدنـيـا إلـى طـمـع ... يـومـاً ولا غـرنـي فـيـهـا الـمـواعـيـد[10].

وكانت اليمن أيضاً مسرحاً للصراع بين القرامطة والفاطميين، وكانت عدن، دهليز الصين، محطة تجارية كبرى وهمزة الوصل بين التجارة في جنوب شرقي آسيا والتجارة المصرية. ففيها كانت تستودع سلع الهند والصين ثم تنقل على سفن أصغر حتى

(1) المصدر السابق.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) نفس المصدر والصفحة.
(4) نفس المصدر والصفحة.
(5) نفس المصدر والصفحة.
(6) نفس المصدر والصفحة. يذكر الهمذاني: جعل المعز للحسن الأعصم سبعين ألف دينار سنوياً. تكملة ص 228.
(7) المصدر ذاته ص68. ابن سنان المصدر ذاته ص108.
(8) ابن الأثير: الكامل ج7 ص68.
(9) من شعر كتب به إلى جعفر بن فلاح وقبل وقوع الحرب بينهما عام 360هـ.
(10) المصدر ذاته ص89. ابن سنان: المصدر ذاته ص111.

تتمكن من عبور مضيق باب المندب لخطورة صخوره على السفن الكبرى[1]. وفي حوالي سنة 915م، وضع القرامطة أيديهم على اليمن وسيطروا على معظم الجزيرة العربية[2]، ولكنهم انسحبوا منها بعد ذلك، وقامت في اليمن دولة شيعية مناصرة للفاطميين وخاصة في ظل الصليحيين، فتوثقت العلاقات التجارية بين اليمن ومصر بشكل كبير[3].

أما علاقة القرامطة مع البويهيين فقد تذبذب مستواها بين الطيبة والعدائية، وذلك حسب الأوضاع الدولية والظروف الموضوعية في البلدين المعنيين. وكان البويهيون قد أخضعوا دولة بني العباس لسيطرتهم منذ عام 334هـ. وفي سنة 336هـ، عزم معز الدولة أن يسير إلى البصرة لإنقاذها من المتمرد البريدي[4]. وسلك المعزُّ البرية في طريقه إلى البصرة فأرسل إليه القرامطة ينكرون عليه سيره إلى البرية بغير أمرهم وهي لهم، فلم يجبهم على كتابهم. وقال للرسول: قل لهم من أنتم حتى تستأمروا؟ وليس قصدي من أخذ البصرة غيركم وستعلمون ما تقولون مني[5]. واستطاع معز الدولة أن يستعيد البصرة، وهرب البريدي إلى هجر والتجأ إلى القرامطة[6].

لقد كان تصريح معز الدولة عن أطماعه في بلاد البحرين وحقده على النظام القرمطي واستهانته بهم استفزازاً للقرامطة حملهم على اتخاذ إجراءات عسكرية وقائية محددة. غير أنهم سعوا في الوقت نفسه إلى تطبيع العلاقات مع البويهيين الذين يرتبطون وإياهم بأواصر القرابة الروحية. ويبدو أن العلاقات بين الطرفين سارت في طريق التحسن إلى درجة حملت البويهيين إلى الاستجابة الفورية لتقديم المساعدة المالية والعسكرية التي كان القرامطة قد طلبوها منهم للتصدي لهجوم الفاطميين على بلاد الشام. فقد ذكر ابن الأثير أن الحسن بن أحمد الأعصم القرمطي، رئيس المجلس العقداني وقائد الجيش، أرسل إلى القادة البويهيين يطلب مساعدتهم فأجابوه

---

(1) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي الاقتصادي ص 291.

(2) انظر ص342.

(3) د. ماجد عبد المنعم: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ص 208. سعد أحمد صادق: تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي ص291.

(4) ابن الأثير: الكامل ج6 ص325.

(5) المصدر ذاته ص325.

(6) نفس المصدر والصفحة.

إلى ذلك[1]. ويذكر المقريزي أن صاحب بغداد، يقصد عز الدولة بختيار بن معز الدولة أحمد بن بويه، أمد الحسن الأعصم القرمطي بالسلاح، وكتب له بأربعمائة ألف درهم على أبي تغلب بن حمدان تقوية لهم على حرب المغاربة، يقصد جيش الفاطميين[2]. وكان لمعونة البويهيين العسكرية والمالية أثر ايجابي في انتصار القرامطة على الفاطميين ودحرهم وطردهم من الشام وإبعاد خطرهم عن الخلافة العباسية وعن دولة القرامطة معاً.

وكان من المفترض أن يكون التعاون المشترك ضد الفاطميين خطوة جديدة على طريق توطيد العلاقات بين البويهيين والقرامطة. غير أن التناقضات السياسية وتباين المصالح التجارية واختلاف الأنظمة الاجتماعية والايديولوجيات كانت هي الأخرى تعمل عملها باتجاه معاكس. ففي الوقت الذي كان الجيش القرمطي بقيادة الحسن الأعصم، يشدد الحصار على الجيش الفاطمي في عين شمس وكاد ينتصر عليه، قام البويهيون بهجوم غادر على الجمهورية القرمطية مستغلين وجود الجيش القرمطي خارج البلاد وانشغاله بمحاربة الفاطميين بعيداً عن أرض الوطن. وقد احتل الغزاة البويهيون عاصمة القرامطة الاحساء[3]. فاضطر القرامطة على الانسحاب والعودة لمواجهة الغزو البويهي ودحره وانقاذ الجمهورية وصيانة المكاسب الثورية للجماهير العاملة.

وصل الجيش القرمطي إلى بلاده واشتبك مع الغزاة المحتلين وانتصر عليهم وطردهم وحرر أرض الوطن وأنقذ الجمهورية وصان النظام الاشتراكي الشعبي. وقد وصف ثابت بن سنان، الذي عاش في تلك الفترة التاريخية، استبسال القرامطة في القتال وسرورهم الغامر بالانتصار وإنقاذ النظام بقوله: (وكانت بينهم وقعة عظيمة قتل فيها رجال العسكر ـ البويهيين ـ وأخذت أموالهم ففرحت نفس الحسن الأعصم وعادت دولته)[4].

وفي عام 373هـ سار القرامطة إلى قرب بغداد ثم عادوا إلى بلادهم بعد أن عقدوا مع حكام بغداد صلحاً على مال أخذوه[5]. وعاد تدخلهم من جديد في سير

---

(1) ابن الأثير: الكامل ج 7 ص42.
(2) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص 126.
(3) ثابت بن سنان: اخبار القرامطة ص107.
(4) المصدر ذاته ص60.
(5) ابن الأثير: الكامل ج7 ص122.

الأحداث في بغداد، مستغلين وفاة عضد الدولة واندلاع الحرب بين أبنائه[1]. ويحدثنا ابن مسكويه أنه في عام 375هـ/ 985م ورد اسحق وجعفر الهجريان، وهما من القرامطة الستة الذين يلقبون بالسادة، في جمع كثير فملكا الكوفة وأقاما بها الخطبة لشرف الدولة، أبو الفوارس ابن عضد الدولة. فوقع الانزعاج الشديد في ذلك بمدينة السلام لما كان قد تمكن في قلوب الناس من هيبة هؤلاء القوم وقوة بأسهم ومسالمة الملوك لهم لشدة مراسهم حتى أن عضد الدولة وعز الدولة قبله اقطعاهم اقطاعات بواسط وسقي الفرات فكانت مآربهم تقضى ومطالبهم تمضى وبابكر بن شاهويه صاحبهم، سفير القرامطة في البلاط العباسي، يجري بالحضرة مجرى الوزراء في حاله والاصغاء من الملوك راجع إلى أقواله وأكابر الناس يخشونه ويمتثلون.

ولما أخفقت مساعي حكومة بغداد باسترضائهما والتصالح معهما على أمر معلوم، وفرغ صبرها من بث أصحابهما في الأعمال ومد أيديهما إلى استخراج المال، أنفذت إليهما الجيوش فهزمتهما وأرغمتهما على الانسحاب من الكوفة[2].

ويبدو أن هذه الهزيمة أحدثت انعطافاً في تاريخ قرامطة البحرين، إذ لم يكد خبرها ينتشر بين جيرانهم حتى خرجت عليهم سكان أواسط جزيرة العرب وانفصلت عنهم، ثم تبعهم سكان عمان سنة 375هـ ـ 985م وقبائل المنتفق التي انقضت عليهم بدعم حكام بغداد سنة 378هـ ـ 988م وهزمتهم شر هزيمة ثم تعقبتهم إلى الاحساء التي التجأ إليها القرامطة وتحصنوا فيها. فحاصرهم أعراب المنتفق ولكنهم لم يقووا على فتحها فتحولوا عنها إلى القطيف فدخلوها ونهبوا ما كان فيها من أموال ومواشي وعبيد وعادوا بغنائمهم إلى بلادهم في منطقة البصرة[3].

وكان لهذا الفشل أثر سيء على أوضاع القرامطة الاقتصادية والداخلية أثار بينهم استياء عاماً أدى إلى نزع السلطة من أيدي أحفاد أبي سعيد وتسليمها إلى رجال آخرين حاولوا أن يتقربوا من الفاطميين، إخوانهم القدماء في المبدأ، ليستندوا إليهم في حروبهم مع الأعراب وسلاطين بغداد أو ليضمنوا حيادهم، إلا أن هذه السياسة الجديدة لم تجدهم نفعاً، لأن سلاطين مدينة السلام، بعد أن اطلعوا على مكاتباتهم

(1) المصدر السابق ص124 ـ 26.
(2) الروذراوري المصدر السابق ج3 ص109. أخبار القرامطة: جمع وتحقيق د. سهيل زكار ص 388.
(3) المصدر ذاته ص109 ـ 110. أخبار القرامطة: جمع وتحقيق د. سهيل زكار ص 389.

مع حكام القاهرة الفاطميين، انقلبوا عليهم وأثاروا عليهم الاعراب الذين كادوا يقضون على استقلالهم فاضطروا أن يلزموا حدود بلادهم ويكفوا عن نشر دعوتهم في الخارج[1] بعد أن فشلوا في تحقيق استراتيجيتهم الثورية. يؤيد ذلك ما قاله عنهم ابن النديم. «... ومنذ نحو عشرين سنة تناقص مذهب القرامطة وقل الدعاة فيه حتى أني لا أرى من الكتب المصنفة فيه شيئاً بعد أن كان في أيام معز الدولة في أوله ظاهراً شائعاً ذائعاً والدعاة منبثون في كل صقع وناحية»[2].

وقد زارهم الرحالة الايراني ناصر خسرو سنة 443هـ/ 1052م وأقام بينهم حوالي نصف سنة وكتب عنهم أنه «ليس هنا لك في البصرة يد تجرؤ على مهاجمة القرامطة»[3]. ويستفاد من أقوال خسرو أن النظام الاشتراكي الذي أسسه أبو سعيد الجنابي كان لا يزال معمولاً به بين القرامطة[4]. ويذكر بندلي جوزي أن جمهورية القرامطة في البحرين كانت لا تزال في أوائل القرن السابع الهجري حية مستقلة راقية يدير أمورها مجلس منتخب من أهاليها بحسب النظام القديم الذي بقي جارياً في البلاد إلى أوائل القرن الثالث عشر ميلادي حين زارها السائح المغربي ابن بطوطة[5].

السمات العامة للنظام القرمطي

أنشأ القرامطة في بلاد البحرين دولة ديمقراطية مشاعية كانت السلطة كلها بيد الجماهير العاملة. وأفسح المجال لأول مرة في التاريخ العربي الاسلامي أمام العمال والفلاحين والحرفيين وأصحاب البيوعات الصغيرة لبناء السلطة الجديدة والمساهمة في تنفيذ التحولات الثورية الاقتصادية والاجتماعية للوصول بالبلاد إلى درجة الاكتفاء الذاتي، وإحداث تغيير جذري في ميدان التربية، وتشكيل جيش شعبي للدفاع عن

---

(1) ابن الأثير: الكامل ج، ص136. أخبار القرامطة: جميع وتحقيق د. سهيل زكار ص 389.
(2) د. بندلي جوزي صليبا: المصدر ذاته ص162.
(3) ابن النديم: الفهرست ص 268.
(4) و(5) ناصر خسرو: سفرنامة. ص 92 و92 ـ 3.
(6) د. بندلي جوزي صليبا: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ج1 ص164 ـ 165. يبدو أن الدكتور بندلي جوزي اقتبس النص الآنف الذكر من الجوبري الذي كتب في مطلع القرن السابع الهجري يقول: إنه رأى في الإحساء عقباً لأبي سعيد ومآلاً حسناً ونعمة طائلة ويعرفون في تلك الأرض بالسادة ـ الجوبري، زين الدين عبد الرحيم: كتاب المختار في كشف الأسرار ص 12.

مكاسب الثورة ومواصلة النشاط العسكري الثوري لتحقيق مبادىء الاسماعيلية القرمطية في بناء دولة المساواة والمحبة والسلام.

وكانت تجربتهم الثورية فريدة ورائدة في عالم العصر الوسيط. وتتجلى عظمة التجربة القرمطية من خلال اطلاعنا على النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي شيدوه واستمر فترة من الزمن غير قصيرة وسط عالم محيط معادٍ تسوده علاقات الاقطاع والجور والقهر والطغيان.

النظام السياسي

أنشأ القرامطة سلطة شعبية تعكس واقع المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي حدثت على الساحة البحرانية. ولم يكن في هذه السلطة شيء من مفاهيم الجبرية، الحق الإلهي للخلفاء في الحكم المطلق، ولا عصمة الأئمة من الخطأ، وإنما كانت بيد قيادة جماعية ممثلة في المجلس العقداني[1]. أو مجلس السادة[2].

وكان مجلس العقدانية يتألف من ستة أعضاء دائمين (السادة) ينتخبهم الشعب من أسرة أبي طاهر وأعوانه المقربين ومن أصحاب الدرجات العالية في الحرب، يساعدهم ستة أعضاء وكلاء أو احتياط (الشائرة) يجلسون وراءهم أو على مقاعدهم عند تغيبهم لسبب ما عن حضور الجلسات.

وكان مجلس السادة يعقد جلساته في «دار الهجرة» أو دار الحكومة برئاسة أبي طاهر أو من ينيبه عنه[3].

وكان المجلس العقداني يسوس البلاد ويتداول أعضاؤه في كل الأمور[4] ويحل ما يُعرض عليه من المسائل السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، وتؤخذ القرارات على أساس ديمقراطي. ويصف لنا ناصر خسرو ـ الذي زار قرامطة البحرين عام 443هـ وأقام بينهم حوالي نصف سنة ـ يصف لنا النظام السياسي القرمطي بقوله:

---

(1) ابن حوقل: صورة الأرض. القسم الأول ص 26. اخبار القرامطة: جمع وتحقيق ودراسة د. سهيل زكار ص 84.

(2) ناصر خسرو: سفرنامة. ص 93.

(3) نفس المصدر والصفحة.

(4) نفس المصدر والصفحة.

(ولهؤلاء الحكام مقر يعرف بدار الهجرة أو دار الحكومة، وبه تخت ـ منصة ـ يجلس عليها الستة السادة جلسات رسمية حيث يصدرون الأوامر، ويشرعون القوانين، بعد أن يتم الاتفاق عليها فيما بينهم، ويساعدهم ستة وكلاء يجلسون على تخت آخر، وكل الأمور يتخذون بشأنها القرارات بالاتفاق، وكذلك يحكمون)[1].

ويستنتج من أقوال خسرو أن مجلس السادة كان يتمتع بجميع السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية. وكانت الجماهير تتمتع بالديمقراطية بمضمونها الشعبي وتمارسها بأوسع صورها وأشكالها إلى درجة أنها حكمت القرى والمدن عبر مجالس منتخبة باقتراع عام[2].

وكان الحكام المنتخبون من قبل الشعب خاضعين أيضاً لرقابته، وباستطاعته أن يشجب الثقة من كل عضو مسؤول في المجلس العقداني ويعزله إن هو قصر أو خان أو اختلس أو قام بممارسات خاطئة. وهذا ما حصل فعلاً عندما عزلت الجماهير سابور بن أبي طاهر، عضو مجلس السادة سنة 354هـ ثم أدانه المجلس سنة 361هـ لتآمره على النظام وقتله، كما سحبت الجماهير ثقتها في القائد جعفر سنة 378هـ لقيامه ببعض الممارسات الخاطئة.

أما علاقة السلطة وهيئات الإدارة بالجماهير فهي علاقة التأثر والتأثير المتبادل الخلاق. فقد انتفى داخل المجتمع القرمطي كل ما يلازم هيئات الدولة الطبقية من مظاهر التعالي واحتقار الجماهير وعدم الاهتمام بحقوق الناس البسطاء وشكاواهم وظلاماتهم. وأصبحت السلطة الشعبية وعناصرها تعامل الأهالي بالعدل والشرف وبرقة وتواضع. يؤيد ذلك قول خسرو: إن أبا سعيد الجنابي أوصى خلفاءه وأشياعه أن يعاملوا الشعب بالعدل والشرف[3]. وقال أيضاً: إذا دخل انسان على عضو من أعضاء المجلس العقداني وحياه أو سأله شيئاً أجابه ذلك العضو بكل رقة وتواضع[4]. والفضل في هذا الوفاق يرجع لا إلى الشرطة أو قوة عسكرية بل إلى النظام الاشتراكي الجديد وثقة الشعب به وبزعمائه[5].

---

(1) المصدر السابق نفسه.
(2) الدكتور الشهاري: الثورة في الجنوب والانتكاسة في الشمال ص 302.
(3) ناصر خسرو: المصدر ذاته ص93.
(4) نفس المصدر والصفحة.
(5) د. بندلي جوزي صليبا: المصدر ذاته ص148.

اقتصاد المجتمع القرمطي

اتخذ القرامطة سلسلة من الاجراءات الثورية ألغت بموجبها الملكية وجعلت الأموال مشاعة، وقضي على العلاقات الطبقية الاستغلالية وحل مكانها علاقات المساواة والتعاون والمحبة، ووجهت عملية التنمية نحو بناء اقتصاد اكتفائي متقدم لتلبية احتياجات السكان الأساسية المادية والروحية. ويذكر المقريزي أن الحكومة قبضت على كل أموال البلد وثماره وحنطته وشعيره لتوزعها بالتساوي على جميع الرعايا[1]. وأخذت الابل والغنم والمواشي وسرحت فيها رعاة وقوماً لحفظها والتنقل معها على نوب معروفة ويتلقون أجورهم من الدولة[2].

ففي قطاع الزراعة، ألغت السلطة الشعبية الاقطاع ووزعت الأراضي على الفلاحين الفقراء وأنشأت مزارع الدولة حيث كان يعمل فيها ثلاثون ألفاً من العمال الزراعيين يتلقون أجورهم من الدولة[3]. ويفسر الدوري إنشاء مزارع الدولة لتوفير الدخل للميزانية لتقوم الحكومة بخدماتها الاجتماعية[4]. وألغت الحكومة الثورية الضرائب على الأراضي[5]. أو أنقصت بعض الرسوم التي كان يئن من تحتها الزراع والعملة مما حفز الفلاحين في الإقبال على الزراعة وزيادة الإنتاج.

وكانت الحكومة تسلف الزراع ما يلزمهم من المال دون ربا لتشجيعهم في استثمار أراضيهم وتحسين ظروف حياتهم ومن أجل زيادة الانتاج وترقية الزراعة[6]. وكان الزراع يعيدون ما استلفوه من الحكومة حينما يتوفر المال لديهم ودون فائدة[7].

وفي سبيل توسيع رقعة الأراضي الفلاحية وزيادة الانتاج الزراعي اهتمت الحكومة بانشاء منظومات الري الاصطناعي مستغلة عيون الماء، فحفرت الترع وشقت الأقنية، وقد أبدى خسرو دهشته مما شاهد من تنظيم الري وكتب في صدد ذلك: وفي مدينة

---

(1) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص 161.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) ناصر خسرو: سفرنامة. ص 93.
(4) الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص 37.
(5) ناصر خسرو: المصدر ذاته ص93.
(6) نفس المصدر والصفحة.
(7) نفس المصدر والصفحة.

الحسا عيون ماء عظيمة، تكفي كل منها لإدارة خمس سواقي، ويستهلك كل هذا الماء بها، فلا يخرج منها[1].

وفي قطاع الصناعة، اهتمت القيادة القرمطية بتنميتها لتأمين احتياجات السكان من المنتجات الصناعية وتزويد الجيش بالسلاح والعتاد. وفي سبيل تحقيق هذه الأهداف اتخذت الحكومة عدداً من الاجراءات أهمها:

أ ـ إنشاء مطاحن حكومية تطحن للناس قمحاً مجاناً أي بدون أجرة. وكان العمال يعملون في طواحين الدولة لحسابها وتنقدهم أجورهم وتقوم بجميع نفقات المطاحن[2].

ب ـ إنشاء بنك صناعي لجذب الصناع الفنيين وتسليفهم المال لشراء أدوات حرفتهم ثم يعيدون ما استلفوه حينما يتوفر المال لديهم ودون ربا[3]. وكتب ناصر خسرو حول هذه النقطة: إن كل غريب يدخل للاحساء ويعرف صنعة ما، كانت الحكومة، إذا أراد، تسلفه ما يكفيه من المال لشراء ما يلزم حرفته من عِدَد وآلات ويرد ما استلفه حين يشاء دون فائدة[4].

وكانوا في حروبهم يحتفظون بالفنيين المهرة وأرباب الصناعة من الأسرى ويحملونهم إلى بلادهم[5].

ويصف المقريزي بدقة متناهية مدى اهتمام الدولة بتنظيم الصناعة وإشرافها على الإنتاج بقوله: ويجزون الصوف والشعر من الغنم ويفرقونه على من يغزله، ثم يدفعونه إلى من ينسجه عبياً وأكسية وغرائر وجوالقات، ثم تفتل منه الحبال، ويسلم الجلد إلى الدبَّاغ فإذا خرج منه سلم إلى خرازي القرب والروايا والمزاد. وما كان من الجلود يصلح نعالاً وخفافاً عمل منه، ثم يجمع ذلك كله، إلى خزائن ـ يقصد خزائن الدولة[6].

وفي حقل التجارة، احتكرت الدولة التجارة ولاسيما الخارجية منها وفتحت

---

(1) المصدر السابق ص92.
(2) المصدر ذاته ص93.
(3) نفس المصدر والصفحة.
(4) نفس المصدر والصفحة.
(5) اخبار القرامطة: جمع وتحقيق د. سهيل زكار ص 357.
(6) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص 164.

أسواقاً لها بالخارج، ونظمت الاستيراد والتصدير لمصلحة الشعب. وكانت أرباحها تنفق على الأعمال العمومية والخدمات الاجتماعية وتحسين مستوى معيشة الشعب.

وكان وضع البلاد المالي في زمن حكم القرامطة حسناً. فالضرائب خفيفة لا يشعر السكان بثقلها. وكان دخل الدولة حسب معطيات ابن حوقل يقدر بحوالي مليون ومائتي ألف دينار سنوياً ليس فيها سوى ثلاثين ألف دينار، تؤخذ من الأراضي بصورة أعشار[1] وهو مقدار طفيف بالقياس إلى خصب أراضي بلاد البحرين وعمان. وكانت موارد الخزينة الرئيسة تتكون من:

1 ـ الضريبة المفروضة على السفن التي تمر بمياههم الاقليمية[2].

2 ـ الضريبة المفروضة على الحجيج وقدرها دينار واحد على كل منهم[3] وقيل ضريبة على كل جمل خمسة دنانير والجمل المحمل سبعة دنانير[4].

3 ـ ضريبة سنوية على الخليفة العباسي وقدرها مائة وعشرون ألف دينار[5].

4 ـ ضريبة سنوية على الأخشيديين وقدرها ثلثمائة ألف دينار[6].

5 ـ غنائم الحرب.

6 ـ الدخل المتحصل من صادراتها الصناعية كالفوط الجميلة التي تصدر إلى البصرة وغيرها[7].

ومن تحليل موارد الخزينة يمكن الاستنتاج بأن الشعب لم يكن يتحمل سوى نسبة بسيطة منها، ذلك لأنها في معظمها من مصدر خارجي. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الدولة كانت تنفق جزءاً كبيراً من موارد خزينتها على الإنتاج والخدمات التعليمية والصحية والسكنية والإدارية وغيرها، اتضحت لنا الأسباب التي جعلت الشعب يعيش في بحبوحة.

وفي سبيل الحفاظ على موارد البلد المالية وعدم تسرب أموال الشعب إلى

---

(1) ابن حوقل: المسالك والممالك ص23، 21،

(2) ابن حوقل: صورة الأرض ج1 ص25 المسالك والممالك ص 21.

(3) مسكويه: تجارب الأمم ج2 ص60 الهامس.

(4) ابن الجوزي: المنتظم ج1 ص296. فرض أبو طاهر على الحجاج اتاوة يؤدونها إليه مقابل حمايتهم والمحافظة على أرواحهم./ المقريزي: اتعاظ الحنفا ص 244/ .

(5) الهمذاني، محمد بن عبد الملك: تكملة تاريخ الطبري. ج1 ص102.

(6) ابن الأثير: الكامل ج7 ص42. اخبار القرامطة: جمع وتحقيق ودراسة د. سهيل زكار ص 364.

(7) ناصر خسرو: المصدر ذاته ص92.

الخارج وتحرير اقتصاد البحرين من التبعية للاقتصاد العباسي، قامت الحكومة بصك عملة وطنية من الرصاص. وذكر ناصر خسرو «أن البيع والشراء والعطاء والأخذ يتم هناك، يقصد بلاد البحرين، بواسطة رصاص، وهذه العملة لا تسري في الخارج»[1]. وقد أسهم صك نقود وطنية إلى جانب احتكار الدولة للتجارة مساهمة ايجابية في تحقيق الاكتفاء الذاتي وبناء اقتصاد وطني مستقل ومتقدم.

وفي الميدان الاجتماعي، حقق النظام الجديد الديمقراطية الشعبية، ووفر الحرية والمساواة والعدل بين الجميع، فمنعت الحكومة الربا لحماية الناس من جشع المرابين، وقدَّمت المساعدات إلى الزراع والصناع لتشجيعهم في عملهم ولزيادة الانتاج، وأوجدت العمل للعاطلين بما أنشأته من مزارع ومصانع حكومية وخفضت الضرائب على السكان، وقدمت المعونات المجانية لمن تخرب بيته وأراد إصلاحه، ولم تكن لدى مالكه القدرة على إصلاحه[2]. وقضي على كل مظاهر الابهة في المسكن والملبس والاعياد والاحتفالات. وأشار إلى ذلك ابن حوقل بقوله: ومن رسمهم أن يركب مشايخهم وأولادهم فرادى فيجتمعون بموضع يعرف بالجرعاء قبلي الاحساء، ويلعب أحداثهم بالرماح على الخيول وينصرفون أفراداً بغاية التواضع ولبسهم البياض لا غير[3]. «واسقطت الجزية عن أهل الذمة»[*].

وكان الدخل يوزع بالعدل والتساوي بين جميع الرعايا. واختفت في المجتمع العربي البحراني الاشتراكي القرمطي الفوارق الاجتماعية، فلم يبق غني أو محتكر ولا فقير أو عاطل أو محتاج[4]. وأصبح إخلاص الفرد في العمل وما يقدمه من خدمة وعطاء للجماعة هو المعيار لتحديد مركزه الاجتماعي.

وأعطى النظام الجديد للمرأة ما للرجل من حقوق عائلية ومجتمعية. منحها الحق في العمل والتعليم[5]. وأعفاها من الأعمال الشاقة التي تتنافى وطبيعتها الأنثوية. لذلك قامت الحكومة بإنشاء مطاحن الحنطة على قوة الماء تخفيفاً لأعباء النساء حسب

---

(1) (2) ـ المصدر السابق ص93.

(3) ابن حوقل: صورة الأرض، القسم الأول ص26.

(*) أخبار القرامطة: جمع وتحقيق ودراسة الدكتور سهيل زكار ص 84.

(4) ناصر خسرو: المصدر ذاته ص93.

(5) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص 161.

تفسير الدكتور الدوري[1]. وسمح النظام الثوري للمرأة بالانتظام في سلك الدعوة والتدرج في مراتبها[2]، والاشتراك إلى جانب الرجل في ميادين القتال[3].

لقد حرر النظام القرمطي المرأة العربية من عبوديتها ووضعها الاجتماعي ـ الاقتصادي المهين، ومنحها ما للرجل من حقوق عائلية ومجتمعية وأعاد إليها كرامتها الإنسانية ومركزها اللائق كأم محترمة، ومربية فاضلة وعاملة منتجة ومناضلة شجاعة ومقدامة.

وأحدثت السلطة تغييراً نوعياً في مواد التربية وأهدافها، ووظفت التربية في خدمة النظام الجديد. وفي سبيل ذلك، انشأت الحكومة على عاتقها دوراً لتربية الأطفال، وأخذت الصبيان من سن الرابعة فما فوق لتربيتهم، تحت إشرافها المباشر وعلى نفقتها، على أفكار الاسماعيلية ـ القرمطية، وتعليمهم وتدريبهم على الفروسية. وفي ذلك يقول المقريزي: (وأخذ الصبيان، إلا أن يكونوا دون الأربع سنين سواء عبداً أو أمة أو حراً، وأجرى عليهم ما يحتاجون إليه، ونصب لهم عرفاء، وأخذ يعلمهم ركوب الخيل والطعان، وصارت دعوته طبعاً لهم)[4].

لقد غرست التربية القرمطية في نفوس الناشئة مبادىء: حب العمل، وإيثار مصالح الجماعة على المصالح الشخصية، والتواضع، والبساطة في الحياة، ووعي ثوري عند الجماهير لقضاياها الطبقية وكيفية الحفاظ على مكاسبها من خلال رصدها الدقيق ورقابتها على مواقف وسلوك قادتها السياسيين، والشجاعة والصمود في القتال التي ضرب بها المثل في التاريخ حتى قيل: (إذا كان القرامطة في ألف فإنهم يهزمون مائة ألف)[5] والتي اعترف بها ألد خصومهم الطبقيين وعدوهم الأكبر الخليفة العباسي المقتدر الذي قال، لما بلغه انهزام جيشه الكثيف أمام شجاعة القرامطة وصمودهم، لعن الله نيفاً وثمانين ألفاً يعجزون عن ألفين وسبعمائة[6].

وفي سياق بحثه عن النظام الاقتصادي ـ الاجتماعي وتقويمه له، كتب الدكتور

---

(1) الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص 37.
(2) عبد الله عنان: دولة إسلامية شيوعية: مجلة الكاتب المصرية تشرين الثاني (نوفمبر) 1945.
(3) الطبري: تاريخ الرسل ج8 ص245.
(4) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص 161.
(5) ابن الأثير: الكامل ج7 ص67.
(6) انظر ص340.

حسين مروة: (إن شكلاً من القطاع العام في جمهورية البحرين كان هو الطابع الغالب للمؤسسات الاقتصادية ـ الاجتماعية. وهذا هو الوجه الثوري الأساسي لهذه التجربة الفريدة في تلك العصور. ومن هنا بالذات تنبع قوة الصمود التي صانت هذه التجربة عشرات السنين رغم كونها محاطة بالقوى المعادية لها طبقياً وايديولوجياً، وكانت تعمل بكل جهد لخنقها قبل أن تصبح مثالاً خطيراً على النظام الاجتماعي لدولة الخلافة، ودويلاتها بعد ذلك. وحين لم تستطع خنقها شوهت تاريخها وطمست ايجابياتها ولم تدع ما يبرز منها للتاريخ سوى سلبياتها وأخطائها التي كانت أخطاء فادحة بالفعل) / النزعات المادية. ج2 ص22.

إن قيام الجمهورية العربية الاشتراكية الشعبية القرمطية في بلاد البحرين وحفظ نظامها الاجتماعي وتأثيره أكثر من خمسة قرون ثم بلوغ ذلك النجاح الاقتصادي الذي شهد به كتبة العرب والايرانيين ممن زاروا البحرين أمثال ابن حوقل والمقدسي وخسرو مع كل ما كان يحيط بها من الصعوبات وتعدد الخصوم المتشوقين إلى هدمها والاستيلاء على ثروتها لأكبر دليل على أن الدولة المشاعية كانت قائمة ليس فقط على دعائم اقتصادية واجتماعية قوية بل على أسس أدبية أخلاقية صحيحة كانت تتجلى في حياة المجموع والأفراد على حد سواء.

إن ابن حوقل[1] زار البحرين في القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، وأقام بين القرامطة أشهر عديدة ودرس نظامهم الاجتماعي وحياتهم اليومية عن كثب، والتقى مع عدد من زعماء القرامطة وبعض الشخصيات البارزة في الدولة وكتب عنهم في مؤلفه (المسالك والممالك) معلومات هامة وقيمة تخالف ما يتهمونهم به من الأفعال البذيئة والمبادىء السافلة، وتدل على احترامه لهم واعترافه بفضلهم وأدبهم وحسن سيرتهم، ثم زارهم بعده أيضاً المقدسي[2]، وكتب عنهم فصلاً (ص 67 ـ 113) في مؤلفه أحسن التقاسيم، لم يذكر فيه ما يمس سمعتهم. كما زارهم عام 443هـ/ 1052م ناصر خسرو[3] وأقام بينهم حوالي نصف عام يراقب فيه نظامهم، ويتقصى أفكارهم وأخلاقهم، ودوَّن عنهم في (سفر نامته)، أموراً كثيرة، يتعلق بعضها بنظامهم

---

(1) ابن حوقل: جغرافي ورحالة عربي شهير.

(2) المقدسي: من أشهر الجغرافيين والرحالة العرب وأدقهم.

(3) ناصر خسرو: كاتب وشاعر ايراني.

السياسي والاقتصادي والمالي، وبعضها الآخر له صلة بحياتهم الاجتماعية والأدبية[1]؛ فلم يسمع أحداً منهم يشكو من الحكومة أو يتذمر من ولاتها أو من النظام الجديد، مما يستنتج أن الشعب كان مطمئناً راضياً عن حياته من كل الوجوه، وقال عنهم: (إنهم لا يشربون خمراً مطلقاً)[2].

إن ثورة القرامطة لم تشيِّد مجتمع العدل والمساواة والمحبة وحسب، وإنما أيضاً كانت مدرسة جديدة لتربية الأجيال الناشئة على مبادىء الشرف والشجاعة والامتناع عن المسكرات والفجور وكل ما من شأنه أن يخل بالنظام العام ويفسده.

وقد منحت دولة القرامطة الأفراد جميعاً حق الاعتقاد الديني وحرية ممارسة الشعائر الدينية ـ فقد ذكر خسرو: (أن القرامطة لم يكونوا يمنعون المسلمين المقيمين بينهم من بناء المساجد وإقامة الصلاة وسائر أصول الدين وشعائره)[3]. وقال أيضاً: (إنهم سمحوا ببناء مسجد على حساب أحد المسلمين الفرس)[4].

لقد كانت عقيدة القرامطة هي تحقيق مبادئهم وأهدافهم وطموحاتهم الكبرى السياسية والاجتماعية في إقامة مجتمع العدل والمساواة والمحبة بين جميع الرعايا دون تمييز أو تفريق. وقد حققوا ذلك فعلاً في دولتهم المشاعية التي بلغت خلال فترة قصيرة جداً من الزمن، رغم المحيط المعادي وتعدد الخصوم والصعوبات الكثيرة التي واجهتها، من الرقي في اقتصادياتها ومعداتها الحربية وأخلاق رعاياها وآدابهم شأواً بعيداً بفضل نظامها الجديد الذي أدخلوه على حياتهم لأول مرة في التاريخ العربي ـ الإسلامي.

لقد بينت حركة القرامطة قوة الثورة الفلاحية وقدرتها على الاستمرار مدة طويلة في البلاد العربية، وأصالتها المرتبطة بالعقلانية الفلسفية والسماحة الدينية والمساواة الاجتماعية. كما أنه يرجع إلى القرامطة الفضل في بث الروح الثورية في تنظيمات تابعة للطوائف الحرفية، تلك الطوائف التي كانت قبلها مجرد هيئات مشتركة لا تتجزأ عن الهيكل البيروقراطي للطغيان الشرقي[5].

---

(1) انظر ص 352 ـ 358.

(2) ناصر خسرو: سفرنامة ص 93.

(3) المصدر ذاته ص93.

(4) المصدر ذاته ص93.

(5) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي. ص169.

حركات العوام

وفي كبريات مدن الخلافة، قام العوام بهبات وانتفاضات عديدة واشتركوا في بعض الحروب الأهلية وساهموا في حركات الفلاحين، وانخرطوا في التنظيمات الثورية السرية أملاً في تحسين ظروف حياتهم الاقتصادية والاجتماعية. هذا وإن نهوض حركة المقاومة المدينية تلك تشكل في حد ذاتها ظاهرة جديدة في مجتمع الخلافة.

لقد ارتبط ظهور العوام بالوضع الطبقي والتقسيم الاجتماعي للعمل وانفصال الحرفة نهائياً عن الزراعة. وكانت فئات العوام تتألف من العمال والفعلة والحرفيين وأصحاب البيوعات الصغيرة وسائر كادحي المدن. وبجهود العمال والفعلة، شيدت المدن والمساجد والمدارس ودور الكتب والبيمارستانات (المستشفيات) والقلاع والأسوار وسائر المرافق والخدمات الحضرية. وبمهارة الصناع اليدوية تم صنع أدوات العمل وإنتاج سلع الاستهلاك ولوازم الجيش من السلاح والعتاد.

وكان العوام يشكلون أكثرية السكان في الأمصار. وقد خلقت الشروط المادية المزرية التي كانوا يعيشونها، شعوراً بالمصلحة المشتركة فيما بينهم، وذلك على الرغم من اختلاف عناصرهم الجنسية ومذاهبهم الدينية وخاصة في العاصمة بغداد. كما أسهمت اللغة العربية التي كانوا جميعاً يتكلمونها في تعزيز تضامنهم الطبقي[1].

وكان العوام، الأحرار ونصف الأحرار، والعبيد يشكون من العسف الشديد في توزيع الدخل وسوء الوضع المعاشي والفوضى السياسية[2]، ويتذمرون من الغلاء نتيجة لسوء إدارة الحكام واحتكار المواد الغذائية من قبل وجوه الدولة والتجار المثرين[3].

وكان الغلاء ينزل النكبات بالأحرار وصغار الموظفين وفقراء العوام. وعلى العكس من ذلك، فإن ارتفاع الأسعار يكون في صالح المحتكرين والتجار وأرباب

---

(1) زيدان: تاريخ التمدن الاسلامي ج5 ص51.

(2) التنوخي: الفرج بعد الشدة ج2 ص107 ـ 108.

(3) ابن الأثير: الكامل ج6 ص163 و249 و281 و284 و299 و317 و358 ج7 ص36، 122، 131. 254، 312 ج8 ص29، 46، 50، 81، ج9 ص145، 255 مسكويه: تجارب الأمم ج1 ص 73، 74. ج2 ص25، 91. المقريزي: إغاثة الأمة في كشف الغمة ص 11، 13، 14، 23، 26، 39.

المهن الحرة[1]. وكان الاحتكار السبب الرئيسي للغلاء[2]. كما كان العوام يشكون من البطالة. وكان وضعهم يزداد سوءاً كلما تعاظم التباين الاقتصادي وتفاقمت الأزمة المالية واشتد الغلاء واستفحلت البطالة واضطربت الأوضاع السياسية وفسدت الادارة وتفسخ الحكم.

وقد نتج عن ازدياد الاستثمار الاقطاعي وتطور الاقتصاد النقدي وتمركز رأس المال والعمل وتدهور الوضع المالي وانتشار الفوضى في دار الخلافة والغلاء وضع وصفه مسكويه بقوله: (الرعية هالكة والدور خراب والأقوات معدومة والجند متهارجون)[3].

لم يقبل العوام ظروف حياتهم المزرية بهدوء، بل حاولوا تحسين أحوالهم بكافة الوسائل السلمية منها أو الثورية. وأسهمت دعاية الأحزاب السياسة كالاسماعيلية ورجال الفكر التقدميين كإخوان الصفا وغيرهم في إثارة بعض الوعي في صفوف فئات العوام وتشجيعهم على الخروج والثورة على الحكومة. فكونوا الجمعيات والنقابات وانتسبوا إلى الأحزاب الثورية السرية واشتركوا في العديد من الانتفاضات الشعبية أملاً في إحداث تغيير في سياسة الحكومة لصالح الجماهير العاملة.

ففي عام 307هـ، ثارت العامة والجند في بغداد، حين احتكر حامد بن عباس، ملتزم ضرائب السواد، الغلال وأخر بيع محصول الحبوب حتى ارتفعت الأسعار في العاصمة إلى درجة خطيرة. وتوجهوا إلى الجسور فأحرقوها وفتحوا السجون وأطلقوا السجناء ونهبوا دار صاحب الشرطة... وركب الملتزم حامد إلى دار الخليفة المقتدر فرجمه العوام بالآجر، ولم تسكن ثورتهم الا بعد أن أمر المقتدر، حينما شعر أن كرسي الخلافة يهتز من تحته، بفتح مخازن الحنطة والشعير العائدة لحامد ولأم المقتدر، السيدة، وأولاد الخليفة والأمراء والوجوه من أهل الدولة وبيع ما فيها وفق السعر المخفض الذي حدده الخليفة ومطالبته التجار أن يبيعوا بمثل هذا السعر، فرخصت الأسعار ورضي العامة وسكنوا[4].

وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، كانت بلاد الشام مسرحاً لنزاع

---

(1) ابن مسكويه: تجارب الأمم ج1 ص74 ـ 75.
(2) المقريزي: إغاثة الأمة في كشف الغمة ص 13، 14، 17 ـ 18، 36.
(3) ابن مسكويه: تجارب الأمم ج2 ص314.
(4) ابن مسكويه: المصدر ذاته ج1 ص73 ـ 75.

ضارٍ بين البيزنطيين والبويهيين والقرامطة والفاطميين، مما ألحق الخراب بعمران البلد وشدد من المحن والضائقات الاقتصادية ـ الاجتماعية بفئات العوام. مما حملهم على الثورة في وجه عبث الجند والفساد والظلم والاضطهاد. ففي عام 363هـ، ثار العوام على مظالم الجيش الفاطمي، وتحصنوا بسور المدينة، وصمدوا في قتالهم وانضم إليهم من تخلف عنهم، وكثر النشاب على الجند الفاطمي فأثخن فيهم واضطرهم إلى التراجع، فألقى العساكر النار في البلد وأحرقوا ناحية الفراديس وما لا يحصى من الممتلكات[1]. وغلب العامة على المدينة وليس للأعيان معهم حكم ولا للسلطنة عليهم طاعة[2].

وما العيارون والفتيان والشطار والصعاليك والحرافيش الا شرائح من جسد العامة. وكان منشأ هذه التنظيمات مجموعات صغيرة من العزاب شبه المتنسكين التي تعيش في كنف الملكية المشاعية، ثم أصبحت أغلبيتها تتكون من أفراد ينتمون إلى الفئات الدنيا وصبيان الحرفيين وانضم إليهم صغار التجار والأعيان والشعراء وهاربون من السجون[3]. واصطبغت هذه المجموعات، ولا سيما الفتيان، بصبغة طائفية حرفية[4]. وما كانت حركات العيارين والفتيان الا ثورة على حكم أسياد السياسة وأرباب المال[5]. ويبدو أن المؤرخين لم يفهموا روح حركتهم فنعتوهم باللصوص وقطاع الطرق[6].

وترجع حركتهم إلى أسباب اقتصادية واجتماعية، يأتي في مقدمتها التباين الشديد في الثروة وتوزيع الدخل وسوء الوضع المعاشي للعوام والفوضى السياسية[7] والبطالة. فقد ذُكر أن عياراً قال: (نشأتُ فلم أتعلم غير معالجة السلاح وجئت إلى بغداد أطلب الديوان، يقصد البحث عن عمل، فما قبلني أحد فانضممت إلى هؤلاء وطلبت الطريق فلو كان أنصفني السلطان ونزلني بحيث استحق من الشجاعة لانتفع بخدمتي وما فعلت هذا)[8].

(1) ابن الأثير: الكامل ج7 ص54 ـ 5.
(2) المصدر ذاته ص63.
(3) أحمد صادق سعد: تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي ص167.
(4) المصدر ذاته ص167.
(5) الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص 283.
(6) المصدر ذاته ص284.
(7) التنوخي: الفرج بعد الشدة ج2 ص107 ـ 108.
(8) المصدر ذاته ص107.

وكان للعيارين طريقة يسيرون عليها ومبادىء أخلاقية. ويسمون طريقتهم (الفتوة) وربما حلف أحدهم بحق الفتوة فلم يأكل ولم يشرب[1]. ومن عناصر فتوتهم الرفق بالفقراء والضعفاء، والرأفة بجميع الناس وعدم ايذاء أحد، والعفو عمن يسيء إليهم. فالبرجمي العيار كان فيه فتوة وله مروءة لم يعرض إلى امرأة ولا إلى من يستسلم إليه[2]. وكان يحمي النساء ولا يسمح بالتعرض لهن[3]. ويذكر التنوخي عن ابن حمدون أن (فيه فتوة وظرف... لا يفتش امرأة ولا يسلبها)[4].

ومن مبادئهم أن (الفتى لا يزني ولا يكذب ويحفظ الحرم ولا يهتك ستر امرأة)[5]. فالوفاء والصدق والتواضع والفضيلة والمروءة والأمانة والعفة والندى والصبر على احتمال الأذى من الصفات الرئيسة عندهم[6].

وكانت هجماتهم موجهة بالدرجة الأولى إلى بيوت الأغنياء والأسواق وأصحاب الشرط والشخصيات الكبيرة[7]. فابن حمدون فيه (فتوة وظرف، فكان إذا قطع لم يعرض لأصحاب البضائع القليلة التي تكون دون الألف وإذا أخذ ممن حاله ضعيفة قاسمه عليه فترك شطر ماله في يديه)[8]. ولم يعدموا حجة فقهية لنهب أموال الأثرياء. فابن سيار يسوّغ عمله قائلاً:

(إن هؤلاء التجار لم تسقط عنهم زكاة الناس لأنهم منعوها وتجردوا فتركت عليهم فصارت أموالهم بذلك مستهلكة واللصوص فقراء إليها، فان أخذوا أموالهم، وإن كره التجار ذلك، كان مباحاً لهم، لأن عين المال مستهلكة بالزكاة وهم مستحقون لها شاء أرباب الأموال أم كرهوا)[9].

واستطاع البرجمي، أبرز متقدميهم، أن يكسف السلطان، ويستبد ببغداد مدة خمس سنوات 421 ـ 425هـ. وبلغ من عجز الحكومة تجاهه أن (العوام ثارت

---

(1) ابن الجوي: تلبيس ابليس ص 392.
(2) ابن الأثير: الكامل ج8 ص7 ـ 8.
(3) ابن الجوزي: المنتظم ج8 ص77.
(4) التنوخي: الفرج بعد الشدة ج2 ص108.
(5) ابن الجوزي: تلبيس ابليس ص392.
(6) القشيري: الرسالة القشيرية ص 134 ـ 136.
(7) ابن الجوزي: المنتظم ج7 ص174. ابن الأثير: الكامل ج9 ص151.
(8) التنوخي: الفرج بعد الشدة ج2 ص108.
(9) المصدر ذاته ص106.

بجامع الرصافة ورجموا الخطيب وقالوا: إن خطبت للبرجمي وإلا فلا تخطب لخليفة ولا لملك)[1]. وجبى العيارون ضرائب الأسواق وارتفاع المواخير والقيان وكانوا يخاطبون بالقواد[2].

ويبدو أن السلطة شعرت بتعاظم قوة العامة وقدرت مسبقاً النتائج الخطيرة التي يحتمل أن يتعرض إليها نظام الخلافة فيما لو اتسعت وتحوَّلت إلى حركة جماهيرية شعبية شاملة ينخرط في صفوفها عوام مدن الخلافة وفلاحوها وعبيدها. لهذا لجأت إلى وسائل عديدة بقصد افراغ حركة العامة من مضمونها الثوري وإضعافها ومنعها أو إعاقتها من التوسع والتطور وصرفها عن تشديد النضال السياسي والاجتماعي ضد أسياد السياسة وأرباب المال.

وكان من بين الوسائل العديدة التي لجأت إليها السلطة في إجهاض حركة العامة وإعاقة مسيرتها النضالية، توجيهها في مصلحة الدولة وشق صفوفها، وبث سموم الفتن المذهبية في أوساطها وتحريض عناصرها على الاقتتال.

ففي إبان الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون، استنجد الأمين بالعيارين عندما حاصرته جيوش أخيه في بغداد وعجزت عساكره عن الدفاع. ويبلغ عدد العيارين الذين اشتركوا في الحرب إلى جانب الأمين خمسين ألفاً[3]. وكانوا يقاتلون عراة وفي أوساطهم المآزر وعلى رؤوسهم خوذ الخوص ودرق البواري[4]. وحاربوا جيوش المأمون بالمقاليع والحجر[5]. وكانوا أهل مهارة بذلك، وأبلوا بلاء حسناً. وفيهم قال الشاعر علي الأعمى:

خَرَّجَتْ هذه الحروب رجالاً ... لا لقحطانها ولا لنزار
معشراً في جواشن الصوف يغدو ... ن إلى الحرب كالأسود الضواري
ليس يدرون ما الفرار إذا الأبـ ... ـطال عاذوا من القنا بالفرار
واحد منهم يشد على الـ ... ـفين عُرْيانُ ماله من ازار

(1) ابن الأثير: الكامل ج8 ص7 ـ 8. ابن الجوزي المنتظم ج8 ص75.
(2) ابن الجوزي: المنتظم ج8 ص78.
(3) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص413.
(4) المصدر ذاته ص411.
(5) ابن الأثير: الكامل ج5 ص159.

ويقول الفتى إذا طعن الطّعـ ـنة: خذها من الفتى العيَّار[1]

ولكنهم لم يثبتوا أمام جنود المأمون النظامية ومجانيقه[2] وقتل منهم خلق كثير. وقال الشاعر في زهير وقتله الناس بالمجانيق:

لا تقرب المنجنيق والحجرا فقد رأيت القتيل إذا قبرا
باكَرَ كي لا يفوته خبر راح قتيلاً وخلّف الخبرا
يا صاحب المنجنيق ما فَعَلَتْ كفاك لم تبقيا ولم تَذَرا[3].

وحدث مثل ذلك في حرب المستعين والمعتز عام 251هـ. فلما حوصر المستعين ببغداد، استنجد بالعيارين، وفرض لهم الأموال، وجعل عليهم عريفاً اسمه ينويه، وعمل لهم تراساً من البواري المقيرة وأعطاهم المخالي ليجعلوا فيها الحجارة للرمي[4]. وانتهت الحرب بعقد صفقة بين زعامات الطرفين المتحاربين من وراء ظهر العوام والعيارين الذين تكبدوا خسائر فادحة في الأرواح[5].

وجرياً على سياسة فرق تسد، لجأ الأمراء البويهيون، أصحاب السلطة الفعلية في بغداد، إلى بث الفتن المذهبية بين العوام وتحريضهم على أعمال الاقتتال وإغراقهم في لجة الدماء، ناهيك عما لحق بالحياة الحضرية وحركة التجارة والصناعة من أضرار فادحة تقع مسؤوليتها بالتحديد وبالدرجة الأولى على الحكام البويهيين مسببي تلك الأحداث. يؤيد ذلك ما ذكره ابن مسكويه من أن صاحب شرطة بغداد تعصب للطائفة المنتسبة إلى السنّة على الشيعة فثار أهل التشيع واقتتل العامة فيما بينهم[6].

وفي سنة 381هـ، كثرت الفتن بين العامة ببغداد وتكرر الحريق في المحال[7] وتكررت أحداث الفتن المذهبية أيضاً على امتداد القرن الخامس الهجري في أعوام 443، 444، 445، 486هـ[8]. وفي إبان الفتن بين العامة، احترقت محلة الكرخ،

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل ج8 ص446.
(2) ابن الأثير: الكامل ج5 ص157.
(3) الطبري: المصدر ذاته ج5 ص446.
(4) الطبري: المصدر ذاته ج8 ص443. ابن الأثير: الكامل ج5 ص321.
(5) ابن الأثير: الكامل ج5 ص322 ـ 329.
(6) ابن مسكويه: تجارب الأمم ج2 ص306.
(7) ابن الأثير: الكامل ج7 ص299.
(8) المصدر ذاته ج8 ص59، 65، 169.

وكانت مركز التجارة وموطن الشيعة ببغداد، وتخربت أسواق العروس والأنماط والصفارين والدقاقين والخراطين والقلائين واحترقت مدبغة الجلود[1].

يستبين من الأحداث السابقة وغيرها، أن العامة لم تكن تتحرك إلا من أجل الدفاع عن القضايا المعبرة عن مصالحها الاقتصادية والاجتماعية، يدفعها إلى ذلك الحافز الطبقي العفوي رغم كل المعوقات والتأثيرات السلبية لايديولوجية دولة الخلافة في كبح نضالها.

هذا وعلى الرغم مما اتسمت به حركة العامة من عفوية ونقص في التنظيم وانعدام الزعماء المجربين ومحليتها وعدم شمولها لعوام مدن الخلافة وتحالفها مع الفلاحين والعبيد على برنامج محدد، وما ألحقته سلطة الخلافة بالحركة من قمع وتنكيل وتخريب وإضعاف لقواها المادية والمعنوية، فإنها واصلت كفاحها البطولي طوال عهد الخلافة من أجل تحسين ظروف حياتها. ومن صلبها، تولدت الحركات الجماهيرية الشعبية العربية في العصور الحديثة.

نتائج الحركات الشعبية

على الرغم من أن الانتفاضات الشعبية لم تستطع أن تضع حداً للاستغلال الاقطاعي المرهق والتعسف الحكومي، الا أنها هزت الخلافة وزعزعت كيانها وتركت آثاراً جساماً في النظام الاجتماعي والسياسي أبرزها: إضعاف قوة السلطة المركزية وتجزئة الامبراطورية ونشوء الامارات الاقطاعية الوراثية المستقلة في الولايات وتطور الاقطاع فيها، وازدياد نفوذ الأتراك وسيطرتهم على الجيش والادارة وتسلطهم على الخلفاء ـ حتى فقدوا سلطاتهم الفعلية ـ واهتزاز جلال السلطان وتداعي هيبة الخلافة وارباك خزينتها.

غير أن الانتفاضات الفلاحية، بما فيها البابكية، ساعدت من جهة أخرى على تطور القوى المنتجة وهذا هو الدور الثوري من حيث محتواه، والتقدمي موضوعياً الذي لعبته الانتفاضات الثورية.

وإذا كانت ثورة الزنج قد انتهت إلى الاخفاق، إلا أنها تركت آثاراً في النظام الاقتصادي لدولة الخلافة. فقد تضاءل نظام العبودية ولم يزل بالكلية، حيث ظل

(1) المصدر السابق ج7 ص49. ابن الجوزي: المنتظم ج8 ص55.

الناس يستخدمون العبيد في الأعمال الصناعية ولكن استغلالهم استغلالاً بشعاً في أعمال الري والزراعة زال بصورة عامة. كذلك تقلصت تجارة الرق التي كانت قائمة بين بلدان الخلافة وأفريقيا إلى حد أدنى، إذ أن الطلب على العبيد أصبح مقتصراً على اقتنائهم لأغراض الخدمة المنزلية.

وقد بينت حركة القرامطة قوة التجربة الاجتماعية الثورية الرائدة وقدرتها على الصمود مدة طويلة في وجه القوى المعادية المحيطة، وأصالتها المرتبطة بالعقلانية الفلسفية والسماحة الدينية والمساواة الاجتماعية. كما أنه يرجع إلى القرامطة الفضل في بث الروح الثورية في تنظيمات تابعة للطوائف الحرفية، تلك الطوائف التي كانت قبلها مجرد هيئات مشتركة لا تتجزأ عن الهيكل البيروقراطي للطغيان الشرقي.

الفصل الخامس عشر

ايديولوجية دولة الخلافة وموقف الأحزاب من الحكم الأموي

منذ وفاة الرسول الكريم، تفجر الصراع الذي ظل كامناً زمناً ما، بين فئات الجماعة الاسلامية حول قضايا الخلافة ومنصب الخليفة وحول من يجب أن يتولى الخلافة. هل الخلافة حق إلهي أم هي حق للمسلمين؟ وهل منصب الخليفة منصب إلهي أم هو حق للمهاجرين أم للانصار أم لبني هاشم من قريش أم لقريش من العرب أم للمسلمين من العرب وغير العرب حتى ولو كان «عبداً حبشياً» كما قال الخوارج بعد ذلك؟

وكانت مسائل موضوع الصراع وحجج كل فريق حولها دينية الشكل سياسية اجتماعية شبه طبقية الجوهر والمضمون.

ونشأت دولة الخلافة، بأجهزتها وقتذاك، تحقيقاً لضرورة تاريخية بعد ظهور التمايز الطبقي في مجتمعها ذاك[1]. وكانت الدولة العربية الإسلامية التي نشأت في القرن السابع الميلادي شبه اقطاعية في عهد الأمويين واقطاعية في عهد العباسيين.

وكان ايديولوجية الدولة العربية ـ الإسلامية تعبيراً ساطعاً عن مصالح الاقطاعيين وكبار التجار وأرباب المال وأصحاب البيوتات المالية. واستخدمت الأسرتان الحاكمتان، الأموية والعباسية جهاز الدولة من أجل الدفاع عن مصالح الطبقة السائدة وتعزيز استغلالها لشغيلة الأحرار ونصف الأحرار والعبيد.

وفي سبيل تضليل الجماهير ودفعها إلى الاستسلام ووأد حقها الطبيعي في النضال

---

(1) انظر ص83.

لتغيير الحياة نحو الأفضل، استخدم حكام تينك الدولتين الدين، حيث نصبوا أنفسهم حماته لتخليد سلطان المستغلين على الجماهير الشعبية، وأضفوا على حكمهم صفة القداسة الإلهية، التي تمنحهم حق السيطرة المطلقة التي تعني أن الاعتراض عليهم أو الخروج على طاعتهم أو الثورة على حكمهم، هو اعتراض على حكم الله وخروج على طاعة (أولي الأمر) التي فرضها الله. يؤيد ذلك قول عثمان للذين طلبوا إليه أن يخلع نفسه بأنهم قد طلبوا شيئاً عظيماً: ما كنت لأخلع سربالا سربلنيه الله عز وجل. والله لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إليَّ من أن أنزع قميصاً قمصنيه الله عز وجل[1]. وهذا يعني أن عثمان يرى بأن الخلافة تكليف من الله وثوب أسبغه الله عليه، فهو ليس مسؤولاً أمام الناس، وإنما مسؤول أمام الله، وبالتالي ليس للمسلمين الحق في أن يراقبوه أو يعزلوه فضلاً عن أن يعاقبوه[2]. وهذا المفهوم عن الخلافة والخليفة إنما يمثل في جوهره الاتجاه السياسي - الاجتماعي للأريستقراطية الطبقية الحاكمة.

وعندما انتقلت الخلافة إلى الأمويين، استخدم هؤلاء الجبرية كتعبير عن الفكر الطبقي لدولتهم. يؤيد ذلك ما رواه القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، أن معاوية بن أبي سفيان، مؤسس الدولة الأموية، أظهر أن ما يأتيه بقضاء الله وقدره، ليجعله عذراً في ما يأتيه ويوهم أنه مصيب فيه، وأن الله جعله إماماً وولاه الأمر، وفشا ذلك في ملوك بني أمية[3]. وهذا يعني أن الله الذي يسير الأمور، قد نصَّب بني أمية ودولتهم على الناس، وأن أفعال حكامهم كانت بقضاء الله وقدره، يتوجب على المسلمين الخضوع إليها. وما دام ليس في مقدور الإنسان أن يعارض سلطة الله، ولا أن يمنع عن نفسه قضاء الله وقدره، أي أنه لا يملك حرية الاختيار في أفعاله، فعلى المسلمين إذن بحكم هذه الجبرية الإلهية، أن يستسلموا للحكم الأموي، لأنهم بذلك يستسلمون لقضاء الله وقدره.

إن استسلام جماهير الكادحين لحكم القضاء والقدر إنما يعني تعزيز جبروت السلطة أولاً وسد أبواب الأمل أمام المسلمين للخلاص من ظلم هذه السلطة ثانياً، وهذا ما كان يريده الأمويون وأقصى ما يطمحون إليه. وهكذا أفصح معاوية بكل وضوح عن ايديولوجية الحكم الأموي، القائم باسم الحق الإلهي، أي باسم قضاء

(1) انظر ص73.
(2) انظر ص5.
(3) عبد الجبار بن أحمد الهمذاني: المغني في أبواب التوحيد والعدل ج8 ص4.

الله وقدره كما كان يزعم بنو أمية. وسار على هذا النهج جميع خلفائهم وعمالهم تقريباً.

لقد كانت فكرة القضاء والقدر سلاح الأمويين الديني للدفاع عن مواقعهم السياسية ومصالحهم الطبقية. وأثر بثُّ هذه الفكرة في أوساط المسلمين تأثيراً سلبياً في تيئيس جماهير المستثمَرين والمستخدمين والمعدمين البؤساء، وزادهم الأمويون استسلاماً لها بما كانوا ينشرونه في الناس عن طريق منظريهم ووعاظهم من أن حكمهم بالذات هو من قضاء الله وقدره وأن أعمالهم، التي تنشر الاستياء والتذمر، هي أيضاً من قضاء الله وقدره على حد تعبير معاوية أول الجبريين.

إذن كانت ايديولوجية الجبريين في بعض أفكارها ملائمة لسياسة الدولة الأموية. والجبر نفي الفعل حقيقة عن الإنسان وإضافته إلى الله[1]. والجبرية فرق منها الجَهْمية أصحاب جهم ابن صفوان زعيم الجبرية الخالصة[2]. ومن أفكارها أن الإنسان مجبر في أفعاله، لا اختيار له ولا قدرة ولا إرادة، وإنه لا يستطيع أن يعمل غير ما عمل، وأن الله قدر عليه أعمالاً لا بد أن تصدر منه، ويخلق فيه الأفعال كما يخلق في سائر الجمادات، وتنسب إليه الأفعال مجازاً كما تنسب إلى الجمادات. فالثواب والعقاب جبر، كما أن الأفعال كلها جبر[3]. ومنها الضرارية أصحاب ضرار بن عمر. وتتميز أن من مبادئها مبدأ يقول: إن الخلافة تصلح في غير قريش، حتى إذا اجتمع قرشي ونبطي قدمنا النبطي، إذ هو أقل عدداً وأضعف وسيلة فيمكننا خلعه إذا خالف الشريعة[4].

يتبين مما تقدم، أن الجبريين، وإن كان في ايديولوجيتهم أفكار تلائم السياسة الأموية، الا أنهم كانوا حزباً له أفكاره ومواقفه المستقلة عن سياسة الدولة الأموية. يؤيد ذلك اشتراك جهم بن صفوان في ثورة الحارث بن سريج التميمي سنة 116هـ على حكم الخليفة هشام بن عبدالملك[5]. وقد هزم الحارث وأُسِر جهم بن صفوان ثم قتل. ولم يقتله الأمويون لجبريته، لأنهم هم أهل الجبر وحماته، وإنما قتلوه لأمر

---

(1) الشهرستاني: الملل والنحل ج1 ص85.

(2) المصدر ذاته ص86.

(3) المصدر ذاته ص87.

(4) المصدر ذاته ص91.

(5) انظر ص191.

سياسي لا علاقة له بالدين على حد تعبير أحمد أمين[1]. أي لأنه ثار مع الثائرين على حكم بني أمية. وكان جهم صاحب نزعة عقلية في طريقة تفكيره بالرغم من جبريته، وكان الأمويون يطاردون أصحاب هذه النزعة[2].

وأيد المرجئة الأمويين بفكرهم[3] ويعلل غولد تسيهر قيام مذهب المرجئة وما يبدو من كونه متسامحاً مع الأمويين، بأن ذلك راجع إلى ضرورة قيام مذهب حينذاك يقرر أن ايمان المسلمين يرجأ الحكم بشأنه إلى الله، لأن الأمويين مغتصبون ولكنهم في الوقت نفسه كانوا حكام المسلمين[4]. فلا بد إذن من قيام هذا المذهب لمنع الحكم المعجل عليهم بالكفر وتأجيله إلى الله نفسه، كيلا يكون تعجيل الحكم من قبل المسلمين أنفسهم دافعاً إلى الثورة بوجه حكامهم[5].

ويبدو أن موقف المرجئة المؤيد للحكام الأمويين قد تغير. وذلك نتيجة لتفاعلهم مع الأحداث اليومية وتأثرهم بآراء الخوارج والشيعة وبالثورة على الظلم والسلطان الجائر، ولتبنيهم بعض مبادىء القدرية في الحرية الانسانية[6]. وأصبح الارجاء بمفهومه الثوري الجديد ثالث أحزاب المعارضة للحكم الأموي إلى جانب الخوارج والشيعة[7]. فقد اشترك المرجئة في عدد من الثورات المناوئة للسلطة الأموية كثورة عبد الرحمن بن الأشعث[8] وثورة الحارث بن سريج[9].

لقد اصطدمت الجبرية، ايديولوجية الأريستقراطية الطبقية الحاكمة، منذ ظهورها في عهد عثمان، بمقاومة الجماهير الشعبية التي واجهت نظرية الحق الإلهي للخليفة في الحكم المطلق بمفهوم (الأمة فوق الخليفة، والخلافة تكليف من الأمة، وأن الخليفة مسؤول أمامها) (اردد خلافتنا واعتزل أمرنا)[10].

---

(1) أحمد أمين: فجر الاسلام ص 287.

(2) د. حسين مروة: النزعات المادية ج1 ص566.

(3) أحمد أمين: فجر الإسلام ص280.

(4) غولدتسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام ص75.

(5) د. حسين مروة: المصدر ذاته ص563.

(6) د. اسماعيل محمود: الحركات السرية في الإسلام ص37.

(7) المصدر ذاته ص38 ـ 39.

(8) الطبري: تاريخ الرسل ج5 ص157 ـ 158 ـ 162 ـ 169.

(9) المصدر ذاته ص433.

(10) انظر ص73.

وكان مفهوما الجبرية وسيادة الأمة يعكسان على الصعيد الفكري التناقضات الاقتصادية ـ الاجتماعية والسياسية بين الأريستقراطية المستبدة شبه الاقطاعية من جهة والجماهير الشعبية المضطهدة من جهة أخرى. وكانت الصراعات الاجتماعية تزداد حدة في عهد الأمويين بمقدار اشتداد الظلم الاقطاعي والتعسف الحكومي وتردي أحوال الجماهير.

لقد قاومت أحزاب المعارضة حكم بني أمية ايجابياً وسلبياً، ناهضته بالثورة المسلحة حيناً، وعارضته بفكرها أحياناً أخرى. وكان الخوارج والشيعة في طليعة من تصدى لمقاومة حكم الأمويين.

وقد جاءت حركة الخوارج تعبيراً عن النقمة المتزايدة في المجتمع العربي ـ الإسلامي نتيجة لما كان يعتمل في داخله من متناقضات اقتصادية واجتماعية وسياسية. وكانت حركة الخوارج في نشأتها الأولى استمراراً للثورة التي قتل فيها عثمان، أي استمراراً للنضال ضد الظلم والمحاباة والتمييز وفي سبيل العدل والمساواة وحكم الشورى، تلك المبادىء العظيمة التي نادى بها الإسلام[1].

والخوارج حزب جماهيري ثوري. وتبرز جماهيريته بكونه المعبر عن أوسع الطبقات المستاءة. وتتجلى ثوريته بتعاليمه الديمقراطية وبوقوفه في مناسبات عديدة مؤيداً الناس البسطاء من رعايا الدولة ضد ما تمارسه السلطة تجاههم من أشكال الجور والقمع والاضطهاد[2].

والواقع أن الذي استهوى عامة الجماهير من تعاليم الخوارج هو احتجاجاتهم على مظالم الحكام والولاة، وتفانيهم في سبيل المبادىء الديمقراطية، حيث كان على رأس برنامجهم السياسي: (ان السيادة للجماعة الاسلامية، والجماهير هي التي تمنح الخليفة سلطته العليا. أما إذا عجز الخليفة عن القيام بمهام الخلافة، أو إذا كانت سياسته العامة لا تؤول بالخير على الجماعة، فللجماعة أن تعزله، لا بل أن تقتله)[3]. وليس لزاماً أن يكون الخليفة قريشياً، بل كانت الخوارج ترى أنه يمكن أن يكون عربياً وحتى أن يكون (عبداً حبشياً) شريطة أن يكون مسلماً تقياً ورعاً[4].

---

(1) انظر ص130.
(2) انظر ص130.
(3) انظر ص130.
(4) انظر ص130.

وقد ربط الخوارج بين العمل والايمان، بين النظرية والموقف، غير أنهم غالوا كثيراً[1] وقادتهم نظريتهم تلك إلى القول بأن مرتكب الكبيرة كافر[2]. واعتبروا الأمويين، وفق نظريتهم هذه، مرتكبين للكبائر فهم كافرون، مثلهم مثل عبدة الأوثان، فيجب ألا يعترف بخلافتهم، لأن أول شرط في الخليفة أن يكون مؤمناً، بل يجب فوق ذلك أن يقاتَلوا حتى يدخلوا في مذهبهم.

عارض الخوارج ايديولجية الأمويين الجبرية، الحق الإلهي في الحكم المطلق، بنظرية سيادة الأمة ومسؤولية الخليفة أمامها، وقاوموا جور الحكام الأمويين بالثورة. فكان تاريخهم تاريخ قتال مستمر ضد الأمويين[3]، دون أن يكترثوا بالصعاب التي تواجههم والأهوال التي تكتنفهم (وليس في الفرق كلها أشد بصائر من الخوارج ولا أكثر اجتهاداً، ولا أوطن أنفساً على الموت)[4]. فانهكوا الدولة وانهكتهم[5].

وبالنظر لجماهيرية هذا الحزب المعارض وثوريته وديمقراطيته وما تشكله أفكاره من خطر على مصالح الأريستقراطية العربية ودولتها، اعتبرتهم السلطة من ألد أعدائها. فقاومتهم بشدة وقتلتهم بالتهمة والظنة، ولاحقتهم من بلد إلى آخر حتى استأصلت فرقاً منهم بأكملها واختفت من المسرح السياسي.

لقد نادى الخوارج بالعودة إلى مبادىء المساواة والعدالة والتضامن التي كانت تسود في الجماعية البدائية، والتحلي بالأخلاقيات الرفيعة القديمة، وإقامة شكل من أشكال المجالس المشيخية التي ترشد ولا تحكم وتقهر. غير أن الأساس الاقتصادي الاجتماعي للمشاعة البدائية كان قد زال وولى زمانه وتجاوزه التطور وخاصة في الأقاليم التي تتحكم في نشاط الانتاج والتبادل والاستهلاك[6]. لذا انتهت حركتهم، تحت ضربات القادة الأمويين وبسبب من التطرف والخلافات فيما بينهم، إلى الفشل والهزيمة والضعف والتمزق.

أما التشيع، فكان يمثل حزب المعارضة الشعبية الرئيسي. وتتجلى شعبيته بمواقفه

(1) انظر ص131.
(2) الشهرستاني. الملل والنحل ج1 ص115.
(3) أحمد أمين: فجر الإسلام ص292.
(4) ابن عبد ربه. العقد الفريد ج1 ص224.
(5) انظر 134 وما بعدها.
(6) انظر ص152.

المعارضة لممارسات الحكم الأموي ولأساليب الظلم الاضطهاد تجاه الفئات السفلى في المجتمع العربي ـ الاسلامي حيث كان عامة الشيعة يشكلون جزءاً عضوياً منها.

وعلى الرغم من أن الشيعة ينطلقون في نظريتهم من القول بأن الإمامة حق إلهي وليست حقاً للناس في اختيار من يصلح لقيادتها، وأن الأئمة معصومون من ارتكاب الكبائر والصغائر وهو ما يمثل أبعد مدى في رفض العقل، فإن مقاومتهم للحاكم الجائر، وموقفهم الثوري المؤيد لحرية الإنسان في اختيار أفعاله قد شكل في حينه، تحدياً لجبرية الأمويين وخطراً على حكمهم.

لقد قاوم الشيعة، علناً وتقية، الحكام الأمويين منذ أن استقروا على رأس الدولة العربية، وكثيراً ما كانت هذه المقاومة تصطبغ بالدم والعنف إما في معارك وانتفاضات دموية وإمّا في شكل اضطهادات سياسية[1].

وعلى النقيض من ايديولوجية الجبرية كانت القدرية[2]. وقد أرسى مذهب القدرية قاعدته النظرية على فكرة حرية إرادة الإنسان ومسؤوليته عن أفعاله[3]. وهذا يفسر أن دعوة المظلومين إلى أن يستخدموا حرية إرادتهم وفعلهم هذه في النضال للخلاص من ظلم الأمويين الذي هو أيضاً من فعلهم وتقع مسؤوليته عليهم، وبمعنى آخر فإن دعوة القدرية تتضمن بالضرورة، انفتاح باب الأمل بأن الخلاص ممكن، لأن لا جبرية ولا قدر وبالتالي فان دعوة القدرية إلى فكرة حرية اختيار الإنسان أفعاله كانت تحدياً خطراً لجبرية الأمويين وتمرداً على حكمهم الجائر[4].

روى المؤرخون أن من أسبق الناس قولاً بالقدر معبد الجهني وغيلان الدمشقي. وقد ظهرت القدرية في فترة تاريخية كانت الدولة تعاني أزمة تناقض سياسية واجتماعية بين الحاكمين والمحكومين. لذلك كانت الأفكار المناهضة للسلطة تلقى استجابة واسعة من جماهير الأقطار المنضوية تحت مظلة الخلافة الأموية.

ذكر طاش كبرى زاده أن معبد الجهني وعطاء بن يسار أتيا إلى الحسن البصري وقالا له: (يا أبا سعيد هؤلاء الملوك، يقصد ملوك بني أمية، يسفكون دماء المسلمين

---

(1) انظر ص 153 وما بعدها.

(2) الشهرستاني. الملل والنحل ج1 ص43.

(3) نفس المصدر والصفحة.

(4) د. حسين مروة: النزعات المادية ج1 ص574.

ويأخذون أموالهم ويقولون إنما تجري أعمالنا على قدر الله تعالى. فأجابهما الحسن البصري: كذب أعداء الله، يقصد بني أمية)[1].

يتضح من هذا النص أن معبداً وعطاء قدما إلى الحسن البصري شاكيين محتجين على ملوك بني أمية الذين يسفكون دماء المسلمين، ويغتصبون أموالهم ثم يسوغون أعمالهم الجائرة هذه بأنها تجري بقضاء الله وقدره، إلى جبرية الهية مفروضة على المسلمين ولا خلاص منها[2]. وكان معبد تابعياً صدوقاً. قتله الحجاج صبراً لخروجه مع ابن الأشعث وكان قتله سياسياً، لأنه اشترك في الثورة على الحكم الأموي[3].

وجاء في حديث لأحمد بن يحي المرتضى عن غيلان الدمشقي أنه كتب إلى الخليفة عمر بن عبدالعزيز يدعوه إلى القدرية واصفاً حال الاسلام والمسلمين في عهد الدولة الأموية وما أدت إليه هذه الحال من سوء حتى أخيف العالم فلا يتكلم ولا يعطى السائل فيسأل، أي لا يسمح له أن يسأل. ويظهر من الحديث أن عمر بن عبد العزيز لم يقنع بمذهب غيلان، ولكنه استدعاه إليه، وهو واثق من عدالته وصحة دينه. فلما جاءه طلب إليه أن يعينه على إصلاح شؤون المسلمين، فاستجاب غيلان لهذا مشترطاً أن يتولى بيع خزائن الأمويين ورد حقوق الناس إلى أهلها، فقبل الخليفة الأموي الصالح المصلح ذلك. فلما تقلد غيلان مهمته أخذ يبيعها وينادي أهل دمشق قائلاً: تعالوا إلى متاع الخونة، يقصد حكام بني أمية السابقين لعمر بن عبد العزيز، تعالوا إلى متاع الظلمة، تعالوا إلى متاع من خلف الرسول في أمته بغير سنته وسيرته. ولما كانت الأمتعة ثمينة وغالية خاطب الناس المجتمعين حوله قائلاً: من يعذرني ممن يزعم أن هؤلاء كانوا أئمة هدي وهذا متاعهم والناس يموتون من الجوع؟. فمر به الأمير هشام بن عبدالملك حينذاك وغيلان يرفع صوته بذلك القول، فقال هشام: أرى هذا يعيبني ويعيب أبائي. والله إن ظفرت به لأقطعنَّ يديه ورجليه. فلما ولي هشام الخلافة هرب غيلان وصاحبه صالح إلى أرمينية وهما ينشران أخبار ظلم هشام وبني أمية. فأرسل هشام في طلبهما فجيىء بهما وحبسهما أياماً ثم أخرجهما وقطع أيديهما وأرجلهما وقال لغيلان: كيف ترى ما صنع بك ربك، فأجاب: لعن الله من

---

(1) طاش كبري زاده: مفتاح السعادة ج3 ص32.
(2) د. حسين مروة: المصدر ذاته ص573 ـ 574.
(3) أحمد أمين: فجر الإسلام ص 285.

فعل بي هذا. ومات صالح قبل غيلان. فتوجه غيلان إلى الناس قائلاً: قاتل الله بني أمية، كم من حق أماتوه، وكم من باطل قد أحيوه، وكم من ذليل في دين الله أعزوه، وكم من عزيز في دين الله أذلوه. فغضب الأمويون الذين سمعوا هذا الكلام من غيلان وذهبوا إلى هشام يقولون له: قطعت يدي غيلان ورجليه، وأطلقت لسانه. إنه أبكى الناس ونبههم إلى ما كانوا عنه غافلين. فأرسل إليه من قطع لسانه[1]. ثم صلبه بباب دمشق[2]. ومات غيلان شهيد دفاعه عن حقوق المظلومين وعن مذهبه في القدر[3].

وذكر الشهرستاني أنه رأى رسالة إلى الحسن البصري كتبها إلى عبد الملك بن مروان يسأله فيها عن القول بالقدر والجبر، فأجابه فيها بما يوافق القدرية. واستدل فيها بآيات من القرآن ودلائل من العقل. ولعلها لواصل بن عطاء، فما كان الحسن ممن يخالف السلطة في أن القدر خيره وشره من الله تعالى، فان هذه الكلمات كالمجمع عليها عندهم[4].

ويعلق الدكتور حسين مروة على سؤال الخليفة عبد الملك للحسن البصري بخصوص القول بالقدر والجبر أنها محاولة من الحاكم الأموي أن ينتزع فتوى علمية إسلامية من شخصية دينية علمية كبيرة نافذة الرأي في أوساط المثقفين والمفكرين بالبصرة. ويضيف قائلاً: يبدو أن عبد الملك كان يأمل أن تكون هذه الفتوى شجباً للقدرية، وأن يتخذ من هذه الفتوى سلاحاً دينياً يحمي فكرة القضاء والقدر أي يحمي ايديولوجية الحكم الأموي ذاتها، ويضرب في الوقت نفسه حركة القدرية بسلاح الدين نفسه[5].

وكان رفض فكرة القضاء والقدر تعبيراً ايديولوجياً عن نقمة جماهير الكادحين والفئات المثقفة من حملة الأفكار الحرة، وكان أول صوت للفكر العربي يرتفع ليتحدى الفكر الرسمي القائم على الجبرية أي على فكرة القضاء والقدر.

إن انتشار آراء أهل الاختيار (القدريين) بين الناس كان يعني إحداث انعطاف

---

(1) المرتضى: أحمد بن يحيى. المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل ص 15 ـ 17.
(2) طاش كبري زاده: مفتاح السعادة ج2 ص35.
(3) د. حسين مروة: المصدر ذاته ج1 ص572.
(4) الشهرستاني: الملل والنحل ج1 ص47.
(5) د. حسين مروة: النزعات المادية ج1 ص575.

نوعي في تفكيرهم، كان يعني فتح باب الأمل أمام الطبقات السفلى بالخلاص من الظلم، ما دام قد ظهر أن هذا الظلم ليس قضاء إلهياً مفروضاً عليهم قبوله، وأن زواله رهن بإرادتهم واختيارهم إن هم عقدوا العزم على النضال في سبيل القضاء عليه.

ويبدو أن السلطة شعرت بالخطر الذي يتهددها من انتشار أفكار القدرية في أوساط الجماهير. ولعلنا نجد تفسيراً لذلك في محاولات بعض الحكام الأمويين ضرب حركة القدريين والتنكيل بزعمائهم وتصفيتهم جسدياً كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وكان المعتزلة، كالقدرية، من القائلين بحرية إرادة الانسان وقدرته بأجلى مظاهرها. ولهذا وقفوا من الدولة الأموية موقف كراهية. وبنو أمية كانوا يكرهون القول بحرية الإرادة لا دينياً فقط، ولكن سياسياً كذلك، لأن الجبر يخدم سياستهم[1]. ولعل المعتزلة ورثوا كراهيتهم لبني أمية من شيوخ القدرية أمثال معبد الجهني وغيلان الدمشقي[2]،

حمل المعتزلة راية المعارضة الفكرية والايديولوجية لسلطة الدولة العربية ـ الاسلامية. وقد نشأ الاعتزال تعبيراً عن تيار فكري يتجه اتجاهاً فكرياً معيناً في فهم العقائد. ذلك أنهم كانوا يفكرون على غير ما يفكر جمهور المسلمين في بعض العقائد.

ومهما افترق المعتزلة طوائف وفرقاً، فان الجامع بينهم هي الأصول الخمسة من التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[3]. ويتجلى منهجهم العقلي، وهو الجانب الثوري في عقيدتهم، أكثر وضوحاً وتحديداً في مبدأي التوحيد والعدل.

ذهب المعتزلة في تفسير التوحيد تفسيراً خاصاً انفردوا به. ويعتمد تفسيرهم للتوحيد على العقل. وقد أدى تفسيرهم لمفهوم التوحيد وفق تفكيرهم الخاص إلى الانفراد بالتزام وجهات نظر عقلية مخالفة لوجهات نظر السلف في عدة مسائل، منها مسألة (الصفات) ولها تفريعات هامة يأتي في طليعتها (خلق القرآن)[4].

---

(1) أحمد أمين: ضحى الإسلام ج3 ص81.

(2) نفس المصدر والصفحة.

(3) المسعودي. مروج الذهب ج2 ص190.

(4) د. حسين مروة: المصدر ذاته ج1 ص667.

وحول مسألة التوحيد، كتب الشهرستاني: والذي يعم طائفة المعتزلة في الاعتقاد: بالقول بأن الله تعالى قديم، والقدم أخص وصف ذاته. ونفوا الصفات القديمة أصلاً، فقالوا هو عالم بذاته، قادر بذاته، حي بذاته، لا بعلم وقدرة وحياة. هي صفات قديمة ومعان قائمة به، لأنه لو شاركته الصفات في القدم الذي هو أخص الوصف لشاركته في الإلهية، واتفقوا على أن كلامه محدث مخلوق في محل... وسموا هذا النمط: توحيداً[1].

ويستند مفهوم العدل عند المعتزلة على قاعدة اجتماعية، ذلك أن معظم مفكريهم وأكثرهم تمسكاً بقضايا العقل وحرية الإنسان ورفض فكرة القضاء والقدر، كانوا من الموالي، أي من فئات المجتمع العربي ـ الاسلامي التي كانت تعاني من الحكام صنوف المظالم والمذلة والاضطهاد. وعرف المعتزلة، لدعوتهم إلى المساواة والعدل بأهل العدل والتوحيد، وأطلق عليهم المسعودي (العدلية)[2].

ويظهر الأساس الاجتماعي لمفهوم العدل المعتزلي في مواقف عديدة، منها دعوة الحاكم الظالم أن يعدل بين الرعية، ويعيد الحقوق إلى أهلها، كما يظهر في نظرتهم إلى الإمامة. إذ أن بعضهم لم يشترط أن يكون الإمام من قريش. وقالوا: إنه إذا اجتمع قرشي وعجمي وتساويا في الفضل فينبغي أن يتولى الإمام الأعجمي لأنه أقلهما عشيرة[3]، وبالتالي كان خلعه أيسر إذا جار وظلم. ففي هذا التعليل إشارة ذات مغزى سياسي اجتماعي فهي تنطوي على توكيد لما كان يؤخذ على كثير من الخلفاء ممن كانوا يستأثرون بمغانم السلطة لأقربائهم وعشيرتهم، ويقدمون هؤلاء الأقرباء وذوي العشيرة على غيرهم من سائر رعايا الدولة الإسلامية. وقالوا أيضاً: إنه لا يجوز الخروج على الإمام الجائر إلا لجماعة لهم من القوة والمنعة ما يغلب على ظنهم أنها تكفي للنهوض وإزالة الجور، ولا يصح الخروج إلا مع إمام عادل، ولا يتولى إنفاذ الأحكام وقطع يد السارق والقود، أي فرض العقوبة الشرعية، الا الإمام العادل أو من يأمره الإمام العادل، لا يجوز غير ذلك[4]. ومن هذا النص يمكن اكتشاف العلاقة

---

(1) الشهرستاني: الملل والنحل ج1 ص44 ـ 45.
(2) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص234.
(3) الأشعري: مقالات الاسلاميين ص461 ـ 462،
(4) المصدر ذاته ص466 ـ 467.

في تفكير المعتزلة بين مفهوم العدل الإلهي، وبين مفهومه الواقعي العملي المتجسد في الإمام العادل، أي في السلطة السياسية الدينية العادلة اجتماعياً.

والأصل الثالث للمعتزلة الوعد والوعيد، أي الثواب على الطاعات والعقاب على المعاصي فيقوم على تصور المعتزلة للايمان بأنه معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح وكلما ازداد الانسان خيراً ازداد ايماناً، وكلما عصى نقص ايمانه[1].

والأصل الرابع المنزلة بين المنزلتين، أي أن مرتكب الكبائر ليس بمؤمن كما قال المرجئة وليس بكافر كما قال الخوارج بل هو فاسق. والفاسق ليس مؤمناً ولا كافراً بل هو منزلة بين المنزلتين[2].

والأصل الخامس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهم يرونه بالقلب إن كفى، وباللسان ان لم يكف القلب، وباليد إذا لم يغنيا، وبالسيف ان لم تكف اليد[3].

ويحدد هذا الأصل موقف الناس من السلطة إذا ظلمت، ومن الخليفة أو الوالي إذا تعدى حدوده. وقد أوجب المعتزلة على الناس الخروج على السلطان الجائر عند الامكان والقدرة إذا أمكنهم ذلك وقدروا عليه[4].

ويبدو أن المعتزلة قد وعوا الدروس المستفادة من التجارب التي وقعت لأسلافهم من القدرية والغيلانية حين ثاروا في ظروف غير مواتية فنكلت بهم السلطة ولهذا دعوا، قبل الخروج، إلى الأعداد للثورة وأن يكون الخروج مع أمام عادل كما تقدم.

وانسياقاً مع نظريتهم تلك، نصر المعتزلة يزيد بن الوليد لأنه كان ديّناً تقياً، وكان يعتقد مذهب المعتزلة[5]. وكان خروج يزيد بن الوليد بدمشق مع سابقة من المعتزلة

---

(1) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ج3 ص188 ـ 189.

(2) الشهرستاني: الملل والنحل ج1 ص48. ويظهر للباحث أحمد أمين، ان الأمويين رأوا في وجهة نظر المعتزلة (المنزلة بين المنزلتين) كسباً لهم أكثر من الخسارة. ويدلل على ذلك بأن كتب التاريخ لم تذكر حادثة واحدة لجأ فيها الحكام الأمويون إلى اضطهاد أي واحد من كبار المعتزلة. وأهم من ذلك أن بعض المتأخرين من خلفاء بني أمية كيزيد بن الوليد ومروان بن محمد اعتنق مذهب الاعتزال. من المحال أن يعتنقوه إذا كان يضعف دولتهم ويؤيد خصومهم (فجر الإسلام ص295).

(3) أحمد أمين: ضحى الاسلام ج3 ص65.

(4) الأشعري، أبو الحسن علي بن اسماعيل: مقالات الاسلاميين ص 466.

(5) المسعودي: مروج الذهب ج2 ص190.

وغيرهم من أهل داريا والمزة على الوليد بن يزيد لما ظهر من فسقه وشمل الناس من جوره[1]. والمعتزلة في نصرتهم ليزيد، جروا وفق مبدئهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فخرجوا مع إمام اعتقدوا فيه العدل، ولم يخرجوا إلا بعد أن غلب على ظنهم الفوز، وقد فازوا فعلاً[2].

(1) المصدر السابق ص193.
(2) أحمد أمين: ضحى الإسلام ج3 ص83.

الفصل السادس عشر

ايديولوجية الدولة العباسية وموقف الأحزاب

اعتمد العباسيون، كأسلافهم الأمويين، الجبرية كسلاح ديني لتوطيد مواقعهم السياسية ومصالحهم الطبقية وتعزيز حكمهم المطلق، ولتخدير المستثمرين والمعدمين البؤساء وصرفهم عن النضال الطبقي ضد أسيادهم المستغلين[1].

وقد وضعت دولة الخلافة نفسها، من حيث كونها دولة الاسلام، في مكان الممثل الشرعي الوحيد للنظام الاجتماعي الذي تحدده الشريعة الإلهية[2]. وعلى هذا الأساس تترتب معادلة ذات صورة منطقية تنتج المستند النظري الإسلامي لمفهوم الحق الإلهي في الحكم المطلق. وهذه المعادلة تأتي على الوجه التالي: النظام الاجتماعي الذي تحدده الشريعة هو نفسه نظام حكم الخلافة، وحيث أن الشريعة التي تحدد هذا النظام شريعة إلهية، فهي مقدسة، وبالتالي فنظام حكم الخلافة نفسه نظام مقدس[3] وإضفاء طابع القداسة الدينية على حكم الخلافة، يمنح الطبقة الحاكمة في مجتمع الخلافة حق السيطرة المطلقة التي تعني أن الاعتراض عليها أو الخروج عن طاعتها هو اعتراض على حكم الله وخروج عن طاعة (أولي الأمر) التي فرضها الله.

ونستطيع أن نتلمس معالم تلك الايديولوجية في خطبتين رسميتين: الأولى لأبي العباس السفاح، أول خلفاء بني العباس خطبها حين بويع بالخلافة، جاء فيها: (الحمد لله الذي اصطفى الاسلام لنفسه، فكرمه وشرفه وعظمه، واختاره لنا وأيده بنا

---

(1) أنظر ص275.
(2) انظر ص275.
(3) انظر ص275 ـ 276.

وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوَّام به والذابين عنه والناصرين له...)[1]. والخطبة الثانية: لأبي جعفر المنصور، ثاني خلفاء بني العباس وأقدرهم، خطبها يوم عرفة على منبر عرفة جاء فيها: (أيها الناس، إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه ورشده...)[2]. ولعل مظهر الجلاد الملازم للخليفة دائماً ووجود النطع أبداً قرب العرش لاستقبال الرؤوس المغضوب عليها مثل ساطع على جبروت السلطة المطلقة التي يتمتع بها الخليفة لصيانة مصالح الطبقة الحاكمة وقمع المعارضة وضرب الحركات الشعبية والتنكيل بقادتها.

لقد أنعش التوسع الكبير للحركة التجارية على الصعيد الخارجي في العصر العباسي الأول فئات التجار والمرابين وأرباب المؤسسات المصرفية وأصحاب الحرف. ومع نمو الفاعلية الاقتصادية لهذه الفئات الاجتماعية الحضرية كان دورها يتزايد للتأثير في مجرى الأحداث السياسية في المجتمع العباسي على حساب دور الاقطاعيين. وهذه القوى الاجتماعية المدينية إلى جانب حملة الأفكار الحرة وفي طليعتهم المعتزلة هي التي ساندت المأمون وأوصلته إلى سدة الخلافة العباسية بعد صراع دموي مع قوى الإقطاع والأمراء وممثليهم في القطاع الفكري من الفقهاء والمحدثين والمفسرين المحافظين التي وقفت إلى جانب الأمين وساندته[3].

وعندما انتصر المأمون وتقلد منصب الخلافة، قرب المعتزلة واحتضن مذهبهم إلى حد أصبح المذهب الرسمي لدولة الخلافة ستة عشر عاماً اعتباراً من 218هـ إلى 234هـ. أي مدى عهد ثلاثة من الخلفاء المأمون والمعتصم والواثق، تولى فيها المعتزلة المناصب القيادية في الدولة ومنها منصب الوزير الذي شغله أشهر رجالهم أحمد بن أبي دؤاد. فهل حدث تغيير في ايديولوجية الدولة حين أصبح الاعتزال مذهباً رسمياً لدولة الخلافة؟ لا لم يحدث تغيير في ايديولوجية الدولة. ذلك أن علم الكلام المعتزلي، باستثناء الجانب العقلاني منه، يقع ضمن الإطار العام للإيديولوجية اللاهوتية الرسمية دون أن يخرج عليها[4]. فالفكر المعتزلي يقوم على مبدأ التنزيه

(1) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص425.
(2) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص262.
(3) د. حسين مروة: النزعات المادية ج1 ص854.
(4) المصدر ذاته ج1 ص826.

المطلق للذات الإلهية وهو مفهوم التوحيد (الرسمي). وهذا يتضمن وحدانية الحقيقة، وهي الحقيقة الدينية أي الشريعة ذات المصدر الإلهي الأوحد. وهذا هو الأساس لايديولوجية الطبقة الحاكمة في دولة الخلافة الإسلامية[1]. وهذا الأساس هو الذي أضفى على نظام الخلافة القداسة الدينية كما تقدم. وهكذا فإن علم الكلام المعتزلي من خلال مضمونه الإيديولوجي كان مؤيداً وسنداً نظرياً لتلك الايديولوجية[2].

غير أن المنهج العقلاني، وهو الجانب الثوري في علم الكلام المعتزلي، الذي كان اتجاهه البارز (عقلنة) مسائل ميتافيزيقا الاسلام كلها، ووضع العقل البشري في المكانة الأولى من قضية المعرفة، وتعويلهم على الشك والتجربة وتفسير الظواهر على أساس مبدأ السببية، وإقرارهم بمبدأ الاختيار وحرية إرادة الإنسان ومسؤوليته عن أفعاله، أثرت، من جهة أخرى، تأثيراً بالغاً في زعزعة المفاهيم التي تقوم عليها ايديولوجية الطبقة الحاكمة.

وعندما ولي المتوكل الخلافة عام 232هـ/ 847م، استغل الاقطاعيون والأمراء، الذين ازيحوا عن مواقعهم السياسية عند تقلد المأمون سدة الخلافة، وممثلوهم في القطاع الفكري نقاط الضعف في شخصية الخليفة، ومنها إسرافه في الملذات والشراب، وشرعوا يضغطون عليه بهدف توجيه سياسة الدولة في اتجاه مصالحهم وتفكيرهم، وحمله على ألغاء ما أحدثه المأمون وخاصة فيما يتعلق بعلم الكلام المعتزلي وخلق القرآن وارتباطهما بمذهب الدولة، فاستجاب المتوكل لضغط القوى الآنفة الذكر فأظهر الميل إلى السنة، أي إلى تفكير السلف، ونصر أهلها، أي المحافظين من الفقهاء والمفسرين والمحدثين، ورفع المحنة، أي سيطرة العقل المعتزلي، وكتب بذلك إلى الآفاق، وذلك في سنة أربع وثلاثين ومائتين للهجرة، واستقدم المحدثين إلى سامراء. وأجزل عطاياهم أكرمهم وأمرهم أن يحدثُوا بأحاديث (الصفات والرؤية) وجلس أبو بكر بن أبي شيبة في جامع الرصافة، فاجتمع إليه أيضاً نحو من ثلاثين ألف شخص، وتوفر دعاء الخلق للمتوكل، وبالغوا في الثناء عليه والتعظيم له حتى قال قائلهم: الخلفاء ثلاثة: أبو بكر الصديق رضي الله عنه في قتل أهل الردة، وعمربن عبد العزيز في رد المظالم، والمتوكل في إحياء السنة[3]. وبعث

---

(1) المصدر السابق ص 826.
(2) المصدر ذاته ص857.
(3) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص346. السبكي، تاج الدين أبو النصر: طبقات الشافعية ج2، ص54.

المتوكل إلى والي مصر أن يحلق لحية قاضي القضاة، أبي بكر محمد أبي الليث، فيها وأن يضربه، ويطوف به على حمار، ففعل، فإنه كان من رؤوس المعتزلة ـ الجهمية، وولى القضاء بدله الحارث بن مسكين من أصحاب مالك، وأهان القاضي المعزول بضربه كل يوم عشرين سوطاً ليرد الظلامات إلى أهلها[1]. وذكر المسعودي: (لما أفضت الخلافة للمتوكل أمر بترك النظر والمباحثة في الجدال، والترك لما كان عليه الناس في أيام المأمون والمعتصم والواثق، وأمر الناس بالتسليم والتقليد، أي التسليم بالقضاء والقدر، وأمر شيوخ المحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة)[2].

ومع أن المتوكل كان من أعظم الخلفاء وأشدهم عسفاً وأكثرهم إسرافاً في اللهو والملذات فقد مدحه أهل السنة، واغتفروا سوء فعاله لرفعه المحنة، أي سلطان العقل، ورأى له كثير من المحدثين رؤى في المنام تذكر أن الله غفر له[3].

وكما استخدم الدين لتعزيز الحكم المطلق وتخدير الرأي العام، استخدم كذلك لكبح التطلعات العقلانية المعتزلية وعرقلة تطورها نحو الفكر الفلسفي المستقل عن أساسه اللاهوتي. وقد توزعت مواقف الخصومة هذه بين تيارات ثلاثة في عصر النهوض المعتزلي هي: التيار السلفي، والتيار الحنبلي، والتيار الأشعري. وقد اشتركت هذه التيارات جميعاً في خط واحد اتسم بالعداء للجوانب التقدمية النسبية من أفكار المعتزلة[4].

وقد أسهم الحارث بن أسد المحاسبي وعبدالله بن سعيد بن كلام وخصوصاً أبو الحسن الأشعري في وضع صياغة نظرية جديدة لايديولوجية القوى المحافظة، التي أصبحت، فيما بعد، ايديولوجية السلطة الرسمية للدولة عدة أجيال[5]. ووقع الناس تحت سلطان المحافظين من المحدثين والفقهاء والمفسرين، فكانت النتيجة جموداً بحتاً[6].

(1) المصدر السابق ص347.

(2) المسعودي: مروج الذهب ج4 ص86.

(3) أحمد أمين: ضحى الإسلام ج3 ص159 ـ وقد أدرك الناس ذلك، وعبروا عنه بطريقتهم الخاصة فقالوا: (النرد أشعري والشطرنج معتزلي) لأن لاعب النرد يعتمد على القضاء والقدر، ولاعب الشطرنج يعتمد على العقل وأعمال الفكر.

(4) د. حسين مروة: النزعات المادية ج1 ص850.

(5) المصدر ذاته ص862.

(6) أحمد أمين: ضحى الاسلام ج3 ص203.

موقف الأحزاب من الحكم العباسي

بعيد تسلم العباسيين لمقاليد السلطة الجديدة، انفرط عقد الجبهة التي تشكلت لاسقاط حكم الأمويين والقضاء على دولتهم. فانفصلت عنهم الجماهير الفلاحية، القاعدة الاجتماعية للثورة، وواصلت نضالها الطبقي ضد الظلم الاقطاعي والتعسف الحكومي[1]. كما انشقت عنهم فرق الشيعة والمعتزلة لخيبتها فيما عقدته على العباسيين من آمال عريضة.

الشيعة

فلما ظفر العباسيون بالخلافة، لم يرق ذلك في نظر العلويين، ولم تطب بذلك نفوسهم. إذ أدركوا أن العباسيين قد خدعوهم واستأثروا بالخلافة دونهم مع أنهم أحقّ بها منهم. ونظروا إليهم على أنهم مغتصبون، كالأمويين، للإمامة، فظلوا يناضلون ابتغاء الوصول إلى حقهم المغتصب في الخلافة.

والشيء الذي يستدعي نظر الباحث، أن التشيع لم يقف حيال مجرى الأحداث العربية الإسلامية والصراعات التي كانت تهز الخلافة موقف الجمود، بل تفاعل معها، ونشأ عن هذا التفاعل عدد من المواقف الفكرية المتفقة مع المعتزلة في مسائل مقاومة الحاكم الجائر وحرية اختيار الإنسان أفعاله، والحسن والقبح العقليين. وقد فرض عليهم موقفهم كمعارضين وكمضطهدين تلك المواقف الفكرية المتفقة مع المعتزلة دون أن يكترثوا لتناقض هذه المواقف مع نظريتهم في الإمامة[2].

لقد اضطر الشيعة، تحت سلطة العباسيين، إلى العمل في الخفاء بسبب أعمال القمع والملاحقة التي كانوا يتعرضون لها من السلطة، ذلك أن العباسيين كانوا أعرف بالعلويين وأساليبهم يوم خالطوهم وحالفوهم في الدعوة للعمل ضد الأمويين. فكانوا أقدر على تتبعهم ومعرفة مكايدهم ومنازلتهم بمثل أساليبهم. واحتدم القتال بين الطرفين.

شرع العلويون، منذ عهد أبي العباس السفاح، ينظمون قواهم ويبثون دعاتهم

---

(1) انظر ص 290 وما بعدها.

(2) انظر ص 152، 374.

يدعون إلى محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، الملقب بالنفس الزكية. وفي خلافة أبي جعفر المنصور، خرج محمد بن عبدالله بالمدينة عام 145هـ، وتبعه أعيانها ثم غلب عليها وعلى مكة، فأرسل إليه المنصور جيشاً كثيفاً بقيادة عيسى بن موسى، فهزم محمداً وقتله وأرسل رأسه إلى المنصور فطيف به في الكوفة وسيره إلى الآفاق[1].

وتفرق أخوة محمد وولده في البلدان يدعون إلى إمامته، فكان فيمن توجه ابنه علي بن محمد إلى مصر فقتل بها، وسار ابنه عبدالله إلى خراسان فهرب لما طلب إلى السند فقتل هناك، وسار ابنه الحسن إلى اليمن، فحبس ومات في السجن، وسار أخوه موسى إلى الجزيرة، ومضى أخوه يحي إلى الري ثم خرج في الديلم في عهد الرشيد[2].

وتحرك أخوه ابراهيم بن عبدالله في البصرة عام 145هـ انضم إليه كثير من الزيدية والمعتزلة[3]. وتغلب على البصرة والأهواز وفارس، وتفاقم خطره وكثر عدد جنوده. ذكر ابن الأثير: (وتوالت على المنصور الفتوق من البصرة والأهواز وفارس وواسط والمدائن والسواد. . . وعساكر ابراهيم قد عظمت. وبالكوفة مائة ألف سيف بإزاء عسكر المنصور ينتظرون صيحة واحدة فيثبون به)[4]. وكانت معظم جيوش الخلافة موزعة في أفريقيا والري والحجاز[5]. ولم يكن عسكر الخليفة إلا ألفَيْ رجل حسب قول المنصور[6].

ويبدو أن ابراهيم لم يبادر إلى الاسراع في استغلال تلك الظروف المواتية لثورته، مما ترك للمنصور الفرصة في استدعاء بعض قواته على عجل، فوجه إليه عيسى بن موسى في خمسة عشر ألفاً وعلى مقدمته حميد بن قحطبة في ثلاثة آلاف[7]. والتقى الجمعان في (باخَمْرَى) قرب الكوفة فغلب عيسى ابراهيم وقتله في

---

(1) ابن الأثير: الكامل ج5 ص11.
(2) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص307 ـ 308.
(3) المصدر ذاته ص308.
(4) ابن الأثير: الكامل ج5 ص18.
(5) المصدر ذاته ص17.
(6) نفس المصدر والصفحة.
(7) المصدر ذاته ص18.

المعركة، وبعث برأسه إلى المنصور[1]. وقتل العباسيون في هذه المعارك كثيراً من البيت العلوي، وقبضوا على عدد عديد منهم فحبسهم المنصور في سرداب على شاطىء الفرات بالقرب من الكوفة لا يصل إليه ضوء حتى ماتوا[2].

وفي أثناء حكم الهادي 169 ـ 170هـ/ 785 ـ 786م، تحرك العلويون، فألح في ملاحقتهم وأخافهم خوفاً شديداً، وقطع ما كان المهدي يجريه لهم من الأرزاق والأعطية، وكتب إلى الآفاق في طلبهم وحملهم[3]. فالتف جماعة من الشيعة حول الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي وقالوا له: أنت رجل أهل بيتك. فأعلن خروجه على السلطة عام 169هـ بالمدينة، ودعا إلى نفسه. ثم قصد مكة وأمر فنودي أيما عبد أتانا فهو حر فأتاه العبيد[4]. فأرسل الهادي إليه جيشاً قاتله فقتله وجماعة من أهله في (فخ) بين مكة والمدينة وحمل رأسه إلى الهادي[5]. وهرب من وقعة (فخ) إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي، فصار إلى المغرب ومات مسموماً هناك على يد الرشيد عام 177هـ[6]. وفر يحي بن عبد الله إلى الديلم.

وفي عهد الرشيد، خرج بالديلم عام 176هـ يحي بن عبدالله أخو النفس الزكية وإبراهيم، واجتمع إليه الناس من الأمصار وقويت شوكته[7]. فبعث إليه الرشيد من يستميله إلى الصلح، فمال إليه يحي وطلب أماناً بخط الرشيد، وأن يشهد فيه القضاة والفقهاء وجلة بني هاشم فأجابه الرشيد إلى طلبه[8]. وقدم يحي إلى الرشيد فحبسه عنده ثم استفتى الفقهاء والقضاة في نقض الأمان، فمنهم من أفتى بصحته فحاجه، ومنهم من أفتى ببطلانه فأبطله ثم قتله[9].

استغل العلويون الاضطرابات الداخلية، ومنها الحرب الأهلية بين الأمين

---

(1) المصدر السابق ص19.
(2) المسعودي: مروج الذهب ج3 ص310.
(3) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ج2 ص404.
(4) ابن الأثير: الكامل ج5 ص75.
(5) المصدر ذاته ص76.
(6) نفس المصدر والصفحة.
(7) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ص 194.
(8) نفس المصدر والصفحة.
(9) نفس المصدر والصفحة.

والمأمون في أواخر القرن الثاني الهجري وانشغال الدولة بمواجهة انتفاضة الفلاحين بقيادة بابك الخرمي في أذربيجان 201 ـ 222هـ وثورة الزط بقيادة محمد بن عثمان في منطقة البطيحة 205 ـ 219هـ، التي كانت تعكس في واقع الأمر المتغيرات المستجدة والتناقضات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المتفاقمة في مجتمع الخلافة، فنشطوا للعمل، وبثوا دعاتهم وكثرت انتفاضاتهم.

تحرك محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسين بن عليّ بالكوفة عام 198هـ. وكان مدبر حربه وقائد جنده أبو السرايا، السريّ بن منصور الشيباني، وعظم أمره. وكان كلما بعث المأمون بجيش هزمه أبو السرايا. وفي أثناء القتال مات محمد بن إبراهيم مسموماً، فولى أبو السرايا غلاماً علوياً، محمد بن محمد بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ. وقوي أمر أبي السرايا، وانتشر الطالبيون في البلاد[1]. وسكَّ أبو السرايا الدراهم بالكوفة، وأرسل عماله من العلويين على مكة والمدينة والبصرة واليمن وفارس والأهواز[2]. ووثب الطالبيون على دور بني العباس ومواليهم وأتباعهم فهدموها وانتهبوها، وخربوا ضياعهم، وأخرجوهم من الكوفة[3]. ولم يخضع المأمون انتفاضاتهم إلا بجهد جهيد وبذل دماء كثيرة. وقتل أبو السرايا، قتله الحسن بن سهل وبعث برأسه إلى المأمون ونصبت جثته على جسر بغداد[4].

وخرج محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسن بن علي بالطالقان في خراسان عام 219هـ ودعا إلى الرضا من آل محمد (ﷺ). واجتمع إليه بها ناس كثير. وكان بينه وبين قواد عبدالله بن طاهر، والي خراسان، وقعات بناحية الطالقان وجبالها وانهزم أصحابه وولى هارباً يريد بعض كور خراسان، وكان أهلها كاتبوه[5]. فلما صار بنسا، وشي به إلى عاملها فأخذه وسيره إلى المعتصم فحبسه عند مسرور الخادم الكبير[6].

---

(1) ابن الأثير: الكامل ج5 ص175.
(2) نفس المصدر والصفحة.
(3) نفس المصدر والصفحة.
(4) المصدر ذاته ص177.
(5) المصدر ذاته ص231 ـ 2.
(6) المصدر ذاته ص232.

وفي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري أخذ الوهن يدب في جسم الخلافة بسبب اشتداد التناقضات الطبقية وتردي أوضاع الجماهير المعاشية وتفسخ الحكم وفساد الجهاز الاداري والصراعات على السلطة، مما هيأ مناخاً ملائماً للمتذمرين وشجعهم على الثورة ضد الحكومة تعبيراً عن سخطهم وأملاً في تحقيق أهدافهم.

ففي عهد المستعين (248 ـ 252هـ/ 862 ـ 866م)، تحرك يحي بن عمر بن يحي بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بالكوفة عام 250هـ. فدعا إلى الرضا من آل محمد (ﷺ) وانضمت إليه الزيدية وأناس من الأعراب وأحبوه، وتولاه العامة من أهل بغداد ولا يعلم أنهم تولوا من أهل بيته غيره[1]. وتغلب على الكوفة وفتح الحبس وأطلق من كان فيه وأخرج عامل الكوفة، وقوي أمره وكثر أتباعه[2].

فوجه إليه محمد بن عبدالله بن طاهر، أمير بغداد، جيشاً هزم أصحاب يحي في «شاهي» قرب الكوفة، وقتل يحي وبعث برأسه إلى المستعين فنصبه لحظة على باب العامة بسامراء، فاحتج الناس لذلك وكثروا وتذمروا، فحطه ورده إلى بغداد لينصب فلم يقدر محمد بن طاهر على ذلك لكثرة من اجتمع من الناس ولما أبداه العامة من كراهة وتذمر فلم ينصبه[3].

وكان الحسن بن زيد العلوي قد ظهر بنواحي طبرستان. وسبب خروجه أن المستعين أقطع محمد بن طاهر قطائع من صوافي السلطان بطبرستان مكافأة له على قمعه حركة يحي بن عمر[4]. وكان بحذاء تلك القطيعة أرض لأهل تلك الناحية فيها مرافق منها محتطبهم ومراعي مواشيهم ومسرح سارحتهم[5].

وكان أهالي طبرستان والديلم وما جاورهما يتذمرون من الجور الاقطاعي وتعسف السلطة. فلما جاء رسول محمد بن طاهر إلى طبرستان وأراد استلام القطيعة طمع أن يحوز معها تلك الأرض التي تتصل بها من الموات الذي يرتفق به أهل تلك الناحية[6]. فثارت جماهير طبرستان وانضم إليهم كادحو الديالمة، واتسعت الحركة

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص426 ـ 7.
(2) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ج2 ص497.
(3) ابن الأثير: الكامل ج5 ص315.
(4) الطبري: المصدر ذاته ص429. ابن الأثير: الكامل ج5 ص316،
(5) المصدر السابق.
(6) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص430. ابن الأثير: الكامل ج5 ص316،

وأخذت طابع انتفاضة شعبية، وبايع المتنفضون الحسن بن زيد العلوي وكان مقيماً في الري[1]،

زحف الثوار بقيادة الحسن بن زيد إلى آمل، حاضرة طبرستان، فدخلوها وطردوا عمال السلطة منها[2]. وانضم إلى الثوار الصعاليك والحوزية فكثف جيشهم وقوي أمرهم[3]. وتغلبوا على بلاد طبرستان وجرجان[4]. وفي عام 256هـ غلب الحسن على منطقة الري[5]. وطرد الثوار عنها عمال ابن طاهر[6].

ورد خبر انتفاضة الحسن بن يزيد إلى المستعين ومدبر أمره وصيف التركي[7]. فوجه إلى همذان جيشاً ليقيم فيها ويمنع قوات الحسن من أن تتجاوزها[8].

وفي عام 260هـ هزم يعقوب بن الليث الصفار الحسن بن زيد العلوي وكتب إلى الخليفة بذلك[9]. ولكن الحسن نجح في تكوين الدولة الزيدية في طبرستان التي استمرت قرناً ونيفاً 250 ـ 355هـ، تولى فيها نحو ثمانية أمراء[10].

يتبين من الوقائع السابقة، أن الشيعة وقفوا من الحكم العباسي موقفاً طبقياً معارضاً في الغالب وقاوموه علناً وتقية. ولم يكن الموقف الشيعي المعارض يتغير إلى الموقف المؤيد إلا في الفترات التاريخية التي كان يظهر فيها حكام شيعيون كالدولة البويهية في إيران وبغداد (945 ـ 1055م)، وإمارة الحمدانيين في حلب وشمال سورية (930 ـ 998م). والدولة الفاطمية في شمال أفريقيا وفلسطين وسورية والحجاز (909 ـ 1171م).

ومع ميل الناس إليهم وتعاطف الجماهير إلى جانب تبنيهم قضية العدل الاجتماعي ورفع الجور، لم ينجح زعماؤهم من الاستفادة من هذا الظرف الملائم،

(1) المصدر السابق ص431. ابن الأثير: الكامل ج5 ص316.
(2) المصدر ذاته ص432. ابن الأثير: الكامل ج5 ص316 ـ 7.
(3) نفس المصدر والصفحة.
(4) المسعودي: مروج الذهب ج4 ص153.
(5) الطبري: تاريخ الرسل ج7 ص432. ابن الأثير: الكامل ج5 ص317.
(6) المصدر ذاته ص432. ابن الأثير: الكامل ج5 ص317.
(7) المصدر ذاته ص433. ابن الأثير: الكامل ج5 ص317.
(8) المصدر ذاته ص433. ابن الأثير: الكامل ج5 ص317.
(9) ابن الأثير: الكامل ج5 ص371.
(10) محمد الخضري: تاريخ الأمم الإسلامية ـ الدولة العباسية ص 377.

ولعل ذلك يرجع إلى ضعف التنظيم الحزبي وعدم وجود برنامج اجتماعي شامل واضح المبادىء والأهداف يستقطب الجماهير المضطهدة وسائر الفئات المتذمرة من الحكم العباسي بغض النظر عن اختلاف قومياتهم ومذاهبهم وطبقاتهم الاجتماعية وهو ما فطن إليه الاسماعيليون واستدركوه في عملهم المبرمج السري الدقيق والشامل ونجحوا فيه نجاحهم الأعظم.

المعتزلة

ولما خاب أمل المعتزلة في بني أمية لتحقيق العدل والمساواة، وأيقنوا تنكر العباسيين لهذه المبادىء، واصلوا نضالهم بطريقتهم الخاصة، فاتجهوا إلى العمل السري المنظّم، وأرسلوا الدعاة إلى مختلف الأمصار لتنظيم الأتباع ولكسب الأنصار والمؤيدين لأفكارهم. يؤيد ذلك ما ورد في قصيدة لشاعرهم صفوان الأنصاري منها الأبيات التالية:

له خلف شعب الصين في كل ثغرة ... إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر
رجال دعاة لا يفُلّ عزيمَهُم ... تهكّم جَبار ولا كيدُ ماكر
إذ قال: مروا في الشتاء تطوَّعوا ... وإن كان صيفاً لم يُخَفْ شهر ناجز
بهجرة أوطان وبذلٍ وكُلْفة ... وشدَّة أخطار وكَدٍّ المسافر
فانْجَحَ مسعاهم وأثقب زَنْدَهم ... واوْرَى بفَلْح للمخاصِم قاهر
واوتادُ أرض الله في كل بلدة ... وموضع فُتياها وعلم التّشاجُر
يصيبون فصل القول في كل منطق ... كما طبقت في العظم مدية جازر
تراهم كأن الطير فوق رؤوسهم ... على عمة معروفة في المعاشر[1].

وأنكر المعتزلة على الخليفة أبي جعفر المنصور مظالمه بلسانهم، ووعظوه وأنبوه، وطلبوا إليه أن يعدل بين الناس ويرفع المظالم عنهم ويرد الحقوق إلى أهلها. يؤيد ذلك ما رواه ابن قتيبة: أن عمرو بن عبيد، رأس المعتزلة، لم يكن يميل إلى العباسيين ويجتهد في الهرب من الخليفة أبي جعفر المنصور، وهو ينقده ويعدد مظالمه. فيقول أبو جعفر: فماذا أصنع؟ قد قلت لك خاتمي في يدك فتعال أنت

---

(1) الجاحظ: البيان والتبيين. ج1 ص25 ـ 26.

وأصحابك فاكفني فيقول عمرو: ادعنا بعدلك تَسْخُ أنفسنا بعونك، ببابك ألف مظلمة، اردد منها شيئاً نعلم أنك صادق[1].

وكان المعتزلة قد اشتركوا مع الزيدية في انتفاضات الشيعة التي تزعمها محمد بن عبدالله الملقب بالنفس الزكية، وأخوه ابراهيم بن عبدالله عام 145هـ ضد الحكومة في خلافة المنصور[2] الذي لم يتورع عن البطش بالزيدية والمعتزلة على السواء[3].

واستمر المعتزلة على موقفهم العدائي لحكم بني العباس في خلافة المهدي الذي اشتد في ملاحقة الأحزاب المناوئة للسلطة وأسرف في اضطهاد اتباعها ومؤيديها.

وفي أثناء حكم الرشيد، تعرض المعتزلة وعلم الكلام المعتزلي إلى الاضطهاد. يؤيد ذلك ما رواه المرتضى: (أن الرشيد منع من الجدال في الدين، يقصد استخدام العقل في تفسير المسائل الدينية، وحبس أهل علم الكلام)[4]. مما اضطر المعتزلة إلى الاختفاء والهرب من العراق إبان عهده وعهد ابنه الأمين (193 ـ 198هـ / 809 ـ 813م) خوفاً من بطشهما[5].

وعندما رأى المعتزلة مساندة الزعامات الاقطاعية والأمراء وممثليهما في القطاع الفكري من الفقهاء والمحدثين والمفسرين للخليفة الأمين، الذي عرف بسوء تدبيره وكثرة تبذيره وضعفه وانصرافه إلى اللهو والملذات، وقفوا وغيرهم من حملة الأفكار الحرة مع القوى الأخرى الممثلة لاقتصاد المدينة ومجتمعها التجاري الربوي الحرفي إلى جانب المأمون لاعتقادهم أنهم إنما يخرجون مع إمام عادل، وأن شروط القوة والمنعة أصبحت متوفرة لنجاح الثورة وإزالة الجور وتحقيق المساواة والعدل والتوحيد. وانتصرت الثورة بالفعل وفاز المعتزلة وقرب المأمون إليه شيوخهم وأعلن الاعتزال مذهباً رسمياً للدولة، فعظم شأن المعتزلة وازدادت جموعهم في عهده ازدياداً كبيراً[6]. وتولوا المناصب الهامة في الحكومة والإدارة وكان أشهر رجالهم أحمد بن

---

(1) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج2 ص337.
(2) انظر ص385.
(3) انظر ص386.
(4) المرتضى: المنية والأمل ص32.
(5) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص 290.
(6) البغدادي: الفرق بين الفرق ص 157.

أبي دؤاد الذي وزر للمأمون والمعتصم والواثق[1]. ودفع المعتزلة سلطة الدولة لاضطهاد خصومهم المفكرين من الفقهاء والمفسرين والمحدثين، وقد استغل خصوم المعتزلة ومعارضو فكرة خلق القرآن الاضطهاد الذي عانوه خلال حكم المأمون والمعتصم والواثق في تأليب الرأي العام (العامة) وإثارة غضبه على المعتزلة ومذهبهم.

فلما ولي المتوكل الخلافة، ألغى في عام 234هـ ما أحدث المأمون وخاصة فيما يتعلق بعلم الكلام المعتزلي وخلق القرآن وارتباطهما بمذهب الدولة، وأمر الناس بالتسليم بالقضاء والقدر[2]. فكان ابتهاج القوى المحافظة بذلك عظيماً[3]. واستغل المحافظون الاضطهاد الذي عانوه، وجعلوا منه حجة ومسوغاً للاضهاد المعاكس الذي أخذ يعانيه المعتزلة ومذهبهم منذ ذلك الحين. وأفل نجم المعتزلة وانتهت مرحلة علم الكلام المعتزلي قبل أن تستنفد طاقاتها وقبل أن تستكمل مهماتها التاريخية في سياق تطور الفكر العربي نحو الفلسفة والعلوم الطبيعية[4].

وفي عهد سيطرة السلاجقة الأتراك على الخلافة العباسية (447 ـ 590هـ)، وهو العهد الذي اتسم بمعاداة الحركات الشعبية والعلمية، لمع نجم الاشاعرة. وكانت المدارس التي أنشأها نظام الملك في سائر أرجاء الدولة تروج لمذهب الأشاعرة الذي أصبح ايديولوجية السلطة الرسمية للدولة[5]. وهكذا تضافرت جهود السلفيين والحنابلة والاشاعرة في ضرب المعتزلة وعلم الكلام المعتزلي، ووقع الناس تحت سلطان المحافظين فكانت النتيجة جموداً بحتاً[6].

الخوارج

أما الخوارج، فقد حافظوا، في ظل السلطة الجديدة، على تعاليمهم ومواقفهم، ولم يحاولوا أن يتفلسفوا، اللهم الا أبحاث لبعض فرقهم في القدر خيره وشره،

---

(1) انظر ص 372.
(2) انظر ص383.
(3) انظر ص373 ـ 374.
(4) د. حسين مروة: النزعات المادية ج1 ص862.
(5) انظر ص384.
(6) انظر ص384.

وإثبات الفعل للإنسان. ولكن هذه الأبحاث لم تكن لها نفسها، وإنما استعارتها من المعتزلة، وظلوا على غلوهم في مسألة كون مرتكب الكبائر كافراً.

هذا وعلى الرغم مما ألحقته السلطة الأموية من انهاك لقواهم، وما تعرضوا إليه من انقسام زاد في إضعافهم، فقد استمروا في محاربة العباسيين في قوة وصلابة وجلد يشبه ذلك الذي كان لهم في العصر الأموي.

عارض الخوارج الحكم العباسي، وقاتلوا العباسيين لأنهم في نظرهم كفرة وظلمة، وخلافتهم تفويض من الله وليست اختياراً حراً من المسلمين.

لقد خطا الخوارج خطوات متقدمة وايجابية في ميدان الايديولوجية والتطبيق ومنها نظريتهم الديمقراطية في الإمامة وربطهم بين العمل والايمان أو بين النظرية والتطبيق، غير أن الجوانب السلبية في مواقف المغالاة والتطرف حالت، كما يتراءى لنا، دون تطورهم الفكري والتفاف أوسع الطبقات الشعبية تحت لوائهم ومد جسور التعاون والنضال المشترك مع الأحزاب المعارضة الشعبية لتوسيع جبهة النضال الجماهيري ضد الظلم الاقطاعي والتعسف الحكومي. مما أتاح الفرصة أمام سلطة الخلافة لتنفرد في قمع قوى المعارضة وإخماد الثورات المعادية لحكم العباسيين.

لقد ثار الخوارج في عمان أثناء خلافة أبي العباس السفاح[1] 132 ـ 136هـ/ 750 ـ 754م. وتحركوا في الجزيرة الفراتية وفي شمال أفريقيا في عهد أبي جعفر المنصور[2] 136هـ ـ 158هـ/ 754م ـ 775م. وخرجوا في خراسان والموصل والجزيرة الفراتية إبان حكم المهدي[3] 158 ـ 169هـ/ 775 ـ 785م. ونجح العباسيون في قمع هذه الانتفاضات الخارجية، ولم يلقوا منها من العنت ما لقي الأمويون. وكانت هزائم الخوارج المتوالية مؤشرات على ضعفهم وقلة شأنهم، فلم يعد لهم من القوة والقتال أثر في التاريخ كبير[4].

(1) ابن الأثير: الكامل ج343.
(2) المصدر ذاته ص357 ـ 359.
(3) المصدر ذاته ص54، 70، 61،
(4) أمين أحمد: ضحى الإسلام ج3 ص340.

المصادر والمراجع

ـ أ ـ

- إبراهيم حسن، حسن (الدكتور): تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي. مطبعة السنّة المحمدية ـ القاهرة 1964 ط7.
- إبراهيم حسن، حسن (الدكتور): الفاطميون في مصر. المطبعة الأميرية بمصر 1932.
- الأبشيهي، شهاب الدين محمد أحمد الأبشيهي م 852هـ/ 1448م: المستطرف من كل شيء مستظرف. المطبعة العامرة المليجية بمصر1330 ـ 1331هـ.
- ابن آدم، يحي القرشي م203هـ/ 818م: كتاب الخراج والصنعة. تحقيق أحمد محمد شاكر. المطبعة السلفية القاهرة 1374هـ.
- ابن أبي الحديد، عز الدين أبو حامد عبد الحميد هبة الله المدائني المعتزلي م655هـ/ 1258م: شرح نهج البلاغة. تحقيق محمد أبو الفضل. مطبعة الحلبي. القاهرة 1378هـ/ 1959م.
- ابن الأثير، علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري م630هـ/ 1232م: الكامل في التاريخ. إدارة الطباعة المنيرية بمصر 1348هـ وط. دار صادر ـ بيروت 1385هـ/ 1965م.
- ابن الأثير، علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري م 630هـ/ 1232م. أسد الغابة في معرفة الصحابة. المطبعة الوهبية بمصر 1280هـ.
- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج بن علي م597هـ/ 1200م: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. مطبعة دار المعارف العثمانية. حيدر أباد (الهند) 1357هـ.

- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج بن علي م597هـ/ 1200م: نقد العلم والعلماء أو تلبيس إبليس. مطبعة النهضة بمصر 1928م.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن محمد الظاهري م456هـ/ 1065م: الفصل في الملل والأهواء والنحل ـ القاهرة 1321هـ.
- ابن حنبل، أبو عبدالله أحمد بن حنبل الشيباني المروزي م241هـ/ 855م: المسند، مطبعة الميمنية بمصر 1306هـ.
- ابن حوقل، أبو القاسم محمد النصيبي البغدادي م بعد 367هـ/ 977م: صورة الأرض طبعة بريل ـ ليدن 1938م.
- ابن حوقل، أبو القاسم محمد النصيبي البغدادي م بعد 367هـ/ 977م: المسالك والممالك باعتناء دي غويه ـ ليدن 1873م.
- ابن خرداذبه، أبو القاسم عبيدالله بن خرداذبه م280هـ/ 913م: المسالك والممالك. باعتناء دي غويه ـ ليدن 1306هـ/ 1889م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضري م808هـ/ 1405 ـ 1406م: مقدمة ابن خلدون. طبعة دار القلم ـ بيروت 1978م ومطبعة مصطفى محمد بمصر لا تاريخ.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضري م808هـ/ 1405 ـ 1406م: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. دار الطباعة ـ بيروت 1375هـ/ 1956م.
- ابن خلكان، أبو العباس أحمدبن محمد بن أبي بكر م681هـ/ 1283م: وفيات الأعيان. تحقيق الدكتور إحسان عباس. مطبعة دار صادر ـ بيروت 1968م.
- ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر م بعد 290هـ/ 903م: الأعلاق النفيسة باعتناء دي غويه ـ ليدن 1892م.
- ابن الرومي، علي بن عباس بن جريج م 283هـ/ 896م: ديوان ابن الرومي. اختيار وتصنيف كامل الكيلاني. المطبعة التجارية الكبرى بمصر ومطبعة التوفيق الأدبية بمصر. لا تاريخ.
- ابن سعد، أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري م230هـ/ 845م: الطبقات الكبرى. باعتناء الدكتور أوجين متوخ. طبعة ليدن 1322هـ وط. دار بيروت ودار صادر للطباعة والنشر ـ بيروت 1376هـ/ 1957م.

- ابن سلام، أبو عبيدالله القاسم بن سلام م 224هـ/ 838م: كتاب الأموال. تصحيح محمد حامد الفقي. مطبعة حجازي القاهرة 1353هـ.
- ابن سنان، ثابت م365هـ/ 975م: تاريخ أخبار القرامطة وترجمة الحسن الأعصم القرمطي. تحقيق الدكتور سهيل زكار، مطابع دار القلم ـ بيروت 1391هـ/ 1971م.
- ابن سنان، ثابت وآخرون: أخبار القرامطة في الأحساء ـ الشام ـ العراق واليمن. جمع وتحقيق الدكتور سهيل زكار. نشر وتوزيع عبد الهادي حرصوني. دمشق 1980م.
- ابن الطقطقى، محمد بن علي بن طباطبا م709هـ/ 1309م: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية. طبعة دار صادر ـ بيروت 1380هـ/ 1960م.
- ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم م257هـ/ 871م. فتوح مصر والمغرب. مطبعة لجنة البيان العربي بمصر ومطبعة المثنى ببغداد 1346هـ/ 1927م.
- ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم م257هـ/ 871م: سيرة عمر بن عبد العزيز. دمشق 1346هـ/ 1927م. المطبعة الرحمانية بمصر 1346هـ/ 1927م.
- ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد بن عبد ربه الأندلسي م328هـ/ 940م: العقد الفريد. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة 1367هـ/ 1948م.
- ابن العبري، غريغوريوس الملطي م685هـ/ 1286م: تاريخ مختصر الدول. المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت 1958م.
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن عبدالله الشافعي م571هـ/ 1175م: تاريخ مدينة دمشق. تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد. مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق 1371هـ/ 1951.
- ابن الفقيه الهمذاني، أبو بكر أحمد بن محمد م أواخر القرن الثالث الهجري: مختصر كتاب البلدان. باعتناء دي غويه. طبعة بريل ـ ليدن 1302هـ.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري م276هـ/ 886م: عيون الأخبار. طبعة دار الكتب المصرية 1343هـ/ 1960م.

- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري م276هـ/ 886م: المعارف. تحقيق ثروة عكاشة ط. دار الكتب بمصر 1960م.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري م276هـ/ 886م: الإمامة والسياسة. مطبعة الفتوح الأدبية بمصر 1331هـ.
- ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي م774هـ/ 1372م: البداية والنهاية. مكتبة المعارف ـ بيروت 1966م.
- ابن المرتضى، أحمد بن يحي م840هـ/ 1437م: المنية والأمل. باعتناء توما أرنلد ط. دار المعارف النظامية حيدر أباد (الهند) 1364هـ.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري م711هـ/ 1311م: لسان العرب. طبعة دار صادر ـ بيروت 1374هـ/ 1955م.
- ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحق م385هـ/ 995م: الفهرست. ط. الرحمانية بمصر 1348هـ.
- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك الحميري المصري م213 أو 218هـ/ 828 أو 833م: السيرة النبوية. تحقيق مصطفى السقا وزملائه. مطبعة الحلبي ـ القاهرة 1355هـ/ 1936م.
- ابن الوردي، عمر بن محمدبن أبي الفوارس الوردي م750هـ/ 1349م: تاريخ ابن الوردي. مطبعة الوهبية ـ القاهرة 1285هـ.
- أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي م231هـ/ 846م: ديوان الحماسة. شرح التبريزي. المكتبة الأزهرية ـ القاهرة 1346هـ/ 1927م.
- أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود الشافعي م732هـ/ 1331م: المختصر في أخبار البشر. مطبعة دار الطباعة العامرة ـ استانبول 1286هـ.
- أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود الشافعي م732هـ/ 1331م: تقويم البلدان ـ طبعة باريس 1840م.
- أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين بن محمد الأموي المرواني م356هـ/ 967م: الأغاني. طبعة دار الثقافة ـ بيروت 1374هـ/ 1963م. وطبعة مصورة عن دار الكتب 1383هـ/ 1963م.
- أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين بن محمد الأموي المرواني م356هـ/

967م: مقاتل الطالبيين. تحقيق أحمد صقر. مطبعة الحلبي ـ القاهرة 1368هـ/ 1949م.

ـ أبو المحاسن، جمال الدين يوسف بن تغري بردي م874هـ/ 1469م: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. ط. دار الكتب ـ القاهرة 1383هـ/ 1963م.

ـ أبو النصر، عمر: الخوارج في الإسلام. نشر مكتبة المعارف ـ بيروت 1956.

ـ أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبدالله الأصبهاني م430هـ/ 1038م: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. مطبعة السعادة ـ القاهرة 1938م.

ـ أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم م182هـ/ 798م: كتاب الخراج. ط. برلاق ـ القاهرة 1302هـ.

ـ الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الإدريسي الحسني الطالبي م560هـ/ 1165م: نزهة المشتاق ـ لا مكان ولا تاريخ للطبع.

ـ الأزدي، أبو المطهر محمد بن أحمد م القرن الرابع الهجري: حكاية أبي القاسم البغدادي. طبعة مكتبة المثنى ـ بغداد عن طبعة هيدلبرغ 1902م.

ـ الأزرقي، محمد بن عبدالله بن أحمد م بعد 244هـ/ 858 ـ 859م: أخبار مكة ـ بيروت 1964م.

ـ إسماعيل، محمود (الدكتور): الحركات السرية. طبعة دار القلم ـ بيروت 1973م.

ـ الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل م324هـ/ 936م: مقالات الإسلاميين. مطبعة السعادة بمصر 1950م.

ـ الاسطخري، أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي م346هـ/ 957م: مسالك الممالك. باعتناء دي غويه ط. ليدن 1870 و1927م.

ـ الأعشى، ميمون بن قيس بن جندل م،هـ/ 629م: كتاب الصبح المنير. طبعة أدولف هلزهوسن ـ فيينا 1927م. ألف ليلة وليلة. المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت 1956 ـ 1958م.

ـ أمين، أحمد م1954: فجر الإسلام. طبعة دار الكتاب العربي. ط. عاشرة ـ بيروت 1969م.

ـ أمين، أحمد م1954: ضحى الإسلام. طبعة دار الكتاب العربي. ط. عاشرة ـ بيروت 1351هـ/ 1933م.

ـ ب ـ

- البراقي، حسين بن أحمد: تاريخ الكوفة. مكتبة المرتضوية. النجف 1356هـ.
- بروكلمان، كارل م 1956: تاريخ الشعوب الإسلامية. ترجمة د. نبيه فارس ومنير البعلبكي. مطبعة الكشاف ـ بيروت 1949م.
- البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر م 429هـ 1038م: الفرق بين الفرق. مطبعة المعارف بمصر 1328هـ/ 1910م.
- البلاذري، أحمد بن يحي بن جابر البغدادي م279هـ/ 892م: أنساب الأشراف. الجزء الأول تحقيق الدكتور حميد الله. ط. دار المعارف بمصر 1959م.
- البلاذري، أحمد بن يحي بن جابر البغدادي م 279هـ/ 892م: أنساب الأشراف. القسم الثالث. تحقيق الدكتور عبد العزيز الدوري. المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت 1398هـ/ 1978م.
- البلاذري: أحمد بن يحي بن جابر البغدادي م279هـ/ 892م: أنساب الأشراف. الجزء الرابع ـ القسم الثاني ـ القدس 1936م.
- البلاذري، أحمد بن يحي بن جابر البغدادي م279هـ/ 892م: أنساب الاشراف. الجزء الخامس. القدس 1938م).
- البلاذري، أحمد بن يحي بن جابر البغدادي م279هـ/ 892م: فتوح البلدان. باعتناء دي غويه ـ ليدن 1866م.
- بليايف، ي. أ. م1964م. العرب والإسلام والخلافة العربية. ترجمة الدكتور أنيس فريحة. مطابع الدار المتحدة للنشر ـ بيروت 1973م.
- بليخانوف، جورج م1918م: تطور النظرة الواحدية إلى التاريخ. ترجمة محمد مستجير مصطفى. دار الطليعة للطباعة والنشر ـ بيروت 1975م.
- بليخانوف، جورج م1918م: فلسفة التاريخ. ترجمة الياس مرقص. دار دمشق 1963م.
- البيروني، محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني م440هـ/ 1048م: الجماهر في معرفة الجواهر. حيدر أباد (الهند) 1355هـ.
- بيفانوف، فيدوسوف: تاريخ الإتحاد السوفياتي. مطبعة دار التقدم ـ موسكو 1971م.

ـ البيهقي، إبراهيم بن محمد م نحو 320هـ: المحاسن والمساوىء. تحقيق محمد أبو الفضل، مطبعة نهضة مصر 1380هـ/ 1961م.

ـ ت ـ

ـ التنوخي، أبو عليّ المحسن بن عليّ م384هـ/ 944م: نشوار المحاضرة. تحقيق المحامي عبود الشالجي. مطبعة دار صادر ـ بيروت 1391هـ/ 1971م. ومطبعة المفيد ـ دمشق 1348هـ/ 1930م.
ـ التنوخي، أبو عليّ المحسن بن عليّ م384هـ/ 944م: الفرج بعد الشدة. المطبعة المحمدية ـ القاهرة 1375هـ/ 1955م. ومطبعة الهلال بمصر 1903 ـ 1904.
ـ تيزيني، طيب (الدكتور): مشروع رؤية جديدة للفكر العربي الوسيط. طبعة دار دمشق 1971م.

ـ ث ـ

ـ الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل م429هـ/ 1038م: لطائف المعارف. طبعة دار إحياء الكتاب المصري بمصر 1342هـ/ 1924م.

ـ ج ـ

ـ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري م255هـ/ 868م: البخلاء. تحقيق مكتب النشر العربي بالإشتراك مع لجنة من أعضاء المجمع العلمي العربي ـ مطبعة ابن زيدون ـ دمشق 1357هـ/ 1938م.
ـ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري م255هـ/ 868م: البيان والتبيين. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة 1368هـ/ 1948م.
ـ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري م255هـ/ 868م: التبصر بالتجارة. دمشق 1351هـ/ 1932م.
ـ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري م255هـ/ 868م: الدلائل والإعتبار. المطبعة العلمية ـ حلب 1928م.

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري م255هـ/ 868م: رسائل الجاحظ. جمع ونشر حسن السندوبي. المكتبة التجارية الكبرى بمصر 1352هـ/ 1933م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري م255هـ/ 868م: رسائل الجاحظ. تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ـ القاهرة 1384هـ/ 1964م.
- جماعة من المؤلفين السوفييت: عرض اقتصادي تاريخي. الجزء الأول. مطبعة دار التقدم ـ موسكو لا تاريخ للطبع.
- الجهشياري، أبو عبدالله بن عبدوس م331هـ/ 943م: الوزراء والكتاب. تحقيق مصطفى السقا وزملائه. مطبعة الحلبي ـ القاهرة 1357هـ/ 1938م.
- الجوبري، زين الدين عبد الرحمن بن عمر الدمشقي م نحو 663هـ: كتاب المختار في كشف الأسرار 1302هـ لا مكان للطبع.
- جورج فاضلو حوران: العرب والملاحة في المحيط الهندي. ترجمة الدكتور يعقوب بكر. مطابع دار الكتاب العربي ـ القاهرة 1958م.
- جوزي، بندلي صليبا (الدكتور) م1364هـ/ 1945م: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام. الجزء الأول. مطبعة بيت المقدس ـ القدس 1928م.

ـ ح ـ

- حتي، فيليب (الدكتور) م1978: تاريخ العرب (مطوّل) ط. دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ط. رابعة ـ بيروت 1965م.
- حزب البعث العربي الإشراكي ـ القيادة القومية: «بعض المنطلقات النظرية» التي أقرها المؤتمر القومي السادس في تشرين الأول (أوكتوبر) 1963 ـ مطبعة القيادة القومية ـ دمشق 1980 ط6.
- حسين، طه (الدكتور) م 1973: شرح لزوم ما لا يلزم لأبي العلاء المعرّي. دار المعارف ـ القاهرة 1955م.
- حسين، طه (الدكتور) م 1973: الفتنة الكبرى ـ عثمان ط. دار المعارف ـ القاهرة 1959م.
- حسين، طه (الدكتور) م1973: مرآة الإسلام. دار المعارف ـ القاهرة 1960م.

- حمادة، سعيد: النظام الاقتصادي في العراق. المطبعة الأميركانية ـ بيروت 1938م.

ـ خ ـ

- خسرو، ناصر م1061م: سفر نامه. ترجمة الدكتور يحيي الخشاب. مطبعة لجنة التأليف والترجمة ـ القاهرة 1364هـ/ 1945م.
- الخضري، محمد م1927م: تاريخ الأمم الإسلامية ـ الدولة العباسية. مطبعة الإستقامة بالقاهرة 1353هـ/ 1934م.

ـ د ـ

- دائرة المعارف الإسلامية: الطبعة العربية يصدرها باللغة العربية أحمد الشنتناوي ـ ابراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس ـ المجلد العاشر العدد 11. مطبعة الاعتماد بمصر لا تاريخ للطبع.
- الدمشقي، جمال الدين القاسمي م1332هـ/ 1914م: تاريخ الجهمية والمعتزلة. مطبعة المنار ـ القاهرة 1331هـ
- الدمشقي، أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي م القرن السادس الهجري: الإشارة إلى محاسن التجارة. مطبعة المؤيد ـ القاهرة 1318هـ.
- الدوري، عبد العزيز (الدكتور): تاريخ العراق الإقتصادي في القرن الرابع الهجري. مطبعة المعارف ـ بغداد 1367هـ/ 1948م.
- الدوري، عبد العزيز (الدكتور): دراسات في العصور العباسية المتأخرة. مطبعة السريان ـ بغداد 1945م.
- الدوري، عبد العزيز (الدكتور): مقدمة في تاريخ صدر الإسلام. مطبعة المعارف ـ بغداد 1949م. والمطبعة الكاثوليكية ـ بيروت 1961.
- الدوري، عبد العزيز (الدكتور): مقدمة في التاريخ الإقتصادي العربي. دار الطليعة للطباعة والنشر ـ بيروت 1969م.
- الدوري، عبد العزيز وناجي، معروف: موجز تاريخ الحضارة العربية. مطبعة العاني ـ بغداد 1953م.

- الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود م282هـ/ 895م: الأخبار الطوال. تحقيق عبد المنعم عامر. مطبعة الحلبي ـ القاهرة 1960م.
- دينيت، دانيل: الجزية والإسلام. ط4. ترجمة فوزي فهيم جاد الله. طبعة مؤسسة فرنكلين ـ بيروت 1960م.

ـ ر ـ

- رسائل إخوان الصفا: باعتناء زكي، أحمد. مطبعة دار صادر ـ بيروت 1377هـ/ 1953م.
- الروذراوري، أبو شجاع محمد بن الحسين م487هـ/ 1095م: ذيل كتاب تجارب الأمم. تحقيق هـ.ف. أمدروز. مطبعة شركة التمدن الصناعية بمصر 1334هـ/ 1916م.
- الريس، محمد ضياء الدين (الدكتور): الخراج والنظم الإسلامية. مطبعة النهضة بمصر 1957 وط. لجنة البيان العربي بمصر 1961م.

ـ ز ـ

- الزبيدي، محب الدين أبو الفيض محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي م1205هـ/ 1790م: تاج العروس من جواهر القاموس. المطبعة الخيرية بمصر 1306هـ.
- زيدان، جرجي م1332هـ/ 1914م: تاريخ التمدن الإسلامي. طبعة دار الهلال بمصر لا تاريخ للطبع.

ـ س ـ

- سالم، عبد العزيز (الدكتور): تاريخ العرب في العصر الجاهلي. دار النهضة للطباعة والنشر ـ بيروت 1970م.
- سالم، عبد العزيز (الدكتور): دراسات في تاريخ العرب ـ الجزء الأول، عصر ما قبل الإسلام. مطبعة دار المعارف ـ القاهرة 1968م.

- السامر، فيصل (الدكتور): بعض الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية في ثورة الزنج. مجلة الثقافة الجديدة العدد (2) كانون الأول 1953م.
- سرور، جمال الدين (الدكتور): النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب. مطبعة الاعتماد بمصر 1957م.
- سعد، أحمد صادق: تاريخ مصر الاجتماعي ـ الاقتصادي. دار ابن خلدون. طبعة أولى ـ بيروت 1979م.
- سيديو، ل.أ. م1875م: تاريخ العرب العام. ترجمة عادل زعيتر. مطبعة الحلبي ـ القاهرة 1367هـ/ 1948م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي م911هـ/ 1505م: تاريخ الخلفاء. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. مطبعة السعادة بمصر 1371هـ/ 1952م.

ـ ش ـ

- الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم الأشعري م548هـ/ 1153م: الملل والنحل. مطبعة الحلبي ـ القاهرة 1381هـ/ 1961م.
- الشيباني، محمد بن الحسن م189هـ/ 804م: الجامع الصغير في الفقه على هامش كتاب الخراج لأبي يوسف. المطبعة الأميرية بولاق ـ القاهرة 1302هـ.

ـ ص ـ

- الصابي، أبو الحسن الهلال بن المحسن بن إبراهيم م448هـ/ 1056م: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء. طبعة الآباء اليسوعيين ـ بيروت 1904م.
- الصابي، أبو الحسن الهلال بن المحسن بن ابراهيم م448هـ/ 1056م: رسائل الصابي. الجزء الأول. نشره شكيب ارسلان. المطبعة العثمانية ـ لبنان 1898م.
- الصولي، أبو بكر محمد بن يحي الصولي م335هـ/ 946م: أخبار الراضي. مطبعة الصاوي بمصر 1935م.
- الصولي، أبو بكر محمد بن يحي الصولي م335هـ/ 946م: أدب الكتاب. مطبعة دار الكتاب المصرية 1340هـ/ 1922م.

ـ ط ـ

ـ طاش كبرى زاده م962هـ/ 1560م: مفتاح السعادة ومصباح السيادة. مطبعة دار المعارف. حيدر أباد (الهند) 1365هـ.
ـ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري م310هـ/ 922م: اختلاف الفقهاء. مطبعة الموسوعات بمصر 1902م.
ـ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري م310هـ/ 922م: تاريخ الرسل والملوك. مطبعة الإستقامة بمصر 1357هـ/ 1932م. ومطبعة دار المعارف بمصر 1960م.
ـ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري م310هـ/ 922م: تفسير الطبري. تحقيق محمود محمد شاكر. دار المعارف بمصر 1374هـ.
ـ طيفور، أحمد بن طاهر م280هـ/ 892م: تاريخ بغداد باعتناء هـ. كلر ـ لايبزيغ 1904م.

ـ ع ـ

ـ عاقل، نبيه (الدكتور): دراسات في تاريخ العصر الأموي. مطبعة الجديدة. دمشق 1965 ـ 1966م.
ـ عروة بن الورد بن زيد العبسي م35ق. هـ/ 594م: ديوان عروة. تحقيق عبد المعين ملوحي. مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ دمشق 1966م.
ـ عريب بن سعد القرطبي م320هـ/ 932م: صلة تاريخ الطبري. مطبعة الإستقامة ـ القاهرة 1358هـ/ 1939م.
ـ العزيز، حسين قاسم (الدكتور): البابكية أو انتفاضة الشعب الأذربيجاني ضد الخلافة العباسية. ط. دار الفارابي ـ بيروت، ومكتبة النهضة ببغداد 1973م.
ـ عُلَبي. أحمد: ثورة الزنج: منشورات دار مكتبة الحياة. طبعة أولى ـ بيروت 1961م.
ـ علي. جواد (الدكتور): تاريخ العرب قبل الإسلام. مطبعة التفيض ـ بغداد 1951 ـ 1952 ومطبعة المجمع العلمي العراقي ـ بغداد 1370 ـ 1376هـ/ 1951 ـ 1957م.

- علي، جواد (الدكتور): المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. دار العلم للملايين - بيروت 1969م.
- العلي، صالح أحمد (الدكتور): التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري. مطبعة المعارف ـ بغداد 1953م.
- عليان، محمد عبد الفتاح: قرامطة العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين. المطبعة الثقافية ـ القاهرة 1970م.
- عمارة، محمد: المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية. طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت 1972م.
- عمر، فاروق (الدكتور): طبيعة الدعوة العباسية. ط. دار الإرشاد للطباعة والنشر ـ بيروت 1389هـ/ 1970م.
- عنان، محمد عبدالله: دولة إسلامية شيوعية. مجلة «الكاتب المصري» مجلد (1) عدد (2) تشرين الثاني (نوفمبر) 1945م.
- العيني، بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد العيني الحنفي م885هـ/ 1451م: عمدة القارىء في شرح صحيح البخاري. دار الطباعة العامرة. وط. إدارة الطباعة النهرية بمصر 1348هـ.

ـ غ ـ

- غولدتسيهر، أغناتس م1921م: العقيدة والشريعة في الإسلام. ترجمة محمد يوسف موسى وزملائه. مطبعة دار الكاتب المصري 1946م.

ـ ف ـ

- فازيليف، ألكسندر م1953م: العرب والروم. ترجمة الدكتور عبد الهادي شعيره ـ دار الفكر العربي. لا تاريخ للطبع.
- الفحام، ابراهيم: فضل العرب في ارتقاء المعارف البحرية. مجلة الهدف. السنة الثانية العدد (10) شباط (فبراير) مصر 1958م.

ـ ق ـ

ـ قدامة بن جعفر م320هـ/ 932م: كتاب الخراج وصنعة الكتابة. تحقيق دي غويه. مطبعة بريل ـ ليدن 1889م.

ـ القرآن الكريم.

ـ القشيري، عبد الكريم بن هوازن م465هـ/ 1072م: الرسالة القشيرية. مطبعة بولاق ـ القاهرة 1284هـ.

ـ القلقشندي، أبو العباس أحمد م821هـ/ 1418م: صبح الأعشى. ط. دار الكتب المصرية 1340هـ/ 1922م.

ـ ك ـ

ـ كاهن، كلود: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية. ترجمة الدكتور بدر الدين القاسم. دار الحقيقة للطباعة والنشر ـ بيروت 1972م.

ـ الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد م764هـ/ 1363م: فوات الوفيات. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. مطبعة السعادة بمصر 1951م.

ـ كرد علي، محمد م1372هـ/ 1953م: الإسلام والحضارة العربية. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة 1950م.

ـ كريمر، الفريد فون م1889م: الحضارة الإسلامية. ترجمة الدكتور مصطفى طه بدر. مطبعة الإعتماد بمصر 1947م.

ـ الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف م355هـ/ 966م: ولاة مصر وقضاتها. مطبعة دار المعرفة ـ القاهرة. لا تاريخ للطبع.

ـ ل ـ

ـ لاكوست، إيف: ابن خلدون. ترجمة زهير فتح الله.

ـ لسترانج، غي م1933م: بلدان الخلافة الشرقية. ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد. مطبعة الرابطة ـ بغداد 1373هـ/ 1954م.

ـ لومبار، موريس: الإسلام في فجر عظمته. ترجمة حسين العودات. مطبعة وزارة الثقافة ـ دمشق 1979م.

- لويس، برنارد: العرب في التاريخ. ترجمة نبيه فارس ومحمود يوسف زايد. مطبعة دار الكشاف ـ بيروت 1954م.

ـ م ـ

- ماجد، عبد المنعم (الدكتور): التاريخ السياسي للدولة العربية. الجزء الثاني ـ عصر الخلفاء الأمويين. مكتبة الجامعة العربية ـ بيروت 1966م.
- ماجد، عبد المنعم (الدكتور): ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر. دار المعارف بمصر 1968م.
- مالك بن أنس م179هـ/ 795م: المدونة. المطبعة الخيرية بمصر 1344هـ.
- مالك بن أنس م179هـ/ 795م: الموطأ. تصحيح محمد فؤاد عبد الباقي. مطبعة الحلبي بمصر 1370هـ/ 1960م.
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي م450هـ/ 1085م: الأحكام السلطانية والولايات الدينية. مطبعة الحلبي ـ القاهرة 1380هـ/ 1960م.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد م285هـ/ 898م: الكامل في اللغة والأدب ـ لندن 1866 ـ 1881م.
- متز، آدم م1917م: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري. ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة. ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة 1359هـ/ 1940م.
- مروة، حسين (الدكتور): النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، جزءان. دار الفارابي ـ بيروت 1978 ـ 1979م.
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي م346هـ/ 955م: التنبيه والإشراف. مطبعة بريل ـ ليدن 1893م.
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي م346هـ/ 955م: مروج الذهب. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. مطبعة السعادة بمصر 1367هـ/ 1948م.
- مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد م421هـ/ 1030م: تجارب الأمم. باعتناء هـ. ف. آمدروز. طبعة شركة التمدن الصناعية بمصر 1332هـ/ 1914م.

ـ مصطفى، شاكر: في التاريخ العباسي، الجزء الأول. مطبعة خالد بن الوليد ـ دمشق 1973م.

ـ المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الشافعي المعروف بالبشاري م بعد 375هـ/ 985م: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. مطبعة بريل ـ ليدن 1906م.

ـ المقدسي، مطهر بن طاهر م350هـ/ 961م: البدء والتاريخ. مطبعة شالون (فرنسا) 1899 ـ 1907م.

ـ المقري، أحمد بن محمد المقري التلمساني م1041هـ/ 1631م: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. تحقيق الدكتور إحسان عباس. طبعة دار صادر ـ بيروت 1388هـ/ 1968م.

ـ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي م45هـ/ 1441م: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا. تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال. مطبعة شركة الإعلان الشرقية ـ القاهرة 1387هـ/ 1967م.

ـ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي م845هـ/ 1441م: إغاثة الأمة بكشف الغمة. إصدار دار ابن الوليد بحمص 1956م.

ـ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي م845هـ/ 1441م: الخطط والآثار. دار الطباعة بمصر 1270هـ.

ـ الملطي، أبو الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الشافعي م377هـ/ 987م: التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ـ بغداد 1968م.

ـ مؤلف مجهول: أخبار الدولة العباسية. تحقيق الدكتور عبد العزيز الدوري والدكتور عبد الجبار الطلبي. ط. دار الطليعة ـ بيروت 1976م.

ـ مؤلف مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق. تحقيق عمر السعيدي. دمشق 1972 ـ 1973م.

ـ المناوي، عبد الرؤوف م1031هـ/ 1622م: الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية. الجزء الأول. لا مكان ولا تاريخ للطبع.

ـ ن ـ

ـ ناجي، زهير: تعليم التاريخ. دراسة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في كلية التربية بجامعة دمشق 1977م.
ـ النجار، محمد الطيب: الموالي في العصر الأموي. مطبعة دار النيل بمصر 1368هـ/ 1949م.
ـ النشار، علي سامي (الدكتور): نشأة الفكر الفلسفي. مطبعة دار المعارف ـ القاهرة 1969م.
ـ نشوان بن سعيد الحميري، أبو سعيد م573هـ/ 1178م: الحور العين. مطبعة دار السعادة بمصر 1948م.
ـ النوبختي، أبو محمد الحسن بن موسى م310هـ/ 922: فرق الشيعة. المطبعة الحيدرية ـ النجف 1379هـ/ 1951م.
ـ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب م733هـ/ 1333م: نهاية الأرب في فنون الأدب. مخطوط مصور بدار الكتب المصرية برقم 549معارف عامة.
ـ النيسابوري. أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي م410هـ/ 1019م: أسباب النزول، مطبعة هندية بمصر 1315 ـ 1316هـ.

ـ هـ ـ

ـ الهمذاني، محمد بن عبد الملك م521هـ/ 1127م: تكملة تاريخ الطبري. تحقيق البرت يوسف كنعان. المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت 1961م.

ـ و ـ

ـ الواقدي، أبو عبدالله محمد بن عمر الواقدي م207هـ/ 822م: مغازي رسول الله. مطبعة السعادة بمصر 1367هـ/ 1948م.
ـ وزارة الثقافة والإرشاد القومي. سلسلة كتب قومية (9): كيف نكتب تاريخنا القومي. تحقيق مجلة المعرفة. مطبعة وزارة الثقافة ـ دمشق 1966م.
ـ الوشاء، أبو الطيب محمد بن إسحق بن يحي الوشاء م325هـ/ 936م: كتاب الموشى. مطبعة الاعتماد بمصر 1373هـ/ 1953م.

ـ ولهاوزن، يوليوس م1918م: تاريخ الدولة العربية. ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة 1968م.

ـ ي ـ

ـ ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي م626هـ/ 1228م: ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب (معجم الأدباء) ـ مطبعة الحلبي ـ القاهرة 1355 ـ 1357هـ/ 1936 ـ 1938م.
ـ ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي م626هـ/ 1228م: معجم البلدان. مطبعة دار صادر ـ بيروت 1955 وطبعة لايبزيغ 1868م.
ـ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن واضح المعروف باليعقوبي م284هـ/ 897م: تاريخ اليعقوبي. مطبعة دار صادر ـ بيروت 1379هـ/ 1960م.
ـ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن واضح المعروف باليعقوبي م284هـ/ 897م: كتاب البلدان باعتناء دي غويه. مطبعة بريل ـ ليدن 1891م.

المحتويات

الفصل الأول

علم التاريخ: أهميته ومفاهيمه

المؤرخون العرب ـ الاسلاميون

بين المثالية والموضوعية

الفصل الثاني

المقدمات الاجتماعية ـ الاقتصادية لظهور الاسلام

الفصل الثالث

تفجر الصراعات بين فئات الجماعة الإسلامية

الفصل الرابع

قيام الدولة الأموية

انتصار العلاقات الاقطاعية

الفصل الخامس

النظام المالي ومسألة الأراضي

الفصل السادس

النشاط البشري

الزراعة - الحرفة - التجارة

الفصل السابع

المجتمع العربي - الإسلامي

الفصل الثامن

الحركات الشعبية

الفصل التاسع
الخطوط العريضة لسياسة العباسيين وتنكرهم لبرنامجهم السياسي والاجتماعي

الفصل العاشر
نظام الأراضي وتعزز العلاقات الاقطاعية

الفصل الحادي عشر
النظام المالي والضريبي

الفصل الثاني عشر
الاقتصاد العباسي
الزراعة ـ الحرفة ـ التجارة

الفصل الثالث عشر
النظام الاجتماعي والمجتمع العباسي

الفصل الرابع عشر
الحركات الشعبية

الفصل الخامس عشر
ايديولوجية دولة الخلافة وموقف الأحزاب
من الحكم الأموي

الفصل السادس عشر
ايديولوجية الدولة العباسية وموقف الأحزاب

صدر للمؤلف

حضارة مصر والعراق في العصور القديمة وما قبل التاريخ: دار الفارابي، 1989.
جزيرة العرب قبل الإسلام 1/2، دار الفاربي، 1989.